

أ.ب. كلوت بك

رحلة عامة إلى مصر

- الشريعة الإسلامية والعدل في مصر
- العادات والتقاليد وموقع المرأة
- المعتقدات الدينية ودور الأقليات
- الحكومة والأنظمة السياسية
- تنظيم الجيش .. التعليم والصحة
- الاقتصاد والتجارة داخليا وخارجيا
- السكان والمساكن والمدن والقرى
- استيعاب المصري لأنظمة الحكم من عهد قبل الأسرات حتى سلاطين الدولة العثمانية

ترجمة وتحرير

محمد مسعود



دار

الحياة الجديدة

إهداء ٢٠٠٧

أسرة المرحوم الدكتور / السيد عبد الحليم الزيات
جمهورية مصر العربية

لمحة عامة إلى مصر

اسم الكتاب : لمحة عامة إلى مصر

اسم الكاتب : أ.ب. كلوت بك

اسم المترجم : محمد مسعود

الطبعة : الثالثة عام : ٢٠٠١



دار

الناشر:

الوقف العربي

للصحافة والنشر والتوزيع

٣٨ ش قصر العينى

ت : ٧٩٦١٥٢٣ - ٧٩٦١٥٤٤

٧٩٦١٥٢٢

فاكس : ٧٩٥٦٤٢٤

رقم الإيداع :

٢٠٠٠ / ١٨٧٨٠

ISBN 977 - 251 - 022 - 7

أ.ب. كلوت بك

لمحة عامة إلى مصر

ترجمة وتحرير:

محمد مسعود

- * الشريعة الإسلامية والعدل في مصر.
- * العادات والتقاليد وموقع المرأة.
- * المعتقدات الدينية ودور الأقليات.
- * الحكومة والأنظمة السياسية.
- * تنظيم الجيش .. التعليم والصحة.
- * الاقتصاد والتجارة داخليا وخارجيا.
- * السكان والمساكن والمدن والقرى.
- * استيعاب المصري لأنظمة الحكم من عهد قبل الأسرات حتى سلاطين الدولة العثمانية.

الناشر:
دار الوقف العثماني
طبعة عام ٢٠٠١

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع	٢
١١	تمهيد	
١٧	تمهيد تاريخي - العصر الفرعوني	
١٧	العصور الجغرافية	١
١٧	العصور التاريخية	٢
١٩	جدول الأسر المصرية	٣
٢٠	من الأسرة الأولى إلى فتح الملوك الرعاة	٤
٢٠	غارة عرب الرعاة	٥
٢١	الأسرة الثامنة عشرة	٦
٢٢	سيزوستريس	٧
٢٢	شوكة مصر في عهد سيزوستريس	٨
٢٢	غارة الأثيوبيين الحبشان	٩
٢٣	الأسرة السادسة والعشرون وفتوحات الفرس	١٠
٢٥	ديانة قدماء المصريين	١١
٢٩	حالة قدماء المصريين وحكومتهم وقوانينهم	
٢٩	الطبقات	١٢
٢٩	الكهان	١٣
٣٠	طبقة الجند	١٤
٣١	طبقة الشعب	١٥
٣١	الملك	١٦
٣٢	الحكومة	١٧
٣٣	القوانين	١٨
٣٤	العلوم	١٩
٣٤	الزراعة والصناعة والفنون والتجارة	٢٠
٣٥	قمبيز	٢١
٣٦	خلفاء قمبيز	٢٢
٣٦	الأسرات الوطنية الأخيرة	٢٣
٣٧	البطالسة	٢٤

محتويات الكتاب		
م	الموضوع	الصفحة
٢٥	الحكم الرومانى	٢٩
٢٦	حكم الخلفاء والسلاطين من المماليك	٤٢
	حكم الأتراك	٤٥
	الحملة الفرنسية	٤٨
	حكومة محمد على	٥٣
	محمد على وأسرته	٧٢
	إبراهيم باشا	٧٦
	الباب الأول	
	لمحة طبيعية. الوضع والشكل	
	والحدود والأقسام الجغرافية	
١	الوضع والشكل والحدود	٨٥
٢	الأقسام الجغرافية	٨٦
٣	المسطح	٨٦
	شكل الأرض وتكوينها الجيولوجى	٨٧
٤	الأرض القابلة للزراعة وشكلها	٨٧
٥	تكوين الأراضى القابلة للزراعة	٨٧
٦	طمي النيل	٨٨
٧	أشكال الأرض الزراعية	٨٩
٨	الجبال وأشكالها	٩٠
٩	ارتفاعها وانحدارها العام	٩١
١٠	التكوين الجيولوجى	٩٢
١١	الصحارى وتكوينها	٩٢
١٢	الواحات	٩٣
١٣	منظر الصحراء	٩٤
	الطقس والأتسار الجوية	
١٤	الفصول	٩٥

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٩٥	درجة الحرارة	١٥
٩٦	السراب	١٦
٩٦	الرياح	١٧
٩٧	الخماسين	١٨
٩٨	النسيم	١٩
٩٨	الضباب	٢٠
٩٨	السحب	٢١
٩٩	الندى	٢٢
٩٩	النقطة	٢٣
٩٩	الرطوبة	٢٤
١٠٠	العثير	٢٥
١٠٠	الإعصار	٢٦
١٠٠	المطر	٢٧
١٠١	الثلج	٢٨
١٠١	البرد	٢٩
١٠٢	درجة الحرارة	٣٠
١٠٣	الاختلافات الجوية	٣١
١٠٣	ينابيع النيل	٣٢
١٠٤	الشلالات	٣٣
١٠٤	مجرى النهر	٣٤
١٠٤	ضفاف النيل	٣٥
١٠٥	أقطار النهر	٣٦
١٠٧	الفيضان	٣٧
١٠٧	قطع الخليج	٣٨
١٠٨	تيار ماء النيل	٣٩
١٠٩	حجم الماء	٤٠
١٠٩	أيام التحريق	

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
١٠٩	أيام الفيضان	
١٠٩	المقياس	٤١
١١٠	انحسار الماء	٤٢
١١١	مياه الرشح	٤٣
١١٢	أنواع مياه النيل	٤٤
	بحيرات مصر	
١١٢	البحيرات المتصلة بالبحر الأبيض	٤٥
١١٣	بحيرة مريوطيس أو مريوط	٤٦
١١٣	بحيرة المعدية	٤٧
١١٤	بحيرة إدكو	٤٨
١١٤	بحيرة البرلس	٤٩
١١٤	بحيرة المنزلة	٥٠
١١٤	بحيرة البلح	٥١
١١٥	سبخة بردويل	٥٢
١١٥	بحيرة عامر	٥٣
١١٥	بحيرات النطرون	٥٤
١١٦	بحيرة مريس أو بركة قارون	٥٥
	الباب الثاني	
	التاريخ الطبيعي	
	«المواليد الثلاثية»	
	المعادن	
١٢١	تقسيم المعادن	١
١٢١	التكوين الجيولوجي والمعدني للجبال	٢
١٢١	الجرانيت أو الصوان	٣
١٢٢	الأحجار الجصية	٤
١٢٢	الأحجار الكلسية	٥
١٢٣	المواد المجلوبة بالتيارات إلى مصر	٦

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
١٢٣	الأبرش المصرى الأخضر	٧
١٢٤	محاجر الرخام	٨
١٢٤	أحجار الزمرد	٩
١٢٥	الحشب المتحجر	١٠
١٢٥	الحيوانات المتحجرة	١١
١٢٥	الأحجار المختلفة	١٢
١٢٦	المعادن	١٣
١٢٦	الكبريت وزيت البترول والجبس	١٤
١٢٦	الفحم الحجرى	١٥
١٢٧	النطرون	١٦
١٢٧	النتر	١٧
١٢٨	الشب	١٨
١٢٨	معادن مصر ليست أصلية	١٩
	النباتات	
١٢٨	مقدمة	٢٠
١٢٩	عموميات	٢١
١٣٠	نباتات الصحراء	٢٢
١٣٢	الأرض الصالحة للزراعة فى القطر المصرى	٢٣
١٣٣	حدائق شبرى = شبرا = والروضة	٢٤
١٣٤	حدائق الشرق	٢٥
١٣٦	الغابات	٢٦
١٣٦	تبلید نباتات أوربا الجنوبية	٢٧
١٣٧	النباتات الأجنبية التى أدخلت فى حدائق أصحاب السمو	٢٨
١٣٩	زراعة الزيتون	٢٩
١٤٠	الأشجار الأجنبية	٣٠
١٤٢	أشجار الفواكة الأهلية	٣١

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
١٤٨	أشجار الفاكهة والنباتات التي أدخلت حديثاً	٣٢
١٥٠	النباتات الحبوبية النجيلية	٣٣
١٥٢	الحبوب غير النجيلية	٣٤
١٥٤	الخضروات والنباتات البقلية	٣٥
١٥٧	النباتات النسيجية	٣٦
١٥٩	نباتات ألوان الصناعة	٣٧
	حيوانات مصر	
١٦١	عموميات	٣٨
	الحيوانات الشديدة	
١٦٢	الحيوانات الأهلية الداجنة	
١٦٢	الحصان	٤٥
١٦٣	الحمار	٤٦
١٦٣	البغل	٤٧
١٦٤	الجمال	٤٨
١٦٤	البقر	٤٩
١٦٥	الجاموس	٥٠
١٦٥	الضأن	٥١
١٦٦	الماعز	٥٢
١٦٦	الكلب	٥٣
١٦٧	القط أو السنور	٥٤
١٦٨	الذئب	٥٥
١٦٨	الثعلب	٥٦
١٦٨	ابن أوى	٥٧
١٦٨	الضبع	٥٨
١٦٩	الخنزير البرى	٥٩
١٦٩	فرس البحر	٦٠
١٦٩	الغزال	٦١

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
١٧٠	الدمان	٦٢
١٧٠	القرد	٦٣
١٧٠	القنفذ	٦٤
١٧٠	الدروال	٦٥
١٧١	النمس	٦٦
١٧١	القط النمرى	٦٧
١٧١	اليربوع أو الدرص أو ذو الرضيع	٦٨
١٧٢	الفأروالسيى	٦٩
١٧٢	الأرنب	٧٠
	الطيور	
	الطيور الداجنة	
١٧٣	الدجاج	٧١
١٧٣	الدجاج الهندى	٧٢
١٧٣	الحمام	٧٣
١٧٤	الأوز	٧٤
	الطيور الجارحة	
١٧٤	الحدأة الرخمية	٧٥
١٧٤	الصقر أو البازى	٧٦
١٧٤	العقاب	٧٧
١٧٤	العقاب الصياد	٧٨
١٧٥	النسر	٧٩
١٧٥	نوعان من الحدأة	٨٠
١٧٥	الحدأة المعروفة باسم الأنيون	٨١
١٧٥	الباشق	٨٢
١٧٥	الصقر الشاهينى	٨٣
١٧٥	الخفاش والوطواط	٨٤
١٧٦	عصافير الشوك	٨٥

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
١٧٧	الطيور المتسلقة	٨٦
١٧٧	الطيور التي من نوع الدجاج	٨٧
١٧٧	الطيور المعروفة بطول سوقها	٨٩
١٧٨	الحشرات	٩٠
١٧٩	الأصداف البحرية	٩١
١٧٩	الهوام والأفاعى الرحالة	٩٢
	الأسماك	
١٨٢	عموميات	٩٣
١٨٣	أسماء بعض أسماك النيل	٩٤
١٨٦	سكان مصر المختلفون	٩٥
١٨٦	الأقباط	٩٦
١٨٧	المصريون المسلمون	٩٧
١٨٨	البدو أو العربان	٩٨
١٨٨	البرابرة	٩٩
١٨٨	اليهود	١٠٠
١٨٨	اليونان أو الإغريق	١٠١
١٨٩	السوريون أو الشوام	١٠٢
١٨٩	الأحباش	١٠٣
١٨٩	الأثيوبيون	١٠٤
١٩٠	الأوروبيون	١٠٥
	الباب الثالث	
	السكان والمساكن والمدن والقرى في مصر	
	«السكان»	
١٩٣	سكان القطر المصري في العصور	١
١٩٤	السكان الحاليون	٢
١٩٥	أسباب قلة عدد السكان في مصر	٣
١٩٧	محمد على ووسائل زيادة السكان	٤

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
١٩٩	موانع ظهور الإصلاحات التي قام بها الوالى منازل السكنى والمجانى	٥
٢٠١	منازل المدن	٦
٢٠١	المظهر الخارجى للمساكن	٧
٢٠٢	باب الدخول	٨
٢٠٢	الشبابيك الحديدية	٩
٢٠٣	السطوح	١٠
٢٠٣	صحن الدار	١١
٢٠٣	حجرة النساء	١٢
٢٠٣	المميزات الخاصة	١٣
٢٠٥	الخوانيت	١٤
٢٠٥	منازل القرى	١٥
٢٠٥	المساجد	١٦
٢٠٦	الأسبلة والأحواض والحمامات	١٧
٢٠٧	القهوات والأسواق والوكائل	١٨
٢٠٧	المدن والقرى المصرية	١٩
	التقسيمات الأرضية	
٢٠٨	التقسيمات فى الأزمان القديمة	٢٠
٢٠٨	التقسيمات فى عهد المماليك	٢١
٢٠٩	التقسيمات الحالية	٢٢
٢٠٩	المديرلكية = المديرية = الأولى	٢٣
٢٠٩	المديرلكية الثانية	٢٤
٢٠٩	المديرلكية الثالثة	٢٥
٢١٠	المديرلكية الرابعة	٢٦
٢١٠	مديرلكية مصر الوسطى	٢٧
٢١٠	الوجه القبلى والصعيد	٢٨
	أشهر مدائن القطرى المصرى حاليا	

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٢١٠	الإسكندرية	٢٩
٢١٦	أبوقير	٣٠
٢١٧	رشيد	٣١
٢١٨	دمياط	٣٢
٢١٩	دمنهو	٣٣
٢١٩	الرحمانية	٣٤
٢١٩	فوه	٣٥
٢١٩	المنصورة	٣٦
٢١٩	المحلة الكبرى	٣٧
٢٢٠	طنطا	٣٨
٢٢١	مدائن الوجه البحرى الأخرى	٣٩
٢٢٢	القاهرة	٤٠
٢٢٩	بنى سويف	٤١
٢٣٠	مدينة الفيوم	٤٢
٢٣٠	فيد يمين	٤٣
٢٣٠	المنيا	٤٤
٢٣١	الأشمونيين	٤٥
٢٣١	منفلوط	٤٦
٢٣١	أسيوط	٤٧
٢٣١	أخميم	٤٨
٢٣١	جرجا	٤٩
٢٣٢	قنا	٥٠
٢٣٢	قوص	٥١
٢٣٢	إسنا	٥٢
٢٣٢	أسوان	٥٣
٢٣٣	ثغرالسويس	٥٤
٢٣٤	القصير	٥٥

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
٢٣٤	المسافات بين بعض مدن القطر المصري الباب الرابع الديانات والمذاهب الشائعة في القطر المصري	
٢٣٧	الإسلام وقواعده	١
٢٣٨	القرآن	٢
٢٣٨	الوحدانية ورسالة محمد	٣
٢٣٩	الملائكة	٤
٢٣٩	البعث ويوم الحساب	٥
٢٣٩	الجنة	٦
٢٤٠	جهنم	٧
٢٤٠	المطهر	٨
	آداب الإسلام	
٢٤٠	الفضائل	٩
٢٤١	التقوى	١٠
٢٤٢	القضاء والقدر	١١
٢٤٣	صلة الرجل بالمرأة	١٢
	العبادات	
٢٤٣	الصلوات اليومية الخمس	١٣
٢٤٤	التطهر	١٤
٢٤٥	المساجد	١٥
٢٤٦	النظار والأئمة	١٦
٢٤٧	رمضان	١٧
٢٤٨	عيد الفطر والأضحى	١٨
٢٤٨	الحج	١٩
٢٥٠	الأولياء	٢٠
٢٥٠	المذاهب الأربعة	٢١

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٢٥٠	أداء فروض الدين عند المسلمين	٢٢
٢٥١	الأغذية المحرمة	٢٣
٢٥٢	واجبات الدين للنساء	٢٤
٢٥٢	القرآن والتسامح نحو النصارى	٢٥
	الديانات الأخرى والمذاهب المختلفة	
٢٥٣	اليهود	٢٧
٢٥٣	الأقباط اليعاقة	٢٨
٢٥٤	الأقباط الكاثوليك	٢٩
٢٥٤	اليونان المنشقون	٣٠
٢٥٤	اليونان الكاثوليك	٣١
٢٥٤	الأرمن	٣٢
٢٥٥	الكاثوليك اللاتين	٣٣
٢٥٥	العداوات بين المذاهب المسيحية	٣٤
	الباب الخامس	
	الشريعة الإسلامية وإدارة العدل فى مصر	
	الشرائع والقوانين المدنية	
٢٥٩	الشريعة الإسلامية	١
٢٦٠	سن الرشد	٢
٢٦٠	الزواج والطلاق	٣
٢٦٠	حقوق الأب	٤
٢٦٠	الأوصياء	٥
٢٦١	المدينون والمفلسون	٦
٢٦١	الحجر	٧
٢٦١	التسليف على رهن	٨
٢٦١	الهبة	٩
٢٦١	الوراثة	١٠
	الجنايات والعقوبات	
٢٦٢	سب الدين	١١

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٢٦٢	القتل	١٢
٢٦٢	الضرب والجرح	١٣
٢٦٣	الزنا	١٤
٢٦٣	السرقه	١٥
٢٦٣	الردة	١٦
	نظام القضاء	
٢٦٣	القضاة	١٧
٢٦٤	المحكمة	١٨
٢٦٤	تنفيذ القوانين	١٩
٢٦٥	العقود العمومية	٢٠
٢٦٥	المصاريف القضائية	٢١
٢٦٥	القانون العسكرى	٢٢
٢٦٦	سلطة الباشوات الاستبدادية	٢٣
٢٦٦	العقوبات	٢٤
٢٦٧	القضاء عند الإفرنج	٢٥
	الباب السادس	
	أخلاق المسلمين وعاداتهم	
	الطبقات الاجتماعية	
٢٧١	اعتبارات عامة	١
٢٧٢	الأتراك والعرب	٢
٢٧٣	الطبقات الاجتماعية عند المصريين	٣
	الأسرة الإسلامية	
٢٧٤	الأخلاق والعادات	٤
٢٧٤	السلطة الأبوية	٥
٢٧٥	احترام الزوجة لرب الأسرة	٦
٢٧٥	احترام الأبناء لأبائهم	٧
٢٧٥	السلطة التي لأكبر الأبناء على إخوته	٨

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٢٧٦	احترام الصغير للكبير والرئيس للمرءوس الرق في الشرق	٩
٢٧٧	الرق في الغرب	١٠
٢٧٧	الرق في الشرق	١١
٢٧٨	الرقيق الأبيض	١٢
٢٧٨	الرقيق الأسود	١٣
٢٧٨	حالة الأرقاء	١٤
٢٨٠	الرقيق من النساء	١٥
٢٨١	ديانة الأرقاء	١٦
٢٨١	معاملة الأوربيين للأرقاء في مصر	١٧
٢٨٣	مقتبسات في الرق وتجارته والعق الرجال	١٨
٢٨٦	فصل الرجال عن النساء	١٩
٢٨٦	الصفات الجثمانية	٢٠
٢٨٧	الفضائل النفسية والعقلية	٢١
٢٨٧	القناعة	٢٢
٢٨٨	الصدقة أو الإحسان	٢٣
٢٨٨	الشجاعة والتوكل	٢٤
٢٨٩	حب المصريين أوطانهم	٢٥
٢٨٩	الكسل	٢٦
٢٩٠	عزة الدين	٢٧
٢٩٠	الجهل	٢٨
٢٩٠	التعنت وصلابة الرأي	٢٩
٢٩١	المنازعات والانتقام	٣٠
٢٩٢	الميل إلى المجون والمطايبة	٣١
٢٩٢	الثياب	٣٢

محتويات الكتاب

م	الموضوع	الصفحة
٣٣	لباس الممالك	٢٩٥
٣٤	اللباس الجديد	٢٩٥
٣٥	الحذاء	٢٩٦
٣٦	أفكار وخواطر في الزي الحديث	٢٩٧
٣٧	ثياب الفلاحين	٢٩٩
٣٨	عادات المصريين في تدبير الشعر	٢٩٩
٣٩	النظافة والوساخة	٣٠٣
٤٠	الحمامات	٣٠٥
٤١	استخدام الوقت والأشغال	٣٠٩
٤٢	التوم وطريقة الرقاد	٣١٠
٤٣	أصوات النداء والتعجب والاستفهام .. الخ	٣١٢
٤٤	الخدم	٣١٣
	النساء	
٤٥	النساء المصريات	٣١٥
٤٦	وسائل الزينة والتبرج	٣١٦
٤٧	الوشم أو الدق	٣١٧
٤٨	خفض النساء أى (ختانهن)	٣١٧
٤٩	النساء التركيات	٣١٧
٥٠	لباس السيدات الغنيات	٣١٧
٥١	التغيرات التى أدخلت على نساء الأغنياء	٣٢٠
٥٢	نساء الطبقة الوسطى	٣٢١
٥٣	نساء الطبقة الدنيا	٣٢١
٥٤	مساكن النوم والحرم	٣٢١
٥٥	الهيئة التى يتألف الحرم منها	٣٢٢
٥٦	المعيشة فى الحرم	٣٢٤

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
٣٢٤	امتياز النساء بالنجدة	٥٧
٣٢٥	زيارة سيدات الحرم	٥٨
٣٢٥	أشغال النساء	٥٩
٣٢٦	رأى النساء في حالتهم	٦٠
٣٢٦	عادة الاستحمام في الحمامات	٦١
٣٢٦	حكاية نابليون بونابرتة	٦٢
٣٢٧	طبائع النساء وأخلاقهم	٦٣
	العاشرات	٦٤
٣٢٨	الخصيان	٦٥
٣٢٩	معاهد الجب	٦٦
٣٣٠	عملية الجب	٦٧
٣٣٠	تعظيم الخصيان	٦٨
٣٣٠	العلاقات المميزة للخصيان	٦٩
	منع الجب	٧٠
	الزواج وتعدد الزوجات والطلاق	٧١
٣٣١	الزواج	٧٢
٣٣٢	تعدد الزوجات في مصر	٧٣
	الطلاق	٧٤
٣٣٣	أسباب تعدد الزوجات والطلاق	٧٥
	الأطفال	
٣٣٤	العناية الأولى بهم	٧٦
٣٣٥	تربية الأطفال	٧٧
	الأغذية وآداب الطعام	
٣٣٧	الغذاء	١
٣٣٩	ألوان الطعام	٢

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
٣٤٠	الترتيب المتبع في تقديم أصناف الأطعمة	٣
٣٤١	المشروبات	٤
	قهوة البن	٥
٣٤٢	الشربات	٦
٣٤٢	الحشيش	٧
٣٤٣	الأفيون	٨
٣٤٤	وجبات الطعام	٩
٣٤٥	الأنية والأوعية المستعملة في الطعام	١٠
٤٣٦	آداب الطعام	١١
٣٤٨	الاقتداء بالأوروبيين في تناول الطعام	١٢
	طعام الفلاحين	١٣
٣٤٨	الآداب	
٣٤٩	ملحوظات عامة	١٤
٣٥٠	المنظرة والدركة	١٥
٣٥٠	الليوان	١٦
٣٥٠	الديوان	١٧
٣٥١	زخرفة الجدران والسقوف	١٨
٣٥٢	الرفارف والبراويز	١٩
٣٥٢	زجاج الشبابيك والمفروشات	٢٠
٣٥٤	الأدوات الأخرى لتأثيث المنازل	٢١
	أثاث الفقراء	٢٢
	آداب الاجتماع	
٣٥٤	بيانات عامة	٢٣
٣٥٥	التحية	٢٤
٣٥٦	القواعد المرعية في الاستقبال بالديوان	٢٥

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٣٥٨	قهوة البن	٢٦
٣٦٠	الشبك = الشيشة =	٢٧
	الختان أو الطهارة	٢٨
٣٦٣	قدّم الاحتفال بالختان	٢٩
٣٦٣	الاحتفال بالختان	
	الزواج	٣٠
٣٦٥	ميل المصريين إلى الزواج	٣١
٣٦٥	السن المعينة للزواج	٣٢
٣٦٦	الزواج المحرم	٣٣
٣٦٦	مقدمات الزواج	٣٤
٣٦٧	حفلات الزفاف	٣٥
٣٦٨	فض البكارة	
	الوفاة والأجازة	٣٦
٣٧٠	الوفاة	٣٧
٣٧٠	حزن الأهل	٣٨
٣٧١	الكفن	٣٩
٣٧٣	القبور والمقابر	٤٠
٣٧٤	احترام المسلمين للموتى	٤١
٣٧٤	الحداد	٤٢
٣٧٤	الجن	٤٣
٣٧٥	الأولياء	٤٤
٣٧٩	الدراويش	٤٥
٣٧٩	الحسد أو النظر أو العين	٤٦
٣٧٩	الأحجية	٤٧
٣٨٠	الأحلام	٤٨

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
٣٨٠	أيام السعود والنحوس	٤٩
٣٨١	التنبؤ بالمستقبل	٥٠
٣٨٢	السحر	٥١
٣٨٢	التنجيم	٥٢
٣٨٣	علم الكيمياء	٥٣
٣٨٤	البوهيميون أو الفجر	٥٤
٣٨٤	حياة الثعابين	٥٥
٣٨٥	الاعتقادات الباطلة والخزعبلات	٥٦
٣٨٦	المرأة المتنبئة ومحمد على	
	الآداب اللغوية	
٣٨٨	الآداب اللغوية العربية	٥٧
٣٨٩	قصة أبي زيد الهلالي	٥٨
٣٩٠	المحدثون	٥٩
٣٩١	الشعر	٦٠
٣٩٢	الأنشيد المصرية	٦١
	الموسيقى	
٣٩٢	الموسيقى العربية	٦٢
٣٩٤	استعداد المصريين لسماع الموسيقى	٦٣
٣٩٥	آلات الموسيقى عند المصريين	٦٤
٣٩٥	المغنون المصريون	٦٥
٣٩٦	الموسيقى الأوربية في الجيش المصرى	٦٦
	الرقص	
٣٩٨	الرقص المصرى	٦٧
٤٠٠	الراقصات	٦٨
	الراقصون	٦٩

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٤٠٢	الألعاب والرياضات والمشعوذون	
٤٠٣	الألعاب الحسائية	٧٠
٤٠٤	الرياضة البدنية	٧١
٤٠٥	ركوب الخيل	٧٢
٤٠٦	الحواة والمشعوذون	٧٣
	الأعياد والحفلات العمومية	٧٤
	بيانات تفصيلية عن الأخلاق	
٤٠٩	الشجاعة	٧٥
٤١٠	الصوص	٧٦
٤١١	المحكوم عليهم	٧٧
٤١١	القتل	٧٨
٤١١	الشغب والفتنة	٧٩
٤١٢	تنفيذ أحكام الإعدام	٨٠
٤١٣	الانتحار	٨١
٤١٤	المبارزة	٨٢
	نظرة في العناصر الأخرى من	
	سكان مصر العربان	
٤١٧	قبائل العربان	١
٤١٧	شغب العربان بالصحراء	٢
٤١٨	صفاتهم وطباعهم	٣
٤١٩	قناعتهم	٤
٤١٩	مكارم أخلاقهم وجميل عاداتهم	٥
٤١٩	تربيتهم ونظامهم	٦
٤٢٠	حروبهم	٧
٤٢١	حريتهم الدينية	٨

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٤٢١	تربيتهم العقلية	٩
٤٢٢	السنيرة	١٠
٤٢٤	العريان الأدلاء	١١
٤٢٥	سرقاات العربان وقطعهم الطريق	١٢
	مكافحة محمد على لهم	١٣
٤٢٧	تنظيم جيوش فرسان العرب بهيئة جيوش غير	١٤
٤٢٧	نظامية	
٢٢٧	فضائل العرب الرحل	١٥
	الحكومة في مصر	
٤٢٨	أترك مصر	١٦
٤٢٩	صفاتهم النفسية	١٧
٤٢٩	ازدهارهم بأنفسهم وصلفهم	١٨
٤٣١	شعور الأترك نحو الأوربيين	١٩
٤٣٣	الإسلامبولية وأترك أوربا والانوود	٢٠
	والعثمانيون والآسيون والماليك	
	الأقباط	
٤٣٥	نتائج فتح المسلمين لمصر وتأثيرها في حالة الأقباط	٢١
٤٣٥	طبائعهم وأخلاقهم	٢٢
٤٣٦	ملابسهم	٢٣
٤٣٦	إيمانهم الديني	٢٤
٤٣٧	كنائسهم	٢٥
٤٣٨	الحج إلى بيت المقدس	٢٦
٤٣٩	الإكليروس القبطي	٢٧
٤٣٩	الزواج وتشجيع الجنازات	٢٨
	صناعات الأقباط وحرفهم	٢٩

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
	اليهود والأرمن واليونان والسوريون	
٤٤٠	الفقر الظاهري لليهود	٣٠
٤٤٠	أخلاقهم	٣١
٤٤١	بُغض المسلمين عن اليهود واحتقارهم لهم	٣٢
٤٤١	يهود دمشق	٣٣
٤٤٢	الصناعات التي يمارسها اليهود	٣٤
٤٤٢	الأرمن	٣٥
٤٤٣	اليونان	٣٦
٤٤٤	السوريون	٣٧
	الحالة السياسية للرعية	٣٨
	الفرنجة	
٤٤٧	القناصل	٣٩
٤٥٠	التجار بالجملة	٤٠
٤٥٠	التجار بالقطاعي	٤١
٤٥١	أرباب الصنائع والحرف	٤٢
٤٥١	موظفو الحكومة	٤٣
٤٥١	طباع الإفرنج وأخلاقهم	٤٤
٤٥٢	الرحالة والمسافرون	٤٥
٤٥٤	تأثير الزيارة في نفوس السياح	٤٦
٤٥٦	اصحاب المشروعات	٤٧
٤٥٩	لوم يستحقه السياح	٤٨
٤٦٠	نصائح إلى الرحالة والمسافرين	٤٩
٤٦٣	صفات أقوام الإفرنج وطباعهم	٥٠
	السباب الثامن	
	الحكومة والانظمة السياسية	
٤٦٥	أسباب ظهور الحركة المدنية في الشرق منذ هذا القرن	١

محتويات الكتاب		
م	الموضوع	الصفحة
٢	الحكومة في مصر الوظائف الإدارية الكبرى التي استحدثتها سمو السوالى	٤٧٢
٣	الموظفون الجدد	٤٧٥
٤	اختصاصات هؤلاء الموظفين	٤٧٦
٥	البوليس والشرطة	٤٧٨
٦	الموارد المالية لوالى مصر القواعد التي أقام عليها محمد على شوكته الملكية	٤٧٩
٧	تشكيل الملكية في الشرق	٤٨٠
٨	حالتها في مصر منذ الفتح الإسلامى إلى الفتح العثمانى	٤٨٠
٩	حالتها على عهد المماليك	٤٨١
١٠	التغيير العظيم الذى تم على يد محمد على	٤٨٣
١١	أفكار وخواطر في النظام الحالى للملكية الاقتصادية	٤٨٤
١٢	الغرض من الاحتكار	٤٨٥
١٣	قدمه في مصر	٤٨٥
١٤	سبب ضرورته	٤٨٧
	الضرائب والأموال	
١٥	الضريبة العقارية أو الميرى	٤٨٨
١٦	الضريبة الشخصية أو فرضة الرؤوس	٤٨٩
١٧	الضرائب المختلفة والجمارك	٤٩٠
١٨	أفكار وخواطر في جباية الضرائب	٤٩١
	ايرادات مصر ومصرفاتها	
١٩	ايرادات مصر في سنة ١٨٣٣	٤٩٢

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٤٩٤	المصروفات في سنة ١٨٢٣	٢٠
	الوسائل السياسية	
٤٩٥	تشكيل الجيش المصري وحسن تأثيره في الحضارة	٢١
٤٩٧	المسيو سيف (سليمان باشا)	٢٢
٤٩٨	مبادئ تشكيل الجيوش النظامية	٢٣
	المشاة أو البيادة المصرية	٢٤
٥٠١	الخيالة أو الفرسان	٢٥
٥٠١	مدرسة الخيالة	٢٦
٥٠٢	المدفعية أو الطوبجية	٢٧
٥٠٢	مدرسة المدفعية أو الطوبجية	٢٨
٥٠٤	الإدارة العسكرية	٢٩
٥٠٥	شوار - لبس - الجنود	٣٠
٥٠٦	الرتب في الجيش	٣١
٥٠٦	المرتبات والمهيات	٣٢
٥٠٦	الطاعة للرؤساء	٣٣
٥٠٩	الروح العسكرية في المصريين	٣٤
٥١٠	جدول القوات العسكرية المصرية وتوزيعها	٣٥
	جيوش نظامية	
٥١٢	الجيوش غير النظامية	
٥١٤	الحرس الأهلى	
	البحرية المصرية	
٥١٥	انشاء البحرية المصرية	٣٦
٥١٦	حالة البحرية قبل وصول سيزى بك	٣٧
	تشكيل ترسانة الإسكندرية	٣٨
	دليل تفصيلى لتصميم ترسانة الإسكندرية قبل	

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٥١٨	المشروع الذى صودق عليه سنة ١٨٢٩	
٥٢١	العقبات التى تغلب عليها الميودى سريزى	٣٩
	دليل تفصيلى لتصميم ترسانة الإسكندرية بحسب	
٥٢٢	المشروع صودق عليه سنة ١٨٢٩	
٥٢٤	أعمال الترسانة وبنائها	٤٠
٥٢٤	السفن الحربية التى شرع فى بنائها	٤١
٥٢٩	عمال الترسانة المصريون	٤٢
٥٣٠	أحواض ترميم السفن	٤٣
	النوتية والدونمة	٤٤
٥٣٤	القوات البحرية المصرية	
٥٣٨	حشد الرجال لخدمة البريد والبحرية	
٥٣٨	الإسلوب المتبع فى التجنيد	٤٥
٥٣٨	عيوب هذا الإسلوب	٤٦
٥٣٩	أسباب هذه العيوب	٤٧
٥٤٠	جهود محمد على لعلاج هذا الداء	٤٨
٥٤٢	نفور المصريين من الخدمة العسكرية	٤٩
٥٤٢	النتائج المحتملة لإنشاء الحرس الوطنى	٥٠
	الباب التاسع	
	الزراعة والصناعة والتجارة	
٥٤٧	الأراضى القابلة للزراعة والأراضى المزروعة بمصر	
	الزراعة	١
٥٤٨	جداول الأراضى القابلة للزراعة والمزروعة	٢
	الرى	
٥٥٢	الرى بالترع - الرى بالآبار - السواقى - الشواذيف	٣
٥٥٣	الرى بالآبار	٤

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
	آلات الحراثة والأساليب الزراعية	
٥٥٦	المحراث	٥
٥٥٨	الزراعات الكبرى في مصر	٦
٥٥٨	مواسم الزراعة	٧
٥٥٩	الزراعة الشتوى : القمح	٨
٥٥٩	الشعير	٩
٥٦٠	الفول	١٠
٥٦٠	العدس	١١
٥٦٠	الحمص	١٣
٥٦٠	الزعفران	١٤
٥٦٠	البرسيم الحجازى	١٥
٥٦٠	الزراعة الفيض : القطن	١٦
٥٦٣	النيلة	١٧
٥٦٣	الزراعة الصيفية : الذرة	١٨
٥٦٤	الأرز	١٩
٥٦٥	التيل أو القنب	٢٠
٥٦٥	الكتان	٢١
٥٦٦	دود القز أو دود الحرير	٢٢
٥٦٦	حاصلات القطر المصرى	
	الصناعة	٢٣
٥٦٨	الفاوريقات = الشركات =	٢٤
٥٦٨	مغازل القطن وفاوريقات الأقمشة القطنية	٢٥
٥٧٠	فاوريقات الأقمشة الكتانية	٢٦
٥٧٠	فاوريقات الحرير	٢٧
٥٧٠	معامل الحبال	٢٨

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
٥٧١	فاوريقة الجوخ	٢٩
٥٧١	فاوريقة الطرابيش	٣٠
٥٧٢	فاوريقة السكر	٣١
٥٧٢	مصانع النيلة	٣٢
٥٧٢	معاصر الزيت	٣٣
	معمل البارود وملح البارود (نترات البوتاسا) والمواد	
٥٧٣	الكيمائية	٣٤
٥٧٣	مسابك	٣٥
٥٧٤	معمل الأسلحة القابلة للحمل	٣٦
٥٧٤	آراء وخواطر في فاوريقات مصر	
	الصناعات الصغرى والفنون والمهن	٣٧
٥٧٧	الطوائف الصناعية	٣٨
٥٧٩	المهن الغذائية : تحضير القمح والخبازون	٣٩
٥٨٠	الجزارون	٤٠
٥٨٩	معامل الدجاج	٤١
٥٨١	تحضير الفول	٤٢
٥٨١	الخل	٤٣
٥٨١	الاستقطار	٤٤
٥٨٢	البن	٤٥
٥٨٢	القطاطرية	٤٦
٥٨٣	الفنون المتعلقة بالملابس : الغزل	٤٧
٥٨٣	اللبد والحريروتبيض الخيط والقماش والصبغ	
	والتلميع والتطريز	٤٨
٥٨٣	العقادون	٤٩
٥٨٣	الدباغة	٥٠

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	٢
٥٨٤	الصرماتية والسروجية	٥١
٥٨٤	الخياطون	٥٢
٥٨٤	الفراؤون	٥٣
٥٨٤	الفنون المتعلقة بالمباني : البناؤون	٥٤
٥٨٥	نحاتو الأحجار	٥٥
٥٨٦	الحدادون	٥٦
٥٨٦	التجارون	٥٧
٥٨٧	صناعو الضرب أو المزاليج	٥٨
٥٨٧	الخراطون	٥٩
٥٧٨	صناعة الفخار	٦٠
٥٨٩	الزجاج	٦١
٥٨٩	الجوهرية والصياغ	٦٢
٥٨٩	صانعو السلاح	٦٣
٥٩٠	صناعة الحصير	٦٤
٥٩٠	الصناعات المختلفة : الشبكجية	٦٥
٥٩٠	الحلاقون	٦٦
٥٩٢	السقاؤون	٦٧
٥٩٢	التجار	٦٨
	التجارة	
٥٩٣	الأهمية التجارية لمصر	٦٩
٥٩٥	أصناف التجارة المصرية	٧٠
٥٩٩	تجارة القوافل	٧١
٥٩٩	المحلات التجارية الأوربية	٧٢

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٦٠٠	أفكار وخواطر	٧٣
	الباب العاشر	
	التعليم العام	
	والمدارس في مصر	١
٦٠٣	العلوم في الأزمان القديمة وفي عهد العرب	٢
٦٠٤	عصر الخلفاء	٣
٦٠٤	عصر المماليك	٤
٦٠٥	نهضة العلوم والمعارف في عهد محمد علي	٥
٦٠٥	البعثة المصرية	٦
٦٠٨	تأسيس المدارس	٧
٦٠٩	تنظيم التعليم العام	
	الباب الحادي عشر	
	صحة المصريين وأمراضهم	
	وطبهم وتنظيم المصلحة الطبية	١
٦١٣	تربية المصريين	٢
٦١٤	طريقة معيشتهم	٣
٦١٥	الإمساك عن المشروبات	٤
٦١٥	قهوة البن والأفيون	٥
٦١٦	الحمامات والدلك	٦
٦١٦	نصائح إلى الأجانب المقيمين بمصر	
	الأمراض المصرية	٧
٦١٨	الطاعون	
	أمراض أعضاء المضم	٨
٦١٩	الدوسنتاريا	٩
٦٢٠	التهاب الكبد	١٠

محتويات الكتاب		
الصفحة	الموضوع	م
٦٢٠	امتلاء المساريقا	١١
٦٢٠	الاستسقاء	١٢
٦٢٠	البواسير	١٣
٦٢٠	الآفات الديدانية	١٤
٦٢١	الفتق	١٥
٦٢١	الأمراض الجلدية	١٦
٦٢٢	الجذام	١٧
٦٢٣	حب النيل	١٨
٦٢٤	البرص	١٩
٦٢٥	الأمراض القوية والخنزيرية	٢٠
٦٢٥	الجدري	٢١
٦٢٥	الجرب	
٦٢٧	لمحة عن «كلوت بك»	
٦٢٩	مقدمة مؤلف هذه النبعة التاريخية	
٦٣٠	المطلب الأول	
٦٣٤	المطلب الثاني	
٦٤٧	* (جواب من كلوت بك إلى المسيورانزي بالقاهرة)	
٦٥٠	* خطاب للحضرة الخديوية السعيدية في إعادة فتح	
٦٥١	المدرسة .خطبة كلوت بك عند فتح المدرسة ثانيا.	
٦٥٣	* خطبة امتحان تلامذة مدرسة الطب ألقاها الدكتور كلوت بك.	

تمهيد:

لقد عم الاهتمام بمصر وشئونها في هذه الأيام بلدان العالم جميعا. إن هذا القطر الذى كان فيما سلف من الزمان مهد الحضارة والعرفان قد خيمت عليه منذ زمن طويل عناكب النسيان فظل خامل الذكر حتى أواخر القرن الأخير حيث جاءت الحملة الفرنسية فمزقت ذلك الحجاب ووجهت نحوه أنظار العالم من أقصاه إلى أقصاه. ذلك لأنه بعد أن فشلت هذه الحملة وانتهت بما هو معلوم من النتائج التعسفة والعواقب السيئة ظهر في الميدان رجل ذو عبقرية عالية فوضع يده على ماتركت فرنسا بمصر من التراث الثمين فكان بجلال فعاله خير تعزية لمجدنا العسكرى وأجمل سلوان لعلمائنا الفطاحل على ما ختمت مساعيهم به من الخيبة والفشل. أجال ذلك الرجل نظره فيما أودعناه أرض الفراغة من بذور الحضارة وروينا به من دمائنا فتعهده بعناية حتى طلع نبتة وأثمر. بهمته السامية. عادت الآفاق فرددت أصوات الأبواق الفرنسية في سهول الأهرام وأبى قير وعكا وعين شمس، كأنما ودت أن ترضى أبطالنا في أجداثهم الذين لقوا الحتوف في هذه الميادين. فلقد عهد إلى لفيف من الفرنسيين تعليم الجيوش الإسلامية فنون القتال وتدريبها على طرائقنا العسكرية وأساليبنا الحربية ونشر عبقرية الأمة الفرنسية. في الآن الذى لاح فيه طالع السعد الميمون بأفق الشرق. منذ هذا العهد نهضت مصر من كبوتها وهبت من سباتها وحيث حياة طيبة فأصبحت من أقوى العوامل في أهم مسألة تضاربت بشأنها صوالح السياسة واختلفت بسببها المذاهب في العالم القديم. إن مصر بجهودها

الذاتية ومركزها بالنسبة للأمم الأخرى أصبحت من خطر الشأن ورفعة
القدر بحيث ظهر أن البلدان الجديدة مثلها بالتوسع في بيان أحوالها والإحاطة
بأطراف عاداتها أندر من الكبريت الأحمر.

وإنى لأعلم يقينا أن الاهتمام بمصر لم يكن وليد اليوم، وأن طائفة كبيرة
من المصنفات النفيسة قد وضعت عنها غابرا وحاضرا باحثا في أحوالها
ومستوعبة أخبارها وحوادثها بل أن منها مؤلفا جليلا يسمو عليها سموا
عظيما حتى أن الكاتب الذى تستفزه الرغبة إلى الكتابة عن مصر قلما يستطيع
الإقبال على عمله قبل أن يؤدى إلى هذا المصنف مفروض الإتاوة من الإكبار
والإجلال.

أريد به مجموعة المذكرات التى دونها المجمع العلمى المصرى، وهى أثر
علمى جليل . بل موسوعات نافعة تستشف من خلال أسطرها عبقرية الرجل
العظيم الذى رسم أسلوبها وخطط برنامجها واستطاع بمن استجمعهم حوله
من ذوى الكفاءات العالية الوصول بها الى الغاية التى رسمها لها.

وفى الوسع أن نذكر بعد هذا المصنف العظيم الذى ليس هو الأول ولا
الأخير من أعمالنا الجليلة الموجبة للفخر مصنفات أخرى لا عداد لها، جديدة -
والحق يقال - بالإطراء والحمد، نذكر مما نشر منها قبل الحملة الفرنسية
مصنف العلامة (سفرى) ورحلة (فولنى) التى برزت حقائق العلم ودقة
الملاحظة منها فى ثوب قشيب من الإنشاء الذى تتفجر منه ينابيع الحماس
والقوة، وكذا مصنف (سونينى) الجدير بالاعتبار لأسباب شتى. أما
المصنفات الحديثة فنورد منها كتاب الرحلات للدوق (دى راجوز) فإن
القسم المخصص منه لمصر يحتوى كثيرا من البيانات المفيدة والآراء العلمية
الصائبة، وكتاب «رسائل فى الشرق» من إنشاء مؤلف تاريخ الحروب
الصليبية وصديقه العلامة (بوجولا) وكتاب «رحلة دى كدالين ودى
بروفرى» وكتاب العلامة (و. لان) فى مجلدين عن أحوال المصريين وعاداتهم
وأخيرا مصنفات العلامة (منجن) التى تحتوى سيرة محمد على وتاريخ
حكمه مبني على بيانات وتفصيل امتازت بالدقة والصدق.

وثمة مصنفات لا عداد لها أقل من تلك أهمية من حيث تحقيقها شئون
مصر وتمحيصها وأطوار أهلها وعاداتهم، وإنما بالرغم مما توافر فى
المصنفات التى نشرت حتى اليوم من المزايا والفوائد لا يزال فى كل منها نقص

أو عيب. إما لأن البعض منها قد أصبح عتيقا لا تنطبق أخباره على حقيقة الواقع في عهدنا لما يكون قد طرأ عليه من التبديل والتغيير، وإما لأن البعض الآخر لا يتناول من أحوال مصر سوى الحوادث الطارئة والأحوال العارضة التي تزول بزوال أسبابها، وإما لأن هذه المصنفات لم تكن وقفا على مصر بل كل ما ورد عنها فيها عبارة عن موجز لا يتناول إلا المهم من أحوالها، وهو مايؤخذ منه أنه لم يكتب عن مصر مصنف جامع لشتات أحوالها ملم بأطراف عاداتها وأننى لذلك تصديت لتأليف هذا الكتاب الذى أقدمه إلى جمهور القارئ سدا لما ذكر من الخل وإتماما لما تقدم من النقص.

وقد أكون بما تخيلته فى نفسى من القوة والكفاءة عندما أخذت بتأليف هذا الكتاب مخدوعا بالأمانى. فسواء أخطأت فى هذا الحدس أم أصبت فلى، وقد أقمت بمصر خمسة عشر عاما تقصيت فيها أحوال أهلها وعاداتهم وفتشت طويلا عن استعدادهم وعبقريتهم وشهدت أثناءها كمتفرج أو ممثل كل ما أدخل فيها من المستحدثات، كل الحق فى أن أباشر بنفسى السير على الخطة الموضوعة للوصول إلى الغاية التى جعلتها مطمح جهدى ومرمى عملى.

على أنه لم يتح لى أن أبدأ بمزاولة هذا العمل إلا منذ أشهر قلائل. وأول ما انصرف إليه خاطرى بادية الأمر استهلال البحث الذى كنت أكتبه عن الطاعون بلمحة إلى مصر من الوجهتين الطبيعية والطبية. إلا أننى ما انتهيت من استجماع المواد اللازمة لذلك حتى ألفتها — لإتساعها وكثرة عددها — متجاوزة الحد الذى رسمته لعملى. فأثرت حينئذ أن اتخذ منها أساسا لمصنف خاص أليت على نفسى إتمامه، لأن الاسئلة التى كانت توجه إلى عن مصر كلما رحلت إلى أوروبا باعثة على الدهش = الدهشة = والعجب. فلقد التقيت بكثيرين ممن اشتهروا بوفرة العلم وسعة الإطلاع وفرط الذكاء فاستخلصت من الاسئلة التى كانوا يوجهونها إلى عن مصر أن معلوماتهم عنها مبتورة مغلوطة غريبة فى ذاتها. بل إنها من الغرابة بحيث استقر فى خلدى أننى إذ قمت بتصنيف كتاب صغير الحجم ألم فيه بأحوال مصر إماما عاما أكون قد قمت بعمل نافع مفيد.

ولست أنكر على القارئ أنه كان من أشهى الأمور إلى نفسى أن تتاح لى الفرصة لإطالة النظر فى هذا العمل وقتله بحثا وفحصا قبل الشروع فى تدوينه. لأنه بالحالة التى أقدمه بها إلى القراء ما يرح بادية النقص جم العيوب. ولكن لما كان الوقت الحاضر من أوفق الفرص وأنسبها لنشره لأن

البحث في حياة مصر ومستقبلها قد لاكتته الألسنة كثيرا في هذه الأيام وأصبح موضوع الجدل والمناقشة بين أرباب الصحف وأقطاب السياسة في الأقطار الأوروبية قاطبة فقد سارعت إلى تقديم هذا المستند ضمن مستندات القضية المصرية التي أضحت الحكم فيها من أولئك الأقطاب قاب قوسين أو أدنى. ذاك هو الباعث الذي حملنى على التعجل بتحرير هذا المصنف. ورجائى من القراء وقد قدمته إليهم مبتورا متقوصا، أن يسحبوا عليه ذيل الإغضاء متجاوزين عن السقطات التي زالت فيها البراعة عند تحريره. وإذا كانت هذه أول مرة عهدت فيها إلى الطباعين مصنفًا طويلا كان رائدى فيه العجلة في إنجازهم فما أحرانى بصفحهم وأشد حاجتى إلى تجاوزهم وعفوهم.

ولست بمتكلم عن التقسيم الذى راعيته فى هذا المصنف، وغاية ما فى وسعى أن أقوله أننى اتبعت فيه ما خلته أكثر انطباقا على وجوه الصواب من غير، وهو ما سيقتنع القراء به متى مروا بنظرهم على قهارس مواده. وأكرر القول بأن الغرض الذى أرمى إليه هو الكلام على جميع ما يرتبط بمصر بأوفى ما يستطيع من البيان، مع رعاية الاختصار لضيق المجال الذى حددته بنفسى لنفسى فارضأ عليها ملازمته وعدم تخطيه إلى ما بعده ومن ثم يبدو للناظر أثر عنايتى بترتيب المواد وتنسيقها فى مواضعها اللائقة بها.

ومما لاشك فيه أننى تصديت للبحث فى كثير من المسائل الخارجة عن دائرة اختصاصى. فلتحريرها وتدوين حقائقها قد استعنت بالمصنفات الجليلة التى قصدت للبحث فى كل منها مع رجوعى إلى الأخصائيين المعروفين من أصدقائى الذين أزرونى بأرائهم ونصائحهم فاستحقوا منى لذلك جزيل شكرى بعنايتهم.

وهناك مسائل أخرى، ولاسيما المسائل الحديثة، كان من غير المستطاع أن يتناولها بالبحث سوى الواقف على أسرار الأحوال الحاضرة للبلاد المصرية. ورجائى أنه إذا أضيفت هذه المسائل إلى ما سبق يتكون مجموع لا يخلو من النفع والفائدة.

أما المسائل الجديدة التى سبقت الإشارة إليها فلا يسبقن إلى وهم القارئ أننى اتخذتها منوالا أنسج عليه المدايح فى إنسان أو شىء أيا كان. كلا فإن هذا المصنف لم يوص بتصنيفه أحد، ولم يهيمن على تدوينه أحد، فإذا عثر القارئ فيه بمدح اقتضاه الإنصاف والعدل فى حق الرجل العظيم الذى لا يسعنى إلا الإعجاب به والشكر له فليثق بأننى لم أطاوع فيه هوى

النفس ولا مجرد المجاملة أو الأدب نحو الأشخاص. وإننى فيما كتبت قد احتفظت بحريتي كاملة في الإعراب عن أفكارى بما اخترت لها من الألفاظ والعبارات.

وإذا كان الكمال لله وحده، وكان من الواجب التجرد عن الغرض واجتناب التحيز في الكلام على الخير والشر والنفع والضرر فقد توخيت في إبداء ملاحظاتي على ما تبينته من النقص أو الفساد في أمر ما الاستقلال المجرد في الرأي وتحري الصواب جهد الإمكان.

على أنه لا يغرب على = يغيب عن = العاقل أن الوصول إلى الإصلاح لا يكون أبداً من طريق التنديد والتبكي ولا بوسائل الطعن الحاد والتشهير المعيب. فإنه من المعلوم حق العلم أن من يجعل حسن النية رائده في طلب إصلاح العيوب التى يستكشفها. يمهّد الطريق إلى هذه الغاية الشريفة ويوفر لها أسباب النجاح والفلاح بما يبيده من الآراء الصائبة والنصائح الصادقة المنبعثة من قلب سليم.

وقد أصبح حقاً على بعد ذلك أن أعلن شكرى لمن تفضلوا فمَنحونى عضدهم ومؤازرتهم بما وافونى به من النصائح والإرشادات النافعة أو قدموه إلى من المستندات النفيسة والبيانات المفيدة. وأخص بشكرى وثنائى العلامة (جومار) الذى بصفته أقدم أعضاء المجمع العلمى المصرى، وقف وقفة الحارس الأمين على التقاليد التى تربط فرنسا بهذا القطر برباطها الوثيق، والوسيط المخلص الذى استعانت به مصر الحديثة على الاستنارة بضوء الحضارة والعمران المنبعث من الديار الفرنسية.

ولقد تفضل ذلك العلامة فأشرف على تحرير القسم الجغرافى من هذا المصنف فضلاً عن اننى من جهة أخرى مدين للعلامة (فيجرى) أستاذ النباتات بمدرسة القاهرة الممتلئ حماساً وعلماً بشطر كبير من المواد المتعلقة بهذا العلم، وإن أنس لا أنسى المساعدة الجليلة التى وافانى بها العلامة (رجيس) مدرس التاريخ الطبيعى وأمين المتحف الخاص بهذا العلم فى مدرسة الطب أثناء تحريرى القسم المتعلق بالحيوانات من كتابى، ولا البيانات التى قدمها إلى العلامة (بونفور) ملاحظ أملاك صاحب السمو إبراهيم باشا عن النباتات التى أدخلت حديثاً فى مصر. ومما أنا مدين به إلى العلامة (منجن) المعلومات القيمة التى أوردتها فى القسم التاريخى

والإحصائي مقتبسة من مؤلفاته التي لامحيص لكل من يتصدى للكتابة على مصر عن الاعتماد عليها والاعتراف من موردها العذب السلسبيل. وإن صدرى لينشرح لإنصافه بهذا القول ولاسيما وأن كتابا كثيرين ارتضوا لأنفسهم نقل عباراته برمتها غير منسوبة إليه.

أما المهندس الحاذق (لينان) الملم تمام الإلمام بايدروغرافية = بجغرافية= مصر وتاريخها، والذي نيط به إنشاء القناطر الخيرية فقد كان لى خير معوان على إيراد البيانات المتعلقة بهذه المسائل مشفوعة بالأرقام والإحصائيات الدقيقة.

أما (سريزى بك) الذى سيبقى اسمه مخلدا فى مصر بما تولى إنجازَه من الأعمال الجليلة فإليه يرجع الفضل فيما أوردته من البيانات المستفاضة عن دار الصناعة «الترسانة» ومابنى فيها من الجوارى المنشآت، ونقلته من المذكرات، والرسوم التى إليها رجعت فى إتمام هذا القسم من مصنفى.

أما العلامة (روزليني) الذى تعرفت عليه بمصر ثم حظيت بلقائه فى (بيز) «بيشه» فهو الذى أفاض على من سجل معارفه الأثرية المعلومات النفيسة التى أتممتها بالاقتباس من مؤلفات (شمبوليون).

وأما الآثار العربية فإن مايراه القراء عنها فى هذا المصنف قطرة من غيث البيانات التى وافانى بها الماهر (ب . كوست) من أوائل المهندسين الذين انتظموا فى سلك خدمة والى مصر، ولقد قام فيها بأعمال هندسية جليلة وألف كتابا مفيدا فى الهندسة العربية.

ولقد ذكرت أن السرعة كانت رائدنا فى تحرير هذا المؤلف وطبعه، فمن البدهى أن يتأثر قالب الإنشائي الذى صنعناه فيه بها، وأن تتسرب إليه الأغلاط عند مباشرة التصحيح المطبعى.

تهييد تاريخي

العصر الفرعوني

العصور الجغرافية- العصور التاريخية- جدول بأسماء الأسر المصرية التي تعاقبت على مصر- من الأسرة الأولى فتح الملوك الرعاة - غارة الرعاة- الأسرة الثامنة عشرة - سيزوستريس- شوكة مصر في الخارج على عهد سيزوستريس- الإدارة الداخلية - التجارة- غارة الأثيوبيين - الحبشان- الأسرة السادسة والعشرون - الفتح الفارسي.

١- العصور الجغرافية

لا شك اننى أتجاوز الغرض المقصود من هذا الملخص الموجيز إذا أردت الإيغال في تيه توقيعات الحوادث التي يضطر الباحث في تاريخ مصر إلى تعيينها عند شروعه في عمله. ومعلوم أن الكهنة المصريين أفسحو المجال للزمن فجعلوا وجود أمتهم في الأعصر السابقة على التاريخ. إذ حددوا له عشرات الألوف من السنين زاعمين أنها كانت في خلالها محكومة بالآلهة أو أنصاف الآلهة - أى الأبطال. فقالوا إن مدة حكم الفريق الأولى بلغت ٤٢٠٠٠ سنة منها ١٢٠٠٠ سنة كان الحاكم فيها الإله فتاح و ٣٠٠٠٠ سنة كانت الشمس هي المدبرة لشئونها، وتلت هذه المدة الأولى مدة تسلط أنصاف الآلهة الذين اتخذ اليونانيون منهم آلهتهم الاثنى عشر الكبار، وهم زحل والمشتري الخ. وإنى لأترك إلى غيرى العناية بإيضاح هذا المعنى وحل هذا اللغز، وإلى غيرهم مهمة البحث في مطابقة تواريخ تلك الحوادث بتواريخ حوادثنا المستمدة من سفر التكوين.

٢- العصور التاريخية

إن أول حقبة تاريخية لمصر كشف عنها البحث والتمحيص هي التي تضمنها جدول الكاهن مانيتون المصرى لحصر الأسر المصرية المالكة.

فإن هذا المؤرخ كان الكاهن الأعظم لعين شمس وقد عاش قبل الميلاد المسيحي بثلاثمائة عام فناط به أحد الملوك البطالسة تدوين تاريخ لمصر القديمة. على أن يستخرجه من الأوراق المقدسة التي كانت موكولة إلى عهده. ومن المعلوم أنه لم يخلص إلينا من عمله المفيد سوى الجداول الزمنية المبينة لمدد حكم تلك الأسر على يد بعض المؤرخين الأقدمين، ومع أن في هذه الجداول بالحالة التي هي عليها بين أيدينا شيئاً من التباين والخلل والنقص فإنها تجدد على سبيل التأكيد أو التخمين النقط الأساسية لتاريخ تلك العصور المتراجعة في القدم إلى أبعد مدى.

على أن العلم الحديث قد توصل إلى انتزاع أسرار الحقائق من الكتابة الهيروغليفية، إذ عثر في هذه النقوش التي جللت بها الآثار المصرية على ما يؤيد غالب البيانات التي دونها الكاهن مانيتون، وأحيانا على الوسيلة التي يستطيع بمقتضاها تصحيح الأغلاط التي فرطت من المؤلفين الذين أخذنا عنهم تلك الجداول أثناء نقلهم إياها.

وها أنا ذا أقدم إلى القراء جدولا مختصرا للأسرات المصرية طبقا لما يؤخذ من القائمة المانيتونية والاستكشافات الحديثة المصرية. وإنى لمقتصر فيه على بيان تاريخ جلوس كل أسرة منها وعدد من تعاقب على الحكم من ملوكها ومدة حكم كل فريق منهم على حدة، وسأورد بعد ذلك أهم الحوادث التاريخية للملوك الذين اشتهروا بجلال الأعمال، أو بما كان لهم من الشوكة والاقترار أو الحكمة والدراية أو غير ذلك من المزايا التي تنطق بها الآثار التي شادوها ولا تزال أطلالها خير شاهد على فضلهم ونبالتهم ورفعة قدرهم.

٣- جدول الأسر المصرية (١)

الأسرة الأولى الطينية الطيبة	٥٨٦٧	٨ ملوك ٢٥٢ سنة
الأسرة الثانية الطينية الطيبة	٥٦١٥	٩ ملوك ٢٩٧ سنة
الأسرة الثالثة المنفيسية	٥٣١٨	٨ ملوك ١٩٧ سنة
الأسرة الرابعة المنفيسية	٥١٢١	١٧ ملكا ٤٤٨ سنة
الأسرة الخامسة الألفنتينية	٤٦٧٣	٩ ملوك ٢٤٨ سنة
الأسرة السادسة المنفيسية	٤٤٢٥	٦ ملوك ٢٠٣ سنة
الأسرة السابعة المنفيسية	٤٢٢٢	٥ ملوك ٧٥ سنة
الأسرة الثامنة المنفيسية	٤١٤٧	٥ ملوك ١٠٠ سنة
الأسرة التاسعة الهرقليوبوليتية	٤٠٤٧	٤ ملوك ١٠٠ سنة
الأسرة العاشرة الهرقليوبوليتية	١٩٤٧	١٩ ملكا ١٨٥ سنة
الأسرة الثانية عشرة الطيبة	٣٧٠٣	٧ ملوك ١٦٠ سنة
الأسرة الثالثة عشرة الطيبة	٣٤١٧	٦٠ ملكا ٤٥٣ سنة
الأسرة الرابعة عشرة الأكزوتية	٣٠٠٤	٧٦ ملكا ٤٨٤ سنة
الأسرة الخامسة عشرة الطيبة	٢٥٢٠	— ٢٥٠ سنة
الأسرة السادسة عشرة الطيبة	٢٢٧٠	— ١٩٠ سنة
الأسرة السابعة عشرة ملوك الرعاة		
الأسرة الحادية عشرة الطيبة	٣٧٦٢	١٧ ملكا ٥٩ سنة
	٢٠٨٢	٦ ملوك سنة (٢)
الأسرة الثامنة عشرة الطيبة	١٨٢٢	١٧ ملكا ٣٤٨ سنة
الأسرة التاسعة عشرة الطيبة	١٤٧٣	٦ ملوك ١٩٤ سنة
الأسرة العشرون الطيبة	١٢٧٩	١٠ ملوك ١٧٨ سنة
الأسرة الحادية والعشرون الصانبة	١١٠١	٧ ملوك ١٣٠ سنة
الأسرة الثانية والعشرون البوبسطية	٩٢١	٧ ملوك ٢٠ سنة
الأسرة الثالثة والعشرون الصانبة	٨٥١	٤ ملوك ٨٩ سنة
الأسرة الرابعة والعشرون الصائبة	٧٦٢	١ ملك ٤٤ سنة
الأسرة الخامسة والعشرون الأثيوبية	٧١٨	٦ ملوك ٤٤ سنة.
الأسرة السادسة والعشرون الصائبة	٦٧٤	٩ ملوك ١٥٠ سنة (٣)

(١) نقلت هذا الجدول من كتاب العلامة شامبوليون الذى ألفه عن مصر القديمة ونشرته «مجلة العالم العجيب» فعلى من يرغبون استقصاء تاريخ مصر القديم الرجوع إلى هذا المصنف الذى تناول هذا البحث بالإسهاب وشرحه شرحا مبنيًا على الاستكشافات الأخيرة التى قام بها لأول مرة العلامة شامبوليون فيجاك
(٢) حكم مصر ستة من الفراعنة الطيبين بالوجه القبلى، وليث حكمهم مثل هذه المدة - أى ١٦٠ سنة
(٣) هذه الأسرة هى التى أختفى عليها الفرس فى سنة ٥٤٢

٤- من الأسرة الأولى إلى فتح الملوك الرعاة

أول ملوك هذه الأسرة هو (مينئى) الذى يسميه مؤرخو اليونان «مينيس» وهو الذى بدل الحكومة الاستبدادية الدينية بالسلطة الملوكية والمأثور أن الدلتا فى عهده كانت عبارة عن مستنقع وأنه شق للنيل مجرى آخر غير مجراه وأسس مدينة منفيس التى عثر الباحثون على أطلالها فى قرى منف وميت رهينة وأم خنان. وقد خلف (مينئى) على عرش الملك ملوك كثيرون ما برحت اسمائهم وأعمالهم مجهولة حتى الآن ولم تترك أسراتهم للتاريخ من الذكريات المجيدة سوى ماشاده ملوكها من الآثار العظمى التى ما برحت موضع إعجاب السياح والعلماء وأرباب الصناعات والفنانين. وتبتدىء من الأسرة الثالثة منها تواريخ إنشاء أقدم الآثار فى العالم وهى أهرام دهشور وسقارة أما أهرام الجيزة الثلاثة فما هى إلا قبور الملوك الثلاثة الأول من الأسرة الرابعة. وإنشاء (لباريس) أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة فى إقليم أرسنوة (الفيوم) التيه الشهير فى الأزمان القديمة، وهو الأثر الذى كان إحدى العجائب السبع على ظهر المسكونة. والظاهر ان الغرض من إنشاء هذا التيه كان من أجل الأغراض وأشرفها . ألا وهو جعله دارا للندوة يجتمع فيها نواب الأقاليم المصرية كلما دعاها الى ذلك حادث خطيرى أو ضيق شديد لإبداء آرائهم فيما ينبغى ان تتخذه الحكومة من الوسائل لاتقائهما أو دفعهما . وهذا الأثر الجليل لم تبق منه اليوم سوى أطلال دارسة وآثار بالية.

٥- غارة عرب الرعاة

كان المصريون يطلقون لفظ (هكسوس) أى الرعاة على عرب الصحراء الرحل الذين ندعوهم اليوم باسم البدو أو العربان فإن هؤلاء الأقوام الباسلين = البواسل = الذين اعتادوا اقتحام أخطار الحروب واحتمال المشاق وصنوف الحرمان بما جبلوا عليه من التقشف فى المعيشة والتنقل من مكان إلى مكان تدفقوا على مصر من ناحية برزخ السويس فى عهد الأسرة السادسة عشرة فاستولوا على إقليم الدلتا ، وتناوب الحكم عليها ستة من كبار زعمائهم وظلوا قابضين على أزمته ٢٦٠ سنة أبتدأت من سنة ٢٠٨٢ قبل الميلاد المسيحى. وفى عهد الرابع من أولئك الملوك الأجانب تقلد يوسف منصب الوزارة ودعا إلى مصر أسرة أبيه يعقوب الذى تناسلت منه الأمة اليهودية.

٦- الأسرة الثامنة عشرة

فتح ملوك الرعاية على المصريين أبواب الظلم وساروا فيهم بالجور والغشم. فكانوا إذا أطاعوهم يطيعونهم مكرهين غير ناظرين فيهم إلا أنهم قوم من البرابرة المتوحشين أعملوا أيدي التخريب والتدمير حتى أتوا على ماشيد من الآثار الضخمة والأعمال النافعة في عهد الأسر السابقة ولم يطق الأبناء من خلائف الملوك الأقدمين الذين خلعهم الرعاية صبرا على هذا الضيم فانسحبوا في أقاليم الدلتا وتمكن أحدهم وهو (أمينوف الأول) من إجلائهم عنها فلما استتب له الأمر في ديار مصر ورسست قواعد سلطته بها على الأسس الوطيدة أسس الأسرة الثامنة عشرة التي سطع نجمها وعلت كلمتها وأمتد رواق نفوذها على أرجاء مصر بحدودها القديمة.

ولقد تفرغ الأربعة الأول من ملوكها وهم (أمينوف الأول) و(تموتموزيس الأول) و(تموتموزيس الثاني) و(تموتموزيس الثالث) لانتشال الأمة من وهدة الظلم التي أوقعها الرعاية فيه وكان هؤلاء في مدة تسلطهم على مصر قد بثوا في البلاد الفساد وأطلقوا أيديهم فيها بالتخريب والتدمير. فلما انبرى أولئك الملوك الأربعة لتجديد ماتخرب وإصلاح مافسد كان أول مانهضوا به من الأعمال أن أعادوا إلى البدين رونقه القديم وحفوا طقوسه بشارات التعظيم والتكريم وقووا أركانه بدعائم السلطة والنفوذ. وكانت القوانين القديمة قد سقط اعتبارها وزالت من بين الناس أسبابها فكان مما انصرفت إليه عنايتهم إعادتهم إياها إلى مقامها الأسمى ومرتبتهما العليا. وكانت الترع والقنوات والجداول قد طمت بالتراب فحفروها من جديد كما أعادوا بناء المدائن التي دمرت والآثار التي عفى عليها. وما أغلب المباني الشاهقة والآثار الباذخة التي ترى في (الكرنك) و(مدينة أبو) إلا مظهرا من مظاهر تلك الهمة العالية والغيرة الدافقة للاحتفاظ بمجد الأمة وعظمة البلاد.

وقد امتاز الملك (تموتموزيس الثالث) المشهور باسم (موريس) على غيره بأنه الذي أنشأ فيما عدا المباني المنجدة والهيكل المعظمة المسلتين المعروفتين بمسلتي الإسكندرية وأطلق اسمه (موريس) على البحيرة المعروفة الآن ببركة قارون التي تروى بمياهاها أراضي إقليم الفيوم، وهي التي كان ماء فيضان النيل في الزمن القديم يخزن فيها لتروى به الأرض أيام التحريق، فكان ذلك سببا لخصب الشطر الأكبر من أراضي مصر الوسطى.

٧- سيزوستريس

بعد أن أرسيت الأسرة الثامنة عشرة قواعد النظام والسعادة في الداخل رفعت لواء شوكة مصر في الخارج وأيدت سيادتها على الأقطار المجاورة لها كافة. وأشهر ملوكها الذين أمتازوا بفتوحاتهم وأعلاهم همة وأبعدهم صيتا هو (رمسيس الثالث)، ولعله الثاني المعروف بـ (سيزوستريس) فقد استأنف هذا الملك الفتوحات التي بدأ بها أسلافه، ووسع نطاقها حتى ترامت أطرافها إلى باطن الأقطار الهندية واستعان بما استفاده من الغنائم العظيمة على أثر انتصاراته الباهرة التي قدح فيها الأمم المغلوبة بالإتاوات البالغة والكلف الباهظة على إنجاز كثير من جلائل الأعمال العامة الفائدة وهو الذي تعزى إليه فكرة توصيل النيل بالبحر الأحمر، وشاد من جليل الآثار ما يتحلى الآن به جيد الديار المصرية كآثار أبو سمبل والدر ووادي الأسبغة في النوبة والقرنة والمدينة . أى مدينة أبو بالقرب من القرنة وجزء من هيكل الأقصر والبهو الكبير ذى العمد في قصر الكرنك. قال (شامبوليون) الشاب: «إن هذا الأثر الأخير لأفخم بناية شادتها يد الإنسان».

ففى عهد سيزوستريس بلغت مصر إلى أوج السعادة والهناء داخليا والشوكة والهيبة والاقتماد خارجياً.

٨- شوكة مصر فى عهد سيزوستريس

نذكر فيما يلى الممالك والأقطار التى كانت تعترف بسيادة فرعون عليها أو بحكمه فيها وهى: بلاد النوبة والحبشة وسنار، وكثير من أقطار جنوب افريقية والأقوام الرحالة = النازلة = فى صحارى شرق النيل وغربه وبلاد الشام والعرب ومملكتا بابل ونيوى، وشطر كبير من آسيا الصغرى وجزيرة قبرص وبعض جزر الأرخبيل اليونانى والأقاليم التى تتألف منها الآن المملكة الفارسية.

٩- غارة الأثيوبيين الحبشان

بلغت هذه الحقبة قصارها = أقصاها = من العظمة والمجد والشوكة على عهد الأسرة الثامنة عشرة كما ذكرنا . إلا أن الأحباش بقيادة (سبكون) قائداهم أخنوا على هذه العظمة وجعلوا الصرح الشامخ الذى رفع ذراه الملك (سيزوستريس) أطلالا دارسة وأثرا بعد عين، ولكن لم يلبث الأثيوبيون أن طردوا من مصر على يد (استيفيناتى) مؤسس الأسرة السادسة والعشرين.

١٠ الأسرة السادسة والعشرون وفتوحات الفرس

لو أن مصر استطاعت أن تبقى نفسها شر الاتصال بالأجانب، أو لو كانت طبيعة وجه أرضها وشكل سطحها من الوجهة الحربية بحيث يصدان عنها الغارات الأجنبية لما بقى شك في قدرتها على صيانة وجودها وإطالة أمد حياتها بما كان مسنوناً لها من الأنظمة العالية والقوانين الحكيمة لتدبير مرافقها ومصالحها من كل نوع. ولكن مصر لا تملك من وسائل الدفاع الطبيعية عن كيانها ما يكثر به أو يعتمد عليه. فقد قال الحكيم (فولتير) في ذلك «إنه كان يكفي من يحب أخذها أن يهتم بالغارة عليها لتطيب له». فهي بهذا الوصف فريسة سهلة ولقمة سائغة جذبت إليها من جميع النواحي عظماء الفاتحين الذين طالما طمحت أنظارهم إلى خيراتها الزراعية وموقعها الجميل بين ثلاث من قارات العالم، وحيث لا يفصل بين بحرين من بحار الأرض سوى برزخ لا يتجاوز طوله بعض الفراسخ، فافتقارها إلى الوسائل الطبيعية للدفاع عن كيانها كان على الدوام موضع الضعف منها.

ولقد أدرك واضعو قوانينها القديمة هذه الحقيقة من بادىء الأمر وحسبوا لعواقبها الحساب فحرموا على الأمة المصرية باسم الدين كل إتصال بالأجانب أو اختلاط بهم خشية أن يستفز هذا الاختلاط هؤلاء إلى محاولة الوقوف على أسرارها والعلم بمواطن ضعفها فينشطوا إلى فتحها وامتلاكها. وطالما لبث فريق الكهنوت عزيز الجانب رهيب المقام بكثرة عدده وامتداد نفوذه واستقرار صولته. فإنه كان يحول دون كل إتصال بالأجانب فأمنت البلاد شرهم ووقت نفسها عاقبة أطماعهم ولكن ملوك الأسرة السادسة والعشرين رأوا أن يلقوا عن عاتقهم نير النفوذ الكهنوتي ويستبدوا بالأمر فمهدوا السبل لذلك الإتصال الذى كانت عاقبته شراً ووبالاً على مصر إذ بلغ بأحدهم وهو الملك (أبساميتيك الأول) أن اتخذ لنفسه جنداً من الإغريق والكاريين واليونانيين المجمعين فأغضب طائفة الجند المصرى الذين انحاز سوادهم الأعظم عن هذا الملك ومنحوه أكتافهم = ولوا عنه = قاصدين إلى بلاد الحبشة فحرمت مصر بذلك من حمايتها الطبيعية.

وحدث أن الملك (وافريه) من خلائف (أبساميتيك) اقتدى به إذ اتخذ جنداً من الأجانب فساءت سمعته وقبح ذكره بين أمته ثم أخطأ خطأ غليظاً إذ أغضب (نبوخذ نصر) ملك آشور بمهاجمته إياه في دياره أخذاً بناصر اليهود وتأييده لهم عليه. فلما غلبه (نبوخذ نصر) أغار على مصر وأيد فيها

(أمازييس) الذى كان قد ثار على الملك (وافريه) واغتصب منه صولجان الحكم.

وبقى (أمازييس) قابضا على زمام البلاد زمنا طويلا نشرت السعادة والهناء فيه أجنحتهما عليها. فقد روى المؤرخون أن عدد المدن الأهلة بالسكان بلغ فى عهده إلى عشرين ألف مدينة. وزار مصر وقتئذ الحاسب الشهير (فيتاغورس) ^(١) والحكيم المقتن (سولون) غير أن (أمازييس) لم يرافقه اليمن والتوفيق حتى النهاية. لأنه رأى بعينه قبل وفاته هبوب العاصفة التى تحيفت بلاده وأخذت على استقلاله. فإنه أغضب زعيم الإغريق الذين كانوا فى خدمته فلم يكن منه إلا أن استقز (قمبيز) ملك الفرس إلى مهاجمة مصر والاستيلاء عليها فعمل (قمبيز) برأيه. إذ رحل من فوره إلى مصر. ولكن (أمازييس) لقى حتفه قبل وصوله بزمان يسير فلم تنشب سوى معركة واحدة فاز الفرس فيها على المصريين عند (بيلوز) ففتح لهم هذا الفوز أبواب مصر فولجوا فيها واستبدوا بحكمها بعد أن استبعدوا ملكها البسامنيتى وأهلكوا ولده. وأصبحوا منذ سنة ٥٢٥ قبل الميلاد أصحاب القول النافذ والكلمة المسموعة المطاعة فى أرجائها.

(٢)

ديانة قدماء المصريين

مبدأ التوحيد - الثالث - الأعلى - الآلهة المختلفة - أوزيريس وإيزيس وهوروس - تيفون إله الشر - تقمص الأرواح - عبادة الحيوانات - المدن المخصصة لهذه العبادة - التقسيمات الدينية لمصر.

١١ - لم تكن ديانة المصريين كما وقع في وهم الكثيرين بناء على روايات مؤرخي الإغريق والرومان فظة غليظة تستدعى الاحتقار لسقوط منزلتها وخساسة قدرها بقيامها على عبادة بعض الحيوانات والنباتات. فإن تلك الديانة التي قامت قواعدها على أسس مبادئ علم ما وراء الطبيعة وأشرفها جوهرها كانت تمثل الطبقة العامة بالحركات الرمزية التي كان الكهان وحدهم يملكون أسرارها، وما كان للشعب أو الأجانب أن تشرئب أعناقهم إلى استكناها.

وكان مبدأ التوحيد قوام العلم الإلهي وعماده عندهم وبمقتضى قواعد هذا العلم كان (أمون رع) الكائن الأعلى الذي يشتق منه كل شيء في الوجود فكان يمثل مبدأ التذكير بذاته ويمتزج به مبدأ التثليث من طريق الاتصال والاختلاط بالآلهة (موث) وقد تولد من هذا وذاك الإله (خونس) الذي تم بوجوده الثالث الأعلى.

وهذا الثالث الإلهي هو الذي توالدت منه آلهة مصر الذين مثلوا في بادئ الأمر بجميع أرجاء الكون مظاهر الربوبية التي لاحد لها ولا غاية وكان ترتيب درجات الآلهة يتناول تقسيمها إلى فرق ثلاثية أي جماعات تتألف كل جماعة منها من مبدأ مذكر وآخر مؤنث وثمره اتحاد المبدئين واجتماعهما.

وكان يلي (أمون رع) الذي طالما عبده العابدون باسم (خنوفيش) جملة آلهة انتحلها الإغريق لأنفسهم بعد أن بدلوا من أسمائها بأسماء جديدة نذكر منها (بوتو) إلهة الليل التي كان لها عند المصريين نفس الصفات التي وصف الإغريق بها آلهة الليل عندهم. و(نيث) إلهة الحكمة التي كانت عبادتها قائمة الشعائر في (صائيس) بالوجه البحري. و(فتاح) إله الخلق والإنشاء والإيجاد من العدم وكان يشغل في ترتيب درجات الآلهة المصرية المرتبة الثالثة من

مراتب الربوبية و(خنوفيس) الذى كن يمثل وفي فيه بيضة بارزة هى التى نتجت عن الإله (فتاح) ، إشارة الى معنى الخلق والإبداع والمادة الأولى. والمفهوم من عقائد قدماء المصريين أن هذا الإله كان أول ملوكهم، وأن مدينة منفيس الملوكية كانت معهد عبادته. وكانت حفلات تكريس الملوك وتتويجهم تقام بالهيكل الفخم الذى شيد بتلك المدينة إجلالا له. و(هاتور) وكانت عند قدماء المصريين بمنزلة الزهرة عند الإغريق وكانت مدينة منفيس مقر عبادتها أيضا. (فريه) إله الشمس، وكان عند قدماء المصريين بمثابة (هليوس) عند الإغريق، وكانت شعائر عبادته تقام بمدينة هليوبوليس، و(توت) وكان فى مصر بمثابة (هرمس) فى بلاد اليونان فإنه هو أول من كشف النقاب لبنى الإنسان عن أسرار المبادئ الأولى للعلوم والفنون والتجارة وكانت مدينة (هرموبوليس) مقر عبادته ومهبط وحيه، وكان البجع طائره. و(بشت) وكانت تعبد فى (بوباستيس) أى تل بسطة وكان القط حيوانها المقدس.

وكان الثالوث الذى ينتهى إليه تدبير الأرض مؤلفا من (أوزيريس) و(إيزيس) و(هوروس) وهو الذى على أثر قيامه بتدبير شئونها تم خلق الإنسان، وما القسم الأول من حوادث مصر فى العهد القديم سوى تاريخ المدة التى استوى هذا الثالوث فيها على العرش متصرفا فى أحوال العباد وإذا سلمنا بأقوال (بلوطرخس) كان (أوزيريس) العنصر الفعال فى خلق الكائنات وتوالدها و(إيزيس) المادة الأولى المفعولة لسائر الكائنات الخاصة.

ومن اتحاد (أوزيريس) بـ(إيزيس) أى من اتحاد العنصر المنتج بالمادة نشأ العالم أو الكون واستقر نظام كل شىء فالعالم هو الابن الواحد للألوهية وقد أطلقوا عليه اسم (هوروس) وإنما كان إلى جانب مبدأ النظام والالتزام الذى يمثله (أوزيريس) (إيزيس) و(هوروس) مبدأ الشر والفساد الذى كان يمثله (تيفون) أخو (أوزيريس) وخصمه اللدود.

وكان المصريون يعتقدون أن (أوزيريس) بعد أن أفاض على مصر نعمة المدنية والحضارة وأنشأ مدينة طيبة ذات المائة باب أحب أن يغدق هذه النعمة بالسواء على أقطار الأرض جميعا فزار الشعوب التى رفعت الهياكل لعبادته بأسماء مختلفة. فلما عاد من رحلته الطويلة تدلّهت (نفتى) زوجة أوزيريس وأخته فى حبه وأوهمته أنها (إيزيس) زوجته فرزق منها بأنوبيس فلما رأى تيفون أنه تدنس بعار هذه المخزاة أراد أن يغسله عن نفسه فنصب لأوزيريس المكاييد يريد بها اغتياله، وقد بلغ من ذلك إربه إذ سلبه الحياة كما

سلبها من هوروس وألقى بأشلاء جسمه في الفرع الصانى من نهر النيل ويقال إن هذا الحادث سبب كراهة قدماء المصريين لهذا الفرع، ولقد كانوا يعتقدون أنه لما ألقيت تلك الأشلاء فيه بثت في مياهه مزايا الخصب والبركة.

وكان أوزيريس قد عاد من جهنم وتسمى بعد بعثه باسم (سرابيس) فرد إلى ابنه (هوروس) الروح وجهزه بالسلاح لقتال (تيفون) الذى لم يلبث أن قهره (هوروس) وتغلب عليه وكاد يفتك به لولا أن (إيزيس) أنجته من الهلاك وظل مختبئاً في الكون منذ هذا الحين يبيت فيه الفساد فيضطرب حبل نظامه وتنزل صنوف المحن والمصائب.

وكانوا يصورون (أوزيريس) في الهياكل بأشكال مختلفة سنتكلم عليها في الفصل الخاص بالآثار القديمة، ولكنهم كانوا يعبدونه غالباً في صورة ثور أسود، ومن هنا اشتقت عبادة العجل (أبيس) الذى كانوا يعرفونه بسمات خاصة هي الشامة المربعة البيضاء وسط الجبهة وازدواج شعر الذنب وإلتواء أسفل اللسان بشكل العقدة.

وكان المصريون يعتقدون بتناسخ الأرواح ويرجعون إلى هذا الاعتقاد في القول بخلود النفس وانتقال الروح بعد فناء الجسم إلى حيوان آخر يوشك أن يولد وعودتها بعد ثلاثة آلاف عام لتنبئ من جديد في الهيئة البشرية وتستأنف الحياة لمدة أخرى.

وبالرغم من استقرار قواعد الديانة المصرية على الأسس الوطيدة فإن العلماء الباحثين لم يتبينوا من أسرارها الكامنة إلا النزر اليسير. لأن الكهان والمكرسين استأثروا بمعرفتها دون عامة الشعب. فلم تلبث العقيدة الدينية أن انحرفت عن جادتها وتحولت في نفوسهم إلى عقيدة غليظة دعامتها التسليم بتعدد الآلهة إلى ما لاحد له من العدد، فمن معتقداتهم الباطلة الكثيرة التى جرت في مصر مجرى الحقائق ماكانوا يبذلونه من مظاهر الإجلال والتعظيم للحيوانات التى كان أحراها = أجدرها = في نظرهم بالتبجيل والتكريم السنانير والاختنمون والكلاب والبجع والذئاب والتماسيح. وكانوا لهذا السبب يتعهدونها بالعناية التامة ويقومون على تغذيتها في الهياكل وينفقون في سبيل ذلك الأموال الطائلة.

وكانوا إذا نفق أحدها ينفقون عن سعة في تنظيم جنازته وتشيعها ويحملون من أجله شارات الحداد. ويعاقبون بالإعدام من يعتمد قتلها ويطبِقون هذه العقوبة على من يقتل خطأ سنورا أو بجعة.

وذكر ديودورس الصقلي أن أحد الرومان في عهد البطالسة قتل سنورا غير عامد ولا متربص فلم يستطع أحد أن ينقذه من أيدي الشعب الحانق الهائج، بالرغم مما كان لدولة الرومان في ذلك الزمان من الصولة والهيبة وامتداد النفوذ والسلطان. وكانت المدن الكثيرة مخصصة لعبادة الحيوانات. فالعجل (أبيس) كان يعبد بمدينة (منفيس) والعجل (مينفيس) في عين شمس والجدى في (منديس) والسبع في (ليوننتوبوليس) وتمساح بحيرة (موريس) في مدينة مسماة باسمه، والذئب في (ليكوبوليس) إلخ. وكان سبب تكريم الحيوانات هذا التكريم الدينى معروفا. إلا أن الكهان كانوا يسرونه ويحرصون على مواراته حتى لقد ذهب رحالة الإغريق المذاهب البعيدة من الحدس والتخمين في تأويله فكانوا يرجعون به تارة إلى ما تؤديه تلك الحيوانات من الأعمال النافعة وطورا إلى ما يتوافر فيها من الصفات المختلفة لتكوين الرموز والعلامات الموماً إليها.

ويؤخذ من أقوال القديس (كليمنتس) الإسكندري أن أماكن العبادة من الهياكل المصرية كانت خالية من التماثيل وان رمز الربوبية فيها كان عبارة عن حيوان مقدس يوضع في مكان بعيد عن الهياكل ويسدل عليه حجاب حتى لا تدركه الأبصار.

وكانت مصر مقسمة إلى مناطق دينية لكل منطقة عبادة خاصة بها تتناول إلها واحدا أو ثالوثا إلهيا. وعلل (ديودورس) الصقلي هذا التقسيم بأن أحد الفراعنة السابقين أراد أن يمهد لنفسه سبيل الحكم على القطر المصري كله فابتكر لإصابة = لتحقيق = هذا الغرض حيلة ترمى إلى تفريق شمل الأمة وتصديع ألفتها ليمنعها من الاتحاد والعمل على تقويض سلطته ألا وهي تقسيم مصر إلى مراكز خص كلا منها بعبادة مغايرة لعبادة المراكز الأخرى وحرّم عليها بعض الأغذية وعمل على تطبيق المثل المشهور «فرق تسد» فنال مبتغاه من التحكم في شئونها وذكر (ديودورس) الصقلي أن هذه الحيلة جاءت بالمراد إذ استحكم الشقاق بسببها بين أهل المراكز المتجاورة لتعيرهم بعضهم البعض بالتقصير في القيام بالفروض نحو معبوداتهم. على أن الهياكل كانت بالرغم من ذلك التخصيص تحتوى مع الرمز الربانى الخاص بعبادتها رمزا آخر يمثل (أمون رع) الإله الأكبر لمصر بأسرها.

وإذ لم يكن من قصدى الإسهام في الكلام على ديانة قدماء المصريين لانفساح مجاله وتشعب أطرافه فإننى أحيل القارئ الراغب في استقصاء هذا الموضوع على المصنفات المطبولة التى ألفت فيه، ولاسيما المصنف الجليل الذى ألفه شمبوليون.

(٣)

حالة قدماء المصريين وحكومتهم وقوانينهم

الطبقات الاجتماعية - طبقة الكهان - طبقة الجند - طبقة العامة - الملك - الحكومة - القوانين.

١٢ - الطبقات

كان عدد سكان مصر أيام عزها في عهد الفراعنة يتراوح بين خمسة الملايين وسبعة الملايين من النسمات. وكانوا ينقسمون إلى ثلاث طبقات كبيرة، وهى طبقة الكهان وطبقة الجند وطبقة العامة. وكانت العامة منقسمة إلى فريقين، فريق الفلاحين وفريق التجار. وكان القانون يقضى على الأبناء ان يزاولوا صناعات آبائهم ويمارسون مهنتهم. فكان هذا من أعظم بواعث استقرار الأقسام الكبرى للهيئة الاجتماعية على وتيرة واحدة.

١٣ - الكهان

كان زمام حكومة مصر في مبتدأ الأمر بيد رجال الدين، ثم تحول منهم إلى قبضة الجند، إلا أن رجال الدين ظلوا مع هذا محتفظين بكثير مما كان لهم من الامتيازات قبل هذا الانتقال. ففي عهد الفراعنة وكان لهم من الهيبة ورفعة المكان في نفوس العامة ما يرجع تعليله إلى أمور شتى منها سعة الثروة وبسطة الجاه ومنعة الجانب. وكانت ثروتهم تتألف من الأراضى الواسعة والاتاوات التى يؤديها إليهم الأتقياء والمتدينون أصنافاً من الحاصلات لانقدا كريما وكان أفراد الأمة بأسرها على تفاوت درجاتهم في سلم الاجتماع من أكبر كبير حتى الملك نفسه إلى أصغر صغير.. لا يعفى أحدهم من تلك الاتاوات. ولم يقتصر الكهان على جباية الفرض والضرائب من الأحياء وحاصلات الأرض بل كانوا يفرضونها على الموتى ويجبونها من أهلهم. لأنه لما كانت المقابر ملكاً لهم لا ينازعهم عليها منازع فإن الجثث المحنطة (المومياء) كانت لاتغيب فيها إلا بإذن منهم، وكانوا يحصلون عليها رسماً معيناً في كل عام.

وكان لطبقة الكهان مشاركة في الإشراف على شئون الوطن وتداخل في مرافقه ومصالحه. فما أشهرت حرب أو أبرم صلح أو اتخذ تدبير بشأن الزراعة أو الإدارة الداخلية أو المنافع العامة أو تقررت خطة في شأن خطير إلا ورجع فيها إلى مشورتهم. فإذا أبدوا فيه رأياً مسدداً فلا يسع الحكومة إلا أن تتخذة دستوراً لها لن تحيد عنه قيد أنملة.

وكان الملك إذا أفضى إليه بصولجان الحكم لا يعترفون به إلا إذا تولوا بأنفسهم إجلاسه على العرش بعد أن يعقدوا مجالسهم ويوافقون فيها على إسناد الكرسي إليه. وكان الكاهن الأعظم يلي الملك في رفعة المنصب وشرف القدر ونباهة الذكر. وكان الكهان يمارسون الطب والعلوم الفلكية. وكان تحنيط الأجسام من الأعمال الكثيرة الداخلة في دائرة اختصاصهم. وكانوا بالجملة الظافرين في مصر دون غيرهم بنعمة التفقه في العلوم ومدارستها من حساب وهندسة وغيرها. وليس هذا بالأمر المستنكر. لأن أعمال التاريخ كانت في بلد كمصر يغير الفيضان في كل عام شكل سطح أراضيها وينقل حدودها من مكان إلى مكان ويثير ثائرة المنازعات بين الملوك كانت على مكان مكين من الأهمية فليس بدعا أن تكون لهم عناية تامة بعلم الهندسة يحددون به حصة كل مالك من الأرض بمقتضى قواعده الدقيقة التي تصيب دائما ولا تخبأ أبداً.

وكانت طائفة الكهنوت ذات طبقات مختلفة. فكان يلي كبار الكهان الكتبة المقدسون المنوط بهم إدارة الحاصلات الكهنوتية وموارد إيراد الهياكل الدينية تم تتبعهم كبار الأنبياء فالأنبياء فحراس الهياكل. فكتبة القرايين الذين كانوا موكلين بدمغ الحيوانات المخصصة للقربان بميسم خاص بهذا الغرض ثم يتلوهم كهان المدن فالمكلفون بتقديم القرايين الجنازية. فالمنوط بهم إحراق البخور أمام الآلهة فالمعتمدون لإهراق الخمر، فملاحظو الهياكل فالخدم كالبوابين والرسامين والمغنين والحانوتين على تفاوت درجاتهم وتباين أعمالهم.

وكان الكهنة شديدي العناية بملابسهم لاعتبارهم إياها المظهر الأول لكرامة الوظائف المعهودة إليهم وكان أغلب لباسهم الثياب البيضاء من نسيج الكتان. إذ كان لا يؤذن لهم بحمل غيرها من الثياب. وكان من الواجبات المفروضة عليهم على ما ذكره (هيرودتس) المؤرخ حلق رؤوسهم وإزالة الشعر برمته منها ومن سائر منابت الشعر في الجسم.

١٤ - طبقة الجند

وكانت طبقة الجند الثانية في تركيب طبقات الأمة المصرية، ولكنها حلت المحل الأول والمرتبة العليا بعد أن ثل (مينيس) رئيسها عرش السلطة الدينية وقوض أركانها. وكانت ذات أملاك واسعة النطاق بعيدة الأرجاء لكثرة عدد

أعضائها. فقد كان الجيش المصرى فى وقت الصلح يعد نحو مائتى ألف جندى، وكان وقتما زار هيرودتس القطر المصرى يتجاوز أربعمئة ألف منقسمين إلى شطرين كبيرين تبعاً للأقاليم التى وكل إليهم الذود عن حماها يتألف أحدهما وهو قسم (الكاليزيريين) من مائتين وخمسين ألف، والآخر وهو قسم (الهرموتيين) من مائة وخمسين ألفاً.

وكان فى الجيش المصرى المشاة الثقيلة والمشاة الخفيفة والمقاتلة فى مركبات القتال، والمأخوذ من النقوش الأثرية أنه كان خلوا من كتائب الفرسان. وكان سلاح المشاة الرمح والسيوف المقوس والبلطة والنبال والدرقة. وكانت المركبات تجرها الخيل، لكل مركبة منها جوادان ويعطوها المقاتلة مسلحين بالبلط ومعهم النبال يرشقون بها العدو. وكان كل جيش منقسماً إلى جملة فيالق ولكل فيلق عمله الخاص به. وكان الملك القائد الأكبر للجيش، ولكنه كان ينتدب للقيادة العليا أحد أبنائه أو من يقع عليه اختياره من كبار القواد.

١٥ - طبقة الشعب

أما طبقة الشعب فكانت تشمل من لا عمل لهم فى الطبقتين السالفتين، وكان أفرادها كثيرون العدد يعيشون فى اليسر والرخاء مما تخرجه لهم الأرض من ثمراتها أو من مزاولة الصناعات وممارسة التجارة.

والظاهر أن طبقة الشعب كانت فى وقت ما حاصلة على حقوق سياسية مهمة. إذ كان لها أن تشترك فى انتخاب الملوك ومبايعتهم، ولكنها أمسكت شيئاً فشيئاً عن التداخل فى هذه الشؤون فلم يسمع عنها أحد أنها اهتمت بالمسائل العامة إلا إذا انقضت أسرة ملكية ومست الحاجة إلى استخلاف أسرة أخرى على عرش الملك بدلاً منها فإنه كان يجوز لها وقتئذ أن تنظر فى الأمر وتعنى به. على أن هذه الميزة انتزعت منها فيما بعد فلم يبق لها من الحقوق سوى حق النطق بالأحكام الغريبة فى القضايا التى كانت ترفع إليهم فى موضوع سير الملوك بعد وفاتهم.

١٦ - الملك

كان الملك الذى يخلص له الملك بالوراثة تبعاً لقاعدة أحقية الأكبر فالأكبر من الأبناء الذكور يبايع ملكاً عند توليته، ويوافق الكهان فى الاجتماع الذى يعقدونه لهذا الغرض بمدينة (منفيس) على الإفضاء بزمان الملك إليه. وكان

زعيم السلطة التنفيذية هو المنوط به أثناء السلم أمر المحافظة على القوانين وأثناء الحرب الدفاع عن الوطن والذود عن حياضه. وكان يشترط في توليته أن يقسم بالطاعة التامة للقوانين المعينة لكل ساعة من ساعات نهاره عملاً من الأعمال المعهودة إليه. وكان عند ابتداء السنة الزراعية يثير الأرض بيده في حفلة علنية فيمسك بالمحراث ويحرث به على ملاء من رعيته أول خط من خطوط الزراعة. وكان في أثناء الحرب يقود بنفسه إحدى المركبات يحارب العدو فيها وسط جيشه.

وكان الشعب المصرى وثيق الارتباط بملوكه . شديد الكلف بهم. فإذا مات ملك لبس أثواب الحداد اثنين وسبعين يوماً وأغلقت أبواب الهياكل أثناء هذه المدة وعكف الأهلون على الصلاة والدعاء إلى الآلهة. وعلى أثر انقضائها يعرض تابوت الملك على ملاء من قومه عند مدخل قبره ليوجه إليه كل منهم ما يعن له من التهم بدون أن يكون هذا الحق المخول لجميع أفراد الأمة على السواء مانعاً أحد الكهان من الوقوف إلى جانبه ليخطب في الناس ذاكراً محامده مثنيا وشاكراً ومثوباً ، فإذا تلقى الجموع المحتشدة كلامه بالموافقة والاستحسان كان حقاً للملك الميت أن يفوز بنعمة الدفن في قبره، أو بالإعراض والاستياء حرم منها.

ومما ينهض دليلاً على قوة تأثير هذه العادة واستقرارها في النفوس ما يلاحظ حتى الآن من أن أسماء بعض الملوك المنقوشة على ماشادوه من الآثار الضخمة قد محيت محو تاماً إشارة إلى عدم الرضى عنهم. وقد زعموا أن التهييب من الأحكام الجنائية التي كان جمهور الشعب يصدرها على الملوك كان وازعاً لهم عن الإفراط والتفريط ، وراذعاً عن مجاوزة حد الاعتدال في سيرهم بين الرعية. ولكننى أرانى مع هذا عاجزاً عن تعيين الحد الكفيل بأن يتهييب حكم الأعقاب أناس لم يكثرثوا قط بمسلك معاصريهم نحوهم ازدراء بهم وتنقيصاً من أقدارهم.

١٧- الحكومة

كانت مصر مقسمة إلى مقاطعات يرأس كل منها رئيس عهدت إليه شئونها الإدارية والدينية والمدنية والعسكرية والمالية. قال العلامة (شامبوليون فيجاك) في مصنفه البديع «مصر القديمة» إن الجمعيات السياسية كانت تعقد علناً بأمر الملك أو بمقتضى القانون. إما لحادث طرأ أو في شأن خارق للعادة وإما لتقدير أموال الجباية وتعيين أنواعها ، وإما لتحويل أزمة الملك

والسلطان من قبضة ملك إلى ملك آخر، ولا سيما حوزة أسرة إلى أسرة أخرى. فكان كل إقليم من تلك الأقاليم يبعث بمن ينوبون عنه في الجمعية العمومية من النواب والوكلاء، وكان قصر التيه (اللابيرانت) مكان اجتماعاتهم للأغراض المتقدمة.

١٨- القوانين

ليس ما نعلمه عن التشريع عند قدماء المصريين موثوقا بصحته ولا مقطوعا بمطابقته حقيقة الواقع. وغاية ما انكشف لنا من أمره أنه عدل وحوار مرارا على أثر الغارات المختلفة التي منيت بها البلاد المصرية. على أن هذا لا يمنعنا من ذكر بعض الأحكام القانونية نقلا عن (هيروdotس) و(ديودورس) الصقلي فقد ذكر أن المصريين كانوا يعاقبون الحانت يمينه بالإعدام، وكانت الشريعة المصرية تسلم باليمين الحاسمة في كثير من الأحوال الخطيرة، وتفرض على كل مصرى الاحتياط لدرأ الجرائم والمطالبة بعقاب مرتكبها فالذى يرى أمرا قد أدركه الخطر مثلا ثم لا يسعه بدرئه عنه على قدر طاقته كان كمن يأثم بقتل نفس عامدا متعمدا ويعاقب كالقاتل. وكان فرضا على المصرى الدفاع عن نظيره ضد من يعتدى عليه ويريد به السوء وحمايته من غضبه. فإذا استطاع أن يثبت بالدليل القاطع عجزه عن موافاته بالمساعدة والإسعاف طالبه القانون باستكشاف المجرم والتعريف عنه والقيام بمقاضاته أمام المحاكم. فحق المقاضاة باسم العدل كان إذا من القواعد المقررة عندهم والواجبات المفروضة على جميع أبناء الوطن بالسواء. وكان شاهد الجريمة الذى يمتنع عن الشهادة يعاقب ضربا بالقضبان ويحرم الغذاء ثلاثة أيام وصلا وكان المدعى موجه التهمة إلى أجد، إذا ثبت أنه قصد بها الوشاية يجازى بالعقوبة المقررة للمتهم إذا ثبتت هذه التهمة قبله. وكان المذنب الذى لا تدركه التهمة في حياته لا يستطيع الفرار منها عند مماته إذ كان يكفى أن ينبعث صوت صادق بتوجيه التهمة إليه لتحرم جثته الدفن في القبر الذى أعد له.

وكان القصاص العقوبة الشائعة لمن يقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق. فن يقتل أباه جزاؤه الإحراق بالنار. أما الوالدون الذين يقتلون أبناءهم فكان عقابهم أن يعانقوا جثتهم ثلاثة أيام بلياليها. وكان جزاء منتهك العرض التمثيل به وعقاب الزانية جلع الأنف والزانى الضرب بالقضبان.

ومن أغرب قوانين مصر القديمة ذلك القانون الذى يسوغ السرقة ويجيزها إلى حد استتبع الاعتراف باللصوص كطائفة ذات زعماء ورؤساء يديرون شئونها ويدبرون أمورها. وكانت الطريقة المتبعة عندهم أن يتلقى هؤلاء من اللصوص ما يسرقونه من المال والمتاع ثم يردونه إلى أصحابه مقابل التنازل لهم عن ربع ثمنه، ومتى حصلوا على هذه الحصة جعلوها قسمة بينهم. وقد أجاز القانون المصرى عقب استيلاء الإغريق على الديار المصرية زواج الأخ بأخته.

١٩- العلوم

اختص الكهان أنفسهم بمدرسة العلوم والبحث فيها . ولقد ذكرت العلوم التى أخذوا منها بالقسط الأوفى. لذا أدع الإسهاب جانباً فى الكلام عليها. وما استطيع ذكره فى هذا الموضوع أن المصريين كانت لهم الباع الطولى فى العلوم الطبيعية والرياضية وفيما اتقنوا صنعه من مناطق فلك البروج دليل على إلمامهم بأهم الحوادث الفلكية. ولقد أنشأوا للكهان فى عين شمس وبعض أمهات المدائن مدارس خاصة كانوا يعكفون فيها على رصد الكواكب ودرس = ودراسة = أحوالها. وأشار المؤرخ سترابون إلى هذا الموضوع فقال إن المصريين كانوا أول من قام بترتيب الزمن وتقسيمه بحسب دورة الشمس لا القمر . إذ حسبوا للسنة إثنتى عشر شهراً ولكل شهر ثلاثين يوماً ثم ضموا إليها خمسة أيام وهى أيام النسيء التى سموها الأيام السماوية، وكانت السنوات عندهم نوعين نوعاً يسمى بالسنوات الشمسية المؤلفة من ٣٦٥ يوماً وربعا ونوعاً يسمى بالسنوات المدنية أو المبهمة المؤلفة من ٣٦٥ يوماً فقط. وكان تقهقر هذه السنة أو المبهمة فى التى قبلها يؤدى إلى فرق شهر واحد فى كل مائة وعشرين سنة وفرق سنة ذات ٣٦٥ يوماً فى كل ١٤٦٠ سنة، وكانت تعرف هذه المدة الطويلة عندهم بالسوتيقية. وقد توصل المصريون قبل غيرهم إلى تحديد السنة الشمسية بالدقة والضبط على أثر رصدهم شروق هالة الشعرى اليمانية. وكانوا لا يقسمون السنة إلى أربعة فصول كما هى الآن. بل إلى ثلاثة فقط كل فصل منها ١٢٠ يوماً.

٢٠- الزراعة والصناعة والفنون والتجارة

كانت الزراعة قوام حياة مصر وملاك وجودها الذاتى ولم تكن أعمالها كثيرة المشاق إذ كانوا يبدأون بها عقب انصراف مياه الفيضان. ذكر

هيرودتس: أن الفلاحين كانوا ينفثون البذور عندئذ على الأرض ثم يطلقون مواشيهم لتطأها بأقدامها فتدفن البذور وينتظرون بعد ذلك أوان الحصاد لمباشرة. والمصريون القاطنون فيما يلي (منفيس) جنوبا كانوا يحصلون من مزارعهم على أوفر الثمرات بأقل مجهود في العمل، لأنهم لم يكونوا بحاجة إلى إثارة الأرض أو شقها بالمحاريث أو قلبها بالفؤوس. كانت زراعة الحبوب أهم مايعنون به من صنوف الزراعة لأن أرضهم كانت تجود بالمحصول الوافر منها.

أما الفنون والصناعات فقد ارتفعت عندهم إلى الأوج الأعلى من الاتقان والإحسان. ولست بذاكر شيئا هنا عن المباني الضخمة والآثار المنجدة التي شادوها في كل بقعة من بقاع مصر، لأننى سأفرد لها بحثا خاصا متى حان وقت الكلام عن الآثار المصرية القديمة. إلا أننى لا أجد مندوحة منذ الآن عن تذكير القارئ بما كان للمصريين من البراعة والحدق في صناعة المعادن على الطرق والأساليب الكيميائية وانهم بلغوا من الإتقان في التمويه بالمينا وصناعة الخزف والزجاج البسيط والملون وغيرهما الشاؤ الأبعد، وأنهم شادوا المصانع الكبيرة لعمل السلاح والآنية على اختلافها، وأن أكثر حذقهم كان في صناعة المصوغات والجواهر على تباين أشكالها وعمل الآثار المنزلية والمنسوجات المشهورة بالمتانة والجودة. ولما كانت مصر غنية بحاصلاتها الطبيعية والصناعية فلا بد أن تكون من البلاد البارعة في ممارسة التجارة وترويجها.

٢١ - قمبيز

قمبيز - خلفاؤه - الأسرات الملوكية الوطنية الأخيرة

اقترن فتح الفرس للبلاد المصرية بالغلظة والقسوة في معاملة الأهلى وإطلاق يد التدمير والتخريب فى الآثار الباذخة. فإنهم مااحترموا العادات المرعية ولا صانوا المعالم الدينية بل أخذوا على المعابد وسلبوا ما فيها. وكان لاهم الملكهم (قمبيز) سوى اضطهاد الشعب وإيذائه فيما يحرص عليه من العقيدة الدينية. إذ ذبح بيده العجل (أبيس) كى يقيم الدليل للمصريين على أنه لم يكن إلها، وأنه لو كان كذلك لدفع عن نفسه ما حاق به. ولم يكتف بفتحه ديار مصر بل عداها إلى بلاد الحبشة وأنفذ فى الصحراء جيشا ضخما لإخضاع سكان واحة (أمون) ولكنه فشل فى الأمرين لأن الجيش الذى وجهه الى الأمونيين هلك فى رمال الصحراء ومات هو غما وكمدا بعد هلاكه بقليل.

٢٢ - خلفاء قمبيز

في عهد داريوس بن هستاسب أحد خلفاء قمبيز بمصر أحس المصريون بانفراج الكربة وعاد إليهم ما فقدوه من الطمأنينة في عهد هذا الفاتح الظالم الغاشم فشيدت الهياكل الدينية لآلهة مصر تحت رعاية ذلك الملك الجليل ولا يزال أحدها وطيد الدعائم شديد المقاوم في الواحة الخارجة. وكان مما صرف داريوس إليه همته تمهيد طرق المواصلات بين النيل والبحر الأحمر، على أن المصريين لم يلبثوا أن نقموا عليه في آخر أيام حكمه وهبوا إلى الثورة فأخضعهم (أركزرسيس) خلفه وألزمهم ملازمة الطاعة له ولكنهم ثابوا = رجعوا = إلى الثورة ثانيا في أيام ابنه فأرهبهم من المظالم والمغارم بأكثر مما فعل أسلافه انتقاما منهم وتنكيلا بهم. على أن المصريين لم يثنهم عن عزيمتهم فشلهم المتوالى في تحقيق مرادهم. إذ تمكن زعيمهم (أميرته) عام ٤٠٤ قبل الميلاد من رد استقلالهم المسلوب إليهم. فيكون الفرس قد تملكوا مصر في هذه المرة مائة وعشرين عاما.

٢٣ - الأسرات الوطنية الأخيرة

كانت الأسرة الثامنة والعشرون وهي الأخيرة من الأسر المصرية مقتصرة على الزعيم (أميرته) السابق الذكر ولم تتجاوز مدة حكمها ستة أعوام إذ خلفتها أسرة منديسية الأصل هي الأسرة التاسعة والعشرون المعروفة بالمنديسية، وقد بلغ عدد ملوكها خمسة لم تتعد مدة حكمهم إحدى وعشرين سنة، ثم خلفتها الأسرة الثلاثون المعروفة بالسبينية، وكانت مؤلفة من ثلاثة أمراء بلغت مدة حكمهم ثمانية وثلاثين عاما. وفي عهد الأخير منهم وهو الملك نقطنبو (الثاني) أي سنة ٢٣٨ قبل الميلاد استولى الفرس ثانيا على مصر. وكان حكمهم في هذه المرة قصيرا جداً لم يتجاوز سبع سنوات أحنى على دولتهم في ختامها الإسكندر الأكبر باستيلائه على مصر في السنة التالية - أي في سنة ٣٣١ قبل الميلاد.

٧-البطالسة

الإسكندر الأكبر- اللاغيون- حضارة البطالسة- الاحتلال الرومانى

حرر الإسكندر الأكبر مصر وخلصها باستيلائه عليها من ربقة العبودية. فان المقدونيين لم ينتهوا من فتحها فى سنة ٣٣١ من الميلاد حتى طرح هذا الفتح عليها شعاعا جديدا من نبراس الحضارة والعرفان أكسبها بهجة وبهاء ولقد أفاض عليها ذلك البطل نعمة من أجل النعم بتخطيطه فيها مدينة تجارية فى موقع أحسن اختياره لها بما خصه الله به من صواب الرأى وسلامة الذوق، ولم تلبث هذه المدينة عقب إنشائها أن صارت درة فى تاج مدائن العالم وثغوره، وبعد وفاته التى أعقبتها تجزئة فتوحاته وتقسيمها بين قواده آلت مصر إلى واحد من هؤلاء فاستلم زمامها واستوى على عرشها باسم (بطليموس سوطر) فبطليموس هذا هو أول ملوك الأسرة الثانية والثلاثين من الأسر الملوكية المصرية ، وتعرف باللاغيين وقد بلغ عدد ملوكها إثنى عشر ملكا ومملكة واحدة ظل حكمهم قائما على أوثق القواعد وأحكمها مائتى عام وأربعة وتسعين عاما، وهاك أسماء هؤلاء الملوك الذين تعاقبوا الحكم على البلاد من تلك الأسرة.

بطليموس سوطر	المتوفى سنة ٢٨٣ قبل الميلاد
بطليموس فيلادلف	المتوفى سنة ٢٤٧ قبل الميلاد
بطليموس افرجيطة	المتوفى سنة ٢٢٤ قبل الميلاد
بطليموس فيلوباطور	المتوفى سنة ٢٠٤ قبل الميلاد
بطليموس ابيفان	المتوفى سنة ١٨٠ قبل الميلاد
بطليموس فيلوميطور	المتوفى سنة ١٤٥ قبل الميلاد
بطليموس افرجيطة (الثانى)	المتوفى سنة ١١٦ قبل الميلاد
إسكندر الأول	المتوفى سنة ٨٨ قبل الميلاد
بطليموس سوطر الثانى	المتوفى سنة ٨١ قبل الميلاد
إسكندر الثانى	والمتوفى سنة ٨١ قبل الميلاد
بطليموس أوليت	المتوفى سنة ٥٢ قبل الميلاد
بطليموس دنييس	المتوفى سنة ٣١ قبل الميلاد

ولم يكن حكم البطالسة وتسلطهم أثناء هذه المدد إلا نسيجا من حوادث متضاربة ومكائد عائلية وفتن داخلية. لهذا كانت ولايتهم خالية من الفوائد التاريخية.

على أن مصر بلغت في عهد البعض منهم شأوا بعيدا من الرقعة والتقدم والرفاهية. فلقد انفتحت أبواب الرواج لتجارتها وأصبحت الممر الوحيد لحاصلات الهند الى بلدان البحر المتوسط، وسطعت أنوار العلوم بسناء يخطف الأبصار. وكان تقدمها وإتساع نطاقها في الإسكندرية مما يذكر مقترنا بالدهشة والإعجاب، فعلم الفلك والطب والفلسفة سما بها الإسكندريون إلى الأوج الأعلى سموا لاتزال ذكراه مدونة بحروف لاتمحي في تاريخ تقدم العقل البشرى.

ولقد رأت مصر في ذلك العصر كيف اندمجت فيها مدنيات جملة من الشعوب بانفتاح أبوابها لليونان واليهود والأشوريين والرومان وامتزاج أخلاق هذه الشعوب وأفكارهم ودياناتهم وعقائدهم الامتزاج الذى تولدت منه مدرسة اشتهرت بالعلوم الفلسفية، وانطوت تحت لوائها العقيدة المصرية المبنية على تعدد الآلهة بعد أن حورت تحويرا خفيفاً مكنها من الحيلولة دون انتشار الديانة المسيحية التى كانت وقتئذ قريبة العهد بالظهور.

ولكن لم تلبث أسرة البطالسة أن سطت عليها أيدي الفساد وترتب على احتدام نار الفتن الأهلية في أيام الأخيرين من ملوكها أن تطلع الرومان إليها وتدخلوا في شئونها وكان (قيصر) قد تغلب وقتئذ على (بومبيوس) فمر بالإسكندرية حيث عاون (كليوباترة) على استلام زمام الملك. وكانت هذه الملكة قد اقترنت أثناء الحرب الأهلية بانطوان ثم ماتت معه في معركة (أكتيوم) فأصبحت مصر عقب ذلك على عهد الامبراطور أغسطس إقليما تابعا للدولة الرومانية.

الحكم الرومانى

السياسة الرومانية - الديانة المسيحية فى مصر - المنازعات الدينية - الأقباط يدعون العرب إلى الإغارة على مصر.

٢٥ - كانت سياسة الإمبراطور اغتوس نحو مصر قائمة على أساس الحزم والتبصر. وهى مما يساق دليلا على معرفة هذا الملك الحاذق بأحوال البلاد وإلمامه بدخائلها. فهى من هذا الوجه جديرة بالتدبر وإمعان النظر فيها حتى فى هذه الأيام. وذلك لأنه كان يوجد فى عهد الرومان كما يوجد فى زمننا مسألة شرقية فى الغاية القصوى من الأهمية، وكان لابد من طرح هذه المسألة على بساط البحث والتمحيص وإعداد الحل العملى لها طبقا لما ذكره (تاسيتوس) فى عبارته الفخمة باللغة اللاطينية وهى :

كان الإمبراطور (اغستوس) يرى فى امتلاكه مصر مصلحة حيوية لدولته. لأنها فضلا عن أهمية موقعها الجغرافى كانت وفيرة الخيرات الزراعية فاتخذها هذا الامبراطور مستودعا للحبوب اللازمة لرومية = لروما = وجعل عليها حاكما أوكل إليه مهمة موافاة العاصمة الرومانية - وهى عاصمة العالم وقتئذ بما يكفى من الحبوب لتموين سكانها قبل انقضاء شهر أغسطس من كل عام وفرض عليه جعل أملاكه الخاصة ضمانة للقيام بتلك المهمة على أحسن وجه وأتمه فكان إذا بدا منه تقصير أو عجز صودرت أملاكه وضمت إلى أموال الحكومة.

ومن هذا نرى أنه كان لامندوحة للدولة الرومانية من العناية باتخاذ الوسائل الكفيلة باستدامة امتلاك إقليم بلغ ذلك المبلغ من الأهمية وخطورة الشأن.

ولقد استحدث الامبراطور أوغستوس لإصابة = لتحقيق = هذا الغرض سابقة لم يلبث خلفاؤه أن اقتدوا به فيها وهى أن لا يعهد بالإدارة العليا لمصر إلى أحد ما من سلالة الأعضاء فى مجلس الشيوخ. لاسيما إذا كان من ذوى الجاه والنفوذ ، فعهداها إلى فارس بسيط من الفرسان الرومانيين يأتمر بأمره حكام الأقاليم والمديريات المختلفة وثلاثة جيوش منبثة فى أرجاء القطر إلى حدوده الجنوبية . وكان والى مصر كثيرا ما يبدل بغيره خشية أن يصبح له من القوة والسلطان ما يمهده له السبيل لاغتصاب الحقوق التى جاء ليمثل الإمبراطور فيها.

ومن جهة أخرى فإن الامبراطور أغستوس لم يمنح الأمة المصرية حقاً ولا حرية مما اعتاد الرومانيون منحه الشعوب المغلوبة على أمرها. نعم إنه احترم عاداتهم المدنية والدينية ولكنه ضمن عليهم بما يمهّد لهم الحصول على حريتهم السياسية، وهناك أمران عاليان من الأوامر التي أصدرها يشهدان صراحة بما كان يخالجه من النيات في هذا الصدد. إذ قضى في أحدهما بحرمان أشرف المصريين من التوجه إلى رومية للانتظام في سلك مجلس الشيوخ، وحتم في الثاني على أعضاء هذا المجلس وعلى الفرسان الرومانيين ألا يهبطوا مصر إلا بإذن من الإمبراطور.

وكان يهم الدولة الرومانية إسعاد مصر بتنمية ثروتها لعلمها بما تجنيه من الثمار وتستفيد من المزايا بذلك. فلا عجب إذا عُنيت بإصلاح ترعها القديمة وحفر ترع جديدة غيرها. واتسع نطاق التجارة البحرية وبلغت الإسكندرية من رفعة الشأن وسعة الثروة ما جعلها إلى عهد إنشاء مدينة القسطنطينية المدينة الثانية على وجه المعمورة.

ولقد ظلت مصر أيام تسلط الرومان عليها مسرحاً للفتن الداخلية والمشاغبات الأهلية ومحطاً لأنظار الطامعين حتى لقد سارعت بفتحها زنوبيا، ملكة (تدمر) وسرعان ما ردها بعد ذلك الامبراطور (أورليانس) إلى حظيرة السيادة الرومانية، ودخلت إليها الديانة المسيحية في عهد الإمبراطور (دومسيانوس) وانتشرت فيها انتشاراً عظيماً بالرغم من اضطهاد الرومان لها بما اتخذوه من الذرائع القاسية لأخذ المسالك عليها، ولقد كان هذا الحادث الديني سبباً لإعطاء مصر مساحة جديدة من الشهرة فإن إقليم (طيبائيد) أصبح أهلاً بالرهبان، وقضى الإيمان الديني بتقديس صحاريها المترامية الأطراف، وأختصت مدينة الإسكندرية بشطر كبير من الحركة الدينية في القرون الأولى من التاريخ الميلادي. وكان (أريوس) قسا لهذا الثغر والقديس (أطناسيوس) خصمه اللدود الذي لا يمل مناصبته العداوة، ثم صار بطريقاً لها فنشأ عن المنازعات الدينية في مصر مانشأ عنها بالشرق المسيحي لذلك العهد من المعارك التي سالت فيها الدماء وفاضت الأرواح.

ولما قسم قسطنطين المملكة إلى قسمين كبيرين جعلت مصر في القسم الذي اتخذته القسطنطينية عاصمة له، ولكن الدولة الأخيرة المعروفة بالدولة السفلى كانت قد أفسدتها الفتن الداخلية ونال منها الضعف واشترأبت نحوها أعناق المطامع من كل جانب. فلم تستطع أن تحفظ في قبضتها ذلك الإقليم

ولا أن تدفع عنه عادية العدوان على أن الفتن الدينية والانقسامات المذهبية قد عجلت بخسارته قبل الأوان الذي كان يتوقع حدوثها فيه.

وكان سواد الشعب المصرى قد انضم إلى فرقة اليعقوبيين، وانفصل بهذا الانضمام عن الكنيسة البيزنطية. فتولدت لهذا السبب في نفوس المصريين اليعقوبيين (الأقباط) الضغائن على الحكام الأورام القابضين على أزمة أمورهم. وبالغوا في نفث ما في صدورهم من كامن الأحقاد عليهم إلى حد أنسأهم ما تتطلبه ديانتهم من العناية بمصالحها. فإن بنيامين بطريرك الأقباط وبعض ذوى الجاه والنفوذ من المصريين لم يترددوا في استدعاء المسلمين أعداء الديانة المسيحية إلى مصر. وكان هؤلاء قد استولوا وقتئذ على قسم من بلاد الشام مفضلين الرضوخ لحكم المسلمين على البقاء تحت سيطرة إمبراطور القسطنطينية، وقد تلقى المسلمون إلتماسهم بالمسارعة إلى قبوله والمبادرة بتنفيذه. إذ استولوا على الديار المصرية عام ٦٤٠ من الميلاد - أى في أيام الإمبراطور هرقل أو هيرقليوس.

(٩)

حكم الخلفاء والسلاطين من المماليك

٢٦- استولى العرب بقيادة عمرو بن العاص على مصر، وكان الأهلون يشدون أزرهم ويمدونهم بما يلزمهم في زحفهم من المؤن. فلم تلبث الإسكندرية أن وقعت في حوزتهم. أما نهبهم هذه المدينة وإحراقهم مئات الألوف من المصنفات التي احتوتها مكتبتها الثمينة فإن شهرته تغنى عن ذكره- أما سبب الإحراق فراجع إلى أن عمرو بن العاص استشار الخليفة في شأن هذه الكتب وتنقيتها = ونقلها = للمسلمين فأجاب: «إنه إن يكن مافيهما هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله، وفي الحالتين ينبغي إحراقها» فأحرقها عمرو تنفيذا لهذا الأمر وتلاشت بذلك دار كتب اللاغين وحرمت العلوم والآداب دررها الثمينة^(١) ولكن عمرا إذا سلك بهذه المناسبة المسلك الذي تستدعيه الشدة في التعصب للإسلام فقد سلك مسلك الكرم والتسامح حيال المسائل الأخرى. فلقد أفاد البلاد المفتوحة مزايا لاحصر لها نذكر منها إنشاء مدينة الفسطاط واتخاذها إياها عاصمة لمصر وحفره الترعة المعروفة بترعة أمير المؤمنين للإيصال بين النيل والبحر الأحمر. على أن الولاة بعده لم يستنوا بسنته ولم ينهجوا في هذا الصدد سبيله. فإنه بعد أن تملك الأمويون فالعباسيون مصر استقل بالأمر فيها أحمد بن طولون رأس الدولة الطولونية التي لبثت عهدا قصيرا قابضة على زمام الأحكام. ومن أعمال هذا الأمير الحصون التي أقامها حول الإسكندرية ولا تزال آثارها باقية حتى الآن.

وخلف الطولونيين في الأخذ بزمام الحكم الدولة الإخشيدية التي قامت

(١) كان الروم السائد بأوروبا في القرن التاسع عشر أن عمرو بن العاص هو الذي أحرق دار كتب الإسكندرية بناء على أمر من الخليفة عمر بن الخطاب، وبلغ من شيوخ ذلك الروم فيها أن الكتب المدرسية كمعجم (لاروس) الصغير مثلا في مفردات اللغة الفرنسية كانت تعتبر كلمة (عمر) مرادفة لكلمة (الجهل) ولكنها عدلت عن هذا التعريف المبني على الجهل والتعصب منذ أقام علماء أوروبا الدليل القاطع على عدم وجود مكتبة ما في الإسكندرية وقت استيلاء عمرو بن العاص عليها فإن هذه المكتبة احترقت للمرة الثانية في سنة ٢٨٩ من الميلاد - أي قبل فتح الإسكندرية على أيدي المسلمين بأكثر من مائتي وخمسين عاما وكان إحراقها بفعل المسيحيين أنفسهم يوم هاجموا هيكل السرابيوم (رواق الحكومة أو مدرسة الاسكندرية) الذي كان عمود السورى قائما وسط صحته وقتلوا أهله من الكهان المصريين الذين أبوا التدين بالنصرانية ثم احترقوا وقد عثر مجلس الاسكندرية البلدى منذ سنوات على أثر الدخان بجدران ذلك الهيكل أثناء قيامه بالحفر لاستكشافها. هذا وقد زار الرحالة المؤرخ يوسيفوس الإسكندرية في خلال القرن الخامس من الميلاد - أي بعد احتراق مكتبتها للمرة الثانية وقبل ظهور الإسلام قلم يشر بكلمة فيما ذكره من معاهد تلك المدينة عن دار كتبها العظيمة.

بأعباء الأمر ردحا قصيرا من الزمن وليت الأحكام بعدها الدولة الفاطمية (سنة ٨٨٢ ميلادية) وهى التى رتعت مصر خلال حكم الخلفاء الأولين منها فى بحبوجة النعيم والهناء، وتأيدت شوكتها وامتنع جانبها وأنشئت مدينة القاهرة التى ما عتمت أن أصبحت عاصمة الملك ونبع العلوم والعرفان. وأصل مؤسسى هذه الدولة ورافعى صرحها وناشرى لوائها من صاحبة فاس بالمغرب الأقصى هرعوا إلى مصر منها حاملين من آثار الحضارة العربية التى سطعت أنوارها على آفاق الأندلس إلى ذلك العهد ما كان سببا لفيوض أنوار العلوم والفنون فى أنحاء الأقاليم المصرية . غير أن المتأخرين من خلفائها انتابهم الفساد وتحيفهم الضعف فزالت دولتهم وثل عرشهم وثل صولجان الملك من يدهم إلى عهدة الأيوبيين (سنة ١١٧١ من الميلاد).

ولقد سطع نجم الأيوبيين على أفق الصعود، وعلا حتى بلغ إلى الأوج فى عهد الأول من سلاطينهم، وانتشر ذكرهم فى الخافقين مقرونا بهيبة الجند وشدة البأس، وكان الصليبيون قد تغلبوا على المسلمين فى ربوع الشام فآل أمرهم إلى الضعف والتدابير والتخاذل حتى كادوا فى الوقت الذى ظهر فيه صلاح الدين أول السلاطين الأيوبيين يردون موارد الفناء والتلاشى فرفع من شأن الإسلام، وجدد مايلى من قوته وهيبته بما أتيح له من الفوز وعقد لوائه به من الانتصار.

وفى عهد أسرة هذا السلطان سمت مصر إلى الأوج الأعلى من العلم والعرفان واتسع نطاق تجارتها حتى عادت إلى ماكانت عليه فى عهد البطالسة من الرواج ونفاق السوق وتوثقت الروابط التجارية بينها والهند من جهة وبلاد حوض البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى.

وكان من حظ الأيوبيين أن تمت لهم الغلبة على الصليبيين. إذ فازوا عليهم فى حروبهم كافة. وعلى عهد الأخير من سلاطينهم نزل القديس لويس (الملك لويس التاسع) إلى بر مصر فأسر فى معركة فارسكور التى دحر الصليبيون فيها وقد طالبت فرنسا الممالك بحساب هذه المعركة بعد ستة قرون من الزمان.

وقد آل تراث الأيوبيين - إذ تأذن الله بإنقراض الملك منهم - إلى الممالك البحرية (سنة ١٢٥٠) وكانت الدولة العباسية ببغداد قد أشرفت على الفناء ثم ثل عرشها فى أوائل حكمهم فلجأ إلى مصر من بقى على قيد الحياة من أسرة

الخلافة فيها فاعترف المماليك بسلطتهم الدينية وصارت القاهرة مقر الديانة الإسلامية ومهبط وحى الخلافة، وحلت في ذلك محل بغداد إلى أن تغلب على مصر سلاطين آل عثمان فانتزعوا من آخر الخلفاء العباسيين بمصر السلطة الدينية ليعززوا بها سلطتهم السياسية.

وخلف المماليك البرجية المماليك البحرية (سنة ١٢٨٢) فلم يؤثر عنهم من الأعمال إلا ما سنوه في مدة تسلطهم من الأنظمة التي بنوا عليها صرح نفوذهم وأقاموا دعائم شوكتهم فإن التاريخ لم يذكر مثالا للطبقة الارستقراطية التي تألفت منهم بفعل أحد السلاطين الأيوبيين من سلالة صلاح الدين، فإن هذا السلطان أراد أن يذهب مذاهب الملك في جلال المظهر مع الحرص على الذات فأساء من حيث أراد أن يحسن وأخطأ من حيث ظن أنه يصيب. وذلك انه اشترى إثني عشر ألف مملوك من الجراكسة والأبازية والمنجارية وبعد أن برّبهم على الحركات العسكرية والفنون الحربية ألف منهم جندا لم يلبث أن صار أشد الجنود الآسيوية الأصل بأسا وأقواهم بطشا. وكانت سلطة مواليتهم قد آلت على توالي الأيام إلى حوزتهم فغلبوهم على أمرهم وتصرفوا في أحوال الدولة على ما شاءت أهواؤهم، ثم لم يلبثوا أن أسقطوهم عن عروشهم واختاروا السلاطين لهم من بينهم وأخذوا يؤلفون برسم أنفسهم فرقا من المماليك على الوجه الذى ألفته بمقتضاه فرقمهم فتضاعف عددهم وحصلت لهم العصبية الكفيلة بالقدره على تنفيذ أحكامهم والتغلب على من سواهم.

وطريقة جلبهم إلى مصر أنهم كانوا وهم في مقتبل العمر يباعون في أسواق النخاسة بيع الأرقاء ثم ينقلون إلى ذلك القطر الذى قدر لهم أن يقبضوا على زمام أحكامه بدون أن تربطهم به صلة وطن ولا أسرة قرابة.

ولم يكن عجبا أن يعاملوه وأهله معاملة البلدان المفتوحة والأمم المغلوبة على أمرها إذ لم يكن يعنيه من شأنه وشأن أهله سوى التفتن في ضروب ابتزاز الأموال واستدراار الخيرات، فتطوروا بطور الحضارة والترف، وألفوا النعيم ونضارة العيش، وبلغوا في ذلك الغاية حتى أصبح حكمهم القائم على أساس التوحش والهمجية سلسلة متصلة الحلقات من الفوضى والاحتلال والمكايد المراد بها تعزيز الأطماع الذاتية وتقضى وسائل العنف والقهر بما يؤدى إلى سفك الدماء وإفاضة الأرواح لتحقيقها.

(١٠)

حكم الأتراك والمماليك

حكومة مصر في عهد الأتراك — على بك — السيادة الخيالية للباب العالي على مصر — الاستقلال الحقيقي للمماليك.

صارت مصر في سنة ١٥١٧ - أى أيام السلطان سليم الأول إقليما تابعا للدولة العثمانية . ولقد أيقن هذا السلطان عقب استيلائه عليها أنه سيتعذر على حكومته لبعد مصر من مقر السلطنة إظهار سطوتها وتعزيز سلطتها فيها.. وكان من جهة أخرى في حاجة إلى مدارة المماليك واستمالتهم إليه ليأمن من جانبهم فابتكر لإدارة شئون البلاد أسلوبا أحكم تدبيره بحيث إذا طبق أفضى إلى تحقيق متمناه من ذلك. فإنه جزء السلطة العامة أجزء جعل كل جزء منها وقفا على طائفة من طوائف المماليك وفرقهم وأتم ذلك على وجه يقتضى مراجعة الدولة العلية وتداخلها كلما اختل التوازن والتعادل بين قوى تلك الأجزاء.

أما شئون الحكومة ومناصبها فقد عهدت إلى ديوان أعضاؤه من كبار المماليك وزعمائهم ، وأما الإدارة المحلية فقد نيّطت بأربعة وعشرين بيكا منهم هم رؤساء تلك الفرق والطوائف وزعماءها.

وكان لهؤلاء أن يجبوا الفرض والضرائب الجزئية، فيأخذ الديوان منها حصة تعدل الجزية السنوية التى يجب دفعها إلى الباب العالي. وكان للسلطان فى البلاد وال برتبة الباشا يمثله فيها لدى أهلها وحكامها وكانت تنحصر مهمته فى إبلاغ الأوامر التى يتلقاها من السلطان إلى الديوان وإيصال مبلغ الجزية إلى خزينته وصيانة البلاد من الإعتداء الخارجى ومقاومة نمو الأحزاب وتفاقم خطرهما.

وألفت فرق من مستحفظان الانكشارية والأسباهية بقيادة رؤساء يسمون بالوجاقلية لتأييد الباشا والذود عن حقوقه واختصاصاته. ولكنهم بالنظر لاعتيادهم فى مصر خصب العيش وأخذهم بمذاهب أهل الحضر فى الترف والنعيم ذهب منى البسالة فنشأوا على كراهية المغامرة التى جعلت انكشارية القسطنطينية من أولى البأس والشدة، ونجم عن هذا وذاك أن

احتفظ الممالك بعصبيتهم ولم يفقدوا شيئاً من صولتهم، وكان لأعضاء الديوان أن يرفضوا أوامر الباشا ويمسكوا عن المصادقة عليها بشرط توافر العلة والمبرر بل كان في قدرتهم العمل لإقاعده وعزله من منصبه.

ومن ثم تضاءلت على توالى الأيام سيادة الباب العالي على مصر وأصبحت ضيقة النطاق حتى صارت في النصف الثانى من القرن الثامن عشر إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة.

وفي سنة ١٧٦٦ رفع على بك أحد البكوات الممالك على الدولة العثمانية لواء العصيان وأحجم عن دفع الجزية وطرد الباشا المعين من قبلها، وضرب النقود باسمه ودحر الجيش العثماني في جميع المعارك التي اشتبك معه فيها. وبايعه شريف مكة سلطاناً على مصر، ولكن بعض حاشيته كادوا له ففشلت ثورته وأخفق سعيه. على أنه لم يكن هناك شك في أن السلطة العثمانية بمصر كان قد انصدعت من جراء هذه الثورة صرحها المشيد وتزعزعت أركانها فأصبحت عرضة لخطر السقوط والزوال فقد سهل على الممالك منذ هذا الحين إقعاد الباشوات ونفيهم بلا معارض ولا مشاق، وكان هؤلاء يشعرون بضعفهم وخرج مركزهم إلى حد أنهم كانوا إذا وصل إليهم بلاغ يدعون فيه إلى التنحي عن منصب الولاية ومغادرة المدينة بادروا من فورهم إلى الطاعة فغادروا قصورهم المشيدة بلا ممانعة ولا محاولة مقاومة، وخلف من بعد على بك خلف تفوقوا عليه في الاحتياط وحسن التدبير وصدق النظر فإنهم بالرغم من إتصافهم مثله بفضيلة الفتوة والبسالة والإقدام اتقوا مزالق المناداة باستقلالهم ولم يطفروا إلى هذه الغاية البعيدة التي كانوا يعرفون أنه يسوء الدولة العلية ذكرها. لاسيما وأنهم يعتقدون أن ما هم فيه من الاستقلال الفعلى يغنيهم عن إعلان استقلالهم الاسمى. بل تظاهروا باحترام الدولة وإجلال الأوامر الواردة عليهم من السلطان مع التجافى عن تنفيذها.

وكانوا فيما عدا ما تقدم ينتقصون الجزية السنوية ويقصّونها من أطرافها متقدمين إلى الخزينة بالأعذار الوجيهة كزعمهم أنهم أنفقوها في مصالح الدولة وتأييد شوكتها وبلغت الجرأة أحياناً بهم إلى التوقف عن دفعها بالمرّة متذرعين بباطل الأعذار وفاسد المدعيات. وما كان في وسع الباب العالي تجاه هذا العبث إلا أن يغمض الطرف ويجر ذيل الإغضاء عليه علماً منه بما يعقب

التحفز لإصلاحه أو قمعه من النتائج الخطيرة بالنسبة له. ومن ثم اتجهت سياسته إلى غاية واحدة هي إلقاء بذور التدابير والانقسام بين الممالك مع إتخاذ الوسائل لمنع تغلب حزب على حزب حتى لا يتمكن الحزب القوى الغالب من تأييد شوكتة وتوطيد سلطته على وجه تتم به الوحدة ويتوافق النظام . وكانت هذه السياسة سيئة العواقب على الأمة المصرية التي كانت تسوء أحوالها على الدوام ويضطرب حبل شئونها كلما سادت الفوضى وعم الاختلال وتحسن كلما ارتكزت السلطة على أسس وطيدة من الهمة والهيبة والنظام.

الحملة الفرنسية

الغرض من هذه الحملة - النزول في ثغر الإسكندرية - واقعة الأهرام هزيمة أبى قير - نتائجها - كليبر - الانتصار في هليوبوليس (عين شمس) - منو - الجلاء - نتائج القمع الفرنسى.

١٢- لما وصل بونا برتة إلى مصر ووطئت قدماء ثراها في أول يوليو، سنة ١٧٩٨ كان يتصرف في شئونها ويقبض على زمام الحكم فيها إثنان من البكوات المصريين أى المماليك.

أما العلة التى لأجلها ألفت حكومة الدركتوار الحملة التى عهدت رئاستها إلى ذلك القائد الخطير من ٣٦٠٠٠ مقاتل وأنفذتها إلى ضفاف النيل لاحتلاله. فهى أن المماليك كانوا يتصدرون للتجار الفرنسيين بالإحراج والمغارم حتى علت أصواتهم بالشكوى والاستصراخ. غير أنه كان هناك سبب أشرف مغزى من قصر إنزال العقوبات بهؤلاء المعتدين وتصريف السطوات فيهم ردعا لهم عن الافحاش في المظالم والمغارم وهو ان القوة الإلهية كانت تدفع بالفرنسيين الى التدفق على البلاد الإفريقية من غير أن يستطيعوا لها صدا. فلم يسعهم إلا أن يطاوعوا هذه القوة القاهرة. فلقد جال بخاطر الملك لويس الرابع عشر أن ينفذ اقتراحاً رفعه إليه الوزير (لبنتز) للاستيلاء على مصر، وطرحته هذه المسألة على بساط البحث والمناقشة في وزارة (الدوق دى شوازول) فلما عاد بونا برتة من إيطاليا حبذ فكرة (لبنتز) وصدق لها استحسانا معتقدا أنها من الأغراض السامية الجديرة بالعمل على تحقيقها. وبلغ من حماسه لتلك الفكرة أنه قال ذات يوم في حديث له: «إن الشهرة لا تكتسب إلا في الشرق» ولقد أيقن بصواب هذا الرأي يوم قال له كليبر في أبى قير: «أيها القائد: إنك لكبير كهذه الدنيا» وأدرك أنه لم يخطئ حينما أقبل على بلاد الأهرام يلتمس منها المجد والفخر — أى الطلسم الذى يربط بالأنوع البشرى كله حظوظ الفطاحل والعبقريين.

على أن نابليون شرح في جمل قصيرة الغرض السياسى الذى كان يرمى إليه بتنظيم حملته على مصر فقد قال:

«إن الغرض الأول من حملة الفرنسيين على مصر هو رضح شوكة الانكليز في الشرق الأوسط. إذ لا طريق غير وادى النيل للجيش الذى يناط به أداء هذه المهمة الخطيرة بتغيير مجرى الأحوال في الهند. وكان لابد في إصابة هذا الغرض من حلول مصر محل (سان دومنج) و(الانتيل) والتوفيق بين حرية العناصر السوداء ومصالح صناعاتنا. وكان بدهيا أن يفضى الاستيلاء على مصر. إلى ضياع جميع المستعمرات الانكليزية في أمريكا والهند وأنه متى أصبح الفرنسيون أصحاب الكلمة العليا في مرافئ إيطاليا وجزيرة (كورفو) وجزيرة (مالطة) والإسكندرية صار البحر الأبيض المتوسط لامحالة بحيرة فرنسية هذا الحلم اللذيذ لم يتحقق - ويا للأسف - قط!

وإذا كنت لا أقصد في هذا المقام إلى إيراد تاريخ الفتح الفرنسى لمصر فإننى أقتصر على القول بأن الإسكندرية وقعت في قبضة الفرنسيين عقب يومين من نزولهم إلى البر، ولم يبق بونابرتة في هذا الثغر إلا الوقت الكافى لترتيب الحكومة وتنسيق أنظمتها ثم سار من فوره زاحفا على القاهرة، وكان مراد بك قد عاهد نفسه على أن يشطر الجيش: الفرنسى بصارمه البتار كما تشطر البطيخة بالسكين. يقول بونابرتة : فلما كان الثالث عشر من يوليو حمل مراد بك بفرسانه المصريين فلم تلبث شدة حملاته أن تلاشت عند اصطدامها بأركان مربعاتنا المنيعه فلما رأى المماليك ما حل بهم من الفشل والعجز أخذوا يفسرون خططنا الحربية التى لم تكن قبلا معروفة عندهم بقولهم إن مشاتنا كانوا لتلاحمهم وتراكنهم بعضهم إلى بعض كالبنيان المشيد يحيط به سياج من الحراب. ثم احتفظوا بقواهم كلها رجاء المدافعة شبرا شبرا من مدينة القاهرة فربضوا بين النيل والأهرام يتربصون بنا السوء، وزعموا فى لغو كلامهم وحديث خرافتهم أنهم سيشهدون فى هذا المكان انكسار شوكتنا وأقول نجمنا ولكن خاب فآلهم وطاش سهمهم لأن واقعة الأهرام جاءت حاسمة بانتصارنا وخذلانهم فإن جيشهم الذى حشدوه بإمبابة مؤلفا من ستين ألف مقاتل أشفى على الهلاك والتلف إذ انجلت المعركة عن موت عشرة آلاف من المماليك قتلا فى ميدان المعركة أو غرقا فى النيل فمعركة ٢١ يوليو أفضت إلينا بزمam مدينة القاهرة وبالتالى القطر المصرى كله من أقصاه إلى أقصاه.

ولكن لم تنقضى أيام عشرة على هذا الفوز المبين حتى مر على سواحل أبى قير رسم الدوننمة الفرنسية وذهبت ضياعا بتلاشيها النتائج الباهرة التى كان من المنتظر أن يفضى نجاحنا إليها قال نابليون فى مذكراته (المجلد الثانى) «لقد كان لخذلاننا بواقعة أبى قير تأثير كبير فى شئون مصر. بل فى شئون العالم كله فإنه لو قدرت النجاة للدوننمة الفرنسية ولم يدركها ما أصابها لما لقيت الحملة على الشام عقبة ما فى طريقها بل لتوافرت الوسائل لنقل مدافع الحصار إلى ما وراء الصحراء ولما فشلت الجيوش الفرنسية عند أسوار عكا. أما وقد دمرت تلك الدوننمة ومحي رسمها فقد أقدم الديوان (أى الحكومة العثمانية) على محاربة فرنسا فخرس جيشنا بذلك سندا قويا وتحولت الحال فى مصر إلى نقيضها وأنقبض رجاء نابليون فى التوصل بنتائج الحملة على مصر إلى تأييد شوكة فرنسا وسلطانها فى الغرب».

ولم يكن فى استطاعة جيشنا بمصر التفكير فى الاحتفاظ بفتوحاته وقد انقطعت المواصلات مع فرنسا على المثال المتقدم، وانصرف خاطرها إلى ماوقع بها من النكبات والمحن فى إيطاليا وألمانيا فلم يسع كليبر الذى كانت قيادة الجيش قد آلت إليه إلا أن يتخذ الوسائل للجلاء عن وادى النيل وأن يراعى بذل ما فى الوسع للاحتفاظ بما أصابه من الشرف والمجد على أثر ظفر بونابرته بالأتراك فى أبى قير ذلك الظفر المبين الذى انمحي به عار انكسارنا البحرى فيها وعودته إلى فرنسا. فقد عقد كليبر مع الأتراك فى العريش إتفاقية تعهد فيها بالجلاء عن القطر المصرى فى ظرف ثلاثة أشهر وأخذ الباب العالى على نفسه أن يقدم إلى الجيش الفرنسى ما يكفى من السفن لنقله بأسلحته وأمتعته إلى فرنسا، ولكن حدث فى نفس الوقت الذى هم الفرنسيون فيه بمغادرة القاهرة أن بعث الأميرال (كيث) إلى الجنرال (كليبر) بلاغا ذكر فيه أن انكلترا لا تقبل من الجيش الفرنسى التسليم إلا إذا ألقى السلاح من يده وترك ماله من السفن والذخائر والأمتعة. فكان جواب كليبر على هذا البلاغ أن نشره على جنوده وذيله بالجملة الآتية موجهها فيها الخطاب إليهم: «أيها الجند إن مثل هذه الوقاحة لا جواب عليها إلا بالانتصار فتهيأوا للقتال».

وكان على الجيش الفرنسى لكى يبقى محتلا الديار المصرية أن ينازل جيشا مؤلفا من سبعين ألف عثمانى وأن يدحره ويشنت شمله. وهو ما قام به

التسعة آلاف من الفرنسيين في واقعة عين شمس الخالدة الذكرى. ولكن بينما كان الجنرال كليبر يطارد قلوب الجيش العثماني في الشام كان سكان مدينة القاهرة قد ثابوا = هبوا = إلى الثورة وأخذوا يفتكون بالفرنجة من أهلها ويحصرّون في أحد القصور مائة وثمانين فرنسيا نيطت بهم المحافظة على العاصمة المصرية.

ولقد قاوموا يومين متتابعين الحملات الموجهة إليهم من جموع الأهلى الذين كان يؤيدهم نحو الألف من الجند وأشرف أولئك من عندهم لولا أن فصيلة من جيشنا الظافر جاءت فى أنسب الأوقات لنجدتهم وتخليصهم من حرج موقفهم . على أن وجود جيوشنا وحضور الجنرال كليبر لم يكونا كافيين لإخماد تلك الفتنة لأن الثائرين لم يفيئوا = يرجعوا = إلى السكينة ويلتمسوا من القاهرة رحمة بهم إلا بعد أن أحرقت أحياء برمتها من المدينة وأصبحت خرابا يبابا بعد أن كانت عامرة زاهرة.

ولما اضطر كليبر للأسباب المتقدمة أن يحتفظ بالديار المصرية صرف همته إلى توثيق أركان شوكتة وإقامة معالم نفوذه وسلطته. ومهد له السبيل إلى هذه الغاية فوزه على الأتراك فى عين شمس وتخلصه منهم فضلا عن اتئمانه جانب الانكليز الذين روعهم انتصار الفرنسيين فى واقعة (مارانجوا) فانصرفوا عن الاهتمام بمصر إلى الاشتغال بشئون أوروبا. وتحالف كليبر على الأثر مع مراد بك فألت إليه بمقتضى هذا التحالف السلطة فى أقاليم الوجه القبلى. ولكن كليبر لم يلبث بعد استتباب الأمر له ثانيا أن اعتدت عليه يد أثيمة إذ سقط قتيلًا من يد مجرم نفث فيه العلماء روح التعصب والاعتداء.

لقد كان كليبر القائد الفرنسى الوحيد الذى فى استطاعته الاحتفاظ بمصر لأنه كان يؤثر فى نفس الجنود بفضائله النادرة وسمعته الحسنة فيبث فيهم الشجاعة والثقة، ولم يوجد بين من عهدت إليهم أزمة الأمور فى مصر من هو أهل لإضاعة فتوحاتنا فيها كالقائد الذى خلفه بعد قتله وهو الجنرال (منو).

ولم يكن هذا القائد ممتازا من الوجهة العسكرية بشىء من الاستحقاق والفضل، كما لم يكن له من الوجهة الإدارية نصيب ما من الدراية والكفاءة. فإنه أغضب كبار الضباط الذين كانوا أوسع منه دراية وأجدر منه بالحلول فى مركزه ودأب على السير فى خطة مناقضة للخطة التى رسمها سلفه. دع إنه من

جهة أخرى لم يرض الأهالى الوطنيين إذ كان يبهظ كواهلهم بمستحدثاته المستهجنة الغربية. وكانت إجراءاته العسكرية تستدعى لطيشها وتجردها من الصواب السخرية والهزء حتى أن سواد الجيش كثيرا ما استهجنها وأغفل القيام بها، فكان بديهيًا أن تضيق مصر من فرنسا على يد مثل هذا القائد.

ولقد أدرك الانكليز حقيقة هذه الحال فاحتلوا من فورهم ساحل البحر بجهة أبى قير فى قوة عظيمة وسيروا ستة آلاف من الهنود (السيباى) إلى القصير فأخذوها وعززوا قوتهم بجيش آخر من الأتراك فألزموا بهذه الوسائل العسكرية القائد «منو» الغبى الغافل بتسليم الإسكندرية إليهم ثم بالتأهب لمبارحة الديار المصرية على عجل.

فإنه ما وافق نهاية سبتمبر سنة ١٨٠١ حتى كانت بقايا جيش الحملة الفرنسية تستعد للرحيل من مصر عائدة إلى الديار الفرنسية.

وأنه لمن الأعمال النافعة تقييد حوادث الفتح الفرنسى لمصر وتدوين النتائج التى أفضى إليها ولكن أرانى فى هذا المقام مضطراً إلى الاقتصار منها على الحوادث والنتائج ذات الصيغة العامة فأول هذه النتائج أن انتصارات الفرنسيين أدت إلى ثل عرش الممالك وتقويض أركان دولتهم وأقامت الدليل الساطع على ضعف هؤلاء المستبدين الغاشمين وهيأت للمصريين الوسائل لتكوين وحدتهم المالية وتوسيع نطاق أفقهم. فلاح لهم شبح أوربا من خلال الأعمال والمشروعات البونابرتية وسكنت فورة تعصبهم للدين على غير المؤمنين به. وكان القائد الفرنسى قد خلب بفعاله الباهرة عقولهم السريعة التأثر بالمؤثرات^(١) فإن ما أبداه من الحكمة فى تسامحه والمهارة فى احترامه ديانته الأمة المغلوبة وعاداتها بث فى نفسها الاستعداد لتوثيق الصلة فيما بعد

(١) سيشغل نابليون أو السلطان الكبير كما يسميه الشرقيون مركزاً سامياً فيما يدون من الحوادث العامة ببلاد المشرق فكثيراً ما سمعت المصريين يذكرونه بعبارات الحماس والإعجاب وحدث أننى سافرت سنة ١٨٢٤ إلى السويس فى مهمة فنزلت فى بيت كان نابليون قد نزل به للاستراحة. ولم يكن قد طرأ عليه أقل تغيير حتى الفراش الذى قام فيه فلم أشأ أن يؤتى إلى بفراش غيره، وكان صاحب البيت وقت نزولى به صاحبه على عهد ذلك القائد العظيم وكان يخيل لى يحدث هذا الشيخ الجليل أن نضرة الشباب تعاوده كلما أخذ يروى ما رآه أو سمعه عن السلطان الفرنسى. ومن قوله: «لم يكن بونابرتة عدواً للمسلمين إذ كان فى استطاعته لو أراد أن يقلب جميع المساجد بسن الإبرة ولكنه لم يفعل ذلك قليق اسمه كبيراً بين أسماء عظماء الرجال، ثم كان يختم كلامه بقوله: «ولقد أكدوا لنا أنه فى ساعة موته هناك على صخرة البحر الكبير التى تمكن إثني عشر ملكاً من ملوك النصارى من إرساله إليها وتكبله بالإغلال فيها بعد أن سقوه شراباً منوماً رأى المقاتلون الذين اجتمعوا حوله روحه وقد وقعت على حد السيف فليسترح فى أمان وسلام» وقد نقل إبراهيم باشا إلى اللغة التركية تاريخاً مختصراً لنابليون ونشر هذا التاريخ بعنوان «تاريخ نابليون الشهير» امبراطور فرنسا ضمن مجموعة عنوانها «دقيقة أسرار حكام أوربا» أى كنز أسرار ملوك أوربا.

بينها وأوروبا، والانصراف نحو المدنية الغربية لتلتمس = لتقتبس = منها
بالنظم الحديثة لتدبير شئونها.

ولقد كان في الوسع إجراء هذا الإصلاح لو بقى احتلال الفرنسيين لمصر
وظلت سلطتهم قائمة فيها. فإن بونا برته كان قد وضع بالفعل أساسه وأنشأ
= وأخذ = يرفع أركانه بقصدة إيقاظ القومية العربية المصرية من سباتها،
وبذل في هذا السبيل ما تيسر له من الجهود التي كانت باكورة ثمارها
استحداث الدواوين في المدائن الكبرى وأمهات القرى، وهى عبارة عن
المجالس البلدية التي ألفت من كبار الشيوخ والأعيان لترجع الحكومة إليها
في معضلات المسائل ومختلف الشئون الخطيرة فكان لا يبرم أمرا حقيرا أو
خطيرا إلا بعد إطلاعها عليه وإبدائها رأيها فيه. وكان كل مجلس منها يبعث
إلى القاهرة مندوبين عنه لتشكيل الديوان الوطنى الكبير منهم وهذا الديوان
هو الذى كان يمثل القطر المصرى تمثيلا عاما ولاقى الفرنسيون نحو هذا
الإصلاح وغيره التعضيد والتأييد وعطفوا على مصالح مصر المادية وتعهدوا
بالعناية ترعها الثمينة وأحاطوها من جهتى البحرين الأبيض المتوسط
والأحمر وناحية الصحراء بسياج من الاستحكامات والحصون.

١٢ - حكومة محمد على

حالة مصر بعد رحيل الفرنسيين - الباشا والمماليك والألبانيون
والإنكليز - تغلب المماليك - انقسامهم وتخاذلهم - الألبانيون تحت
قيادة محمد على يطردونهم من القاهرة - محمد على - شهرته - مبايعة
الشيخ له واليا على مصر ومصادقة الباب العالى - مساعى وتدابير
الإنكليز والمماليك ضده - نزول الإنكليز فى الوجه البحرى وفشلهم -
الحرب ضد الوهابيين - إبادة المماليك - دسائس الباب العالى - فشل
هذه الدسائس - ترتيب الجيوش النظامية - فتح بلاد العرب وكردفان
وسنار - ثروة مصر وشوكتها - حرب مورى - دسائس الباب العالى
الجديدة ضد محمد على - الانتصارات فى حمص وبيلا و قونيا - تداخل
الدول بين الباب العالى ومحمد على - اتفاقية كوتاهية آخر مساعى
السلطان محمود - الانتصار فى نصيبين - الحالة الحاضرة - مقصد
محمد على - جعل حكمه ولاية وراثية.

٢٩- لما أكرهت غلطات الجنرال منو جيش الحملة الفرنسية على التنحي عن فتوحات (بونابرتة) و(ديزه) و(كليبر) ووقعت مصر ثانيا في قبضة الباب العالي فاحتلتها جيوشه التي كان أساسها فرقة مؤلفة من أربعة آلاف ألباني والجيوش الإنكليزية التي أنزلها إلى البر الأميرال (كيث) وجماعات المماليك. وكان مما تطاولت إلى معرفته الخواطر عقب رحيل الفرنسيين: أى فريق من هؤلاء ستخلص مصر له في النهاية هل هم أولئك الولاة الذين تبعث بهم الأستانة ليمثلوها في مصر؟ أم المماليك سادة البلاد من قبل وأصحاب المصالح الكثيرة فيها؟

أما المماليك فقد عانوا في حروبهم مع الفرنسيين ما حملهم الخسائر الفادحة في الأنفس وجعلهم يعجزون عن تعويضها خصوصاً وقد أصدر الباب العالي الأوامر بمنع تصدير الأرقاء من الجركس كيلا يتمكن أولئك المماليك من سد ثلم تلك الخسائر، وليتيسر له الخلاص من عسفهم وتحكمهم في أمور البلاد. هذا فضلا عن أن التعليمات للولاية على مصر بعد رحيل الفرنسيين كانت قاضية بإبادة بقية المماليك والتعفية على آثارهم حتى لا تقوم لهم فيما بعد قائمة .

وكان هذا الوالى المسمى محمد خسرو باشا يشغل في الحكومة العثمانية منصب الصدر الأعظم وكثيرا ما لفت إلى شخصه وهو في هذا المركز السامى أنظار الدول الأوروبية بما جهر به من العداء لمحمد على. ولقد بدأ هذا الوزير بتنفيذ الأوامر التي زودته بها حكومته ولكنه لم يقم دليلا في تطبيقها على شىء من الحصافة والمهارة المنتظرة من مثله. لأنه عجل بمحاربة المماليك الذين كان، زعيمهم الكبيران عثمان البرديسى ومحمد الألفى يتنافسان على الاستئثار بالحكم والسلطة . فلم تلبث الجيوش التي سيرها لقتالهم أن عادت من ميدان القتال بالفشل والخذلان.

وكان محمد على الذى سیرى القارىء فيما بعد أنه سيقوم بدور خطير على مسرح هذه الحوادث قائدا لفرقة الألبانيين في ذلك الجيش التعس. فلم يستطع لبعده يومئذ عن ميدان القتال الاشتراك فيه وذلك لأن الرئيس الذى عهدت إليه، رياسة الحملة كان ناقما عليه. فاتهمه لدى خسرو باشا بسوء النية، وأنه قصد بتخلفه إلقاء مسئولية الهزيمة عليه، ولم يكن هذا الوزير من الذكاء

وحضور الذهن بحيث يستطيع سر هذه الوشاية فأقسم أن ينكل بالزعيم الألبانى ويورده شر الموارد. وكان مما بعث به على اعتزام الكيد له غير ماتقدم أنه بدأ يخشى جانبه، إلا أن محمد على استطاع بذكائه وفرط احتياظه أن يوقى نفسه شر ما ينصبه له أعداؤه من المكاييد. فلقد استدعاه خسرو باشا ذات ليلة فلم يجبه إلى دعوته هذه لعلمه بأنه إذا أجابه إليها فإن الموت ملاقيه لامحالة عنده. ثم اغتتم فرصة استياء عساكره وغيرهم من الألبانيين بسبب التسوييف في دفع مرتباتهم فانضم معهم إلى الممالك وفتح لهم بمحالفته إياهم الطريق إلى القاهرة، والتحق بعد ذلك بعثمان البرديسى للزحف على خسرو باشا، وقد ظل يطارده حتى ضيق عليه الخناق في دمياط وأسره فيها بعد استيلائه عليها واستاقه إلى القاهرة حيث تولى إبراهيم بك مراقبته في أسره (سنة ١٨٠٣).

ولما انتهت أنباء هذه الحوادث إلى علم الباب العالى بادر بإرسال على باشا الجزائرى إلى مصر ليخلف خسرو باشا في منصبه ويعاقب الذين خلعوه من كرسى الولاية غير أن الجزائرى لم يكن أسعد طالعا ولا أوفر حظا من سلفه فإنه لما استشعر في نفسه العجز عن إخضاع الممالك والألبانيين بالعنف والقهر لجأ إلى الحيلة والخدعة والدسيسة فلم يفلح، وانتهى الأمر به إلى الوقوع في أيديهم وكان مما أسخطهم عليه التجاؤه إلى هذه الذرائع الخسيسة في مغالبتهم فقتلوه شر قتلة بأمر رؤسائهم.

على أن الممالك لم يلبثوا بعد ذلك أن دب بينهم دبيب الانقسام واختاروا الشتات بدل الألفة. فذهبت مزايا فوزهم أثناء اتحادهم بددا. وكان محمد الألفى قد ذهب إلى انكلترا ليسأل حكومتها التدخل في شئون مصر دفاعا عن مصالح البكوات المصرية ثم عاد منها عقب قتل الجزائرى باشا بقليل، ونزل في أبى قير فداخل عثمان البرديسى الخوف من أن يرى هذا الخصم الذى ينافسه على النفوذ والكلمة مؤيد الجانب من إحدى الدول العظمى فيما ينتظر أن يهزم به من اغتصاب زمام السلطة من يده بعد أن تكبد في سبيل الحصول عليه صنوف المشقة والعناء.

وكان محمد على يذكر في نفسه نار الحقد والبغضاء على محمد الألفى منذ حالفه على التنكيل بخسرو باشا، ولم يكن انتهاجه هذه الخطة عن غير علة.

فإنه لما ذهب محمد الألفى إلى انكلترا ليدعوها إلى مد ظل حمايتها عليه ضد خصومه لم ينل منها الوعد بهذه المؤازرة إلا بعهود عاهدها على القيام بها من شأنها أن تعرض حياة مصر الاستقلالية في المستقبل الى خطر مؤكد كبير . وقد حاول البرديسى التخلص من خصمه بما نصب له من المكائد وبث من المصائد . ولكنه لم يفلح في مناوآته والكيد له . لأن الألفى كان قد تمكن من الفرار إلى الوجه القبلى حيث بذل الهمة فى تكوين حزبه وتآليف القلوب حوله من جديد.

وقد انشق الممالىك لهذا السبب على أنفسهم فانقسموا إلى حزبين متعادين لكل حزب منهم زعيم وكان خليقا بهما الاقتداء بمراد بك وإبراهيم بك فيما فعلاه قبل وصول الحملة الفرنسية من اقتسام البلاد بينهما حتى لاينازع أحدهما الآخر ويعمل على التنكيل به والكيد له ولكنهما بدلا من ذلك أخذتا يتقاتلان ويفنيان - فى معارك لا فائدة تجنى من ورائها - ما بقى من القوة العسكرية المملوكية فكانت نتيجة فعلهما أن ازداد الألبانيون جرأة وقحة وصلابة.

وكان عثمان البرديسى حتى هذا الوقت مطمئنا إليهم وواثقا بهم، وكان لهم من المتأخر مايربو على مرتبات ثمانية أشهر فأخذوا يصيحون ويصخبون مطالبين بحقوقهم، وتهددوا البيك بالثورة عليه إذا لم يوافقهم بها على الفور فأنشأ البرديسى يسترضيهم إذ فرض الفرض الفادحة على أهل القاهرة ليسد بها تلك الثغرة فكان سوء طريقته فى ذلك باعثا على تدميرهم واستيائهم وتجردهم وتحفزهم للثورة. وجاء الألبانيون بقيادة زعيمهم محمد على لحصار قصره وقصور غيره من الأمراء المصرية. فلم يتمكن عثمان بك من تسكين ثائرتهم ودفع غائلتهم. ولم يسلم من أيديهم إلا بفضل بسالته الذاتية إذ إنه برح القاهرة فى سنة ١٨٠٤ ولم يعد إليها إلى أن وافته منيته.

ولقد دبر محمد على هذه الثورة الفجائية بلباقته وحذقه واكتسب بها عطف العلماء ومودتهم فتمكن من استمالة الأهلين إليه والفوز بثقتهم فيه واعتمادهم عليه فى الملمات والقبض على ناصية السلطة.

وأول خطوة خطاها بعد استتباب الأمر أنه أراد إعادة خسرو باشا الذى كان لايزال أسيرا إلى منصة الولاية على مصر. غير أن بقية الزعماء من

الألبانيين لم يشاطروه هذه الفكرة . فوجهوا خسرو باشا إلى رشيد وأنزلوه منها في سفينة سافرت به إلى الآستانة. فلم يعارضهم محمد علي في فعلهم، ولكنه أصر على رغبته في جعل زمام الولاية بيد أحد الباشوات الأتراك، ولذا عمل على تعيين خورشيد باشا محافظ الإسكندرية واليا على الديار المصرية قتال الشيوخ وزعماء الجنود وأجمعت آراؤهم على تعيينه في منصب القائمقامية للوالى وصادق الباب العالي في سنة ١٨٠٤ على تقليدهما هذين المنصبين.

ومنذ هذا التاريخ ظهر تأثير محمد علي ظهورا بينا في شئون مصر، وعلت كلمته في إدارة أحوالها ولهذا كان مما لا يخلو من الفائدة إيراد الظروف التي أفضت به في المستقبل إلى العظمة ورفع الشأن.

ولد محمد علي سنة ١٧٦٩ بقولة من الثغور الصغيرة في الروملى، وقد توفي عنه والده وهو صغير السن فكفله أحد الأغوات من سكان تلك البلدة وبدا له فيه من مخايل البسالة والذكاء ما حمله على إحاطته بعطفه ورعايته. إذ زوجه من قريبة له ذات ثروة وخصب من العيش فتفرغ للتجارة وبرع فيها وربح من المال ما شرف به قدره وعظم خطره ورمى من أجله بالأبصار فلما أغار الفرنسيون على مصر وهم الباب العالي بالتعبئة وتسيير الجيوش لدفع عادية هؤلاء المغيرين عنها صدر الأمر إليها بأن تقدم بلدة قولة من أهلها فصيلة مؤلفة من ثلاثمائة مقاتل فاندرج محمد علي في سلكها وعين بكباشيا عليها. وحضر واقعة أبى قير فامتاز فيها بالبسالة والإقدام، وكوفىء على ذلك بتعيينه سارى جشمه (أى قائدا للألف) وكان لا يزال بهذه الرتبة وقتما ناط به خسرو باشا الزحف لتعقب المماليك وقتالهم عقب جلاء الفرنسيين عن مصر. وفيما سبق إirاده شهدنا كيف حاول هذا الباشا بعدئذ الإيقاع به وكيف ان محمد علي، وقد أصبح بحيث ينبغى له الحرص على كيان ذاته استطاع في زمن قليل وبفضل الظروف التي عرف كيف يستثمرها وينتفع بها الحاكم المتسلط على مصر والمتصرف في أمورها.

وكان مركز خورشيد باشا بعد تنصيبه في الولاية محفوقا بالخطر والخرج. فقد كان عليه أن يحارب المماليك من جهة ويتقى شر طغيان عساكره من جهة أخرى. ولم تكن هذه المهمة العسيرة تتفق مع ضعف قدرته

وعجز حيلته ونقص الوسائل بين يديه . فلقد كان الألبانيون الهائجون لا يكفون عن تعقبه بمطالبهم ملحين محلفين. خصوصا ما تعلق منها بالمتأخر من مرتباتهم وأعطياتهم حتى اضطر إلى الشدة والعنف بإثقال كواهل الناس بصنوف المغارم والفرض سدا لتلك الخلّة. فساءت من جراء هذا الفعل سيرته وتلوّث سمعته - وانبثت في الأفئدة كراهته. بينما كانت القلوب تجتمع على محبة محمد على وتتعطر الأنديّة بذكره. لأنه كان من جهة في قتال متواصل مع المماليك يدفع عن الأهليين عاديتهم ويرد مظالمهم وكان من جهة أخرى يقف موقف الوسيط المسكن لثائرة الفتن العسكرية التي كثيرا ما ارتاع من أهوالها سكان العاصمة وأصابهم من جرائها النكال والخسائر.

وكان خورشيد باشا شديد الخوف من الزعماء الألبانيين، فسعى لدى الباب العالي سعيه للخلاص منهم باستصدار أمره إليهم بالعودة إلى أوطانهم فكان محمد على أول من جهر بعصيان هذا الأمر، ثم لم يلبث أن تظاهر أمام أعيان المدينة. وشيوخها بالرغبة في الرحيل عنها ومغادرة الديار إلى الأبد. وإذ كانوا يعتقدون أنه الوحيد الذي يذب عن حماهم ويزود عن حقوقهم - فقد أسرعوا بالسعي لديه ليقتنعوه بالعدول عن عزمه. فلما استشف بهذه الحيلة حقيقة شعورهم نحوه وأيقن أنه منبعث = صادر = عن ميل صحيح إليه وثقة عمياء به ربض في مكانه مترقبا سنوح الفرصة لاستثمار هذه الحالة النفسية في مصلحته فما هو إلا أن لاحت له الفرصة المتمناة. إذ حدث أن فريقا من عساكر - خورشيد باشا عاثوا في العاصمة بالنهب والهدم والتحريق وضروا على الأهالي ضراء الأسد على فريسته حتى عمت الشكوى وعلا الصراخ وأدت هذا الحال بالشيوخ إلى عقد اجتماع قرروا فيه عزل الباشا بعد أن بدا لهم من عجزه عن حفظ الأمن في البلد ما عانوا مشقته وحقاق بهم ضرره وبايعوا محمد على واليا عليهم بدلا منه - بالرغم من صدور الأمر السلطاني بإسناد ولاية جدة إليه - رغبة من الحكومة العثمانية في إقصائه عن مصر على كل حال، فرفض محمد على في بادئ الأمر ما عرضه عليه الأهليون من تقلد الولاية ولكنه لم يسعه إلا إجابة رجائهم بالقبول نظرا إلى إلحاحهم وشدة رجائهم. وفي يوم ٩ يوليو سنة ١٩٠٥ ورد من الباب العالي الأمر المؤذن بهذا التعيين والموافقة عليه.

أغرى الشيوخ محمد على بتقليد زمام الأحكام وهم بما لهم من النفوذ الدينى والسلطة التقليدية كانوا بالبداية نواب الأمة ووكلاءها . فلا عجب إذا رسخت قدماء فيها من مبتدأ الأمر.

على أنه فوق ذلك كان من صدق النظر وحسن التدبير وتمام الدراية بحيث استطاع وقاية سفينته من الارتطام بصخور المصاعب المالية التى اعترضت أسلافه. وغير خاف أن الحاجة إلى المال كان يذكى نارها جشع الجند وشراحتهم. وكان محمد على فوق هذا وذاك مؤيد الجانب من الأمة منذ رآته رأى العين يطوف بأرجاء القاهرة ويجوس خلال الديار لتوطيد دعائم الأمن فيها ملقيا القبض على المعتدين والناهبين من عساكره تارة وطورا معاقبا لهم بيده العقاب الصارم.

وكان حجم الاحترام والتوقير للشيوخ مبالغا فيهما إلى حد عدم المسارعة بمكاشفته إياهم بما يراه من صعوبة الحالة وخرج الموقف. فكان يضعهم بذلك فى مركز يرون من الواجب عليهم فيه المبادرة بتدبير الوسائل لدرء تلك الحاجة. وكانت مصالحتهم وقتئذ مماثلة لمصلحته ومندمجة فيها لأنه لما كانت قوته مستمدة من مؤازرتهم له فلا عجب إذا تطوعوا لجباية ما يضطر كرها إلى فرضه على الأهلين من الفرض التى لو باشر جبايتها بنفسه قبل أن يحصل على موافقتهم واستحسانهم لكانت سببا فى تسوئة = تشويه = سمعته وبث كراهته فى نفس الجمهور.

وغنى عن البيان أنه لو لم يستوثق محمد على من تأييد الجمهور له لسقط تحت أعباء المهمة التى أخذ على نفسه القيام بها. فإنه ماكاد يسقط خورشيد باشا من منصة الولاية حتى عرض محمد الألفى عليه، وكان قد أعاد تنظيم حزبه وأهبه = وجهزه = بما يلزم من عدد القتال ، الانضمام إليه لمكافحة الوالى الجديد. دع أنه أوفد رسلا من عنده إلى قبطان باشا الذى كانت سفنه راسية فى مياه الإسكندرية ليعاهدوه بالنيابة عنه على الخضوع للباب العالى إذا عاونهم على إخراج محمد على من مصر. وكان معتمدون انكلترا يؤيدون جانب الألفى فى هذه المفاوضات وبلغ من أمرهم فى الانتصار له وتعزيزهم مبدأه أن تهددوا الأميرال العثمانى بالإغارة على مصر إذا ظلت هذه الولاية فى قبضة الألبانيين ومحمد على. ووصفوا هؤلاء يومئذ بما شاءوا من أوصاف

التحقير التى تحط من قدرهم وتزرى بشرفهم ، ولكن المسيو (دروفتى) قنصل فرنسا بالإسكندرية وقف لدى قبطان باشا وقفة المدافع عن محمد على، فكان عمله هذا فاتحة السياسة الحاذقة التى لم تكف حكومتنا عن انتهاج سبيلها حيال محمد على.

ومع أن مساعى محمد الألفى وأعوانه من الإنجليز قد انتهت بما ذكرناه من الفشل فإنهم أصرروا على متابعتها حتى النهاية وكان الألفى قد وعدهم بتسليم ثغور مصر إليهم إذا نجحت مشاريعه بمساعدتهم وبنت الحكومة البريطانية على هذا الوعد ما شاءت من القصور والعلالي فسألت = فطلبت = من الباب العالى على لسان سفيرها بالآستانة إعادة زمام الأحكام إلى الممالك على شرط أن يكون الألفى زعيمهم الأول. ولم تقف تلك الحكومة عند هذا الحد بل تهورت فى مناصرته إلى حد الرضى بضمانة مال الجزية التى تعهد بأدائها فى كل عام إلى الخزينة السلطانية، فوافقت الحكومة العثمانية على هذه الاقتراحات والمطالب وأنفذت إلى مصر أسطولاً بقيادة أميرال آخر نيّطت به مهمة العمل على إعادة الممالك إلى دست الحكم وتسليم محمد على فرمان تعيينه فى ولاية سلانيك فتظاهر محمد على فى إبان الأمر بالانقياد للدولة ولكن الشيوخ والعساكر منعوه من مغادرة الديار.

وكان البكوات المحاربون لعثمان البرديسى — وهم الذين ظلوا متمسكين بسياسة مراد بك — أى بالبقاء على الولاء لفرنسا لا يستطيعون طبعاً أن يقفوا مكتوفى الأيدى تجاه ما فاز به خصمهم الألفى من تأييد الإنكليز وعضدهم . وقد رأوا أن الخطر الذى يتهدد محمد على أصبح منهم قاب قوسين أو أدنى فاستشعروا بالحاجة إلى التقرب منه. وكان قنصل فرنسا يوالى محمد على بنصائحه ويؤيده بمشورته ويعمل على نصرته فانتزع من جيش لوائه وكتب إلى سفير فرنسا فى الآستانة أن يؤيد محمد على لدى الباب العالى ويدافع عنه وينصره على شائئه = كارهيه =.

أما قبطان باشا فإنه ما وقف على حقيقة الأحوال فى مصر حتى أيقن أن الخصومات التى قسمت الممالك أحزاباً متعادية أصبحت حائلاً منيعاً دون إعادتهم إلى ما كانوا عليه من الصولة ورفع الشأن فكان ذلك من البواعث القوية التى حملت قبطان باشا على السعى لتحويل سياسة حكومته نحو

محمد على ولقد ظهر أثر هذا السعي حينما أرسل الباب العالي إليه فرمانا بتثبيتته في ولاية مصر على شرط أن يوافق الخزينة السلطانية بأربعة آلاف كيس من المال - أى بثلاثمائة ألف من الجنيهات.

خرج محمد على سالما من هذه الأزمة. فرأى أن سلطته تزداد في كل يوم رسوخا واستقرارا وحدث أن عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى توفيا في وقت واحد تقريبا إذ كانت وفاة الأول في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٠٦ ووفاة الآخر في ٣٠ يناير سنة ١٨٠٧ فتركاه المجال خاليا والميدان بلا منافس ولا مناظر. وفي السنة نفسها أى سنة ١٨٠٧ عز على الإنجليز أن يروا الباب العالي يصالح محمد على ويتفق معه وأن تستقيم الأحوال في مصر. ذلك لأنه كان من مصلحتهم أن تستمر قوضى الممالك فيها ليضطادوا في مائها العكر. فأنزلوا في الإسكندرية جيشا ما برح التاريخ حافظا ذكرى فشله وخذلانه فإنهم ماكادوا يستولون على هذا الثغر في ١٣ مارس سنة ١٨٠٧ حتى هزموا شر هزيمة بمدينة رشيد في الحادى والعشرين منه، وفي بلدة حماد في الثلاثين منه وسبب هذا الاندحار المتعاقب أن الممالك الذين كان الانكليز قد وضعوا فيهم ثقتهم تخلفوا عن تأييدهم وضنوا عليهم بعونهم إذ أخذ بعضهم يفاوض الوالى للصالح معه بينما كان البعض الآخر يطاردهم الجنود في الوجه القبلى عقب خذلانهم المتكرر في معارك متتالية ، ولقد لبثت الجنود البريطانية محتلة الإسكندرية ستة أشهر ثم اضطروا إلى الجلاء عنها في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧.

وكان الموسيو دورفتى قنصل فرنسا خير معاون لمحمد على على تذليل هذه المصاعب بما كان يقدمه إليه من الآراء السديدة والنصائح النافعة وهو الذى يرجع إليه الفضل في رسم خطة الدفاع التى جاءت بتلك الثمرات الطيبة ولقد أضاف محمد على ما أحرزه باجتهاده وحسن توفيقه من الفخر العظيم فخرا آخر أحرزه بكرمه وتسامحه . فإنه رد إلى الانجليز جميع الأسرى من جنودهم بدون أن يطالب بفديتهم كما جرت العادات.

ولم يكن من سياسة الباب العالي أن يترك لوالى مصر فرصة للعمل في ظل الأمن والطمأنينة بالسلطة المخولة له التى أحرزها بهمته وأمرته الدولة مرارا بحشد الجيوش وتسييرها لمحاربة الوهابيين، وهؤلاء الوهابيون خوارج

مبتدعون في الإسلام يريدون على حد قولهم الرجوع بهذا الدين إلى حالته الأولى من السذاجة والتقشف، وقد ظهروا بدعوتهم هذه في أواسط القرن الثامن عشر فاستولوا بعد زمن قليل على بلاد العرب - كافة وأخضعوها لمذهبهم . وكانت المدينة ومكة، وهما الحرمين الشريفان في الإسلام، قد سقطتا في قبضتهم فنهبوا ما فيهما من وافر الأموال ونفيس الأعلاق. وكانت القوافل التي تذهب بالحجاج إليهما لأداء مناسك الحج تخشى أن يسوقها الوهابيون بعصا التنكيل إلى مايراد منها بل كثيرا ما كانت تقصر بهم الوسائل عن الوصول إلى الغرض المقصود من رحلتهم فكان العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه في اكتئاب وانزعاج وخرج لهذا السبب، وكان في قدرة الوهابيين لما لمسوه في نفوسهم من العزة وبالكثرة والعصبية لمذهبهم المستحدث إرهاب السلاطين والأمراء أصحاب السطوة والنفوذ فيما يلي حدود جزيرة العرب. ومن هذا انهم كانوا يتهددون ولاية بغداد بأن تطأ جنودهم قاصيتها = أرضها = وتنكل بأهلها حينما وصلت الأوامر السلطانية إلى محمد علي بالمبادرة إلى محاربتهم ورد الأمور إلى معاهدها = ما كانت عليه = في الجزيرة العربية.

وبدهى أن هذه الحرب كان لابد أن تخلى مصر من حاميتها العسكرية وتكشف جوانبها لأخطار الغارة عليها من الأعداء المتربصين بها السوء، فكان من وجوه الحكمة وأصالة الرأي وأحوال الدهاء أن يحتاط لدرئها بإرساء شوكته على أوطد القواعد . وقد اتفق في هذا الحين أن عاد المماليك إلى تقلد السلاح وبرزت حشودهم لقتال محمد علي (سنة ١٨٠٨) فدرأ بحكمته بلاءهم وعاجلهم بقوته الساحقة فأباد فريقا منهم ووقع بالفريق الآخر أنكأ العقوبة وعرض عليه زعماء بيت الألفى مؤازرتهم على أعدائهم ولكنه ما كان لمثله أن يحفل بوعودهم أو يستنيم إلى عهودهم. بدليل أنهم ما كادوا يتأكدون الأنباء المتعلقة بالحملة الوهابية ويوقنون أن البلاد ستصبح خالية من جنودها حتى تأمروا على خيانتته والكيد له ومداهمته . ولقد عللوا أنفسهم بالظهور عليه متى حرم معاونة رجاله وأوليائه وأهل طاعته. ولكنه سرعان ما استكشف سر مؤامرتهم فوقر في نفسه أن المسألة بينه وبينهم مسألة حياة أو موت. فلجأ إلى حق من حقوقه الشرعية والطبيعية. ألا وهو حق الدفاع عن

النفس والحرص على الحياة.

رأى أنه مهدد الجانب منهم فعول على اتخاذ الوسائل لدرء هذا الخطر عنه وقرر أن يكون اليوم الأول من شهر مارس سنة ١٨١١ يوم الفتك واستئصال شأفتهم . فدعا الممالك إلى القلعة ليشهدوا حفلة تولية ابنه طوسون باشا قيادة الحملة على الوهابيين فأجابوه إلى دعوته وأدى المطاف بموكبهم إلى مضيق لم يستطيعوا فيه الحركة فإذا به المأزق الذى زجوا إليه بلطف الحيلة للافتراس بهم . وفى الواقع فإنهم ما كادوا يتوسطونه حتى أخذهم الألبانيون برصاص بنادقهم من غير شفقة ولا رحمة . ولقد قشا خبر هذه المجزرة بالقاهرة حتى عم انحاءها فتلقاه أهلها واجمين ولم تنقض أيام بعد ذلك حتى تناول الفتك سوادهم الأعظم فى مديريات هذا القطر .

وقد بقيت منهم بقية صغيرة لجأت إلى بلاد الحبشة (لعلها النوبة) فلما باد سواهم صدر أمر الوالى بالإمساك عن مطاردة الذين فروا منهم أول وهلة . وعلل ذلك بأنه يريد محاربة الجماعة لا أفرادها .

ولقد نظم فى سلك خدمته بعض الذين بقوا منهم على قيد الحياة وأباح لهم التمتع بما كانوا يملكونه من الثروة الثابتة والمنقولة . بل بالغ فأجرى على نساء القتلى وأولادهم الأرزاق والأعطيات التى تجعلهم فى نجوة عن = تغنيهم = ذل السؤال . وعليه فقد أصاب محمد على فى يوم واحد الغرض الذى طالما اشرأبت إليه منذ أكثر من قرنين أعناق السواس فى الدولة العثمانية بدون أن يصيبوا منه هدفا .

طال أمد الحرب مع الوهابيين وتعددت مصاعبها وتعاقب فيها الانتصار والانكسار . فلما انقضت ست سنوات من معاناتها ضعفت شوكة الوهابيين واصطلم أمرهم . على أن إبراهيم باشا لم يكن قد استسلم الوهابيون إليه أو عفروا له خدودهم فاضطر محمد على أن يتولى بنفسه حملة جديدة ضدهم ولكنه بينما كان مشغلا بالزود عن حرمة الإسلام وحرمة الإيمان كان الباب العالى يبغيه الغوائل ويحفز له الحفائر . إذا اعتنم فرصة غيبته فقلد لطيف باشا ولاية مصر بمقتضى فرمان أصدره السلطان سرا وأمر قهارمة دولته بتكتم خبره .

أما لطيف باشا فصنيعة من صنائع محمد علي وعبد من عبيد إحسانه ونعمته. فلما اتصل بهذا الجاحد لأنعم مولاه منطوق الإرادة الشاهانية عمل في الخفاء على استمالة الأفئدة إليه وتكوين حزب له. غير أن محمد بك الذي كان قائما بإدارة شئون الحرب في حكومة الوالي قد فطن لذلك. فاستدرجه بحسن الحيلة إلى إعلان نيته والجهر بعزيمته على ملأ من الناس، ولما لم يبق شك بعد اعترافه في اقترافه رمى عنقه في ديسمبر سنة ١٨١٣.

ومما لا مرأ فيه أن الحروب في جزيرة العرب كلفت الوالي الكلف الفادحة من المال والرجال، ولكنها عادت عليه ولا شك بمزايا جزيلة وفوائد لا يستهان بها فإن أنباء ظفره بالوهابيين نشرت بين الناس في أنحاء الإمبراطورية العثمانية سيرته مقرونة بحسن الذكر وطيب الأحدث، ومهدت له السبيل فيما بعد لتأليف جيشه النظامي الذي بنى عليه دعامة صولته وشهرته.

ومنذ أن جاءت الولاية على مصر إلى محمد علي منقادة وأفضت إليه بمقاليدها لم تغب عنه لحظة واحدة أهمية النظام العسكري وفن التدابير الحربية عند الأوروبيين. فكان أول ما قرطس فيه سهام همته ونشاطه أن تفرغ في سنة ١٨١٥ لتشكيل الجيوش النظامية. إلا أن هذا السعى لم يلق النجاح المرجو. وحدث أثناء ذلك من الهرج والنزوع إلى الانتفاض بين الجنود الأتراك والألبانيين ما كاد يقضى على صرح شوكته بالانهيار لما استشعروا به من كراهية تنسيقهم بحسب النظام الجديد قاضطروا إلى تأجيل هذا المشروع مع اتخاذ ما يقوم من الوسائل مقامه، ثم لم يلبث بلطف حيلته أن تخلص من العصابات الثائرة بإنفاذ رجالها لفتح بلاد العرب وسنار وكردفان فاستفاد بهذا التدبير فائدتين جليلتين أحدهما إلقاء شر تمردها والثانية التذرع بها إلى فتح بلدان جديدة وضمها إلى مصر.

وقد تم إخضاع سنار وكرفادن لمصر وإلحاقهما بها خلال سنة ١٨٢٠ - وفقد محمد علي في سنار ابنه إسماعيل باشا بموتة شنعاء على أثر مكيدة دبرها له زعيم من أهالي ذلك الإقليم وقد أخذ الدفتردار بك صهر الوالي بثأر الفقيد إذ نكل بالأهالي أشد تنكيل. ولما امتدت فتوحات محمد علي إلى أبعد الآفاق وتناولت الأطراف القصية من الأرض انكب على تنمية ما احتوته أملاكه الواسعة من موارد الثروة وينابيع الخير فوحد نظام الملكية وأدخل زراعة

القطن وعضدها وأصلح أساليب فلاحه الأراضي المصرية واستثمارها ووسع نطاق التجارة فنمت موارد إيراده بسرعة لذلك السبب. وكان قد حان الوقت بعد ذلك لتنظيم الجيش فأنشأ في أسوان ميدانا للتعليم درب فيه جملة من الجيوش على مقتضى النظام الأوربي ونجح في ذلك نجاحا لا مطمح بعده لمستزيد بفضل مثابرته وحسن إدارة المسيو سيف (سليمان باشا).

وقد استدعى إليه من فرنسا القواد والضباط والأطباء وأنشأ المدارس والمستشفيات والمصانع، وكان ملما بأسرار سياسة الباب العالي عالما بمقاصدها ومراميها فلم يستنم في وقت من الأوقات إليه ولم يعتمد في جلائل الأمور على،ه ولم يعمل قط لتعزيز مصالحه ليقينه أنه مهما بذل من النفس والنفيس في خدمته فإنه لن يحترمه أو يخشى جانبه إلا بمقدار ما يأنس من قوته. وأنه إذا ضعفت يوما قواعد سلطته وانحلت عرى دولته ولم يعد من اشتداد القوة بحيث يخشى بأسه ويرهب جانبه فإن الديوان السلطاني يقف تجاهه بين أمرين. إما أن يصرفه عن منصة الولاية بشيء من مظاهر التكريم والتعظيم وإما أن يبادر بإرسال خلف له فتعزيزه جانب نفسه بمظاهر القوة والبأس كان في أسبابه ألصق بالمطامع السياسية منه بالضرورات الحيوية.

وفي الواقع فإنه لم يمض زمن حتى انبرى لتعيين مركزه حيال الدولة العثمانية بأن وقف أمامها وقفة الشبيه بالمستقل وتصرفاته.

وهذه الوقفة كان الباعث عليها قوة الشعور الفطري بحفظ الذات لا الميل إلى الاستزادة من البسطة في الامتلاك والتوسع في التسلط كما زعم البعض ومعلوم أن الرجل العبقري ذا النية السلية = الحسنة = والسريرة الطيبة كان لا يسعه أن يسلك من الباب العالي إلا الخطة التي سار محمد علي عليها وبلغ أقصى المدى.

ولقد أخذت العلائق بين مصر وأوربا بعد ذلك تقوى وشائجها حتى لقد أصبح الغرب مطمع أنظار محمد علي لا يكاد يصرف عنه لفتاته وآماله في النهوض ببلاده، وسما به حسن الظن فيه ورغبة الاعتماد عليه في تحقيق هذه الأمنية إلى أن ينوط به وضع أحكم النماذج لإمضاء الإصلاح في مملكته وإرسال القومة على تنفيذها من أبنائه. ولم يقف ذلك المصلح الثابت الجأش الوطيد الإيمان الذكي الفؤاد عند هذا الحد من الشوق الشديد إلى السمو بهذا

القطر نحو شرائف = أشرف = الرتب بين أمم العالم بل أخذ يرسل إلى باريس برسم التعلم في مدارسها الشبان المسلمين. على أن ينقلبوا بعد تلقيهم العلم إلى أوطانهم لبث ما اقتبسوه منه بين مواطنيهم في أرجاء الديار المصرية.

ولقد كان مكبا بكل همته على العمل لإنجاح هذه المشاريع الشريفة حينما وكل السلطان إلى عهده قمع الثورة اليونانية في حرب كادت تذهب في أوروبا برونق سمعته، ولكنه كان لا يسعه إلا الانقياد لأوامر أمير المؤمنين فأنفذ في بادئ الأمر مددا صغيرا إلى ساحات القتال حتى إذا لاحت لوائح الخطر على الدولة العثمانية من جراء تلك الثورة الهائلة اضطر إلى مضاعفة هذا المدد بتعبئة الجيوش الكثيفة وتهيئة عدد القتال حتى اجتمع لديه وقتئذ عشرون ألفا من الجنود النظامية، ولو أنه امتنع عن تسيير هذه القوة كلها أو بعضها ضد اليونان لجر إلى نفسه مقت المسلمين جميعا واستنزل عليها سخطهم . وفي السادس عشر من يوليو سنة ١٨٢٤ تحرك الأسطول المصرى مؤلفا من ٦٣ سفينة شراعية ومائة نقالة تنشر مختلف أعلام الأمم الأوروبية إلا الأمة الفرنسية قاصدا على شبه جزيرة مورة مقلًا ستة عشر ألف رجل من المشاة النظامية وسبعمئة جواد وأربع فرق من رجال الهندسة وهذا غير مدافع الحصار والميدان.

وعهدت قيادة هذه الحملة إلى إبراهيم باشا فكان أول ما نهض به من الأعمال تقليم أظافر الثورة في جزيرة قنديا وقمع الخوارج فيها. وكان في معاركة بموره موقفا للنصر المبين كثير الرفق بأهلها من اليونان بارا بالإنسانية. وهذه حقيقة لا ريب فيها رغم ما أذيع من نقيضها تشويها لسيرة ذلك القائد فإنه لم يخالف قط في قتالهم القوانين المرسومة للحرب عند الأمم المتمدنية. على أن الحرب في بلاد اليونان ختمت بشر خاتمة للدولة العلية إذ أفضت الى تدمير الدونمة المصرية في واقعة (نافارين) وزوال رسم الدونمة العثمانية على بكرة أبيها.

ولا يسع المتصدى إلى الكلام على الثورة اليونانية أن يفضل إلا الإشارة إلى ما عومل اليونانيون به من التسامح والكرم أثناء قتال المصريين لهم.. لأنه بينما كان ولاية المملكة العثمانية ما عدا محمد على يفحشون في سوء معاملتهم ويسومونهم خطة خسف إجابة لداعى التعصب فقد كان والى مصر يحوطهم

بعنايته ويحفهم برعايته.

خذ مثلاً على قبح سيرة أولئك الولاة ما ارتكبه والى عكا من تدميره لكنيسة جبل الكرمل وأخذه نصارى الشام بوسائل الشدة والعنف وماجنائه والى قبرص من ملاحقته المصرين من أهلها على الاحتفاظ بعقيدتهم المسيحية بالقتل والاضطهاد والزج في السجون حتى لقد سالت من جراء ذلك في جميع أرجاء المملكة دماء الأبرياء، ثم قارن بما كان حاصلاً في مصر فإنك لاتلقى صعوبة ما في استنتاج الحقيقة الآتية: هي أن اليونانيين ظلوا متمتعين برعاية محمد على بل بلغ من الأمر أن اخذت أسر المنكوبين منهم بتلك الاضطهادات في بلاد الدولة العلية فقد على مصر زراقات وشتى فتجد فيها الحرز الحريز والملجأ الأمين والمقام الطيب للعيش في ظل الهناء والنعيم.

على أن كارثة نافارين لم تفت في عضد محمد على ولم تكسر من شكيمته . كلا بل أنها كانت له خير معاون على الاستفادة وتقدير قوته وصلابته وبسالته بالنسبة لغيره من الجيوش. لهذا سارع إلى سد ما أحدثته الخسائر الفادحة فيه من الثغرات العديدة وأخذ العدة للحوادث المستقبلية بإنشائه بالإسكندرية في وقت قصير جداً دوننمة جديدة جاءت أعظم وأفخم من التي دمرت في واقعة نافارين .

وفي بداية حروب محمد على في شبه جزيرة مورده كان الباب العالي قد وعده بالشام جزاء ما يقدمه من الوزر = العتاد = له. إلا أن الحكومة العثمانية لم تف بهذا الوعد مقتصرة على إعطائه جزيرة قنديا. وكان محمد على يتفلسف من جهة أخرى على عبدالله باشا والى عكا وأكبر ولاية الشام بعض الأمور، ومما هو جدير بالذكر عن هذا الوالى أن السلطان غضب عليه في سنة ١٨٢٢ ثم عفا عنه برجاء من محمد على. فبدلاً من أن يعرف له هذه اليد لئلا في إظهار العداء له وانتهاز لذلك كل نهضة = فرصة = فمن ذلك أنه كان يمنح عضده = مساعدته = للمهربين على حدود مصر ويدلى إلى سكان الشرقية بالمال لجر المنافع بواسطتهم إليه، واستدرج ستة آلاف منهم إلى هجرة مواطنهم للسكنى في ولاية عكا فكتب محمد على إليه ملحا في ردهم إلى أوطانهم فكان جوابه أنهم لما كانوا من رعايا السلطان فسواء عليهم أقيموا بمصر أو بالشام. فرأى محمد على في هذه اللهجة ما أثار كامن سخطه وأوجب تدميره فكتب يقول له

بأنه إذا لم يوجه بهم إليه حضر بنفسه لأخذهم جميعا زائدا عليهم واحدا . وكان يعلم من جهة أخرى ما اعتزمه الباب العالي من مهاجمته وقتاله فاغتنم فرصة الحادث المتقدم ليتقى شر هذه النية حتى لا يكون تنفيذها على غرة منه .

وفي الثانى من نوفمبر سنة ١٨٣١ تحرك نحو الشام جيش مؤلف من ٢٤٠٠٠ جندي من المشاة وأربع أورط من الفرسان وأربعين مدفعا من مدافع الميدان وأكثر منها عددا من مدافع الحصار وعقدت لإبراهيم باشا القيادة العامة على هذا الجيش . فما هى إلا أيام حتى وقعت مدائن غزة ويافا وحيفا في حوزته . أما عكا وهى التى لم يوفق نابوليون لأخذها أثناء حملته على الشام فقد قاومت إبراهيم باشا ستة أشهر وصالا . إذ استولى عليها فى ٢٧ مايو سنة ١٨٣١ وكان الرأى العام فى الآستانة قد بدأ يوقن أن من المستحيل أخذ ذلك الثغر فلما انتهى إليه خبر ذلك الفوز أعلن فى الأوامر الشاهانية اعتبار محمد على عاصيا على الدولة وخارجا على الملة . وكان قد بدىء بتسيير جيش كبير لقتال ابنه إبراهيم . ففى ٨ يوليو سنة ١٨٣٢ مزق إبراهيم فى حمص فيلقا كبيرا من فيالقه وألحق به الهزيمة . وكانت واقعة حمص هذه المعركة الأولى من المعارك التى التحمت فيها جيوش شرقية مدربة على الطراز الاوربى . وقد بلغت خسارة الأتراك فيها ألفى قتيل وألفين وخمسمائة أسير ولم تتجاوز خسارة المصريين مائة قتيل وقتيلين وأقل من مائتى جريح . وبهذه المناسبة كتب إبراهيم وقد أخذته نشوة التحمس إلى والده ما يأتى : «ولا أتردد فى القول بأن مائتى ألف أو ثلاثمائة ألف من أشباه هذه الجنود لن يكثر بهم ولن يخفق لنا فؤاد بالخوف منهم» .

ولم يمض زمن طويل بعد واقعة حمص حتى هزم إبراهيم فى بضعة ساعات الجيوش العظيمة التى سيقى لقتاله فى مضائق بيلان تحت قيادة الصدر الأعظم حسين باشا فاستولى على هذه المضائق التى فتحت له أبواب جبال طوروس . وفى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٣٢ فتك فى قونيا بالجيش العثمانى الجديد المؤلف من ستين ألف مقاتل تحت قيادة رشيد باشا فى حين أن جيشه كان أقل من ثلاثين ألفا وأسر هذا القائد .

وقد فتح إبراهيم فى قونيا له طريق الآستانة . فلما رأت الأمم الإسلامية هذا

الأمر أجمعت على دعوة محمد على إلى الأخذ بزمام الدولة فلو أنه أراد إسقاط الأسرة العثمانية من علوة عرشها لفعل لوعرض في هذا السبيل عارض، ولكنه كان معتدلاً في مطالبه. إذ لم يطلب بعد هذه الانتصارات المتوالية إلا ماطلبه قبلها من إعطائه ولاية الشام. وكان إبراهيم باشا قد بلغ إلى كوتاهية أى أنه صار على مسافة خمسين فرسخاً من دار الخلافة فارتاع السلطان لهذا النبأ وانهز ركنه وفقد صوابه وتولاه اليأس فلم يجد سوى أن يلقي بنفسه في أحضان روسيا ملتصقاً منها الذود عن حياضه فانفذت هذه الدولة إلى الآستانة جيشاً مؤلفاً من عشرين ألف مقاتل لوقايتها من عادية المصريين فكان من ثمار هذا التداخل عقد معاهدة (انكيار أسكله سى).

وكانت الأزمة خطيرة والمسألة آخذة في التحول من الصيغة الشرقية المحضة إلى صيغة أوروبية - أى دولية . فإن الدول الأوروبية وفي مقدمتها فرنسا التي كان الميسيو (ميمو) وكيلها في الإسكندرية يؤيد محمد على تداخلن فعلاً بين هذا الوالى والسلطان محمود. فكانت نتيجة تداخلهن أن تنازلت الدولة العليا لمحمد على بضمانتهن عن بلاد الشام وإقليم أطنه مقابل اعترافه بالتبعية إليها وتعهده بدفع جزية سنوية إلى خزينتها تعادل الجزية التي كان يدفعها ولاية الشام السابقون . وكان تحرير الاتفاقية بذلك في ١٤ مايو سنة ١٨٣٣.

ولقد كان إلحاق سوريا بمصر من الأمور الضرورية لتأمين الأملاك التابعة لوالى مصر، وإذا كان من الحقائق التي لامراء فيها ماينجم من الفوائد والمزايا للمدينة بوجه عام من جعل مصر مقر دولة مستقلة . فمن البديهي أن لايستطاع الوصول إلى هذه الغاية إلا بضم سوريا إلى مصر . وأن نظرة واحدة في طبوغرافية القطر المصرى من الوجهة الحربية لتنهض دليلاً على أن الأمن والسلامة من غارة المغيرين عليه كان من المتعذر إذا لم يكن من المستحيل توافرهما خصوصاً من ناحية برزخ السويس ما لم يكن ذلك الانضمام أمراً واقعياً. وليس في هذا القول أثر من المبالغة ولا التهريف. فإن جميع المغيرين الذين أغاروا على مصر (ماخلا عرب الغرب من الفاطميين ورجال الحملة الفرنسية بقيادة بوناپرت) مثل قمبيز ملك الفرس والإسكندر والعرب في صدر الإسلام والأيوبيين والأتراك. إنما طغوا عليها من ناحية الديار السورية

فلم يكن بمستطاع مع هذه الحالة صيانة القوة الحيوية لمصر المستقلة من عادية المغيرين إلا إذا تناولت حدودها حدود سوريا، وتم الإجماع على أن حدود مصر الحقيقية لم تنته ببرزخ السويس بل بجبال (طوروس).

يؤخذ مما سلف أن محمد علي أراد بالحرب التي أضرم نارهها في سنة ١٨٣١ أن يخطط الحدود الطبيعية للدولة العربية الجديدة وكان يتبقى له ليكسب العمل الجليل الذي قام به صفة الدوام والاستمرار — اللذين هما في السياسة قوام جلائل الأعمال وملاكها أن يعمل لتوثيق أركان الأسرة التي ستحظى بالقبض على زمام هذه الدولة الفتية المترامية الأطراف الى أقصى مدى.

أما السلطان محمود فكان لما دب في نفسه من الحقن على والى مصر لا يفكر إلا في أمر واحد. ألا وهو العمل لإسقاطه من علوة مجده وأوج شوكرته وكان لا يكف تحقيقاً لهذه الأمنية عن بث الفتن في البلاد السورية ونسج الدسائس التي قضى إبراهيم باشا في تلافي خطبها سنوات متعاقبة، فقد كان ذلك السلطان يصدم مصالح محمد علي بمصالح الدول بمنحهن من المعاهدات التجارية ما كان يرجو من وراء تطبيقه في مصر إثارة مصاعب وخلق مشاكل من شأنها أن تخرج مركز ذلك الوالى أيما إحراج . وبعد انقضاء خمس سنوات في صراع خفى بين التابع والمتبوع كان الثانى منهما في أثنائها قد تمكن من إعادة تنسيق جيشه وتجديد أسطوله قديرا على سرعة . ولم يتوان. فقد سير في بداية سنة ١٨٣٩ إلى الشام السر عسكر حافظ باشا الذي لم تلبث جيوشه أن تحطمت عند أول ارتطام لها بصخرة الجيش المصرى في واقعة نصيبين الشهيرة الخالدة الذكر.

ومنذ عام طرأت في الشرق حوادث لم تكن منتظرة، وكلها من الأسباب التي جعلت تحقيق أحلام محمد علي وإصابته الغرض الذي كان يرمى إليه أمرا محتوما . نذكر منها وفاة السلطان محمود في الوقت الذي تمزق جيشه فيه كل ممزق، وانحياز الدونمة العثمانية إلى محمد علي واضطراب السياسة الأوروبية لهذا الحادث المفاجيء والكوارث التي نزلت بالدولة العثمانية لاستمرار الحالة فيها على وتيرة واحدة، ومانشأ عن ذلك كله من الشك في استقرار السلام العام على قاعدة ثابتة.

ومن المسائل المسلم بها لبدايتها أن محمد علي. وهو ذلك الرجل العظيم أنقذ مصر من شر الفوضى ولقحها بلقاح الحضارة العصرية ووثق أركانها بقوة عسكرية هائلة يرجع إليها فضل استقلالها، واستكمل الشروط الجغرافية لهذا الاستقلال بفتح الديار السورية ومدّه أفق مصر إلى القاصية من حدود هذه الديار . فماذا كان ينقص الدولة المصرية الحديثة التي هي ابتكار فكره وصنع يده وثمار الغرس الذي كان قد غرسه ..؟ كان ينقصها أمر واحد ألا وهو ضمانّة الاستقرار والاستمرار والأمن في المستقبل لها . ثم كان يعوزها من جهة أخرى جعل حياتها قيد ضمانّة المعاهدات المصدق عليها من الدول، وأن يفضى بالسلطة العليا المحدثّة من العدل إلى محمد علي وحصرها في سلالته للاحتفاظ بها وصيانتها من الضياع . ذاك هو ما طلبه محمد علي وذاك ما يقتضيه العدل، وتستدعيه الحضارة. بل ذاك ما استخوله إياه قوة الشيء الواقع وهو ما يسمو بالأمل إلى إقامة الدليل عليه في أكثر من موضع من هذا الكتاب.

(١٣)

محمد علي وأسرته

أرى من اللائق أن أعرف القراء بالأسرة المجيدة التي أصبح حظ مصر مرتبطا بها ارتباطا لا فكاك له.

ذكرت فيما سبق أن محمد علي ولد في سنة ١٧٦٩ ببلدة قوله. فهو يبلغ من العمر الآن الحادية والسبعين.

وهو ربع القامة لا يتجاوز ارتفاع قامته خمسة أقدام وبوصتين بدين الجسم دموى المزاج عصبية الى الدرجة القصوى. كان شعر رأسه ولحيته في إبان شبابه على شيء من الصهوبة. مكشوف الجبهة بارزها وفي حاجبيه نتوء ظاهر. أما عيناه فكستينائيتا اللون في صفاء ووضوح وغائرتان في الحاجبين. متوسط حجم الأنف في سعة وانتفاخ عند المنخرين. صغير الفم. ملتوى الشاربين في طرفيهما أبيض شعر اللحية في غير كثافة ويتألف من مجموعة هذه الملامح فيه سحنة محبوبة جذابة للدرجة القصوى، ووجه تبدو فيه نضرة الحياة وعلائم الحركة والقوة، وله عينان نفاذتان شيمتهما البحث والتنقيب، وفي منظره العام ما يدل على دقة الفكر ورقة الشعور وشرف الميول.

ولمحمد علي يد صغيرة جميلة مفتولة الأصابع، وقدم صغيرة كذلك وهو حسن الخلقة تنم مشيته على الوثوق بالنفس وتدل على ما يطلب في الجندى من الضبط والنظام العسكريين. إذا سار دفع إلى الأمام طرف القدمين محترزا عن تحريك جسمه إلا بمقدار ما تقضى الضرورة به في نطاق ضيق تكاد تتلامس جوانبه، وإذا وقف وقف مستقيما واضعا إحدى يديه في الأخرى وراء ظهره ومما يحسن بنا في هذا المقام ذكره لأنه غير أمالوف عند الأتراك ميله الى الرياضة والفسحة بداخل حجرته. وهو إذا وضع عمامته على رأسه جعلها منحرفة قليلا إلى الجانب الأيسر منه، ومع أنه يكره التحلى بعلامات الشرف والرتب ويرغب عن لبس الثياب المزركشة بأسلاك الذهب على العادة الشائعة عند العثمانيين فهو شديد الحرص على نظام ملابسه وهندامها. وبالجمله فإنه في أحواله وأطواره وسلوكه ومعاملته يتوخى السهولة

والبساطة في رفعة قدر وعزة نفس، وهو مسلك العظماء والكرماء.

ومحمد على سريع خاطر حاضر الذهن شديد الإنفعال لا يستطيع أن يكتُم ما تتأثر به نفسه من الشعور = المشاعر = المختلفة، ومن ثم كان مطلق الحرية في القول. حريصاً على الصدق فيه بعيداً عن التكتُم بقصد المكر والخديعة غيورا على كل ما له مساس بالكرامة. صادق الوعد بعيداً عن مظان الغدر. طلق اليدين يدفعه حب البذل أحيانا إلى السرف. وهو لطيف المعشر حلو الحديث بلا تكلف.. شديد الرفق بأبنائه. يعيش معهم في داره على البساطة والتقشف كأنه أحد أفراد الطبقة الوسطى. أما رقة الإحساس فبالغة من نفسه إلى الدرجة القصوى، ولولا أنني شاهد عيان لفضائله العالية لتعذر على أن أقدم إلى ذهن القارئ فكرة ماعنها أو عما انطوى عليه قلبه من العطف والرحمة والبر بالناس أجمعين.

لا يصرف العزاء عن فؤاده - مهما حسن - أثر الحزن على فقد ولد له. وقد كان هذا شأنه كلما اتصل به نعي قرين له في الحروب. فإن عينيه كانتا تهميان بالدموع لسماع هذه الأنباء. شديد العطف على مستخدميه وكل من ارتبطوا معه برابطة التعارف يبالغ في عطفه عليهم إلى حد الحنان الأبوى، وقلما يقر القرار الأخير على إنزال العقوبة بأحد لأخذه بالعفو في أغلب الأحوال الهفوات والهنات إلى ما عظم منها في زوايا النسيان.

شغف بالمجد والفخار فلم يشغله من أمر نفسه حسن الذكر في حياته فقط. بل أيضا بعد وفاته. ومن عاداته حب الإطلاع على ما يكتب في الصحف فتراه يشدد على المترجمين بالعناية في نقلها إليه ليلم بما تتضمنه من مختلف الآراء والأنباء وكثيرا ما يقرأها بنفسه. وهو لا يعبأ بما يذاع عنه من الترهات والأباطيل. لأنه يرى همته فوق الأقوال والتخرصات.. ومن شيمه مواصلة العمل طوال النهار. فإذا عمد إلى فراشه لينام لاتغمض جفناه منه إلا قليلا إذا أن نومه مضطرب تتخلله اليقظة من حين إلى آخر. وفي الساعة الرابعة بعد نصف الليل يغادر سريره ويلبس ثيابه ويتهيا لمباشرة الأعمال فأول ما يتلقى منها التقارير العديدة التي تصل إليه من رجال الحكومة فيملئ على النوميس ما يعن له من الأجوبة عليها، ثم يتفرغ لعرض الجيوش فزيارة الورش والمعامل والمعاهد المختلفة فيتفقد فيها الأعمال الجليلة التي جعلها أسس الرقي لبلاده وأمته.

ومما يؤثر عنه من الفضائل والمحامد صدق التمييز وسلامة الذوق في الأعمال واستقامة الحكم وصواب الرأي وسرعة الخاطر في المناقشات المعضلة والمسائل المختلفة. حتى التى لم يسبق له أن يطرقها ببحث أو تمحيص. ومتى انتهت المناقشة تبين أن الصواب كل الصواب في رأيه . وفي تاريخ حياته السياسية الطويلة البراهين الكثيرة على ذلك.

وهو بارع في الحساب مع أنه لم يسبق له أن درس العلوم الرياضية ، ومعلوم أنه لم يبدأ تعلم القراءة إلا في الخامسة والأربعين من عمره. وهذا بلا شك أجمل ما يذكر من تاريخ حياته. على أنه لم ينفق في الحصول على غرضه من التعليم وقتا طويلا ولا عناء كثيرا. وما كاد يضرب بسهم في القراءة والكتابة حتى تفرغ لدرس التاريخ، وكان أهم ما شغله منه تاريخ الإسكندر و نابليون بونابرت. ومع أنه غير ملم بلغة أجنبية ما فقد بلغ من حدة ذكائه وثقافته فكره أن يستطلع بمجرد النظر في عيون محدثيه من الأوروبيين مضمير رغباتهم قبل أن يتم المترجمون نقلها إليه، ومن أبعث الأمور على سروره التحدث مع الأوروبيين والمتعلمين والمتنورين وهو يعالج معهم أرقى المسائل وأعضلها فيدرك حقائقها بدقة تشهد له بالبراعة وطول الباع.

وهو شديد التمسك بدينه من غير تعصب ولا تنطع، ولقد أظهر دواما من التسامح نحو الأديان جميعا ما هو مشاهد بالعيان، واتخذ من الوسائل ما كفل للمسيحيين الاحترام والتوقير وأولى البعض منهم مودته ووضع فيهم ثقته ورفعهم إلى شرائف الرتب وسلمهم مقاليد الحكم والقيادة وأنعم عليهم برتبة البيكوية ولكي يتغلب على ما تحكم من التقاليد الباطلة في نفوس حاشيته وشعبه الذين كانوا ينفسون عليه عطفه على الأجانب تدرع بالشجاعة والإقدام لمكافحة تلك النزعة فيهم.

ومحمد على سهل الأخلاق يتحرى البساطة - كما قلت - داخل بيته فتراه فيه يقطع فراغ وقته بلعب الشطرنج أو الدامة، وهما اللعبتان اللتان برع فيهما وفاق على النظراء والمنافسين.. وكثيرا ما كان يلعب متواضعا مع الضباط ذوي الرتب الصغيرة وأحيانا مع الجنود. ولقد فرزت بشرف اللعب معه بلعبة الورق. فما وجدت منه إلا الإيناس والعطف والمجاملة. ومن أحب الملاهى إليه ركوب الخيل. فإذا ركبها أحسن الاستواء عليها وأظهر الخفة والرشاقة في الركض بها.

ولم أطرق حتى الآن باب الكلام على مزايا محمد على وقضائله في الحروب. والذي أجمله في هذا الموضوع إن في تاريخ حياته الذي علمنا منه كيف خرج من صفوف الجيش ووصل ببسالته وفضله واستحقاقه إلى أسنى المراتب وأعلاها ما يغنيني عن الإفاضة فيه. على أنه في وسعي أن أثبت هنا أن من أبلغ تلك الفضائل التي تحلى بها وفاق على عظماء الرجال البسالة التي كثيرا ما كانت تدفع به إلى الاستهتار بالنفس في اقتحام الأخطار سواء في ميادين الحروب أو في أحوال المعيشة اليومية.

وغنى عن الذكر جهله معنى الخوف. فإنه في بدء حياته العملية كثيرا ما اقتحم الأهوال وغامر بحياته، ولقد شهدته العام الأخير متأهبا، مع تقدمه في السن، للرحلة إلى جهة فازوغلى بالسودان - أي لقطع مسافة لا تقل عن ستمائة فرسخ بينها وعاصمته متخللا شعاب النيل التي أرتطمت بها سفينته فألقى بنفسه في الماء وسبح فيه حتى إذا بلغ إلى البر سالما امتطى إحدى النياق وقطع بها أجواز الفلوات تحف به الأخطار والمصاعب الكبار من كل جانب.

ومما أكبر شأن محمد على ورفع مكانته الأزمة السياسية الحالية التي لفتت نظر أوروبا إلى الشرق فإنه لم يمر وقت من حياة هذا البطل حفت به فيه أشباه هذه الحوادث الخطيرة. ولا ريب أن نفوذه الذي أخذ يمتد أفقه شيئا فشيئا قد ترامى إلى الأطراف البعيدة بحيث شمل الأقطار الأوروبية بأسرها فهو الآن كالروماني في أيام شوكة رومية يحمل الحرب أو السلم في إحدى ثنيات ثوبه، فيه الآن قد نيط التوازن الدولي بالبلاد الأوروبية. ولقد تمكن من خلال هذه الحوادث الجليلة من أن يرفع نفسه - بحذقه العمل وحسن تدبيره وكرم تسامحه واعتداله - إلى مستوى فحول رجال أوروبا وأوسعهم خبرة وأشدهم عارضة. ولقد أقام الدليل - بما امتاز به كل سياسى صحيح الرأي في العهد الذي نعيش فيه الآن - والذي خففت فيه رايات السلام من العقل والرصانة. على أن صدق رويته وبعد نظره في العواقب لم يكونا في شيء من الحياء والاستكانة، وإنه بما وهب من سعة الحيلة قد أيد بثاقب فكره المستمد من حسن فطرته ذلك المثل القديم الذي جاء فيه «إن ترد السلم فتجهز للحرب» فهو وحده يرسل نظره القصي فيدرك به مغيبات الأمور وهو وحده

الذى إذا عنت حاجة انبرى لقضائها. ولا يخطرن ببال أنه يجد في أحد وزرائه عضداً أو سنداً. نعم إن جملة منهم لا يختلف اثنان في كفاءتهم وقدرتهم على إمداده بالنصائح الرشيدة والمنشورات الصائبة ولكنهم إذا رأوا أنفسهم في موقف محفوف بمثل الصعوبات والمشاكل الحافة بالموقف الحاضر لا يجرون على تحمل مسئولية رأى قاطع أو الإقرار على عمل جازم. فمحمد على لا يجد خير العون والوزير إلا في نفسه، ولا يتلقى الوحي إلا من حدة نكائه وطيب سريرته.

ولسنا بمبالغين إذا أكدنا أن محمد على من فحول الرجال وأنه أكبر من أنجبهم الشرق وامتازوا بالعبقريّة العالية.

إبراهيم باشا

إبراهيم، باشا هو بكر أبناء محمد على. فمن الافتراء المحض ما أشيع من أنه ابنه من طريق التبني. وكان ميلاده ببلدة قوله في سنة ١٧٨٩ أى بعد زواج والده من والدته بعامين.

فإبراهيم باشا يناهز من العمر الآن الحادية والخمسين وهو ربع القامة طول قامته خمسة أقدام وبوصتان. متين البنية. جيد الفصوص. شيبته قبل الألوان متاعب الحروب ومشاقها بعد أن كان شعر رأسه ولحيته أشقر جمرى ، مستطيل الوجه طويل الأنف مستدق أزرق العينين في وجهه أثر الجدرى.

مزاجه دموى صفراوى، ومن ثم جاء ميله إلى الجد بالرغم من تفرغه في بعض الأحيان إلى شىء من المطايبه وحب الضحك. جهورى الصوت لم تتوافر فيه لهذا السبب ماتوافر في والده من السماحة والهشاشة حتى أنه إذا أقبل عليه أحد شعر بما يسقطه في نفسه ولو لم يلق في استقباله شيئاً من الجفوة والصلابة والمكروه.

تلقى إبراهيم التربية التى كانت تعطى في زمنه إلى الأمراء من أبناء المشرق. فهو ملم باللغات التركية والفارسية والعربية يتكلم ويقرأ ويكتب بها من غير عناء. دع إحاطته بتاريخ أمم المشرق واضطلاعه به الاضطلاع التام.

وما ناهز السادسة عشرة من عمره حتى عهدت إليه قيادة الجنود وإدارة بعض الأقاليم. فإذا زج - وهو في مقتبل العمر - إلى ميدان العمل فمن السهل

الحكم بأن مزاولة الأعمال الحربية والإدارية كانت عنده من الأمور المألوفة وانه بما اكتسبه من الخبرة قد أحاط بتفاصيل أعمال الحكومة في مصر وعنت له فيها آراء كثيرة تنطبق على الحقيقة والعمل.

وفي سنة ١٨١٦ سلم إليه زمام الحملة على الوهابيين فقام بها قياما حسنا بانتصاراته المتعاقبة عليهم. وقد قوبل بالقاهرة في عودته بما يقابل به الظافرون والقاتحون. ولما شرع والده في إدخال النظام الأوربي على الجيش كان هو أول المقبلين على تعلم قواعده والعمل بمقتضياته. فكان يحضر التمرينات والمناورات العسكرية التي أكسبته من البراعة ما جعله جديرا بتقلد القيادة العليا للجيش، وقد أحاطه علمه بكل شيء من ذلك لافرق بين أصغر الجزئيات وتحريك السلاح وحركات الجيش الشديدة الصعوبة.

وكان حينما عين قائدا عاما للحملة ضد بلاد موره قد برع في ذلك براعة تامة. وفي خلال هذه الحملة أضلت الصحف سواء السبيل في الحكم عليه وإبداء آرائها بشأنه لغيرته الدافقة على قضية تحرير الأمة اليونانية فإنها مثلته لقرائها في جلد الضواري المفترسة السافكة الدماء. مع أنه يصعب جداً إيراد حادث واحد حقيقى يمكن الاستناد عليه في توجيه التهمة إليه بارتكاب الشدة والقسوة ضد أحد. ثم إن الميل إلى الفضائح لا يتفق أبداً مع ما عرف عن إبراهيم باشا من البسالة المقرونة بالتؤدة والكرم.

ولقد كانت حملة موره له بمثابة مدرسة تلقى فيها الدروس النافعة. فإنه زج بها في أخرج المراكز. ولما كان النصر في المعارك السالفة حليفاً له على الدوام، وكان يعتقد أنه القابض على ناصية الفوز يتصرف فيه كيف يشاء فقد تولد في نفسه لهذه الأسباب شيء من الصلف والخيلاء لم يلبث أن تلاشى بتأثير تلك الدروس التي زادت حنكة وتجربة بتصويره الحرب لناظره في أوضاع وأشكال لم تكن معلومة له من قبل. ولقد سره كل السرور ما شهده من الجنود الفرنسية إذ قد أتاحت له الفرصة التعرف بالجنرال (ميزون) والجنرال (سبسيانى) وكثيرين من الضباط الفرنسيين الذين أيقنوا عقب الاختلاط به بكفاءته العالية ودرايته بالشئون العسكرية على أنه أستفاد الفوائد الجليلة مما لقيه في طريقه من المعائر والعقبات. وكان الاعتقاد الشائع في الشرق وقتئذ أن فرسان الأتراك أحكم نظاماً وأرفع شأناً من فرسان

الأوربيين. فما عثم إبراهيم أن تحقق بنفسه فساد هذا الرأي، واعتقد أن الفرسان إذا نزلوا في ميادين القتال صفوفًا وألفوا من صفوفهم فرقًا زحفوا للقتال جماعات متكاثفة بمقتضى تدبير حربى دقيق فإنهم يحصلون في تلك الميادين على نفس المزايا والفوائد التى يحصل عليها المشاة العاملون بمقتضى الحركات المبنية على العلم والدقة. لهذا لم يلبث عقب عودته إلى مصر أن صرف همه إلى تنظيم الفرسان ورغب في أن تكون تحت يده الأسلحة الأساسية فكانت نتيجة عمله تشكيل فرق المشاة والرماحة وفرسان الدراغون والفرسان المدرعين.

وبعد عودته من اليونان بقليل بدأت الحملة على سوريا وغنى عن البيان أن فتحه لهذه البلاد وانتصاراته التى فاز بها لما يرفع شأنه ويؤيد ما اشتهر عنه من البسالة وسعة المعلومات العسكرية.

ولما أتم الفتى بالسلاح بدأ بفتح آخر لم يكن بأقل من الأول سهولة ولا ادعى إلى الشرف والفخر. وأريد به تنظيم البلاد المفتوحة . فإنه لكى يصل إلى هذا الغرض قرر القيام بأعمال ذات مساس بالسياسة العالية إذ وحد أنظمة الحكومة وراعى أصول المركزية لإدارتها فتنقت = فتخلصت = بذلك من صغار الزعماء والرؤساء الالتزاميين الذين كانوا يسيرون بين الناس بالجور ويذكون، في تلك الولاية الواسعة الكثيرة الخير والبركة نار الاحتلال والفوضى. وجرد جميع القبائل من السلاح عندما أيقن أنهم لا يستخدمون سلاحهم هذا إلا في قتل بعضهم بعضا وتهديد الأمن والنظام العموميين. فبهذه الأعمال وبما قرن تنفيذها به من الحزم والثبات نشر ألوية الأمن على ربوع الشام بعد أن حرم منه أهلوه أحقابا طويلة فبفضل محمد على وثبات حكومته تمتعت بهذه النعمة جميع البلدان التى مد عليها رواق حكمه.

ولقد عرض لإبراهيم باشا أن يجمع في بلاد الشام جملة من الفتن والثورات، ولاسيما ماشب ضرامه منها بمدينة نابلس وجبل الدروز. وكانت فتنة هؤلاء على أشد ما تكون من الهولة والفداحة، وشهدنا بالعيان قمعها فاستطعنا أن نرى عن كثب ما أيد حسن ظننا في إبراهيم ورفقه بالمغلوبين. وليس في وسع أحد أن ينحى عليه باللوم بحجة أنه ارتكب أمرا يخالف مقتضيات الإنسانية فإنه لم يعمل قط ما يستهدفه اللوم اللائمين.

وكان جم الرحمة بالرغم مما أذاعه المفترون والقائلون عنه ووجهوه إليه من تهم دل على فسادها أن أربابها لم يجسروا على الإعلان عن أنفسهم. فإنه غير خفى ولا يمكنون اهتمامه المتواصل بإنشاء المستشفيات وغيرها من المعاهد المقصود بها محض البر والإحسان. ومن فضائله التى عرف بها تعلقه بمن يأنس فيهم الخير من الناس وصدق وفائه فى مودته إلى الحد الذى تسقط معه الكلفة، وبغضه الشديد لمن يتقرب إليه من حاشيته بالتملق والمداهنة. وإذا أطريت صفة من صفاته النفيسة فإنما أطرى ما عهدته فيه بنفسى من الدأب الغريب على العمل وحدة الذهن والشغف المطلق بالترتيب والاقتصاد والنظام. وإنك تراه لما عالجه من صنوف المتاعب وعاناته من أنواع المشاق لا يحفل بوسائل الوقاية لنفسه أو العناية بها حتى استمكنت منه الآلام الروماتيزمية بمعيشته كمعيشة الجندي البسيط فى المعسكر ونومه على الأرض بالرغم من الصقيع والمطر والبرد. وما من جندي فى جيشه إلا وهو يحبه حبا مفرطا ويخلص له حتى لكأنه يؤثر فى عساكره تأثيرا يجذبهم إليه بقوة سحرية لادافع لها.

وفيما عدا تلك الصفات العسكرية امتاز إبراهيم بفضيلة لا يستهان بها فى أمير سيقبض يوما على صولجان الحكومة المصرية ألا وهو حبه للزراعة. فإنه ما التمس الراحة من فراغ وقته أثناء الحروب التى عهدت إليه قيادة الجيوش فيها حتى كان همه الوحيد الاشتغال بالزراعة دون غيرها وتشجيعه من يهتمون بشأنها.

وأخر واقعة فاز إبراهيم فيها بالنصر المبين كانت واقعة نصيبين. وقد استقرت بهذه المعركة الولاية العامة على مصر والشام لمحمد على وذريته من بعده، ومما لاريب فيه أن إبراهيم سيقوم بأعبائها خير قيام متى دعاه الحظ أن يخلف فيها والده العظيم.

أمراء الأسرة المحمدية العلوية

إن ثانى أبناء محمد على هو طوسون باشا المولود فى (قوله). اشتهر هذا الأمير بالكرم والبذل اللذين ذهب فيهما مذهب الإسراف. والكرم عند الشرقيين من الفضائل الرئيسية، فليس بغريب أن يكون طوسون باشا محبوبا عند الناس. ولقد توفى عن ابن له هو عباس باشا المولود فى سنة ١٨١٣ وهو الآن

حاكم القاهرة ومحافظها.

ورزق محمد على وهو فى (قوله) من زوجته والدة إبراهيم وطوسون ابنا ثالثا هو اسماعيل باشا الذى مات فى حرب (سنار) بلا عقب، ورزق منها أيضا ابنة تبلغ من العمر الآن أربعين سنة يقال إنها تشبه والدها كثيرا فى صفاته الجثمانية والنفسية، وهى الآن أرملة عن زوجها محمد الدفتردار بك. وكانت كثيرة التعلق به فلم تتزوج بعد وفاته تكريما لذكراه وإعرابا عن أسفها لفراقه. وهى تقضى الآن حياتها فى عمل المبرات التى هى أجمل حلية للنساء وتستميل الناس إلى محبتها بفيض إحساناتها وعميم خيراتها.

ورزق محمد على فى مصر عددا كبيرا من الأبناء أكبر من بقى منهم على قيد الحياة سعادة سعيد بك المولود فى سنة ١٨٢٢. وقد امتاز هذا الأمير بمحاسن الخصال وكرائم الشيم وهو جميل الخلقة لولا أن فى عينيه أثارا من مرض أصابهما شائع فى مصر بين الأطفال. وقد اعتنى بتربيته والده على أقوم المبادئ وتنشئته التنشئة الحسنة فإنه بعد أن تلقى اللغات الشرقية تفرغ لدراسة الرياضيات والرسم والسباحة، وتعلم كل ما يطلب تعلمه من ضباط البحرية.

وقد تدرج فى مراقى هذا السلاح بعد الامتحان والاختبار. يجيد التكلم بلغتنا = بالفرنسية = كما يجيدها أحد أبنائنا ويبدو منه كثيرا ما هو معروف عن شمائل الفرنسيين، والمنظور له أن يكون فى يوم ما على رأس البحرية المصرية كوزير لها أو قائد عام لأسطولها (أمير البحر).

أما الباقون من أبناء محمد على فهم بنت ولدت فى سنة ١٨٢١ وحسين بك المولود فى سنة ١٨٢٥ وحليم بك المولود فى سنة ١٨٢٦ ومحمد على بك المولود فى سنة ١٨٣٣.

وهؤلاء الأمراء جميعا على شىء كثير من حسن الخلقة وجمال الصورة واتقاد الذهن وحدة الذكاء. وليس من المستطاع لأحد غيرى — بالنظر لمخالطتى إياهم الزمن الطويل واختبارى أخلاقهم — الحكم على ماتوا فى فيهم من حلاوة الشمائل ورقة العواطف ومحامد الخصال التى يتحلى بها الأطفال. ولإبراهيم باشا ثلاثة أبناء البكرى منهم أحمد بك المولود فى سنة ١٨٢٥

وهو شديد الشبه بوالده ولكنه سيكون أقل منه بدانة جسم. وقد تعلم تعلما راقيا متينا وفيه من سلامة الذوق وصواب الرأي ما لا يتوافر عادة في أمثاله سنا، وقد عنى إبراهيم باشا بتنشئته حتى أنه كثيرا ما كان يصطحبه في رحلاته، ومن أبنائه الآخرين إسماعيل بك المولود سنة ١٨٣٠ ومصطفى بك المولود سنة ١٨٣٢ وهما طفلان تبدوا عليهما مخايل الذكاء والنجابة على أن صغر سنهما يحول دون النطق بحكم صحيح في شأنهما.

أما عباس باشا بن طوسون وهو الذى سبقت الإشارة إليه الآن فقد أخذ عن والده كثيرا من طرائقه وخلالها، وهو شديد الشبه به وقد مزج هذا الأمير منذ نعومة أظفاره بالأعمال العامة. إذ عين مفتشا عاما لأحد الأقاليم. أما الوظيفة التى يشغلها الآن وهى محافظ القاهرة فمن أهم الوظائف وأعلى المساند العظيمة، وهو يقوم بأعبائها على ما يستوجب الارتياح من تصرفاته. ومن الخطأ قول القائلين أنه يخاصم إبراهيم باشا على مسألة الوراثة فى دست الملك، إذ المعلوم بعكس تلك التخرصات أنه شديد التعلق بعمه هذا الذى لا يتوقع أحد أن ينافسه منافس بطريقة جدية على تولى الأحكام واستلام زمام الأمور فى مصر فإن حق الولادة يؤهله بالطبيعة لذلك. فضلا عن أن الجيش والرأى العام بقوته العظيمة وصيته الذائع وسيرته الطيبة بانتصاراته المتتابة لمن خير الذرائع وأشدها فعلا لإسناد ذلك المنصب إليه.

وإنى لأقتصر فى الختام على المرور ببقية أعضاء الأسرة المحمدية العلوية العديدين مرا سريعا إذ لا يتوقع أن يكون لهم نصيب فى استلام مقاليد الحكم وهم جميعا أبناء أخ محمد على مثل أحمد باشا حاكم مكة البالغ من العمر أربعين عاما وإبراهيم باشا من قواد الجيش وإسماعيل باشا حاكم حلب البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة، وحسين بك البالغ اثنتين وأربعين سنة وهو لا يقوم بوظيفة ما وهناك إثنان من أبناء إخوته لا يزالان فى غضارة الشباب ومقتبل العمر.

لمحة طبيعية الموضع والشكل والحدود والأقسام الجغرافية

١- الوضع والشكل والحدود

أول ما يتبادر إلى الذهن عند إلقاء النظر على أحد المصورات الجغرافية العادية لمصر أن ما يطلق عليه هذا الاسم يشمل كل القسم الشمالى من أفريقية بين الشلال الأول للنيل جنوبا والبحر الأبيض المتوسط شمالا وصحراء ليبيا غربا والبحر الأحمر شرقا. وهذا وهم فاسد. لأن مصر لم تكن فى الواقع سوى الوادى الضيق الذى ينزل النيل منه منزلة الشريان من أحد أعضاء الجسم. فإنها تتبع تعرجات هذا النهر وتنفسح انفساحا يتمادى فى الانفراج بعد تفرع النهر ويظل كذلك إلى أن تختلط مياه فرعية بمياه البحر المالح.

تلك هى حدود مصر الصحيحة، وهى تنحصر فيما بين الدرجتين ٢٤ و ٣٢ من العرض الشمالى ودرجتى ٢٨ و ٣١ من الطول الشرقى ويحدها جنوبا بلاد النوبة - التى يفصلها عنها الشلال الأول وشمالا البحر الأبيض المتوسط الذى تصافيه سواحلها على مدى سبعين فرسخا تبتدىء من (تابوزيرس) «برج العرب» إلى النهاية الشرقية من بحيرة المنزلة حيث أطلال (الفرمة).

وبعض الجغرافيين يزجون بحدود مصر إلى أبعد من هذه الجهة بعشرين فرسخا - أى إلى العريش ثم إلى سلسلة جبال ليبيا فى الغرب وسلسلة جبال العرب فى الشرقى السلسلتين. وفيما بين هاتين حيث تكفان عن التوازى بانصراف أحدهما إلى الشمال الشرق وتنحصر مصر فى امتدادها الطويل كله حتى القاهرة والأخرى إلى الشمال الغربى فالتى إلى الشمال الغربى تنتهى إلى سواحل البحر الابيض المتوسط والتى إلى الشمال الشرقى تندمج بجبال بلاد العرب ثم بسلسلة الجبال السورية.

٢- الأقسام الجغرافية

اشتهرت الديار المصرية عند الشرقيين باسم مصر، واستمد اليونان اسمها من كلمة كانت تطلق في غابر الأزمان على النيل. وقد أصابوا في هذا الاختيار لأن مصر لم تكن في الواقع إلا مجرى هذا النهر الذي يخترقها بعد أن أوجدها من العدم.

وجزاء وادى النيل الذى تتكون منه مصر يبلغ طول امتداده أكثر من مائتى فرسخ. وقد اتفق الجغرافيون على تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: أعلى وأوسط وأدنى. فالأعلى ويسمى الصعيد والأوسط ويسمى مصر الوسطانية هما أراضى شفتى = ضفتى = النهر التى تحف بها من الجانبين سلسلتا الجبال اللتان سبق الكلام عليهما، وتبتدىء مصر العليا عند الشلال الأول وتنتهى مصر الوسطانية عند القاهرة. وهما تؤلفان بتعاقبهما واتصالهما شريطاً متعرجاً يختلف عرضه بين فرسخ واحد وأربعة فراسخ إلا فى الجزء الأوسط فإنه يتعلق به جزء آخر من الأرض اهليلجى الشكل قابل للزراعة ومنحصر فى سلسلة جبال ليبية وهو الذى يتكون منه إقليم الفيوم المعروف الغنى بزروعاته. أما مصر السفلى التى سماها العرب بالبحيرة أو الوجه البحرى فعبارة عن سهل منبسط مثلث الشكل رأسه دُوَيْن القاهرة عند الجهة المعروفة ببطن البقرة أى المكان الذى يتفرع ماء النيل فيه إلى فرعين، وإحدى زاويتى قاعدته عند برزخ السويس والأخرى عند برج العرب وضلعاه محدودان شرقاً وغرباً بالصحراء، ويمتدان بمؤازرة فرعى النيل اللذين تتكون بينهما تلك المنطقة التى طبقت شهرة خصوبتها الخافقين وسماها اليونان بسبب شكلها الدالى باسم الدلتا.

٣- المسطح

يقدرّون مسطح القطر المصرى بنحو ألف وستمئة فرسخ مربع منها مائتان وخمسة وأربعون فرسخاً فى مصر العليا ومائتان وخمسة وخمسون فى مصر الوسطى والبقية فى مصر السفلى. والمسطح الكلى ينقسم بالتفصيل على المثال الآتى:

أرض قابلة للزراعة	١٠٠ فرسخ مربع
أرض غير قابلة للزراعة أو غير مزروعة	٢٠٠ فرسخ مربع
النهر والترع	٣٦٧ فرسخا مربعا
الأراضي الرملية	٦٨ فرسخا مربعا
الجزر الموجودة في النهر	١١ فرسخا مربعا

(٢)

شكل الأرض وتكوينها الجيولوجي

الأرض القابلة للزراعة - شكلها - التكوين الجيولوجي للأرض القابلة للزراعة - الطمي - أشكال الأرض القابلة للزراعة - الجبال - شكلها وارتفاعها وانحدارها العام - تكوينها الجيولوجي - الصحاري - تكوينها - الواحات - شكل الصحراء.

٤ - الأرض القابلة للزراعة وشكلها

لم تكن مصر الأصلية إلا ذلك الوادي الذي يخترقه النيل كما أسلفنا في ملاحظتنا السابقة ولكنها ذات صفات خاصة تميزها عن الأودية المعتادة.. فإن الأودية التي تجري في وسطها الأنهار الكبرى ممهدة تلتبس المياه فيه مجرى تنحدر عليه إلى الأمام ولكن الحالة في مصر من هذا الوجه على النقيض من ذلك فإن شواطئها أكثر ارتفاعا من بقية الأرض التي تنحدر منها انحدارا يزداد كلما ابتعدت عن مجرى النيل فنتج من تكون الأرض على هذا الشكل أن ماء النهر إذا ارتفع فوق ضفتيه طغى على الأراضي الممتدة منهما وانتشر فيهما وربما غمر المنطقة المزروعة.

٥ - تكوين الأراضي القابلة للزراعة

إنه لانحدار أرض القطر المصري انحدارا خفيفا نحو الشمال تندفع مياه النيل في مجراه حاملة معها عناصر الطمي الذي جعل المصريين يروون للرحالين اليونانيين أن مصر كانت في عهد (مينيس) وهو الملك الأول من ملوكها حتى بحيرة (موريس) عبارة عن مستنقع كبير جداً. وقد ثبت بالعلم

الصحيح ما يؤيد هذه الرواية. لأن الأراضي القابلة للزراعة في مصر تكونت برسوب طمي النيل وتراكمه بعضه على بعض بتوالي الأعوام.

وما الطبقات السفلى منها إلا حيوانات بحرية متحجرة وأحجار خفاقة وحصى مستديرة وحمم وصخور بركانية متكاثفة وأحجار يشبیه ومواد بركانية أخرى كانت على الراجح تغطي مياه البحر زمنا ثم أخذت تسوقها المواد الطميية الواردة مع مياه النيل شيئاً فشيئاً.

على أن توارد هذه الرواسب النيلية وانتشارها أمران تؤيدهما الحقائق العلمية المتفق على صحتها. ومن الأمثال في هذا الموضوع أن مدينتى رشيد ودمياط كانتا في عصور غير بعيدة مغمورتين بمياه البحر الأبيض المتوسط فأصبحتا الآن مفصولتين عنه ببضعة فراسخ وكذا فإن الأراضي أكثر ارتفاعاً عند ضفتى النهر منها عند سفوح الجبال. وما ذلك إلا لأن مياه الفيضان بتعاقبها على مر الأعوام تترك من المواد الرسوبية في الجهات المجاورة للنهر أكثر مما تترك في الأماكن البعيدة منه. ومما يؤيد صحة هذا الحادث الجيولوجى ببرهان أسطع وحجة أقطع انطمار أساس المباني القديمة حتى أصبحت الآن مغطاة بالأراضي الزراعية. ومع أنه من المتعذر تحديد نسبة النمو التدريجى الدورى لارتفاع الأرض بطريقة مؤكدة فقد أدت الأبحاث الدقيقة للعلماء الجيولوجيين في الحملة الفرنسية إلى تقدير تلك النسبة بأنها - على وجه التقريب - مائة وستة وعشرون ملليمترًا في كل قرن من الزمان.

ثم أن طبقات الأرض الزراعية لم تكن متساوية الأعماق في كل الجهات لأن زيغ النيل زيفاً مستمراً عن مجراه وسرعة سيلان مياهه فيه من البواعث الحقيقية لذلك فحيث تجرى هذه المياه بسرعة عظيمة تندفع المواد الطينية معها ولا تجد من الوقت ما يكفي لرسوبها في مكانها وحيث تركد يكون رسوبها عظيماً.

٦- طمي النيل

الطمي الصرف الذى تتكون منه الأرض الزراعية في مصر يتألف بحسب التحليل الذى قامت به اللجنة الفرنسية مما يأتى:

أولاً: الألومين الذى يدخل فيه بنسبة ثلاثة أخماس.

ثانياً: كربونات الجير بنسبة تزيد فيه على الخمس قليلاً.

ثالثاً: كربونات الجير بنسبة العشر.

رابعاً: خمسة أجزاء الى ستة فى المائة من أوكسيد الحديد الذى يكسب الماء لونه الأحمر المعروف أيام الفيضان.

خامساً: جزءان إلى ثلاثة أجزاء فى المائة من كوبات المانيزيا.

سادساً: بعض ذرات حجرية متناهية فى الصغر والانقسام الى حد أنها تبقى معلقة فى الماء.

ومما يجيء به النيل أثناء الفيضان مقدار عظيم من الرمال القاقية (من ملح القاق أو دب الملح المسمى عند الإفرنج بالكوارتز) فالغليظ منها يهبط إلى قاع النهر فيسبب ارتفاعه وغير الغليظ ينتشر بغير انتظام على الأراضى المجاورة ومايتبقى بعد هذا وذاك يندفع بقوة جريان الماء إلى البحر فيساعد بتراكمه وتراكبه بعضه على بعض على امتداد الدلتا وتقدمها شيئاً فشيئاً فى البحر الملح.

٧- أشكال الأرض الزراعية

الأرض الزراعية فى مصر يتغير شكلها تغيراً دورياً محسوساً فى كل سنة ولقد وصف عمرو بن العاص فاتح مصر هذا التغير وصفاً دقيقاً فى كتاب كتبه إلى عمر بن الخطاب خليفة المسلمين حيث قال:

«مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر. يكتفها جبل أغبر ورمل أعفر. يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر. له أوان تظهر به عيون الأرض وينابيعها. حتى إذا عجز عجاظه وتعظمت أمواجه لم يكن وصول بعض أهل القرى إلى بعض إلا فى خفاف القوارب وصغار المراكب. فإذا تكاملت تلك كذلك نكص على عقبه كأول ما بدأ فى شدته وطما فى حدته.

فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابييه. يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب حتى إذا أشرق وأشرق سقاه من فوقه الندى وغذاه

من تحته الثرى فعند ذلك يدر حلابه ويغنى ذبابه. فبينما هى يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء فإذا هى زبرجدة خضراء فتعالى الله الفعال لما يشاء».

وفى الواقع فإننا نرى الأرض فى بادىء الأمر ولا شية = علامة = فيها من الزرع إلا ما كان من جهات متفرقة هنا وهناك تروى بالحيلة بل قد صارت ماحلة قاحلة = جرداء = وتشققت أخاديد يختلف عرض كل أخدود منها من ستة إبهامات إلى قدم وعمقه من خمسة أقدام إلى ستة وتجف شيئاً فشيئاً بحيث يصعب على الناظر أن يقتنع بأن الثمار اليانعة والمحصولات الوفيرة. ذلك هو أول طور من هذا الجفاف يعقب فى كل سنة تلك المزروعات السندسية ذات الأطوار التى تتقلب فيها أرض الزراعة فى مصر.

أما الطور الثانى فهو طور الفيضان الذى يجعل الوادى كله بمثابة بحيرة جسيمة قد انتشرت على سطحها القرى والآكام والأشجار حتى يخيّل للرأى أنها أرخبيل انثرت جزره فى البحر انتشاراً يقضى بالعجب.

أما الدور الثالث فأقصر من الدورين السابقين لأن الماء لا ينحسر فيه عن وجه الأرض حتى تمتص حرارة الشمس ماتشبع به بطنها من الرطوبة فيسارع الفلاح إلى انتشرت البذور عليها وتعليل النفس بعد ذلك بمحصول وافر فى الموسم المقبل.

أما الدور الرابع فيتبع الأدوار السابقة بغثة بحيث لا يكاد يشعر المرء بوقوفه، ذلك هو دور الإنبات الذى يكسو وجه القطر بحلة من سندس أخضر.

وأما الدور الخامس وهو الأخير فهو تحمل النباتات بالأزهار وامتلاء الحقول بالسنابل وهذه التغيرات والأدوار لاتقع فى وقت واحد بكل جهات القطر على السواء. فإن الجهات الأكثر قرباً من المدار هى أسرعها إلى إهداء تلك المناظر لأعين الناظرين.

٨- الجبال وأشكالها

يبدو للمتأمل أول وهلة أن الطبيعة وضعت الجبال حفا فى القطر المصرى لوقايتها من رمال الصحراء وهى قاحلة ماحلة جرداء. إذ لاسبيل لمياه النيل

المخصبة إليها. كما أنه من النادر أن ترويه مياه الأمطار. على أن الأمطار إذا نزلت مرة فإنها لا تكفى للإنبات، وتلك الجبال تبدو للناظر من جانبي النهر متصلة الأجزاء وتزيد في عرضها كثيرا على ارتفاعها والتي منها إلى شرق النيل أقرب إليه من التي إلى غربه بل كثيرا ما يتكون منها الشاطئ. أما الجبال الغربية المعروفة بسلسلة جبال ليبية فأكثر بعدا من ضفة النهر بل تكون من البعد أحيانا بحيث تغيب عن نظر الناظر الواقف على ضفة النيل. والجبال الأولى — أى التي إلى الشرق تطل برؤوسها على النيل بينما ترى الجزء الأوسط منها عموديا والجزء الذى عند القاعدة متراجعا إلى الوراء بشكل قوس مقعر وترى في إتجاهها الطولى آثار خطوط يخيل للرائى معها أول وهلة أنها رسمت أو حفرت في أزمان سابقة بقوة التيارات المائية التي يكون ذلك التقعر والحالة هذه نتيجة من نتائجها.

٩- ارتفاعها وانحدارها العام

يبلغ ارتفاع سلسلة الجبال العربية في الجهة التي يتكون فيها جبل المقطم مائتى متر تقريبا . ولكن ارتفاعها يزداد بالتدريج كلما تقدمت إلى الجنوب . ففي إقليم أسيوط مثلا، وهذا الإقليم على مسافة ستين فرسخا من القاهرة، يبلغ أربعة الأخماس من أعظم ارتفاع لها وهو ستمائة إلى سبعمائة متر. وهى تبلغ هذا الحد الأقصى من الارتفاع فيما يلى مدينة طيبة (الأقصر) بقليل وتستمر مرتفعة بقدره الى أمد ثم تنحدر بالتوالى حتى الشلال الأول حيث تصبح عبارة عن أكام صغيرة تعود بعد مسافة طويلة إلى ماكانت عليه من الارتفاع في مصر الوسطى.

والمسلم به بوجه عام أن سلسلة جبال ليبية أخفض ارتفاعا من سلسلة الجبال العربية، وإنما يمكن التأكيد بأنها تعادلها في متوسط ارتفاعها، والذي جعل الناس يذهبون إلى الحكم بانخفاضها تأثير المنظر فقط فإنها لفرط بعدها عن النيل يخيل للرائى أنها أبخرة متكاثفة لا تميزها العين المجردة وأنها لأفق مصر من ناحية الغرب كأحد جوانب الإطار الذى يحيط بالصورة.

أما الجبال التي تتجه من شرق المقطم نحو البحر الأحمر وبرزخ السويس فتذهب على الدوام صاعدة مرتفعة. وهذا بخلاف مايشاهد في سلسلة الجبال

الليبية فإنها تذهب منحدره بلا انقطاع من موقعها تجاه القاهرة. فمن هذه البيانات يستطيع القارىء أن يتخيل ماهو الانحدار العام للجبال التى شق فى وسطها وادى النيل ويعلم أنه عبارة عن ميلين يتجه أحدهما من الجنوب إلى الشمال تبعا لمجرى النهر والآخر من الشرق إلى الغرب وبامتزاجهما ببعضهما ينشأ الميل الأكبر الذى يتجه خطه من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ثم ينعطف قليلا نحو الغرب.

١٠- التكوين الجيولوجى

المحتمل أن شلالات النيل لم تكن إلا الدرجات الأخيرة لانحدار السلسلة الجبلية الأولى التى انساق النهر فيها ولاختراقها وجعلت مجراه متعرجا بما ينطبق على اتجاه السلسلة الأولى نفسها وهذه السلسلة التى يمكن اعتبارها ممتدة من الشلال الأول فى اتجاه الخليج الشرقى للبحر الأحمر تتوافر فيها صفات الأرض الناشئة عن التكوين الأول فإنك تجد فى شمالها الرخام السماقى وفى الجنوب الصخور الصوانية. أما حجر الشطف فيشغل المواقع التى بين هذين الطرفين وفيما بين الشمال وفى هذه الأجزاء الوسطى توجد صخور مختلفة تتألف بوجه عام من الاسيات الصفيحي.

وتفضى الأرض الأصلية أو الأولى إلى الأرض الثانوية فى اتجاه يوازى على وجه التقريب الاتجاه الذى وصفناه للسلسلة الأصلية وتكوين الأرض فى شمال الخط غربى النهر حتى قرب شواطئ البحر الأبيض المتوسط كتكوين الأرض الثانوية. لأن المادة الحجرية غالبية فيها بما يتخللها من حجر القاق والبودنج اللذين يشاهدان دوما بين الأحجار الثانوية والأحجار الأولية.

وفى تلك الجبال الجانبية الجرداء التى سبق الكلام عليها الآن قطاعات طولية وحلوق تفتح للمسافرين والتجار منافذ الصحراء يصلون منها ، إما إلى البحر الأحمر شرقا وإما إلى الواحات غرباً.

١١- الصحارى وتكوينها

تتكون صحارى مصر من الأراضى الرملية القاحلة الممتدة فيما يلى سلسلتى الجبال اللتين ذكرناهما قبلا.

ويحتوى وجه الصحارى رمالا غليظة مختلطة بالحصى الرفيع المستدير

والرمل. أما الرمل فيتكون من حبوب قاقية فقط غير مختلطة بمادة أخرى، والظاهر أنها كانت في العصور الماضية مغطاه بالماء. وهى تتجمع في بعض النقاط على شكل كتبان مختلفة الهياات. والنواة الأولى التى تتراكم الرمال عليها هى النباتات والأجسام الصلبة وأغلب الجبال الصغيرة تتكون على هذا المثال إلا جبالا تغيرت أوضاعها بفعل الرياح التى تدفعها بلا انقطاع فى اتجاه هبوبها. فإذا وجد من الجبال مابقى فى مكانه فإن الأشكال التى تتشكل بها بفعل تيارات الرياح المختلفة تتشابه بحيث لايمكن تمييزها عن القمم المستديرة التى تتألف منها.

١٢- الواحات

الشطر الأعظم من الصحارى فى الدرجة القصوى من القحولة، فإذا وجد بها أثر لنبت فإنما هو أثر الأدغال والأعشاب أو مياه الأمطار النادرة وتترك شيئاً من الماء فى ثنيات الأرض وينمو فى الأماكن الواطئة التى تجتمع فيها هذه الرطوبة بعض النباتات وتظهر بعض الحشائش والأعشاب ولكن أثر هذه الخضرة لايلبث أن يزول بدنو، الصيف.

وهناك جهات أخرى قليلة العدد أراضيها قابلة للزراعة على مدار السنة بسبب ماتحتويه من الينابيع المائية وتسمى تلك الجهات بالواحات. والواحة كلمة مصرية قديمة معناها المكان أو البيت ولقد شبهوها بالجزر الخصيبة متناثرة فى بحار واسعة من الرمل ، وخمس من تلك الواحات تابعة لمصر وهى كلها فى صحراء ليبيا الأولى. منها الهابط من الجنوب إلى الشمال الواحة الخارجة الموجودة فى منطقة طيبة ويفصلها عن القطر المصرى مسافة أربعين فرسخا وتمتد بمؤازرة = بمحاذاة = النيل على طول خمسة وعشرين فرسخا تقريبا وكان القدماء يسمونها صحراء (مانيا) وعلى مسافة عشرين فرسخا منها توجد الواحة الداخلة التى يقرب طولها من اثنى عشر فرسخا وعرضها من عشرة فراسخ.

وإذا استمر الهابط فى هبوطه إلى البحر الأبيض المتوسط التقى فى طريقه بواحة فرافرة الصغيرة الواقعة على مسافة خمسة وسبعين فرسخا من أرض مصر. فواحة برية (بارفا) على مسافة خمسة وثلاثين فرسخا من مصر الوسطى ويبلغ طولها ثمانية فراسخ وعرضها خمسة . ثم واحة سيوه

المعروفة في قديم الزمان باسم واحة (زفس آمون) والمشهورة برحلة إسكندر الأكبر إليها لزيارة هيكل هذا المعبود بها. وهى كائنة مع الفيوم على خط واحد من خطوط العرض تقريبا وتفصلها عن مصر مسافة مائتى فرسخ وطولها خمسة فراسخ في عرض أربعة . وتحتوى الواحات بوجه عام أراضى في الغاية القصوى من الخصوبة وفيها يزرع قصب السكر والبن والقرمز والنيلة.

١٣- منظر الصحراء

تحدث الصحراء في نفس من يشهدها أول مرة تأثيرا شديدا ظاهرا فإنها تستفز النفس لتخيل الخواطر السامية والأفكار الكبار. ولا عجب إذا اختار المسيحيون في القرون الأولى، للانقطاع عن الناس وطلب الزهد في الدنيا، تلك الأرجاء البعيدة التي يتيسر للمتعب فيها أن يكون على اتصال روحانى مع معبوده وأن يتفرغ للتأمل العميق فيما هو منبسط تحت نظره من عظمة الكون الذى لاحد له.

وكل ما ابتكرته قرائح الشعراء وسطرتة أقلام الكتاب المفكرين في اتساع الأوقيانوس انفساح أرجائه وترامى أطرافه الى أبعد مدى ينطبق على الصحراء فإن ما يستشعر به المرء في عزلته وسط الصحراء يسمو على ما يستشعر به منه وهو على متن الماء. لأن المنقطع عن المخلوقات في الصحراء يظل دواما تحت تأثير من السكون الشامل لا يقدر أحد غيره ممن لم يتأثر به أن يوضح ماهيته ويستطلع كنهه، ذلك لأن سكون الصحراء صمت لا يتخلله همس ولا يذهب بجلاله صوت لجأت الماء في الاقيانوس. فإن أول ما يستشعر المرء به وهو في وسط السهول التى لا غاية لأفقها والبيداء التى تشبه بألوانها البيضاء المزدوجة بوهج ذكاء مدى فسيحا من الأرض جاله البرد، إنما هو الشعور بالاستقلال والتمتع بحرية لا يجاريها في بعد المدى غير تلك الآفاق التى لا تدركها الأبصار هناك يتمثل للمفكر حال الإنسان الأول بعد الخليفة فيشعر بأنه مثله سيد الكون وأنه الملك المتسلط عليه، وأنه يستنشق نسيم الصحراء بما لا يحيط به الوصف من السعادة والهناء فتشرح باستنشاقها الصدور التى اعتادت ثقل الجو ورداءة الهواء في الأماكن الآهلة بالسكان.

(٣)

الطقس والآثار الجوية

الفصول - درجة الحرارة - السراب - الرياح - الخماسين - النسيم -
الضباب - السحاب - الندى - النقطة - الرطوبة - العثير - الإعصار -
المطر - الثلج - البرد - الأرصاد الجوية.

١٤ - الفصول

لم يكن ابتداء الحر والبرد وغيرهما ومدة بقائها ومواعيد انتهائها في القطر
المصرى مماثلة لها في أقاليمنا (الفرنسية) المعتدلة. فإن البرد في مصر يكاد
يكون عديم الأثر . خصوصا في الجهات المجاورة للمدار. وليس بين الربيع
والخريف فرق لشدة تشابههما . فهما في الحقيقة فصل واحد تبلغ مدته ستة
أشهر وإنما ينقسم إلى قسمين بفصل الصيف الذى تتسلط فيه الحرارة
الشديدة.

١٥ - درجة الحرارة

إن ما يذكر بوجه عام عن الحرارة في مصر مبالغ فيه كثيرا على أن درجة
الحرارة في الأقاليم التى يتألف منها هذا القطر لم تكن متماثلة إذ منها ما تزيد
هذه الدرجة فيه عليها في جملة من الجهات والأصقاع الأوربية الجنوبية
كأسبانيا وإيطاليا مثلا. وهناك بيان لمتوسط درجة الحرارة في المناطق
المختلفة.

في الدلتا، تبلغ درجة الحرارة عادة في ثلاثة أشهر الشتاء من ١٢ إلى ١٤
فوق الصفر ، وفي أشهر الربيع من ١٦ إلى ٢٤ وفي الصيف من ٢٤ إلى ٢٦
وأحيانا إلى ٢٨ و ٢٩ وفي الخريف من ٢٤ إلى ٢٨ فإذا أضفنا درجتين إلى
درجة الفصول المتقدمة وقفنا بالتقريب على متوسط درجة الحرارة في مصر
الوسطى. ويرى الصاعد في الوجه القبلى أن الحرارة تزداد بالتدرج كلما
أوغل فيه صعودا. ففي أسبوط الواقعة في الوسط تقريبا من إقليم الصعيد
يرتفع ميزان الحرارة إلى ٣٤ درجة، وفي أسوان وهو الحد بين مصر والنوبة
إلى ٣٦ وأحيانا إلى ٣٨.

ومن مميزات درجة الحرارة في القطر المصرى الاختلاف الذى تتأثر به أثناء الانتقال من النهار إلى الليل. فإنه لا يوجد بلد على ما أعهد بلغت فيه مفاجأة ذلك الانتقال مثل هذا المبلغ، والسبب فى ذلك أن ريح الشمال التى يلطف هبوبها حرارة الجو تلطيفا عظيما تهب عادة عند الغروب فتلطف الجو الذى لا يلبث أن تنحط درجة حرارته إلى أقل مما كانت عليه فى النهار بما يتراوح بين ثمانى درجات واثنى عشرة درجة. وإلى هذا السبب يرجع الفضل فى أن الإنسان إذا تنفس هواء الليل لا يعترضه ذلك الاختناق الذى يغشاه فى غير مصر من البلدان. ثم إن السماء فى تلك الليالى تبدو صافية الأديم ساطعة النجوم لصفاء الجو وخلوه من الشوائب فيحلو استنشاق نسيمه المنعش والتمتع بمزاياه التى نظم شعراء الحب قصائد المدح والتمجيد.

١٦- السراب

سبب الظاهرة الغريبة المعروفة بالسراب أن حرارة الجو تؤثر فى حدوثه. وبيان هذا التأثير أن الأرض إذا سخنتها الشمس تسخيناً كافياً خلال النهار ظهرت من بعد فرسخ تقريباً كأنها محدودة بما يشبه الفيضان العام. وتبدو القرى الواقعة فيما يلى هذه المسافة كأنها جزر فى وسط بحيرة عظيمة يفصلها عن الرأى متسع من الماء صغير أو كبير. وهذا الماء الخيالى يعكس صور المرئيات الواقعة فى أفقه كما تعكسها البحيرة الحقيقية. ولكن كلما دنا المرء من إحدى القرى التى تظهر فى وسط الماء ابتعدت حافة البحيرة الوهمية وظهر له أن الماء الذى يحول بينه والغرض الذى يسعى إليه يضيق شيئاً فشيئاً حتى إذا بلغ من الضيق قصاره تلاشى بالمرّة وتولد فى الحال بجهة أخرى بالنسبة لمجموعة جديدة من المساكن بعيدة عن الأولى أو لآى شىء موضوع وضعاً بارزاً فى المسافة المقصودة. ولم يغب عن الذاكرة ما سببته هذه الظاهرة من الخيبة واليأس لعساكرنا أثناء سيرهم بالصحراء بين الإسكندرية والقاهرة إذ أصابتهم من العطش بما كاد يؤدى بحياتهم أجمعين.

١٧- الرياح

أقاص (فولنى) فى الكلام على الرياح وهبوبها بمصر إفاضة لا يسعنى معها إلا إيراد بعض ما قاله فى هذا الموضوع: «حينما تقرب الشمس من

مناطقنا تتجه بمصر الرياح التى كانت قى قسم الشرق إلى الشمال وتثبت فيه فإذا كان شهر يونيو هبت باستمرار نحو الشمال والشمال الغربى. وفى يوليو تستمر على الهبوب نحو الشمال باختلاف فى اليمين واليسار بين الشمال الغربى والشمال الشرقى. ومن آخر يوليو حتى أواسط سبتمبر تعود الرياح إلى الشرق وتهب منه بدون أن تستقر فيه أكثر مما تهب فى أى إتجاه آخر إلا الشمال. وكلما مرت الشمس من مدار إلى مدار اشتد اختلاف الرياح واقترن هبوبها بصوت شديد. ويستمر هذا الهبوب من الشمال والشمال الغربى والغرب وتلبث على هذه الحال أشهر ديسمبر ويناير وفبراير التى يتألف منها فى مصر كما فى بلادنا فصل الشتاء وعندئذ تدنوأبخرة البحر الأبيض المتوسط المتراكمة المتثاقلة بفعل برودة الهواء من البر فيتكون منها الضباب والمطر.

«وفى أواخر فبراير ومارس - أى عندما تعود الشمس نحو خط الاستواء يكون هبوب الرياح من الجنوب أكثر منه فى أى وقت آخر وفى الشهر الثانى منهما وشهر أبريل تكون الرياح جنوبية بحتة وجنوبية شرقية وجنوبية غربية. وقد تختلط بالرياح الغربية والبحرية والشرقية والأخيرة من هذه تتحكم فى أخريات أبريل. وفى مايو تتسلط مع الريح الشمالية على مملكة البحار».

الخماسين

تهب رياح الخماسين حوالى الاعتدال الربيعى وهى شديدة ويكون هبوبها من الجنوب واسمها مشتق من عدد (خمسين) لأنها تلبث نحو الخمسين يوما وأطلق العرب عليها أيضا اسم السموم.

وأفاض فولنى وغيره من الرحالين فى الكلام عليها بما يغنينى عن الإسهاب فيها وكل ما ذكره بشأنها أن السماء تصطبغ، متى هبت بلون ضارب إلى الحمرة وأن الجو لا يلبث أن يصبح كأنه قد امتلأ بضباب من العثير = التراب الناعم = وأن الحرارة الشديدة تجفف العرق المنفرز من البشرة وأن ميزان ريومور للحرارة يرتفع أحيانا إلى عشر درجات وأنه يتعذر التنفس على الإنسان حتى يشعر بألم عام فى جسمه وضعف يتناول أعضائه وأن هذه الأعراض كثيرا ما تستتبع الرمد الصديدى والصداع والسكته المخية

والدوستتاريا الحادة.

وبتأثير تلك الرياح المشثومة تزداد أحوال المرضى خطرا وشدة . وإذا كان هناك وباء فاشيا فنسبة الموتى به تزداد إزديادا عظيما . وكثيرا ما تبلغ الخماسين من الشدة والخطر ما يحمل المرء على التصديق بما يروى من إخنائها = قضائها = في الصحراء على قوافل برمتها وجيوش بعددها . وعدتها غير أنه لمن حسن حظ الإنسان أن الخماسين لا تهب بشدة وخطورة إلا خمس مرات أو ستا في الخمسين يوما التي تلبث أثنائها . ونادرا ما تتجاوز مدة هبوبها في كل مرة أربعا وعشرين ساعة أو ثمانى وأربعين . ولقد فوجئت مرارا بهبوب الخماسين فكانت تثير من حولي إعصارا من التراب والحصى لولا الحيلة للفرار منها في الوقت المناسب لألحقت بى الأذى من غير ريب .

والشائع بين الجمهور في مصر أن الخماسين تهب على وتيرة واحدة في اليوم الثانى من عيد الفصح كل عام، وهو اعتقاد مبنى على الخطأ المحض والظن الفاسد فإن عيد الفصح لا يقع في تاريخ معين من كل سنة . في حين أن للخماسين بداية دورية لاشك فيها، وهى وإن وقعت في مواعيد متفاوتة قليلا يحوم وقوعها دوما حول موعد الاعتدال الربيعى .

١٩-النسيم

في ليلة اليوم الذى ينتظر فيه هبوب الخماسين يرح الأهلون من مسلمين ويهود ومسحيين دائرة المدينة لاستنشاق النسيم في ضاحيتها، وهم يعتقدون أنهم يتقون بهذه الوسيلة شرور الرياح الخماسينية التى تهب من الجنوب.

٢٠ الضباب

يتكون الضباب في فصل الشتاء وفي أوقات نادرة غير معينة، ويبلغ من الكثافة أحيانا مبلغا يتعذر معه تمييز الأشياء على بعد بضع خطوات . ويخيل للمرء في هذه الحالة أنه أصبح تحت سماء باريس أو لندرة ذات الضباب. إلا أن هذه الظاهرة الجوية قليلة المكث قصيرة العمر لتحلل الضباب سريعا بتأثير حرارة الشمس الشديدة في مصر.

٢١-السحب

وفي ذلك الفصل تتلبد السماء بالسحب التى لا تلبث أن تتبدد وتختفى غالباً قبيل الفجر. وهى تمر عادة من الشمال إلى الجنوب ويتقدم ظهورها أحياناً البرق والرعد اللذين كثيراً ما ينزعج المصري منهما لما وقر فى نفسه من سوء الاعتقاد فيها، ويحدث أحياناً أن يعترى الأجنبى مثل هذا الانفعال برغم إرادته فيحن إلى وطنه ويأسف عليه.

٢٢- الندى

نادراً ما يتساقط الندى فى الشتاء ولكنه يكثر فى الصيف، وعلى الخصوص فى الوجه البحرى أثناء هبوب الرياح من الغرب والشمال متحملة بالأبخرة، المتصاعدة من مياه البحر الأبيض المتوسط. ولكنها لا تلبث أن تختفى بهبوب الرياح. لأن هذه الرياح لا تلتقى فى مرورها إلا بالصحرى القاحلة.

٢٣- النقطة

يطلق المصريون اسم «النقطة» على الندى الذى ينزل فى ليلة ١٨ يونيو من كل عام، وهم يستبشرون بها وينسبون إليها خاصية تنقية الهواء ومنع الأمراض وخصوصاً الطاعون.

وبدهى أن نزول النقطة لا تأثير له معيناً فى ذلك الوباء وغاية ما هنالك أن نزولها يتفق مع اشتداد الحرارة التى إليها وحدها ينبغى أن ينسب التأثير الذى نسب خطأ إلى النقطة، وقد أشار قدماء المؤلفين إلى عادة تم نسيانها اليوم. وهى استطلاعهم نتيجة الفيضان من خير عميم أو عكسه بوضعهم قطعة من الطين المجفف تحت تأثير النقطة وفعلها فتدل درجة ابتلالها بالماء على ماسيكون من درجة الخير المنتظر من وراء زرع الأرض.

٢٤- الرطوبة

الرطوبة فى الوجه البحرى شائعة باستمرار، وهى بلا شك حاصلة من مجاورة البحر وطبيعة الأرض بسبب انخفاضها وامتلائها بالمستنقعات أو أيضاً بسبب غزارة الندى الذى يتساقط عليها. وهى تأكل المعادن جميعاً، وعلى الخصوص الحديد. إذ سرعان ما يعلق الصدأ بها وبسببها يتعذر جلاء الأسلحة والأدوات الفنية التى لا تلبث أن تفسد فى زمن قصير مع ما يضرها من الأمتعة الفضية والثياب المزركشة بأسلاك الذهب والفضة إذا لم تتخذ

الوسائل لوقايتها من فعلها الضار. وهى تقل كلما تقدم المرء نحو المدار وتبلغ أقصى شدتها أيام فيضان النيل - أى فى الأيام التى يزداد سقوط الندى خلالها.

٢٥- العثير

بمجرد انقطاع الرطوبة الحادثة عن الفيضان والندى تجف الأرض ويتفتت سطحها ويتحلل الى عثير يكفى هبوب النسيم أو الريح اللطيفة لاستثارته فى كل ناحية. وهو من النعومة والدقة بحيث ينفذ فى الأماكن كلها حتى المحكمة الغلق. والمصريون يصفون سهولة نفوذ العثير فى كل مكان بقولهم من طريق المبالغة «أنه ينفذ حتى من قشرة البيض» ومن السهل الوقوف على فعله الضار بالنباتات التى يتراكم عليها ويجففها وبالحيوانات وعلى الخصوص الإنسان. فإنه يمنع خروج العرق من بشرته لانسداده مسامها، ويتعب تنفسه بتسربه إلى الرئتين ويفسد الآلات الدقيقة وغيرها حتى الآلات المستعملة لغزل القطن ونسج المنسوجات الحريرية والكتانية.

٢٦- الإعصار

قليل من البلاد يثور العثير فيه كما يثور فى مصر على شكل إعصار تحركه الرياح، فإن هذا الإعصار الرملى يتكون كأساطين عظيمة تدور حول نفسها وترتفع فى الجو عموديا حتى تبلغ السحاب وتظل أحيانا واقفة فى مكانها ولكن تسير فى العادة بسرعة شديدة مدة بضع دقائق حتى تلتقى بشجرة أو جدار أو بيت أو مرتفع من الأرض فتتكسر قوتها وتهبط متساقطة فى نفسها.

٢٧- المطر

من الأوهام الشائعة أن السماء لا تمطر فى مصر أبداً ، وهو وهم أذاعه بعض المتأخرين الذين لم يزوروا القطر المصرى إلا زمن الجفاف التام والواقع أن السماء تمطر كثيرا فى الوجه البحرى، وتبتدىء هذه الأمطار عادة فى شهر أكتوبر وتستمر فى شهرى نوفمبر وديسمبر ، ولا تنتهى إلا فى شهر مارس.

وفى هذه المدة يندر أن تنقضى أسابيع من غير مطر. بل غالبا ما يشاهد المطر متناديا أياما متعاقبة، وفى كل عام تبلغ مرات المطر من خمس وعشرين

إلى ثلاثين. أما في القاهرة فلا تزيد تلك المرات عن نصف العدد المتقدم مع قلة الأمطار. وفي سنة ١٨٢٥ أمطرت السماء بالقاهرة ثمانية أيام وصلا مطرا أفضت شدته إلى سقوط منازل عديدة ووقوع أضرار مختلفة. أما في الوجه القبلي فالأمطار نادرة جداً، وهي لا تظهر فيه إلا بعد أزمان مديدة. على أنه قد شوهد بين القاهرة وقنا نزول مطر شديد مسبوق بالبرق والرعد، وفيما يلي قنا يعد نزول الأمطار من الحوادث الخارقة للعادة. على أنهم يذكرون أن المطر نزل هاميا في مدينة اسوان. ويذهب بعضهم إلى أن المزارع العديدة التي أنشأتها عناية الوالي قد أثرت في طقس القطر المصري. فسببت تواتر الأمطار السنوية وطول مكثها. وليس لهذا الرأي فيما نرى أساس من الصحة يمكن الاعتماد عليه. إذ بمقارنة جداول الحوادث الجوية التي عملت خلال الثلاث سنوات التي أقامتتها الحملة الفرنسية بمصر بالجدول التي يجدها القارىء في نهاية هذا الفصل يستنتج أنه لم يحدث في طقس مصر تغير محسوس أو انقلاب ظاهر خلال الأربعين سنة الماضية. فإذا عدد أيام المطر التي سجلت أثناء الحملة الفرنسية بلغ متوسطها في كل سنة من ١٥ إلى ١٦ يوما بينما أنها لم تبلغ في خلال الخمس سنوات الأخيرة من ١٢ إلى ١٣ يوما.

٢٨- الثلج

إذا كان الثلج نادر السقوط في الوجه البحري فسقوطه أندر في الوجه القبلي. على أن الفرنسيين الذين كانوا بمدينة قنا في السنة الثامنة للجمهورية شهدوا سقوط ثلج غزير فيها، وقالوا أن حبوبه كانت تعدل في حجمها ما لا يقل عن حجم البندق الكبير. وحدث بعد ذلك أن سقط الثلج مرارا في أزمان متفاوتة متباعدة، وكان من الكثرة سنة ١٨٢٨ بحيث استطعنا أن نملاً به في أبى زعبل بعض الآنية. بل قد شهدنا سقوط ثلج بحجم صغار الجوز وعلمنا أنه ألحق بالناس في الأرياف ضررا بليغا إذ جرح الكثيرين منهم وقتل بعض الحيوانات.

٢٩- البرد

أما البرد في مصر فآثر جوى أندر وقوعا من الثلج. هذا فضلا عن أنه لم ير إلا في شطوط البحر أو في نقط تبعد عنها بفراسخ قليلة. ونزل البرد في سنة

١٨٢٢ بثغرى الإسكندرية ورشيد، وامتد إلى جهة العطف فأخذ الطاعنون في السن من أهل هذه الجهات ينقبون في ذاكرتهم عن حادث من هذا القبيل حصل في ماضى حياتهم فذهبت جهودهم في هذا السبيل سدى واتفقوا رأيا على أنهم لم تقع أعينهم قط على شىء من هذا النوع.

٣٠ - وأظننى أحسن صنعا إلى الذين يودون التحقق بالدقة من أمر درجة الحرارة في القطر المصرى بإيراد الأرصاد الجوية التى قام بها الموسىو (ديتوش) الصيدلى المفتش فى خدمة سمو الوالى أثناء خمس سنوات متتابعة. فإذا قورنت هذا الأرصاد بالتى قامت بها فى القاهرة اللجنة العلمية للحملة الفرنسية يتبين أن الطقس فى مصر لم يطرأ عليه تغيير محسوس منذ نحو أكثر من أربعين عامًا.

وهناك على طريق المثل الأرصاد الترمومترية التى قامت بها تلك اللجنة محولة إلى درجات سنتغرافية فإنها تبين أن درجة الحرارة:

١٣,٣	فى يناير قد بلغت إلى
١٤	وفى فبراير قد بلغت إلى
١٧,٥	وفى مارس قد بلغت إلى
٢٢,٢	وفى أبريل قد بلغت إلى
٢٤,٣	وفى مايو قد بلغت إلى
٢٨,٦	وفى يونية قد بلغت إلى
٣٠,٢	وفى يولية قد بلغت إلى
٢٩	وفى أغسطس قد بلغت إلى
٢٨,٣	وفى سبتمبر قد بلغت إلى

وفى الجداول الآتية مقنع بأن متوسط ما كان يعطيه الترموتر من الأرقام عن تلك المواقيت يقرب من الأرقام التى دل عليها فيما تقدم.

ومن السهل الحكم بطريق الاستنتاج - طبقا للمعلومات المتقدمة - على شدة الحرارة فى الأماكن المعرضة للشمس. ففى أسوان أى فى الحدود القصوى للصعيد يرتفع ميزان سنتغراد من ٦٠ درجة إلى ٧٠ فى الرمل

والشمس، وفي القاهرة إلى ٤٥ درجة في الأولى و ٥٠ في الثانية.

مذكرة - الأرقام التى فى الأعمدة المحصورة بين عنوانى (الرياح) و(حالة الجو) تدل على مقدار الاختلافات الجوية التى وقعت خلال كل شهر ويستدل من هذه الأرقام على سرعة تغير الآثار الجوية لطقس القطر المصرى.

٣٢- ينابيع النيل

قام بعض الملوك فى الأزمان القديمة وفى مقدمتهم (سيزوستريس) و(قمبيز) و(الإسكندر الأكبر) و(البطالسة) و(قيصر) و(نيرون) بأبحاث كثيرة عن ينابيع النيل لاستكشافها إلا أن جهودهم فى هذا السبيل ذهبت ضياعاً، وإلى فشل مسعاهم ضرب الأقدمون مثلاً على المشروعات التى لا تؤدى إلى نتيجة بقولهم: «بحث عن ينابيع النيل».

ولقد كان هذا الفشل نصيب الرحالين المتأخرين فإنهم رغم ما بذلوا من الجهود لاستكشاف ينابيع النيل لم يوفقوا حتى الآن إلى تكذيب ذلك المثل. والرأى المسلم به والمجمع عليه أن ينابيع النيل فى جبال القمر وأنه بابتعاده عن هذه الينابيع المعينة له على سبيل الحدس والتخمين يتكون منه ما يسمى بالبحر الأبيض ثم يلتقى به شرقاً بإقليم سنار على مسافة مائة وثمانين فرسخاً من أسوان البحر الأزرق الذى ظن بعض الرحالة أنه النيل نفسه فالنهر المعروف باسم (تانار) و(أرقابوراس) هو الأخير من روافده. وفيما بين هذا النهر والدلتا - أى على مسافة أربعمائة وخمسين فرسخاً لا يتلقى النيل ماء من أى رافد آخر. قال همبولدت: «إن هذا هو المثال الوحيد لنهر فى التاريخ الهيدروغرافى للكرة (الأرضية)».

٣٣- الشلالات

اشتهرت شلالات النيل عهداً طويلاً شهرة ملأت الخافقين وفاقها فى الشهرة منها الشلال الأول فإن (شيشرون) و(سنكة) لم يترددا فى ذكر ما يفهم منه أن هذا الشلال قد بلغ من العظم بحيث كان يصل خريره إلى مسامع جميع السكان الذين يجاورونه فيصم أذانهم. وقد ذهبت الآراء فى بيان أهمية ذلك الشلال إلى مثل هذا المذهب فى المبالغة فى عهد قريب منا.

والشلال الأول، وهو الوحيد الذى نتصدى للكلام عليه - بالنظر إلى أن

الشلالات الأخرى غير موجودة بالقطر المصرى — مكون من جبل كان يعترض النيل فتمكن النيل من قطعه فى جهات متعددة منه يلتمس لمائة منفذا إلى الأمام، وفى الواقع فإنك ترى مجرى النهر على مسافة نحو فرسخين منه تعترضه أهداف = صخور = كبيرة من الجرانيت يرتفع بعضها عموديا إلى علو شاهق ويتكون من البعض الآخر جزر كبيرة أو صخور مبعثرة هنا وهناك ولكثرة هذه العوائق تندفع مياه النهر وتتمزق بشدة عند مرورها عليها فتتألف منها شلالات تتساقط مياهها من مرتفع إلى منخفض ومن هذا إلى غيره. ويسمع من بعيد صوت المياه متكسرة على الصخور أو متساقطة فى الهوى أو مرتفعة كالأعصارات الرملية. والمرور من ذلك الشلال شديد الخطر على القارب. ولهذا السبب اتخذ لها ممر على الضفة اليسرى لوقايتها من العطب. وفى أثناء الفيضان تغمر المياه تلك الصخور بأسرها، ولكن السفن تستطيع فى أيام التحاريق الصعود فيه جذبا بالحبال كما تستطيع النزول مدفوعة بقوة التيار.

٣٤- مجرى النهر

يجرى النيل من الشلال الأول إلى الشمال على مسافة مائتين وستة عشر فرسخا حتى إذا بلغت المسافة بينه والقاهرة فيما يليها شمالا تفرع إلى فرعين يتجه أحدهما نحو الشمال الشرقى والآخر نحو الشمال الغربى ويظل مواصلا السير على هذين الاتجاهين إلى البحر الأبيض المتوسط فيتكون من أحدهما فرع دمياط ومن الآخر فرع رشيد مارين بهاتين المدينتين بعد أن يقطع كلاهما نحو خمسين فرسخا من نقطة تفرعهما.

ويتكون مجرى النيل كله من الرمل والطين. وعرضه وعمقه يختلفان بحسب الأماكن التى يمر بها فتراه تارة ضيقا عميقا وطورا يتسع حتى يبلغ من العرض ربع فرسخ، ويمكن فى هذه الحالة عبوره خوضا على امتداد عرضه.

٣٥- ضفاف النيل

كلما تقدم الإنسان نحو الشلال الأول ارتفعت ضفتا النيل، وصار ارتفاعهما فوق منسوب مياهه محسوسا. ويبلغ هذا الارتفاع أيام التحاريق بمصر العليا ٣٥ إلى ٤٠ قدما. وبالقرب من القاهرة ٢٥ إلى ٢٠ ثم يذهب

منخفضا بالتدريج إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط حيث يتلاشى بالمرّة في شواطئه. غير أن مياه النيل أثناء إرتفاعها تذهب بكل أثر لدرجات هذا الارتفاع. إذ كثيرا ما تسمو حتى تبلغ إلى المسطحات العظيمة الارتفاع وتغمرها. ولما كانت ضفاف النيل خاضعة في كيانها لطبيعة الأرض وشدة التيار وكيفية اصطدام المياه بها فإنها تبدو تارة مقطوعة قطعاً عمودياً وطورا منحدرّة كثيرا أو قليلا. وليست تلك الضفاف كضفاف أنهار أوربا مرصعة بالأشجار والنباتات المائية. كلا! فإنك ترى عليها على أبعاد متفاوتة أشجار النخل واللبخ والتوت فيسر النظر بمرآها. وأكثر ما يكون وجودها في المسالك الموصلة إلى المساكن أو حول السواقي حيث تقى بظلها الوارف من حر الهجير الرجال والحيوانات العاملة على رفع المياه من النهر المبارك لرى الأرضين بها.

ويمر النيل بجميع مدن القطر المصري تقريبا وأمهاة قرى الوجه القبلى وجزء من مصر السفلى وتقوم على ضفافه الكفور والعزب المشيدة فى نقط متقاربة بعضها من بعض، وهو ما يجعل للبلاد منظرا يستهوى النظر ويمهد للمسافر سبيل الحصول منها على الحاجيات اللازمة لمعيشته اليومية.

٣٦. أمطار النهر

النيل كغيره من الأنهار المحصورة بين المدارين تزداد مياهه سنويا عقب الانقلاب الصيفى. وقد اتجهت الخواطر إلى استطلاع أسباب هذا الحادث السنوى المنتظم الباعث على الخصب. لأن ما انتحله من الأسباب له ولا يزال مستقرا فى الاخلاص ليس من الصواب فى شىء. فقد كانوا يذهبون إلى أن السحب التى تجتاز جو مصر مسوقة بقوة الرياح الشمالية تتجه نحو جبال السلسلة الأثيوبية حيث تتراكم ثم تستحيل إلى مطر يفضى باجتماع مياهه بعد سيلها من السفوح والمنحدرات المختلفة إلى ارتفاع مستوى النيل الارتفاع السنوى المعهود.

وذهب هذا الاعتقاد بالقوم إلى حد الزعم بأن رياح الشمال بغض النظر عما تسوقه من السحب تسبب أيضا ارتفاع النيل ويستند أرباب هذا الرأى على أن تلك الرياح تدفع بمياه النيل نحو الجنوب أعلى إلى اتجاه مضاد لمجراها فيؤدى هذا الدفع الذى يصدها عن سبيلها إلى بلوغها من الارتفاع حدا يؤدى

إلى فيضاناتها على الأرضين التى حولها. وهو مذهب بين الفساد بدليل أن رياح الشمال لا تهب إلا فى الوقت الذى يبدأ مستوى النيل فيه بالارتفاع فى مصر ذاتها - أعنى فى شهر يوليو. أما فى الخرطوم - أى المكان الذى تكون فيه من إنضمام النهر الأزرق والأبيض فإن ارتفاعه يبتدىء منذ شهر أبريل. فليس من الممكن القول بأن رياح الشمال تأتى إلى بلاد الحبشة وسلسلة الجبال الأثيوبية حيث تنبثق مياه روافد النيل جميعا بالأبخرة التى يعزى إليها ازدياد مياه هذا النهر. على أن هناك رأيا يكاد يكون حاسما فى الموضوع لموافقته الصواب وهو أنه لا سحب من السحب الخفيفة التى تشاهد بمصر مارة فى اتجاه الشمال إلى الجنوب يصل إلى النوبة فضلا عن الحبشة، ذلك لأن السحب تتبدد قبل أن تبلغ إلى دنقلة. فمن الواجب إذا تعليل ارتفاع مياه النيل من غير هذا السبيل.

وفى سنار تجىء أشهر أبريل ومايو ويونيو بأقطار لا انقطاع لها والرياح تهب بتلك المنطقة فى اتجاه الجنوب الشرقى. فإن السحب تتراكم يوميا قبيل الظهر فى هذه الجهة من الأفق فينقضى المساء كله والليل حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل والطقس مزعج غير محتمل وتكون للرياح زمجرة هائلة وللرعد قصف يصم الأذان وللمطر هطول شديد لا ينقطع، ويستمر هذا الطقس فى سنار إلى آخر يونيو، ولا تنتشر الأمطار فيها إلا إذا عم الفيضان. ولكن لوحظ أن هذه الأمطار لا تسبب ارتفاع المياه بل تساعد على تغذيتها فقط وتنمية إيرادها مدة ما من الزمن (١) وليس فى هذا أيضا ما يصح أن يكون تعليلا لذلك الحادث.

أما رأى الراجح المسلم به لانطباقه على الصواب فهو أن ارتفاع الماء فى النيل ناشئ من السحب المتكونة من أبخرة الاقيانوس الهندى والمندفة بقوة الرياح الجنوبية الشرقية إلى ناحية الحبشة حيث تحجزها الجبال المرتفعة من السلسلة الأثيوبية فلا تلبث أن تستحيل إلى مطر ينصب عليها.

والمياه الأولى التى ترفع نهر النيل تمر بالخرطوم فى أوائل أبريل - كما ذكرت آنفا - ولا تظهر الزيادة فى حجم مياه النهر بالقاهرة إلا فى النصف

(١) ماء الفيضان فى سنار لا ينسكب على الأرض كما فى مصر بل يظل فى مجراه.

الآخر من يونيو، وهو ما يؤخذ منه أنها تقضى نحو ثلاثة أشهر تقريبا في قطع طريق طوله أربعمائة وثمانون فرسخا وهو طريق تقطعه في شهر واحد وكسور إذا كان التيار سريعا، وسبب ببطء المياه الأولى للفيضان في الوصول إلى القاهرة استنفادها في الطريق قبل وصولها إلى مصر العليا ومصر الوسطى وانصراف بعضها إلى جهات مختلفة كثيرة وارتشاح البعض الآخر فيحرم النهر بهذا وذاك من مياهه الأولى قبل أن يبلغ في سيره إلى الصعيد ومصر الوسطى.

ثم أن مياه النيل لا تزداد زيادة مطردة التدريج والانتظام أبدا، فإنها غالبا ما تزداد بغتة ازديادا عظيما ثم تقف فتتقص أو تزداد من جديد ويتفق أحيانا أن يكون تدرجها في الزيادة سريعا، وفي مصر الوسطى والوجه البحرى تبدىء المياه بالارتفاع في أواخر يونيو أو أوائل يوليو لتبلغ الحد الأقصى من ارتفاعها في أواخر سبتمبر أو أوائل أكتوبر ثم تهبط منخفضة أثناء التحريق في مارس وأبريل ومايو.

٣٧. الفيضان

يظن من لا يعرف القطر المصرى إلا بالاسم أن النيل يفيض على الأرض فيغمرها كما غمرتها مياه الطوفان. والحقيقة أن الفيضان يعم الأرضين في كل مكان بترع الرى والقنوات المشتقة منها وهى التى بواسطتها يذهب الماء إلى الأراضى البعيدة. على أن الفيضان قلما يكون عاما لأن المياه تتوزع على مسطحات من الأراضى يختلف ذرعها = مساحتها = كبرا أو صغرا وتحيط بها الجسور التى يندفع الماء من بعض جهاتها لىرويهها. والأراضى التى تروى بغمر المياه لها قليلة. لأن الفلاح المصرى لا يكل إلى النهر شئون رى أراضيه على ما يقتضيه الجراف.

٣٨. قطع الخليج

إذا بلغ النيل من الارتفاع إلى الحد المناسب لرى الأرض بمياهه وهو ما يحدث بين ١٥ و ٢٠ أغسطس احتفل في القاهرة احتفالا باهرا بفتح الخليج الذى يختزنها من جانب إلى الجانب الآخر، وانطلقت فيه المياه وسرت في الفروع المشتقة لتروى قسما عظيما من الأراضى الواقعة على الضفة اليمنى من فرع دمياط. وفي ليلة يوم ذلك الاحتفال العظيم تضىء الأنوار كل ناحية

وتطلق في كبد الجو الأسهم النارية بأشكال ورموز مختلفة، ويسمع دوى المدافع وعزف الموسيقى وأنغام المغنين، وترى بجوار الخليج مئات الزوارق مزينة بالأعلام ومضاءة بالمصابيح وهى تروح وتغدو متقابلة متدابرة على وجه الماء. فإذا كان نهار اليوم التالى للمياه هدفا للمدافع وألقى فى النيل قربان على مثال البشر فلا يلبث الجسر أن يتهدم بتأثير المقذوفات فتنتطلق المياه فى الخليج بدوى عظيم^(١).

٣٩- تيار ماء النيل

لم يكن انحدار الأرض التى يجرى النيل عليها بين أسوان والبحر عظيما فإن ارتفاع هذا الانحدار فى النقطة التى تبعد عن مصب النهر بنحو مائتين وخمسين فرسخا وعن مدينة أسوان شمالا بنحو خمسة فراسخ يبلغ ٤٥٣ قدما فوق مستوى سطح البحر الأبيض المتوسط. ويبلغ فى طيبة (الأقصر) الواقعة على نحو مائة وثمانين فرسخا من مصب النهر ٣٥٧ قدما وفى أسيوط على مسافة مائة وخمسة وعشرين فرسخا ٢٨٧ قدما، وفى القاهرة حيث يبعد عن ذلك المصب بنحو خمسين فرسخا فقط ٤٠ قدما أثناء الفيضان من جهة الشرق. وتبلغ سرعة جريان ماء النيل ثلاثة أميال فى الساعة وقت الفيضان وميلين فى وقت التحريق. على أن هذه السرعة تقل بسبب ما تصادفه المياه فى طريقها من العوائق المختلفة كمنعطفات النهر أو ضيق عرضه أو اتساعه أو

(١) زعم بعض المؤلفين المتقدمين أن المصريين كانوا فى العصور السابقة يقدمون فى مثل هذا الاحتفال قربانا للنيل فتى وفتاة حليا بالأزهار. ولكن هذا الزعم قابل بالتكذيب من المحققين الذين ينكرون شيوع مثل هذه العادة الوحشية فى أمة بلغت من الحضارة والمدنية ما بلغت الأمة المصرية. وهم يذهبون إلى أن المؤرخين الذين اتهموا الأمة المصرية بمثل هذه التهمة الشنعاء (وهل أشنع من تضحية النفوس البشرية) قد جرهم إلى السقوط فى هذا الخطأ شيوع عادة تماثل العادة الشائعة الآن وهى إلقاؤهم فى النهر قبل فتح الخليج مثالا من البشر مكلا بالأزهار على أنه مع ثبوت أن عادة إلقاء القرابين البشرية فى النيل لم تعمل الأمة المصرية بها فى عهد اليونان والرومان على الأقل. فقد روى العلامة ابن عبدالحكم أنه لما فتحت مصر على يد عمرو بن العاص جاءت إليه الأقباط وقالوا: «إن لنيلنا سنة لا يجرى إلا بها وهى إذا كان الثانى عشر من بؤونة عمدنا إلى بكر مليحة نأخذها من أبويها غصبا ونزينا ثم نلقياها فى النيل فى مكان معلوم عندنا» فقال عمرو: «هذا لما يكون فى الإسلام أبدأ فمكث النيل من بؤونة لغاية سبعة عشر توت لم يزد فيها. فهم أهل مصر بالجلاء عنها، فلما رأى عمرو بن العاص ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستشير به فى الأمر فكتب أمير المؤمنين بطاقة وأرسلها إليه وفيها وافق على الخطة التى سلكها عمرو بن العاص والثبات الذى أظهره حيال المصريين فيما جروا عليه من تلك العادة. وقال ان دين الإسلام جاء ليقضى عليها وعلى أشباهها من العادات الوثنية ثم أمره متى قرأ هذه البطاقة بأن يلقى فى النيل الورقة المرفقة بها وهى رسالة منه إلى هذا النهر كتب فيها مايتى:

«بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على محمد وآله. من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر المبارك».

«أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كان الله تعالى هو الذى يجريك فنسال الله أن يجريك».

فالقاهما فى النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد الذى هو سابع عشر توت فأجرى الله تعالى النيل من ليلته ففرح أهل مصر بإبطال هذه العادة السيئة.

غير ذلك مما يكون سببا لزيادة سرعته حيناً وانخفاضها حيناً آخر.

٤٠. حجم الماء

سواء في زمن الفيضان أو في وقت التحريق يذهب قسم عظيم من مياه النيل ضياعاً في البحر الأبيض المتوسط، ويتعذر رى متسعاً كبيرة متفرعة من الأرض لهذا السبب ولبعد قاع النهر وعدم توافر الوسائل الصناعية لرفع مياهه إلى الضفتين والاستفادة بها في الزراعة. وفي الحسابات الدقيقة التي قام بها المهندس (لينان) ببيان أحجام المياه التي يسوقها النيل في مجراه كل أربع وعشرين ساعة من أيام الفيضان أو التحريق.

متر مكعب
٧٩٥٣٢٥٥١٧٢٨
٧١٠٣٣٨٤٠٦٤٠
١٥٠٥٦٦٣٩٢٣٦٨

أيام التحريق

حجم المياه التي تجرى في فرع رشيد

حجم المياه التي تجرى في فرع دمياط

٤٧٨٣١٧٨٣٨٩٦٠
٢٢٧١٩٦٨٢٨٤٨٠
٧٠٥٥١٤٦٦٧٤٤٠

أيام الفيضان

حجم المياه تجرى في فرع رشيد

حجم المياه التي تجرى في فرع دمياط

ومن المناسب إلى حد ما في هذا المقام التكلم على سد النيل (القناطر الخيرية) ولكنني أثرت. أرجاء الكلام عليه في الفصل الذي عقده لذكر الأشغال العمومية الحالية، ولهذا أحول نظر القارئ إليه.

٤١. المقياس

لما كان فيضان النيل السنوي من الشئون الحيوية لمصر فقد شعر المصريون في كل عصر بالحاجة إلى قياس ارتفاعه. فقدماء المصريين أنشأوا المقاييس العديدة في نقاط مختلفة من مجراه ليعلموا مقدماً من قياس ارتفاع مياهه إذا كانت نهاية هذا الارتفاع صالحة للزراعة أو غير صالحة لها، وكان أحد تلك المقاييس في مدينة (منفيس) والثاني في (فيلة) بأسوان (١) ولا تزال آثاره باقية حتى الآن. أما الآن فالمقياس الوحيد من هذا النوع في القطر المصري هو الموضوع في الزاوية الجنوبية من جزيرة الروضة تجاه مصر

(١) الصراب في جزيرة الفنتين تجاه أسوان.

العتيقة، وقد أطلق العرب كلمة المقياس عليه، وهو عبارة عن عمود من المرمر الأبيض قائم وسط بئر مربعة تتصل بالنيل بفتحة في قاعها الذي ينزل إليه بسلم مثبت الدرج في جدرانها، والعمود ذو ثمانية أوجه ومقسم ستة عشر قسما كل قسم منها ذراع، والذراع المصرية تنقسم إلى ستة أشبار. قياس كل منها أربعة أصابع، وعليه فهي تعدل بتقدير علماء الحملة الفرنسية ٠,٤٥٠ ملليمترًا.

وبنسبة حركة النيل ارتفاعا وهبوطا إلى هذا التقسيم يعلم أن هذا النهر الذي لا ينخفض أبدا إلى أقل من الذراع الثالثة في المقياس يصعد بمقدار ٢٤ إلى ٢٠ إصبعًا فوق الذراع السادسة عشرة أعنى أنه يغطي أعلى العمود فيدل بذلك على بلوغه من الارتفاع إلى النصاب الذي يرجى منه الخصب والخير العميم.. الذراع أى ثلاثة وعشرين قدما. وأثناء ارتفاع مياه النهر يطوف ويحصل وفاء النيل ببلوغه إلى ثلاثة عشر ذراعا وثلاثة أرباع، ويقوم المنادون في القاهرة لتبشير الأهلين بأنباء هذا الارتفاع في المقياس (١).

ومقياس الروضة بالقاهرة أنشئ في أيام سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي سنة ٩٧هـ وجدده في سنة ١٩٠هـ المأمون الخليفة العباسي ونقش في عمودها، يشير إلى ذلك وأمر بترميمه بعدهما المستنصر بالله الخليفة العباسي، وضرب عليه قبة فوق عمد عليها الممالك أيام الحملة الفرنسية إلا أن مهندسينا قاموا بترميمها وجعلوا البناية المقياس بابا خارجيا نقشوا فيه بالعربية والفرنسية ما يشير إلى هذا الإصلاح

٤٢. انحسار الماء

تبذر الأرض في مصر بعد انحسار مياه النيل عنها. إما بالوسائل الصناعية أو الوسائل الطبيعية. ولا تلبث البذور بعد نثرها بأيام أن تنبت وتنمو وتكسو الأرض ثوبا زاهى الألوان. لأن الأرض وإن لم تكن صالحة بذاتها للزراعة تتأثر بمياه النيل التى تحمل في غضونها عناصر الخصب

(١) ترجع عادة النداء تبشيرا بالنيل وبلوغه من الارتفاع الحد الذى يتوقف عليه أمل الأمة المصرية أو بأسها إلى العصر الراغلة في القدم. ولقد هم العرب بإبطالها إبان الفتح، لأنه كان كثيرا ما يحدث أن لم يبلغ الفيضان إلى الحد الذى يتم به رى الأرض ويرجى معه المحصول الوفير والغلة الكثيرة أن يستسلم أهلون إلى اليأس والقنوط على وجه يضطرب معه حبل التجارة ويختل ميزان الأعمال ولم يجرؤ العرب مع سداد رأيهم على استعمال القوة لمكافحة تلك العادة ومعارضة الرأى العام فيها لما كان المصريون يولونه للمقياس من الاحترام يكاد يكون في نظرهم فرضا من فروض الدين.

والخير والبركة. وفي سنَى الفيضان العالى تبلغ المياه أحيانا إلى حدود الصحراء والجهات التى لا تصلح تربتها للإنبات فإذا بالإقحال وقد تحول إلى خصوبة وبالنباتات وقد أنتت أكلها كل حين.

٤٣. مياه الرش

لا تخصب الأرض فى مصر بتأثير فيضان النيل وحده. إذ لو صح عكس ذلك لما أمكن زرعها إلا مرة واحدة ولتعذر على النباتات بلوغ الحد الأقصى من نموها. فإن المياه الراشحة لمن أهم عوامل الإنبات ورشحها يحدث بمرورها فى باطن الأرض خلال الطبقات الخفيفة المجاورة للطبقة الصالحة للزراعة.

وسبب ارتشاح هذه المياه التى تسمى أيضا بمياه النشع ضغط ماء النيل على ضفتيه وانحدار الأرض وتخلخل موادها. ويختلف تأثير هذا الضغط تبعا لمقدار حجم ماء النيل قلة وكثرة، وبمجرد حصوله عقب ارتفاع الماء يحدث على الشاطئ تياران يتبعان فى سيرهما اتجاهين متضادين فينفذ الماء من الشاطئ شيئا فشيئا، ويتغلغل فى باطن الأرض حتى يبلغ إلى قواعد الجبال الحافة بالقطر المصرى شرقا وغربا فتصده عن النفوذ منها موادها الصخرية الصلبة.

هذا وليس لسطح النيل مستوى تقف عنده مياهه إلا إذا بلغ الارتشاح إلى منتهاه، ولم يعد للماء قدرة على السريان فى باطن الأرض إلى أبعد مما وصل إليه. وأثناء التحريق تسرى المياه الراشحة مسرى معاكسا لمسراها الأول أى أن المياه التى تشبعت الشواطىء بها وتشربتها أثناء الفيضان تعود من الأماكن التى وصلت إليها لتتسكب فى النيل عند هبوطه بسبب التحريق، وبذا تكون الأراضى التى بلغت إليها المياه الراشحة بعد غيرها من الأراضى آخر ما ينحسر الماء عنه، أو بعبارة أخرى آخر ما يجف.

أما المياه التى تملأ الترعى أيام الفيضان وتبقى محجوزة فيها بالسدود بعد أن يقل حجم مياه النيل فإن ارتشاحها فى الأراضى المجاورة لها يبقى مستمرا حتى بعد أن يكف النهر عن إمدادها بمياهه. ويستفيد الفلاحون بالمياه الراشحة فى الزراعة باستعمال السواقى فى رفعها ورى الأرض بها. والسواقى كثيرة فى الأراضى الزراعية، وسيأتى الكلام عليها بالإفاضة فى

القسم الخاص بالزراعة.

٤٤. أنواع مياه النيل

يكرر ماء النيل في وقت الفيضان، ثم ترسب المواد الطينية التي يحتويها فيصفو شيئاً فشيئاً، وهو مقبول في الذوق ولا يعطل وظائف الهضم وبالنظر إلى خفته يمكن الشرب منه إلى حد الشبع من غير أن يصيب الشارب ضرر. وينفرد من الجسم بسهولة عن طريق المسام عرقاً ومن أحد السبيلين بولا. وقد أيد التحليل الكيى = الكيمياء = رأى القائل بنقاوته العظيمة وخلوه من الشوائب وصلوحه التام لتهيئة الأطعمة والفنون الكيى. وفيه غنى عن مياه الأمطار والماء المقطر الذى يتعذر الحصول على المقادير الوفيرة منه حيث يندر الوقود لتقطيره.

ولم يقتصر القدماء على تكريم النيل لطيب مائه فقط بل لما أسندوه إليه من الخصيات = الخصائص = والمزايا الكثيرة. فقد ذكر (بليناس) من فضائله إزالة العقم في النساء، ولعل هذا هو ما بعث (بطليموس فيلادلفوس) على موافاة ابنته (برينيس) زوجة (أنطيوخوس) ملك الشام بماء النيل لتشربه دون غيره. ولا يزال الناس إلى هذا العهد يكرمون هذا الماء إكرام القدماء له، والمعروف أن سلاطين القسطنطينية كانوا يعنون على الدوام بادخار ماء النيل في قصورهم برسمهم وأفراد أسراتهم لتفضيلهم إياه على غيره من أنواع المياه.

بحيرات مصر

ترتيبها - بحيرة مريوط - بحيرة المعدية - بحيرة ادكو - بحيرة البرلس - بحيرة المنزلة - بركة البلح - سبخة بردويل - بحيرة عامر - بحيرات النطرون - بركة القارون أو القرن - وادى بحر بلا ماء.

٤٥. يعدون في مصر عشر بحيرات منها تتصل بالبحر الأبيض المتوسط هى:

١ - بحيرة مريوط أو (مريوطيس) القديمة.

٢ - بحيرة المعدية أو بحيرة أبوقير.

٣ - بحيرة البرلس.

٤ - بحيرة المنزلة.

٥ - بحيرة البلح.

٧ - سبخة (بروديل) أو بحيرة (سيربون) القديمة. أما الثلاث بحيرات التي لا تتصل بالبحر فهي:

٨ - بحيرة عامر.

٩ - بحيرات النطرون.

١٠ - بركة القارون أو بحيرة (مريس) القديمة.

٤٦. بحيرة مريوطيس أو مريوط

بحيرة مريوطيس أو مريوط وهى أولى البحيرات الواقعة على قاعدة الدلتا بترتيب الوضع من الغرب إلى الشرق. ممتدة بين برج العرب والإسكندرية. وكانت أراضي ضاحية هذا الثغر تستمد منها الخصب. لأن ماءها كان إلى القرن السادس عشر عذبا فراتا تسوقه إليها الترع المشتقة من النيل. وحدث على أثر إهمال حكومة المماليك العناية بالشئون العامة أن جف ماؤها. وكانت حينما هبط الفرنسيون مصر سهلا فسيحا من الرمل تجتمع في جزئه المنخفض الأمطار وتستقر فيه شطرا كبيرا من الشتاء، ولكن الجيش البريطانى العثمانى قطع في ٤ ابريل ١٨٠١ جسور ترعة الإسكندرية من الطرف الغربى لبحيرة المعديّة فانتشرت مياه البحيرة، وهى كمياه البحر الملح في شدة الملوحة، في بحيرة مريوط من ثلاث فتحات أو أربع، وكانت جافة وقتئذ كما ذكرنا، واستغرق امتلاؤها بها ستة وستين يوما، وكان من نتائج هذه الفعلة الشنعاء أن غرقت أربعون قرية وعم الماء الأراضي الزراعية المحيطة بها^(١).

٤٧. بحيرة المعديّة

أطلق عليها هذا الاسم انتحالا من الممر الواقع في الطريق بين الإسكندرية ورشيد، وكان يوصل هذه البحيرة بالبحر الملح. وهى واقعة بين أبى قير وبحيرة أدكو. تكونت من عهد حديث وماؤها ملح أجاج. ويشغل قناة الماء

(١) أمر محمد على بسد الفتحة التى تصل بحيرة مريوط بالبحر فلم تعد هذه البحيرة تلقى سوى مياه الامطار وما يفيض من ماء ترعة الحمودية. وهذه المياه تغطي سطحها في زمن الشتاء ولكنها تتبخر في الصيف، وبالنظر لتشبع قاع البحيرة طويلا بمياه البحر ترى عليه طبقة ملحية سميقة يخيل للناظر أنها طبقة من الجليد، والملح الذى يتبلور بهذه الطريقة ينتج به، وقد فكر الرالى في الاستفادة من أرض مريوط بجعلها صالحة للزراعة.

٥٢- سبخة بردويل

سميت بحيرة (سيربون) الواقعة شرقى أطلال (بيلوز) وفى جوار العريش بسبخة (بردويل) ولايزال وصف (استرابون) و(ديودورس الصقلى) لها منطبقا على حالتها الحاضرة فقد قال ديودورس أن فيالق برمتها من الجيوش هلكت لجهلها بحقيقة هذه المستنقعات العميقة التى تغطيها الرياح بما تسفيه عليها من الرمال فيختفى فى الظاهر ما تحتها من الهاويات العميقة إلى أن قال: «وهذا الرمل الطينى تسوخ الأقدام فيه بثقل الأجسام شيئا فشيئا. فكأنه يغرر بالمسافرين. إذ يستدرجهم إلى السير عليه فإذا أوغلوا فيه وشعروا بخطئهم تعذر عليهم إنقاذ أنفسهم مما تورطوا فيه عن جهل واغترار. وكان كل جهد يبذلونه فى هذا السبيل جاذبا للرمل إلى الجهات المجاورة فينتهى الأمر بأولئك المسافرين التعساء إلى الاختفاء فى غياهب تلك المهاوى. ومن ثم جاءت تسمية ذلك السهل الطينى باسم (باراتروم) الذى معناه باللغة اللاتينية «المهواة».

٥٣- بحيرة عامر

هذه البحيرة قريبة من منتصف برزخ السويس والظاهر أن مياه البحر الأحمر كانت فى الأزمان السالفة ممتدة إلى موقعها وكانت الترع القديمة توصل بينها والنيل.

٥٤- بحيرات النطرون

على مسيرة اثنتى عشرة ساعة غربى بلدة (الطراثة) فى الوجه البحرى واد يحتوى الجزء الواطىء منه أغوارا أطلق عليها اسم بحيرات النطرون. والنطرون مادة ملحية حجرية تتكون فيه. وعدد هذه البحيرات عشر تنتهى حافاتها بخلجان صغيرة يرتشح الماء منها فتتكون منه عيون يتسرب الماء منها جداول صغيرة تنصب فى قاع تلك الأحواض وحافاتها مغطاة بطبقة من النطرون.

ولامشاحة فى أن قاع هذه البحيرات أوطأ من مجرى النيل. بل من مستوى البحر الأبيض المتوسط، والرأى الراجح يعلل وجود المياه فيها بمياه النهر الراشحة من الأرض على مسافة عشرة فراسخ تقريبا، وهى المسافة التى

التي بينها والبحر الملح مكان مصب فرع كانوب القديم تقريبا ولا يزال يوجد على اللسان الرملى الفاصل بين ذلك المضيق والبحر الأبيض المتوسط آثار جسر طوله ثلاثة آلاف متر قطعه هذا البحر في سنة ١٧١٥ فكان ذلك سببا في طغيان مياهه على بحيرة المعديّة التي يبلغ مسطحها ١٤٠٠٠ هكتار.

٤٨. بحيرة اذكو

سميت كذلك باسم قرية على سواحلها. وهى واقعة بين بحيرة المعديّة وفرع رشيد ويمدها النيل بمياهه. كانت في عهد الحملة الفرنسية جافة تقريبا لأن جسور الترع التي تمتلئ بمياهها لم تكن قد فتحت منذ زمن طويل. ولقد انكسر أحد هذه الجسور في سنة ١٨٠٠ ولكن طغيان الماء كان من الشدة بحيث ارتفع مستواه فيها فوق مستوى سطح البحر الملح بنحو ٥٠ إلى ٦٠ سنتيمترا. إذ فتحت في ذلك الجسر فوهة بلغ عرضها نحو ٥٠ مترا ومسطح هذه البحيرة أقل من ٣٣٠٠٠ هكتار بقليل.

٤٩. بحيرة البرلس

تشغل بحيرة البرلس قاعدة الدلتا، وتمتد بين نهايتى فرع النيل. وهى قليلة العمق تتلقى المياه من الترع المختلفة وتتصل بالبحر بفتحة. ويبلغ طولها ٢٥ فرسخا تقريبا ومسطحها ١١٢٠٠٠ هكتار.

٥٠. بحيرة المنزلة

تمتد بحيرة المنزلة بين دمياط وأطلال (بيلوز) وأعظم امتداد لها يقرب من ٨٤٠٠٠ متر وأقله ٢٢٠٠٠ متر ومسطحها ١٨٤٠٠٠ هكتار. وتتصل بالبحر المالح بفتحتين إحداهما تسمى (الديبة) والأخرى أم (سراج) وقد تبين أن هاتين الفتحتين كانتا مصبى فرعى (منديس) و(تنيس) في الأزمان القديمة. وطعم مائها لا تتقرز النفس منه كما تتقرز من طعم ماء البحر. ولذا فإنه في أيام فيضان النيل يكون صالحا للشرب بسبب إنصباب ماء النيل فيه وامتزاجه به عن طريق ترعة بحر موسى.

٥١. بركة البلح

يطلق هذا الاسم على المستنقعات التي تكونها مياه بحيرة المنزلة في الجزء الجنوبي منها، وهى تشغل من الأرض ما مسطحه ١٣٠٠٠ هكتار تقريبا.

تفصلها عن واديهـا. والمحقق أن الارتفاع فى البحيرات متعادل، وأنه يطابق بنسبة عكسية ارتفاع الماء فى النيل. إذ من الثابت المحقق أن مياه النهر الراشحة ترفع مياه البحيرات إلى أعلى منسوب لها خلال فصل الشتاء والأشهر الثلاثة التى يفعل الارتشاح فيها فعله.

والأملاح المختلفة التى تحتويها تلك البحيرات هى الموريات (الكلوريدات) والكربونات وسلفات الصودا . فإن هذه المواد التى تنشأ عن تبخر الماء تتجمد فتصبح صالحة للانتفاع بها فى التجارة.

ومياه اثنتين من تلك البحيرات لونها ضارب إلى الحمرة بتأثير مادة نباتية حيوانية فإذا تباخرت بالصناعة فإن الملح البحرى أول ما يتبلور يحجز ذلك اللون الأحمر ، ويكتسب رائحة عطرية مقبولة فى الشم لقربها من رائحة الورد.

وبالقرب من بحيرات النطرون أديرة قبطية عديدة.

٥٥- بحيرة مريس أو بركة قارون

بحيرة قارون أخرى من بحيرات مصر بالالتفاف والبحث من العلماء المحققين. ذلك لأن شهرتها منذ قديم الزمان وما أحرزته مصر من مزايا وجودها يجعلها فى مقدمة ما امتاز هذا القطر به من الميزات الجديرة بلفت الأنظار.

تشغل بحيرة مريس قاع واد عظيم مستدير الشكل يتكون كما قلنا سابقا من سلسلة جبال ليبية بمؤازاة = بمحاذاة = مصر الوسطى وهذا الوادى هو الذى كان معروفا بإقليم أرسنوة عند قدماء المصريين ويعرف الآن بإقليم الفيوم. أطلق العرب عليه هذا الاسم اشتقاقا من كلمة (بيوم) أو (فايوم) ومعناها فى اللغة المصرية القديمة (المكان ذو المستنقعات) وما تبقى من البحيرة القديمة يسمى فى أيامنا ببركة أو بحيرة قارون أو القارون. فإلى هذا الحوض العظيم ترجع القصة الخرافية المعروفة فى علم (الميثولوجيا) وهى أن (قارونا) هذا كان دليل الموتى على نهر (ستكس) يوصل ظلألهم إلى الجحيم. وقد كان قدماء المصريين فى الحقيقة يجتازون جزءا من البحيرة ليودعوا إحدى المقابر هناك توأبيت موتاهم. فكانت هذه العادة سببا لاستنباط تلك

الخرافة الوهمية التى كانت ذات شأن فى مذهب تعدد الآلهة عند اليونان والرومان. ولقد فسر الأقدمون وفى مقدمتهم المؤرخ (هيرودتس) أصل بحيرة مريس تفسيراً مبنياً على الخطأ وكثيراً ما خدع المتأخرين من علماء الجغرافيا. وما برح هذا التفسير عالقا بأذهان العامة ومستقراً فى أخلادهم. ولكن العلم الحديث مجمع على رفضه وعدم الاعتداد به. إذ يؤخذ من رواية ذلك المؤرخ اليونانى أن الملك (مريس) حفر بحيرة الفيوم ليتخذها خزاناً يخزن فيه ما يفيض من مياه النيل فى أثناء الفيضان ليرده فيما بعد إليه إذا ظهر أن فيضانه لم يكن كافياً لرى الأراضى الزراعية. ولكن البدهة تأبى التسلم بإمكان حفر تلك البحيرة باليد العاملة لأنه لو تيسر هذا العمل فعلاً لاستدعى نقل أحد عشر مليار متر مكعب من التراب والحجارة والصخور. وأيد (هيرودتس) قوله بأن هرمين عظيمين جداً نصب على قمة أحدهما صنم عظيم كانا مرتفعين فوق سطح الماء. ومما يرجح هذا القول أن الملك مريس انتهب فرصة الوضع الطبيعى لوادى الفيوم وانخفاض قاعه بكثير عن قاع نهر النيل ليوصل إليه ماء هذا النهر، وأنه أنشأ الهرمين قبل الشروع فى هذا العمل الجليل. وميسور أيضاً افتراض أن هذين الهرمين كانا موجودين قبل عهد الملك (مريس).

ولم يكن مسطح بحيرة (مريس) التى لا تشغل بركة (قارون) منها الآن سوى القاع العميق أقل من ستين فرسخاً مربعاً. وكانت مياه النيل ترد إليه بترعة تعرف الآن بالبحر اليوسفى وقد اتخذ لها منفذاً فى سلسلة جبال العرب. وكانت ذات فروع وجداول تتشعب فى أراضى الفيوم الصالحة للزراعة حتى إذا أخصبتها بالرى انطلقت نحو تلك البحيرة فسكبت فيها الفائض من مائها. ولم يتفق الباحثون على كيفية استفادة مصر بما كان يرد إلى هذا المستودع العظيم من مياه النيل. وزعم (هيرودتس) فى هذا الصدد أن البحر اليوسفى الذى كان يجلب إليه ماء النيل خلال ستة أشهر من السنة كان يردّها إليها فى أثناء الستة أشهر الباقية منها. والأقرب إلى البدهة أن ذلك الماء كان ينصرف من بحيرة (قارون) بواسطة الترعة المعروفة اليوم باسم بحر بلا ماء (١).

(١) نحيل القارئ إلى المذكرة التى نشرها العلامة جومار عن بركة القارون فى المصنف العظيم الذى ألفه عن القطر المصرى. فإنه قد بحث فى المسائل المتعلقة ببحيرة مريس بحثاً مدققاً يعزّزه ما عرف عن هذا الباحث المتضلع من الكفاءة والاقتدار.

٥٦. البحر بلا ماء

إن البحر بلا ماء المتصل بالطرف الغربى من بحيرة (مريس) يتقدم نحو الشمال فى وسط الصحراء بمحاذاة مجرى النيل فيمر من بحيرات النطرون على مسيرة ساعة ونصف منها. وكانت تقضى بعد ذلك إلى بحيرة مريوط. ومجرى البحر بلا ماء الذى أطلق عليه الآن الاسم بالنظر إلى جفافه تدل الدلائل على أن جزءا منه حفر بيد الإنسان فإنه كان فى الحقيقة تابعا لبحيرة (مريس) أو بعبارة أخرى بحيرة تالية لبحيرة مقدمة. فإذا كانت قوة الإنسان تستحق الإعجاب والثناء لعمل أنجزته فإنما هو هذا العمل. ويبلغ إتساع الوادى المعروف بالبحر بلا ماء ثلاثة فراسخ من إحدى ضفتيه إلى الضفة الأخرى. وهو الآن لا يحتوى أثرا ما من الينابيع وإنما فيه الكثير من الأخشاب والحيوانات المتحجرة.

التاريخ الطبيعى
(المواليد الثلاثية)

(١)

المعادن

التكون المعدنى والجيولوجى للجبال - الأحجار الجصية - الأحجار الكلسية - الجرانيت أو الصوان - المواد المجلوبة بالتيارات - الليدين أو الحجر الأسود اليشى - الحجر الأبرشى - السليسى بالعقيق، الحصى - الأبرش الأخضر المصرى - مناجم الرخام - حجر الزمرد - الخشب المتحجر - التحجرات الحيوانية - الأحجار المختلفة - المعادن - الكبريت - زيت البترول - الجبس - الفحم الحجري - النطرون النتر - الشب.

١ - يمكن تقسيم المعادن فى مصر إلى قسمين عظيمين، يشمل أحدهما المعادن المتعلقة بالتكون الأصلى للأرض، والثانى المعادن التى أولدتها الحوادث والآثار الطبيعية التى ينسب إليها تكون الشطر الأكبر من أرض مصر.

٢- التكون الجيولوجى والمعدنى للجبال

يتألف أول هذين القسمين من المعادن التى تحتويها سلسلتا جبال العرب وليبية. وفى هذه الجبال ما هو جدير باستقصاء علماء المعادن من أنواع الأحجار الجصية والكلسية والصوانية.

٣- الجرانيت أو الصوان

توجد بضواحي أسوان تلك الأنواع المختلفة من الجرانيت الذى طبقت شهرته الآفاق فى العصور القديمة، حيث كان يعرف باسم (سيينيت) وفى تلك الجبال المعدنية أنواع مختلفة منه نذكر منها السيينيت الوردى، والسيينيت الرخامى الوردى والأصفر، والسيينيت الرمادى والأبيض والأسود، والسيينيت الرمادى الوردى، والسيينيت المعرق والأسود، والصخور الورقية الرخامية

(نبيس) وأصناف الجرانيت الأبيض والقاتي. وما أغلب الكتل الكبيرة الصوانية التي تركها المصريون لنا كالمسلات والتماثيل العظيمة إلا أنواعا من السيئيت الأحمر. وهناك تماثيل كثيرة وآثار رمزية أصغر من تلك حجما، وهي مصنوعة من السيئيت الأسود أو الرمادي. وتتنوع ألوان هذه المواد التي كان يستعملها المصريون في شئونهم الهندسية القديمة لما يسترعى النظر بحسن التوفيق بينها فيؤثر في نفس الناظر أجمل تأثير وأحسنه.

٤. الأحجار الجصية

تتألف منها الجبال التي بين أسوان وجنوب مدينة إسنا ببضع الفراسخ - أى على مسافة يبلغ طولها نحو العشرين فرسخا تقريبا. وترسو طبقات تلك الأحجار على سائر الطبقات متصلة من ناحية الجنوب بالجرانيت ومن ناحية الشمال بالجبال الحجرية. ويفصلها عن الجرانيت كتل بودنج غليظة. وهذا الحجر الذي يشبه في تركيبه وشكله - كما هو مذكور في مذكرات المجمع العلمي الفرنسي بمصر - بعض أنواع الأحجار الجصية الشائعة في البناء ببعض جهات فرنسا، وإنما يختلف عنها بأن حبويه أغلظ من حبوب هذه وأكثر ضلوعا واحتواء على جزيئات الميكا. وألوانه المميزة له إما رمادية أو ضاربة للصفرة. والطبقات الجصية في المحاجر الكبرى بجبل السلسلة عند الجهة الوسطى من سلسلة هذا الجبل الحجر الجصى فيها جيد الصنف، ويتألف من طبقات سميكة متراكبة بعضها على بعض. أما الجهة الشمالية من الجبل والجهات العليا منه فإن طبقات الجص فيها أقل سمكا من تلك وأضعف اتصالا بعضها ببعض. على أن تطابقها يمتاز بخصية = بخاصية = المؤازرة أو ما يقرب منها. والأحجار الجصية اختارها قدماء المصريين لإقامة مبانيهم العظيمة لسهولة استخراجها ولأن نقلها ميسور لا كلفة فيه لقرب المسافة بين مناجمها والنيل وهذا فضلا عن سرعة فعل أدوات النحت فيها. فهذه الأسباب هي التي جعلتهم يؤثرونها على ما عداها من الأحجار.

٥. الأحجار الكلسية

إن الجبال فيما يلي الأراضى الجصية شمالا وشمالا بشرق كلسية برمتها. وأهرام الجيزة وسقارة شيدت بالأنواع المختلفة من الأحجار المستخرجة منها.

٦- المواد المجلوبة بالتيارات إلى مصر

تتضمن الأودية والخلوق العرضية التي تقطع خطوط الجبال الحافة بمصر عند اتصالها بالوادي الأصلي أراضي تكونت فيها بتأثير التيارات. والباحث في مادة الأراضي يجد أنها عبارة تارة عن مواد هشة لاتلاحم بينها وطورا عن طبقات من البودنج أو البساميت السريع التفتت. وبعض تلك الأراضي قاقى المادة والآخر مؤلف من مواد أجنبية ويوجد بينها حجر الليدين أى الحجر اليشى الذى منه الفاتنة المعروفة منذ قديم الزمان باسم البازانيت وأحجار البازلت الأخضر والأسود ذات الأهمية العظمى فى بناء الآثار العجيبة.

ولاتزال توجد فى جهات مختلفة من القطر المصرى. وعلى الخصوص فى الأراضي الرملية بودنجات يشبىه الشكل ونوع اليشب المعروف بالزلط المصرى. أما الأبرش الرملى الشبىه بالعقيق الذى يوجد بأسوان فهو من الأحجار الخديرة بالالتفات والعناية. فتمثال (ممنون) الذى بلغ من الشهرة قديما أبعد مبلغ انما نحتت أحجاره من هذا الأبرش الذى ترجع إلى تركيبه الخصية العجيبة التى امتاز بها وهى ترجيع الأنغام عند شروق الشمس^(١).

٧- الأبرش المصرى الأخضر

هذا الأبرش أجمل الأحجار الموجودة على وجه الأرض، ويوجد بالوادي الذى بين الصعيد والبحر الأحمر، ويسمى باسم المدينة التى يفضى هذا الوادي إليها وهى القصير، وهو نوع من البودنج متكون من قطع مستديرة من الجرانيت والرخام وصخر أخضر اللون يشبه كثيرا التروسيلكس ويمتاز بصلابته وبهاء ألوانه المختلفة. ولم يكن الأبرش وافر المقادير فى القطر المصرى. بل يمكن القول بأنه أصبح الآن غير موجود بالمرة، وقد صنعت به فى إيطاليا جملة قطع فنية وهو معروف فيها عند الصناع الإيطاليين باسم: Beccia Verde d'Egitto وإنما نحت تابوت الإسكندرية الشهير فى قطعة من هذا الحجر الصخرى.

(١) إن الحادث الغريب الذى جعل لتمثال ممنون تلك الشهرة العظيمة فى الأعمار السابقة أيدته شهادات عديدة من اناس جديرين بالثقة والاحترام. فهى إذن مما لا يعرود الشك ولا تتناوله الريبة وقد حاول بعضهم تأويله على أوجه شتى أقربها إلى الاحتمال التأويل الذى قدمه المسير دى روزير فى مذكرته عن التكون الطبيعى لمصر. وقد لاحظ فيه أن الجرانيت والأبرش غالبا ما يحدثان صوتا عند شروق الشمس. أما تمثال طيبة فقد قال المسير روزير إن أشعة الشمس كانت إذا أصابت هذا التمثال العظيم جففت الرطوبة الحادثة عن الندى المتساقط أثناء الليل على سطحه وبددت أيضا معها الرطوبات المتجمعة فى ثنايا ذلك السطح غير الصقيل فينجم عن استمرار هذا العمل أن حبات أو صحائف الأبرش السالف الذكر تتأثر بفعل الأشعة الشمسية فتتفجر فى الوقت.

٨. محاجر الرخام

كان للرخام المصرى منذ قديم الزمان شهرة ذائعة فى الآفاق، وقد استخرجه الاقدمون من محجر واقع بين البحر الأحمر والنيل فى منطقة المنيا على مسافة أربعين فرسخا من النهر و١٥ فرسخا من البحر، وكانوا قد شادوا بالقرب منه مدينة سموها مدينة (البسترويوليس) أى مدينة الرخام وذاك المحجر هو الذى استخرج منه الرخام الذى صنعت به أجمل الآنية القديمة التى لاتزال نعجب بها حتى اليوم.

وهناك محجر آخر للرخام على مسيرة ثمانى ساعات من بنى سويف فى مصر الوسطى، وقد استكشف منذ سنوات وهو عظيم الاتساع، والرخام المستخرج منه من النوع الجيد وله على غيره ميزة جليلة وهو امكان نقل الكتل التى تقطع منه بأقل كلفة بالنظر إلى قربه، وقد بدأ الوالى باستخراج الرخام منه لينتفع به فى المسجد الذى يشغل بتشييده بقلعة القاهرة.

وهذا الأثر الدينى الجليل قائم على أعمدة عديدة من الرخام كل عمود منها قطعة واحدة كما أن جدران المسجد مكسوة كلها بألواح من هذا الرخام النفيس.

٩. أحجار الزمرد

كان الأقدمون يعنون عناية تامة بالبحث عن الزمرد المصرى، ويطرون مزاياه ويفضلونه على الأحجار الكريمة، وإن لم يشغل قط المرتبة الأولى بينها. وهم إذا مالوا إليه فإنما هو لصفاء لونه. قال بليناس: «إن البصر إذا اعتراه التعب وجد الراحة بالنظر إلى الزمرد، ولا شئ غير هذا الحجر يريح العين بلطف لونه وصفاء مادته» فلا عجب إذا انصرف الأقدمون إلى التختم بالزمرد ليتمكنوا من النظر إليه كل حين إراحة لبصرهم وشرحا لصدورهم.

ومناجم الزمرد بضواحي مدينة (بيرينيس) وهى ثغر بحرى على شواطئ البحر الأحمر أسسه الملك (بطليموس فيلادلف) على نفس خط العرض الذى عليه مدينة أسوان، وتلك المناجم فى الجبل المعروف الآن باسم (زبارة) وقد عثر عليها حديثا الموسيو (كايو) وكان الزمرد معدن آخر على الضفة الغربية للنيل بالقرب من طهطا إحدى مدائن الصعيد.

١٠. الخشب المتحجر

فى الصحارى المجاورة لوادى النيل كثير من الأخشاب المتحجرة متفرقة هنا وهناك ، وهى تلفت النظر بما تحفظه من أشكالها وألوانها الأصلية. وعلى مسافة فرسخين ونصف خلف جبل المقطم وادى رملى يحتوى - فى متسع من الأرض مساحته فرسخ مربع تقريبا - نباتات متحجرة أصلها غابة تحجرت فى هذا المكان ويؤخذ من شكلها أن الأشجار الغالبة فيها كانت النخل والجميز والغاب الهندى ومنها ما يبلغ الثمانين قدما طولا، وأنها احترقت فى الأزمان القديمة فتحولت إلى الحالة التى تشاهد الآن عليها.

ويحتوى وادى بحر بلا ماء أخشابا متحجرة أيضا، وكذا وادى التيه الذى يخترق الصحراء العربية من ضاحية القاهرة إلى سواحل البحر الأحمر على مسافة ٢٥ فرسخا فوق ثغر السويس.

١١. الحيوانات المتحجرة

تحتوى الأحجار الكلسية والجصية كافة تقريبا كميات عظيمة من الأصداف والأسماك الحفرية، وكثيرا ما تكون هذه الحفريات مندمجة بالبودنج. غير أن قلة تماسك الأسمنت الذى يضم عناصر هذه الأجزاء يعرضها أحيانا للانفصال والتبدد، وهذا هو علة وجود تلك الأصداف الحفرية مبعثرة عند سفوح الجبال وفى وادى القبور الواقع تجاه مدينة طيبة (الأقصر). وفى الصحراء المجاورة للأهرام أصداف كثيرة من هذا النوع يسميها الأهلون «قرون آمون».

وإذا حفرت الطبقات العميقة من أراضى القطر المصرى، ولاسيما فى الوجه البحرى ظهرت كتل كبيرة من الأصداف والحيوانات البحرية الحفرية. وظهورها البرهان الساطع على أن البحر كان إلى عهد غير بعيد يغمر تلك الجهات الواسعة من أراضى القطر المصرى. وفى وادى التيه أصداف تشبه قطع النقد وبعضها لايزيد حجمه على حجم العدسة.

١٢. الأحجار المختلفة

ومما يحتويه وادى التيه أيضا الحجر الصالح لطحن الحبوب (حجر الطاحون) وحجر اليهود الذى يشبه الزيتون شكلا وحجما. وفى جبل البرام الواقع شرقى أسوان باتجاه إلى الشمال منها نوع حجر تصنع منه الأوعية

التي يهيا فيها الطعام وتعرف هناك بالبرام. وهذا هو السبب في إطلاق اسمها على ذلك الجبل.

١٣. المعادن

أرض مصر لا معادن فيها، فإذا وجد فيها شيء منها فإنما هو آثار معادن لا تصلح ولا تفيد، وليس للحديد أثر بالمرة فيها، وغاية ما يعلم عن أمره أن النيل تحمل مياهه بعض ذرات منه، وأن بالقرب من أسوان نوع من الأحجار الجصية يدخل الحديد في تركيبها، وقد عثر على النحاس في جبل البرام استكشفه الموسيو (كايو) الذي استكشف أيضاً معدنا للرصاص بالقرب من منجم الزمرد في جبل (زبارة).

١٤. الكبريت وزيت البترول والجبس

مفروض من باب الحدس والتخمين أن براكين منطفئة ومناجم للكبريت موجودة في الجزء الواقع من سواحل البحر الأحمر تجاه أسوان، فقد عثر الموسيو كايو فعلاً على معدن للكبريت قريب من الأماكن التي كان الزمرد يستخرج منها قديماً في الجبل المشهور باسم جبل الكبريت، وعلى سواحل البحر الأحمر عند الدرجة الثامنة والعشرين من العرض الشمالي جبل الزيت وبأسفله عين لزيت البترول، وفيما عدا هذا وذاك توجد في جهات مختلفة من القطر المصري مناجم للجبس عديدة وغنية بهذا الحجر، ولكن الجبس الذي يؤخذ منها من الصنف العادي الشديد الكثافة ولونه ضارب إلى الرمادي.

١٥. الفحم الحجري

لو أن مناجم الفحم الحجري موجودة في مصر لعادت عليها بالفوائد الجليلة والمنافع الجمة بالنظر إلى قلة الأخشاب فيها، وليس ثم ما يدل على أن الأقدمين وقفوا على مناجم للفحم في مصر واستخرجوه منها، وقد بذل علماء الحملة المصرية جهوداً كثيرة لاستكشافها، ولكنها ذهبت ضياعاً كالجهود التي بذلت في سبيل ما أمر به محمد علي من البحث عن مناجم الفحم.

والذي يصح استنتاجه من الشكل الجيولوجي للأراضي في القطر المصري أن جميع الأبحاث التي ستعمل في المستقبل لاستكشاف الفحم الحجري لن تؤدي إلى نتيجة يحسن الوقوف عليها كالتى قام بها الباحثون المدققون حتى

الآن للوصول إلى هذا الغرض.

١٦. النطرون

سبق لنا الكلام على النطرون المستخرج من البحيرات الشهيرة «بحيرات النطرون». وكان الراسخ في الأذهان إلى وقت وصول الحملة الفرنسية إلى مصر أن مناجم النطرون خاصة بهذه البحيرات لا تتعداها إلى غيرها. وهو وهم بين الفساد فلقد استكشف النطرون في جهات كثيرة من القطر المصري منها الوادى الواقع في الوجه القبلى على مسافة خمسة فراسخ من إسنا فإن النطرون يستخرج منه كما يستخرج من تلك البحيرات ومنها سواحل بحيرة (مريس) وبعض ضاحية الإسكندرية بالقرب من بحيرة مريوط وبرزخ السويس، وهذا فضلا عما تجلبه قوافل طرابلس الغرب ودارفور معها من تلك المادة.

١٧. النتر

تعتبر المواد الملحية التى تحتويها أراضي القطر المصري بمقادير وافرة من الخواص البارزة التى تميز هذا القطر على غيره من الأقطار. ففي الحقيقة توجد مناجم عديدة للملح الحفرى. ومنها ما يوجد فى الأراضي الحجرية التى يتكون منها قاع بركة قارون. فإن سطح هذه الأراضي يحتوى مقداراً من العناصر الملحية عظيماً إلى حد لا يندر معه مشاهدة الجدران بعد الأمطار وقد اكتست بالمواد النترية. إلا أن هذا لا يشاهد غالباً إلا فى الاطلال المتراكمة حول المدن حيث يوجد النتر بمقادير وافرة.

واستخراج النتر صناعة واسعة النطاق، ويكون على البارد بتأثير الشمس وحدها فى حين أن استخراجها فى أوروبا يستدعى استخدام النار.

وطريقة استخراجها على ذلك الوجه يكون بإلقاء ما يجمع من أنقاض المباني القديمة فى أحواض عريضة قليلة العمق فيتحلل النتر بواسطة الغسل بالماء. فإذا تمت هذه العملية سيق الماء إلى أحواض أخرى أقل عمقا من السابقة فيتباخر بتأثير حرارة الشمس فى درجة ٤٠ إلى ٥٠ ويبقى النتر متبلورا. وقد أنشئت بالقاهرة أحواض متسعة للنتر، وأنشأ لمحمد على فيما بعد السنيور (رافى) الكيمى = الكيمائى = الإيطالى هذه الطريقة فى سنة ١٨٢١ أحواضا مثلها فى الجيزة وسقارة وندرة وكوم أمبو حيث تكثر أطلال المباني وأنقاضها.

١٨. الشب

منذ قبض محمد على على زمام الديار المصرية استكشفت مناجم للشب بلغ هذا الحجر فيها كثرة تجاوزت حاجة الاستنفاد المحلى تجاوزا استدعى تصدير ما يفيض منه إلى الخارج.

١٩ - وليس فى مصر شىء من المعادن الأصلية، ذلك لأنها بلد زراعى قبل كل شىء، فإنه يبدو واضحا للناظر أن الطبيعة أرادت حرمانها مزاوله الصناعة لكى تنقطع إلى الزراعة فلم تجمع فيها الأسباب لمزاوله الصناعة كالفحم الحجرى والحديد والنحاس، وهى مقومات الآلات الصناعية ومدارها التى تدور عليه.

(٢) النباتات

مقدمة - عموميات - نباتات الصحراء - النباتات الصالحة للزراعة فى القطر المصرى - حدائق شبرى والروضة - حدائق الشرق - الغابات - تيليد نباتات أوروبا الجنوبية - النباتات الأجنبية التى ادخلت حديثا فى حدائق أصحاب الأشجار الأهلية - الأشجار الأجنبية - الأشجار الأهلية الفاكة - الأشجار الفاكية والنباتات التى ادخلت حديثا - النباتات الحبوبية والنجيلية - الحبوب غير النجيلية - الخضر والنباتات البقلية - النباتات الليفيه النسيجية - نباتات الصباغة - النباتات ذات البذور الزيتية - النباتات الكلاية - النباتات الأخرى النافعة - أزهار الزينة ونباتاتها - المراعى فى الصحراء والواحات - النباتات الطبية.

٢٠. مقدمة

لم يوف مؤلفو الأزمان القديمة والعصور الوسطى (١) الكلام على نباتات مصر، وأول من حصر نباتاتها وضبطها هو العلامة النباتى الشهير (دوليل) الذى كان مرافقا للحملة الفرنسية، ولم يكن عمله الخطير جامعا لشتات النباتات المصرية ولا مستقصيا وصفها، ولكن لما تمكن محمد على من تقرير قواعد الأمن والنظام فى القطر المصرى والصحارى المجاورة له، وفيما بين

(١) فى الأزمان القديمة هيرودتس وسترابون وديودورس الصقل وبليناس وفى القرون الوسطى بروسبيرالبان والعرب، وبعد ذلك لىبى وفورسكال وغيرهما.

مصبات النيل والنوبة العليا استطاع علماء المواليد الثلاثة الجوس خلال هذه الأرجاء بلا خوف على حياتهم لإتمام العمل الذى بدأ به العلامة (دوليل). وهم إذا عجزوا عن حصر النباتات كلها واستقصائها بأبحاثهم فما ذلك إلا لأنهم كانوا يخافون على أنفسهم مغبة الإيغال فى الصحراء فجاء عملهم لهذا السبب ناقصا مبتورا.

ولما أنشئت مدرسة الطب فى أبى زعبل عهد تعليم علم النبات إلى أحد تلاميذ الأستاذ العلامة السنيور (فيفانى) الجنوى. ألا وهو السنيور (فيجارى) الذى كان فوق إحاطته بأطراف العلوم يميل كل الميل إلى علم النباتات أحد فروع علم المواليد الثلاثة، ولهذا نراه منذ اثنى عشر عاما دأبا مواصلة الجد فى البحث والتحقيق والاستقصاء فى أرجاء مصر المختلفة. وقد وصفت وصفا مستقاضا فى كتاب العلامة فيفانى. كما استكشف ما لا عداد له من النباتات الذائعة فى الأقاليم المختلفة. وقد قام العلامة فيجارى بأبحاث مهمة وتجارب خطيرة فى الزراعة ، وإليه معظم الفضل فيما التقطناه من المعلومات التى زينا بها حواشى هذا الفصل الموجز. على أننا لم نكتف بهذا الإيجاز. بل توسعنا فى جملة من موضوعاته فى الفصل المعقود خصيصا للزراعة المصرية.

٢١- عموميات

النباتات الخاصة بأرض مصر محصورة العدد، فنباتات جهات الأهرام مثلا تتفق مع نباتات الأطلانطيق = الأطلنطى = التى ذكرها فيفيانى. أما نباتات الجهات المقابلة لتلك أى جهات شرق وادى النيل فتتفق مع نباتات بلاد العرب التى ذكرها العلامة (فورسكال) وأصلها من الصحراء. ثم اختلطت بنباتات الجهات المجاورة لضفة النيل.

وإذا اتجهنا نحو الشمال الغربى فى جزء الصحراء الممتد على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط فإننا لانبث أن نجد فيها النباتات الخاصة بحوض هذا البحر.

وإذا واصلنا السير فى الصحراء إلى الحدود المتاخمة لبلاد الشام فإننا نجد فيها النباتات الخاصة بمنطقة فلسطين، وقد اجتازت تلك الحدود لتدخل مصر وتستقر فيها.

ومن الأمثلة التي تساق في هذا الموضوع أن النباتات الشائعة في ضواحي غزة والعريش ولبليس هي عين النباتات التي وصفها العلامة (أوليفيه) ضمن النباتات السورية الأصل. ومفهوم أننا فيما سبق من القول نقصد النباتات الحشيشية السنوية ونصف السنوية لغيرها.

وإذا اتجهنا في وادي النيل جنوبا حتى نبلغ إلى الدرجة السادسة والعشرين من العرض الشمالي فإننا نرى النباتات وقد اتخذت شكلا خاصا غير شكلها في الجهات الأخرى. لأن أصلها من النباتات النوبية الطارئة على القطر المصري.

٢٢. نباتات الصحراء

أنواع النباتات الخاصة بمصر توجد منعزلة بالصحاري القاحلة وقليل منها يوجد في الأودية التي تتخلل سلسلة جبال المقطم وأنواعها الخاصة المجاورة لضفاف النيل والترع والبحيرات والمستنقعات بالوجه القبلي قليلة محصورة العدد أيضاً.

وليس لنباتات الحقول من الوجهة العلمية شأن خاص يستدعي الاهتمام بها لأننا إذا ضاهيناها بمقابلها من نباتات أوروبا ألفينا الأنواع التي تتألف منها قليلة بخلاف نباتات الصحراء والأودية المتغلغلة في سلاسل جبال العرب وليبية. فإنها حرة = جذيرة = بعناية علماء النبات وتوفرهم على البحث فيها. على أن فيها من الخصائص ما يجعلها بنباتات جبال الألب أشبه منها بالنباتات المصرية البحتة.

والأنواع النابتة في الرمال تكاد تكون كلها سنوية أو نصف سنوية. أما التي تبقى قائمة على سوقها أكثر من هاتين المدتين فنادرة جدا، ويذكرون من هذا النوع صنفين من السنط الشوكي.

ونباتات الصحراء ترى في الأصقاع المنعزلة المنخفضة أرضها انخفاضاً محسوساً عن الأرضين = الأراضي = المحيطة بها الشبيهة بأودية أهليجية الشكل أبعادها طولا وقصرا أو تتجه بوجه عام من الشرق إلى الغرب مع ارتفاع الأرض الحافة بها من الشمال والجنوب.

وتبدو الصحراء لعين العالم النباتي كبسيط أرض انتشرت في أرجائه جزر

صغيرة غير متناسقة تحتوى مختلف النباتات وتلك الجزر الخصيبة المجالة بالأعشاب الخضراء مراتع الغزلان التي ترتاد المراعى لغذائها.

والنباتات العطرية منتشرة فى الصحراء، ومنها ما هو من صغر الحجم وكدره اللون بحيث يتعذر على حديد = قوى = البصر تمييزه بعضه عن بعض. على أن فى منظر بعض نباتات الصحراء ما يسبب الاغترار والخطأ فمن ذلك أن السائر فيها كثيرا ما يخلل له من بعيد أنه يرى شجرة باسقة فإذا ما يراه فتاة قد بدت لناظره فى شكل الشجرة، وكثيرا ما يتفق له بسبب السراب أن يرى قمم الأشجار تعلو فوق سطح الماء والحقيقة أن شيئا من ذلك غير كائن ولا بصحيح وإنما هو السراب المغرر الخادع.

والماء باختراقه وجه الأرض فى الشتاء حيث ينذر هطول الأمطار يرسم فيها خطوطا كما يفعل الحراث، وتكون فيه ذرات قليلة من الطين وأوكسيد الحديد وبذور مختلفة. فإذا اجتمعت هذه المواد المختلفة فى الجزر الأرضية الصغيرة التى تكون فى العادة أوطأ مما حولها من الأرض وجاءت الرياح حاملة إليها من الجهات القصية بذورا أخرى فإن هذه البذور وتلك لا تلبث متى حان ميعاد الإنبات فى فبراير غالبا أن تنبت وتنبثق أوراقها وتزهو فى مارس أو أبريل. وفى شهر مايو يقف نمو النبات ، وفى يونيو وبقيّة الصيف لا تقع العين إلا على سهول قاحلة جرداء.

ولون نباتات الصحراء أخضر ضارب إلى البياض عادة وأنسجته جافة لايجرى فيها من العصارة النباتية إلا النزر اليسير وهى جميعا على وجه التقريب من النبات ذات الفلقتين الوبرية الخشنة الملمس وترتفع على سطح الأرض قليلا ولها جذور عميقة خيطية الشكل تمتد بعيدا فى باطن الأرض.

وأكثر الشجيرات شيوعا فى الصحراء على الحالة الطبيعية شجيرة السبال المعروفة عند العرب بالسيالة، وسماها العلامة دوليل (أكاسياسبال)، وهى قليلة الارتفاع تكاد تكون عديمة الورق ذات شوك طويل يشبه فى لونه بياض الفضية^(١) أما فروعها فمغطاة ببشرة - أى غلاف خشن يشبه ملمسه ملمس قروش السمك، ولونها أحمر غامق، ونادراً ما تزهر وتكون تلك الشجيرة

(١) جاء فى القاموس المحيط للفيروزى فى مادة «سبال» السيالة كسحابة نبات له شوك أبيض طويل إذا نزع خرج منه اللبن.

محاطة عادة برمل رفيع جدا يجتمع عند أصلها ثم يرتفع شيئاً فشيئاً إلى نصف ساقها. ويتفق أحياناً أن يغطيها الرمل فتكون الأكام الصغيرة التي تنشأ منه أصلاً للكثبان الرملية الكبيرة.

ونادراً ما يشاهد النخل في الحالة البرية. عل أنه يصادف أحياناً كذلك في الصحراء وفي أودية المقطم. وعندئذ يكون قصيراً تحيط به أصول السعف المقطوع أو الذابل منتشية أو متدلّية وقد حُف بها الشوك، ويرى في قممها السعف الأخضر منبثقاً باهت اللون خشن الملمس. وهذا الصنف من النخل لا يأتي بزهر أبداً وإذا أزهى بقلّة من فلتات الطبيعة فإن ثمره يكون رديئاً، وقد اعتاد الغربان وحشرة شبيهة بالجعل إتخاذ سعف هذا النخل أو كارا لها.

٢٣. الأرض الصالحة للزراعة في القطر المصري

اشتهرت مصر في كل زمان بفرط خصبها وجودة حاصلاتها ووفرة غلاتها. وهذه المزايا ترجع بلا ريب إلى ثلاثة عوامل: الأرض والطقس ومثابرة الفلاح على العمل.

ومن العبث التحدث بنعم أرض مصر وخيراتها العظيمة، والقول بأن الفضل فيها يرجع إلى النيل وفيضان مائه. فلقد سبق لى من الكلام في هذا الموضوع ما يجعلنى فى غنى عن تكراره، وغاية ما يصح لى الإفاضة فى موضوعه الطمى. فإن الطمى لا يكفى وحده لتكوين التربة الصالحة للإنبات إلا إذا مزج بالرمل بواسطة الحرث.

أما الأراضى الكثيرة الرمل فلا تناسب من النبات إلا الخفيف الجذور رفيعها الذى يستطيع النفوذ بلا جهد فى هذا النوع من الأرض. أما الأرض الطينية الطمىية التى تتألف منها الأرض القابلة للزراعة فى القطر المصرى فمختلطة فى كل مكان بالمواد الملحية التى تعاون على نمو النباتات الكبيرة.

وطقس مصر يساعد بحرارته فعل مياه النيل وتأثيرها المخصب. فليس بغريب إذن أن نرى الحقول الفسيحة وقد أزيّنت بالأزهار. ويتم العمل فى الحقول الزراعية بقصارى ما يتصور من السهولة فى أقصر وقت وبأقل ما يمكن من الأيدى العاملة.

وإذا كانت عوامل الطبيعة ومؤثراتها قد جاءت منقادة إلى ملاك الأَطِيان فى

مصر لتكون تحت تصرفهم فى خدمة أراضيهـم فهم وحدهـم المسئولون عن مقدار ما تنتجه هذه الأراضى من الثمار والمنافع قلة وكثرة. ومما لا شك فيه أنهم إذا استحكم فيهم الجهل أو استناموا إلى الدعة والكسل فلم يهبوا من رقادهم ليعملوا على تنمية موارد رزقهم ولم يستخدموا تلك الهبات الطبيعية للبلوغ إلى ذلك الغرض فإنهم يفوتون على نفوسهم المال الكثير والخير الوفير.

أما إذا كانوا على إرث من الذكاء والاجتهاد فإنهم ينتفعون به فى مرافقهم ويرفعون شأنهم بإنماء ثروتهم، وهو ما نشاهده منهم اليوم والحمد لله.

وفى الواقع فإن مصر إذا شوهدت الآن وقد بسقت فيها الأشجار فى كل مكان، وبدا من منظرها بضواحي القاهرة والوجه البحرى ما يشبه الغابات فإنما يرجع هذا الفضل إلى ذلك الرجل العبقرى الواضع يده على زمام أمورها والآخذ بها إلى أسمى المنازل ومعالي الرتب. فلقد غرس هذا الوالى حفظه الله فى سنوات قليلة بالوجه البحرى وحده ستة عشر مليوناً من الأشجار وأنفق إبراهيم باشا الأموال الكثيرة على إنشاء المزارع والمغارس فى أرجاء وادى النيل. فبعنايته المتواصلة ورعايته العالية غرست خمسة ملايين وألف وخمسمائة وأربعة وثلاثون شجرة من خمسة وعشرين نوعاً من أنواع أشجار الغابات وخمسمائة واثنان وثمانون ألفاً ومائتان وخمس عشرة شجرة من واحد وأربعين نوعاً من أنواع الفاكهة تنقسم إلى سبعمائة وأربعة وثلاثين صنفاً مختلفاً. وكان عدد أنواع الأشجار الخاصة بالقطر المصرى قبل بضع سنوات لا يتجاوز اثنى عشر نوعاً. كما كان لا يوجد بها من الشجيرات التى لا يتجاوز ارتفاعها القدمين سوى ثمانية عشر نوعاً، وكانت هذه الأشجار والشجيرات بأنواعها المذكورة متفرقة على ضفاف النيل أو مبعثرة هنا وهناك حول السواقي.

٢٤. حدائق شبرى = شبرا = والروضة

مما يساعد على تقدم زراعة النباتات والأزهار قيام الوالى وابنه الكريم إبراهيم بإنشاء الحدائق الفخمة فى بعض جهات القطر. وأهم هذه الحدائق انفساح مدى وحسن تنسيق حديقتى شبرى والروضة. والأولى منهما بقرب النيل على مسافة فرسخ واحد تقريباً من القاهرة شمالاً، ويوصل إليها منها طريق واسع مستقيم مظلّل بالأشجار الحافة بعطفيه. وتحتوى هذه الحديقة داراً

خلوية أنشأها الوالى على نمط المباني البيزنطية (الإسلامبولية) وجمع بداخلها من الرياش الجميل والآثاث الثمين مايلفت النظر بحسنه تنسيقا فى الوضع وسلامة ذوق فى الاختيار.

وبطرف الحديقة المقابل لهذا القصر الجميل الجليل أنشأ محمد كشكا ظريفا وهو عبارة عن بناية مربعة ذرع = طول = محيطها ألف قدم، وأقام فيها الأعمدة من الرخام والمرمر الشرقى وجعل بداخلها نافورة جميلة من رخام إيطاليا (كرارى) ينبثق منها الماء المستمد من النيل بواسطة إحدى السواقي فيظل المقيم بجوارها يستشعر بطراوة طويلة يسكن إليها. ويضاء القصر والكشك أثناء الليل بجهاز من الغاز الأيدروجينى يقوم على إدارته وتعهده آلى = عامل = ماهر من الإنجليز.

والطباق متوافر بين جبال الحديقة وجلال المباني الضخمة التى تحتويها، ففي الحديقة ما لا يعد ولا يحصى من صنوف أشجار الفاكهة الغضة والأشجار الجلوبة من الخارج، وهى ثمينة القيمة بندرتها وعدم وجود ما يضارعها والنباتات العطرية التى يتألف من مجموعها على اختلاف أشكالها وألوانها مايجذب النظر أمثالها بالحدائق الأوربية ويسهل المواصلات بين أطرافها المتناية.

أما جزيرة الروضة التى ضربت بخصبها الأمثال من قديم الزمان فيرجع فضل تنظيمها وتنسيقها إلى حضرة إبراهيم باشا ، فإن هذا الأمير الجليل ما كاد يضع يده على أرضها بالشراء من أربابها حتى جعلها قسمين كل قسم منهما حديقة قائمة بذاتها ، فالحديقة الأولى نسقت بحسب الأسلوب الإنجليزى والأخرى بمقتضى الطريقة الفرنسية ووكل أمر الحديقتين إلى إثنين من مهرة البستانين وهما تجمعان الآن أغلب النباتات الأوربية والأمريكية والهندية.

٢٥. حدائق الشرق

إن شهرة الحدائق الشرقية غنية عن البيان، وقد أذاعت مفاخرها بيننا قصص ألف ليلة وليلة فإذا تخيلناها على ما وصفت به فى هذه القصص خيل لنا أننا نستنشق رياها = ريحها = العطر، والسبب فى أن العرب خصوا الحدائق بعنايتهم الفائقة راجع إلى كونهم سكان قفار قاحلة تتسلط عليها حرارة الشمس المدارية فلا جرم إذا رأوا فى انبثاق النبات وتكاثر الخضرة

معجزة من المعجزات فحصولها = فعدوها = فى انبثاق النبت وتكاثر الخضرة
معجزة من المعجزات فخصوها بالإطنا ب فيها بشعرهم والإشادة بما تمده من
الظلال الوارفة، ويجرى فيها من الماء السلسبيل المنعش بطراوته، بل لاجب إذا
رأوا فيها النعمة السابغة حفهم الله بها من فضله والنعيم الذى لا يدانيه نعيم
فى الوجود، بل لا غرابة إذا وضعوا الجنة فى وسط ما طمحت إليه آمالهم
واشرأبت إليه أعناقهم من غصارة العيش والسعادة فى ذلك النعيم المقيم.

وليس فى حدائق الشرق ما يجعلها شبيهة بالحدائق فى البلاد الأوربية. إذ
إنها خالية من أثر التجانس والتناظر المبنيين على دقائق العلم والفنون
الهندسية. ولا شىء يذكر الجالس خلالها بما أزينت به حدائقنا من الأزهار التى
نسقت أوضاعها على أحسن مثال، ولا بما امتازت به الحدائق الإنجليزية من
لطف التركيب فى الجمع بين أقسامها المنسقة وأنواع نباتاتها المرتبة. إذ غاية
ما يشاهد فى تلك الحدائق إنما هو أشجار الفاكهة مزوجة لأشجار الزينة
ومجاورة لها بلا نظام معروف ولا نسق مألوف فترى أغصان هذه ملتفة بأغصان
تلك لم يشذبها مشذب التقليم، ولم تباشرها يد التتميق والتنظيم. وكثيرا ما
يحدث لهذا السبب أن تتداخل الأغصان فى الأغصان. وتتشابك الأشجار
بالأشجار فتتدلى أغصانها الملتفة إلى الأرض لثقلها فلا يستطيع أحد أن يمر
من تحتها إلا إذا أحنى جسمه أو حبا على الأرض حبوا. بل يخيّل له أن هذه
الأوكار النباتية الطريئة التى يكاد يكون السلوك فيها متعذرا إنما جعلت للعزلة
وتبادل الأسرار الغرامية.

وفى حدائق مصر ترى أشجار الليمون والبرتقال والتين والجميز والنخل
وغيرها متزاحمة متلاحمة، وأزهارها تفرش الأرض ببساط تتضوع منه الروائح
العطرية والمياه المتشعبة خلالها منبثقة فى النافورات ومتدفقة الأحواض ثم
منسابة بأطراف الحديقة فى جداول تتلوى تلوى الأفعوان فتروى أصول
الأشجار، والكشوك = الأكشاك = الجميلة بين هذه الأشجار الباسقة تمتد فوق
قباياها أغصان النباتات الغضة مرصعة بالأزهار الزاهية الألوان.

ويميل الأتراك جميعا - ماداموا على شىء من الثروة - إلى إنشاء الحدائق
على هذا المثال. وتكون حدائقهم أحيانا بداخل المدن، وفى وسطها الدور لسكنى
نساءهم، ولكنها تنشأ غالبا فى الضواحي والأرياف. وأجمل الحدائق الريفية
فى القطر المصرى ما كان منها بالدلتا، ولاسيما بالفيوم.

٢٦- الغابات

زعموا أن مصر كانت تحتوى قديما غابات كثيرة. ولو قيل لنا أن هذه الغابات كانت فى الأرض القابلة للزراعة من الخصوبة بحيث لا يفكر أصحابها فى أن يجعلوها كلها أو بعضها - فى حال ما - غابات لا يستفيدون من وراء تعهدھا إلا الحطب الجاف. ولكن بعض المؤلفين يذهبون إلى أن الجبال الحافة بوادى النيل يمنة ويسرة كانت فيما سلف مجللة = مغطاة = بالأشجار. وهذا الزعم كسلفه فى الخطأ والفساد لأن مجرد نظرة إلى تلك الجبال تكفى للإقناع بأنها لم تكتس فى يوم ما بما لا ينبت عادة إلا فى الأراضى الزراعية، وأنها جبال جرداء لا يستطيع النظر أن يلتقى بقشة واحدة على سطحها القاحل.

فلو فرض وجود تربة فيها كثرة الأرض الخصيبة فإنه ينبغى أن تظل آثارها باقية حتى الآن، إذ لا يمكن التسليم بإمكان تجريد الجبال منها. يضاف إلى ما سبق أن هذه الجبال لا تنزل عليها الأمطار ليقال إن مياهها جرفتھا وذهبت بها. على أنه بافتراض أنها كانت مغرسا لأشجار الغابات فإن الأمطار التى تهطل عليها لا تكفى لريها وإنباتها فضلا عن أنه كان من الواجب أن يبقى منها بعد اندثارها آثار ماثلة حتى الآن، والمعلوم أن الآثار الغابية التى بقيت على مر الأجيال إنما هى آثار شجر الجميز وأشجار أخرى من التى لا طاقة لها على النمو والبقاء إلا فى الأراضى العميقة التى يوافيها ماء الرى كل حين.

ليس فى القطر المصرى من الغابات الطبيعية سوى ما يتألف من أشجار النخل، والغابات من هذا القبيل كثيرة العدد فى القسم الشرقى من الوجه البحرى - أى فى مديرية الشرقية ثم فى الطريق الموصل من العريش إلى الصالحية من جهة وإلى بلبيس من جهة أخرى، وفى ضواحي القاهرة غابات نخل كثيرة بعضها بالجيزة فى مواقع مدينة (منفيس) القديمة بالقرب من بلدة (أم خنان) وهناك غابات نخل أخرى فى (بركة الحج) بالقرب من (الخانقاه) حيث هزم الصدر الأعظم بانتصار الجنرال كليبر عليه الانتصار المبين فى الواقعة المعروفة بواقعة عين شمس.

٢٧- تبيد نباتات أوروبا الجنوبية

إن طقس مصر وطبيعة أرضها يتفقان تمام الاتفاق مع تبيد النباتات الجنوبية فى نصفى الكرة الأرضية وتجنيسها بما تقتضيه الطبيعة فى مصر

فمن المستطاع والحالة هذه - باتخاذ مصر نقطة وسطى بين هذين الطرفين - الوصول إلى تبيد النباتات الهندية في البلاد الأوربية.

ومن طبيعة النباتات في مصر سرعة النمو، وهو ما يشاهد بنوع خاص في نباتات أوربا الجنوبية، فلا غرابة إذا عاشت هذه النباتات في الديار المصرية أقل مما تعيش في بلادها الأصلية، وهي تأتي بثمار وفيرة ولكن صغيرة الحجم غير لذيدة الطعم. نعم قد تمكن العارفون من تحسين نوعها بعملية التطعيم، ولكن ينتهي الأمر بها دوما إلى التغير والفساد بعد سنوات قليلة.

ومثل هذا يقال عن النباتات البقلية التي أدخلت على الزراعة المصرية. فإن البذور التي تؤخذ منها تكون رديئة بوجه عام.

ومن هذا القبيل أن البطاطس الأوربية إذا زرع في أرض مصر أتى بمحصول وفير جدا. ولكنه إذا زرع في السنة التالية من بطاطس هذا المحصول فإن محصوله يكون أقل من هذا كمية وأردأ صنفا. وكذا بذور البنجر الأوربي تعطى في السنة الأولى محصولا عجيبا. حتى أن البنجرة الواحدة كثيرا ما يبلغ وزنها كيلو جراما وتكون كثيرة المادة السكرية، ولكنها إذا زرعت في السنة التالية من بذور المحصول الأول أعطت نباتا كثير الورق ولكنه عديم البذور تقريبا وقليل السكر.

ومن المحتمل أنه بمضى الزمن يمكن الوصول إلى أحسن من هذه النتائج باستئناف التجارب وتدوين الملاحظات وتطبيق ما تهدي إليه من وسائل العناية والتعهد.

٢٨. النباتات الأجنبية التي أدخلت في حدائق أصحاب السمو

من هذه النباتات شجرة (القاقللى) الهندية وهي منتشرة حسنة النمو

وشجرة (ترميناليا) الهندية، ويزرع منها الآن صنفان كبيران.

وشجرة (سرسييس سليكستروم).

وشجرة (الميس) البروفنسية.

وشجرة (التنكا) الهندية.

وشجرة (الصندل) الأبيض.

وشجرة (الاثل).

وشجرة (البن).

ولم تتبلد هذه الشجرة الأخيرة إلا بعد صعوبات جمة. على أن منها الآن بضعة شجيرات نمت نموًا حسنًا. بعضها في الحدائق الخاصة بإبراهيم باشا وقد بلغت من النمو في الأرض الطلقة من إثني عشر إلى خمسة عشر قدمًا، وهي تثمر مقدارًا عظيمًا من حبوب البن. والمرجح أن نجاح زراعته يكون أضمن في الوجه القبلي منه في الوجه البحري لأن هذه الجهة تشبه بموقعها من خطوط العرض وبطبيعة أرضها طبيعة أرض بلاد اليمن.

وشجرة الغاب الهندي، وقد تحسنت بالتبليد تحسنًا صارت به على شيء كثير من الحسن، وقد انتشرت في كل مكان ولا تزال أخذة في الانتشار.

ثم الشجيرات من الفصيلة الجبهانية.

والفصيلة الآسية ومنها أصناف نادرة المثال.

والفصيلة الغارية، ومنها شجرتا القرفة والكافور وغيرهما.

وفصيلة خائق الكلاب، ومنها الجوز المقيء وأصناف أخرى غيره.

والفصيلة الزاروندية، ومنها شجرة الفانيلا التي تنجح نجاحًا تامًا كنبات طفيلي ينمو على أشجار التوت الكبيرة.

والفصيلة الشنينية (ومنها نبات تلومبيوم سبيسيوزوم) الذي يزين أحواض الماء هو والبشنين المصري.

وشجرة (طاليا دياباتا) وتوجد بين هذين النباتين المائيين.

وقد بعث الاستاذ العلامة (دوليل) هذا النبات الأخير مع نباتات أخرى من حديقة نباتات مونبلييه.

وشجرة (فيلولاكاديويكا) وتنمو نموًا عظيمًا ويعظم حجمها وشجرة (كونفولفولوس بتاتا) ومنه بطاطة اليمن التي تنجح زراعتها في مصر نجاحًا باهرًا، وستكون في عداد بقولها المهمة.

وشجرة (كوبر ستوس سميرفيرنس، لينيه) المعروفة عند العرب بالسرو.

وهي في مصر كثيرة، وتزرع على حافات المسالك وأعطاف الطرق، وتنمو

بسرعة بالغة . حتى أن ارتفاعها ليبلغ من ست أقدام إلى سبع فى السنة الثانية لغرس بذورها، والشرقيون لا يتخذون هذا الشجر كما يتخذه أهل أوربا رمزا للحزن وزينة خاصة بالمقابر.

وشجرة (بينوس هابنسيس، ميلر) المعروفة عند العرب بالصنوبر والتنوب. والمهمة مبذولة لتكثيره.

وشجرة (موروس ألبا، لينيه) المعروفة عند العرب بالتوت البلدى.

وشجرة (موروس نيجرا، لينيه) المعروفة عند العرب بالتوت الشامى.

وقد غرست فى هذه الأيام ثلاثة ملايين شجيرة بالوجه البحرى على مسطح من الأرض مساحته عشرة آلاف فدان. وأشجار التوت تورق فى شهر يناير ويبلغ ورقها حد النمو فى منتصف فبراير والطقس فى مصر موافق لها كل الموافقة . لأنه لا يمضى على غرسها زمن طويل حتى تنمو نموا حسنا.

أما التوت الأسود - أى التوت الشامى فإنه يجنى منها ويبيع بالطرقات ويحب الأهلون أكله.

وشجرة (أوليا أوريبا، لينيه) المعروفة بشجرة الزيتون.

والظاهر أن هذه الشجرة وجدت فى مصر منذ الأعصر القديمة، ولا يزال إقليم الفيوم المعروف بخصبه يحتوى القدر الوفير منها وقد بلغ بعض هذه الأشجار من النمو مبلغا يخيل للرأى معه أنها غرست قبل الفتح الإسلامى لأن الاعتقاد سائد بأن شجر الزيتون لم تهيأ له المزارع منذ ذلك الوقت حتى الآن.

٢٩ - ومع أن أرض مصر تلائم زراعة شجر الزيتون ملاءمة عجيبة، إذ إنه لا ينقضى على غرسها ثلاث سنوات حتى تأتى بثمارها الوفيرة، فإن هذه الشجرة الثمينة أهملها العرب وطرحوها فى زوايا النسيان. ولم يتعذر على محمد على إدراك ما ينجم من المزايا الجليلة عن زراعة الزيتون فى مصر خصوصا وأن هذه الزراعة تكفيها مؤونة جلب الزيت من الخارج كما تفعل حتى الآن، وتؤدى إلى الشعب المصرى غذاء جديدا فوق ما اعتادوه من الأغذية فقراه لهذه الأسباب باذلا الجهود العظيمة لإعداد مزارع الزيتون وتنمية أشجاره فيها، ولابراهيم باشا فى حدائقه الكثيرة نحو مائة ألف عود من الزيتون، وزيتون مصر مشهور بكبر الحجم وكثرة اللحم.

وشجرة (سلكس سبسرائاتا، ولدنوف) المعروفة بشجرة الصفصاف.
وشجرة (سلكس بابيلاتيكا، لينيه) وهى نوع آخر من الصفصاف.
وهذان النوعان كثيرا الانتشار، ومنهما تتخذ الحكومة الفحم الذى تستعمله
فى صناعة البارود.

وشجرة (أولوس كميستريس) المعروفة عند العرب بشجرة الدردار أو
الغرجاج.

وشجرة (ميرتوس كومونيس) المعروف بالمرسين.
وهى تزرع بالحدائق وتباع أغصانها لليهود لمصلحة لهم فيها أيام أعيادهم.
وشجرة (تمركس جليكا - تمركس أورينناليس، لينيه) المعروف بالآثلة
والطرفة.

وتزرع هذه الشجرة خصيصا لأجل ظلها، وتوجد عادة حول السواقي ومن
خشبها يتخذ الفحم، ومن نتوءاتها تستخرج الصبغة السوداء وتستعمل هذه
النتوءات أيضا فى دبغ الجلود.

٣٠- الأشجار الأجنبية

تحتوى الحدائق، ولاسيما حدائق حضرة إبراهيم باشا فى جزيرة الروضة:
شجرة جرافة البراغيث (بتولا ألبا، لينيه).

وشجرة الميس البروفنسى (سلتيس أستراليس، لينيه).

وشجرة اللوز أو البدام (ترميناليا كتابا، لينيه).

وشجرة الأرخوان، أو شجرة يهوذا (سروى سيليجستروم، لينيه).

وشجرة جوزة الزنج (ستركوليا بلاتانيفوليا).

وشجرة اسفندان الجميز (آسر بسودو بلاتانوس، لينيه).

وشجرة اسفندان الدلب أو الساج أو الجنار (آسر بلاتانويد، لينيه).

وشجرة اسفندان الغيطان أو الجرسق (آسر كمبسترا، لينيه).

وشجرة الاسفندان ذات ورق لسان العصفور (آسر نيجوندو، لينيه).

وشجرة فيلاريا ذات الأوراق العريضة (فيلاريا لاتيفوليا، لينيه).

ومن الأشجار التى فى حدائق الوجه البحرى:

شجرة الدلب الشرقى (بلاتانوس أورينتاليس، لينيه) وهى كثيرة الانتشار.

وشجرة لسان العصفور (فراكسينوس أورموس، لينيه).

وشجرة المران (فراكسينوس اكسليسيور، لينيه).

وشجرة (روبينيا بسودو اكاسيا، لينيه).

وشجرة الفول الأمريكانية (جليد ستشياثيا كنتوس، لينيه).

وهناك أصناف أخرى مختلفة أدخلت حديثا ، ومنها تتخذ الزراعى المحيطة بالحظائر.

وشجرة الحور أطلق عليها العلامة لينيه اسم (بوبوليس ثيمولا).

وأنواع مختلفة من شجرة السرو وهى: (دستيكا، بندولا، أوريزونتاليس) وهى عديدة.

وشجرة الصنوبر الغابى (ثويا أورينتاليس، لينيه) وهذان النوعان منتشران انتشاراً عظيماً فى الحدائق.

وشجرة القرو (كركوس) وهى نادرة الوجود.

وهذه الأشجار كلها زراعتها ناجحة ، وتنقل من الحدائق إلى المزارع الواسعة.

ولوحظ أن النباتات الليفية تتبدل بسهولة متى أعتنى بها فى أول الأمر. ووجه العناية بها أن توضع فى أمكنة ملائمة لها ومظلة . على أن تكون الأرض خفيفة رطبة وافرة مواد النماء. فإنه بمراعاة هذه الشروط تنبت البذور وتنمو النباتات ويتيسر بعد مضى ثلاث سنوات وضعها فى الحدائق فتتقوى نمواً سريعاً مطرداً.

ومما يستدعى الدهشة أن الزيزفون وشجر الغاز الكرازى لا يوجدان حتى الآن فى مصر، وأن شجرة الشاهبلوط الهندية لا أثر لها فيها بالمرّة.

وشجرة البان (مورنجا أوليفيرا، لينيه) وهى شائعة فى النوبة واليمن وثمرها محمود، وهو على شكل الجوز، لما توافر فيه من الخواص الطبية.

وقد أدخلها إبراهيم باشا منذ نحو خمسة عشر عاماً، ومنذ هذا الحين

انتشرت انتشارا عظيما.

٣١- أشجار الفواكه الأهلية

شجرة اللوز (امجدالوس كومونيس).

الصنفان اللذان يثمران اللوز الحلو واللوز المر يزرعان بمصر، ولكنهما قليلا الانتشار وثمارهما متوسطة النوع.

وشجرة الموز (موزا براد يزيكا).

لا توجد إلا في الوجه البحرى ومصر الوسطى على أنها لا تستنبت إلا في الحدائق، وإذا زرعت في الأرض البراح = الجالية = تعرض جذعها الحامل لأوراقها الكبيرة لصدمات الرياح. والتين الموزى بعيد النوع. إلا أن ثمره لا يزال نادرا. وبالتالي مرغوبا به ولذا لا يرى إلا في موائد الأغنياء.

شجرة البلح أو النخلة (فينكس دكتيليفيرا).

يطلق المصريون على أنثى هذا الشجر «النخلة» وعلى الذكر «الذكر» والنخل منتشر في جميع أصقاع مصر العليا ومصر الوسطى. وينمو في الواحات وحدود الصحراء، وقد وجد بمصر في كل زمان بدليل أن تيجان الأعمدة في الآثار القديمة محلاة برسوم تمثل سعفه منضما. وهو ينمو بغير تعهد ولا أقل عناية ولا تدبير زراعى سابق غير أنه إذا أريد الحصول منه على الثمار الجيدة الوفيرة فلا بد من إرواء أرضه والعناية بتقليمه في كل عام، وتجمع أشجار النخل في الغالب على شكل غابات عظيمة تعد فيها بمئات الألوف، ومنظرها يؤثر في النفس لما فيه من الهيبة والجلال وإذا جاس الإنسان خلالها خيل له أنه سائر تحت قباب هيكل عظيم مهيب. بل إذا نظر تلك الجذوع العارية السامية إلى ارتفاع ستين أو ثمانين قدما ظن أنه يرى تلك الأعمدة الرشيقة التي أذاعتها هندسة القرون الوسطى في مبانيها المنظمة وأثارها المتحدة. إذ تجد مجموعات الأوراق العريضة السميكة المتوجة للأعمدة متزاوجة متعانقة. فيتكون منها ما يشبه تقوس القباب وتوافرت به وجوه الشبه على النمط السالف.

ولأشجار النخل أربعة وثمانون صنفا يميزها بعضها عن بعض اللون والشكل والحجم والتنوع. ومن حيث اللون يمكن تقسيم تلك الأشجار إلى ثلاثة أقسام. القسم الأول النخل الذى يثمر البلح الأحمر، والثانى النخل ذو البلح

الأصفر والثالث النخل ذو البلح الضارب إلى البياض.

وإذا كانت النخلة منعزلة لا يجاورها نخل آخر بدت للرأى رشيقة الشكل،
وانه لما يروق للعين أن ترى وسط السيف = الزعف = المتفرع من رأسها
أعذاقا جسيمة من البلح معلقة بأسفل تلك الأوراق، وكثيرا ما يبلغ وزنها بضعة
قناطر من البلح. والبلح كما هو معلوم ثمر جيد حلو المذاق وافر مواد التغذية.
وأصنافه كثيرة مختلفة وما يرد منها من الصعيد والواحات أحلاها مذاقا وألذها
طعما.

ويبتدىء نضجه فى الوجه القبلى فى أواخر يونيو، وفى الجهات الأخرى بعد
ذلك بشهر على وجه التقريب، وهم لا يدعونه ينضج على أمه - أى على شجرته.
بل يقطفونه قبل أوان النضج ويحفظونه عندهم مدة من الزمن يبلغ فيها إلى
الدرجة الملائمة من النمو ثم يباع بعد ذلك فى المدن حيث يتطعم به كل الناس
على السواء. وهو غذاء اقتصادى فى متناول يد الفقير. فالبلح من هذه الوجهة
نعمة من نعم الله أسبغها على سكان أهل مصر . وليس كل البلح يؤكل طازجا
بل منه ما يعجن كعجين الخبز ويستنفد على هذا الشكل خلال السنة.

ومن البلح تستخرج ثلاثة أشربة، وهى الشراب المعروف بالعرقى ونوع من
الخل والشراب المعروف بالدبس أرب البلح.

ولم يكن النخل من الأشجار المباركة لثماره فقط. بل أيضا لما ينتفع به فى
المعيشة من أجزائه التى يتكون منها جميعا، فإنه ما من جزء من أجزائه إلا
وتبنى عليه مصلحة وتستمد منه منفعة، فبالأوراق تصنع الحصر للجلوس
والقفف للمصالح البيتية، ومذبات = مضارب = طرد الذباب التى كثيرا ما
تجلب إلى أوربا كأداة من الأدوات الغريبة وبالأغشية التى تغلف السعف عند
عراجينه وتعرف باسم الليف تصنع الحبال اللازمة فى مرافق الزراعة ومنافع
النقل وغيرهما.. إلخ وبالفروع المتصلة بها أعذاق = سباط = البلح تصنع
الحبال الطويلة المتينة وقد يخلط بها ورق السعف فتكون الحبال المصنوعة على
هذه الكيفية ملساء ناعمة، وينتفع بالفروع فى وضعها بين الأخشاب التى تسقف
بها المنازل فتتزل منها بمنزلة ألواح الخشب ومنها تتخذ الأقفاص للطيور
والأسرة والكراسى وغيرها.

والطرف الغليظ من العرجون ينزع من النخلة وهو كثير الألياف فإذا دق بجسم ثقيل تفككت أليافه وصنعت منها المكانس لتنظيف البيوت.

وإذا أدركت النخلة - أى بلغت أوان الإزهار فإن عضو التأنيث يتولد منه نوع من الليف يزيد سمكه على سمك شعر الخيل ، ويصلح فى الحمامات لذلك الجسم به مع الصابون.

وجذوع النخل تستعمل عادة مكان العروق الخشبية فى العمارات وغيرها من الأعمال التى تستدعى استعمالها. وتلك الجذوع تنثنى بسهولة إذا كان خشب النخل الذى اتخذت منه لا يزال طرياً ، ولكنها تجمد شيئاً فشيئاً فتزداد صلابة ومقاومة على توالى الأيام.

أما نوى البلح فيصلح للوقود عند بعض ويعطيه آخرون للجمال غذاء لها. ومما تقدم يتيسر للقارئ أن يستنتج أنه قلما يضحى الناس بنخلة. بالنظر إلى توافر تلك المنافع فيها، فإذا قطعت نخلة من أصلها فذلك لأنها لا تحمل ثمراً ومتى قطعت وجد بأعلى جذعها الذى هو متلقى أعذاق البلح مادة صالحة للتغذى بها طولها نحو القدم وتسمى قلب النخلة أو لبها أو الجمار. وهى مؤلفة من طبقات قشرية متراكبة بعضها على بعض بيضاء اللون لينة المجس تشبه فى مقاومتها اللوزة الطرية كما تشبهها فى طعمها. والعرب يحبونها ويشتهونها ويتهادونها وهى ذات قيمة جلية ومقدار عظيم فى نظر المهدى إليه.

ومعلوم أن النخل لا فروع له إلا السعف الطويل الذى يتفرع منها متقوساً ومثنياً إلى أسفل من طرف الجذع، وينتظم وضعه حوله على خمسة أو ستة صفوف. وفى كل سنة يقطع الصف الأسفل منها وأثر هذا القطع ظاهر فى محيط جذع النخلة بأصول السعف البارزة والمتجهة من أسفل إلى أعلى، وبواسطة هذه الأصول يمكن تحديد عمر النخلة إذ كل صف منها تتألف منه دائرة حول الجذع يعدل سنة منه وليس ببعيد أن يوجد من بين النخل ما يبلغ عمره بحسب هذه القاعدة عدة أجيال.

ومن السهل - بالتأمل السطحى - معرفة أنه من المتعذر الصعود فى نخلة إلى أعلاها بنفس الطريقة التى يصعد بها فى الأشجار الأخرى. لهذا ترى المصريين يتحيلون على الوصول إلى قمة النخلة بوسيلة خاصة بهم، وهى أنهم يعقدون حول جسمهم وحول جذع النخلة حبلًا متينًا فى جزء منه بعض العرض

يجعله أشبه شىء بالمقلع، ثم يستندون جلوسا إلى هذا الجزء ويرتكزون بأرجلهم على أصول السعف الناتئة بسبب قطعه، ويستعينون بهذا الوضع وبواسطة أيديهم أيضا على الصعود على الشجرة برفع الجزء الملامس للجذع من الحبل إلى فوق. وهم يعتمدون على هذه الطريقة فى النزول كما صعدوا.

شجرة الدوم أو المقل (كروسيفير اطيبائكا) وثمره «البهش».

تختلف عن النخل المعتاد بنعومة جذعها وانقسامها إلى طفيين = فرعين = عظيمين ينقسم كلاهما إلى فروع أخرى، ويختلف ثمر الدوم اختلافا عظيما عن النخل - أى البلح، ولكنه مثله فى تعلقه بالأعناق ويعدل حجمه حجم البرتقالة باستطالة قليلة وعدم تجانس فى الشكل. ويحيط بثمر الدوم غلاف ضارب إلى الحمرة توجد من تحته مادة اسفنجية سكرية المذاق ولكنها تافهة الطعم. ويلى هذه المادة فى وسط الثمرة نواة غليظة. وشجرة الدوم تأتى أكلها من هذا الثمر مرتين فى كل عام، وهى غير معروفة بالمرة فى الوجه البحرى ولا فى مصر الوسطى، ويبتدىء وجودها فى الأرض الواقعة على مسافة ٧٠ فرسخا من القاهرة حوالى طهطا، ومن المؤكد أنها أبعد من أن تعدل النخل فى منافعه ومزاياه الكثيرة.

شجرة الجميز (فيكوس سيكوموروس) أكبر أشجار القطر المصرى حجما وأغلظها جذعا، ويظهر أنها من أشجار مصر الأصلية. بدليل ما ذكره عنها قدماء المؤرخين، وأن توابيت الموتى (المومياء) مصنوعة بخشبها، وتبلغ من النمو أحيانا ما يجعل محيط جذعها من عشرين إلى ٣٠ قدما. ويكون هذا الجذع قصيرا جدا فى الغالب وتمتد فروعه فى اتجاه يكاد يكون أفقيا فتلقى على الأرض ظلا وارفا.

أما لون أوراقها فأخضر جميل يظل ثابتا طول السنة. لأن ما يذوى منها لا يسقط من منابته إلا إذا نبت مكانه ورق جديد. فشجرة الجميز على هذا الاعتبار من الأشجار العميمة النفع فى بلد حار الطقس كمصر.

أما ثمره فتينى ذو أنواع مختلفة، والغريب فى أمره أنه لا يتدلى من الأغصان كثمر الأشجار الأخرى بل يرى ثابتا على الجذع الأصلى والفروع الغليظة، ولون هذا الثمر أصفر لا يختلف شكله فى شىء عن شكل التين العادى، إلا أنه لا يعدله فى حلاوته ولذة طعمه، ويبتدىء نضج هذه الثمار فى

شهر يوليو ويعجل نضجها بعد بلوغها الحد الطبيعي من النمو بقطع الجزء الأعلى منها فلا تمر أيام حتى ينضج تماما ويجمع فيؤكل.

والمشهور عن خشب الجميز أنه لا يعتريه الفساد، ولدينا قطع مشغولة منه منذ العصور القديمة. فإذا بها حافظة لكيانها. ويتخذ من هذا الخشب الآن القواعد التي ترسو المدافع عليها.

وشجرة المشمش (برونوس أرمنكا).

وشجرة الخوخ أو الإجاص (اميجداليس برسيكا).

يبلغ من الارتفاع حدا لا بأس به. إذ كثيرا ما يصل إلى ٣٦ أو ٤٠ قدما ويجفف الثمر ليمزج ببعض الأطعمة الأخرى فيطيب طعمها. وأشجار الخوخ في مصر قليلة. ويتم نضج ثمارها حوالى شهر مايو.

وشجرة البرقوق (برونوس دومستيكا) وهى فى مصر على أنواع مختلفة.

وشجرة الكمثرى (بيروس كومونيس).

وشجرة التفاح البلدى (مالوس كومونيس).

وشجرة السفرجل (سيدونيا فولجاريس).

والأشجار التفاحية السالفة الذكر لا تبلغ من النمو فى مصر ما تبلغه منه فى أوربا ولا تكون ثمارها بجودة هذه وطيبها.

وشجرة التين (فيكوس كاريكا).

وهى قليلة الانتشار والموجود منها ثلاثة أنواع التين البرشومى وتين بوليزان والتين البلدى وثمار هذا الأخير جيدة حلوة المذاق.

وشجرة التين الهنـدى (كاكنوس أوبونثيا) ويسمى بالتين الشوكى.

وهى منتشرة فى مصر، وتزرع لعمل الزرابى حول الحدائق، وتؤكل ثمارها التى يحيط بها قشر مجلل بالأشواك الرفيعة.

وشجرة العناب (زيزيفوس فولجاريس).

وخشبها صلب جدا يصلح فى العمارات ونجارة الآثاث وتنمو أشجار العناب عادة بين الأشجار المغروسة حول السواقي.

وشجرة الخروب أو الخرنوب (سيراتونيا سيليكيا) وهى نادرة الوجود بالقطر

المصرى ولا ترى إلا فى بعض الحدائق.

شجرة النبق (راموس سيينا كريستى).

شجرة فى شىء من الكبر وضخامة الحجم ذات ثمر صغير يشبه التفاح فى شكله، وحبّة العنب الكبيرة فى حجمه وطعمه حريف إذا كان أخضر فجاً لذیذة إذا بلغ النضج وصلاح للأكل، والمصريون مغرمون بأكله، ولعل هذا لأنه هو الذى كان معروفاً فى الأزمان القديمة باللوتس على قول هوميروس الشاعر اليونانى، وأشجار النبق منتشرة فى كل مكان بالقطر المصرى.

وشجرة الرمان (بونيكاجراناتوم).

والموجود منها نوعان: يسمى أحدهما بالرمان فقط ويمتاز بحلاوة ثمره والآخر بالرمان الحجازى وثمره حامض الطعم فى حلاوة.. وقشرة النوع الأول حمراء والثانى حمراء قاتمة.

وهذا الشجر حلية الحدائق وزينتها فى الوجه البحرى ومصر الوسطى. وهو شائع فىهما إلى درجة أن بلادا برمتها لا يشتغل أهلها بغير زراعته. والبرتقال أنواع كثيرة منها نوع لون لحمه فى حمرة الدم وهو نادر الوجود يسمى برتقال الداسين.

شجرة الليمون البلدى (ستروس مديكا):

وثمره كثير صغير ممتلئ بالماء (العصارة) ذو مادة صمغية لزجة. أما الليمون الكبير فقد انتشرت شجراته بالتطعيم. والليمون الحلو محبوب من المصريين ولكنه قليل، ولقلته لا يستطيع الفقراء الحصول عليه.

وشجرة المخيط (كوردياميك).

وشجرة عالية يبلغ علوها عادة ثلاثين قدماً، وتأتى فى شهر مايو بزهر زكى الرائحة أما ثمارها فغير لذیذة الطعم.

وشجرة المخيط الرومى (كورديا كريناتا).

وهى أصغر حجماً من السابقة وأقل ارتفاعاً ولكن ثمارها أجود وألذ طعماً.

وشجر العنب (فيتيس فينيغرا).

كانت أعناب مصر وأنبذتها ذات شهرة فائقة وصيت ذائع فى العصر القديمة، وكان الرومان يهتمون بها جد الاهتمام حتى أنهم نقلوا بعض أعوادها إلى إيطاليا لتبليدها فيها. ثم جاء الفاتح الإسلامى بعد ذلك بمبادئه التى تحرم شرب النبيذ تحريماً قاطعاً. فآثر تأثيراً بالغاً فى زراعة الكروم وأدى إلى إهمالها وإغفال العناية بها.

على أن الفاتحين سمحوا ببقاء بعض الأشجار فى الحدائق للتفكه بثمرها دون اعتصار النبيذ منها. فكان من حظ إقليم الفيوم تصدير الأعناب إلى أسواق القاهرة والإسكندرية.

والعنب البلدى جيد لذى الطعم بذوره صغيرة الحجم قليلة العدد إلى حد أنه لا يوجد منها سوى بذرة واحدة فى كل حبة . بل إن هناك نوعاً من العنب لا يزرع بالمرّة فى حبوبه وهو مشهور عند المصريين باسم العنب البناتى.

ومنذ خلصت مقاليد الأحكام لمحمد على وانتهت أزمته إلى يده عادت زراعة الكروم إلى شىء من سابق انتشارها وتقدمها . فإن سمو الوالى وحضرة نجله قد أدخلوا فى مصر زراعة أنواع العنب كافة المعروفة فى أوربا وبلاد اليونان فنجحت بأجمعها تقريباً نجاحاً باهراً . وحتى الآن لم يحاول غير الأوربيين استخراج النبيذ منها ، ونبيذهم هذا جيد النوع ولكنه كثير الكحول.

والشرقيين عادة فى العنب وهى جمع قطوفه خضراء غير تامة النضج واتخاذ ورقه للطعام يحشونه بالأرز واللحم.

٣٢. أشجار الفاكهة والنباتات التى أدخلت حديثاً

من هذه الأشجار والنباتات:

الأناناس (برومليا أناناس).

هذه الشجرة مع انتشار زراعتها لم تقلح فى مصر لأنها تأتى فيها بمحصول قليل جداً من الثمر.

وقصب السكر (سكاروم أوفيسناروم) ويسمى أيضاً بالقصب الحلو.

ينمو نمواً تاماً حسناً فى القطر المصرى، ولكن زراعته لم تنزل غير واسعة النطاق ولا موفية بحاجة البلاد من السكر فتضطر إلى استجلابه مكرراً من

البلاد الأوربية، ومع هذا فإن بعض السكر المصرى يصدر إلى الحجاز ومكة وبعض جهات بلاد العرب.

وأوسع منطقة لزراعة قصب السكر فى ضواحي الريرمون فى قرى الوجه القبلى.

وأوان نضج القصب حوالى شهرى نوفمبر وديسمبر، ويصل من الارتفاع حينذاك إلى عشرة أقدام أو اثنى عشر قدما ومتى بلغ هذا الحد من النضج قطع وعصر فى المعمل الذى انشأته الحكومة هناك واستخرج منه السكر وشراب الروم.

شجرة الكراز (برونوس سيراوسوس)

حاولوا إدخالها وتبليدها فى مصر فتمت فى أرضها نموا حسنا ولكنها لم تأت بأقل ثمر، ومن المحتمل أن يتمكن العاملون من إعطاء مصر أشجار تثمر الكراز إذا اجتهدوا فى تبليد اشجار الكراز المالطية بدلا من أشجاره المستوردة من أوربا الوسطى. لأن شجر الكراز المالطى معتاد على درجة حرارة تقرب كثيرا من درجة الحرارة فى القطر المصرى.

شجيرات الشليك (فراجاريا)

إنه لعدم وجود جبل ما فى مصر يحتوى أشجار الغابات لا يوجد فيها من شجر الشليك إلا النوع البرى منه، وقد أصبح الباعة الآن يبيعون فى الطرقات ثمره بعد أن كان مجهولا من الأكلين أو كان على الأقل نادرا جدا على عهد الممالك.

شجرة القشدة أو القشطة (أنوناسكواموزا)

أصل هذه الشجرة من أمريكا وكانت نادرة جدا فيما سبق لا توجد إلا فى بعض الحدائق. أما الآن فقد أصبحت أكثر انتشارا. وهى متوسطة الارتفاع وثمرها كثير الشبه بتفاحة ثمر الصنوبر، لونها أخضر جميل ولحمها لين جدا يشبه فى شكله وطعمه السكرى ورائحته المحبوبة شكل القشدة وطعمها ورائحتها. ولهذا سميت بذلك الاسم. ويتخذ الفحم من خشبها كما يتخذ من أوراقها مسحوقة بعد تجفيفها لزقة توضع على العين إبان الإصابة بالرمم الصديدى.

شجرة الجوافة (بسيديوم بروميفيروم).

اشتهرت هذه الشجيرة في مصر حتى أصبحت معروفة من الجميع وهي ذات ثمر وافر كثير.

شجرة الجوز (جوجلانس رجيا).

هذه الشجرة التي هي من أشجار البلاد الباردة في مصر لم تزرع قبل محمد علي وهي تنمو فيها نموا حسنا ولكن ثمرها قليل وإذا أدخلت زراعتها في هذا القطر فما هو إلا لخشبها دون ثمرها.

شجرة الباباير أو نخلة العجور أو الباباز (كارىكا بابايا).

ترتفع هذه الشجرة كثيرا وتضخم وتأتى بثمر جيد وأصلها من أمريكا.

شجرة الفستق (بستاشيا فيرا).

هذه الشجرة ذائعة الانتشار وتأتى بثمر جيد جدا.

٣٣. النباتات الحبوبية النجيلية

القمح أو الحنطة (تريتيكوم ساتيفوم).

اشتهرت مصر بحبوبها منذ الأعصر القديمة إذ كانت تمون بها بلاد اليونان وإيطاليا حتى لقد أسماها الشاعر (ناسيتوس) بخزائن رومية. ومنذ تعددت فيها صنوف الزراعات وشغلت بزراعتها شطرا كبيرا من الأرض ضاق نطاق زراعة الحبوب بالرغم من أن هذه الزراعة ما برحت شاغلة المرتبة الأولى بين صنوف المزروعات المصرية.

وقد غالى الكثيرون في تقدير محصول القمح المصرى فأبلغه بعضهم إلى ٥٠ أو ٦٠ فى المائة والبعض الآخر إلى ١٠٠ فيها. والحقيقة أن متوسط هذا المحصول لا يتجاوز ١٥ إلى ٢٠ فى المائة. وإذا تجاوز هذه النسبة فى بعض السنين التى تمتاز بوفرة المحصول فى الجهات الملائمة لزراعته فإنه لا يتجاوز ٢٥ وتارة ٣٠ أو أربعين فى المائة.

والقمح المصرى جيد الصنف وأجوده ما كان من الوجه القبلى. وسوقه = أعواده = قلما يزيد ارتفاعها على قدمين أو قدمين ونصف. وهذه السوق غليظة وصلبة تعلوها بوجه عام سنبله وافر الحبوب. وأرض مصر لا تنتج سوى

القمح. وغنى عن البيان أن القمح فيها على جملة أنواع تختلف عن بعضها بلون الحبة وشكلها وصلابتها.

القمح العربى (تريتكوم ترجيدوم).

الشعير (هورديوم فولجارى).

بينما تتطلب زراعة القمح الأرض الرطبة الكثيرة مواد الخصب، تكفى الأرض الرملية لزراع الشعير ويختلف متوسط محصوله فى الفدان الواحد من ٥ أراب إلى ١٢ أربا.

وتعطى حبوب الشعير بوجه عام غذاء للخيل، ودقيقه إذا مزج بدقيق الحنطة صلح أحيانا لتهيئة الخبز. وفى القاهرة يصنع النشاء مستخرجا من الشعير والقمح والأرز.

الذرة (سور غوم فولجارى).

تزرع بمقادير عظيمة جدا لأنها لا تستلزم عناء الحرث الكثير ولا ميثاق الري بالماء ويختلف محصولها فى الفدان الواحد من ١٥ إلى أربعين أربا. ويبلغ ارتفاع ساقها إلى ٨ إلى ١٠ أقدام. وعلى دقيق الذرة المعول فى تغذية الفلاحين إذ به يصنعون خبزهم ويفضلونه على الخبز المصنوع بدقيق الحنطة بالرغم من حموضة طعمه ورداعته. وسوق الذرة بعد جفافها تصلح وقودا لأفران الجير (القماين) كما تصلح لإقامة الحواجز وتغطية سطوح المنازل وبناء الأخصاص والأكواخ الصغيرة.

يسمى المصريون الذرة العادية بالذرة الصيفية لأن بذورها تبذر عادة فى آخر مارس، وهناك صنف آخر من الذرة يزرع فى فصل الخريف ويسمى بالذرة البيضاء (سورغوم سرنوم) والذرة العويجة.

الذرة الشامية (زيامايس).

أطلق هذا الوصف عليها لورودها من الشام ، وحبوبها صفراء اللون وأكبر حجما من حبوب الذرة البلدية، ويؤخذ منها محصولان فى السنة الواحدة، الأول فى الصيف والثانى فى الشتاء. وقد اعتاد الفلاحون قطع كيزان الذرة طرية قبل تمام النضج والتغذى بها بعد شيها على النار ويتخذ من دقيق هذه الذرة خبزا

أجود من خبز الذرة البلدية السالفة الذكر. ومحصول الفدان الواحد منها يبلغ أحيانا إلى ١٤ أردبا.

الدخن (سورغوم سكاراتوم).

الدخن «نوع آخر» (بانيكوم ملياسيوم).

الدخن «نوع آخر» (برميتيوم تيفوئيدوم).

الأرز (أوريزاساتيفا).

ذهب بعض المؤلفين إلى أن الأرز كان مجبولا = طبيعيا = من قدماء المصريين، وبحث غيرهم في عكس ما ذهب هؤلاء إليه. والرأى الراجح هو أن الأرز كان لايزرع قديما في مصر. بدليل أنه لا يرى مرسوما على آثارها في حين يرى القمح والشعير مرسومين عليها. والمحقق أن العرب هم الذين أدخلوا زراعته بعد أن جلبوه معهم من بلاد الهند.

وتستلزم زراعة الأرز الأراضي الواطئة الطميية. هذا ما دعا إلى الاقتصار في زراعته على الوجه البحرى. وفي ضواحي دمياط ورشيد يزرع من الأرز أجود أصنافه. ومتى تم حصد الأرز وهىء للاستنفاد خلط بالملح البحرى الجاف لصيانتة من الفساد وحفظه زمنا طويلا.

ومنذ استلم محمد على زمام ولاية مصر أدخل زراعة الأرز في إقليم سنار.

٣٤. الحبوب غير النجيلية

من هذه الحبوب:

الحلبة (تريجونيلافينوم جريكم).

الحلبة نبات كالأى يحبه المصريون، وهم يتغذون به، إذ يأكلون منه الساق والورق ومنابت الحبوب. وهم يحمصون هذه ويتخذون منها شرابا كقهوة البن ويصنعون منها مستتبته نوعا من الطعام يدخل العسل في تركيبه.

القول (فاباساتيفا) أو الفول البلدى.

القول أحد الحاصلات الوفيرة في القطر المصرى، وتبذر بذوره في الحقول والغيطان الفسيحة، وحبوبه فيه أصغر حجما منها في أوربا. ولكنها أجود صنفا وألذ طعما. ويتخذ المصريون منها طعاما يعتبر من أطعمتهم الأساسية

فإذا كانت طرية أكلوها بالملح أو جافة كغذاء للماشية والدواب كالبقر والجمال والحمير.

وكان كهان الهياكل فى الأزمان القديمة يعتبرون الفول غذاء غير طاهر بسبب ما كانوا يشهدونه فى زهره من البقع السوداء التى كانوا يقولون إنها تشبه شارات الحداد وعلاماته.

الجلبان (لاتيروس ساتيفوس).

البسلة (بيزوم أرفنس).

يزرعان فى الوجه القبلى وتعطى حبوبها للجاموس والجمال.

الحبة السوداء (نجيلا ساتيفا).

العدس (أرفوم لنس).

كان عدس مصر مشهورا فى الأزمان القديمة ، وكان الرومانيون يسمونه «عدس بيلوزه» وهو لا يزال منتشر الزراعة غزير المحصول فى مصر ولونه أصفر برتقالى جميل.

الترمس (لويينوس ترمس).

حبوبه مرة المذاق لا تصلح غذاء إلا للإنسان، وإنما ينبغى قبل أكلها أن تنقع فى الماء الملح. وساق الترمس ليفية، ولهذا تتخذ وقودا فى المصالح البيئية وغيرها.

الحمص أو الملائنة (سيسر أريكتيوم).

يسمى المصريون هذا النبات بالحمص وهم يأكلون حبوبه خضراء ويسمونها عندئذ بالملائنة. أما إذا جفت فياكلونها بعد تحميصها على النار وتعطى سوقها للمواشى.

اللوبياء (دوليكوس لوبيا).

تزرع اللوبياء فى الوجه البحرى وسوقها قصيرة وحبوبها بيضاء الشكل ذات نقطة سوداء فى سرتها، ويوجد بأطراف الصعيد الأعلى نوع آخر من اللوبياء مستدير الحبوب صغير الحجم يعدل حجمه حجم الفلفل الأسود وقد سماه لينيه باللاتينية (فازيولوس مونجو) ويسمىها الأهالى «الماسح».

٣٥- الخضر والنباتات البقلية

- الخبيزة (مالفاسافستريس، لينيه).
 - الخبيزة «نوع آخر» (مالفافتيسلاتا، لينيه).
 - الباميا (هيبسكوس اسكولانتوس، لينيه).
 - الرجله (بورتولاكا أو لراسيا، لينيه).
 - السبانخ أو الإسفاناخ (سييناسيا أو لراسيا).
 - السلق (بيتا فولجاريس).
 - تؤكل هذه الخضر مسلوقة أو مطبوخة باللحم.
 - الملوخيا أو الملوكية (كوركوروس أو ليتوريوس، لينيه).
- أما الخبيزة التى لا تنمو فى أوربا إلا بالحالة البرية فتزرع بمصر فى الحدائق والحقول والأهوان يفضلونها على الاسفاناخ ويستنفذونها أكثر مما يستنفذه الأوربيون.
- أما الباميا وتعرف عند العامة باسم (الجومبو) وفى أمريكا باسم (كالالو) فمن الخضر اللزجة ، وتستنفذ بكثرة مدة نحو ستة أشهر من كل سنة وهى طعام نافع جدا.
- أما الملوخيا فمن البقول التى يحبها المصريون أيضا كما يحبون الباميا وهى شديدة اللزوجة وتافهة الطعم. وتبلغ فى نموها ارتفاع قدم إلى قدمين وزهرها أصفر جميل يسترعى النظر. وتجفف أوراق الملوخيا لتحفظ برسم الطبخ فى فصل الشتاء، وإذا وضعت بعد جفافها فى الماء المغلى لانت وصارت كما لو ألقيت فيه وهى خضراء. وتطبخ الرجلة والاسفاناخ والسلق بالطرق المتبعة فى طبخ النباتات المشار إليها.
- البصل (اليوم سييا).
 - الكراث (اليوم يوروم).
 - الثوم المعتاد (اليوم ساتيفوم).
- إن بصل مصر المشهور بالجودة منذ الأعصر القديمة يستحق حتى اليوم

هذه الشهرة. وهو أصغر حجما من بصل أوروبا ولكنه ألد منه طعما. ويستنفذ في مصر بمقادير عظيمة ومحصوله في الوجه القبلى أوفر منه في الوجه البحرى.

والكراث ينمو في مصر نموا عظيما ويؤكل كما هو في ابانه ولكنه إذا كبر حجمه وغلظ طبع وأكل كما تؤكل الخضر السالفة الذكر.

وزراعة الثوم غير منتشرة في مصر.

الكرفس (أبيوم جرافيلانس، لينيه).

البقدونس أو المقدونس (بيوم بتروسيليوم، لينيه).

الهندباء (شيكوريوم انتيبوس، لينيه).

الخس (لكتوكاساتيفا، لينيه).

الرشاد (ليبيديوم ساتيفوم، لينيه).

والكرفس لايزرع إلا في حدائق الوالى، والمصريون يأكلون جذوره ولكنهم لا يأكلون أوراقه.

والمقدونس نادر جدا في مصر.

والخس يوجد في أرضه وينمو نموا حسنا ويؤكل نيئا ويوجد بالأسواق طول فصل الشتاء.

الجزر (دوكوس كاروتا، لينيه).

اللفت (براسيكا نابوس، لينيه).

القلقاس البلدى (آرون كولوكازيا، لينيه).

البيارون، البشتين، النيلوفر (ننفيا كابروليا رادكس).

الفجل (رافانوس ساتيفوس).

والجزر المصرى صغير جدا شديد الحمرة كثير الأوراق حريف الطعم.

واللفت غير منتشر الزراعة ويؤكل في مصر بنفس الكيفية التى يستنفذ بها

في أوروبا إذ يخلل في الخل.

ويطبخ القلقاس كما يطبخ اللفت.

أما البيارون أو النيلوفر أو البشنين فمعروف منذ القدم. وهو نبات مائى يغطى بعد انقضاء فيضان النيل سطح الترع بأوراقه الكبيرة التى تنبعث من وسطها أزهار بيضاء أو ضاربة إلى الزرقة جميلة الشكل. ويؤخذ من أقوال المؤرخ هيرودتس أن ثماره كانت أحب الأغذية إلى المصريين وهى لاتزال حتى الآن مرغوبا فيها .

ويستفد الفجل بمقادير عظيمة جدا، ولأوراقه عروق غليظة يحبها المصريون ويفضلونها على الجذور.

الكرنب (براسيكا أو لراسيا، لينيه).

القرنبيط.

القرنبيط الأسود (بروكوليس).

الخرشوف (سيناراسكوليموس، لينيه).

والكرنب لاتنجح زراعته بمصر نجاحها بأوربا.

والخرشوف يظهر فى أسواقها من شهر فبراير.

الشبت (أنيثوم جرافيلولانس، لينيه).

الطماطم، الباذنجان القوطه (سولانوم ليكوبرسيكوم، لينيه).

يأكل المصريون الطماطم نيئا وناضجا وكذا الخضر الأخرى.

القرع الطويل (كوكوربيتا لاجنياينا، لينيه).

القرع الإسلامبولى (كوكوربيتا بيبو، لينيه).

القرع المغربى أو الأوزى (كوكوربيتا بوليمورفا، لينيه).

الخيار (كوكوبيس سانيفوس، لينيه).

الباذنجان (سولانوم مليونجيرا، لينيه).

نباتات الفصيلة القرعية شائعة الاستعمال فى طهى الأطعمة.

وفى القطر المصرى نوعان من الباذنجان أحدهما أبيض ويسمى بالباذنجان الأبيض والآخر بنفسجى اللون ويسمى بالباذنجان الأسود، والمصريون يأكلون الباذنجان نيئا ومطبوخا كما يأكلون الخيار نيئا ويخللون الكبير الحجم منه فى الخل.

الكرابيا (كاروم كارفى، لينيه).
الكزبرة (كورياندروم ساتيفوم).
الكمون (كومنيوم سينينوم، لينيه).
الأنيسون (يمبينا أنيزوم، لينيه).
الفلل الأحمر (كاسيوم فروتسانس، لينيه).
وأثمار هذه النباتات المختلفة تدخل فى الطعام كتوابل.
ملونا أو القاون أو الشمام (كوكوميس ميلو، لينيه).
البطيخ (كوكوربيتا ستروللوس).
القاون فى مصر أصناف عدة ، وقاون الوجه القبلى أحسنها . أما مايزرع
منها فى ضاحية القاهرة فقليل الحلاوة.
أما البطيخ وهو الثمر المرطب للبدن والفاكهة التى تفضلت العناية الإلهية
فأسبغت نعمتها على البلاد الحارة فمنتشر الزراعة كثير المحصول فى مصر.
وكان معروفا فيها منذ الأعصر القديمة، وفوائده ومزاياه عنى العرب بزراعته
وتعهدوها بالتحسين تعهدا متواصلا، وإن ننس لا ننس ما أفاد البطيخ به جيش
الحملة الفرنسية فى رحلته من الإسكندرية إلى القاهرة حينما اشتد على الجنود
القيظ وأخذ العطش منهم كل مأخذ، وكان العساكر يسمونه كقدماء المصريين
بالبطيخ المقدس تنويها بفوائده ومزاياه.
ومنذ بضع سنوات أدخلت إلى مصر زراعة كل ما يزرع بأنحاء أوربا من
صنوف الخضر فلم تلبث أن انتشرت فيها.
والخضر كثيرة وشائعة فى حدائق القاهرة . حيث تبلغ من النمو حدا لا
بأس به ، ولكنها مع حسن منظرها شديدة اللزوجة تافهة الطعم غالبا . ونباتات
الخضر تذبل أوراقها أحيانا، وهذه الأوراق عريضة السطح ملساء ذات لون
أخضر فاتح وهى سريعة النبت والنمو.

٣٦. النباتات النسيجية

التيل أو القنب (كانابيس سانيفا، لينيه).
تيل سيام (أورتیکا نيفيا).

كان التيل قبل عهد محمد على لا يزرع إلا فى الوجه القبلى للانتفاع ببذوره فقط ، وكان الناس يتخذون من هذه البذور غذاء أو شرابا مخدرا يسمى بالحشيش ولكن الباب العالى عمم زراعته تعميما عظيما ليتخذ من سوقه الخيوط الضرورية لصنع حبال السفن وقلوعها . أما القماش للباس وغيره فلم يصنع من التيل . لأن أهل مصر يفضلون عليه القماش المصنوع من الكتان .

أما التيل السيامى فقد بعث به أخيرا إلى العلامة (فيجارى) العلامة (دوليل) الأستاذ فى (مونبلييه) ليدخله فى زراعة مصر . وقد نجح العلامة فيجارى فى ذلك نجاحا باهرا يحمل على الاعتقاد بأن زراعته ستنمو وتنتشر انتشارا عظيما .

القطن (جوسبليوم فيتيفوليوم، لينيه) .

زراعة القطن من النعم الجزيلة والموارد الفياضة بالثروة التى أصبحت مصر مدينة بها لمحمد على . ومعلوم أن شجرة القطن كان يزرعها أهل مصر فى حدائقهم باعتبار كونها من شجيرات الزينة وظل هذا شأنها حتى أخرجها محمد على من زاوية النسيان وجعلها فى مقدمة موارد الثروة المصرية . وسأتكلم على هذه الشجيرة ببيان أوفى فى الصفحات التى سأبحث فيها عن الحالة الحاضرة للزراعات فى القطر المصرى .

الكتان (لينوم أوزيتا تسيموم، لينيه) .

هذا النبات من أقدم ما زرع فى القطر المصرى إذ كان المصريون القدماء يتخذون منه الأنسجة المشهورة التى كانوا يصدرونها إلى جميع أنحاء العالم . ومنه يصنع المصريون الآن الأقمشة التى يلبسونها .

كتان زيلاندة = نيوزيلانده = الجديدة (فورميوم تيناكس) .

لم تبذل حتى الآن الجهود الكافية لتبليد هذا النبات بالقطر المصرى . إذ لم يصل إلى مصر فى الحقيقة منه سوى نبتة واحدة أرسلت من حديقة مونبلييه ولكنها ماتت . وقد يتأتى من زرع هذا النبات نفع جليل لمصر ، ولهذا يحسن استئناف التجارب لتبليده مادام هناك من البوادر ما يحمل على الجزم بنجاحه والحصول منه على النتائج المرضية . وفعلا فإن طقس القطر المصرى قريب من طقس زيلاندة الجديدة ، وقد دلت التجارب الأخيرة الكثيرة على صلاحية تربته

لإنبات وإنماء ما يجلب إليه من النباتات الجديدة لزراعته فيها.

٣٧- نباتات ألوان الصبغة

القرطم، العصفور، الأحريض (كرتاموس تنكتوريوس، لينيه).

إذا بذرت بذوره فى وقت انحسار ماء الفيضان عن الأرض فى الاستطاعة حصده فى مارس بدون أن يستلزم عناية ما ولا تعهدا فى أدوار نموه، وبعد جفاف أوراقه تسحق وتجمع إلى بعضها على شكل رغيف من الخبز. ويستخرج من بذور القرطم زيت شائع الاستعمال بين عامة الأمة. أما سوقه فتتخذ بعد جفافها للوقود. وزراعته أكثر شيوعا فى مصر الوسطى منها فى غيرها.

الفوة (روبياتنتكتوريا، لينيه).

تزرع الفوة فى مصر منذ بضع سنوات، وكانت تستخرج سابقا فى جزيرة قبرص وهى فى مصر لا تأتى حتى الآن بمحصول يكفى للتقدير إذ كل محصولها تستنفده معامل الحكومة وفارويقاتها.

البليخاء، الليرون، الأسليخ (ريزيذا لوتيا، لينيه).

الحناء، القيقرس (لاوسونيا الباء).

تجفف أوراقها ثم تسحق فيكون منها ذلك المسحوق الذى تستعمله النسوة فى تلوين بعض أجزاء أيديهن وأرجلهن ليصير لونها كلون الجوز الكابلى، وفى جهات عديدة من القطر المصرى تصنع السلالات من فروعها الصغيرة بعد جفافها. وشجرة الحناء لا يحتاج نموها إلى الرطوبة.

النيلة، النيل، النيلج، العضليم، السمانى، انديقون (انديجوفيرا أرجينيا، لينيه).

النيلة الصينى (بوليجونوم تنكتوريوس، لينيه).

تذر بذور النيلة عادة على ضفاف النيل، وتزرع بوجه خاص فى الوجه القبلى والفيوم، ويظهر أن القوة الملونة فى النيلة المصرية مثلها فى النيلة الأوربية وإن كانت المادة المجهزة فى معامل النيلة المصرية أقل نقاوة وصفاء منها فى تلك.

والفضل فى إدخال زراعة النيلة الصينية إلى القطر المصرى راجع إلى

العلامة الأستاذ (دوليل) من مدينة (مونبلييه) بفرنسا. ويأمل الموسيو فيجاري الموكل بزراعتها أن يتمكن بما أخذه من بذورها في العام الماضي من توسيع نطاقها ، وأن يباشر أعمال استخراج المادة الملونة منها بعد ذلك. طرنشولى، الغبيرة، الغبيراء (كروتون تنكتوريوم). ينمو هذا النبات وحده في الغيطان.

٣٨ - النباتات الزيتية

تكلّمنا فيما سبق على بعض النباتات التى يستخرج الزيت من بذورها ونقل الآن إن الزيت يستخرج أيضا من بذور الكتان ويسمى بالزيت الحار (الزتحار) وبذور القطن والغبيرة والتيل ويسمى زيت التيل، والفل السودانى ويسمى زيت فول سنار، وبذور الشلجم زيت الشلجم، وبذور أبى النوم ويسمى بزيت أبى النوم، وبذور الخروع ويسمى بزيت الخروع، وبذور السمسم ويسمى بزيت السيرج (الشيرج).

٣٩ - النباتات الكلاية.

٤٠ - نباتات نافعة مختلفة.

٤١ - نباتات الزخرفة والزينة.

٤٢ - مراعى الصحارى والواحات.

٤٣ - النباتات الطبية الأهلية والأجنبية.

(٣)

حيوانات مصر

٤٤ - عموميات

لما كانت أرض مصر متكونة مما حملة النيل ولايزال يحمله من الطمي فأول ما يتجه الظن إليه أنها كانت قبل هذا التكوين عبارة عن خليج للبحر الأبيض المتوسط يوازى البحر الأحمر من اتجاهه ويشبهه فى امتداده وأن حيواناتها لهذا السبب لم تكن أصلية - أى خاصة بها - وأن ما فيها من الكائنات

الناشر: حذفنا أسماء بعض النباتات من الكتاب نظرا لأنها لم تعد تزرع في مصر وليست معروفة لنا الآن.

الحيوانية إنما انتقلت إليها بالمهاجرة المتتالية من الأصقاع الأخرى، وأن هذه المهاجرة كان يتسع نطاقها بتغلب الأرض على الماء على أثر رسوب الطمي بعضه فوق بعض.

وفى المأثور من روايات الأقدمين ما يكفى لتأييد هذه النظرية التى يعززها من جهة أخرى المقارنة بين الحيوانات التى حنطت بمصر فى الأزمان السابقة ولا تزال محفوظة فى المقابر فى عدد يتجاوز الألوف والحيوانات الموجودة الآن فى هذا القطر. أما تعيين الجهات التى بدأت المهاجرات منها فلا يزال من المسائل العسيرة الحل، وإنما يؤخذ من توافر الشبه بين أغلب حيوانات مصر قديما وحديثا والحيوانات الخاصة ببلاد البربر أن نقطة تلك البداية هى هذا القسم من بلاد إفريقية الشمالية.

وهذا القول ينطبق بنوع خاص على الحيوانات الثديية والشرط الأكبر من الأفاعى.

أما الطيور فقد اتفق علماء الحيوان على التسليم بأن مصر كانت فى كل زمان طريق صلة وانتقال لتلك الحيوانات التى اعتادت أن تهجر بلادها إلى البلاد البعيدة مرتين فى كل عام ذهابا وإيابا. وهذا هو السبب الذى جعلنا نجد فى مصر أنواع الطيور الأوربية وجملة طيبة من أنواع الطيور الخاصة بأسيا ماعدا طيور قليلة العدد يدخل عدم وجودها فى باب المستثنيات المثبتة للقاعدة. أما الطيور الأخرى التى لاشك فى أنها من الطيور المقيمة لا الرحالة فإنها تعيش وتموت فى هذا القطر بدون أن تتخطى الحدود التى تعيش فى نطاقها.

ولست أقصد من أيراد أسماء الحيوانات التى اتخذت مصر مقاما لها أو ممرا تسلك منه إلى الأقطار النائية الإبغال بعيدا فى دائرة علم الحيوان فإننى إنما أقصد تعريف القارئ على وجه سطحى بخصائص كل نوع إذا عن لنا فيها ما يفيد الوقوف عليه منها، وتصحيح الخطأ فى بعض الآراء الشائعة بشأنها.

وإنى وإن توخيت فى إيراد تلك الأسماء عدم إزعاج القارئ بجفوة الترتيب والتبويب ووحشية الألفاظ الفنية الاصطلاحية. لاسيما إذا كان من طبقة الظرفاء الذين لا أشك فى أنهم سيكونون صفوة المطلعين على هذا الكتاب فقد بدا لى

أن أجعل هذا العمل مرتباً بحسب الطرائق العلمية حتى لا يكون من جهة أخرى دون ما ينتظره منا رجال العلم.

الحيوانات الشديدة

الحيوانات الأهلية الداجنة: الحصان - الحمار - البغل - الحمل - الثور - الجاموس - الغنم - الماعز - الكلاب - السنانير.

الحيوانات المتوحشة: الذئب - الثعلب - ابن أوى - الضبع - الخنزير البرى - فرس البحر - الدركاس - الدامان - القرد - القنفذ - النمر - قط النهر - الفأر - الأرنب.

الحيوانات الأهلية الداجنة

٤٥ - الحصان

للخيل فى مصر أنواع عديدة منها النوع العربى الأصيل الوارد من بلاد العرب ، والنوع الشامى الذى تستخدمه قبائل الكرد وعنيزة، والنوع الوارد من داخل آسيا وأوروبا ، والنوع المجلوب من دنقلة. وقد اختلطت هذه الانواع ببعضها فكان نسلها خليطاً مختلفاً، على أنهم يتخذون للطلوقة غير الجياد العربية الكريمة الأصل، فإن هذه الجياد إذا نزت على أفراس قوية انجبت نوعاً من الجياد كبيراً قوياً تام استدارة الأعضاء ، وهو الذى يتألف منه النوع المصرى الحقيقى.

فالحصان المصرى أطول قامة من الجواد العربى ورأسه أحسن وضعاً من رأسه ورقبته أجمل منقاراً وأدق الاستدارة وعيناه يطير منهما شرر النشاط والحماس ومنخراه أعرض وأوسع من منخريه = أى الحصان العربى = وسوقه أدق وأصلب وأكثر أعصاباً من سوقه، ومشيته أدل على النبيل والعزة والجلال، والجواد العربى الأصيل يرى على الدوام صغير الجسم نحيله مجرداً من الهيئات المحبوبة فى النظر بسبب ما يتكبده فى معيشته من العمل الكثير والمشقة البالغة والجرمان المتلف وما يلقاه من الهوان فى أيدي أناس هم أقرب إلى الهمجية منهم إلى الحضارة وأبعد عن أن يعنوا بما يملكون من الحيوانات. ومع هذه العوارض فإنه لا يزال من الإقدام والشدة بحيث يرى صاحبه فيه عند الحاجة أنه خير دخر وأثمن كنزله.

والمفهوم أنه لا يوجد بمصر خيل طويلة القامة، ولهذا السبب لا يستطيعون تحميل خيولها بالفرسان الثقيلة.

وأمم الشرق تستخدم الخيل بدون أن ينشأ عن استخدامهم إياها ضرر ما. لأن طاعة هذا الحيوان عندهم ليست بأقل من طاعته عندنا . بل هم لا يعذبونه بما نعذبه نحن به من بتر ذيله مثلاً وهو الأمر الذى يحط من قيمته ويثير أعصابه فهو عند الشرقيين الذين يجهلون هذه العادات وأمثالها لا يثور ولا يجمع بل يتقاد لمطالب صاحبه بإقبال عجيب مهما بلغ من حدته الطبيعية وميله إلى الحرن والعبوس.

٤٦ . الحمار

يخطئ من يخلط بين الحمار المصرى والحمار الأوروبى . فإن الحمار فى بلادنا ليس إلا حيواناً ضعيفاً ضئيلاً مرزولاً سيئاً الغذاء محروماً من العناية يعامل بالقسوة من غير رحمة. أما فى مصر فإنه حيوان كبير حسن الخلقة خفيف المشية يجمع فى حركاته اللطف والحدة معا . وهذا هو السبب الذى جعل أثمان الحمير المصرية غالية لاسيما إذا جمعت إلى ما وصفته فيه من حسن الشكل والنشاط والقوة. وتستخدم الحمير بطريق التفضيل على غيرها فى الأسفار البعيدة بأطراف الصحراء مع الجمال محملة بالأمثلة الثقيلة والبضائع الكثيرة.

وأجمل الحمير وأعلاها قيمة الوارد منها من الجهات الجافة والأصقاع الحارة كالصعيد. أما التى تستنسل فى الوجه البحرى فأحط مرتبة من هذه فى جميع الوجوه.

٤٧ . البغل

بدهى أن تنتج مصر أصناف البغال كما تنتج أجمل أصناف الخيل والحمير. والبغال فيها مطلوبة جداً. إذ منها ما يعدل ثمنه ثمن كرائم الخيل. وأصحابها يمتطونها لقطع المسافات البعيدة ويتخذون لها من السرج والعدد ما يتخذ للحمير عادة على وجه التقريب. أما البغلة فأسلس قيذاً من البغل وأقوى على احتمال التعب، ولذا تفضل عليه ، وسيرها العادى الخيب، وهم يعوبونها هذا

السير بطريقة ميكانيكية وهى أن يجمع اليد الأمامية والرجل المقابلة لها من خلف بواسطة حبل بحيث أن حركة اليد الأولى منهما تستدعى حتما حركة الرجل الخلفية.

٤٨- الجمال

إذا أريد إطلاق لفظ «الجمال» على ذلك النوع من الجمال التى يتقوس ظهرها بحيث يكون سنامين فلنبادر إلى القول هنا بأن هذا النوع من الجمال غير موجود بمصر مطلقا. وإنما الموجود نوعان مختلفان يسمى أحدهما الجمال وهو عظيم الارتفاع عجيب القوة ثقيل المشية، ويخصص لحمل الأثقال والثانى يسميه العرب بالهجين وهو أصغر حجما من الأول وأنشط حركة وأسرع سيرا. وبالرغم مما كانت الجمال تقوم به من جلائل الأعمال فى الأزمان الماضية فقد كان المصريون ينظرون إليها بعين الاحتقار والتصغير. فساروا فى ذلك على عكس العرب الذين يحبونها حبا جما ويجلونها ويقدرونها. على أن الجمال بصرف النظر عن نقل الأثقال وقطع أجواز الفلوات تفيد صاحبها من جهة أخرى فوائد جليلة. فإن وبرها من أهم ما يتجر به من أصناف البضاعة ومنه يتخذ العرب بيوتهم وينسجون ثيابهم وسجاجيدهم. وهى إذا خلط بعرها بالقش المقطوع ثم جفف فى الشمس كان منه وقود فى غاية من الصلاحية والفائدة. ولبن النياق من الألبان التى يقدرها الأعراب قدرها لما يستفيدون به من منفعة.

٤٩- البقر

البقر الداخن فى مصر لا يختلف فى شىء عن البقر الأوروبى، وهو يستخدم فى أعمال الزراعة وفى كثير من المصالح المختلفة. أما ما ذكره بعض المؤلفين الذين كتبوا عن مصر من جمال هذا الحيوان وجودة لحمه فلا يسبب = يصيب = شاكلة الصواب كله. ومن المحتمل أنه كان فى الأزمان القديمة ممتازا بكبر حجمه وجمال شعره ونمو قرنيه فإذا صح ذلك - وهناك ما يدعو إلى ترجيح صحته بالنظر لما كان له عند الأقدمين من الاحترام والتقدير - وفى هذه الحالة يسلم بأنه قد طرأ على نوعه بعض الفساد فصار إلى ما صار إليه. فإن البقر المصرى على ما هو مشهور الآن قد صغر جسمه إلى أن بلغ حد الوسط فى أجسام الثيران. كما صغر أيضا قرنائه بوجه عام. وليس فى لون شعره الذى

يشبه لون شعر بعض الضواري ما يلفت النظر بوجه ما. كما أن جودة لحمه أبعد من أن تستحق الشهرة التي سمعناها عنها، فإن ألد لحوم الأبقار طعما وأقومها لصحة الأكل لحوم الثيران الموجودة في الأصقاع الشمالية من الكرة الأرضية لا في البلاد الحارة منها.

وفي مصر نوع من البقر يسمى ببقر الوحشى (الخيى) وهو يقرب كثيرا من حمار الوحش على ما ذكره أحد كبار المؤلفين - إذا لم يكن هو حمار الوحش نفسه - ويقوم الغرب أحيانا بتربية أبقار صغيرة من هذا النوع فى الخلوات لأنهم يكونون قد أصابوها فى أثناء مطاردتهم لما هو أكبر سنا، والجلود المتخذة منها جيدة مرغوب فيها.

٥٠- الجاموس

الظاهر أن الجاموس ليس بمصرى الأصل، إذ لم تشاهد صورة له على الآثار القديمة. كما أنه لم توجد له جثة محنطة ضمن المومياوات. ويذهب البعض إلى أن العرب هم الذين جلبوه إلى مصر بعد الفتح الإسلامى. وإقليم هذا القطر أرضه يناسبه تمام المناسبة، فإنه قد تناسل فيها بسهولة تامة ونما جسمه وتحسن شكله وارتفعت قامته، ووبر الجاموس المصرى قليل ولون جلده رمادى يشبه لون الحديد، ويميل كثيرا إلى السباحة فى الماء ميلا يتبادر معه إلى ذهن من لم يألّفه أنه من الحيوانات البرية المائية، ولم يكن منظره مخيفا ولا مزعجا بل هو فى الحقيقة هادىء الطبع سلبى القيادة وليس فيه ما فى الجاموس الأوروبى - وعلى الخصوص جاموس رومانيا من سرعة الخوف المقرون بحب الاقتراس - وتعطى الجاموسة فى اليوم الواحد من أربعة عشر إلى ستة عشر رطلا من اللبن الجيد، ولم ينتفع المصريون حتى الآن بما فى الجاموس من القوة العجيبة باستخدامهم إياه فى أعمالهم البيئية. أما لحمه فجيد جدا ولاتأكله إلا الطبقات الواطئة من الشعب.

٥١- الضأن

الضأن جزء من الثروة فى مصر، وهو فيها كثير العدد مصون الأصل، وذكر الضأن لا تخصى كما هو الحاصل عندنا، وصوفها من النوع الجيد الناعم. أما النعاج فأحسن من النعاج الأوربية من جهة أنها تلد أكثر منها، إذ

تحمل فى كل سنة مرتين فى كل حمل رأسان دفعة واحدة، وأصل هذا النوع من بلاد البربر.

وفى مصر أنواع اخرى من الضأن جلبت إليها من سنار وكردفان واليمن وهى تلك الخراف الكثيرة شحم الذنب المرتفعة القامة الرديئة نوع الصوف، ولكنها مع ذلك كثيرة اللحم جيدة الشحم. ومنها أيضا تلك الخراف القصيرة الوبر فى صلابة وبر الغزلان والأياثل، وفى بعض أجزاء جسمها نمو شحمى يمكن الاستفادة به من وجوه كثيرة.

٥٢. الماعز

أصل الماعز المنتشر فى مصر السفلى من بلاد الشام، ويتميز بتقوس ذيله وصغر قرونيه وطول أذانه فى هبوط وتدل وصهوبة لون شعره بوجه عام، ولبنه جيد غزير شائع الاستعمال وتتألف منه بداخل المدن قطعان صغيرة يقودها الرعاة فى الطرقات والأزقة، فإذا أراد أحدهم شراء شىء من لبنه حلب أمامه على منظر منه وهى كالنعاى شديدة القابلية للضراب والحمل. لأنها تعطى فى السنة حملين فى كل حمل رأسان غالبا وثلاثة رؤوس أحيانا وأربعة فى الأحوال الاستثنائية.

أما ماعز الصعيد فمن نوع آخر غير المتقدم. لأنه أصغر قامة وأطول قرونا وأكثر نشاطا وأسرع حركة وأطول وبراً وأنعمه وأغزره، وهو إذا اعتبرنا هذه الخصائص أقرب شبهاً بماعز ولاية أنقره.

ويستورد من سنار نوع من الماعز قصير القامة جدا وقصير الشعر يخترق ظهره كله خط أسود بينما لون بقية الشعر فى الجسم كله إما رمادى وإما مائل إلى الشقرة.

٥٣. الكلب

لا أدري أيستحق الكلب المصرى أن يدرج فى عداد الحيوانات النافعة أم لا، فإنه بطباعه وعاداته يكون تارة أليفاً أنيساً وطورا وحشيا نفورا، وذلك تبعا لوجوده بلا صاحب فى المدن أو الخلوات، حيث يأنس على حدود الصحراء بالثعالب وبنات آوى. على أنه فى الحالتين المتقدمتين يعرف بمميزات واضحة فى شعره فإنه فى حالة حيرته التامة يكون طويل الشعر فى لون يقرب من لون

شعر الحيوانات الضارية، ويعتمد في غذائه على ما يتركه الضبع وابن آوى من فضلة فريستهما . فإذا عز عليه الغذاء هجم على أخيه واقتصره ليشبع نهمته.

أما في المدن حيث يرى كثير الانتشار فإنه يأوى إلى بعض الأحياء طوائف مختلفة ويستقر فيها ويتخذها موطناً له. فإذا طراً عليها كلب من طائفة أخرى اجتمعت عليه كلابها وهاجمته ودفعته. فإذا لم ينج بنفسه نهشته نهشاً. وتلك هي معاملة هذه الكلاب للكلاب الأوربية الأصل إذا التقت بها في الطرقات. ومع أن الكلاب مدنسة في نظر المسلمين فإنها تجد منهم في مصر عناية خاصة. إذ يخصها الأكلون بفضلات طعامهم كما هو المشاهد منهم في جهات عديدة من تركية أوربا ، ومما يحق لنا ملاحظته وتوجيه النظر إليه بهذه المناسبة أن داء الكلب في هذه البلاد غير معروف من أهلها كما هو معروف من غير المصريين بالديار المصرية لما تجده الكلاب من الشفقة عليها والعناية بأمرها.

وخلاصة القول أن الكلاب المصرية من نوع خاص تناسل على توالى الأجيال بدون أن يختلط بأى نوع آخر من الكلاب. فليس من المستغرب إذا رأينا التشابه متوافراً بين صفاتها ومميزاتها وصفاتها ومميزاتها في المومياوات التي يعثر عليها بالمقابر الصغيرة والمقابر الكبيرة.

٥٤. القط أو السنور

فاز القط بمصر في كل زمان بامتيازات تكاد لا تقف عند حد كما يشتهه تكريم الأقدمين له، وما هو فيه الآن من الحظوة والقربى. وكان المتشرعون في الأزمان الحالية يفرضون على العامة ذلك التكريم لاعتبارات سياسية كما أن وارثى ملك الفراعنة من المسلمين لم ينحرفوا عن هذه الجادة لبعض الاعتبارات والتقاليد الدينية. فقد روى أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يحب القطط بدليل أن قطاً نام يوماً على كم ثوبه ففضل أن يقطعه كيلاً يزعجه من نومه، ولعل هذا هو السبب في محبة المسلمين للقطط اعتقاداً منهم أنها من نسل القط الذي لقي ذلك الرفق والإكرام.

والقط في مصر أن يدخل في كل مكان. فهو يغشى الحرم كما يغشى المسجد وينساب في بيت الفلاح كما يهبط بيت الشيخ. وله موضعه من مجلس القاضي كما له مثله من مجلس الأغا. وكان موت القط أيام الفراعنة يستدعى حزن أصحابه وحدادهم عليه. وكانوا يعبرون عن أسفهم عليه بمظاهر خاصة

منها قيامهم بتحنيط جثته وتشيعهم جنازته بالإكبار والاحلال فى أسمى مجالى الاحتفال، أما الآن فقد اقتصروا على احاطته بعناية يمازجها الرفق فى أثناء مدة حياته، وبالملاطفة والتعهد أثناء مرضه حيث يعالج فى مستشفيات خاصة أو ما يشابهها من المنشآت التى أقيمت بالأموال المرصودة على البر والإحسان. يؤخذ مما تقدم أن القط عومل فى مصر بالإكرام والاحترام . بينما الكثير من الحيوانات الأخرى لاحظ لها من البقاء فى هذه الدنيا إلا الجوع والألم والموت فى آخر الأمر بشر ما تلاقيه الأرواح من صنوف الفناء والتلاشى من عالم الوجود.

٥٥- الذئب

زعم بعض علماء التاريخ الطبيعى أن الذئب لا أثر له بمصر - وهو زعم فاسد - إذ فى جملة جهات منها نوع من الذئاب يختلف عن النوع الأوروبى بقصر شعره. على أن الذئب المصرى أقل انتشارا من الثعلب والضبع، ولعله من النوع المعروف فى لغة العلماء باسم «كانيس انتوس» أو النوع المعروف عندهم باسم «كانيس فنس» كما ذكره (بروس).

٥٦- الثعلب

الثعلب المصرى أصغر حجما من الثعلب الأوروبى وأذناه سوداوان وأرجله كأرجل الحيوانات الضارية ولون بطنه أسمر يزداد ميلا إلى السواد كلما تقدم فى العمر. وهو يوغل فى الخلوات يبغي القنيسة، ويدنو من المساكن ليفاجئ فيها الدجاج والحيوانات الداجنة فيفترسها.

٥٧- ابن أوى

تعيش بنات أوى أسرابا عديدة بأطراف الصحراء وتأوى إلى الخرائب والأطلال وتتغذى بجيف الحيوانات وهريرها أثناء الليل محزن مستطيل .

٥٨- الضبع

هذا النوع من الحيوانات المفترسة شائع فى مصر شيوخه فى الشام والسواحل الشمالية لإفريقية ، وطباعه وعاداته معروفة فلا حاجة إذن إلى

الإفاضة فيها. ويمكن استئناسه إذا أخذ صغيرا وعود الإقلال من أكل اللحم.

٥٩- الخنزير البرى

يظهر أن هذا الحيوان نوع مستقل بذاته، وهو بالنظر لدنسه أصبح فى منجاة من مطاردة الصيادين له، وهذا هو صاحب انتشاره فى جهات الوجه القبلى حيث يكثر فساد، إذ من عادته الانسياب فى الغيطان المزروعة ذرة ويشاهد فى الغالب أسرابا كل سرب منها مؤلف من خمسين إلى ستين. وأكثر وجوده على سواحل البحيرات والبحر.

٦٠- فرس البحر

هذا الحيوان الهائل الجسم الذى يعتقد الناس وجوده فى كل مكان من مصر يخترقه النيل لايشاهد فيها إلا عرضا. والحقيقة أن موطنه ومستقره بلاد النوبة العليا. على أن هناك روايات تؤيد مشاهدة بعض الناس له حتى بالجهات القريبة من دمياط فقد ذكر (بروسبر البان) أنه صاد مرة فرسا منها فى هذه الجهة وأنه شوهه بالقرب منها فى سنة ١٨٣٦ وأنه أصاب المزروعات بتلف بالغ، وظل نحو العشرين يوما يفتك بها حتى اختفى فلم يعد يراه أحد. وقد زعموا أن فرس البحر كان فى زمن مضى منتشرا بالقطر المصرى وهو زعم لم يقم عليه دليل ولذا لاينبغى التعويل عليه.

٦١- الغزال

يكثر هذا الحيوان الجميل الظريف على حدود الصحارى المتصلة بمصر ويمكن التذكير بما تفنن فيه شعراء العرب من ضروب الإطراء فى محاسنه من دقة أعطاف ورقة حركات وسواد عينين.. إلخ.

وهو يتغذى بالأعشاب الصغيرة التى تنبتها الصحراء، وقد يطرق فى الليل أحيانا الأراضى المزروعة ليأكل من نباتها ويرتوى بعذب مائها. وقد برع عرب البدو فى مطاردته على أفراسهم الخفيفة. فيتمكنون بهذه المطاردة أحيانا من إعيائه وأخذ الأطراف عليه وقنصه فى نهاية الأمر. ولهم فى اصطياده وسائل مختلفة فهم يصيدونه إما بالبندقية وإما بالصقر أو الكلب. وتتخذ صغار الغزلان حية فلا تلبث أن تأنس بالإنسان وتآلفه بالرغم من نفورها الشديد فى حالة التوحش. وفى دارى بالقاهرة جملة منها تأنس بى وأنس بها وتتناسل فى كل

عام. أما الدركاس وهو فى مصر اسم لبقر الوحش فأعلق ببلاد النوبة منه بالقطر المصرى، ومن الحيوانات الداخلة فى فصيلة الغنم نوع من الخراف يبدو من ارتفاع جسمه أن أصله من النوع المعروف بالخراف الأفريقى.

وتتمة لهذا البيان الذى قصرناه على ذكر الحيوانات الثديية أذكر حيوانا نادرا جدا من الحيوانات المجترة هو بحجم الجدى وقد وجدته فى الصحراء المجاورة للضفة الشرقية من النيل تجاه أسيوط ولم أجد لنوعه ذكرا فى الكتب المصنفة.

٦٢. الدمان

هو المعروف عند اليهود باسم الشازان، والمشهور عند العامة بخروف إسرائيل أو دمان إسرائيل، وأول عالم أورد ذكره هو العلامة (بروس) وقد عرفنا به إذ قال إنه قصير القامة أصهب لون الشعر فى سمرة خفيفة والحيوانات المفترسة تتخذ فى الغالب منه غذاء ها.

٦٣. القرد

ليست القرد التى فى مصر - ويتنقل أصحابها بها من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى أخرى - مصرية الأصل بل مجلوبة من سنار وبلاد العرب. فمن الخطأ المحض ما زعمه بعض المؤرخين من أنها مصرية، وأنها وجدت بمصر منذ العصور الخالية استنادا على ما استكشف فى المقابر الاثرية من القرد الكثيرة المحنطة، والحقيقة أن القرد التى يطاف بها من الأنواع المعروفة بأسماء الميمون والتتارى والماجو.

٦٤. القنفذ

يختلف نوع القنفذ الموجود بمصر عن النوع الشائع بأوروبا فى لون جلده ولكن يماثله فيما عدا هذا عادات وطباعا، إلخ.

٦٥. الدروال

هذا الحيوان لم يشاهد نوعه إلا فى القطر المصرى. وهو فيها يغشى الدور فيقتل الطيور ويفتك بها أذرع فتك، وفيه شراية غريبة إلى البيض.

٦٦- النمى

الاسم الخاص بالنمى هو (اشنومون) وفأر فرعون. وهو منتشر فى أرجاء القطر المصرى كافة وفى الاستطاعة استئناسه لأنه لطيف بطبيعته. فإذا استؤنس أفاد صاحبه بإيادته الفيران الكبيرة والصغيرة لما فى فطرته من الشره الشديد إلى التغذى بلحمها. ولكنه يضر من جهة أخرى ضررا بالغا لضرارته بالحيوانات الداجنة التى تسوقه غريزته إلى الفتك بها.

والنوادير الماثورة عن النمى كثيرة. حقا أنه يبيد التماسيح وهى فى بيضها بل ويفتش فى الرمل عن هذا البيض وينهش صغار هذا الحيوان متى نفقت عن بيضها، ولكن مالا يستطيع التسليم بصحته لظهور أثر المبالغة عليه أنه يفتنم فرصة انفتاح فكى الورنة الكبيرة فينفذ من بينهما إلى معدتها ويمزقها تمزيقا ويسبب بهذا الفعل موتها.

وفى القوانين المصرية القديمة نصوص صريحة تقضى بحماية النمى وتوصى به، وهذا ما جعل الأهلى فى ذلك العهد البعيد يوافونه بحاجته من الغذاء ويكرمونه ويحتفلون به إذا مات.

٦٧- القط النمى

فى مصر نوعان من القط النمى. أحدهما يجاور المستنقعات ليتغذى بما يصيده من الطيور التى تألفها. وحجمه يعدل ثلاثة أضعاف حجم القط، ويسميه علماء التاريخ الطبيعى «فليس شوس» والثانى نادر الوجود جدا يسمونه «فليس لنكس».

٦٨- اليربوع أو الدرص أو ذو الرضيع

فى مصر نوعان يختلفان اختلافا بينا فى حجم الجسم واكتساء الأرجل بالشعر أو تجردها منه. وفى الحالة الأولى يكون اليربوع من النوع الصغير المعروف عند علماء الحيوان باسم «دييوس هرتيوس» وفى الحالة الثانية يسمونه «دييوس ساجيتا» والنوعان يتفقان فى أن الرجلين فيهما أطول من اليدين وأدق منهما ولهذا تراهما يثبان بسهولة وثبا يقطعان مسافة بعيدة بعدا مناسبا وليس بين الحيوانات القارضة حيوان أكبر أسنانا من اليربوع، ولا أعظم قدرة منه على القرص حتى أنك إذا وضعت يربوعا فى قفص من الخشب الصلب وأخذت

الحيطة حتى لا يقلت منه فانه لا يلبث أن يقرض خشب القفص ويفر منه مستردا حريره. أما إذا كان القفص حديداً فإنه لا يستطيع إتلافه كما يتلف القفص الخشبي.

وقد خلط بعضهم فأطلق اسم اليربوع على حيوان قراض = قارض = بحجم الفئران الكبيرة فى أوربا هو الكثير الانتشار فى جهة الأهرام. ويقال أن فى النوبة نوعا من هذا الحيوان ولكنه أقل حجما منه بمقدار النصف.

٦٩. الفأر والسيسى

هذان الاسمان يشملان أنواع الفيران التى يكثر فى مصر وجودها. ولكن من بين هذه الأنواع نوعين جديرين بالبحث وهما فأر الإسكندرية الذى توطن سواحل أوربا الجنوبية وتبلد فيها وهو نفس الذى يسميه الإيطاليون بفأر السطوح، ثم فأر الشوكى وهو الذى وبر ظهره خشن الملمس وخاز ليد اللامس.

٧٠. الأرنب

يختلف الأرنب المصرى عن الأرنب العام المعتاد بلون شعره وطول أذنيه ورجليه الخلفيتين، وهو فى نظر المسلمين غير طاهر ولهذا يمسون عن أكله ولا يطاردونه لصيده كما يطارد النوع المعتاد فى فرنسا وفى جميع الأصقاع التى ينتشر بالتناسل فيها.

الطيور

الطيور الداجنة

الدجاج - الدجاج الهندي - الحمام - الأوز.

٧١. الدجاج

لا يختلف دجاج مصر عن دجاج أوروبا إلا بحجم الجسم. فإن حجمه لا يتجاوز حجم هذه كبرا. ومما يستدعى البحث فى طباعها والبحث عن غرائزها بنوع خاص أنها لا تميل إلى احتضان بيضها. حتى لقد لجأوا فى مصر إلى التفريخ الصناعى وهو فيها شائع = شائع = بحيث يمكن التوكيد بأنه لم يكن فى بلد ما أعم انتشارا منه فى القطر المصرى، لاسيما وأن الوسائل المتخذة للتفريخ لا تقتضى إيقافه زمنا بحكم الفصول كما هو المشاهد فى البلاد الأوربية. وأبسط تجربة يمكن القيام بها لبيان الشذوذ الذى ذكرته الآن فى أمر الدجاج المصرى والدجاج الأوروبى هو أن ينقل إلى مصر بعض الدجاج عرف عنه فى أوروبا الميل إلى احتضان بيضه وأن ينقل إلى فرنسا فى الآن نفسه بعض الدجاج المصرى فإذا أدى هذا النقل إلى فقدان الأولى خصية الإحتضان وإكتساب الثانية لها فلا يكون السبب لذلك سوى تأثير الطقس، وفى هذا الحادث الغريب ما يستدعى الاهتمام بدرس أسبابه.

ويوجد بالفيوم وندرة نوع من الدجاج أكبر حجما من الدجاج المعتاد وأطول أرجلا منه.

٧٢. الدجاج الهندي

جلب الدجاج الهندي إلى مصر منذ سنوات قلائل وتربيته فيها سهلة وانتشاره مطرد سريع.

٧٣. الحمام

يربى الحمام الداجن الشبيه بحمام أوروبا فى مصر بعناية ونجاح، وله أنواع عديدة كما للحمام الصغير البرى المرغوب فيه كثيرا للذة طعمه. وهو يفضل على النوع الأول من حيث إنه غير مستأنس يتحرى غذاءه فى الجهات البعيدة فلا يكلف صاحبه فتىلا ولا نقيرا. وفى مصر قرى يكاد لا يوجد لأهلها شاغل سوى تربية هذا الصنف من الحمام.

٧٤. الأوز

النوع الأصلي من الأوز هو الرمادى لون الريش. وقد أدخل الأوز الأوروبى إلى مصر حديثا. أما البط الأهلى فقليل الانتشار بخلاف البط البرى الذى يشبه لون ريشه لون الصلب، وهو يربى مع بقية الحيوانات الداجنة فى المنازل.

الطيور الجارحة

الحدأة - الصقر أو البازى - العقاب - العقاب الصياد - النسر - نوعان من الحدأة - الباشق - الصقر الشاهينى.

٧٥. الحدأة الرخمية

الحدأة من نوعى «أريان» و«جريفون» والحدأة الرخمية المعروفة بدنجاة أو فرخة فرعون من الجوارح الشائعة فى مصر، وهى لا تستقر فى مكان واحد بل تهاجر فى أوقات دورية إلى القارة الأوربية وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط.

٧٦. الصقر أو البازى

فى مصر سبعة أنواع من البزاة والشواهين وهى كلها صقور: الصقر الحاج - الصقر الرمادى - الصقر الصغير - اليؤيؤ - الصقر الأرقط - الصقير الأرقط - الكوبز، وجميعها من الطيور الشاردة الرحالة^(١).

٧٧. العقاب

أنواع العقاب أربعة وهى: العقاب العادى الرحال - العقاب الملوكى الشارد - العقاب الصارخ الرحال - عقاب طيبة المقيم. ويوجد من هذا الأخير فى الشام بل وعلى سواحل بلاد البربر.

٧٨. العقاب الصياد

أنواع هذا العقاب وهى العقاب الصياد ذو الذنب الأبيض والعقاب الصياد المعروف باسم حنا الأبيض والعقاب الصياد القصير المنقار لم تكن نادرة الوجود فى القطر المصرى لأنها تجد غذاءها وافرا فيه على ضفاف نهر النيل وسواحل البحر وشطوط البحيرات.

(١) جاء فى حياة الحيوان تقسيم الصقور إلى خمسة أصناف: البازى والباشق والبيدق والزرق. وفرغ البازى يسمى الغطريف.

٧٩-النسر

وعادة الانتقال غريزة فى النسر والباشق فإنهما يظهران بالقطر المصرى فى مواعيد دورية مختلفة من السنة.

٨٠-نوعان من الحدأة

وما سبق من الكلام على النسر ينطبق على الحدأة الملوكية والحدأة السوداء.

٨١-الحدأة المعروفة باسم الأنيون

إن هذا النوع من الحدأة طير فريد فى نوعه، وهو يعيش مقيما فى القطر وربما كان ينبغى حسبانته ضمن الطيور الشاردة.

٨٢-الباشق

يعرف الباشق العادى فى القطر المصرى بأنه من الطيور الرحالة فليس بمستغرب أن يستكشف علماء التاريخ الطبيعى بعض أصناف له بالنظر لاختلاف ريش هذا الطير الجارح.

٨٣-الصقر الشاهينى

البومة الكبيرة (غرنوق) - البومة المتوسطة (الدوق المتوسط) البومة القصيرة الشوشة - هامة سافنى - المصاصة الصغيرة - المصاصة سكويس.

هذه الطيور الليلية الضعيفة الأجنحة الرخوة الريش فى قلة اتصال وتلاحم لا تستطيع الطيران لقطع المسافات الطويلة، وهو ما يؤخذ منه انها تقيم فى هذا القطر ولا تنتقل منه بالرحلة إلى قطر آخر. ولكن ظهور النوع المعروف منها باسم «ستركس اسكولافوس» فى انجلترا وبعض جهات أوربا مع أن مأواه الخاص القارة الأفريقية يناقض ذلك رأى المبنى على الملاحظات الفسيولوجية.

٨٤-الخفاش والوطواط

تأوى أصناف لا حصر لعددها من الخفاش والوطواط داخل الأهرام والمقابر الفرعونية القديمة والمغاور والهيكل القديمة والأشجار الجوفاء، والصنف المعروف منها باسم الخفاش الأصهب أكبر الأصناف الأخرى حجما.

وقد قسم علماء التاريخ الطبيعى أصنافه أقساما تختلف عن بعضها بعلامات ومميزات خاصة، وتلك الأصناف هى: «دينويوم» و«ريمولوف» أى الذى

كحدوة الحصان و«نيكتير» و«زافيان» و«مولوس» و«نيكلونوم» و«روسيت» أى الأصهب.

٨٦ - عصافير الشوك

إن معظم أنواع العصافير الصغيرة التى ينطلق عليها هذا الاسم، وهى خاصة بأوروبا، تظهر عادة بمصر فى الأوقات الدورية لهجرتها. فلسنا فى حاجة إذن لتعدادها وإنما اقتصر من باب الاستثناء على ذكر بعض أنواعها كالنوع المعروف بدقة متقاره مثل عصفور سيكسيكولا والعصفور الأصهب الصادح... إلخ.

وكلها دقيقة المنقار، وكذا العصفور ذو الطوق الأشقر اللون من نوع العصافير ذات المنقار المخروطى الشكل والقنابر المعروفة باسم «بيفاسيسى» و«ايزابلينى» و«الحسون» «الكوكو الأمريكى» الرمادى اللون و«الفينيجيل».

ثم العصفور الأسباني الذى يختلف اختلافا كبيرا عن العصفور الأوربى العادى، ويظهر أنه فى رحلاته وشروده لا يحيد عن طريق واحد و«الشوالة» العظيمة الانتشار فى شبه جزيرة إيطاليا، ثم العصافير المشقوقة المنقار كخطاف سافينى وقنبرة البرك التى تظهر عرضا فى إقليم بروفنس بفرنسا ثم العصفور الأسباني الذى يختلف اختلافا كبيرا.

أما الغربان فأنواع. منها الغراب النوحى والسقاو، وهذا الأخير هو الذى نراه يعلو المنازل فى القاهرة ويتنقل فيها انتقال السيد المالك ويوغل حتى يبلغ إلى مصر العليا وهو من نوع البضاء الألماني وهو مسرول بالريش الأخضر الضارب إلى الزرقة ويخيل للناظر أنه طير من طيور المنطقة المحصورة بين المدارين.

ومن أنواع الطير النوع الملتصق الأصابع وهو يجتمع أسرابا كثيرة العدد ويعتبر من الوجهة الحيوانية الخاصة بهذا النوع الصلة بين افريقية الغربية وأفريقية الشمالية المتصلة بالبحر الأبيض المتوسط، ثم الأنواع المعروفة بأسماء «ميروبس سافينى» و«ميروبس ايباستر» و«ميروبس فيريدس». وهذا الأخير هو الذى نراه يتقلب تقلبه الجميل فى الهواء فوق غيطان الذرة وبالقرب من أشجار السنط التى يأوى إلى أغصانها المتكاثفة، ثم النوع الرفيع المنقار الذى منه

الهدهد وهو لا يختلف فى شىء عن نظيره بأوريا .

٨٧ . الطيور المتسلقة

لا أذكر من هذه الطيور سوى الشرشق المعروف بالشقراق ومقطع الظهر وهو من القواطع التى تمر بمصر مرا ولا تقيم فيها . أما النوع المعروف باسم «كوكسينوس يزانوس» فهو والكوكو العادى من الطيور المقيمة بالقطر المصرى .

٨٨ . الطيور التى من نوع الدجاج

يشمل هذه الطيور اسم «جنجا» أو «الجونية» أو «الجونى» وهى كثيرة بالقطر المصرى وتعيش على حواف الصحراء وكثيرا ما تتقدم أسرابا عديدة نحو الحقول المزروعة ، وتقصد إلى ضفاف النهر لترتوى بمياهه وهى على أنواع منها:

الجونية القطاة .

الجونية لشتستين .

الجونية التى ذيلها كالمقراض .

وهى جميعا من الطيور المقيمة وتختلف عن بعضها قلة وكثرة . أما السمانى أو الهى أو السلوى فيكثر فى بعض الأوقات ، وهو يقطع فى رحلته المسافات الطويلة بحيث يرى فى الجهات المتعارضة من سطح الكرة الأرضية .

وهناك نوعان مختلفان كل الاختلاف من طير اليمام لا يمكن إغفالهما وغض النظر عنهما ، وهما من نوع اليمام أو الشفنين العام المألوف الذى يمر بالبلاد مرا ولا يقيم بها ولحمه لذىذ مطلوب ، ونوع اليمام المقيم ذى اللحم القليل غير المقبول فى الذوق . ويمام هذا النوع يشبه كثيرا يمام بلاد الغرب المطوق ، لولا أن الجزء الأسفل من بياضه كدر ناصع كيباض ذلك اليمام المغربى .

٨٩ . الطيور المعروفة بطول سوقها

إذا تصدينا لإيراد أصناف هذه الطيور الداخلة فى فصيلة أبى مغازل بما هو معروف عنها من التفاوت فى الحجم والاختلاف فى الشكل فإننا نرج بأنفسنا فى بيدا لا أطراف لها من الأسماء وهو ما يخرجنا حتما عن موضوعنا ويذهب بنا بعيدا عن أفقنا . لا سيما وإنها جميعها عين ما يشاهد من أنواعها فى الأقطار الأوربية مما يعرف عنه الميل دواما إلى الرحلة والانتقال من

مكان إلى مكان. ولكننا نذكر منها عصفور الزقزاق المعروف بسواد الرأس والزقزاق البلدى (المسلح) وجرأى الصحراء فانما.

ومما تسرنى الإشارة إليه الطير المعروف بأبى منجل أو أبى حنس، وهو نوع من اللقلق ومن أشهر الطيور الطويلة المنقار، وكان مقدسا عند قدماء المصريين ومحترما منهم، وقد وجدت جثته محنطة فى المقابر المصرية القديمة بعناية تامة واحتياط بالغ، وصورته ترى ضمن النقوش الهيروغليفية.

ولم يكن ذلك الطير منتشرا فى القطر المصرى الآن انتشاره فى الأزمان السابقة فإذا شوهد فإنما فى الجهات التى يصعد منها إلى الشلالات ويكون فى صغره مجرد الرقبة من الريش فإذا كبر كساها الريش الكثيف على طول امتدادها.

وسأتبع هذه القاعدة فى الكلام على الطيور ذوات الكف كالجبج وأنواع البط والأوز.

٩٠. الكلام على الحشرات

توجد الحشرات كلها على تعدد أشكالها فى مصر إلا القليل منها. فحشرة أبى دقيق أقل أصنافا فى هذا القطر من ذوات الأجنحة العمودية، والحشرات الليلية من هذه (عفريت الليل) أكثر انتشارا من الحشرات النهارية. وتعزى هذه الكثرة إلى الشمس وتأثير أشعتها الشديدة الحرارة فى قطر لا يتسع فيه الظل ولا يمتد إلى مسافات بعيدة، ثم إلى النباتات المتسلقة التى تأوى ما لا حصر لعدده من الكائنات العضوية الصغيرة الحجم، ويحتوى النيل بعض الحيوانات المفصلية من الطائفة القشرية وبعضها آخر من الطائفة العلقية. أما الحشرات من طائفة أبى ريالة فتخرق دائما مياه النهر وتلعب على ضفتيه. بل كثيرا ما ترتفع الألوف المؤلفة منها فى الفضاء وترحل مهاجرة إلى الأصقاع النائية كالطيور المختلفة وأبى دقيق.

أما الجراد وهو الحرجول أو الحرجل الذى كان فى العهد القديم من البلايا والآفات التى منيت مصر بها فلا يزال يرى فى أريافها أكثر عددا منه فى جميع البلدان. بينما ترى الطيور الآكلة للجراد تعيش فى البلاد كطيور مقيمة لارحالة ولا مهاجرة.

وما الحشرات العنكبوتية من جميع الأشكال والألوان التى إذا لسعت كانت لسعاتها عظيمة الخطر شديدة الضرر تأوى إلى الرمال والخرائب وتندس فى كل شىء حتى فى حصيرة السمر التى تفرش بها الحجرات، وهناك دودة صغيرة من نوع النمل المعروف باسم أبى على «ميرميليون» تنقب الأرضى المتحركة ثقباً على شكل القمع وتعمل فيها ما يفعله هذا النوع من النمل فى أوربا من التربص بالحشرات الأخرى للوثبة عليها والفتك بها واتخاذها غذاء تشبع به نهمتها.

٩١- الأصداف البحرية

الأصداف البحرية كالقواقع والشنج والركبة والودع قليلة الكمية فى مصر إذا قيست بما يعيش فيها من صنوف الحيوانات العضوية. والصدف المعروف فيها باسم «هليكس أريجولاريس» هو بوجه التقريب النوع الوحيد المعروف منها. ولا حصر لأشكال هذا النوع وألوانه لكثرتها.

وتحتوى مياه النيل الكثير من الأصداف المعروفة فى العلم بأسماء «أوني» و«أيريدين» و«القورنى» كما تعيش على ضفافه «قواقع المستنقعات».

وفى الوجه القبلى وحوالى الشلالات توجد أنواع المحار الاسواقى المعروفة بالاثيرية التى يرجع فضل استكشافها إلى العلامة (كايو) وترى مندمجة فى القطع الصخرية. وتوجد أنواع من القواقع الحلزونية الصغيرة والودع متفرقة هنا وهناك.

٩٢- الهوام والأفاعى الرحالة

الهوام الداخلة فى طائف الأفاعى كثيرة العدد فى القطر المصرى، وبعضها وهو الشطر الأصغر يسكن مياه النيل أو يأوى إلى ضفافه، والبعض الآخر يقيم فى المدن والحقول وأطراف الصحراء.

والتمساح ويسمى أيضاً بالورل النيلى أشهر ما يسكن النيل من الهوام ولكنه لا يآلف لإجهات الوجه القبلى ولا يهبط ما يلى: بلدة جرجا شمالاً وهذا هو السبب فى عدم رؤيته من النيل بجهات الوجه البحرى إلا نادراً فى أيام الفيضان العالى وهو يصل إليها مسوقاً بتيار النيل.

والتمساح وإن لم يكن من الحيوانات التى تعيش فى الهواء والماء لتجرده من

عضوى التنفس - أى الرئتين يعيش فى الماء وعلى وجه الأرض ويتنفس الهواء الطبيعى. ولكنه إذا برز إلى البر ثلثت = بطأت = مشيته وتعطلت حركاته بخلافه فى الماء فإنه يبدو سريع الحركة كثير النشاط، وهذا ما جعله يخاف على حياته ويشعر بأنه لا يأمن عليها إلا إذا بقى فى الماء فتراه إذا سمع همسا لجأ إليه واحتمى به. وفيه تبلغ ضراوته الحد الأقصى. فكثيرا ما إذا عثر بإنسان يفتك به ويقضى على حياته. أما فى البر فإنه لا يملك القدرة على الأذى ويطشه فيه لا يخشاه حتى الطفل الصغير.

والتماسيح كثيرة النسل. فالأنثى منها تعمد إلى الرمل تودعه بيضها التى تنقب فى الميعاد بفعل حرارة الشمس. ويبلغ طول التماسيح عادة وقت خروجه من بيضته سنتمترين ثم ينمو إلى أن يبلغ من الطول نحو الخمسة أمتار أو الستة، وقد شوهد منها ما بلغ طوله إلى عشرة أمتار.

وتتخذ التماسيح مساكنها بأطراف الجزر والأماكن التى تستطيع الالتجاء منها بسهولة إلى النيل، وتعيش أفواجا مجتمعة وتخرج للصيد بإرشاد زعيم لها وإذا نامت قام أحدها بالحراسة والمراقبة. فترى أثناء النهار مطروحة على جزر النيل مستشرقة الشمس المتلظية أو مخرجة رؤوسها من الماء فترى متحركة بتأثير دفع التيار.

وفى القطر المصرى أنواع مختلفة من التماسيح كان نوع منها فقط موضع إجلال قدماء المصريين الذين كانوا يغالون فى تمجيده إلى حد دفع بسكان مصر الوسطى إلى عبادته. لاسيما وإنهم كانوا وهو صغير لا يخشون منه ضررا بل كانوا يستأنسونه ويألفونه.

وكان ماء الفيضان يسوق التماسيح إلى تلك الجهة. فإذا رآها المصريون اعتبروها بشرى خير وبركة وأدوا إليها مراسم التكريم الدينى وبلغ من حفاوتهم بها وإكرامهم لها أنهم كانوا يحلون أذنانها بالذهب والأحجار الزجاجية كما يحلون أرجلها بالأساور الذهبية. وقد وجد الكثير منها محنطا فى المقابر على هذا المثال.

ونقتصر هنا على ذكر الأفاعى الأخرى التى بالقطر المصرى وهى:

السلحفاة الرخوة النيلية الكبرى أو الرق واسمها العلمى «تريونكس»

وسماها المصريون «الترسة».

ورن البحر واسمه العلمى «توينمبيس» ويعرف أيضا باسم «مونيتور النيل» حيوان شديد الخوف سريع الانكماش. إذا رأى أحدا يَدنو منه صفر صفيرا حادا . خصوصا إذا كان من ضواري الماء كالتمساح وهو بذلك يخدم الإنسان خدمة جليلة لأنه يخرطه بوجود هذا الحيوان.

الحردون المعروف عند الأقدمين باسم «ستاليون».

والضب المجهول أعضاء التذكير.

والوزغ أو البرص أو سام أبرص.

ومنه نوعان شهيران أحدهما الحلقى.

والحرباء القصيرة.

والسقنقور، وهو على تسعة أنواع بأقل تقدير، والفرق بينه وبين الورل من وجوه . منها أن الورل برى لا يأوى إلا بالبرارى والسقنقور لا يأوى من الماء، ومنها أن ظهر الورل أصفر أغبر والسقنقور مديج بصفرة وسواد.

أما الورل وجمعه أورال وورلان فله سبعة أنواع مختلفة وهو والضب والحرباء وشحمة الأرض والوزغ كلها متناسبة.

وثعبان الرمل، ومقر بعضه فى الوجه البحرى والبعض الآخر فى إقليم طيبة.

والحية وتطلق على الذكر والانثى وانما تميز بقولهم حية ذكر وحية أنثى وهى على أنواع. الرقشاء والرقطاء بنقط أو خطوط سوداء وببيضاء.

وثعبان جهة الأهرام.

والأفعوان نوعان - الأفعوان ذو القرنين والهاج - وهو معروف بشدة خطره وقد قام فورسكال بتجارب عديدة على تأثير سمه فقال إنه سم قاتل لا محالة.

والضفدع والشفدع - أى صغير الضفدع ، ومنها نوع يعرف باسم سافينيى تراه مذكورا ومرسوما فى كتب العلوم الطبيعية.

الأسماك

٩٣- عموميات

إن أسماك النيل وهى الجيدة التى أتصدى لذكرها هنا يتألف منها على قلتها مجموعات يهتم القارئ العلم بها لما يستطلعها من أحوالها وعاداتها وتراكيبها العضوية.

وهذه الأسماك المختلفة فريقان، فريق يقيم باستمرار فى أماكن معينة والفريق الآخر من القواطع يتنقل من مكان إلى مكان فى مواعيد مختلفة من السنة. وربما بلغت الرحلة به إلى الأرجاء القاصية من الأرض. ومن الأسماك النيلية ما يجىء من أعلى جهات النيل حتى يبلغ إلى مصبه. فإذا جاء موعد الفيضان فى سبتمبر من كل عام أخذته الأهالى فكان لهم من الغذاء الطيب الوافر. ذلك لأنهم يلتقطون منه المقادير العظيمة فى الأرض التى يغمرها الماء بعد انحساره عنها وعودته إلى مجراه. وبحيرة المنزلة القريبة من دمياط كثيرة الأسماك تصاد منها الأسماك بمقادير وافرة جدا فيتجر بها الصيادون ويصدر منها إلى جزر الأرخبيل وبلاد اليونان.

وقد زعموا أن الأسماك القواطع الرحالة تحتوى أجسامها علامات مؤكدة تدل على هجرتها. والذى أجمع عليه العارفون بأحوال الأسماك وسلموا به أنها فى الوقت الذى تتجه فيه إلى مصبات النيل يصيبها بالجانب الأيسر من رأسها جرح أو أثر اصطدام. بينما التى تصعد فى النيل من مصباته إلى أعلاه يكون ذلك الأثر فى الجانب الأيمن منه، وبحسب الرأى الأول يكون الأثر ناشئاً من أن السمك يدنو من الضفة اليسرى للنيل اجتناباً لقوة دفع التيار، وبحسب الرأى الثانى أن هذه الضفة تكون إلى يمينه.

نعم إن أحد المؤلفين المتأخرين الضليعين فى هذا الفرع من علم الحيوانات وهو الذى أخذنا عنه هذه البيانات ذكرها فى كتاب له، ولكنه لم يذكرها من قبيل التعميم على الأسماك القواطع كافة. بل جعلها مقتصرة على بعض أنواع. فقد قال بالحرف الواحد: إن السمك لا تهمة سرعة التيار الذى يلقي فيه بنفسه من غير أن يتحرى الطريق الذى يلائمه اتباعه. بل إن هناك حاجة تدفعه إلى

الحركة وترشده إلى الطريق، وهى حاجة الانضمام إلى أفراد طائفته. فتراه لهذا السبب يسارع فى الوصول معها إلى هذا الوسط الملائم لتوافر بواعث الطبيعة بالتزاوج. ومتى تم له ذلك وأراد العودة إلى الوسط الذى اعتاد الإقامة به والذى أقصاه عنه مؤقتا ذلك الاحتياج الغريزى فإنه يدنو من الشاطئ لمقاومة التيار الذى تفوق سرعته السرعة الطبيعية. وبهذه المناسبة وحدها تحدث الجراح التى ترى على جانبى رأسه لأعلى الجانب الأيمن منه فقط. وهو ما يثبت أن السمك فى صعوده للنيل إلتماس الأوبة إلى موطنه يسير بلا تمييز تارة إلى اليمين وطورا إلى اليسار وسط الاعشاب النهرية والأحجار التى تجد فيها بينه غذاء.

٩٤. أسماء بعض أسماك النيل

هذه الأسماك هى:

الكرشرة اسمها العلمى «نريهس لاتس».

ونوع جميل يشاهد فى البرك التى يكونها النيل بالقرب من رشيد ولحمه لذيذ واسمه «خروميس بوتييه».

ونوع كان يسميه الأقدمون «لييدوس» وهو من نوع «الباربو» واسمه العلمى «سبران لييدوس» وكان فى عداد معبوداتهم.

وسمك آخر من نوعه استكشفه فورسكال وسماه «سيران النيل».

واللبيس وقد استكشفه (رؤيل).

ونوع يسمى «لنسك النيل» وهو سمك جميل فضى اللون ذهبى بريق البطن يوجد بنواحي طيبة فى أيام الفيضان.

ونوع آخر منه يسمى «منسسك بيبية» ربما كان نوعا من أنواع السمك السابق.

ونوع منه يسمى «لنسك طيبة» ويعرف عند المصريين باسم ايبية.

سمك مورمير «اكسيرنك» وهو الذى ذكرت عنه البيانات الخاصة بهجرته من مكان إلى مكان، وكان قدماء المصريين يجلونه ويكرمونه.

وهناك نوع من السمك اسمه العلمى «مورميروس» وهو أصناف كثيرة منها:

الصنف المعروف بالكشفي، والصنف المعروف بالعرسة، والصنف المعروف بالحنفي.

و، الصنف الذي يسميه المصريون بالقشرة، ويشبه قليلا السمك المعروف باسم سمك الكراكي أو القشر.. إلخ.

الجرى أو سلورس ذو الأذنين، وتسمى أيضا الشلبة، واسمها العلمي «سولوروس وريتاس».

الجرى أو سلورس أو الشلبة بأنواعها واسمها العلمي «سولوروس مستوس». وهناك ثلاثة أنواع من الشلبة نوع منها لاهبي اللون يسميه الأهالي بالشلبة العربى، واسمها العلمي «هبيوفتالموس نيلوتيكوس».

وهناك خمسة أنواع من الأسماك الغليظة أحدها هو ما يسميه المصريون بالشال ويوجد محفوظا بالتحنيط فى مقابر طيبة.

وثلاثة أنواع من صنف آخر من الشال اسمها العلمي «سينودونتيس».

والنوع المعروف فى الصعيد باسم البجتل والبجاس، وقد يبلغ من الطول أحيانا خمسة أقدام ولحمه رخو تافه الطعم لا إقبال عليه.

والسمك المعروف باسم الدقماق ويسمى أيضا بالخنزير.

والسمك المشوك وهو سمك صغير الحجم يخشاه الصيادون كثيرا بسبب ما تحدثه أشواكه من الوخزات الضارة ، وبالنظر إلى هذه الخصية فيه سماه المصريون أبوشكه.

القرموط، واسمها العلمي «هيتيروير انشوس انجيلاريس» وهو معروف بقوته الحيوية وشدتها إلى حد أن مظاهر الحياة تظل بادية عليه بعد اخراجه من الماء ولو هشم رأسه. وبه تتغذى الطبقات الفقيرة من الأهلين.

والرعد أو الرعاد. يسميه المصريون بذلك ، ولكن هذه التسمية لا تفى بما توافر فيه من الخواص الكهربائية الغريبة التى بواسطتها يوصل إلى أجسام الذين يلمسونه موجات كهربائية شديدة تضطربهم إلى التنحي عن الإمساك به فى الحال.

والحيتان المعروفة باسم حيتان سليمان، وهى أنواع. منها الحوت المعروف

بالنفاش أو اللفاش ، والحوت المسند إلى (راسكال) والحوت المعروف باسم الراعى واسمه العلمى هو «شراسينوس نيلوتيكوس» والحوت المسنن والحوت المعروف باسم (بس) وهو نادر الوجود لا يرى إلا بالقرب من طيبة (الأقصر).

ومن أنواع السمك البارموزه وهو صغير الحجم كثير الألوان والجية، وهو كثير بالقرب من طيبة ولا يهبط الوجه البحرى فى النيل والملش والسريدين السابوغة. ومن أنواعه كذلك:

أبومتقار، واسمه العلمى «هيميرهميس».

البرنوتى، واسمه العلمى «مولوس».

البطيش، واسمه العلمى «جيرينيدون فاسياتوس».

البطيظ، واسمه العلمى «موجيل سينالوس».

الفهدة، واسمها العلمى «باربوس يرنس».

الفرخة، واسمها العلمى «موجيل ساليئوس».

الجورنتى، واسمه العلمى «تريحلا» وهو سمك منتظم الهيئة وفيه خاصية استنشاق مقدار من الماء وقذفه بقوة على الناس وهو لا يرى إلا أيام الفيضان.

الجرجار أو الزقزوق، واسمه العلمى «يرستيوما بتنى».

الليس، واسمه العلمى «لابيونيلوتيكوس».

الشبار، أو البطى واسمه العلمى «ثياليا».

البياض، واسمه العلمى «باجروس بياض».

سكان مصر المختلفون

عموميات - الأقباط - المصريون المسلمون - البدو أو العربان - اليهود - اليونان أو الاغريق - الأحباش - الأثيوبيون - الأوروبيون.

لا نتصدى فى هذا المقام للبحث فيما إذا كان سكان مصر الأول من الصينيين أو الهنود. لأن الكلام فى هذا الموضوع بناء على الحدس والتخمين مجازفة إذا أصبت كبد الحقيقة أحيانا تتعرض للخطأ غالبا لتعذر الرجوع بخصوصها إلى الأسس القوية والمآخذ المقطوع بصحتها. ومن البديهي بالنظر إلى حقيقة تكون الأراضى المصرية واتجاه مجرى النيل من الجنوب إلى الشمال أن يتبادر إلى الذهن أن الشعوب التى كانت تقطن بلاد الحبشة والنوبة العليا والنوبة السفلى انتشرت نحو الشمال تبعا لإتجاه تكون أرض مصر وجريان النهر الذى يشقها. وهذا الافتراض الذى يتفق مع تعليل المؤرخ هيرودتس لهذا الموضوع يبدو أنه الأدنى إلى الصواب. لاسيما إذا أمعنا النظر فى سحنة التماثيل والصور المنقوشة فى جدران أقدم آثار الأول وهيئات أعضائها.

ولقد كانت مصر أكثر من كل بلد سواه، محطا لرجال الثورات البشرية والحوادث السياسية. فلقد أغار بالتتابع عليها أقوام الفرس واليونان والرومان والعرب والمماليك والأتراك والفرنسيين فنشأ عن امتزاج هذه الأمم بالجنس المصرى واندماج نوعيتها فيه بقدر ما ان تناول الطابع الأصيل للسحنة المصرية شىء من التغير والاختلاف عن أصله الأول.

وسكان مصر الآن يتألفون من أقباط وعرب ويهود ويونان وأتراك وجركس وأحباش وسودانيين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ومن جاليات أوربية.

٩٦. الأقباط

درج المؤلفون دائما على اعتبار الأقباط وحدهم سلالة قدماء المصريين لا يشاركونهم فى هذه الصفة مشاركا. واستشهدوا على هذا الرأى بما هو متوافر من جوامع الشبه المعينة بينهم والصور الهيروغليفية المنقوشة فى الآثار (١) ولكن خالف العلامة شامبليون هذا الرأى إذ وصف الأقباط وصفا جثمانيا بانسحاب الجبهة وسعة العينين فى سواد واتجاه قطاع الجفنين من أسفل إلى أعلى ومن

(١) وقف الكاتب الرحالة «فولتى» الذى زار مصر على أصل كلمة «قنط» التى تطلق باللغات الأوربية على الأقباط فقال: «أن كلمة قبطى العربية يظهر أنها تحريف لكلمة «اجبتوس» اليونانية التى معناها «مصرى» إذ لا بد من ملاحظة أن «يوتا» كان النطق بها عند قدماء اليونان وأن العرب بالنظر إلى عدم وجود حرف كما ينطق به امام ولا حرف الفارسى يبدلون من هذه الحروف بحرفين. أى القاف والباء العربية. فالأقباط والحالة هذه سلالة قدماء المصريين.

الداخل إلى الخارج وتتوء الخدين فى ضخامة وارتفاع صيوان الأذنين وانبطاح الأنف انبطاحا خفيفا وغلظ الشفتين فى ارتفاع وعرض الذقن واسوداد الشعر، . وهم بوجه عام نحاف الأجسام يقل من بينهم السمين. هزيلو الأعضاء بشرتهم ضاربة اللون إلى الكدرة.

وهذه الصفات والمميزات لا تتوافر فى الأقباط جميعا . لأن سوادهم الأعظم اختلطت أنسابهم بالأغيار . فمن اعتنقوا المذهب الكاثوليكي منهم شبيت أصولهم بأصول المسيحيين اليونانيين أو السوريين. بينما الأقباط من أهل المذهب اليعقوبى وهم أكثر الأقباط انتشارا فى الصعيد فقد حفظت أنسابهم صريحة مصونة من تداخل الأعراق، وصينت مع عاداتهم وأخلاقهم السحنة المعروفة عنهم منذ قديم الزمان.

٩٧. المصريون المسلمون

لا يختلف إثنان فى أن شطرا كبيرا من الأقباط اعتنقوا فى أول عهد الفتح العربى الديانة الإسلامية طوعا أو كرها، فالتحم الغالبون بالمفلوبين واختلطوا بهم ولبسوا جلدتهم.

وقد دخل العنصر العربى فى هذا المزيج بنسبة ضعيفة جدا - إذا قيست بالعنصر الأصيل - فنشأ عن ذلك أن صار المصرى فى العهد الحاضر أقرب شبها بشكل ملامحه وطباعه وأخلاقه إلى قدماء المصريين منه إلى العرب الصميمين الذين لا يوجدون بأشباههم الحقيقية وأصلهم الصميم إلا فى بلاد العرب الأصلية.

ويختص المصريون المسلمون الذين يتألف منهم الآن السواد الأعظم من سكان المدن والأرياف - بل الذين أطلق عليهم اسم الفلاحين - بالصفات الجثمانية الآتية: عظم الجمجمة وقيام الوجه على قياس الزاوية القائمة تقريبا واستدارته على الشكل البيضاوى وتقوس الحاجبين وسواد العينين فى غور ونتوء الشفتين وكثافة اللحية وسعة الصدر وضمور البطن وتقوس العمود الفقرى واستدارة الأعضاء وقلة بروز المفاصل وصغر اليدين والقدمين وتوسط القامة واختلاف لون البشرة فى الدكنة. ومع أن مسطح مصر صغير وعرضها قليل وأطرافها متقاربة فقد شوهد أن بياض بشرة سكانها على سواحل البحر الأبيض المتوسط يقرب من بياض بشرة الأوربيين، ثم يضرب إلى الدكنة شيئا

فشياً فيصير في مدينة أسوان كلون أهل النوبة .

٩٨- البدو أو العربان

تعرف القبائل الرحالة التي ترتاد الصحارى القريبة من مصر باسم البدو أو العربان. والعربان مرتفعو القامة بوجه عام ارتفاعاً مناسباً وأعضاؤهم غير مستديرة كما هي في العرب الفلاحين بل ضئيلة نحيلة. ولونهم الطبيعي قريب من اللون الأبيض الذي لفحته الشمس، ونساؤهم بارعات في الجمال، وهم يفتخرون بصراحة أنسابهم وسلامة أصولهم من الشوب ويحرصون على هذه المزايا . فتراهم لذلك يجتنبون بما في وسعهم مصاهرة أهل الأرياف.

٩٩- البرابرة

البرابرة جيل من النوبة السفلى انتشروا على ضفاف النيل بين جزيرة فيلة (أنس الوجود) والشلال الثانى على مسافة طولها مائتا فرسخ تقريباً ويميزهم عن المصريين لون البشرة. إذ تشبه فيهم لون خشب الجوز الكابلى، والفارق بينهم والجنس السودانى الأسود عظيم لما امتازوا به من الإخلاص والأمانة وعددهم في القاهرة الآن من خمسة آلاف إلى ستة يزاوون جميعاً أعمال الخدمة المنزلية . فهم للمصريين في مصر بمنزلة أهالى مقاطعتى (أوفرني) و(سافوى) للفرنسيين، ويرجعون كهؤلاء إلى مواطنهم الأصلية ليقضوا فيها آخر أيامهم بعد أن يجمعوا من ثمرات كدهم شيئاً من المال، ومع امتداد بلاد البرابرة ذلك الامتداد العظيم فإن عددهم فيها قل أن يتجاوز مائة وعشرين الفا إلى مائة وثلاثين ألفاً من النسما.

١٠٠- اليهود

احتفظ اليهود في مصر بسحتهم الأصلية أكثر مما احتفظوا بها في بلد آخر، وهم يختلفون عن الأهلين ببياض ألوانهم وزرقة عيونهم أو لونهم الرمادى وشقرة شعر لحياتهم ورؤوسهم.

١٠١- اليونان أو الإغريق

أصل اليونان المقيمين بمصر من الأرجاء المختلفة ببلاد اليونان، وبعضهم مولودون في هذا القطر ويعرفون بتقاطيع وجوههم ورشاقة قوامهم ولطف حركاتهم واختلاف ملابسهم عن ملابس بقية السكان.

١٠٢. السوريون أو الشوام

السوريون كثيرون العدد في القطر المصري، وهم أقل من اليونانيين في حسن مظهرهم وانحدار غريزتهم إلى البسط والمطايبة. ولغتهم العربية ولباسهم لباس الرعية من أهل القطر.

١٠٣. الأحباش

يؤتى بالأحباش إلى القطر المصري لبيعوا فيه بيع الرق، ويخصى البعض منهم فترتفع بهذه العملية أثمانهم. أما الحبشيات فأقل عددا في مصر من الذكور والجهات التي يرد الأحباش منها إلى مصر سواحل البحر الأحمر وسواحل الأوقيانوس وداخل بلاد الحبشة وحدود بلاد السودان، وهم على ثلاثة أنواع.

الأول لونه كالمولدين. شعره متجعد في ملابسه فلا يشعر لامسه منه بما يشعر به إذا لمس الصوف.

الثاني يقطن داخلية البلاد ولونه أنقى وأصرح من لون غيره وشعره طويل مرسل.

وهذان النوعان تنطبق أوصاف رعوسهما وتقاطيع وجوههما على المعروف من مقابلها عند العرب، وإنما في دقة وتناسب لا يتوافران في رأس العربي ولا في تقاطيع وجهه. وهيئة أعضائهما مستديرة وبنيتهما رقيقة وتنقصهما القوة البدنية كما تنقصهما الهمة النفسية، على أنهما آية في الذكاء والأمانة.

والنساء منهن يمتزن بالمحاسن الخلقية ورقة الأخلاق وحسن الطباع.

أما النوع الثالث من الأحباش فموطنه حدود إقليم (الجالا) حيث يضرب لون بشرتهم إلى السواد وشعورهم صوفية اللون والملمس وتقاطيع وجوههم تشبه تقاطيع وجوه السودانيين.

١٠٤. الأثيوبيون

أصل السودانيين الذين يصلون إلى مصر من بلاد دارفور وكردفان وبلاد الكاميل. والقبائل في هذه الأقطار مختلفة يحارب بعضها بعضها فيأخذون الأسرى الكثيرين ويبيعونهم أو يقايضون عليهم، ويأتى تجار من النوبة يعرفون

بالجلابة فيأخذون هؤلاء الأسرى إلى أسواق النخاسة بمدائن مصر الكبرى ليبيعوهم فيها. والسودانيون من تلك الأقطار تختلف أشكالهم الجثمانية وصفاتهم الطبيعية اختلافا عظيما. وهم يختلفون عن بعضهم بالقامة وشكل الرأس وتقاطيع الوجه ولون البشرة ودرجة الفهم والذكاء.

١٠٥-الأوروبيون

يتألف الأوروبيون النازلون بالقطر المصري، والذين تشملهم فيه لفظة «الإفرنج» من جاليات تابعة للأمم أوربا وعلى الخصوص إيطاليا وقد جاءوا جميعا إلى مصر وبلاد الشرق الأدنى مدفوعين إليها بحب الكسب من مزاولة الأعمال التجارية. والقليلون منهم يتخذون هذا القطر مقاما دائما لهم ولأعقابهم، وأغلبهم يعودون إلى أوطانهم.

ولسوف اغتنم الفرصة في الفصول المخصصة للكلام على الأمة وأخلاقها لذكر شيء عن الأقوام المختلفة بالقطر المصري مقرونا ببيان مايجمعها بعضها إلى بعض من الروابط والعلاقات وإيراد أهم الصفات الأدبية التي اختص بها كل فريق منهم.

السكان والمساكن والمدن والقرى فى مصر

(١) السكان

سكان مصر في العصور القديمة - السكان الحاليون - أسباب قلة السكان في القطر المصري - ما اتخذ محمد علي من الوسائل لإنماء عددهم - الموانع التي تحول في الوقت الحاضر دون ظهور أثر الإصلاحات التي قام سموه بها.

١- سكان القطر المصري في العصور القديمة

محقق أن سكان القطر المصري أيام مجده القديم كانوا كما في جميع الممالك والولايات الراقية كثيرون العدد منيعي الجانب بكثرتهم. ولو سلمنا بما ذكره كل من استرابون وديودورس الصقلي لكان عددهم في عهد الملك سيزوستريس وفي أيام البطالسة يتراوح من سبعة ملايين إلى ثمانية. وقد بالغ مؤرخو العرب في تعداد سكان القطر المصري مبالغة أفضت بهم إلى زعم أن عدد سكان مصر كان إبان الفتح الإسلامي يناهز العشرين مليوناً من النسما، وأن عدد مدنها وقراها كان نحو العشرين ألفاً.

وبعيداً عن الشك أن هذا التقدير مبنى على ما عرف به الشرقيون من المبالغة والإغراق. على أنه لا يبعد كثيراً عن الصحة وربما كان مصيباً لشاكلة الصواب إذا رجع في تقدير سكان قطر ما على المتوافر فيه من الوسائل الطبيعية الكافية لقضاء حاجاتهم المعيشية. فيكون أولئك المؤرخون قد اعتمدوا في تقديرهم على ما استنتجوه من اتساع أراضيها وطبيعة تربتها

ومقدار مساحتها القابلة للزراعة.

ولما كان مسطح مصر يعدل على هذا الاعتبار السدس من مسطح فرنسا، وكان بمثابة واد خصيب قابلة لمساحته للزيادة كما هي قابلة للنقصان. فبالزراعة وحدها يستطيع توسيع نطاقها بإيصال مياه النيل إلى الصحراء لإخصاب رمالها. فإذا أحللنا محل الاعتبار هذه العناصر التي تتألف منها الثروة الداخلية للبلاد فإننى أرى قريباً من الاحتمال أن يكون عدد سكان مصر قد بلغ قبل هبوطها في هاوية الانحطاط إلى نحو الثلث مما قدره أولئك المؤرخون من العرب.

٢. السكان الحاليون

في بداية هذا القرن - أى في عهد الحملة الفرنسية قدر عدد سكان القطر المصرى بما لا يتجاوز مليونين من النسمات. نعم لم يكن هذا التقدير مبنياً على شيء من الدقة والضبط. إذ قد ثبت بالإحصاء أن عددهم الآن يبلغ ثلاثة ملايين من النسمات.

ومن المستحيل الرجوع بهذا الرقم إلى مصدر صحيح وبيان مضبوط لحرمان مصر في الوقت الحاضر من نظام تضبط بمقتضاه الأحوال المدنية لكل فرد من الأهلين، وإنما التقدير عمل بحسب ما يستنتج من الإحصاء التقريبي لعدد المنازل فقد ذهبوا إلى أن منازل مدينة القاهرة يحتوى كل منها ثمانية أشخاص ومساكن الأرياف أربعة على حساب المتوسط في الجهتين. وقدر الذكور من السكان بنحو مليونين وأربعمئة ألف نفس. الثلث منهم على وجه التقريب صالح لحمل السلاح. أما مجموع السكان فيمكن تقسيمهم على الوجه الآتى:

٢٦٠٠٠٠٠	المصريون المسلمون
١٥٠٠٠٠	المصريون المسيحيون - أى الأقباط
١٢٠٠٠	العثمانيون - أى الأتراك
٧٠٠٠٠	العرب - أى البدو
٢٠٠٠٠	السودانيون
٥٠٠٠	البرابرة

الأحباش	٥٠٠٠
المماليك الجراكسة	٥٠٠٠
اليهود	٧٠٠٠
السوريون	٥٠٠٠
اليونان الرعية	٣٠٠٠
الأرمن	٢٠٠٠
اليونان الأفرنج	٢٠٠٠
الإيطاليون	٢٠٠٠
المالطيون	١٠٠٠
الفرنسيون	من ٧ إلى ٨٠٠
الإنجليز	من ٨٠ إلى ١٠٠
النمساويون	من ٦٠ إلى ١٠٠
الروسيون	من ٢٠ إلى ٣٠
الأسبانيون	من ١٥ إلى ٢٠
السويسريون والبلجيكيون	
والولنديون والبروسيون	
والدانماركيون تقريبا	١٠٠

وأكرر القول هنا بأن هذه الأرقام ليست رسمية، وما قصدت بإيرادها إلا تصوير فكرة تقريبية عن السكان في القطر المصرى.

٣. أسباب قلة عدد السكان في مصر

لا يسع المرء إذا قارن عدد سكان القطر المصرى في العصور القديمة به الآن إلا التساؤل — والحزن ملء فؤاده — عن أسباب النقص السريع الذى اعترى النوع البشرى في بلاد خولتها الطبيعة كل العطايا والمنح. ولما كان هذا القطر محصورا بين صحراويين فهل يمكن القول للإجابة على هذا السؤال بأنه يتنازل شيئا فشيئا عن أراضيه ليحتلها ذلك المغير الذى لا يعرف للرافة والشفقة معنى؟ وهل صحيح ما يزعم بعض علماء طبقات الأرض^(١) من أن الناموس الطبيعى يقضى بأن تعمر جهات الوجه القبلى بالصحراء التى سبق لها أن وارت تحت رمالها شطرا كبيرا من إقليم طيبة القديم، وأن النوع البشرى قد طارده فأخرجته من مواضعه وأماكنه القديمة تلك القوة التى لا

(١) راجع كوفيين في خطابه عن التقلبات التى تناوالت سطح الأرض.

غالب لها. هذا ما لا نعتقده، وإنما الذى نسلم به أن بنى مصر يستطيعون التغلب على الصحراء فإذا كانت هي الغالبة على أمرهم فما ذلك إلا لجمودهم وتراجعهم عن مغالبتها بما استنبط في هذا العصر من ذرائع التقدم ووسائله.

الحياة في مصر هي النيل والموت هو الصحراء. والنيل هو الذى أوجد مصر من العدم، فهو إذن روحها ولايزال كذلك. أما الصحراء فإنها إذا تركت إلى القوة التى تدفعها نحو الأرض الخصبة فإنها لا تلبث أن تلتهمها وتفتنيها شيئاً فشيئاً في ذاتها، ولكن النهر يستطيع التغلب على الرمال بإخصابه إياها بمياهه فمن الواجب للاحتفاظ بمصر الجميلة التى توغل بمقدار مائتى فرسخ في البحار الرملية بل لتوسيع نطاقها، معارضة قوة الصحراء بقوة النهر ودفعها بها. ولاريب أن رفاهية مصر وزيادة عدد سكانها يتوقفان على حسن تدبير مياه النيل. بل هما مرتبطان وثيق الارتباط باتساع نطاق الري وتعدد أحواله، فلتتيسر مواءمة هذه المصالح الحيوية الجلية الخطر بالرعاية ومواصلتها بالمراقبة الدائمة لاغنى عن مشاركة القدرة للفكرة وإتحادهما معا وأن تكون الحكومة مصدر الاثنتين.

فمصر إذن أكثر البلاد احتياجاً إلى تدبير أمورها بمعرفة حكومة عاقلة مدبرة. ووجودها المادى وحفظ كيان تربتها الزراعية وبالتالي نمو عدد سكانها يتطلب الهمة في العمل والمثابرة عليه من القابضين على زمام أمورها. ولكن قضى الله أن لا يوجد على وجه الأرض بلد اختل نظام الحكم فيه منذ عشرة قرون اختلاله في القطر المصرى. بل لا بلد شهد في مدد قصيرة تناوب السلطات المختلفة مثله على استلام زمام أموره على ما عرفت به من شدة الهمجية والميل إلى التخريب مع الدعة والتهاون والغباوة في إدارته^(١).

وإذا بحثت عن أسباب نقص عدد سكان القطر المصرى منذ عهد عمرو بن العاص فإنك لا تلبث أن تتأكد رجوعها كلها إلى ما كانت عليه حكوماته من اختلال نظام واستبداد حكم وعماية عن الصواب ونزوع إلى الفوضى التى اغتصبت زمام الحكومة وتصرفت في شئونها بالعبث والإفساد حتى ضاع

(١) الناشر: يقصد الكاتب الإشارة إلى السلطات وليس الشعب.

الغرض النافع المقصود منها.

فإذا كان في مصر أسر شهدت حقولها ومزارعها وقد علتها من الصحراء طبقة صيرتها غير صالحة للزراعة حتى اضطرت أن تهجر مواطنها وأماكن عزها، وإذا وجدت أسر غيرها قد أنهكها الفقر المدقع وأضناها الجوع حتى كاد أفرادها يتلاشون عن آخرهم للسبب المتقدم. فما الخطأ في ذلك إلا خطأ السلطة ولية الأمر، أو بعبارة أخرى خطأ حرمان البلاد من سلطة جديرة بأن تتحلّى بهذا الاسم.

وإذا كانت الأوبئة على تعددها واختلافها قد تحيقت القطر المصري وفتكت بأبنائه أذرع فتك واتخذته لنفسها مستقرا ومقاما، فمن ذا الذى تقع على عواهنه مسئولية الإهمال في اتخاذ الوسائل لدفع ضررها إما بالصيانة والوقاية وإما بالمكافحة؟ بل من ذا الذى يحاسب على جهله وغفلته فيكون إثم غليظا وقصاصه عليه عبرة ظاهرة للناس ومثلا مضروبا؟ إن على رأس تلك الحكومات - إن وجدت - تقع أثقال هذه العبرة، فإن لم تكن موجودة فقد حق للناس أن يرفعوا الصوت بالشكوى والتذمر من سوء الحال وشر المآل.

ولقد نشأ عن الفوضى الطويلة التى حلت في مصر محل النظام أن شيئا كثيرة من صغار الزعماء استمدوا من قوة الحساب ما انتحلوه أنفسهم من حق التصرف في نفوس الأهلين وإيرادهم موارد الهلاك. ومن أين كان لمصر أن تسترد صحتها وشبابها وقوتها وقد ضيق عليها الأنفاس أولئك الألوف المؤلفة من صغار الظلمة الطاغين؟ ومن أين لذلك البلد أن يرد غير موارد الهلاك وأن يكون مثله إلا كمثّل المصاب بالبرص ليس لدائه طب. إذ أصبح ميدانا مستمرا للحروب الأهلية ومجالا تعبت فيه شيع الفاتحين الغزاة بالخراب والفساد.

٤. محمد على ووسائل زيادة عدد السكان

محقق أنه لإقامة أركان سلطة قوية في بلد تدهور في مثل هذا الدرك من الانحطاط الأدبي والمادى، وإيجاد وحدة متينة العرى حيث ذهبت وحدة كل

شئ بددا، بقوة الفوضى التي تعاقبت على مدى الأجيال، وتخويل هذه السلطة الجديدة من الحياة ما يكفي لضمان استمرار تأثيرها بانتقال التقليد بها من طريق الوراثة إلى سلالة أسرة واحدة، لا يكون مثل هذا العمل الجليل على ما يترأى لى إلا عملا ذا عبقرية ساطعة عجيبة والذريعة الفريدة لبعث مصر ثانيا إلى الوجود وزيادة عدد سكانها، وقد كان هذا قصارى ما يستطيع أن ينتظر من محمد على. بل لم يكن لأحد الحق فى أن يطالبه فى هذا الموضوع بأكثر مما عمل.

ومع هذا فإن خصومه وشائنيه لم يكفوا عن توجيه التهمة إليه بأنه استنفد قوى البلاد المصرية واستدر حلابها . بل ذهبوا إلى أنه قد أتى إثما غليظا لتنقيصه سكان هذا القطر بتأليفه من القوى العسكرية مالا تتسع للإنفاق عليه مالية البلاد.

فإذا كان من المسلم به لإعادة مصر إلى مجدها القديم وما كانت عليه من الحضارة والثروة فى سالف الأزمان من البدء قبل كل شئ بإنشاء حكومة قوية على أسس وطيدة فلا بد من غض النظر والتسامح حيال الوسائل التى استعان محمد على بها على تعزيز سلطته بالقوة التى تكفل لها الاستمرار.

وليس بغارب على فكر أحد أن مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» لمن المبادئ التى تحقق على البلاد المتوحشة التى يخضع كل شئ فيها لحكم الاستبداد الفعلى. بل والتى لاتزال كلمة الحق العام فيها من الكلمات المجهولة أو من اللغو الباطل، فمن عجز المنطق وقلة الذمة وسوء النية أن يراد جعل الوالى مسئولا عما يعتور الأمة من الآلام الوقتية ويصيبها من الأضرار الزائلة التى يؤدى إليها تنفيذ مشاريعه الكبار، وليست هذه الأضرار والآلام إلا نتيجة الأمراض المزمنة التى أخذ على عاتقه تطهير مصر من أدرانها وصيانتها من عواقبها الوخيمة.

نعم إن مصر قليلة فى عدد السكان الآن، ولكن ليس فى استطاعة الوالى ابتكار ما يؤدى إلى زيادة عددهم فورا. إذ من المقرر أن المدنية لاتبلغ إلى حد الكمال حتى فى أكثر الظروف والأحوال ملائمة لها إلا بتأثير الزمن. ولم يقل أحد إن شعبا نهض من عثرته وبذل شبابا من هرمه وقوة من ضعفه بإحدى

وسائل السحر . فمما يدعو إنن لإكبار محمد على وتكريم ذاته أن جعل وسائل التقدم والإصلاح ممكنة في مصر، وأن يتخذ منها قوة تحل محل الضعف ويستمد منها حياة وعمرانا يقومان مقام الموت والخراب.

فمحمد على لم يستنفد رجال وادى النيل. بل دأب على ما يوجب كثرة عددهم. ولقد كان نابوليون يقول: «إذا انقضت عشرون سنة على مصر وهى بيد الممالك يتصرفون فى إدارتها على ما تشاء أهواؤهم فإنها تكفى لخسارة ثلث أراضيها الزراعية وخرابها» ولكن «محمد على» عرف بحكمته ودرايته كيف يوقى مصر شر هذا الرأى. إذ شق الترعى الكثيرة التى حملت إلى الجهات القصية من بلاد الأرياف عناصر الخصب والرخاء، وأدخل التحسين على نظام الرى فأصابت حسناته القفار والصحارى فزادت محصولات مصر زيادة بالغة، واستدعى إليه الأطباء الأجانب لاستئصال شأفة الأمراض، وأنشأ مدرسة للطب ومستشفيات عديدة، وكان داء الجدرى قبل ولايته يحصد الثلث من عدد الأطفال. فيما اتخذ من وسائل المكافحة والوقاية زال هذا السبب الذى كان من أهم أسباب نقص السكان. إذ تقرر تلقيح المولودين وغيرهم بالمادة الجدرية، وحال بين الموظفين والتسلط على الأهلى بالظلم والعسف، وساد النظام التام فيما خضع لحكمه من بلاد افريقية التى ظلت فيما سبق نهبا مقسما وفريسة بين القبائل التى كانت كالكلاب المسعورة فى الشره إلى الغنائم . وساد الأمن وخفقت ألوية النظام بحيث أصبح ساكنوها متقلبين على مهاد الراحة والنعيم. بل أهنا بالاً منهم فى أى بلد من أوربا ساد فيها النظام واستقر الأمن على أوطد أساس.

٥. موانع ظهور الإصلاحات التى قام بها الوالى

إن قوات مصر العسكرية هائلة فى الحقيقة، ولكنها لا تنهض دليلاً يستند إليه القائلون بأن الجندية المصرية نظام داع إلى نقصان عدد سكان القطر. فإن الفلاح يجد فى الجيش الذى هو أحد جنده هناء ونعيماً يبعد أن يكون متمتعاً بمثلهما فى بيته، وعدد الوفيات بين الجنود أقل منه نسبياً بين الفلاحين. ومن جهة أخرى فإنه من المسموح به لرجال الجيش التزوج وهم فى الغالب متزوجون الآن.

ومن المرغوب فيه لمصلحة مصر وتقدمها أن يعود العساكر إلى مزاولة أعمال الزراعة، ولولا أن «محمد على» بحاجة إلى الدفاع عن استقلاله ضد ما يلاقيه من سوء الإرادة والنية، بل لو كان من المسموح له أن يتخصص للعناية بشئون الأقاليم الواقعة تحت حكمه وأن يوجه إليها كل خاطره لكفاه الزمن القصير لينشر على أهلها أجنحة الهناء ويغدق عليهم الثروة واليسار.

ولقد تم اليوم إنشاء الحصون ودور الصناعة وأقيمت المباني العمومية والأشغال الأساسية ودفع ما استلزمته الأدوات من النفقات. فلم يبق إلا أن تقطف مصر ثمار المزايا المنتظرة من الإصلاحات الحديثة. إذ لم تبق الحياة السياسية لصاحب تلك الإصلاحات على محك البحث والمناقشة من غير انقطاع. أما المصائب والآلام التي ما برحت مصر تنوء بها فأوربا وحدها هي الكفيلة برفع هذه الأصر عنها إذا أرادت أن تحسم المصاعب الناشئة عن المسألة الشرقية حسما نهائيا جازما^(١). فإذا لم تكن مصر حتى الآن تستطيع السير بقدّم ثابتة في طريق السعادة والمدنية فما ذلك إلا لأن الدول الغربية هي التي يرجع الأمر إليها في تعضيدها التعضيد النهائي بوضع حد لما نجم من المتاعب والمشاق عن بقاء الحالة السياسية الحاضرة على ما هي عليه بالنسبة لها مقرونة بما تتكبده من القلق الشديد على مصيرها.

(١) الناشر: إنها وجهة نظر المؤلف في الفترة التي أصدر فيها كتابه.

(٢)

منازل السكنى والمبانى العمومية

منازل المدن - مظهرها الخارجى - باب الدخول - الشبابيك - الجديدة -
السطوح - صحن الدار - حجر النساء - بيوت القرى - المساجد -
الأسبلة والأحواض والحمامات - الأسواق والقهوات والوكائل.

٦ - منازل المدن

منازل المدن بوجه عام أفسح منها فى القرى وأجمل. وهذا الفارق لما يلفت
النظر فى القطر الذى يشكو سكانه من أهل القرى الفقر ويعانون الفاقة على
وجه يخیل معه أن الهناء والرخاء قد فارقا ربوعهم ليهبطا المدائن الكبرى
ويسيرا فى ظل سكانها تبعاً لهم وطوعاً إرادتهم.

ومواد بناء المنازل فى المدن الأحجار العادية وحجر الجص. وهما يؤخذان
من الجبال المجاورة لها، ثم من حجر الآجر المطبوخ بالنار أو المعرض
لحرارة الشمس.

وليس لتلك المساكن غالباً سوى دور أرضى وطابق علوى، وقلما شيد
فوق هذا الطابق طابق ثان، لأن كل دار لا يسكنها إلا أسرة واحدة. وسيدرك
القارئ على أيسر وجه سر هذه العادة متى علم أن المسلمين نزعت بهم
التقاليد إلى قصر الحياة البيتية على العزلة وقطع الصلة مع الأغيار. فهم
يؤثرون أن تكون لكل منهم داره كى يستطيع إغلاق بابها عليه دفعا لكل
صلة تترتب على المخالطة أو ما يستتبعها من المودة.

٧ - المظهر الخارجى للمساكن

لما كانت دور المسلمين مقتصرة على ما ذكر من المصلحة الذاتية فمن
الطبيعى أن تختلف فى أسلوب بنائها وتوزيع حجراتها ومظهرها الخارجى
عن غيرها من المساكن، وأن يقصد بترتيب أوضاعها وتنميق زخرفتها إلى
توفير الهناء الذى يتحرى أربابها أسبابه وجعلها . بحيث لا تصل إليها أشعة
أبصار المتسمعين والمتسقطين. فإنه لم يراع فيها مثلاً مجارة أذواق الجمهور
فى أن تكون على نمط من أنماط البناية الهندسية الصحيحة . فحوى أغلبها

لهذا النقص الفاضح مشيدا بحكم الجزاف والمصادفة في شوارع غير معتدلة. ودور الأغنياء منها كثيرا ما يرتد الطرف عنها وهو حسير لقبح منظرها وحقارة مظهرها وخلوها من كل أثر للتناسق أو الزخرفة، ولكنها في مقابل ذلك تحتوى من الداخل أجمل ما يقع البصر عليه من الزخارف وثمان الرياش، وربما كان لإغفال شأن المظهر الخارجى للمنازل سبب آخر غير قلة اكتراث أصحابها بميول الجمهور وأذواقه وهو اتقاء مطامع العظماء وأصحاب البطش بتزهيدهم في التطلع إلى ما يستره القبح الخارجى من الجمال الداخلى. فلقد تبين الشرقيون بالتجربة الطويلة ما يتهددهم من الخطر في أموالهم وأعراضهم إذا امتدت أنظار الأقوياء إلى ما وراء جدرانهم القبيحة من مجلس النفائس وثمان الأعلاق وجميل المقتنيات.

٨. باب الدخول

مداخل هذه المنازل أبواب واطئة جدا تفتح دواما إلى الداخل، وتتألف من دقة = درفة = واحدة بحيث إذا فتحت وقف نظر الناظر دون جدار قائم تجاه المدخل وإلى جانبه منفذ يوصل منه إلى داخل البيت. والأبواب في هذا تغلق بعارضة متينة من الخشب تجرى في مجراها، فتمر بالبواب كله على اتجاه العرض فإذا أريد فتح الباب أدخلت في مجراها وإذا أريد إغلاقه سحبت منه وهناك أيضا مزاليج من أصناف مختلفة لا أرى فائدة من إيراد وصفها في هذا المقام.

٩. الشبايك الحديدية

لواجهات المنازل نافذات كبيرة ركبت فيها قضب حديد متشابكة ضيقة الثقوب تؤذن للهواء والضوء بالنفاذ إلى داخل الحجرات، ولكنها تحول دون رؤية ما وراءها من الأشخاص أو الأشياء. والطابق الذى يلى الدور الأرضى هو الذى توجد النوافذ به عادة، وهو بارز إلى الأمام بنحو قدمين أو ثلاثة أقدام فيتكون من هذا البروز شرفة مستورة لا يمتد البصر إلى ما وراءها. والمشربيات التى تتركب عادة في هذا الجزء البارز عبارة عن قطع صغيرة دقيقة من خشب المخروط تعشق بعضها في بعض بحيث تتألف من مجموعها أشكال ورسوم متشابكة لطيفة المنظر. وفي بيوت الفقراء تتخذ حواجز النوافذ من البوص أو سعف النخل. أما دور الموسرين ففيما عدا الحواجز الحديدية توجد بها أبواب من الزجاج تحول دون نفاذ العثير = التراب الناعم = إلى الداخل.

١٠- السطوح

لما كانت سقوف المنازل في مصر مسطحة فقد استتبع ذلك أن تكون سطوحها مسطحة كذلك، ومن ثم أطلق عليها هذا الاسم. وتحيط بالسطوح ذروة بارتفاع الإنسان وتتخذ مناشر لتجفيف الثياب المغسولة. ولكنها في الحقيقة معاهد خاصة لتريض النساء في منازلهن. خصوصاً إذا كانت خالية من الحداثق والأفنية وإليها يصعد رب البيت وحرمة وجواريه لاستنشاق النسيم العليل في الأصيل والتماس الراحة من عناء النهار، وتطلى السطوح - أى ظاهر السقوف عادة بمونة تتألف من رماد الأقران والجير والمصيص. أما في منازل أصحاب اليسر والرخاء فتبسط بالبلاط الحجري مقطوعاً قطعاً صغيرة رفيعة جداً.

١١- صحن الدار

في كل منزل غالباً صحن داخلي تتوافر فيه مزيتان: إحداهما إدخال الضوء والهواء في حجرات الدار، والثانية الاستفادة بما حوله من الأمكنة في اقتناء الحيوانات الداجنة كالـدجاج والمعرز.. إلخ أو إيواء حيوانات النقل كالـخيل والحمير أو حفظ الأمتعة الفائضة عن الحاجة، وقد يجعل فيها الطاحون والفرن والمطبخ ومسكن للخدم وحجرة استقبال الزائرين (المنظرة) يتوسط ذلك كله بئر لاستقاء الماء اللازم للمرافق المنزلية منها.

١٢- حجرة النساء

يختص القسم الأعلى من الدار بالنساء. وهو يحتوى بهوا كبيراً يشبه البهو الخاص بالاستقبال في منازل الأوربيين، وكذا مخادع النوم لرب المنزل ونسائه وجواريه وغرفاً أخرى.. إلخ.

١٣- المميزات الخاصة

دور المسلمين كافة - إلا القليل منها - مشيدة على الطراز المتقدم ومقسمة بمقتضاه فإذا وجد اختلاف يسير في الترتيب بين دار وأخرى فإنما يرجع إلى التفاوت بين أربابها في الهيئة الاجتماعية وجاهة وثروة. فبيوت الأغنياء مثلاً تحتوى الحداثق غالباً وهى سرحهم ومراحهم دون غيرها يختلفون إليها لترويح النفس وتطيببها وتعوض عليهم لذة ما يرجى من السرور بتنزههم في الخارج، وتحتوى مساكن العظماء أحياناً صحنين وحديقتين وبنائيتين

إحداهما للرجال والأخرى للنساء.

ودور المصريين ميلطة عامة ببلاط من الحجر. أما الاغنياء فيقوم المرمر في دورهم مقام البلاط في تلك وفيها الحمامات. وتبلىط مناظرها بالقاشاني، وفي وسطها حوض ينبثق منه الماء. وفي الحجرات العليا أحواض من هذا القبيل ذات نافورات، وليس في كل دار سوى مدخنة هي التي يسلك = يخرج = منها دخان المطبخ. أما بيوت الخلاء فعديدة. إذ لكل حجرة واحد منها. وزجاج الشبابيك لا ينفتح كما هنا بدفتين بل يرفع من أسفل إلى أعلى فيتحرك في مجرى خاص به يمنة ويسرة ولما كانت التهوية من الأمور المهمة في البيوت المصرية فالذى جرت عليه العادة في مصر أن يفتح في السقف فتحة يقام عليها منور متجه إلى الشمال (البحرى) فإذا ما أقبلت الريح من الشمال واصطدمت بهذا الحاجز هوت إلى داخل المنزل فجددت هواءه.

والنمط الهندسى الغربى هو المعمول به في إنشاء جميع المنازل تقريبا بالقطر المصرى، ولا يجهل أحد ما تحلت به هذه الهندسة البنائية من الرسوم الظرفية والزخارف الجميلة والتراكيب المنسقة والألوان الزاهية. وهو ما يصح معه القول بأن البيوت المصرية مدينة بجمال منظرها إلى الأجزاء التفصيلية التي هي أس ذلك النمط الهندسى وقوامه. ولقد سبق لى الكلام على رداءة مظهرها الخارجى. وهى من حيث توزيع أقسامها الداخلية حقيقة بمثل هذا الانتقاد. إذ لانظام بالمرّة في توزيع الغرف بل غالبا ما تكون بعض الحجرات أكثر ارتفاعا من البعض الآخر وغير قائمة على مستوى واحد وأن تكون كلها حجرات طابق واحد. وهذا الاختلال الهندسى مقصود بذاته. لأنه يساعد على العزلة التي يطلبها رب البيت. وهناك مخابىء كثيرة ليس من الممكن انشاؤها إلا إذا ضحى بالنسق الهندسى ووحدة التطابق في المجموع.

ومنذ بضع سنوات طرأ اختلاف عظيم على أنماط هندسة المساكن فحل محلها النمط الإسلامبولى الذى هو عبارة عن مزيج من النمط اليونانى الفاسد والنمط العربى لارائد له من الذوق السليم. ولقد أنشئت مبا من الخشب طبقا لهذا النسق الجديد، وروعى فيها استبدال القواعد البيضاء الشكل بنوافذ كبيرة مستطيلة واستعيض عن النقوش العربية الجميلة بصقل

أسطح الجدران صقلا متناسقا وهو مما ينبو عنه النظر وينبذه الذوق.

١٤. الحوانيت

في الأدوار الأرضية من المنازل الواقعة في الأحياء التجارية حوانيت التجارة ومخازنها . وهذه الحوانيت صغيرة جدا يختلف مسطحها من ١٢ إلى ١٦ قدما عرضا في مثلها طولا، وليس لها في مقدمها مكان تعرض فيه البضائع. وكل ما هنالك دكان من الحجر يحول بين الجمهور المقبل على الشراء والدخول فيها فيضطر إلى البقاء خارجها.

١٥. منازل القرى

في مدن الوجه البحرى فقط تشاد المنازل بالحجر والأجر، لأن الأمطار فيه كثيرة والمنازل تستلزم الصلابة والمتانة أكثر مما تستلزمهما المنازل في الوجه القبلى لقلة الأمطار، ولا يستعمل في بلدان الصعيد عادة إلا الأجر المربع المجفف في الشمس والمبنى من الطين وحده، وليس فيه مدن كبيرة بل قرى صغيرة فقط فيها مساكن الفقراء، وهى في أقصى ما يكون من الحقارة. لأنها عبارة عن أكواخ لا ترتفع فوق سطح الأرض إلا ببضعة أقدام وجدرانها الهشة متخذة من الطين الأجر النيىء الذى اتخذ روث الحيوانات لإصاق بعضه ببعض. والضوء والهواء ينفذان فيها بفتحات صغيرة جدا، وأسقفها مغطاة بفروع الأشجار وسعف النخل. ويعيش الفلاح في هذه الغرفة الضيقة مع ما يملكه من الحيوانات الداجنة. وفي عدد عظيم من القرى أبراج مربعة الشكل للحمام ولكن جدرانها مائلة ميلا قليلا وقائمة فوق سطوح الأكواخ.

١٦. المساجد

المساجد هى معابد المسلمين، وهى كثيرة العدد منتشرة في جميع أرجاء القطر المصرى لكثرة ماشاد منها الملوك والأمراء والأغنياء إظهارا لورعهم وتقواهم. والقاهرة وحدها فيها أكثر من أربعمئة مسجد تحتوى مبانيها عادة بوابات ترتفع صفوفها حول صحن مربع في وسطه حوض معد للوضوء والجانب الذى فيه المحراب والمنبر من المسجد يتجه صوب مكة المكرمة، وهو أفسح من الجوانب الأخرى، وبه صفان أو أكثر من الأعمدة موازية للجدار الخارجى ويتألف منها الجزء الأمامى من المسجد، وفي الجدار المتقدم تجويف يسمى بالمحراب هو دليل الاتجاه نحو مكة بالنسبة للمسجد وإلى اليمين من المحراب المنبر الذى يصعد فيه الخطيب ليعظ المصلين، وتجاه المحراب إلى الخلف أدراج بسطت عليها نسخ من القرآن ودكة يقيم المؤذن

منها الصلاة. وفوق المساجد ترتفع المنارات فترتسم على صفحة السماء اللازوردية اللون كسهام محددة النصال، وهذه المنارات يدعو المؤذنون من أعلاها المؤمنين إلى الصلاة في الساعات المقررة لها فتكسب المدائن الإسلامية طابعا خاصا تخلو منه المدائن الأخرى. وتكتسى جدران المساجد بنقوش هي آية الظرف والدقة والإتقان. ومعلوم أن نبي المسلمين لما أراد أن يطعن الوثنية في قلبها الطعنة القاضية عليها شدد في تحريم تصوير الكائنات الحيوية = الحية = ولو كان رسما بالقلم فكان هذا سببا في ألا توجد على الآثار الإسلامية نقوش تمثل صور الإنسان أو الحيوان ذات الأشكال المختلفة التي تحير بمختلف تراكيبيها اللب وتأخذ بمجامع القلب، وهي كلها لا تمثل سوى تشابك الأغصان وتضاهي = تماثل = الأوراق والأزهار على نمط بديع يشير إلى ما هنالك من الحذق والمهارة في الصناعة.

وغالبا ما تعترى السياح الدهشة كلما زاروا هذه المساجد ورأوا ما هي عليه من اندثار تلك النفائس فيها شيئا فشيئا وتعذر عليهم التوفيق بين هذه الحالة وما يظهره المسلمون من التقوى والورع والتعلق بالدين واحترام المساجد. ولكن لنا أن نقول إن هذا الاحترام نفسه هو السبب في إهمال شأن المساجد على الوجه الذي رسمناه لمبالغتهم فيه إلى حد أنهم يخشون أن مجرد الشروع في ترميم العطب وإصلاح الفاسد يعد منهم افتئاتا وتعديا على تلك الآثار الجميلة. فهم يتركونها على حالها من الاندثار إلى أن تقول إلى السقوط فإذا سقطت شرعوا في بنائها من جديد.

١٧. الأسبلة والأحواض والحمامات

في غالب الأمر يلحق ببناء المساجد منشآت للجمهور كالأسبلة وأحواض الماء والحمامات والمدارس والقنادق. أما الأسبلة فشائعة شيوعا عظيما في جميع أرجاء القطر. إذ يوضع فيها الماء في أيام الفيضان النيل ليوزع على المحتاجين إليه. وهذه الأسبلة مستديرة الشكل وتحلى بالنقوش وفي نافذاتها الشبابيك المصنوعة من البرونز والأعمدة الرخامية والزجاج الملون والكتابات المحفورة. أما الأحواض فعبارة عن حوض يملأ بالماء وتعلوه قبة أو بأكية، وكثيرا ما يكون بالقرب منه بوابة كبيرة تجعل لها منظرا أثريا. ويقضى طقس مصر بالاستحمام، ويحتمه دين المسلمين، وهذا هو السبب في وجود عدد كبير من الحمامات العمومية.

١٨ القهوات والأسواق والوكائل

من الخطأ تصور القارىء أن القهاوى فى الشرق تشبه القهاوى فى بلادنا بوجه ما من وجوه الشبه. فإن القهاوى المصرية عبارة عن غرف يحيط بها دكاكين من الحجر مغطاة بالحصر يجلس عليها المصريون للتدخين وشرب القهوة وسماع القصص، والقهاوى من هذا النوع كثيرة جدا.

أما الأسواق فليست إلا شوارع مغطاة على عطفها = جانبها = حوانيت صغيرة تتزاحم أقدام الناس فيها.

وأما الوكائل فبنايات كبيرة مخصصة لحاجات التجارة، وهى عبارة عن أبنية مقامة حول فناء مربع يحتوى فى وسطه حوض ماء وحوله مخازن فسيحة مسقوفة بالحجر كيلا تؤثر فيها نار الحريق. أما الأدوار العليا فمقسمة إلى غرف وحجرات ينزل فيها الغرباء من التجار.

١٩. المدن والقرى المصرية

يؤخذ مما ذكرته عن المساكن المصرية أن المدن التى تتألف منها لا بد أن تكون على شىء من الجمال، ولكن الحقيقة غير ذلك. فإن الطرقات فى هذه المدن لا تحف بها منازل يرضى شكلها النظر أو يسر القلب. فضلا عن أنها غير خاضعة لقانون تنظيم يجعلها فى تعاقبها على خط مستقيم. لأن كل مالك متى شرع فى بناء منزل له أقامه على ما يرضى هواه ويتفق مع مصلحته ولذا كان فى الغالب لا يهتمه التوفيق فى الاتجاه بين واجهة منزله ومقتضيات الطريق العامة. فكثيرا ما تراه يجعل هذا المنزل مائلا على هذا الطريق لا قائما عليه وهذا فضلا عن أن الطرقات كثيرا ما تكون من الضيق بحيث تكاد مشربياتها المتقابلة تلتقى ببعضها فتمنع انطلاق الهواء فى الطريق وتحجب أشعة الشمس عنه. ثم إن الطرقات لم تكن مفروشة بالبلاط. فهى إما أن تغطى بطبقة كثيفة من العثير وإما بطبقة أكثر منها من الطين. وفى الحالين يكون المرور منها مكروها ومتعذرا. وهناك شوارع على شىء من الاتساع ولكنها جميعا معوجة تعترضها الأزقة المسدودة أو تتلاقى ببعضها على وجه المصادفة ومن غير ترتيب. فيتكون من مجموعها تيه يتعذر على من لم يكن قد ألف السير فيها التماس مخرج له منها.

وتنقسم الدائن إلى حارات أو أحياء تغلق كل حارة منها فى الغالب بأبواب كبيرة تعهد حراستها - كما هو الحال فى القاهرة - إلى حراس يظلون طول الليل فى موقف المراقبة، ولكل حارة من تلك الحارات اسم تعرف به. كما أن

لكل طريق اسما كذلك، ولكن هذه الأسماء لم تكن مكتوبة على جدرانها . كما أن المنازل لم تكن مرقومة بأرقام التعداد. أما الاستصباح = الضوء من المصابيح = العام في الطريق فمجهول بالمرّة وغاية ما هنالك من الضوء في الليل ما يعلقه الأغنياء من الفوانيس على أبواب منازلهم في أثناء الليل. ومواقع المدن والقرى اختيرت بمحض المصادفة وبدون رعاية شرط ما من الشروط التى تقتضيها قواعد الصحة التى يهملها سكان القطر وأهل القرى منهم خصوصا فيضرون بأنفسهم ضررا بليغا . فإنك تراهم يتركون المنازل يعمل فيها الفناء بلا اكتراث فتشقق جدرانها وتنتشل أحجارها فلا تلبث أن تصبح ملتقى لصنوف الحشرات والأفاعى، وهذا فضلا عن إغفالهم إزالة الأنقاض التى تتراكم على الأرض، وربما زادوا الطين بلة بإلقائهم عليها من غير كراهة ولا تقزز قمامات المنازل وقاذوراتها وما تعافه النفس من فضلات طعامها فيكون ذلك شر بؤرة تنبعث منها عناصر الأمراض الوبائية.

(٣)

التقسيمات الأرضية

التقسيمات فى الأزمان القديمة — التقسيمات فى عهد المماليك — التقسيمات الحالية — المديرليات الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة.

٢٠. التقسيمات فى الأزمان القديمة .

كانت مصر على عهد الفراعنة مقسمة إلى ستة وثلاثين نوما — أى قسما أو مديرية، وكل نوم أو مديرية إلى مراكز صغيرة. وكان أربعة عشر من تلك الأقسام بالوجه البحرى واثنان وعشرون بالوجه القبلى. وحافظ البطالسة على هذا التقسيم فلم يدخلوا عليه تغيرا ما، فلما صارت مصر فى أيام أغسطس قيصر إقليما رومانيا رأى أنها من الأهمية بحيث لا يليق أن تعهد إدارتها إلى حاكم واحد فجعلها اثنى عشر قسما فقط.

٢١. التقسيمات فى عهد المماليك

أما فى عهد المماليك فكانت مصر مقسمة إلى خمسة عشر إقليما . تسعة منها فى الوجه البحرى وهى البحيرة ورشيد والغربية ومنوف ودمياط والمنصورة والشرقية وقلوب والجيزة، وثلاثة فى مصر الوسطى وهى أطفح والفيوم وبنى سويف، وثلاثة فى مصر العليا — أى الصعيد وهى أسيوط وجرجا وطيبة، وحافظ بونا بارتته على هذا التقسيم فلم يدخل عليه تعديلا ما.

٢٢- التقسيمات الحالية

أما محمد على فقد غير هذه التقسيمات برمتها. إذ قسم القطر أقساماً إدارية رأى أنها أصلح لحصر السلطة وأدعى إلى تركيزها وتوحيد أعمالها. فجعلها سبع حكومات أصلية يقوم على تدبير شئونها المديرون، وقسم هذه الحكومات أو المديرلكيات = مديريات = إلى مقاطعات والمقاطعات إلى مراكز يحوى كل مركز منها عدداً من القرى.

وقسم الوجه البحرى إلى أربع مديركيات ومصر الوسطى والوجه القبلى إلى ثلاث، وجعل عدد المقاطعات فيها كلها أربعاً وستين مقاطعة وظهر من الإحصاء أن عدد القرى بلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة قرية.

وسأبين هنا مراكز المديرلكيات والمقاطعات التى تتألف منها والمدن الشهيرة والقرى المهمة التى تحتويها.

٢٣- المديرلكية = المديرية = الأولى

تتألف هذه المديرلكية من أقاليم البحيرة وهى مقاطعات الرحمانية والنجيلة وشبرى ريس ودمنهو. وفى الطرف الشمالى الغربى من هذا الإقليم ثغر الإسكندرية. ومن أهم قراه أبوقير وديروط والطرانة ثم إقليم الجيزة ويتألف من مقاطعتى الجيزة والبدرشين، وفيها من المدن ميت رهينة (منفيس) ودهشور وسقارة.

أما القاهرة فلم تكن داخلية فى إحدى المديرلكيات، ولكنها توجد بحكم وضعها فى إقليم، الجيزة ثم إقليم قليوب، ويتألف من مقاطعات قليوب والمرج وبنها العسل وطحا. ومن قراها الشهيرة شبرى = شبرا = والخانقاه وأبوزعل والمطرية.

٢٤- المديرلكية الثانية

تتألف من إقليم منوف، وهى مقاطعات أشمون جريس والباжور وشبين الكوم ومليج وابيار، ومن قراها الشهيرة منوف، ثم الغربية وتتألف من مقاطعات قوه وزفتى وطنطا والجعفرية والشباسات والمحلة الكبرى ونبروه وشربين ودمياط. ومن مدنها رشيد وهى لا تدخل فى إدارة مديرى المحلة الكبرى.

٢٥- المديرلكية الثالثة

تتألف من إقليم المنصورة، وفيه مقاطعات ميت غمر والسنبلاوين والمنصورة والوادى ومحلة دمنة والمنزلة ومن قراها الشهيرة فارسكور

والعريش والتينة بالقرب من أطلال الفرمة.

٢٦. المديرلكية الرابعة

تتألف من إقليم الشرقية، وهى مقاطعات شيبة النكارية والعزيزية وبلبليس وههيا وأبوكبير وكفور نجم.
أما أطفيح فتتألف من مقاطعة واحدة من أشهر قراها التبين.

٢٧. مديرلكية مصر الوسطى

هذه المديرلكية تشمل الفيوم وبنى سويف وتتألف من ست مقاطعات وهى فمى العروس والفيوم وبنى سويف، والفشن وأبوجرج. ومن قراها الشهيرة الزاوية وأبوصير الملق ومدينة الفيوم واللاهون ومعصرة دروة.

٢٨. الوجه القبلى والصعيد

ينقسم الوجه القبلى إلى مديركيتين تشمل الأولى بنى مزار والمنيا وزاوية موسى وديروط وملوى والقوصية ومنفلوط والدوير والشروق وأسيوط وسوهاج وطهطا وأخميم وبرديس وجرجا وفرشوط.

وتشمل الثانية مقاطعات قنا وقوص وإسنا وإدفو. ومن أشهر مدنها دندره ومدينة أبو.

(٤)

أشهر مدائن القطر المصرى حالا

الإسكندرية - أبوقير - رشيد - دمياط - دمنهور - الرحمانية - فوه - المنصورة - المحلة الكبرى - طنطا - المدن الأخرى فى الوجه البحرى - القاهرة - بنى سويف - الفيوم - فيديمين - المنيا - الأشمونين - منفلوط - أسيوط - أخميم - جرجا - قنا - قوص - إسنا - أسوان - السويس - القصير.

سأتوخى فى كلامى على أهم مدائن مصر الحالية المرور بها مرا سريعا، وسأبتدىء بالواقع منها فى الوجه البحرى ثم أتبع فى ذكر البقية ترتيبها بحسب مجرى النيل صعودا . وهذا الترتيب ينطبق على الطبيعة. إذ هو الذى يراها بمقتضاه السياح والرحالون الذين يزورون القطر المصرى.

٢٩. الإسكندرية

قال نابليون: «اشتهر الإسكندر بتأسيسه مدينة الإسكندرية وانصراف نيته إلى اتخاذها مركز دولته وعاصمة ملكه أكثر من اشتهاؤه بفتوحاته

العظيمة وانتصاراته الباهرة.

فقد كان مقررا أن تصير تلك المدينة عاصمة العالم بأسره، وهى حرية بذلك لوجودها بين آسيا وأفريقيا واتصالها بالبلاد الهندية والأصقاع الأوربية. ومينائها هو المرسى الوحيد للسفن على مدى خمسمائة فرسخ من السواحل الممتدة من تونس أو قرطاجنة القديمة لنهر النيل ومينائها يسع أساطيل العالم بأجمعه وفي الميناء القديم تكون عرضة لعبث الرياح وهجمات الأعداء».

وموقع الإسكندرية فى درجة ٥ ، ١٣ - ٣١ من العرض الشمالى ودرجة ٣٠ ٣٥ - ٢٧ من الطول الشرقى ، وقائمة بالقرب من بحيرة مريوط على البرزخ الذى بين القارة وشبه الجزيرة التى يتكون منها الميناء القديم والميناء الجديد. أما الميناء الجديد وهو الواقع إلى الشرق فمتسع المدخل ولا أمن فيه على السفن إذا لجأت إليه أثناء اضطراب البحر. وفى النهاية القصوى من لسان الأرض الواقعى له قلعة المنارة، سميت بذلك لأنها مشيدة على المكان الذى كانت به فى الأزمان القديمة منارة البطالسة. أما الميناء القديم فإلى الغرب من الأول وهو حوض عميق جدا إذا لجأت إليه السفن أمنت على نفسها عبث الأمواج بها، والبوغاز المؤدى إليها يتعذر المرور منه على السفن الكبيرة التى جزؤها الغائص فى الماء عميق. وكان الدخول منها إلى الميناء ممنوعا ومحرمًا على المسيحيين قبل أن يتسلم محمد على مقاليد الحكم. إذ كان لا يجوز لهم النزول إلى البر إلا فى الميناء الشرقى الشديد الخطر على السفن - كما قلنا.

وموقع الإسكندرية، وقد أحاط بها البحر من جهة ورمل الصحراء من جهة أخرى، يجعلها كالجزيرة. وليس فى المدينة الحالية شىء من الإسكندرية القديمة غير الاسم والأطلال الدارسة، وقد لاحظ الكثيرون هذا الأمر. والذى خططها وأقام مبانيها بمقتضى الأوضاع والأوصاف التى عينها الإسكندر الأكبر هو بنفسه المهندس (دينوقراطس) ويؤخذ من رواية (بليناس) أن طول محيطها كان خمسة فراسخ تقريبا ، وأن عدد سكانها كان ٣٠٠,٠٠٠ من الأحرار ومثلهم من الأرقاء. وكان يشقها من الشمال إلى الجنوب شارع طوله ٢٠٠٠ قدم وعرضه ١٠٠ قدم يقطعه فى زوايا قائمة شارع آخر مثله. وكانت أحيائها محلاة بالمباني المنجدة من القصور الباذخة والهيكل الفخمة والمدارس الجمنازية والمسارح التمثيلية..إلخ.

ويؤخذ من أقوال المؤرخين العرب أنه لما استولى عمرو بن العاص على الإسكندرية كانت مؤلفة من ثلاث مدائن تسمى إحداها «منه» والثانية «نكيت» والثالثة «الإسكندرية» ووصفها ذلك الفاتح العظيم في كتاب بعث به إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال إنه وجد بها ٤٠٠٠ قصر و ٤٠٠٠ حمام و ٤٠٠٠ ملهى وبناية عامة و ١٢٠٠٠ مخزن أو مستودع للتجارة.

وقبيل سنة ١٢١٢ من الميلاد المسيحي أحاطها أحد السلاطين ممن حكموا بعد السلطان صلاح الدين بسياج طوله الدائري فرسخا يتخلله مائة برج ولا يزال هذا السور قائما إلى الآن ورممه محمد علي.

وقد سقطت مدينة الإسكندرية من علوة مجدها منذ فتحها المسلمون وهبطت إلى الدرك الأسفل من الحضيض في عهد المماليك. فليس بغريب إذن أن تكون في أيام وصول الحملة الفرنسية إلى القطر المصري واحتلالها إياها قرية يأوى إليها القرصان، وأن لا يتجاوز عدد سكانها ٨٠٠٠ نسمة وأن تكون حصونها وقلاعها آيلة للسقوط وأن ينتابها العربان في كل وقت للنهب والسلب. حتى أن الإنسان كان لا يستطيع الخروج منها لزيارة عمود بومبيوس (السواري) الواقع على مسيرة عشر دقائق من المدينة من غير حرس يحرسونه.

ولم يطل احتلال الفرنسيين لمصر ليتمكنوا من إحلال الإسكندرية في المرتبة الأولى التي تجعلها حقيقة بها بموقعها الطبيعي على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وكل ما استطاعوا أن يقوموا به فيها من الأعمال أن شادوا حولها الاستحكامات اللازمة لوقايتها من غارة العربان وترميم الاستحكامات القديمة التي عملت فيها يد البلى والاندثار.

وما أن استتب لمحمد علي الحكم على الديار المصرية حتى أدرك بثاقب نظره وصائب فكره مالها من الأهمية العظمى من الوحوش = الوجوه = الحربية والبحرية والتجارية، وهي الأهمية المستمدة من طبيعة موقعها كما ذكرناه. فإنها بلا مرء المفتاح الحربي للقطر المصري، وأول نقطة يتصدى لها العدو المغير بهجمات. فكان في الدرجة القصوى من الأهمية السهر على توطيد تلك الحصون والاستحكامات وتعهدها بما يجعلها على الدوام مكيئة البنيان وثيقة الأركان. ولاشك في أن احتلال الانجليز إياها سنة ١٨٠٧ ألقى في نفس محمد علي الاعتقاد بأن أقل إهمال في هذا المصدر ربما كان فيه

القضاء على نفوذه ومكانته أبد الأبدین.

ومرفئاً الإسكندرية هما الوحيدان اللذان على السواحل المصرية ، وإذا كانت الأساطيل ضرورية لصيانة استقلال القطر المصرى الذى لا تستطيع الدول الأوربية تهديده إلا عن طريق البحر. فالإسكندرية المرفأ الوحيد الذى تستطيع هذه الأساطيل اتخاذه مكمنا يتعذر الهجوم عليها فيه. فقد كان من الواجب اغتنام هذه المزية الطبيعية وهو ما لم يغفل عنه محمد على لأنه جعل الإسكندرية ثغراً حربياً وأنشأ بها داراً للصناعة (ترسانة) فارتفع لها شأن بين مرفأء البحر الأبيض المتوسط.

أما الأهمية التجارية لكل نقطة من نقط سواحل مصر على البحر الأبيض المتوسط فتابعة لسهولة المواصلات بينها والقاهرة التى هى المركز التجارى والصناعى والسياسى لذلك القطر وكانت الإسكندرية قديماً تتصل بالجهات الداخلية من القطر بفرع النيل الذى كان واصلًا إليها. فلما انسدت هذه التربة بانهيال الأتربة فيها كان أول ما عنى الفاتحون العرب به إيصالهم إليها بالقاهرة بترعة أجاد المؤرخون الشرقيون وصفها: ولكن هذه التربة لم تلبث فى أيام أن اندثرت كسابقتها وأصبحت لافرق بينها والخندق البسيط يجف الماء منها أثناء الشطر الأكبر من السنة، فنشأ عن ذلك أن فقدت الإسكندرية مكانتها التجارية التى آلت من بعدها إلى ثغر رشيد.

غير أن محمد على أبى أن يستمر هذا الغبن. فأعاد إلى الإسكندرية أهميتها الأولى بإنشائه ترعة تسير فيها السفن سماها بالمحمودية نسبة إلى السلطان محمود إجلالا وتخليدا لاسمه، ومنذ هذا الحين انحصرت دائرة التجارة فى الإسكندرية وجعل ناظر التجارة المصرية مقره فيها لهذا السبب، ولكى يباشر أيضاً مبيع الحاصلات الخاصة بالتصدير إلى التجار الأوربيين.

ولما نهضت الإسكندرية من عثرتها وعادت إلى نضرة شبابها الأول من الوجوه الثلاثة المتقدمة ازداد عدد سكانها بسرعة غريبة فوصل إلى ٦٠٠٠٠ نسمة الثلث منهم يعملون فى الأساطيل والمصانع نوتية أو صناعاً. والثلثان الباقيان نصفهما — أى عشرون ألفاً من الأهالى الوطنيين والنصف الثانى منه ستة آلاف من الأتراك وعشرة آلاف من اليهود والقبط وخمسة آلاف من الأوربيين. ولا يدخل فى هذا التعداد السكان الرحل — أى الذين يأتون إلى الإسكندرية لقضاء الأشغال أو لمجرد السياحة ثم يعودون إلى مواطنهم.

ولقد تغير منظر المدينة تغيرا محسوسا خلال السنوات الأخيرة. فلقد كانت المقابر الفسيحة بداخل المدينة فزحزحت إلى خارجها، وبعد أن كانت مستنقعات المياه الراكدة تتخللها جفت ورددت. أما الطرقات فمن المحقق أنها لم تفرش بالبلاط، ولكن العناية بنظافتها متواصلة وأنشئت على أعطافها = جوانبها = في كثير من جهاتها المباني المختلفة ودور الصناعة (الترسانات) والقصور والثكنات العسكرية والفاوريات والمستشفيات.. إلخ وهدم قسم عظيم من الأسوار التي كانت محيطة بها من ناحية البحر لتحل المباني الجديدة محلها وتنمو المدينة النمو الطبيعي الذي كانت بحاجة إليه.

ودار الصناعة البحرية (الترسانة) مشيدة في شبه الجزيرة المعروفة برأس التين كما شيد فيها قصر الوالي وجملة من المباني المخصصة لمصالح الحكومة.

أما البرزخ الواصل بين رأس التين والأرض القارة. ففيه الحى الذى يسكنه الأتراك وهو مشيد على النمط المألوف في المدن الإسلامية.

ويلي ذلك الحى حى الأوربيين، وكان بالإسكندرية في الزمن السابق حى أفرنجى يسكنه الإفرنج - أى الأوربيون - فصار أرقى بكثير من بقية أحياء المدينة الأهلة بالوطنيين منذ أقيمت مقاليد الحكومة إلى عهد محمد على واتخذ القناصل الجنراليون الإسكندرية مقرا لهم.

وفي سنة ١٨٢٤ نزلت الإسكندرية وافدا عليها من الخارج فكانت لا تقع عين الناظر في الحى الإفرنجى إلا على بضع وكائل. أما الآن فقد انقلب هذا الحى رأسا على عقب وتغيرت معالمه. فامتد من وسط الميناء الجديدة إلى مسلة كليوباتره. وبجوار هذا الاثر الآن ميدان جميل مستطيل الشكل طوله ٨٠٠ قدم وعرضه ١٥٠ قدما. وقد شيدت المباني الحافة به من كل جهة على الطراز الأوربى وبحسب تصميمات هندسية متقنة. ويملك سمو إبراهيم باشا بعض هذه المباني الشاهقة ويسكن بعض قناصل الدول الكبرى البعض الآخر. ودار القنصلية الفرنسية منها تمتاز عن دور القنصليات الأخرى بمتانة بنائها وجمال هيئتها.

وداخل السياج المتكون من حصون المدينة أكمتان = تلآن = ارتفاع كل منهما مائتا قدم تقريبا وعلى قمة كل منهما طابية أنشأها الفرنسيون، ولا تزال إحدى الطابيتين تحمل اسم البطل (كفاريللى دوفالجا) القائد في فرقة الهندسة والمتوفى في حصار عكا، وهذه الأكمة وهى أقرب الأكمتين من المدينة

عبارة عن مجموعة أكام من الأنقاض يرجع تاريخ وجودها على الأرجح إلى زمن حكم العرب. أما الأكمة الأخرى المعروفة بكوم الدكة فصخرة حجرية تشرف على المكان الذى كان يشغله فى الزمن القديم أحد ملاهى التمثيل، وكانت المساكن التى حولها عششا وأكواخا حقيرة لبعض العربان. أما الآن فبالنظر لما تبينه الأوربيون من جودة موقعها وحسن مناخها وموافقتها لصحة المقيمين بها شيدت المباني عندها، وأقيمت القصور فى وسط الحدائق الغناء.

والخرائب والأطلال منتشرة بضواحي الإسكندرية إلى مسافة كيلومترين منها وهى تدل صراحة على صدق ما رواه المؤرخون عن عجائب المدينة القديمة وتحفها وصحة ما قالوه بشأنها وأنه لم يكن مبالغا فيه، ولاريب فى أن مواد البناء التى شيدت بواسطتها منازل الحى العربى أخذت من هذه الأطلال الدائرة وكان أخذها من الطبقة الظاهرة على وجه الأرض دون الطبقات التى تحتها، وهذا هو السبب فى أن المنقبين عن الأطلال القديمة يعثرون كلما حفروا على مقابر وافرة منها ، وكثيرا ما يهبطون أثناء الحفر إلى عمق ستين قدما.

أما المباني العامة التى بثر الإسكندرية فهى دار الصنعة (الترسانة) وقصور سمو الوالى فى رأس التين، وهى تتألف من الحرم والديوان والحجرات الخاصة بمحمد على والمسافرخانة التى أعدها الوالى لضيافة وإكرام كبار الزائرين والمسافرين والسياح. وفى الإسكندرية مصلحة لمراقبة الشئون الصحية ومستشفيات أحدها للبحرية وهو المعروف بمستشفى الحمودية ويسع من ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ مريض، وهناك مستشفى آخر للجنود البرية يعرف بمستشفى رأس التين ويسع من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ مريض وفى المدينة كلها نحو ثلاثين مسجداً.

٣٠. أبوقير

إذا اشتط السائر الساحل شرقى الإسكندرية كان أول ما يلتقى به فى طريقه قبل وصوله إلى بحيرة إدكو ساحل اشتهر بالواقعة البحرية التى ذهبت بثمرات الحملة الفرنسية وبفوز بونابرت على الأتراك فى السنة التالية التى أصيب فيها بذلك الفشل - أى على أثر عودته من بلاد الشام. فذلك

المكان ذو الشهرة المضاعفة الذى يثير فى نفس كل فرنسى لواعج الحزن كما يحرك فيها بواعث الفخار والمجد هو «أبوقير».

أما القرية المسماة بهذا الاسم فواقعة فى المكان الذى كانت فيه قديما بلدة (بوزيرس) المشهورة بهيكلها المشيد للإلهة إيزيس وبالأعياد السنوية التى كان المصريون يقيمونها به.

وأهمية موقع أبى قير من الوجهة العسكرية لا تذكر، ولولا أن سواحلها معرضة لهياج الأمواج لكانت أصلح موقع تنزل منه حملة أجنبية للإغارة على الديار المصرية. ولقد أدرك الوالى بثاقب فكره تلك الأهمية فأنشأ به حصونا واستحكامات جعلته أمنع من عقاب الجو، كما أيده الكثيرون من العارفين بحقيقة الحال.

٣١ - رشيد

مدينة رشيد واقعة فيمايلي بحيرة المعدية على الضفة اليسرى من الفرع الغربى للنيل. وموقعها على مسافة فرسخ ونصف من البحر المالح فى ملتقى ٢٥ ٣١ من العرض الشمالى بـ ٨,٥ - ٢٨ من الطول الشرقى. والسفر إليها برا باشتطاط الساحل وبحرا باجتياز ممر شديد الخطر عند مصب النيل، وهذا الممر أو البوغاز يفتحه التيار فى الكثبان الرملية المتكونة من رواسب النهر. وهو شديد الاختلاف، ومن هناك جاءت الصعوبة التى تعترض السفن فى اجتيازها إياه.

وبعد اجتياز البوغاز يرتسم فى باصرة الانسان منظر يفتن العقل ألا وهو منظر سهول الدلتا وقد فرشت ببساط طبيعى من سندس أخضر ونثرت عليه الحاصلات الذهبية اللون، ورسمت فيه صور غابات النخل، والقرى والمدائن تعلوها منارات المساجد ذاهبة إلى السماء كأنها سهام حادة النصال، وتلك السهول تمتد إلى أقصى مدى النظر فتنتهى إلى حيث ينتهى الأفق وتعجز الباصرة عن نظر ما والاها.

ويقول العرب: إن مدينة رشيد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى هارون الرشيد الخليفة العباسى. وقد حازت أهمية تجارية كبرى عندما سقطت الإسكندرية وتدهورت إلى الحضيض، ولكن التجار لم يلبثوا أن هجروها منذ

أنشئت ترعة المحمودية وأعادوا إليها بانشائها المزايا التي فقدتها زمنا ما، وقد نقص عدد سكان رشيد للسبب المتقدم نقصا محسوسا فهو لا يتجاوز الآن ١٥٠٠٠ نسمة. وهى مشهورة بمعامل الأرز فيها وبحدائقها الغناء التى يبالغون فى وصف جمالها وهى على نسق الحدائق الشرقية التى وصفتها فيما تقدم بما يزجى = يسوق = إلى ذهن القارئ فكرة صحيحة عنها.

ويبلغ ذرع = مساحة = مدينة رشيد نحو الفرسخ طولا فى رבעه عرضا. ومما يلفت النظر فيها مسجد آية فى حسن البناء ومعمل لنسج القطن ومعامل لضرب الأرز منها واحد يدار بالبخار وثكنة فسيحة للجنود. وفى جنوب رشيد زاوية شهيرة بنيت على ضريح شيخ مشهور بالتقوى والورع يعرف عند الأهلى هناك باسم سيدى مندور، والذى يصعد فى منارة مسجد هذا الشيخ يرى منظرا عجبا يتناول ما ينتهى البصر إليه برا وبحرا.

٣٢- دمياط

تغر دمياط على الضفة الشرقية من الفرع الشرقى للنيل الذى كان معروفا أيام الفراعنة بالفرع (الفتنى) وهو بعيد عن البحر الملح بنحو فرسخين وعن بحيرة المنزلة بنحو نصف فرسخ فى ملتقى خط ١٥ - ٢٩ - ٢٩ من الطول الشرقى بالخط ٤٣ - ٢٥ - ٣١ من العرض الشمالى. وليست الآن فى نفس الموقع الذى كانت تشغله أيام الحروب الصليبية. والمدينة التى هاجمها الصليبيون مرارا حتى وقعت فى قبضتهم سنة ١٢١٨ من الميلاد هى دمياط القديمة لا الحديثة، ثم استولى عليها القديس لويس سنة ١٢٤٩ ولما ردها هذا الملك إلى المسلمين فى مقابل إطلاق سراحه هدمها هؤلاء وأنشأوا المدينة الحالية على مسافة فرسخين من الأولى.

وضواحي دمياط مشهورة بمزارع الأرز، أما هى فإنها المستودع الكبير لأصناف أرز القطر المصرى، ولها بالشام صلات تجارية وثيقة، وكانت لمعامل النسيج بها فى الزمن السابق شهرة ذائعة وصيت بعيد. وقد أبلغ بعضهم عدد سكانها إلى ٦٠ أو ٨٠ ألف نسمة. وهذان الرقمان مبالغ فىهما. لأن هذا العدد لا يتجاوز اليوم ٢٥ إلى ٣٠ ألفا فقط.

وأشهر مباني دمياط وأجملها المساجد وما شاده الوالى فيها من معامل الأرز ومستودعاته، وقد أنشأ سموه بها ثكنات للجند ومدرسة للمشاه (البيادة).

٣٣- دمنهور

دمنهور أول مدينة كبيرة يمر المسافر بها وهو متجه نحو الغرب، وهي على مقربة من ترعة المحمودية ويتراوح عدد سكانها بين ٨ و ١٠ آلاف نسمة.

٣٤- الرحمانية

مدينة صغيرة على النيل وعلى مقربة منها أطلال مدينة (صا) أو (صائيس) القديمة، وبالقرب منها أيضا كانت مدينة (نوقراطيس) وهي الوحيدة التي فتح قدماء المصريين أبوابها من مدن القطر المصرى كله للتجارة مع الأجانب.

٣٥- فوه

واقعة على النيل بين الرحمانية ورشيد تجاه فم الترعة المحمودية وكانت في القرن السادس عشر على مكان من الأهمية ولكن قلت أهميتها وتلاشى وجودها التجارى منذ أن انسدت ترعة الإسكندرية التي كانت واصله بينها وهذا الثغر وكانت من بواعث تقدمها بما كان يرد إليها بواسطتها من البضائع والأرزاق وقد علا في هذه الأيام نجمها بإنشاء سمو الوالى فيها فاوريقة لصنع الطرابيش على مثال المصنوع منها في تونس ومعملا لغزل القطن وطاحونا لضرب الأرز.

٣٦- المنصورة

واقعة على الضفة اليمنى من فرع دمياط، وتبعد عن هذا الثغر بنحو اثنى عشر فرسخا وقد اشتهرت بانكسار الجيش الفرنسى الصليبي الذى كان يقوده ملك فرنسا لويس التاسع عشر المعروف بالقديس لويس، ولا يزال يوجد بها في ميدان صغير مقابل للنيل المكان الذى سجن فيه هذا الملك بعد أسره. ومما يرى في المنصورة غير ذلك أطلال قبة يقال إنها التي أمضى القديس لويس تحتها معاهدة الصلح القاضية برد ثغر دمياط والجلاء عنه. وفيما بين المنصورة ودمياط بلدة فارسكور التي انكسر فيها جيش القديس لويس الأول مرة . فكان هذا الانكسار سبب خذلانه وحبوط آماله.

٣٧- المحلة الكبرى

يؤخذ من أقوال بعض الجغرافيين أن المحلة الكبرى الواقعة الآن بداخل

الدلتا على مقربة من فرع دمياط تشغل موقع مدينة (سينوبوليس) أى (مدينة الكلاب) وهى على شىء من السعة وانفساح الجوانب. ومع أنها الآن فى غير ما كانت عليه سابقا من ارتفاع الشأن وجلال القدر فلا يزال عدد سكانها متراوحا بين ١٦ و ١٨ ألفا من النسومات، ولعامل نسيج قماش التيل فيها شهرة فائقة ، وقد أنشأ سمو الوالى بها فاوريقة جليلة لغزل القطن ونسج الأقمشة.

٣٨- طنطا

يلقى الصاعد من بحرى القطر المصرى إلى قبليه عن يمينه بالنسبة للمحلة الكبرى مدينة طنطا. وهى مدينة صغيرة اشتهرت بتقاطر الجم الغفير من الناس إليها لحضور المولد الأحمدي . والسيد أحمد البدوى صاحب هذا المولد مدفون فى مسجد مشهور به، وهو من أشهر مساجد القطر المصرى وأجملها. ومن الكرامات المنسوبة إليه أن التوسل به يزيل العقم ويشفى الأدوية المستعصية.. إلخ. وهذا الاعتقاد جعل المصريين يتواردون إليه من جميع أنحاء القطر المصرى، وهذا فضلا عن أن الخجاج الذين يقصدون إلى الحجاز يقفون بطنطا فى طريقهم لزيارة ضريحه.

والوقت الذى أجمع الناس على اختياره لزيارة السيد البدوى هو المولد الذى يقام فى كل عام إجلالا له، وهو أهم الموالد الثلاثة التى تقام عادة فى تلك المدينة ، والاثنان الآخران هما مولد سيدى عبدالعال ومولد الرجبية. وفى المولد الكبير تزدهم مدينة طنطا بالزائرين. إذ يقصد إليها التجار من بلاد تركيا وفارس والهند وبلاد كثيرة من إفريقية يحملون إليها معهم الأقمشة المطبوعة والمناديل والأقمشة الحريرية ولعب الأطفال والأوانى الصلصالية والخزفية وريش النعام والأرقاء.. إلخ للاتجار بذلك وغيره. وهم يعرضون هذه البضائع على الأنظار فى الوكائل وتحت الظلات التى كثيرا ما تشغل متسعا من الأرض طوله نحو الأربعة فراسخ على صفين متوازيين.

أما الذين يحضرون إلى المولد بقصد الزيارة لا الاتجار فإنهم يضربون الصواوين والخيام بقرب المدينة فيجىء الحواة وبنات الهوى والراقصات والعازفون المتنقلون بالموسيقى ليطلعوا تلك الجماهير على فنونهم وصناعاتهم. وقد اعتادت الحكومة أن ترسل إلى طنطا فى أيام المولد أربعة

آلاف جندي لحفظ الأمن والنظام ، ولكنهم قلما يستطيعون منع اللصوص والمحتالين من استلاب الناس أموالهم بما هو معروف عنهم من الحيلة والتمويه والدهاء. وبانتهاء المولد الأحمدي تعود مدينة طنطا إلى سابق عهدها من السكون وتخلو طرقاتها وضاحيتها من الناس، وتصبح كأنها قفر بلقع ليس فيه ديار ولا نافخ نار.

٣٩- مدائن الوجه البحري الأخرى

مدائن الوجه البحري الأخرى الجديرة بالذكر هي:

منوف — قرية عظيمة بالقرب من رأس زاوية الدلتا ، وبها مسجد فيه أعمدة جميلة.

وإلى شرق فرع دمياط بالطريق الموصل إلى الشام القرى والبلدان الآتية: بلبيس — حصنها نابليون بونابرت — وبالقرب منها كانت توجد على عهد البطالسة مدينة (أونيون) التي أنشأ بها (أونياس) ابن أحد كبار الأحرار اليهود هيكلًا عبريًا على طراز هياكل أورشليم ، وفيه كانت تقام شعائر الديانة اليهودية.

الصالحية — بلدة واقعة في وسط مديرية الشرقية.

وأبوزعبل والخانقاه — اكتسبتا أهمية وشهرة في العهد الأخير، وهما واقعتان في الطريق من الصالحية إلى القاهرة على مسافة أربعة فراسخ من هذه ومثلها من النيل. أما القريتان فتبعدان إحداهما عن الأخرى بنحو نصف فرسخ، وفي كل منهما نحو ١٥٠٠ نسمة. وفي المسافة الفاصلة بينهما سهل عظيم غير مزروع يواجه صحراء برزخ السويس الذي حدثت فيه الواقعة بين جيش الصدر الأعظم المؤلف من ٨٠٠٠٠ مقاتل وجيش الفرنسيين المؤلف من ٩٠٠٠ مقاتل بقيادة (كليب) ودارت الدائرة فيها على الجيش الأول. إذ دحره الجيش الثاني ومزق شمله. وفيه أيضا أقيم ميدان التعليم للجيش المصرية النظامية، وأنشئت المدارس الأولى لأركان حرب الطوبجية، وكذا مدرسة الطب المشهورة باسم مدرسة أبي زعبل.

المطرية — بلدة من ضواحي القاهرة قائمة على أطلال عين شمس — إحدى مدن مصر القديمة الذائغة الصيت — وتحوى آثارا وأطلالا ذات علاقة

بالديانة المسيحية في إبان أمرها كالبئر التي استقى منها الماء يوسف النجار ومريم والولد يسوع في فرارهم إلى مصر، وشجرة الجميز التي آووا إلى ظلها. وهذه الآثار يجلبها المسلمون والمسيحيون على السواء. والمطرية شهيرة بالمعركة التي وقعت بجوارها بين الفرنسيين والأتراك، وكان الظفر المبين فيها للأولين على الآخرين.

٤٠- القاهرة

تقع القاهرة في ملتقى الخط ٢١ ٢ ٣٠ من العرض الشمالى بالخط ٣٠ ٥٨ ٢٨ من الطول الشرقى. وهى قائمة على سهل رملى وتبعد عن النيل بنحو ٤٠٠ تواز، وعن رأس الدلتا بنحو خمسة فراسخ ونصف وعلى مقربة من السفوح الأخيرة لجبل المقطم. والقاهرة الأصلية وتسمى أيضا بالقاهرة العظمى تتحصر بين بولاق مرفأها في الشمال ومصر العتيقة مرفأها في الجنوب.

وتشغل مصر القديمة المكان الذى كانت فيه بابل مصر قديما. وكان عمرو بن العاص محاصرا لها حينما عشتت حمامة على فسطاطه فلما بلغه هذا الخبر سر به واستبشر. فلم يشأ أن يزعجها بتقويض الفسطاط يوم عن له الرحيل إلى الإسكندرية لفتحها، ولما تم له فتحها وعاد اختط له عاصمة حول المكان الذى ترك فيه فسطاطه وسماها «فسطاط مصر».

ولم يكن من حظ المدينة الجديدة أن تتقدم ويتسع نطاقها فإن الصليبيين زحفوا عليها في سنة ١١٦٧ بقيادة (أمورى) ملك أورشليم. فلم يكن من حاكمها حينما رآهم مقبلين عليها إلا أن أضرم فيها النار التى استمر ضرامها فيها خمسين يوما واضطر سكانها أن يلتجئوا إلى الريف المجاور لها وأن يجددوا مساكنهم حول القاهرة التى اختطها في سنة ٩٥٨ للميلاد المسيحى جوهر القائد مولى المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين، فارتفع شأنها بعض الشيء فحلت محل الفسطاط كعاصمة للديار المصرية. واتسع نطاقها وامتدت حصونها وزهت مبانيها بالزخارف الجميلة في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي. ذلك أصل مدينة القاهرة التى يسميها العرب «مصر» وهو الاسم الذى أطلق منذ ذلك الحين على عاصمة الديار المصرية.

والقاهرة أكثر امتدادا في الطول منها في العرض. وتعتبر المدينة الأولى بين مدن الممالك العثمانية المحروسة بعد الاستانة. إذ إنها تشغل من الأرض ما مسطحه ٩٠٠ هكتار ويبلغ محيطها ٢٥٠٠٠ متر وتكتنفها آكام ترابية تكونت بتراكم الانقراض المتخلفة عن المباني المصرية التي كثيرا ما تشاد بالمواد الطينية والترابية^(١).

وكان يحيط بالمدينة سور عظيم شاده السلطان صلاح الدين الأيوبي وجعل الأبراج تتخلله على مسافات متقاربة. ولم يبق منه الآن سوى جزء صغير. لأن المدينة باتساع نطاقها ونموها الكبير من ناحيتي الجنوب والشرق ويخترقها على اتجاه طولها مجرى الماء المسمى بالخليج.

وفي القاهرة الآن ثلاثون ألف منزل يقطنها نحو ٣٠٠,٠٠٠ من السكان. وهي مقسمة إلى حارات يتجاوز عددها الخمسين. أهمها على ترتيب الاتجاه من الشمال إلى الجنوب حارات: الشعراوي والأزبكية والنصارى (وهي حارة الأقباط والأرمن والشوام وغيرهم.. إلخ) والروم (أي حارة اليونان) واليهود والإفرنج والموسكى وزويله والأزهر والمؤيد وباب الخرق وبركة الفيل والمغاربة وطيلون = طولون = (وهذه الحارة أقدم حارات مدينة القاهرة) والرميلة وقره ميدان والقلعة.

وبالقاهرة أكثر من سبعين بابا بعضها من الداخل وأهمها في الجنوب: باب السيد وباب طيلون وباب السيدة وباب القرافة. وفي الشرق: باب الوزير وباب الغريب. وفي الغرب من جهة النيل: باب اللوق وباب الناصرية. وفي الشمال: باب الحسينية وباب النصر وباب الفتوح والبابان الأخيران أثنان هندسيان جليلان (وباب النصر يرجع تاريخ انشائه إلى عهد السلطان صلاح الدين) وباب الحديد.

(١) هذه الآكام مرتفعة ارتفاعا وافيا ، وقد أقام الفرنسيون أيام الحملة اليونانية عليها استحكامات وقلعا سهل بواسطتها التسلط على المدينة عند الحاجة. ولما كانت تلك الآكام حائلا منيعا دون انبثاث الهواء في أحياء القاهرة وشوارعها وأزقتها فقد كان في نيتهم إزالتها. ولكنهم عدلوا عن ذلك لصعوبة هذا العمل وطول مايلزم من الزمن للقيام به. وقد كان إبراهيم باشا أول من أقدم على تنفيذ المشروع. إذ أزال أكمتين عظيمتين كان يبلغ ارتفاع كل منهما نحو ٢٠٠ متر وكانتا تشغلان فيما بين بولاق وقم الخليج مسطحا من الأرض مساحته كيلومتر مربع ، وظل العمل قائما على قدم وساق نحو خمس سنوات. فانتفع بالتراب المرفوع في ردم المستنقعات الأسنة المجاورة للقاهرة وسويت الأرض به ومهدت تمهيدا حسنا مكن أولياء الأمر من غرس الحدائق الغناء في مكانها. أما سمر الوالي محمد علي فقد أزال أكمة عظيمة كانت تسد طريق شبرى . وكانت تملأ الاكمتين السالفتي الذكر ، ولست بمتدد في القول بأن إزالة هذه الآكام كانت من أنفع الأعمال الجسيمة التي تمت على عهد محمد علي وإلى مصر.

وشوارع القاهرة مثلها مثل سائر المدن الإسلامية معوجة كثيرة الالتواء والانعطاف والانكسار تقاطعها أزقة منها ما لا يتجاوز عرضه أحيانا أكثر من ثلاثة أو أربعة أقدام وعطفات لا منفذ لها.

وعدد الطرقات الأصلية - أى الكبيرة فيها يزيد على مائتين وأربعين طريقا. وهى غير ما يعترضها من الأزقة والعطفات وعددها ثلاثمائة من هذه ومثلها من تلك. وتتغير أسماء الشوارع غالبا، ومن أكثرها أهمية شارعان يخترقان المدينة فى اتجاه طولها أحدهما هو الممتد من باب السيدة إلى باب الحسينية ويبلغ طوله ٦٠٠ متر، والثانى يساير الضفة اليمنى من الخليج ابتداء من القنطرة الجنوبية المسماة بقناطر السباع إلى قرب باب الشعرية. وهناك خمس طرقات تقطع المدينة فى اتجاه العرض منها ثلاث تتجه من القلعة إلى النيل.

وفى القاهرة أربعة ميادين كبيرة هى: ميدان قره ميدان وميدان الرميطة بجنوب المدينة وميدان بركة الفيل فى وسطها، وميدان الأزبكية فى شمالها الغربى وهذا الأخير هو أكبر الميادين وأفسحها. إذ يبلغ مسطحه داخل مسطح ميدان العرض العسكرى بباريس المعروف باسم (شاندومارس). وإلى الجانب الغربى من الأزبكية البيت الذى سكنه الجنرال بونابرت أيام الحملة الفرنسية. وتلك الميادين يغمرها الماء فى أيام الفيضان إلا ميدان الأزبكية الذى رفع سطحه بعض الشيء ومهدت أرضه وغرست فيه أشجار وجر إليه الماء بواسطة قناة.

وفى وسط المدينة أسواق كثيرة بعضها حقيق بالذكر كسوق الغورية. حيث تباع الشيلان الكشميرية والحريير الموصلى والأقمشة الواردة من الخارج، وسوق الأشرافية حيث تجار الورق، والخان الخليلى حيث تجار الجواهر والنحاس والسجاجيد، وسوق النحاسين وفيه تجار المصوغات وصناعاتها وسوق البندقانية حيث تجار العقاقير والخردوات، وسوق الحمزاوى وفيه تجار الجوخ وسوق السروجية حيث تصنع وتباع سروج الخيل وغيرها، وسوق السلاح وفيه يصنع السلاح ويبيع، وسوق الجمالية حيث تجار البن والتبغ الوارد من الشام.

أما شارع مرجوش الكبير (أمير الجيوش) فيباع فيه بالتجزئة أثواب

الأقمشة المنسوجة في القطر المصرى وهناك وكالة الجلابة التى يباع فيها الأرقاء المجلوبون من وسط أفريقية.

وبالقاهرة أربعمئة مسجد. الكثير منها متخرب أو آيل إلى السقوط وأشهرها من جهة النمط الهندسى مسجد عمر بن العاص المبنى سنة ٢٠ من الهجرة (٦٤٠ من الميلاد) ومسجد الحاكم العبيدى المشيد سنة ٤٠٠ للهجرة (١٠٠٧ للميلاد) على عهد الفاطميين، ومسجد السلطان حسن شاه فى سنة ٧٥٧ للهجرة (١٣٥٤ للميلاد) أحد السلاطين المماليك المعروف بهذا الاسم. وقد قضى البناءون فى بنائه ثلاث سنوات. قال المقرئى: كان ينفق عليه فى اليوم ألف مثقال من الذهب. ومسجد طيلون = طولون = بنى سنة ٢٣٨ للهجرة (٨٥٠ للميلاد) بناه السلطان أحمد بن طولون، ومسجد المؤيد انشأه فى سنة ٨٢٠ للهجرة (١٤١٥ للميلاد) السلطان أبو النصر المؤيد شيخ ومسجد السلطان قلاوون سيف الدين، ومسجد السلطان برقوق بنى سنة ١٠٧٠ للهجرة (١٦٥٥ للميلاد) ومسجد السلطان قايتباى بنى سنة ٨٧٠ للهجرة (١٤٦٣ للميلاد) ومسجد السيدة زينب سنة ٣٠٠ للهجرة (٩١٠ للميلاد) ثم مسجد الأزهر وهو أشهر المساجد على وجه الإطلاق.

والمسيحيين على اختلاف شيعهم ومذاهبهم نحو ثلاثين كنيسة ومصلاة. أما اليهود فلهم عشر بيعات.

وفى الأحياء التجارية والصناعية نحو ألف وثلاثمئة وكالة.

وفى أنحاء متفرقة من القاهرة ألف ومائتا قهوة وثلاثمئة صهريج وسبعون حماما أشهرها بالاتساع وفخامة البناء وحسن الرياش حمام يربك وحمام السلطان وحمام المؤيد وحمام الطمبلى وحمام مرجوش وحمام سنقر وحمام السكرية.. إلخ.

وفى ظاهر القاهرة ثلاث بقاع للمقابر شهيرة باتساع نطاقها. لأن مسطحها يشغل أكثر من ربع مسطح هذه المدينة. وهى القبة بحرى السور وترب قايتباى فى الشرق وترب السيدة أم هاشم فى الجنوب وفى هذه المقابر الواسعة قبور الخلفاء وبعضها آية فى الجمال الهندسى. أما مقبرة القبة فيها قبر الملك العادل وقبور أخرى لبعض السلاطين والبكوات المصرية - أى المماليك.

ولم يكن بالقاهرة في الزمن السابق سوى مستشفى واحد هو المستشفى المعروف بالمارستان وسيأتى الكلام عليه في غضون الفصل الخاص بالحالة الحاضرة للطب في القطر المصرى. وفي ميدان الأزبكية الآن مستشفى ملكى جميل يحوى سبعمائة سرير نصفها للرجال والنصف الآخر للنساء. ويتبع هذا المستشفى مدرسة للولادة ومستشفى للمجاذيب. كل هذا غير المستشفى العسكرى الفخم المعروف بمستشفى قصر العينى الواقع فى الطريق بين القاهرة الكبرى ومصر العتيقة قرب المكان الذى كانت فيه عزبة إبراهيم بك على ضفاف النيل. ويحوى هذا المستشفى ألفا وثمانمائة سرير.

وبالقاهرة غير العدد العظيم من المدارس الخاصة أو الملحقة بالمنشآت الخيرية كالمساجد والأسبلة وأحواض الماء مبان عديدة مخصصة للتعليم والتربية. وفيها قصور جميلة وسرايات واسعة. منها ما يملكه سمو الوالى وكل من إبراهيم باشا وعباس باشا والدفتدار بك حول ميدان الأزبكية، وقصر إبراهيم باشا كجك (الصغير) الذى يشغل من المدينة مكان السرة من الجسم، وقصور أخرى لغيرهم كقصر محمود بك. لا أتصدى للكلام عليها تقية = خشية = الإسهاب فى الموضوع. وعلى ضفاف النيل قصر لإبراهيم باشا وآخر للدفتدار بك وهما مما يلفت النظر بانفساح الأرجاء ورشاقة البناء.

أما القلعة فى الجنوب من القاهرة على الجبل الأخير من سلسلة جبال المقطم، وهى تحكم المدينة، وقد أنشأها فى مكانها السلطان صلاح الدين الأيوبي وليس لها فى الحقيقة أهمية ما من الوجهة الحربية. لأن هناك جبلا آخر يتسلط عليها أنشأ محمد على فيه قلعة صغيرة تعوض ما ينقص القلعة الأصلية من جودة الموقع ومزيتة والوصول إلى القلعة بطريقين منحدرين منحوتين فى الصخر أحدهما واقع إلى الشمال، ويفضى إلى الباب المشهور باسم باب العزب الآخر إلى الشرق ويؤدى إلى الباب المعروف بباب الانكشارية. وقد دمرت القلعة كلها تقريبا فى سنة ١٨٢٤ ميلادية عقب انفجار مخزن للبارود منحوت فى الصخر. فإن ما كان بها من المباني عامئذ سقط كله أو بعضه، ولكن «محمد على» لم يلبث أن أعاد بناءها كلها تقريبا.

وبالقلعة القصر المعد لنزول الباشا كلما جاء إلى القاهرة. وبها أيضا بئر



يوسف الذى سمي كذلك نسبة إلى السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبي الذى أمر بحفرها فيها، وهى بئر مربعة الشكل منقسمة فى اتجاه العمق إلى قسمين ويبلغ طول عمقها ٢٨٠ قدما. وقاعها يستوى مع منسوب نهر النيل. وينزل إليها بسلم حلزونى فى نهاية القسم الأول منه ساقية ذات عجلات يديرها ثوران فيرتفع الماء من القسم الأسفل إلى هذه الساقية التى يرتفع الماء منها إلى ظاهر الأرض عند مدخل البئر بمثل الوسيلة المتقدمة، وإنما حفرت هذه البئر لدرأ خطر قلة الماء فى القلعة إذا أصاب البوابات (العيون) التى تحمل ماء النيل إليها عطب أو قطعت فى جهة ما من جهاتها بفعل فاعل. على أن بالقلعة صهاريج عديدة يكفى واحد منها بضعة آلاف من الرجال سنة كاملة. وبالقلعة أطلال دارسة لقصر السلطان صلاح الدين الأيوبي والعمل بها متواصل الآن لإنشاء مسجد كبير بها أمر بإنشائه سمو الوالى، وفيها أيضا دار للصناعة ومسبك لصب المدافع ومعمل لصناعة الأسلحة ومصانع لإعداد معدات الفرسان والمشاة ولوازمها ومطبعة ودار لضرب النقود يصنع من النقود الذهبية فيها كل سنة ما تعدل قيمته خمسة ملايين من الفرنكات.

وتبتدىء حركة الأعمال فى القاهرة منذ الساعة السادسة من الصباح وتنتهى عند اشتداد القيظ فى ساعة الزوال. فيسود السكون ويظل سائدا حتى الساعة الثالثة بعد الظهر. ولقد أجمع الرحالة الذين كتبوا عن مصر على غرابة ما تقع عليه الأنظار من المرائى فى الشوارع والأسواق والميادين لاختلاط الأهلين على تعدد أجناسهم وتباين لباسهم. وذكر كل منهم ما شاء أن يذكر من متناقضات تلك المناظر الغريبة. فوصف الغنى صاحب الجاه بملايسه الفاخرة المزركشة بالذهب إلى جانب الفقير ذى الثياب الرثة والأطمار البالية وصاحب العمل مارا بخطوات سريعة أمام المتعبد الزاهد الذى يتمطى بلا اكتراث فى الطريق. فتأتى إليه النساء اللائى امتلأت رؤوسهن بالخرافات وباطل المعتقدات ليلمسنه ويربتنه للتبرك به اعتقادا منهن أن هذا الفعل سوف يذهب بأمراضهن، كما وصف أولئك الناس من الأمم العديدة والأديان المتخالفة والمذاهب والشيع المتباينة بالأوصاف الجثمانية والملابس الغريبة يتخلل هذه الجمع النساء اللائى يشبهن الطيف المبهم والسر الغامض، وقد تغطين بأرديتهن وأخفين ملامح وجوههن إلا ما

كان من عيونهن كى يهتدين بها إلى السبيل. دع ما هنالك من اختلاط الحمير بهذا الجمع الكثيف تشق زحامه بدافع من استقزاز السائق الشاب النشيط المتحمس إياها بالضرب تارة والوخز أخرى، إلى جوارها الجمل البطيء النهضة الذى يشعر ثقل مشيته بشيء من الوقار، وعلى مقربة منه جواد الثرى مطهما بأحسن ما تطعم به الدواب ومحلى بأجمل ما تحلى به من مظاهر الأبهة والجلال، إلى جانبه البغلة التى تحمل الشخص الفقيه البصير بعلوم الشريعة تسير الهوينى بخطوات منضبطة القياس لا تزيد على ما يريده الراكب ولا تنقص عنه، إلى جانب ذلك كله الحواة والمشعوزون يدخلون على المارة السرور والدهشة بغريب ألعابهم وحيلهم. والقصاصون متصدرين فى القهوات لرواية القصص والحوادث على مسامع المختلفين إليها من ذوى البطالة والمغرمين بالتدخين، وينضاف إلى هذه الغرائب ما يتركه فى النفس من أثر المنظر الخاص الذى تطبعه القاهرة فيها بشكل بيوتها ذات السطوح المنبسطة وشوارعها الملتوية تلوى الثعبان فى انسيابه وما لا حصر له من منارات المساجد. فإذا مثلت فى خاطرك هذه المناظر مجتمعة كان لك أن تتخيل صورة هذه المدينة وتعتقد أن لا مدينة سواها على وجه الأرض تشبهها فى طابعها العربى الخاص إلا ما كان من المدائن التى ورد وصفها فى حكايات ألف ليلة وليلة. أما بلدة بولاق فإلى الشمال من مدينة القاهرة يفصلها عنها سهل ضيق. موقعها على ضفة النيل، وهى تقوم للقاهرة فى علائقها التجارية مع الوجه البحرى مقام المرفأ، وبها معامل لصنع الجوخ وغزل القطن ونسج الأقمشة ومسبك لصهر الحديد وورشة لبناء السفن النيلية ووكائل ومخازن ومستودعات كثيرة للتجارة، وكذا قصر لإسماعيل باشا توجد به الآن مدرسة الهندسة.

بمصر العتيقة مستودعات للحبوب يعرفها العامة باسم شون يوسف وهى عبارة عن سبعة أفنية مربعة مبنية الأسوار بالآجر. وفى هذه الأفنية أكداس شاهقة من القمح والعدس والفول وغيرها من الحبوب.

٤١ - بنى سويف

بلدة بنى سويف واقعة فى ملتقى الخط ١٥ ٥٢ ٢٨ من الطول الشرقى بالخط ١٢ ٩ ٢٩ من العرض الشمالى وكانت تعرف قديما باسم

(بتوليماثيدون) وسميت باسمها الحالى الذى معناه بتفسير أهلها «بنى السيوف» نسبة إلى واقعة بالسلاح الأبيض كانت هذه المدينة ميداناً لها. ويقرب عدد سكانها الآن من ٦٠٠٠ نسمة، والحركة التجارية فيها أكثر ما تكون نشاطاً في مصر الوسطى. وفيها مصانع السجاجيد الصوفية والأغطية والملاء القطنية التى اشتهرت بها قديماً ، وفيها الآن مصنع مهم للأقمشة القطنية ، وموقعها بالقرب من أحد مصاب البحر اليوسفى الذى يرسل ماءه إلى بلاد الفيوم. وإلى موقعها هذا يرجع الفضل في أهميتها التجارية التى ما برحت محافظة عليها حتى الآن.

٤٢- مدينة الفيوم

أكبر مدائن إقليم الفيوم الخصيب التربة، وموقعها في مدخله، وقد بنيت بأنقاض مدينة (كروكوديلوبوليس) القديمة أى مدينة التماسيح وعلى شطر من موضعها. و(كروكوديلوبوليس) هذه هى التى بدل بطليموس فيلادلفوس اسمها باسم مدينة أرسينوه تكريماً لأخته وتخليداً لذكراها. ويبلغ محيطها الآن نحو الفرسخ ويخترقها فرع من البحر اليوسفى. وكان أمراء المماليك يقصدونها في الأيام السالفة للنزهة والتماس الراحة، وعدد سكانها ١٢٠٠٠ نسمة.

٤٣- فيديمين

أجمل قرى إقليم الفيوم على وجه الإطلاق، وهى مؤلفة من مجموعتين من المساكن، يسكن الأولى المسلمون والثانية الأقباط ، وتحيط بها أشجار الفاكهة التى يكسب تكاثف أغصانها وتشابكها هذه القرية منظرًا جميلاً. وإذا جاءها السياح أطلعهم أهلها على شجرة زيتون قديمة يزعمون أنها أم أشجار الزيتون كافة في القطر المصرى، ويقدرّون لهذا السبب عمرها بعشرة قرون. وهى تأتى كل سنة بمحصول تحسب زنته بأربعمئة كيلوجرام من الزيتون. وهو ما جعل سكان فيديمين يحترمونها ويحافظون عليها.

٤٤- المنيا

واقعة في ملتقى الخط ٣٥ ٢٨ ٢٨ من خطوط الطول بالخط ٢٠ ٢٨ من خطوط العرض الشمالى وموقعها على الضفة الغربية من النيل.

وهى حسنة المباني منتظمة بعض الشوارع بها جملة مساجد متينة البناء
دقيقة الهندسة ، وفيها فاورية لنسج الأقمشة القطنية.

٤٥. الأشمونين

بلدة عدد سكانها من ٧٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ نسمة وهى على الضفة اليسرى
من النيل.

٤٦. منفوط

بلدة على الضفة اليسرى من النيل عدد سكانها ٥٠٠٠ نفس.

٤٧. أسبوط

مدينة واقعة فى ملتقى الخط ١٧ ٢٢ ٢٨ من خطوط الطول الشرقى
والخط ١٤ ١٣ ٢٧ من خطوط العرض الشمالى، وتحسب عاصمة الوجه
القبلى. والأراضى التى حولها خصبة وزراعتها ناضرة وحاصلاتها وافرة.
وهى قائمة على أطلال مدينة (ليكوبوليس) القديمة على مسافة ربع فرسخ
من ضفة النيل. وحصونها كان يعتصم الممالك بها كلما زحزحوا عن الوجه
البحرى وطوردوا إليها. ولذا ما برحت حافظة لشيء مما كان لها فى عهدهم
من رفعة الشأن فإن شوارعها أعرض من شوارع المدن الأخرى وأنظف،
وأسواقها عديدة رائجة، وبها مسجدان جميلان وقصر لإبراهيم باشا أنشأه
حينما كان حاكما للصعيد، وحمام عام ملحق بمسجد أنشأه بها محمد بك
الدفتدار، ومعملان أحدهما للغزل والآخر للنسج، وهى محط رحال القوافل
التي تفد من السودان والنوبة وعدد سكانها ٢٠٠٠٠ نفس.

٤٨. أخميم

بلدة صغيرة على الضفة اليمنى من النيل عدد سكانها ١٠٠٠٠ نفس. ألف
منهم يدينون بالنصرانية، وبها فاورية للقطن وهى قائمة على أطلال مدينة
(بانوبوليس) القديمة.

٤٩. جرجا

واقعة فى ملتقى الخط ٥١ ٣٤ ٢٩ من خطوط الطول الشرقية بالخط
٣٠ ٢٢ ٢٦ من خطوط العرض الشمالية، وقائمة بالقرب من أطلال مدينة
(بطوليمائيس) القديمة وعلى الضفة اليسرى للنيل. وهى أكبر مدن القطر
المصرى بعد القاهرة والإسكندرية، كما أنها من مدن الصعيد التى اتخذها
الممالك ملاذا لهم ومعقلا عند مسيس الحاجة. وكانت فى عهد سبق عاصمة

الصعيد كله، وترى بها المساجد الفخمة الجميلة والأسواق الكبيرة، وفيها الآن معمل لغزل القطن وتعداد السكان بين ثمانية آلاف نسمة وعشرة آلاف منهم ٥٠٠ يدينون بالنصرانية وفيها دير للمبعوثين الكاثوليك.

٥٠- قنا

كائنة في ملتقى الخط ٣٠ ٢٤ ٣٠ من خطوط الطول الشرقى بالخط ٢٠ ١١ من خطوط العرض الشمالية وقائمة على أطلال مدينة (كينوبوليس) القديمة بالضفة الشرقية من النيل، وعدد سكانها ١٠٠٠٠ نفس تقريبا وإليها يفضى الوادى المعروف بوادى القصير، فهى ممر القوافل الذاهبة من القطر المصرى إلى بلاد الحجاز أو التى ترد منها إليه عن طريق القصير. والظاهر أنها كانت تصل النيل بالبحر الأحمر فى العصور السالفة بترعة لم يبق منها الآن أقل أثر. وفمها كان حيث توجد مدينة قنا الآن. وقنا مشهورة فى جميع أنحاء القطر المصرى بصناعة الخرزات (القلل) المشهورة فيها بالقلل القناوى، وبها معمل لنسج الأقمشة القطنية. وتجاهها بلدة (دندرة) القائمة على أطلال مدينة (تنتيرس) القديمة المشهورة بهيكلها الجميل الذى لا يزال حافظا لكيانه حتى الآن.

٥١- قوص

كانت تسمى قديما (أبولينوبوليس بارفا) وهى صغيرة بالضفة اليمنى من النيل وحركة التجارة فيها لا بأس بها.

٥٢- إسنا

كانت تسمى قديما بمدينة (لاتوبوليس) وهى على الضفة اليسرى للنيل وحركتها التجارية لا بأس بها وإليها تقصد القوافل الواردة من دارفور وسنار وتتخذها محطة لها، وفيها أكبر وأشهر سوق للجمال ويكتنفها من الآثار القديمة والأطلال الفرعونية مأسافيض الحديث فيه بالباب المخصص للكلام على الآثار المصرية.

٥٣- أسوان

مدينة واقعة في ملتقى ٣٩ ٣٤ ٣٠ من خطوط الطول الشرقى بالخط ٦ ٨ من خطوط العرض الشمالى. وهى آخر مدن القطر المصرى من جهة

النوبة وقد أكسبها موقعها في كل زمان أهمية لا تنكر. فقد كانت في الأزمان القديمة (واسمها وقتئذ سين) معقلا حصينا وموقعا منيعا. وعنى العرب بتحسينها فلما سقطت دولة الفاطميين دمرتها القبائل النوبية التي احتلتها وأخذت عليها، وعندما استولى السلطان سليم على مصر جردها على الضفة اليمنى من النيل بالقرب من الشلال الأول، وهى قائمة الآن على منحدر من الأرض تتخلله أشجار النخل. ومبانيها محاطة بالمزروعات فكان منظرها لذلك أخذا باللب، وسكانها الآن ٤٠٠٠ نفس تقريبا كلهم من العرب والبرابرة والأقباط وبعض الأتراك الموظفين.

وتجاه أسوان جزيرة الفنتين الصغيرة، وعلى مقربة من الشلال الأول جزيرة فيله المشهورة بهيكل (أنس الوجود) وهى مع قلة اتساعها، إذ يبلغ طولها ١٣٠٠ قدم، ينبوع للآثار الثمينة لا ينضب معينه وبها بعض أشجار النخل وقسم منها مزروع. يبقى علينا أن نتكلم إجمالا على مدينتين لاتحسبان من مصر بالنظر لكونهما خارج نطاق وادى النيل ولكنهما تابعتان له. نريد بهما ثغرى السويس والقصور الواقعين على سواحل البحر الأحمر.

٥٤. ثغرى السويس

واقع في ملتقى الخط ٥ ١٥ ٣٠ من خطوط الطول الشرقى بالخط ٦ ٥٩ ٢٩ من خطوط العرض الشمالى. كان له في الأزمان السالفة شأن خطير بسبب نقل البضائع الهندية. وكانت تسمى في بادىء الأمر مدينة (أرسينوة) ثم سميت بمدينة (كليوبتريد وبوليس) ولمفأها الآن علاقات متواصلة بالثغور التى على سواحل البحر الأحمر، ومكاسب أهلها من التجارة مع بلاد العرب. وفريق من الحجاج الذين يقصدون إلى الحجاز ينزلون منها في السفن. وكان لخط السفن التجارية الآتية من الهند إليها والذهاب منها إلى الهند تأثير في المدينة، إذ جعل لها في العهد الأخير شأنًا كبيرا دعا بفريق من الإنجليز إلى التردد عليها لمباشرة أعمالهم التجارية. وبينها والقاهرة الآن طريق ممهد تجرى فيه عربات من طراز الدليجانس لنقل السياح منها إلى هذه العاصمة. وفي السويس قنصل لانجلترا وعدد سكانها ١٥٠٠ نفس، ومع انها قريبة من القاهرة فإنها تختلف عنها بالمرّة من جهة شكل مبانيها ومن جهة أخلاق أهلها وعاداتهم، وهى بالنسبة إلى الهند كالطليعة بالنسبة إلى الجيش.

وسنرجع إلى الكلام على هذه المدينة في الفصل الذى سنعقده للكلام على
المواصلات الكبرى المنوى تنفيذها بين النيل والبحر الأحمر.

٥٥- القصير

قلت فيما سبق إن الوادى الممتد بين قنا والقصير هو الطريق الذى يسلكه
الراغبون فى الوصول إلى هذا الثغر، وللقصير مرفأ صغير على البحر الأحمر
وتجارة لا بأس بها مع سكان سواحله، وهى محطة من محطات السفن
الانجليزية، وبها قنصلان أحدهما لإنجلترا والآخر لفرنسا. وعدد سكانها
١٢٠٠ نسمة وتتبع إداريا مديرية قنا.

المسافات بين بعض مدن القطر المصرى (١)

من القاهرة إلى الإسكندرية	٤١,٦	فرسخا
من القاهرة إلى رشيد	٣٨,٣	فرسخا
من القاهرة إلى دمياط	٣٦	فرسخا
من القاهرة إلى الصالحية	٢٤	فرسخا
من القاهرة إلى بلبيس	١٠,٨	فرسخا
من القاهرة إلى السويس	٢٨	فرسخا
من القاهرة إلى بنى سويف	٢٢,٢	فرسخا
من القاهرة إلى المنيا	٤٩,٢	فرسخا
من القاهرة إلى أسيوط	٧٣	فرسخا
من القاهرة إلى جرجا	١٠٠	فرسخا
من القاهرة إلى قنا	١١٩,٥	فرسخا
من القاهرة إلى طيبة (الأقصر)	١٣٠,٩	فرسخا
من القاهرة إلى إسنا	١٤١,٣	فرسخا
من القاهرة إلى إدفو	١٥٢,٢	فرسخا
من القاهرة إلى أسوان	١٧٤	فرسخا
من الإسكندرية إلى رشيد	١٢,٨	فرسخا
من رشيد إلى دمياط	٢٨,٩	فرسخا

(١) المسافات من القاهرة إلى البلدان التى فى الصعيد مأخوذة بحسب مجرى النيل.

الديانات والمذاهب الشائعة في قطر المصري

(١)

الإسلام وقواعده

القرآن - الوحدانية ورسالة محمد (عليه الصلاة والسلام) - الملائكة - البعث ويوم القيامة - الجنة - جهنم - المطهر.

١ - الإسلام هو الديانة الشائعة في مصر انتشرت بها في القرن السابع للميلاد المسيحي عقب فتحها على يد عمرو بن العاص قائد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وكان المصريون قبل هذا الفتح - أى في عهد الدولة اليونانية الشرقية يدينون بالنصرانية لا يعرفون غيرها لهم عقيدة، ولكنها كانت مهیضة الجانب منحلة العرى بما غشيها من افتراق أهلها شيعة متعادية ومذاهب شتى كالتى مزقت أحشاءها منذ القرون الأولى للميلاد في بلاد المشرق.

والظاهر أن ما ترتب على هذا الانقسام من النزاع والجدل في الدين كان قد أضجر المصريين ونفرت منه نفوسهم فلما فشلت بينهم الدعوة إلى الإسلام أقبلوا عليه وأجابوا داعيه وبدلوا من عقيدتهم به ولم يبدوا في معارضته مقاومة مبنية على الجذ وصدق العزيمة.

وليس في الآراء المتداولة عن الإسلام ولا فيما يسند إليه ما يطابق الصواب ولذا أرى فرضاً على أن أورد بعض الشيء عنه على الوجه الصحيح. لا أقصد بذلك تمجيد عقيدة لا أدين بها ولست من الدعاة إليها، وإنما أرمى إلى التعريف بها في غضون الإشارة إلى قواعدها وآدابها وعباداتها مراعيًا الإيجاز الكلى. إذ ليس في مقدور أحد أيا كان النطق بحكم صحيح على أمة مستمسكة بالدين كالأمة المصرية إذا كانت البيانات التى عنده فىؤكد أسباب حياتها

العامة والخاصة مشوبة بالأغاليط والأوهام.

٢. القرآن

يعتقد المسلمون أن هذا الكتاب أثر لوحى إلهى أنزله على رسوله. وهو مصوغ في لغة عربية مبيّنة، ومفرغ في قالب يرى الأئمة والعلماء أنه نهاية الإبداع في حسن المبنى ودقة المعنى وأن الإنس والجن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم ظهيرا فالقرآن في نظر المسلمين أجل الكتب. ولذا تراهم يتلونه أو يسمعون ترتيله خمس مرات في كل يوم. وبعضهم يحفظه عن ظهر قلب ومن لم يكن حافظا له فهو ملم بكثير من آياته وسوره الأكثر ارتباطا بشئون الحياة واتصالا بأحوال المعاملات.

وفي القرآن مائة وعشرون سورة (الحقيقة ١١٤) ^(١) يعتقد المسلمون أنها أوحيت على محمد خلال الثلاث والعشرين سنة التي انقضت قبل صعوده إلى الرفيق الأعلى - أى منذ بعثه وهو في الأربعين من عمره.

٣. الوجدانية ورسالة محمد

القواعد الأساسية للإسلام بسيطة تنحصر في أمرين: الاعتقاد بالوجدانية معبرا عنها بشهادة أن «لا إله إلا الله» ورسالة محمد معبرا عنها بشهادة أن «محمد رسول الله» فعلى مبدأ الوجدانية جمع محمد كلمة شعوب العرب وقبائلهم بعد أن كانوا قبله عاكفين على عبادة صنّف من الأصنام هو أغلط وأقظع ما يمر بالخاطر من أصنافها . فوضع بذلك أساس ديانتهم ووثق أركان ملتهم.

وفيما جهر محمد به من الدعوة إلى الإسلام أن الدين عند الله كان ولا يزال واحدا هو الدين الذى بعث لتجديده بوحي على لسان جبريل الأمين. وأن هذا الدين كان كلما طرأ ما يحرفه عن أصوله أو يغير من أوضاعه أنزل الله كتبا على أنبيائه في أزمان متفاوتة بحسب وقوع هذا التغيير. فأنزل التوراه على موسى والمزامير على داود وغيرهما من الكتب على غيرهما من الأنبياء ثم أنزل الإنجيل على عيسى، وهذه الكتب كلها حق وصدق والقرآن آخرها فالواجب

(١) الناشر: نؤكد أن عدد سور القرآن الكريم هي ١١٤ سورة

اتباعه إلى يوم يقوم الحساب وهو كلمة الله ونوره، وبقى إلى الأبد وغير مخلوق من أحد، وهو في اللوح المحفوظ لا يدخل عليه تغيير ولا يتناوله نسخ.

٤. الملائكة

من تعاليم الإسلام أن لله ملائكة وكل إلى بعضهم الإشراف على نبي الإسلام فهم رقباء عليه، وأن جبريل موكل بإنزال الغضب والسخط على المغضوب عليهم وعزرائيل يقبض الأرواح في النفس الأخير واسرافيل بالنقر في الناقور يوم البعث والنشور.

٥. البعث ويوم الحساب

يعتقد المسلمون بالبعث. فقد جاء في القرآن «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى» وبحسب هذا الاعتقاد يجيء الحساب ثالثاً، وقد ذكر القرآن أيضاً «ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير».

وجاء فيه أيضاً: «فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً إنه كان في أهله مسروراً».

٦. الجنة

في العقيدة الإسلامية أن من يصدق بما يؤمر به ويعمل صالحاً يجزى جنات النعيم. فقد جاء في القرآن: «والسابقون السابقون أولئك المقربون، في جنات النعيم، ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين، على سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عین كأمثال اللؤلؤ المكنون».

ولم تكن جنات المسلمين مقتصرة على الملاذ المادية كما تذهب إليه أوهام العامة، بل تتناول من صنوف السعادات الروحانية شهود الحضرة الإلهية، وهو اسمى هذه السعادات يفوز بها من رضى الله عنهم فأنعم عليهم بهذه النعمة العالية. وقد ورد في القرآن: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء والضراء

والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين.. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين».

٧- جهنم

في تلك العقيدة أن ليس لأثيم أن يعتمد على بذل الصدقات وإقام الصلوات ذريعة لمحو ما أتاه من السيئات. بل يعذب في نار الجحيم عشرة أضعاف ما عذب غيره ظلما وعدوانا.

٨- المطهر

كثرت استعارات الإسلام من المسيحية إلى حد قيل معه إن الدين الإسلامي لم يكن في الحقيقة إلا إحدى الشيع المنشقة عن النصرانية. ذلك لأنه نقل ماورد برمته في الكتاب المقدس عن التكوين وهبوط آدم من الجنة، وأن هبوطه هو ليكفر عن خطيئته ويتوب عن ذنبه ليجزى في الآخرة خيرا. فقد جاء في القرآن: «إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم».

وبمقتضى العقيدة الإسلامية أن الله يغفر لمن يموت مؤمنا قبل الندم على خطيئته ولكن هذه المغفرة لا تحقق له إلا إذا كفر عنها وتاب في مكان يعانى فيه صنوف الآلام، وهو الأعراف الشبيه بالمطهر في النصرانية.

(٢) آداب الإسلام

الفضائل - الصلاح والتقوى - القضاء والقدر - صلة الرجل بالمرأة.

٩- الفضائل

يحض القرآن على التمسك بعري الفضائل وترك النقائص والردائل واجتناب الكبائر، فهو والمسيحية في تعزيز الآداب سواء. وأكبر الفضائل التي تحلى بها الإسلام وحافظ عليها المسلمون الزكاة. فالمسلم الذى حسن

إسلامه وصدق إيمانه هو الذى يؤدى زكاة العشر عن ماله يدفعها لذوى العوز والحاجة. وفي القرآن نصوص صريحة على تحريم الربا وحث على نسيان الإهانة وتحبيذ الصراحة فى القول والتواضع والكرم والعفة والصبر...إلخ.

١٠. التقوى

التقوى فى نظر المسلمين رأس الفضائل وعمادها إذ أن الله لا يقبل الطيبات من الأعمال ما لم تكن مقترنة بها. فمن أحب أن تتوافر فيه صفات التقى والصلاح وجب عليه الاحتراز من ارتكاب الخطيئة بجارحة من جوارحه السبع تقيه أن تصير لصاحبها أبواباً تقضى به إلى نار الجحيم. أما هذه الجوارح فهى الأذنان والعينان واللسان واليدان والبطن والعورة.

١ - لا يجوز التسمع لعزف الآلات الموسيقية ولا إعاره الأذن لسماع القبيح من كذب ونميمة وفاحشة ولا سماع الغناء والتغنى بالقرآن أو الصلاة.

٢ - يجب تنحية النظر عن المحرمات، فلا يجوز لمؤمن أن يطلع من رجل على ما بين سرتة وركبتيه، ولا لإمرأة أن تطلع من نظيرتها على ما بين سرتها وركبتيها.

كما لا ينبغى للمسلم أن ينظر على السرة والركبة، بل ولا الظهر والبطن من محارمه. أما غيرهن فيكون من الإثم إطلاعه على أكثر من وجوههن وكفوفهن وأقدامهن. سواء أكان إلى ذلك مسوقاً بدافع شهوة أم بغيره أو كانت المرأة المنظورة مليحة أم قبيح. شابة أم عجوزاً. وهذه القواعد لا تسرى على الزوجة الشرعية ولا على الأمة.

ومن الواجب الإمساك عن التطلع إلى ما داخل دار الغير بالتسمع من وراء الأبواب أو النظر من خلال الشقوق والثقوب كما لا يجوز النظر إلى المسلمين بعين الازدراء والاحتقار.

٣ - ينبغى صون اللسان عن الكذب والغيبة والوشاية ومدح النفس والمراء وخلف الوعد ونقض العهد.

واللعن خطأ كبير ينتزع من مرتكبه ثواب ما أسلفه من حسنات. وإذا كان

متزوجا فقد انحلت عقدة زواجه .

٤ - رفع اليد بالإيذاء على أحد أو مدها للاستيلاء على طعامه ولمس النجاسات بها من غير ضرورة، كلمس الميتة أفعال مخالفة لمقتضى الشريعة الإسلامية.

٥ - يجب اجتناب مواقع الشبه، والدخول بلا إذن على دار الغير والاعتداء بالأذى كالضرب على قريب واتلاف سجادته أو حصيرته أو أى شىء آخر من متعلقاته.

٦ - أما خطايا البطن وأوزارها فتتنقى بالامتناع عن تناول المحرم من الطعام والبعد عن الشره إليه والإفراط فيه.

٧ - أما خطايا الفرج التى تعاقب عليها الشريعة الإسلامية عقابا أشد صرامة من عقاب الخطايا الأخرى فهى اللواط والمواقعة فى أثناء الطمث والوضع..إلخ.

١١- القضاء والقدر

عقيدة القضاء والقدر لا تنتزع من المرء - فى دائرة الآداب والأخلاق والفضل وعدمه - كل إرادته ولا تستلب منه حرية تصرفه. ولقد غالى المتصدون للبحث فى القضاء والقدر عند المسلمين فى المسند إليهما من التأثير فى المقدور للمسلم من السلوك الذى يسلكه والشعور الذى يستشعر به. نعم إن اعتقاده بالقضاء والقدر قد أودع فيه غريزة الاتكال والرضا بما يأتى به الدهر من المحن وينزل من النوازل الخاصة والعامة، ولكن لاصحة لما زعمه الزاعمون منهم من أن ذلك الاعتقاد قتل فيه الشعور فأصبح لا يميز بين الحق والباطل بين الحال = المتجر من الحل = والعاطل = لابس الحل = .

ليس فى التسليم بالقضاء والقدر ما يكبل المسلمين بأغلال الجمود أو يلزمهم ملازمة الثبوت والاستقرار. فإنهم وإن تلقوا ضمن مبادئ دينهم ما يفيد أن الحذر من القدر إدعاء بالخلود مطالبون دينيا بالنهوض إلى إطفاء الحريق إذا شب فى دورهم، ومغادرتها إذا كانت آيلة إلى السقوط لحادث ما كالزلزلة وغيرها واللياذ بالفرار من الفيضان وإتخاذ كل ما يعين لهم من الوسائل التى يملئها العقل وتحكم بها غريزة حفظ الذات.

١٢- صلة الرجل بالمرأة

نظمت الآداب الإسلامية علاقة الرجل بالمرأة على قاعدة احكم وأطبق على العقل مما يتبادر إلى الذهن أول وهلة. حقا إن تعدد الزوجات في الإسلام مباح أبحاثه في جميع بلاد المشرق ولكنه مقيد بحدود صريحة. إذ جاء في القرآن: «وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا». وقد أصلحت الشريعة حالة المرأة في الشرق، إذ قضت بأن لا يتم زواج إلا بصداق من المال يدفع الرجل أجله إلى زوجته في حالة طلاقها. وفي المواريث قضت تلك الشريعة بأن ترث الأخت نصف حظ الأخ وأن تعتق الأمة لمجرد وضعها بعد الحمل من مالك رقبته.

ويحرم الإسلام الزواج بالوثنيات ولكنه يبيحه باليهوديات والنصرانيات وفي القرآن آيات تقرر فضل الرجل على المرأة على أن يكون مظهر هذا الفضل الرفق بها والذود عنها، ومن هذا القبيل قوله: «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا».

(٣)

العبادات

الصلوات اليومية الخمس - التطهر - المساجد - النظار والأئمة
والمشايخ والخطيب والمؤذنون والقيمون - رمضان - عيد الفطر وعيد
الأضحى - الحج إلى بيت الله الحرام - الأولياء - المذاهب الأربعة - القيام
بترويض الدين عند المسلمين - الأغذية المحرمة - الواجبات الدينية
المفروضة على النساء - مخالفة الآداب الشرعية - وصية القرآن
بالتسامح نحو المسيحيين.

١٣- الصلوات اليومية الخمس

ال صلاة هي الركن الأساسى من أركان الفروض الدينية فى الإسلام، وكل

مسلم مسئل عن إقامتها وأدائها خمس مرات في كل يوم. ومن المعتققات المقررة في الإسلام أن ملكا يهبط في الفجر من السماء فيظل مقيما حتى الظهر فيسجل أسماء الذين قاموا بفرض الصلاة. فإذا أقبل الظهر طوى كتابه ولم يدون فيه أسماء المتخلفين عن أدائه، وبالشقاء هؤلاء، وبالشدة ما سيلقون من عذاب. على أن في يدهم محو هذه السيئة بالصلاة والصوم في غير المواقيت المفروضة.

وبعد الظهر يهبط ملك ثان يظل مقيما على الأرض إلى أن يأزف أوان العصر (حوالي منتصف الساعة الرابعة بعد الزوال) ليدون أسماء المصلين كما فعل الأول ثم يهبط ملك ثالث لأجل ما بين العصر والمغرب فراجع وهو الأخير لأجل ما بين المغرب والعشاء الأخيرة (أي بعد غروب الشمس بنحو ساعتين).

جاء في القرآن: «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى».

.. «ومن حيث خرجت قول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم قولوا وجوهكم شطره».

١٤- التطهر

التطهر قسم من أهم أقسام العقيدة الإسلامية. فإنه لا يجوز لمؤمن بحسب الدين الإسلامي أن يباشر فرضا ما من الفروض الدينية إلا إذا تطهر من كل الأدناس الجثمانية. والتطهر ثلاثة أنواع: الغسل والوضوء والاغتسال. فالأول ما يراد به إزالة دنس مادي في الجسم أو الثوب أو المكان الذي تقام الصلاة به. ولإتقاء هذا الدنس يأمر المسلمون عبدهم بأن يحملوا معهم سجادة صغيرة ليطرحوها على الأرض متى آن وقت الصلاة ثم يصلون عليها. أما من لم تكن عندهم سجادة فيتخذون منها بديلا أرديتهم أو معاطفهم.

أما الوضوء فهو غسل الوجه والفم والأنف واليدين والذراعين إلى المرفقين . والقدمين إلى الكعبين والمتوضىء يقرأ في أثناء وضوئه بعض ما تيسر من القرآن أو الدعوات.

أما الاغتسال فيكون من الجنابة والحيض.. إلخ.

ولا خلاف في أن هذا التطهر على وجوهه المتقدمة من أوفق ما سنته الشريعة الإسلامية لمقتضى العقل والحكمة. لأنها تفرضه على المسلم بمناسبة إقباله على أداء فرض من فروض دينه، فتمهد له بذلك وسائل النظافة والوقاية الصحية التى لا جدال في مزاياها ومنافعها بالبلاد كافة والشديدة الحرارة منها خاصة.

١٥- المساجد

يكثر المسلمون من الحفلات الدينية والأعياد ويحتفلون بها بما يستطيعون من مظاهر الجلال. ولهم عناية خاصة بتعهد المساجد. إذ تراها على الدوام في الغاية القصوى من النظافة. وليس بداخلها شيء من آثار الزخرفة والتأنق فلا كراسى ولا مقاعد مستطيلة، وغاية ما هنالك أن أرضها تفرش صيفا بحصير السمار وشتاء بالسجاجيد يجلس عليها المصلون في وضع تستروح منه رائحة التواضع والتقوى. وتراهم قبل غشيانهم المساجد يخلعون أحذيتهم ونعالهم ثم يجلسون خاشعين. أما المساجد الكبرى فقد يرى الناس فيها، مع جلوسهم على الوضع المذكور، يتبادلون الأحاديث وربما يأكلون أو ينامون أو يزاولون عملا ما بدون أن يفوتهم قط أثناء ذلك إظهار الاحترام العظيم لتلك المعاهد.

وقبل وصول الحملة الفرنسية واحتلالها الديار المصرية كان من بين المساجد الكبرى جملة لا يسمح للنصارى ولا لليهود المرور أمامها على صهوات خيلهم فأبطل بونابرت هذه العادة وجادل فيها العلماء فألزمهم الحجة إذ قال لهم: «إذا كان ما تقصدون إليه بذلك المنع طلبكم الاحترام والتوقير لمساجدكم فلماذا لا ترمون إلى مثل هذا الغرض بالنزول عن دوابكم؟ وهل مما يقبله العقل والعدل أن يطالب المرء أجنبيا بما لا يطالب نفسه به من علامات التوقير لدينه؟». وعلى أثر هذه المناقشة لزم المسلمون حد الاعتدال في معاملة الأجانب من هذا الوجه بل بلغ من تسامحهم معهم أن أذنوا لهم بغشيان المساجد لزيارتها والتفرج عليها من غير خوف عليهم. وإنما يؤسفنى في هذا المقام أن ألاحظ على بعض الزائرين تغافلهم عن الاحترام الواجب عليهم نحو تلك الأماكن.

والجدير بالنظر والاعتبار في أمر المساجد ما ألحق بها من المعاهد المختلفة التي لا خلاف في فائدتها كالملاجىء لإيواء الغرباء والمسافرين والكتاتيب العامة والمدارس التي ينشأ فيها الطلبة على التفقه في الدين فيتخرج منهم المؤذنون للمساجد والقضاة والنواب.. إلخ.

وعدد المساجد كبير جدا في القطر المصري. بل هو أكبر مما يلزم له في الحقيقة، وهو في القاهرة وحدها يبلغ إلى الأربعمئة أهمها الأزهر الشريف^(١) وكلها عتيقة البناء جميلة النمط الهندسى. والذي يشيد منها الآن قليل جدا وليس في شىء ما من حسن الانماط الهندسية التي كانت مرعية في عهد الخلفاء المتقدمين.

١٦. النظار والأئمة

يقوم بإدارة كل مسجد ناظر بيده الإنفاق على شئونه من ريع الأملاك المرصودة عليه، وإليه يرجع تعيين خدام المسجد من الإمام إلى صغار الخدم الموكلين بنظافته. والعادة أن يكون لكل مسجد إمامان يأتى الناس بأحدهما فى الصلوات الخمس متى حلت مواعيدها الموقوتة. وليس لرجال الدين فى الإسلام طائفة خاصة ولا فرقة ممتازة على غيرها فى الهيئة الاجتماعية. لأن صفتهم الدينية لم تكن لاصقة بهم على الدوام كما هى عند القساوسة فى المذهب الكاثوليكي، وإنما هى وقتية إذا شاء الناظر انتزعها منهم فيفقدون مع مراكزهم صفة الإمامة. ولهم حق الزواج لا يمنعهم عنه مانع إذ لا رهبانية فى الإسلام. ولما كانت الأجرة التى يتقاضونها فى مقابل قيامهم بوظيفة الإمامة زهيدة جدا وهى قرش واحد فى اليوم فإنهم يضطرون فى الاتفاق على عيالهم إلى مزاولة مهنة أو الاحتراف بحرفة، فترى منهم العطارين والموردين ومعلمى الكتاتيب. أما الذين لا يقدرّون منهم على ممارسة الحرف أو لم يكونوا قد تعلموا حرفة خاصة فيرتلون القرآن فى البيوت مقابل مال يتقاضونه من أربابها فى آخر كل شهر وهم يكونون فى الغالب من فقراء الطلبة فى الأزهر الشريف.

(١) يشبه الجامع الأزهر فى مصر جامعة السوربون فى فرنسا، والطلاب من أهل الشرق جميعا يفدون عليه لتلقى العلوم الدينية والشرعية. ومما يدرس به علم الفلسفة على مذهب أرسطو واللغة العربية والتاريخ. وبداخل الجامع أروقة لسكنى الطلاب. راق منها لكل من الأكراد والفرس والنوبيين والآتراك والهنود والمغاربة والحجازيين.. إلخ وهم جميعا يتلقون العلم على نفقة الجامع.

ومن أئمة المساجد تتألف الطبقة الوسطى من رجال الدين. إذ فوق درجتهم توجد درجة العلماء المتفقيين في الدين والقائمين بوظائفه ومناصبه، والشيوخ أو المشائخ ويقومون بخطبة يوم الجمعة والخطيب يقوم فيه بالصلوات الخمس التي يؤديها الإمام بقية أيام الأسبوع. والمؤذنون ويدعون المؤمنين إلى الصلاة من أعلى المآذن والقيمون وهم صغار الخدمة في المسجد.

١٧- رمضان

صيام رمضان من فرائض الدين الإسلام المتداولة الذكر في أوروبا لشهرتها. ويلبث شهرا كاملا. والمفهوم أن ليس فيه شيء من المزايا الصحية المتوافرة في الصوم على الطقسين المسيحي واليهودي. لأن شهر رمضان لا يقع في فصل معين من فصول السنة، وإنما يطوف بها جميعا على التدريج ويتم دورة طوافه في كل ثلاث وثلاثين سنة مرة. ولم يكن شهر رمضان عند المسلمين خلافا لما اتجهت إليه الظنون في أوروبا - شهر رقه ونعيم وتفرغ للمنكرات. بل هو شهر حرمان من الشهوات في الغاية القصوى من الشدة. فإن كل مسلم بلغ الرابعة عشرة من عمره مطالب برعايته. فقد جاء في القرآن: «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون».. «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر».

ونصوص الدين في الصوم محترمة الجانب. إذ يتبعها المسلمون بدقة وانتباه ليس بعدهما وصف لوصف. نعم لا تخلو الحال من وجود أناس يجرؤون على مخالفتها ولكنهم قليلو العدد جدا. فضلا عن تسترهم على أنفسهم في ذلك. ولم يكن الإمساك في الصوم قاصرا على حرمان النفس غذاءها طول النهار من كل شراب وطعام. بل يتناول استنشاق الأرواح العطرية والتدخين والنشوق. وهناك فريق من المتشددین يحرصون دائما على لفظ اللعاب محترزين من ابتلاعه.

أما الحوامل فلا يطلب منهن الصوم وكذا المرضى والمسافرون، ولكن

القليل من هؤلاء يميلون - وهم في حالة مرضهم أو سفرهم إلى الاستفادة من هذه الإباحة. بل إن هناك كثيرين من الأتقياء والصالحين يتمادى بهم الحرص على رعاية فروض الدين حتى فيما تباح مخالفته لمثل تلك الأسباب فيضنون على أنفسهم بقطرة الماء يرطبون بها أفواههم في أثناء سفرهم في الصحراء. حيث يشتد القيظ ويقاومون بذلك الأوار الشديد. ولقد شهدت بنفسى مرضى كثيرين في بحران الحمى يأبون تعاطى الدواء المخفف لدائهم مؤثرين الموت على مخالفة واجب الصوم.

١٨. عيد الفطر والأضحى

يتلو عيد الفطر شهر رمضان ومدته ثلاثة أيام يحل أثناءها الفرح الشديد والهناء محل شدائد الصوم وما تخلله من صنوف الحرمان، ويتبادل المسلمون التهاتى العيدية ويعفون بعضهم عن بعض.

أما عيد الأضحى فيتلو عيد الفطر بنحو ٧٠ يوما ويلبث أربعة أيام والغرض منه إحياء ذكرى إبراهيم الخليل. وعيد الفطر والأضحى هما الوحيدان من أعياد السنة اللذان ينقطع الناس فيهما عن مزاولة الأعمال.

١٩. الحج

من قواعد الدين الإسلامى الحج إلى مكة والوقوف على جبل عرفات. وكل مسلم مطالب بأداء هذه الفريضة لا يعفيه منها إلا الفقر والمرض، وفي مذهب أبى حنيفة أن في استطاعة القادر على الحج إذا لم يشأ أداء هذه الفريضة بنفسه أن ينيب عنه في أدائها غيره - على شرط قيامه بنفقته كلها ولكن سواد المسلمين يغفلون القيام بشعائر هذا الفرض والحجاج الذين ينالون لقب الحاج بعد أداء فريضة الحج بزيارة مكة والوقوف على جبل عرفات يقصدون إلى الحجاز إما من طريق دمشق وأما من طريق القاهرة، والعادة أن يجتمع مسلمو أفريقية وأتراك ألبانيا والروملى الذاهبون إلى الحجاز في القاهرة ثم يقصدون منها إليه. أما الفرس وأتراك آسيا الصغرى فيجتمعون في دمشق ومنها يوالون السير إلى الحجاز، وجرت العادة أن يطابق تحرك القوافل من القاهرة للحج في السابع والعشرين من شوال، وقبل هذا التاريخ بأيام يحتفل بالمحمل، وهو صندوق مربع من الخشب توضع فيه نسختان من القرآن يرسل مثلهما إلى مكة في كل عام.

وهذا المحمل مع ما يتبعه من عفش أمير الحج والصندوق المحتوى على صرة المال المرسل من قبل السلطان إلى الحرم النبوى وكذلك الكسوة الشريفة لستر الكعبة - وتشغل في القاهرة من الحرير الأسود - فيطاف بها في حافلة حافلة وموكب جليل بالسبل المعروف بالحصوة بحرى القاهرة ثم تتجه منه إلى بركة الحاج التى هى آخر مرحلة لاجتماع الحجاج برسم السفر إلى الحجاز.

وينقسم هؤلاء الحجاج إلى ثلاث قوافل تتبع إحداها طريق البر من الصحراء وتسرى عادة في الليل فلا تقف إلا الصبح بعد شروق الشمس بساعتين وتقضى النهار في مكانها . فإذا ما أقبل الليل تحركت للمسير من جديد في الساعة الثانية بعد الغروب ويظل السفر برا مدة أربعين يوما تقريبا. أما الذين يخشون أخطار هذا السفر ومشاقه فيسافرون إلى جدة عن طريق البحر الأحمر، بالنزول في السفن المسافرة إليها من السويس أو القصير.

والمقرر أن يجتمع الحجاج في مكة خلال الأيام الأولى من شهر ذى الحجة فيزورون الحرم المكى الذى فيه الكعبة. والكعبة بناء صغير يبلغ طوله ٥٦ قدما في عرض ٤٨ وارتفاعه ٨٠. والمأخوذ من الروايات العربية المصدر أن إبراهيم قام بالتضحية فداء لابنه إسماعيل في جبل عرفات الواقع على مسافة ستة فراسخ من مكة. وأن الحج لا تتم شعائره إلا إذا صعد الحجاج في هذا الجبل إلى قمته وحضروا في ليلة التاسع من ذى الحجة الصلاة التى تقام بها، وفي اليوم التالى يقصدون إلى سهل منى ليختموا تلك الشعائر بتضحية الماعز والنياق.. الخ ويقدر عدد الحيوانات ذات القرن التى تنحر بهذه المناسبة من ثلاثين ألف رأس إلى أربعين ألفا.

وميعاد عودة ركب الحج من مكة إلى القاهرة في أوائل شهر صفر التالى وتسمى هذه العودة بنزلة الحج. والعادة أن يجتمع أهل الحجاج وأصدقائهم ومعارفهم للقائهم بمظاهر الفرح والسرور غالبا وبعلامات الحزن أحيانا إذا علموا أن الذين جاءوا للتمتع برؤيتهم قد لقوا حتفهم أثناء الطريق بسبب ما عانوه فيه من أنواع المشاق وصنوف الحرمان. أما الحجاج الذين يصلون سالمين فيحاطون بالرعاية والاحترام ويرمقون بعين الإعجاب. لأن الناس يعتبرونهم كأنهم طبعوا بطابع البركة والقداسة، ولهذا يتوسلون بهم إلى الله

في إجابة دعائهم وتحقيق متمناهم.

٢٠. الأولياء

الأولياء في مصر كثيرون ولهم في نفوس الأهلين منزلة رفيعة. إذ تراهم يجلونهم ويتبركون بهم في حياتهم فإذا ماتوا أقاموا لهم الأضرحة وبنوا فوقها البنايات الحسنة. وليس لتقديس الأولياء وحسبانهم كذلك صيغ مخصوصة وإجراءات معينة كما هو عندنا. فإن الرأي العام هو المحكمة التي تقرر ولاية الولي بما يحدث في نفسها من الأثر الناشئ عن استحسان فعاله واعتبارها متفقة مع ما ينبغى من الورع والتقوى ليكون وليا جديرا بالتكريم حقيقة. وغالبا ما يكون ذلك الرأي مخطئا في حكمه فيصبح من لم يكن أهلا للولاية وليا ترمقه عين التجلة والاعتبار من جميع الأمصار. أما العلماء فلا يذهبون مذهب العامة في ذلك بل لا يعتبرون وليا ما تقر هذه ولايته.

وليس المعتوهون والذين ألفوا العادات المستغربة وظهروا بالأحوال الشاذة التي تشبه الجنون بأولياء كما تتجه إليه ظنون البعض. حقا إن في الدين الإسلامي ما يقضى برعاية جانبهم ولكنه لا يقيم لهم ولاية ولا يجعل لهم صفة تؤهلهم للتبجيل تبجيلا دينيا فإذا شوهدهناك ما يخالف هذا المبدأ فهو مناقض للواجب ومضاد للقواعد الشرعية على الخط المستقيم.

٢١. المذاهب الأربعة

المذاهب التي يتمسك المسلمون بها في عباداتهم أربعة: مذهب أبى حنيفة ومذهب الشافعى ومذهب مالك ومذهب الحنبلى، وأكثر هذه المذاهب شيوعا في مصر المذهب الأول، وهو كذلك في بقية أنحاء الدولة العثمانية.

٢٢. أداء فروض الدين عند المسلمين

الأمر الذى يدهشك من المسلم ثبات عقيدته ورسوخ إيمانه في نفسه رسوخا لا يتناوله شك أو تزعزعه قوة بالغه من الشدة ما بلغت. فلعقيدته في نظره من سمو الرفعة وجلال القدر ما يلقيه في الدهشة والاستغراب من مخلوقات الأرض كيف لا يدينون بالإسلام؟ وقد جرت عادة المسلمين على تسميتهم إيانا بغير المؤمنين لأنهم يرون منا الإحجام عن أداء فروض الدين كما أنهم يسموننا بالكفار لأنهم لا يشاهدوننا مقبلين على الصلاة. وترى

المسلمين مستوفزين دائما للوثبة على من يهاجم دينهم بطعن أو انتقاد وعندهم كل مكان صالح لأداء فرض الصلاة. فالطريق العام وحقل الزراعة، والبيت الخاص بالسكنى سواء في ذلك. وهم يصلون جماعة أو فرادى ولو في وسط يختلطون فيه بالأجانب لا يلويهم عن ذلك مانع أو اعتبار ما.

وقد ذهب الناس في أوروبا إلى القول بأن المسلمين أخذت تنبث فيهم الميول الجانحة إلى ما يخالف الإيمان والعقيدة. أخذوا ذلك على سبيل الاستنتاج من مشاهدتهم بعض المسلمين لا يراعون نواهي القرآن فيما يتعلق بتعاطي الخمر. إذ هم يتعاطونها جهارا نهارا. ومفهوم أن هذه النواهي أكثر ما يكون ملائمة لصحة الناس من أهل المناطق الحارة كبلاد العرب وأفريقية التي إذا وجدت بها الخمر فانما تكون مما ورد إليها من البلاد الأجنبية لا مما صنع فيها.

٢٣. الأغذية المحرمة

من فضائل الديانة المحمدية وآثارها الحسنة في النظام الاجتماعي عنايتها المتواصلة بتقرير جملة طيبة من الاحتياطات الصحية الجزيلة الفائدة. وهذه العناية وإن استوجبت أحيانا رعاية بعض التفاصيل الدقيقة واستدعت شيئا من العسف في تحميم ما جاءت به من النواهي لا يسعنا إلا الحكم بصوابها من حيث المبدأ. وبما أنها تناولت المشروبات الخمرية فقضت عليها بذلك القضاء المبرم واعتبرت وسائل النظافة الخارجية للجسم من الواجبات الدينية التي يتحتم القيام بها كان لا بد أن تتناول المطعومات أيضا. وفي الواقع فقد قررت في هذا الشأن الخطير أصولا وقواعد لاخلاف في صلوحها وفائدتها منها اعتبارها من مواد الغذاء النجسة التي يتحتم الإمساك عن تناولها، واليهود يشاركون المسلمين في هذا الاعتبار، لحوم الخنزير والحصان والبغل والحمار والسلحفاة والقيط والضواري على أنواعها والجوارح والأفاعي، ومما حرم تعاطيه غذاء لبن الفرس والحمارة، وعلى كل حال فليس من الجائز استنفاد شيء بالأكل من أحشاء تلك الحيوانات وأعضاء تناسلها فإنها محرمة قطعاً ومما شدد الدين الإسلامي في تحريمه الدم. وهذا التحريم هو علة ذبح الحيوانات - أعنى قطع رؤوسها وما يرتبط بهذه الرؤوس من العروق تسهيلا لخروج دمها حتى إذا أكلت لا تكون محتوية أثرا ما من الدم. ويأكل

المسلمون بلا مانع ديني لحوم الصيد، ولكنهم لا يقبلون كثيرا على لحوم الطير المصيدة لتعذر استنزاف دمها كله.

٢٤. واجبات الدين للنساء

النساء المسلمات غير مطالبات بكل ما يطالب الرجل به من فروض الدين، فإنهن نادرا ما يذهبن إلى المساجد لأداء فرض الصلاة. ومع هذا فلم يرد في الشريعة الإسلامية نص يمنعهن من الذهاب إليها للقيام به ولم يحرمه عليهن، ولكنها أثرت أداءهن إياه في بيوتهن. ولما كان المسلمون يذهبون إلى اعتبار وجود النساء في المساجد صارفا للخواطر عما يلائم صفة الطهارة والقداسة اللاصقة بالمعابد فقد حرموا على النساء بالفعل ما أباحه الشرع لهن في المبدأ من الصلاة في المساجد (١).

٢٥. القرآن والتسامح نحو النصارى

اشتهر المسلمون في أوروبا بكراهتهم للمسيحيين وحقدهم عليهم فإذا كان سبب هذه الشهرة ارتكابهم في أيام الحروب ضروب القضاة في حق المغلوبين (٢) فمما ينبغى الجهر به أن مسئولية كراهتهم لا تقع على مبادئ الدين الإسلامى، كلا فقد دعا القرآن في أكثر من موضع بالتسامح نحوهم كما تدل عليه السور الآتية:

«ومريم ابنة عمران التى أحصنت، فرجها فننفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين».

«وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب».

«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم».

ومما ينبغى الجهر به في هذا المقام أن تعصب العامة من الشعب كثيرا ما حال دون ظهور أى أثر لما كان يخالف الحكام من النيات الحسنة نحو المتمسكين بالديانات الأخرى غير الإسلام. ولكننا لا يسعنا إلا الجهر قبل انتهاء هذا الفصل بأن العرب الأصليين أكثر تسامحا نحو الذميين من

(١) الناشر: ليس صحيحا ما ذكره المؤلف من تحريم الإسلام لارتياذ النساء للمساجد.

(٢) الناشر: هذه رؤية غير موضوعية للمؤلف فيما يتعلق بنظرة المسلمين للمسيحيين في أوروبا.

الشعوب الإسلامية الأخرى وأن المصريين يفوقونهم في التسامح. إما لما جبلوا عليه من الرقة ودمائة الأخلاق، وإما لما سبق لهم من الارتباط بالأوربيين.

(٤) الديانات الأخرى والمذاهب المختلفة

اليهود - الأقباط اليعاقبة - الأقباط الكاثوليك - اليونان المنشقون - اليونان الكاثوليك - الأرمن - الكاثوليك اللاتينيون - العداوات بين المذاهب المسيحية.

٢٦ - الديانات أو المذاهب الدينية الشائعة في مصر بعد الإسلام هي الديانات والمذاهب التي يتمسك بها اليهود والأقباط والأرمن واليونان المنشقون والأقباط والأرمن واليونان الأرثوذكس والكاثوليك من المذهب اللاتيني. ويبلغ عدد المنتمين إلى هذه المذاهب المختلفة ٣٠٠٠٠٠ نفس.

٢٧ - اليهود

في القطر المصري نحو ٧٠٠٠ يهودى يقطن سوادهم الأعظم حيا خاصا بهم منهم ١٢٠٠ من القرين = القرائين = والباقون من الربانيين. ورجع إلى محمد على باشا الفضل في استنقاذ اليهود مما كانوا يلقونه قبله من التصدي بالإهانة والاضطهاد. فقد منحهم حمايته وعضده كما منحهما غيرهم من أرباب المذاهب الأخرى. ولهم في مصر ثمانى بيعات أى هياكل للعبادة.

٢٨ - الأقباط اليعاقبة

الأقباط المنشقون هم الشيعة الأكثر عددا والأعز في مصر نفرا. إذ يعدون ١٥٠٠٠٠ نسمة تقريبا لهم ١٣٠ كنيسة وديرا في أرجاء القطر ورئيسهم الدينى هو البطريرك الذى يتولى كرسى البطريركية معيناً من الأساقفة ورؤساء الأساقفة، وإليه يرجع الاختصاص بتعيين النظار المكلفين بإدارة الأديرة والكنائس. والمفهوم أن المذهب القبطى مقتصر على مصر لا يوجد في غيرها، ومن طقوسه الاعتراف والتناول الربانى بنوعيه. ولا بد من التطهر

بالاغتيال قبل الجلوس إلى المائدة المقدسة ،وهم يختتنون كاليهود ومذهبهم مستمد من بدعة (أوتيكييس) المبتدع اليونانى من أهل القرن الخامس. والأقباط يذهب بعضهم مذهب الطبيعة الواحدة والبعض الآخر مذهب الإرادة الواحدة مع الطبيعتين.

٢٩ . الأقباط الكاثوليك

بالقطر المصرى ٥٠٠٠ قبطى على المذهب الكاثوليكي. ولم تدخل الكتلكة بين أقباط مصر إلا منذ عهد قريب. ولهم أسقف خاص بهم، وقساوستهم أسمى إدراكا وأوسع علما من القساوس اليعاقبة. والظاهر أن مذهب الكتلكة أثر فيهم فجعل لهم التفوق بالعلوم والمعارف على سائر المتمسكين بالمذاهب القبطية الأخرى.

٣٠ . اليونان المنشقون

اليونان المنشقون بالقطر المصرى ٣٥٠٠ يونانى ينقسمون إلى فرقتين الفرقة الأولى تتألف من اليونان المتناسلين فى القطر المصرى نفسه وهم السواد الأعظم، والفرقة الثانية من اليونان الذين وفدوا على هذا القطر بعامل حب الكسب من التجارة. والمفهوم أن يونان الفريق الأول منتشرون بالوجه البحرى وهم سلالة الجاليات القديمة، وانهم إذا تمذهبوا بالمذهب الانشقاقي فما ذلك إلا لاتصالهم بالقسطنطينية عاصمتهم السياسية القديمة وشأنهم كشأن الاجانب فى تبعيتهم من الوجهة الروحية إلى البطريك المعين من اسلامبول. ولهم بالقاهرة ثلاث كنائس وهى دير مار جرجس ودير القديسة كاترينة وكنيسة مارنيقولا.

٣١ . اليونان الكاثوليك

اليونان من المذهب الكاثوليكي يبلغ عددهم ٣٥٠٠ تقريبا . سوادهم الأعظم من السوريين وهم تابعون منذ بضع سنوات إلى أحد البطاركة فى أحوالهم الشخصية.

٣٢ . الأرمن

يعد الأرمن فى مصر ٢٠٠٠ نفس تقريبا . أغلبهم تابع للمذهب المنشق ولهم قساوستهم وبطاركتهم وكنائسهم. وفريق من الأرمن الكاثوليك هيكل

خاص لإقامة شعائهم الدينية.

٣٣ - الكاثوليك اللاتين

الكاثوليك المتمسكون بالمذهب اللاتيني هم الجاليات الأوروبية وقيم شعائر هذا المذهب في الكنائس اللاتينية آباء الأرض المقدسة ومتدينو القديس فرانسوا .

ولمبعوثي المذهب الكاثوليكي كنائس في القطر المصري، وقد عين قداسة البابا أخيرا أسقفا لهم فيه.

والمعاهد الدينية الكاثوليكية وضعت منذ زمن بعيد تحت حماية فرنسا، ومعلوم أن الملك فرنسوا الأول والملك لويس الرابع عشر شملا هذه المعاهد بوصايتهما ورعايتهما بأوامر أصدرها في هذا الصدد.

٣٤ - العداوات بين المذاهب المسيحية

تشمل حكومة محمد على بحمايتها جميع الأديان والمذاهب على حد سواء بصرف النظر عما هو مستحكم بين بعضها البعض من أسباب العداوة والنفور. وليس في هذه المساواة ما يبعث على الدهشة. فإن المسلمين يعتبرون تلك الأديان والمذاهب كلها مخالفة للإسلام، وبالتالي غير مؤمنة وبين العقائد الدينية المختلفة التي يدين بها غير المسلمين من المصريين تنافر غريزي وتحاسد وتباغض وتخاصم أفضى بها إلى الخلاف المستمر والتناوب. ولكن هذه المقابح زالت الآن وصار لا أثر لها. لأن «محمد على» بما عرف به من النزاهة والبعد عن المحاباة لا يؤثر أهل مذهب على أهل مذهب آخر ولا يناصره ضده وإذا كان هناك ضرر يلحق بتلك الأحزاب الدينية فإنما هو الضرر الناشئ من حملهم المسلمين بتلك الأفعال القبيحة على احتقار المسيحية والنيل من كرامتها. وكان هذا الضرر قبل أن يتسلم محمد على أزمة البلاد متفاقما . فقد كانت تلك المذاهب لانتقاضها على بعضها واستنفار الفساد بينها تتسابق في شراء حماية الحكومة بأموال تنقدها إياها فلا يفوز بهذه الحماية منها ليغنم الامتيازات إلا من بلغ الحد الأقصى من المزايدة في سوق الدلالة. وكان الإنسان لا يبعد أن يرى عندئذ أرباب الفتن والدسائس من المشايخين للمذاهب وقد توصلوا بقوة المال إلى تحقيق ميولهم الشريرة من

الفتك بأرواح خصومهم أو هدم كنيستهم أو استنزال السخط والاضطهاد عليهم وليس بعازب = ببعيد = على فكر أحد أن العداوات من هذا النوع إذا أطلق لها العنان كان من أخص نتائجها تزجية = سَوَّقَ = فكرة محزنة إلى أذهان المسلمين عن فضائل الديانة المسيحية وآدابها^(١).

(١) الناشر: أخالف رأى المؤلف.

الشريعة الإسلامية وإدارة العدل في مصر

(١)

الشرائع والقوانين المدنية

الشريعة الإسلامية - البلوغ - الزواج والطلاق - الحقوق الأبوية -
الأوصياء - المدينون والمفلسون - الحجر - التسليف على رهن - المحبة -
الميراث.

١. الشريعة الإسلامية

ينبوع الشريعة عند المسلمين كما هو في المدنيات الشرقية الدين وقوانينهم
في الشئون المدنية، والعقوبات مستمدة من القرآن، وحيث إن هذا الكتاب لم
يقرر الأحكام بالتفصيل في وجوه المنازعات فالقضاة يعتمدون في تقريرها
على الاسترشاد بما يأتي:

أولاً: السنة، وهي ما نسب إلى النبي قولاً أو فعلاً أو تقريراً - أي ما حدث
أمامه من قول أو فعل فأقره بالقول أو السكوت.

ثانياً: الإجماع - أي أجماع الصحابة الذين توفي النبي وهو راض عنهم
أو بعبارة أخرى هو المتفق عليه بالتواتر في خلال الثلاثة قرون الأولى
للإسلام، ويرجعون في العمل به إلى قول النبي «خير القرون قرني، ثم الذين
يلونهم، ثم الذين يلونهم».

ثالثاً: القياس، وهو ما قررته العادة وجرى عليه الاصطلاح.

رابعاً: الاستقراء.

٢- سن الرشد

قررت الشريعة الإسلامية أن يكون بلوغ الرشد للذكر والانثى ميعاد بلوغهما الحلم - أى الثانية عشرة للذكور والتاسعة للإناث، هذا إذا جهرأ بأنهما فى هاتين السنين قد بلغا الحلم. وأقسما على ذلك. فإذا لم يجهرأ ولم يحلفا فإن سن الرشد لهما تكون ببلوغهما تمام الخامسة عشرة، وفى هذه الحالة يجوز للذكر الحر حق التصرف فى شئونه. فإذا مات أبوه فإن وصيه يتولى إدارتها إلى أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، وإذا أمسك الرجل بزمأم ماله فتصرفه فيه طبقا للقانون يعتبر صحيحا لا غبار عليه.

٣- الزواج والطلاق

رأينا فيما تقدم أن الشريعة الإسلامية حددت بأربع عدد الزوجات الشرعيات التى للمسلم أن يتزوج بهن ويتم الزواج شرعا بإيجاب وقبول فى حضرة الشهود وبدفع صداق للزوجة إما معجلا كله وإما معجلا بعضه ومؤجلا البعض الآخر، والخيار فى الطلاق يرجع فى الأصل إلى إرادة الزوج. ولذا ترى العرب يسيئون استعمال هذه الحرية ويعبثون بها إلى حد أن بعضهم ربما تزوج وطلق خمسين مرة. أما الأتراك فالطلاق بينهم نادر جدا. وعلى كل حال فللزواج المطلق أن يرجع إليه زوجته فى الطلقتين الأوليين فإذا طلق ثالثة فلا تحل له إلا بعقد ومهر جديدين بعد طلاقها من الزوج المحلل.

٤- حقوق الأب

وللوالد الخيار فى تزويج أبنائه القاصرين لمن يشاء وعلى أى وجه يشاء بدون أن يكون لهم حق ما فى الاعتراض على سلطته. أما الأبناء البالغون فلا يمكن تزويجهم بغير رضاهم. وهذه القاعدة مستمدة من الاقتداء بمحمد فانه استشار ابنته فاطمة قبل أن يزوجها بعلى. وللوالد الحق فى إدارة أموال أبنائه القاصرين بدون أن تلحقه مسئولية فيما لو أدركها ضرر كالذى يحتمل وقوعه إذا رهنها تأمينا لدين عليه أو أنفقها فى احتياجاته الصحيحة.

٥- الأوصياء

للوصى من الحقوق على القاصر ما للوالد بالسواء ما عدا الحقين الأخيرين اللذين تقدم ذكرهما. وأقرب الأهل إلى والد اليتيم أحق الناس بالوصاية عليه،

فإذا لم يكن لهذا اليتيم ولي تؤول الولاية إلى قاضى الجهة التى يقيم فيها.

٦- المدينون والمفلسون

تبيح الشريعة الإسلامية حبس المدين حتى يعلن عجزه عن السداد. أما المفلس فيقع تحت طائلة الحجر الصحيح، ولا يجوز له التعامل مدنيا أو القيام بعمل ما يختص بأمواله إلا بتصريح من القاضى.

٧- الحجر

الذين يحجر عليهم هم: القصر والشيوخ المعتوهون والمجانين والأرقاء والمسرفون والمفلسون. ومع هذا فإنهم يعاقبون بالعقوبات المبينة فى الشريعة إذا ارتكبوا ما يجعلهم أهلا لها.

ولصاحب المال أيا كان حق التصرف فى ماله بالتنازل عنه لمن أراد على شرط أن لا يكون محجورا عليه.

٨- التسليف على رهن

وإذا سلف مالا فى مقابل رهن فإن النفقات التى تستلزمها صيانة الشئ المرهون تكون على ذمته، ويكسب دينه صفة الامتياز فى حالة وفاة المدين أو إفلاسه.

٩- الهبة

ولصاحب المال بمقتضى ماله من حقوق الملكية أن يهب فى حياته ما شاء من ماله إلى من يريد كائنا من كان. ولكن يبقى بيده الحق فى استرداد الهبة كلها أو بعضها، والشريعة تجيز له ذلك وإن تكن من جهة أخرى تستقبحه. ومع هذا فإن الهبة لا تتم فعلا إذا مات الواهب والموهوب إليه، أو كانت بينهما قرابة، أو كان الموهوب إليه لم يتسلم الهبة.

١٠- الوراثة

فى مصر كما فى بلاد الدولة العثمانية يرث الأبناء بالتساوى بما يتركه والدهم من الأموال فليس فيها ذلك الحق الذى يقضى بأن تكون الوراثة للأكبر فالأكبر من الأبناء. كما لا فارق ولا تمييز بين أبناء الزوجات الشرعيات وأبناء السرارى والجوارى، أما الأنثى فترث من مال الأبوين ما

يعدل نصف حظ الذكر. وإذا توفي المورث عن بنات فقط فبمقتضى الشريعة ترثن ثلثي التركة سواء كن اثنتين أو أكثر عددا. أما إذا مات المورث عن ابنة واحدة فلها بمقتضى الكتاب الحق في نصف ما ترك والدها وفي الحالتين المتقدمتين يعود الثلث أو النصف الباقيان إلى البنات الوارثات أو الابنة الوارثة بعد التأكد من عدم وجود أقارب للمورث توزع تلك الحصص الباقية عليهم. وإذا مات المورث عن والده ووالدته فإن سدس تركته يؤول إليهما في حالة ما إذا كان له أبناء. أما إذا لم يعقب فيرث الأب ثلثي ما ترك الابن والأم الثلث الباقي. فإذا كان للمورث أخوة فلا يصيب الأم سوى السدس مما ترك ويؤول إليهم السدس الآخر. وليس للرجل أن يتصرف على سبيل الوصية في أكثر من ثلث ماله، والواجب بعد وفاته سداد ديونه وما وصى به قبل كل شيء آخر

(٢) الجنايات والعقوبات

سب الدين - القتل - الضرب والجرح - الزنا - السرقة - الردة.

١١. سب الدين

في الشريعة الإسلامية يقام الحد على من يسب الدين بالقتل ويقام هذا الحد أيضا على قاطع الطريق.. إلخ.

١٢. القتل

عقوبة القتل القصاص ويمك تخفيفها ورثة القتيل باقتضائهم من القاتل مالا يدفعه في مقابل ما اجترمه وهو دية الدم. وحوادث القتل تكاد تكون معدومة في القطر المصري.

١٣. الضرب والجرح

تعاقب جناية الضرب والجرح بالقصاص. العين بالعين والسن بالسن.. إلخ.

١٤. الزنا

يقام الحد على الزانى غير المتزوج بالجلد وعلى المحصن بالرجم.

١٥. السرقة

يعاقب السارق بقطع اليد، ولكن ورد في السنة تطبيق هذا الحد على السارق الذى يسرق في ظروف توجب التشديد في عقوبته وشهود الزور في الدعاوى المدنية يشهر بهم بين أهل وطنهم حتى يلحق بهم عار زورهم. أما شهود الزور في الجنايات فيستوجبون على أنفسهم عقوبة الجلد وقد يعاقبون بنفس العقوبة التى تترتب على شهادتهم لو نطق بها في حق المتهم. وحد شارب الخمر الجلد وهذه العقوبة وإن تكن مرعية قانونا في القطر المصرى لا يتأتى تطبيقها إلا في النادر لندرة من يعاقرون بنت الدنان في القطر المصرى.

١٦. الردة

الارتداد عن الديانة الإسلامية جناية ليس بعدها جناية ولذا يعاقب مرتكبها بالقتل ما لم يحلف المرتد ثلاثا بأنه عاد إلى حظيرة دينه.

(٣)

نظام القضاء

القضاة — المحكمة — تنفيذ الأحكام — العقود العامة — المصاريف القضائية — القانون العسكرى — السلطة الاستبدادية التى بيد الباشوات — العقوبات — القضاء عند الأفرنج.

١٧. القضاة

السلطة القضائية مستمدة في مصر من ولى الأمر وحده. فهو الذى يرجع إليه اختيار كبار القضاة وتعيينهم، وهؤلاء يباشرون تعيين من دونهم ممن يتولون مناصب القضاء في أرجاء القطر. وبناء على هذه القاعدة فإن السلطان الذى هو ولى الأمر يرسل إلى مصر في كل عام قاضيا كبيرا تمتد سلطته القضائية بحيث تتناول هذا القطر كله وتشمل رياسته المشائخ والمدنيين والنواب وبالجمله أصحاب المناصب القضائية على اختلافهم.

وتتطلب الشريعة الإسلامية ممن يتولى القضاء صفتين أساسيتين. الفضيلة والعلم، وليس لعالم أن يرفض منصب القضاء إذا عرض عليه والقضاة قابلون للعزل من مناصبهم.

١٨. المحكمة

المحكمة هي التي يُنظر فيها القضايا بين الخصوم وتصدر الأحكام ولكل محكمة كاتب أو كتاب يسجلون المرافعات. وليس للخصوم في بلاد الدولة وكلاء يدافعون عنهم أمام المحاكم بل كل خصم يدافع عن نفسه بنصوص الشريعة. والمقرر بوجه عام أن شهادة الشاهدين تقوم مقام الدليل الكامل في جميع القضايا إلا قضايا الزنا فإنه من المحتم لصدور الأحكام فيها من شهادة أربعة شهود تتفق شهادتهم اتفاقاً تاماً ولا تختلف في شيء، ومن اعتراف الرجل والمرأة به مكرراً أربع مرات فقط وإلا فلا دليل على وقوعه.

ولا تنهض شهادة الشاهد الواحد في أية قضية دليلاً على إثبات أو نفى، ولا تقبل شهادة النساء إلا في القضايا المدنية والأحكام التي تصدر فيها. ولذا نادراً ما تستأنف. لاسيما وأنها إذا استؤنفت لا تلقى إلا تأييداً. وكل ما هنالك أن الأعوان الموكلين بالتنفيذ إما يوقفون تأثيرها أو يعدلونه. والتنفيذ يتم في العادة فوراً. وفي المسلمين نزعة إلى احترام أحكام الشريعة الإسلامية ولو داخلها بعض الخطأ أو كانت مبنية على شهادة شهود الزور.

١٩. تنفيذ القوانين

في كتب القضاء الإسلامي، وفيما تقرر بالقياس أحكام صالحة ونصوص حسنة جداً. ولكن ينبغي لكى تأتى بالفوائد والمزايا المقصودة منها أن لا تصدر قوانين مناقضة لها فتذهب بأثرها النافع، وأن يحرص الحرص كله على تنفيذها. وهنا لا أتمالك من الجهر بسوء حالة القضاء في البلاد العثمانية فأقول إنها فيها أسوأ منها في كل بلد سواها، ولا سيما من جهة الحقوق المدنية المعرضة إلى أفطع ما يكون من صنوف العبث والاعتقال.

فإن القضاة يحورون من أحكامهم بحسب ما يرونه من مكانة المتقاضين محاباة لهم، أو بحسب ما يدلى هؤلاء إليهم به من المال فإنهم في بعض الأحيان يبيعون أحكامهم بيعاً لصالح من يتفوق على خصمه في المزايدة. ومن

الفاضح بعد هذا وذاك تواتر شهادات الزور. فقد سبق أن قلنا إن شهادة شاهدين تقوم شرعا مقام الدليل. فليس أسهل على المدعى عليه أو المتهم من العثور على شاهدين يبيعان ذمتهم بالمال.

وقبل أن تسند الولاية إلى محمد على كان القضاء في أشد من هذه الحالة اختلالا وظلما. إذ كان يقوم مقامه استبداد الباشوات والبكوات وصغار الرؤساء وغيرهم ممن يفتاتون على حقوق القضاء وضمائنه لقضاء أوطارهم.

٢٠. العقود العمومية

أعمال المأذونين في العقود من اختصاص القضاة بمصر. فالقاضي هو الذي يتولى تحرير عقود بيع العقارات بين أفراد الملاك في مقابل رسم يتقاضاه لا يزيد على ٢٪. وهذه العقود ويسمونها المصريون «الحجج»، مشمولة بختم القاضي وأصولها تبقى محفوظة ضمن أوراق المحكمة في خزانة دفاتها.

٢١. المصاريف القضائية

لا تتجاوز المصاريف القضائية بمصر أربعة في المائة. لأن إجراءات القضاء بسيطة في ذاتها ولا التباك فيها، فضلا عن أنها تنجز بسرعة. والمحكوم عليه في القضية - أي الخصم الخاسر هو الملزم بدفعها فورا بالجلسة. ومفهوم أن ما يستفيدة القضاة عادة من التصرف في القضايا بحسب أهوائهم ومصالحهم كثيرا ما يبلغ مبلغا جسيما.

٢٢. القانون العسكرى

لم يكن باستطاعة محمد على إدخال شىء من الإصلاح على حالة القضاء في الشئون المدنية نظرا لارتباطها الارتباط الوثيق بالدين. وكان بلا ريب يعلم ما يعتور هذه الحالة من الخل والنقص فترك حبلها على غاربها وتحامى التصدى لها خيفة الاعتراض والتهمة بالجنوح إلى المساس بالدين. ولكنه لما أتم تنظيم الجيش المصرى لم يتوان في اتخاذ القانون العسكرى الفرنسى قانونا له، وزاد على ذلك أن أنشأ مجلسا مختلطا للتجارة دخل في عضويته نواب عن الجاليات الأوربية.

٢٣ - سلطة الباشوات الاستبدادية

من المسلم به أن سمو الوالى اضطر فى ظروف خطيرة وأحوال ذات بال ولاسيما فى ابلان ولايته حينما كانت سلطته غير راسية القواعد ولاوطيدة الأركان إلى تنفيذ الإعدام، بلا مداعة ولا مقاضاة، فى بعض دعاة الفتنة من الألبانيين أو غيرهم. ومما لاريب فيه أن رمى عنق رجل واحد كثيرا ما يؤدى إلى انقاذ ألوف من الأرواح. ولست أتطلع بهذا القول إلى تحبيذ الأسلوب الذى يجعل حياة أحد الأفراد تحت رحمة أمير أو قيد إرادة زعيم. كلا بل أقدر مزايا الإجراءات القضائية الممهدة للأحكام عند الأمم المتمدنية وما توليه من الحماية والضمانة للهيئة الاجتماعية. ولكن إذا كانت الأمة أمة خيم عليها الجهل ورائت عليها الهمجية فلن يؤثر فيها من أساليب المعاملات إلا الشديا النكاية المكفول النتيجة المقصودة من الشدة والعسف. وفى مثل هذه الحالة لاجناح على الحاكم مادام الغرض الذى يسمو إليه تأييد قضية الحضارة ورفع شأنها.

ولقد جربنا فى بلاد الجزائر ما أيد يقيننا فى عدم الفائدة من المحاسنة والسير بمقتضى القانون ودفعنا إلى الاعتقاد بأنه لا غالب على أمر سكانها من القبائل المتوحشة المتعصبة سوى إقامة حكومة عسكرية ومجالس حربية بينهم. أما وسائل الرفق والحسنى التى يدعو إليها حب الإنسانية نحو أناس يجهلون الأماكن والأشياء والأشخاص فمن شأنها أن تؤدى إلى إراقة الدماء واستئزال الكوارث وليس كلاهما من الأمثلة = المثل = العليا التى ترنو إليها الإنسانية.

٢٤ - العقوبات

رأينا حين الكلام على الحدود فى الشريعة الإسلامية ما هى أصناف العقوبات التى توقع فى القطر المصرى على المجرمين وقلنا إنها تنحصر فى الجلد والقصاص. ونقول الآن إن النساء لا تطبق عليهن. العقوبات التى تطبق على الرجال فهن لا يشنقن ولا ترمى أعناقهن بل يوضعن، إذا صدرت

الأحكام عليهن بالإعدام، في الأكياس ويلقيهن في الماء ليغرقن. والشنق ورمى الأعناق والخوزقة عقوبات الجرائم الغليظة. وكان الباشوات والزماء في الزمن السابق بما عرف عنهم من القسوة والجور يتفنون في استنباط وسائل للتعذيب هي أقظع ما مر بخاطري ومن ثم لا يسع أحد أن يتذكر ما ارتكبه أحمد باشا الجزار من الفظائع حينما مثل بنحو الثلث من سكان عكا إلا ويقشعر بدنه فزعا وجزعا.

٢٥. القضاء عند الإفرنج

مفهوم أن الأوروبيين في الشرق ليسوا خاضعين للقضاء العثماني. لأن الامتيازات الأجنبية تجعلهم في متجاة من هذا القضاء وتابعين لقضاء قناصلهم. وقد أصبح من اختصاص القنصليات الفرنسية في تلك البلاد - بمقتضى أمر جديد - النظر في قضايا الفرنسيين. وحبذا هذه الطريقة. لأن اختصاص القناصل كان في السابق مقتصرا على تحقيق القضية التي تتعلق النظر فيها بمحاكم فرنسا حيث يتعذر استدعاء الشهود. وهذه الحالة التي ما برحت مرعية بالنسبة للجاليات الأوروبية الأخرى من شأنها أن تكفل للمجرم الفرار من العقوبة. وفي الواقع فإنك لاتزال ترى في الشرق مجرمين ارتكبوا القتل يطلق سراحهم بالنظر إلى ما هنالك من تعذر محاكمتهم في بلادهم.

الباب السادس

أخلاق المسلمين
وعاداتهم

(١) الطبقات الاجتماعية

اعتبارات عامة - الأتراك والعرب - الطبقات الاجتماعية عند
المصريين - الطبقة الوسطى - العمال - الفلاحون.

١. اعتبارات عامة

من المقدور لمصر أن تحمل في كل شأن من شئونها طابعا خاصا بها لا يشبهها فيه شيء بالبلدان والأقطار الأخرى. مثال ذلك أن تكون الهيئة الاجتماعية فيها لم يتمش في الطريق الذي تمشى فيه هذا التكون بغيرها من البلدان ولا سيما الأوربية في الأبحر والمدنية. فإن الأمم العربية تكونت على أثر تخلصها من الغارات والفتوحات، فهي إذن ثمرة اندماج الأجناس الغالبة بالأجناس المغلوبة على أمرها. وكانت تتكون من الفاتحين الغالبين في مبدأ الأمر طبقة ممتازة، ثم قامت بينهم وبين عامة الشعب طبقة وسطى أخذ نفوذها يمتد شيئا فشيئا بما برعت فيه من العلوم والفنون والصنائع وبذلته من الجهود التي لا تعرف الملل في إنجاز الأعمال حتى إذا بلغت إلى مستوى الطبقة الشريفة حصلت على المساواة بها في الشئون المدنية أو هيأت بالأقل هذا الفتح الأدبي المبين الذي يظهر أن سيكون من حظ الهيئات الاجتماعية الحديثة القيام بمثله في جميع أنحاء العالم.

فإن الشعوب القاطنة في وادي النيل لم ينقصهم الفاتحون. إذ يظهر أنهم مقضى عليهم باستمرار التبعية والخضوع لغيرهم. ولسنا ننسى أن الطبقات الكهنوتية والعسكرية كانت واضحة نير العبودية في أعناق تلك الشعوب، ثم

جاء الفتح الفارسي وتلاه الفتح اليوناني الذي لم يلبث أن حل محله الفتح الروماني فالفتح العربي فحكم المماليك والأتراك. فلم يطرأ في خلال هذه الأدوار ما يغير من شأن الأمة المصرية. لأنها ظلت رازحة تحت أثقال أولئك المغيرين حاملة نير تسلطهم وتحكمهم فيها. ولم يرد في أخبارها السابقة ما دل على أنها كانت ذات أثر في شئوننا الخاصة ولا مداخله في مصيرها. (١)

٢. الأتراك والعرب

بالرغم من أن مؤسس الدين الإسلامي لم يجعل بين المسلمين فروقا اجتماعية تميزهم بعضهم عن بعض. وأنه لا يوجد في الدولة العثمانية ما يشعر بوجود طبقات ممتازة، فإن في مصر فريقين يختلفان أحدهما عن الآخر — بصرف النظر عما يربطهما من جامعة الدين — اختلافا حال دون اختلاطهما ببعضهما. أحدهما الفريق الذي بيده السيطرة والحكم يتمتع بما يرتبط بهما من مظاهر التعظيم والتكريم ويستقل بفوائدهما، والفريق الثاني هو المقضى عليه الخضوع والخنوع للفريق الأول ويصيبه عار ذلك وما يفرض عليه من الكلف الباهظة. ذلك الفريق هو العنصر التركي، وهذا هو العنصر المصري العربي.

هذه الحالة القائمة في مصر المشهودة من كل ذي عينين إنما هي نتيجة ماضٍ موغل في القدم إلى مدى أربعين جيلا. فمن المتعذر أن تتغير فجأة بوقوع ثورة فجائية. لهذا كان من الواجب الاحتراز من إلقاء مسئولية بقائها واستمرارها على عواهن محمد علي باشا. إذ إن جميع العقلاء غير المتحيزين إلى الغرض يقرون بأن هذا الوالي قد بذل بالعكس كل ما في وسعه لتغيير تلك الحالة أو تعديلها طبقا لمقتضيات الظروف. فمحمد علي هو العثماني الوحيد الذي عمل على رفع القومية العربية إلى المستوى الذي هي جديرة به، فإنه بدأ بنشر نعمة التعليم بين أفرادها. وأرسل إلى مدارس أوروبا، وعلى الخصوص فرنسا، وجامعاتها طلابا من العرب لدراسة علومنا والاطلاع على أفكارنا والانطباع بطابع مدنيتنا. ثم انه — وهو أمر في الغاية القصوى من الأهمية — ضرب الأتراك المتسلطين المعروفين بعزة النفس بالجيش المصرية العربية التي ألفها من أبناء البلاد، وذلك بالرغم من خضوعهم لهم مدة ثلاثة قرون.

(١) : الناشر : نسي المؤلف الفترة الفرعونية التي كانت مصر فيها سيدة نفسها وسيدة منطقة البحر المتوسط . خاصة أيام الفراعنة العظام أمثال تحتمس ورمسيس .

ومن عادة الفوز في الحروب إكساب الفائز احترام الغير وإحلاله شرائف الرتب. وإن أنسى لا أنسى أن أقول أن المجد الذى يظفر به المنتصر بحد السنان تاج يعلو مفرق الشعوب المنتصرة ويرفع مكانتها ويعلى شأنها. وعلى هذا الاعتبار فإن الانتصارات الأربعة التى فاز بها محمد على ووثق بها أركان ملكه لابد أن سيكون لها أثر فعال فى إعادة القومية العربية إلى سالف مجدها. يضاف إلى هذا أن سموه عهد فى مختلف إدارات حكومته إلى المصريين الوطنيين عددا عظيما من الوظائف واختار من بينهم جميع ضباط جيوشه إلى درجة أمير الالاي.

٣. الطبقات الاجتماعية عند المصريين

ينقسم العنصر المصرى الأصل إلى عدة طبقات. الأولى منها طبقة العلماء وهم يتوارثون تقاليدها وخططها عن الآباء والأجداد ويؤلفون بذلك الطبقة العليا من الأمة. وكان لهم فى عهد سبق تأثير عظيم فى نفوس الأمة وقيادة آرائها فكانوا هم الذين يحرضونها على الحركات السياسية والفتن ويصدونها عنها إذا أرادوا. غير أن السوالى قلب صرح هذا النفوذ فجعل عاليه سافله إذ انتزع من أيديهم الأملاك الواسعة التى ابتزوها من الأمة بطريق الاستفادة بما جاءت عليه من جهل وأوهام فاسدة. فأصبحوا لهذا الأسباب ولا شئ بيدهم من السلطة وقوة التأثير لا على الأمة ولا على الحكومة التى يمكن أن يقال إن الممسك بأعنتها إنما هو العنصر العثمانى.

أما الطبقة الثانية فتتألف من الملاك والتجار كبارا وصغارا وأفرادها قليلو العدد لأنها لا تحتوى بوجه عام إلا ذوى الثروات المتوسطة. غير أن الأزمة التى تجتازها مصر الآن قد رفعت على ما يظهر من شأنها وإلى ذوى النفوذ والجاه من أفرادها عهدت مراكز القيادة الكبرى فى الحرس الوطنى، وهو الحرس الذى أنشأه محمد على فى مدائن الوجه البحرى.

أما الطبقة الثالثة فطبقة العمال والصناع. وينقسم أربابها إلى طوائف عديدة مختلفة تتولى بنفسها إدارة شئونها فى الدائرة التى تتبعها. ولها أنظمة خاصة وعادات لا تتعدها ورؤساء أو مشائخ يقبضون على زمامها. ومما يدخل فى إدارتها طائفة الخدم وهى كثيرة العدد جدا.

أما الطبقة الرابعة وهى تتألف من المزارعين الفلاحين فمنها يتكون

الشرط الأكبر من الأمة، وستتاح لنا فرصة الكلام عنها مرارا في هذا الصدد.

(٢) الأسرة الإسلامية

السلطة الأبوية - احترام الزوجة لرب الأسرة - احترام الأبناء والدهم - السلطة بين الإخوة - احترام الصغار للكبار والمرءوس للرئيس.

٤ - يمكن القول بأن الأخلاق والعادات في الشرق لم يطرأ عليهما تغيير أساسي ما. فإن الصفة المميزة للحضارة الشرقية ترجع إلى أمرين: أحدهما احترام التقاليد، والثاني استقرار الأفكار والعقائد الدينية والعادات. ولهذا كانت الحضارة الشرقية مخالفة لحضارتنا التي يميزها عنها النشاط والحركة والعمل المتواصل، والتخلص من استبداد القوانين القديمة والعادات التي أكل الدهر عليها وشرب والوقوف في المدارس على حركة التقدم الحديث وعدم الثقة إلا بالحاضر وعدم الانصراف إلا إلى شيء واحد ألا هو المستقبل.

٥. السلطة الأبوية

من الأسرة الشرقية يتضوع شذا التقاليد القديمة الذي يحجب إلينا إلى الدرجة القصوى البحث في شئونها، فإن الأسرة الإسلامية قد حفظت كيائها المبني على السلطة الأبوية. وغير خاف أن مؤسس الديانة الإسلامية ولد في قوم يفتخرون بأنهم من سلالة إبراهيم عليه السلام، وعاشوا - ولا يزالون عائشين برمتهم تقريبا على البداوة الأولى فكان بدهيا أن يخص الأسرة بشرط واف من الأنشطة الدينية. خصوصا وأن مهمة الأسرة عند الشعوب الشرقية على جانب عظيم من الخطورة والأهمية. ومن ثم كان للسلطة الأبوية في الشرق جزء من النفوذ العظيم الذي كان لها في عهد قيامها بين قبائل العرب وشعوبها.

وعلى هذا الاعتبار فالأب هو الرئيس الأعلى للأسرة وله بهذا الوصف السلطة المطلقة على زوجته وأولاده وأقاربه إناثا وذكرانا. وكل هؤلاء مطالبون بالاحترام الجم له والطاعة لأوامره وحياطته بصنوف العناية والرعاية. وهذه

السلطة الوالدية التى تخضع لها الأسرة برمتها شائعة فى سائر الطبقات الاجتماعية للأمة ، وشأنها فى أسر الأمراء ، ومن ثم إنها فى أسر المستضعفين والفقراء.

٦- احترام الزوجة لرب الأسرة

تعنى المرأة فى علاقاتها مع زوجها بإظهار الاحترام الكلى له . فليس لها أن تظهر نحوه بما هو مألوف فى الغرب من عدم الكلفة - أى الإشارة الوحيدة للتساوى بين الزوجين . فإنها فى غالب الأحوال تقف أمام زوجها لتتلقى أوامره وتدعوه إذا دعت به بياسيدى . ولها من العناية بشئونه والمداواة له مالا يصح أن يطلب من الخادم فضلا عن الزوجة . ومع هذا فإن قيامها بهذه الواجبات ليس مما يشق عليها لاعتيادها فناء ذاتها فى ذات زوجها . فلا يكون همها فى الحياة إلا اتخاذ الوسائل لنيل رضائه عنها والقيام بتوفير أسباب السعادة والهناء له .

وهذه الصفات المبنية على التواضع والإخلاص هى التى رأينا نساء العصور انسالفة مقيمات عليها . كما يؤخذ من الحكايات الواردة فى التوراة .

٧- احترام الأبناء لأبائهم

مفروض على الأبناء توقيير أبائهم والطاعة لهم . لهذا تراهم يلثمون يمينهم ويؤدون إليهم من علامات الاحترام والخضوع مايدل على برهم بهم ، ولا يجلسون فى حضرتهم إلا إذا أذنوا بالجلوس لهم ولا يتكلمون إلا جوابا على سؤال ويمسكون عن التدخين وشرب القهوة فى حضرتهم^(١) ولا تظهر على علاقتهم بهم مسحة من الحرية وارتفاع الكلفة إلا بعد زواجهم وكما يحترمون الآباء تراهم يوقرون الأمهات ويتحينون الفرص لإظهار عواطف الرفق بهن ومخاطبتهن بالقول الكريم .

٨- السلطة التى لأكبر الأبناء على إخوته

الروابط بين الأبناء يسوسها مبدأ رئاسة الكبير منهم على الصغير .

(١) مرتبة منه بمقتضى نظام الدرجات إذ كان بصفته واليا على مكة أول ولاية الدولة العثمانية وأشرفهم رتبة وأعلامهم مقاما ، وكان فوق هذا وذاك قائدا مكللا بأكاليل الفخر العسكرى والقوز فى الحروب ومع هذا فكان فى حضرة والده يظهر نحوه من علائم الطاعة والاحترام ما تقتضى الآداب الإسلامية به على الصغير نحو الكبير والمرءوس نحو الرئيس .

فالأصغر سنا مطالب بالطاعة والاحترام للأكبر سنا وللأكبر حق الرئاسة في الأسرة بعد الأب لأن هذا الحق يؤول إليه طبعاً عقب وفاة رب الأسرة. وأفراد الأسرة جميعاً يحترمون ما بينهم من أواصر القرابة ويقدرونها على حد اعتبارهم اليمين التي يقسمونها بحياة جد أو جدة أو أب أو أم.. إلخ مما يجب عدم الحنث فيه وإذا لم يكن أحد هؤلاء على قيد الحياة فإنهم يحلفون بقبره.

٩. احترام الصغير للكبير والرئيس للمرءوس

إن ما ذكرناه من الأخلاق البيتية أثر تأثيراً كبيراً في الهيئة الاجتماعية الإسلامية، إذ جعل احترام الكبار ضربة لازب = حق واجب = على الصغار حتى أصبح هؤلاء لا يفرقون في الاحترام بينهم وأبائهم وهم إذا خاطبوا في أمر أو حدثوا عنهم أطلقوا عليهم وصف الوالد أو الشيخ. ولم تكن الفروق في السنين وحدها من بواعث التأثير في الروابط الاجتماعية فإن للفروق في الرتب والتفاوت في الدرجات تأثيراً مثله، فمظهر طاعة الطبقات الدنيا صيغ أدبية خاصة ينمقون بها عباراتهم.

ومن هذا القبيل أنه إذا مر أحد من الأعيان أو ذوى الحثيات بهم ألقوا من أيديهم الأدوات التي يدخنون بها أو انقطعوا عن أعمالهم ثم وقفوا ينتظرون باحترام أن يلقي المار الكريم العظيم عليهم تحيته. وإذا وجه مرءوس خطاباً إلى رئيسه دعاه بالاستاذ أو السيد أو الوالد. أما إذا وجهه إلى نظيره سماه بالأخ، وهكذا بحيث يخيّل لمن يشهد هذه المناظر أو يسمع هذه الأقوال أن المجتمع الإسلامي أسرة واحدة تربط أعضائها جميعاً قرابة عامة ضمن أسلوب يقتضى طاعة الأصغر للأكبر في ظلال السلطة الأبوية الشاملة.

(٣)

الرق في الشرق

الرق في الغرب - الرق في الشرق - الرقيق الأبيض - الرقيق الأسود - حالة الأرقاء - الأرقاء من النساء - ديانة الأرقاء - سلوك الأوربيين نحو أقرانهم في مصر - أقوال مقتبسة من الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالرقيق والنخاسة وعتق الأرقاء.

١٠. الرق في الغرب

إن سمو الأخلاق وارتقاء الآداب بفضل انتشار الديانة المسيحية أديا إلى استهجان مبدأ الرق وتحقيره في ذاته واعتباره جريمة ضد الجنس البشرى كله. وقد جعلت الفظائع التي ارتكبت. سواء في العصور القديمة أو الحديثة ضد التعساء الذين ساقهم الشقاء إلى السقوط في هذه الهاوية اسم الرق ممقوتا ومبغضا عند الناس أجمعين. لذا سيكون من أكبر بواعث الفخار لهذا الجيل أن يقضى على تلك التجارة الشنعاء التي كانت ولا تزال تملأ أسواق النخاسين في المستعمرات الأوربية، وأن يحرر أولئك الإفريقيين الذين نقلوا إلى أمريكا ليزوقوا بها عذاب الاسترقاق في أحوال ينفطر لها القلب وتنهمر بسببها دموع ذوى الرفق بالإنسانية.

١١. الرق في الشرق

إن حب الكسب الذى أوجد من العدم أسواقا للنخاسة في المستعمرات وجعل هذه التجارة رائجة فيها أفضى بها إلى حالة من الأحوال التي تتقرز النفس عند ذكرها وتنبو الأبصار عن مشاهدتها. إلى حد أنني لا أود استعمال لفظة الاسترقاق للدلالة على الاستعباد الواقع في بلاد الشرق من بعض الناس على إخوانهم في الإنسانية. فإن هناك في الحقيقة فرقا باليا بين الاستعباد الأمريكى والاسترقاق الشرقى. فعند الشرقيين لم يكن الرق من الأنظمة القاسية أو الحاطة من قدر الإنسان لأنهم لا يرون في الرقيق متاعا أو شيئا ماديا كما كان الرومانيون في قديم الزمان يرونه كذلك بحسب قوانينهم، كما أنهم لا يتخذونه صنفا من الأصناف التي يجرى عليها التصدير والتوريد وتكون موضوعا للمضاربات في طلب المزيد من الربح بالتصرف فيها بيعا وشراء ولا يعتبرونه بمثابة آلة يقدرون قوتها كما تقدر قوة الآلات بالأحصنة. فان المستعمر الغربى لا ينظر إلى العبد الأسود إلا من جهة قيمته المادية ناسيا أنه إنسان مثله ذو آداب وفضائل فيكون فعله هذا باعثا على تغيير ذاتيته وتحويل طبيعته.

أما المسلم فإنه على العكس مما تقدم يرى في رقيقه إنسانا مثله لا يختلف عنه في شيء ما. فلذلك يعامله بحيث يخيّل للواقف على طرائق هذه المعاملة أن الرق الشرقى لم يكن الا تبنيا صحيحا للرقيق وأن هذا الأخير يندرج

باسترقاقه في سلك الأسرة التي اشترته بمالها.

١٢. الرقيق الأبيض

بمصر فريقان من الأرقاء. فريق أبيض والآخر أسود، أما الفريق الأول فهم الذين أسروا في الحرب أو باعهم أبائهم ببلاد الجركس. والموجودون منهم في أسواق النخاسة قليلو العدد منذ اتسعت فتوحات روسيا حتى تناولت تلك الأصقاع. وكأن الله سخر هذه الدولة لمعاينة أقوام القوقاز الذين درجوا منذ زمان بعيد على توريد النساء إلى دور الأغنياء في الشرق بالرغم من الشرائع السماوية والوضعية المحتم إتباعها. وفي مصر بعض أرقاء من اليونان أخذوا أثناء حرب استقلال البلاد اليونانية.

١٣. الرقيق الأسود

أما الأرقاء السودانيون والحبشان فكثيرو العدد جدا وهم عبارة عن الأسرى الذين أسرهم أقوام أفريقية الداخلية وشعوبها أثناء الحروب التي يشب بينهم ضرامها. ولم يقل أحد إن هؤلاء الأرقاء باعهم أهلهم للنخاسين. وهو ما يؤخذ منه أن الشعور بمقتضيات النواميس الطبيعية أعلق بأفئده أولئك المتوحشين منه بأفئدة الجراكسة الذين حاول بعض المتأخرين من الكتاب تصويرهم في صورة يفهم منها أنهم سلالة من الأبطال على جانب عظيم من العزة والشرف وكرامة النفس.

١٤. حالة الأرقاء

ليست حالة هؤلاء الأرقاء في شيء من الرداءة كما يتبادر إلى خاطر أول وهلة. إذ كثيرا ما تكون هذه الحالة سببا في ارتقائهم إلى مستوى لم يكونوا ببالية لو جمدوا على حالتهم الأولى. فإن الأرقاء البيض يستطيعون الصعود إلى أعلى المراتب في الهيئة الاجتماعية والخلول في الوظائف الكبيرة والمراكز السامية، ومع أن الأرقاء السود قضى عليهم لونهم الأسود بمزاولة الأعمال الدنيئة. فإنهم يحظون من الهناء والسعادة والنعيم بما لم يخطر ببالهم أن يتوقعوا الحظوة به لو بقوا على فطرتهم الأولى، وهناك أمثال كثيرة يفهم منها أن كثيرين من السودانيين نالوا شرائف الرتب وبلغوا إلى أرفع المناصب وتحلوا بمرتبة البيكوية. فما الاسترقاق بالنسبة إليهم في الحقيقة إلا حياة جديدة كتبت لهم في لوح القدر ونجاة لهم من الموت. ذلك لأنهم بعد أسرهم

يذبحون بلا رحمة بأيدي المتغلبين عليهم إذا لم يتقدم النخاسون لشرائهم بالمال.

قلنا فيما تقدم أن الاسترقاق في الشرق سلم للتبني والاندرج في سلك أعضاء الأسرة. فإن المسلم الذي يشتري رقيقا في سن الطفولة يأخذه من سوق النخاسين عاريا من الثياب قدرا محروما من وسائل العناية اللازمة للأطفال. فهو بشرائه إياه يلتقط طفلا مهجورا ليقوم على تربيته لوجه الله وطلب مثوبته. ولا يقتصر على السلطة المادية التي يخوله إياها حق ملكيته ذلك الرقيق الصغير، بل يؤيد هذا الحق بما يتخذه حياله من وسائل العناية بأمره والسهر على تربيته. إذ يبدأ بتعليمه فروض الدين وإيقافه على قواعد القراءة والكتابة حتى إذا شب وترعرع وكل به أمر تعمیر شبكه أو تهيئة قهوته أو تجهيز فرشه - أى جعله إما شبكجيا أو قهوجيا أو فراشا. فإذا كان مالك الرقيق سريرا غنيا اتخذه خزندارا له أو كاتباً أو سلحدارا أو كيخيا (قيما على شئونه) وربما زوجه بعد ذلك من إحدى جواريه غالبا ومن ابنته أحيانا.

وعلى هذا المثال ترى أن الاسترقاق الشرقي يتحول في ظل هذه الأخلاق الأبوية التي امتاز بها الشرقيون إلى صفة مغايرة وجدناه إليه في الديار الأمريكية. دع أن في الشريعة الإسلامية نصوصا تقضى بحماية الرقيق من جور مولاه وتكفل له الاعتصام من قسوته وعسفه وتظله بجناح الحماية والرعاية الواجبتين على المؤمنين للضعفاء. ولم يكن اختلاف المعاملة هو ما استوجب دهشتي، فإن الاسترقاق الشرقي يباين الاسترقاق عندنا مباينة تشرف الأول وتفضله على الثاني لاسيما وأنه يحترم الكرامة الإنسانية ويؤيدها.

فالرقيق في البلاد الإسلامية لا يرى في مركزه الاجتماعي ما يغض من كرامته ويحط من منزلته. بل إنه غالبا ما يفتخر بانتمائه إلى بيت فلان من البكوات والباشوات ويطلق عادة على سيده لقب الوالد، ويعلم علم اليقين أنه لن يبقى إلى الأبد راسفا في أغلال حالته الرقية لأنه يرى أمامه من الأمثال ما يحرك في نفسه ساكن الطمع ويصرف أمله إلى الغايات البعيدة والمقاصد العالية. وحسبنا دليلا على ذلك جماعة المماليك الذين وضعوا أيديهم قرونا عدة على زمام الحكم في مصر. فإنهم لم يكونوا سوى أرقاء اشتروا بالمال

لا فرق بين السيد والمسود منهم فعلى بك ومراد بك وإبراهيم بك كانوا أرقاء حصلت عليهم المساومة في أسواق النخاسة وهذا الصدر الأعظم الحال للدولة العثمانية الشيخ القانى خسرو باشا لم يرق إلى منصبه السامى إلا بعد أن بيع في أسواق النخاسة واشترى بالمال. وكذا كان خليل باشا وسعيد باشا، وأحدهما صهر السلطان محمود، والآخر زوج أخت السلطان عبدالمجيد ووزير في الباب العالى فإنهما من الرقيق وصل بهما الجد إلى تلك الرتب الشريفة والمساند الرفيعة. والتقط السلطان محمود من شوارع الآستانة حافظ الجركسى واتخذه سر عسكر لجيشه الأخير.

أما في مصر فالسواد الأعظم من كبار الضباط في الجيش أرقاء فكنت رقابهم. وقد رأيت بعينى رأسى في أسواق الجلالة بالقاهرة أرقاء من اليونان انتزعوا من وطنهم في الوقت الذى كان هذا الوطن فيه على وشك الفوز باستقلاله ثم رأيتهم بعد ذلك وقد احتلوا المناصب السامية في النظامين الملكى والعسكرى. وهو ما يحملنا على الاعتقاد بأن أسرهم، بصرف النظر عما سببه من الآلام لأهلهم وعما كان هؤلاء يتمنون من مشاهدتهم راتعين معهم في بحبوحة الاستقلال التام ومتقلبين على مهاد الحرية، لم يكن مصابا حل بهم، بل نعمة سابغة وخيرا جزيلا.

١٥. الرقيق من النساء

النساء اللائى يسترققن ويدخلن في حوزة من يشترونهن بالمال يتصلن بخدمة حرمهم، وربما اتخذوهن زوجات لهم أو زوجوهن من أبنائهم أو ضباطهم أو بعض المنتمين إليهم بعد تجهيزهم إياهن بما يلزمهن في معيشتهن المقبلة من الأمتعة والأثاث. وسلاطين آل عثمان لا يقترون عادة إلا بجوارى الرق، وكذا الحال بالنسبة إلى سمو والى مصر وأبنائهم.

وكثيرا ما يشاهد في البيت الواحد الجوارى السود والجوارى البيض ويتزوج مولاهن بجارية جركسية منهن وأخرى حبشية وثالثة سودانية من بنات دارفور. ويرى في هذه الحالة صارفا كل همته إلى العناية بهن وأبنائهن على وتيرة واحدة ونمط لا يتغير محافظا على العدل بينهن، ويندر أن يتخذ الأبيض جارية سوداء زوجة له أو أن تتزوج البيضاء من عبد أسود في الأسر

١٦. ديانة الأرقاء

من مستتبعات الاسترقاق في الشرق ونتائجه تحويل عقيدة الأرقاء ذكورا وإناثا إلى العقيدة الإسلامية ولعل في شغف المسلمين وسعيهم المتواصل لتحويل الناس جميعا إلى عقيدتهم الدينية ما يعلل عدم إجازتهم للمسيحيين اتخاذ الرقيق إناثا وذكورا. واهتمامهم بأمر دينهم على هذا المثال خليق بالإعجاب من حيث دلالة على أن الشرقيين يرون في أقاربهم أهلا لمشاطرتهم السعادة المقبلة التي وعد بها المؤمنون في القرآن ويعترفون صراحة بالمساواة بين الناس جميعا أمام الخالق مساواة تسرى بالطبع عليهم في سائر شئون الحياة ومرافقها. وبالرغم من ذلك فإن المسيحيين يتمتعون في مصر بأوسع وأعظم مما يتمتع به أمثالهم في بقية بلاد المملكة العثمانية فقد منحوا الحرية في شراء الأرقاء من العبيد والجواري وبيعهم، وتوسع بعضهم في الانتفاع بهذا الإذن فتمكنوا، مع الاحتياط والحذر، من إدخال الجواري الجركسيات في حرمهم.

١٧. معاملة الأوربيين للأرقاء في مصر

أجيز للأوربيين بفضل ما أظهره محمد علي من التسامح والتساهل في معاملتهم اقتناء الأرقاء كغيرهم. وأول ما يقع في خاطر عند سماع هذا القول أن الإرقاء إذا صاروا إلى حوزة الأوربيين - أي إلى قوم تنكر حكومات بلادهم الاسترقاق وتعمل على محو أثره وتقول بإكرام النزيل ومنح الحرية لمن يسألها، أصبحوا في ليان = تسعة ورخاء = من العيش ورفاهه. وهو خطأ بئس وهم فاسد يسوق إليهما حسن الظن. فإن أولئك الأوربيين الذين كلما عن لهم الكلام على المسلمين يلصقون بهم عار التوحش والهمجية ويقرنون القول في حقهم بعلامات الازدراء والتحقير نادرا ما يوفقون بين معاملتهم الشائنة لأرقائهم وما يتبجحون به من الكلام الفارغ في عطفهم على الإنسانية.

فإن الكثيرين منهم إذا اقتنوا الرقيق سرعان ما يهتمون ببيعه التماس الربح، أو المقايضة عليه بغيره أو ببضاعة، ولقد يكون لمثل هذا التصرف ما

يسوغه في حدود معينة وأحوال خاصة وإنما على شريطة أن لا يكون القصد من البيع والمقايسة طمعاً في ربح. وأنه لمن والتناهى في جفاء الطبع فك رقبة الرقيق الصغير السن مع العلم بعجزه، إذا ترك وشأنه، عن كسب ما يسد به الخلّة من عرق جبينه. فعنته وتلك حالته من القصور عن مداركة حاجة لمحض الرغبة في الخلاص منه قسوة لا مبرر لها وجريمة في حق الإنسانية لا تغتفر بل هبوط إلى درك الوالد الذي يطرد ولده من بيته من غير ما جرم أياه.

أما بيع الرقيق القدير على كسب حياته بالكد فتجارة مزرية بالشرف حاطة من الكرامة. فإذا قيل إن من الافرنج من يزاولون هذه التجارة فإننا نقول نعم وقد وصموا الإنسانية بعار لا يمحي. ولسنا ندرى بأى حكم يقضى عليهم إذا أثبتنا هنا أن منهم من يبيعون جواريتهم حاملات منهم فكانهم بهذه الفعلة الشنعاء يلقون أبناءهم بأيديهم في وهدة الاسترقاق بدون أن يزعمهم وازع الضمير أو يردعهم رادع الترقق للإنسانية. وإن اللسان ليعجز عن وصف هذه النقائص الشائنة بل الآثام الفظيعة، وإن الافئدة لتمتلئ بالسخط والنقمة على مرتكبيها.

ولاشك في أن الشرقيين إذا رأوا أولئك المتجرين بنسائهم وبما تحمله بطونهن من أبناءهم بعد أن عرفوا بعض الشيء من أمرهم ليحق لهم أن يشمخوا بأنوفهم ويفتخروا بهمجيتهم الفاضلة، ويحتقروا مدنيتنا التي دنسها أولئك الأشقياء بما لا يمحي على مر الأجيال من دناءاتهم.

وهذه المخازى لاتنفى وجود لفيف من الأوربيين يعاملون أرقاءهم عبيدا وجواري بما تقتضيه المروءة من الرحمة والرفق ويعترفون بأبنائهم ممن ملكت أيمانهم من الجواري ويرفعون عن ارتكاب المقابح واحترام الآثار الغليظة التي لا تتفق وأخلاقنا وديانتنا ومبادئنا الاجتماعية التي تتنزه عن تلك النقائص كلها.

ويدفع الطيش والنزق أحيانا بعض السياح الذين يزورون مصر إلى ارتكاب ما لا يقل عما ذكرته الآن من المخازى والمقابح. فإن البعض منهم يزورون أسواق الجلابين لمجرد الاطلاع على شيء سمعوا به ولم يروه - كما هو شأنهم في كل أمر مستغرب - فإذا أعجبتهم سودانية أو حبشية أو غيرها

اشتروها بقليل من المال أيضا إرضاء لشهواتهم وجريا وراء أهوائهم حتى إذا قضوا منهن وطرا وظنوا أن من آيات الإحسان نحو هاته الشقيات البائسات اللاتي أطفأوا فيهن جمرة شهواتهم الزائلة أطلقوا سراحهن بالاعتاق ولكنهم نسوا أن تحرير الرقيق في بلد لا تستطيع المرأة فيه أن تعيش إلا في ظل الرجل وبفضل قيامه بنفسه على شئونها يدفع بها إلى أسوأ حالات الفقر والفاقة بل يلقي بها في هاوية العهر والدعارة. فترى من ثم أن طيش بعض الرحالة الأوربيين، وهو طيش مبني على حب الذات، كان سببا في نظر المسلمين إلى أخلاقنا وعاداتنا بعين المقت والاحتقار.

وإني لألفت النظر إلى ما ينجم من النتائج المحزنة عن مباشرة الغربيين للاسترقاق على الأسلوب الشرقي فانهم يضرون به الأرقاء ويسبيئون إليهم في معيشتهم وأخلاقهم ومستقبلهم، بينما المسلمون يعاملونهم بما ذكرناه من العطف واللف والإحسان.

والواجب أن تؤسم النزعات المخجلة التي انحدر الأوربيون في تيارها بين أمة لا تعرف شيئا من عاداتنا وأخلاقنا بالعار والخزى. وإلا اضطرت هذه الأمة إلى الوقوف في موقف الاحتياط والتحفظ إزاء المدنية الغربية والاستمسك بالمدنية التي تفخر بالانتماء إليها، ومواصلة العمل لإثبات سموها على مدنيتنا في الوقت الذي ينبغي فيه أن تكون لفظة الافرنجى محفوفة بمظاهر الكرامة والرفعة في أعين المسلمين. ومن كبائر الإثم أن تستنزل على هذه اللفظة عبارات التحقير وأن تلوث بلوث الإهانة والتصغير بسبب فعال تلك الطائفة الخرقاء.

وأختم هذا الفصل بفقرات مقتبسة من كتب الشريعة الإسلامية يجد القارئ فيها بيانات مهمة تكشف الستار عن وجهة النظر الشرعية في الاسترقاق وإنهاء الحرب. فإذا جاء الاسترقاق من غير طريقها كان ظلما وعدوانا واقتتاتا.

١٨. مقتبسات في الرق وتجارته والعرق

إذا أفضت الحرب إلى وقوع بعض المشركين أسرى في قبضة المسلمين فلولي الأمر الحق في إتخاذ إحدى الوسائل الأربع الآتية حيالهم:
أولاً: يجوز له قطع رقابهم ما لم يكونوا نساء أو أطفالا أو مصابين

بجنة.. إلخ.

ثانيًا: يجوز له العفو عنهم وإطلاق سراحهم.

ثالثًا: يجوز المبادلة على غيرهم من أسرى المسلمين لدى العدو أو افتدائهم بالمال.

رابعًا: يجوز له استرقاقهم.

فإذا اختار ولى الأمر وسيلة ما من هذه الوسائل الأربع فله أن يقوم على تنفيذها بشرط أن تكون أحسن الوسائل وأوفقها لمصلحة حكومته. فإذا استقر رأيه على الاسترقاق فقد وجب عليه أن يحسن معاملة أرقائه. فقد ورد في كتب الشريعة ما مفاده أن جماعة من الأسرى من بينهم عباس قدموا يوم بدر إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأمر النبي بكسوته على الفور ووجدت بالاتفاق والمصادفة ثياب لعبد الله لم تكن له بها حاجة فأعطيت إلى عباس فأخذها فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : رفقا بالضعيفين. أراد بهذا القول الإشارة إلى المرأة والرقيق. وجاء في الأحاديث الشريفة أيضا ما يستفاد منه أن النبي سئل يوم بدر فيما ينبغي أن يعامل به الأسرى فأجاب: إن الله أمكنكم منهم وخولكم التصرف فيهم فسأل عمر بن الخطاب: «يا رسول الله أتضرب أعناقهم». فألتفت النبي إلى الحاضرين من المسلمين قال لهم مكررا: «إن الله أمكنكم منهم وخولكم التصرف فيهم». فكرر عمر هذه الكلمات. فقام أبوبكر عندئذ وقال للنبي: يا رسول الله إن هؤلاء بنوا العم والعشيرة والاخوان وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ففرح النبي وأمر بقبول الفدية. وبهذه المناسبة نزلت على رسول الله الآية الآتية: «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم».

ولما طلب الرسول من عباس مائة أوقية ذهباً فدية ولم يطلب من قريب آخر سوى أربع وعشرين أوقية صاح عباس بما معناه: «إن هذه لإحدى آيات القرابة القريبة» فأنزل الله على النبي الآية الآتية: «يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم

ويغفر لكم والله غفور رحيم».

ولما كانت الحرية في الإنسان أصلا والاسترقاق عرضا فإن حكم الديانة الإسلامية بتحرير الأرقاء فضيلة تستوجب الحمد. وهناك صنوف من الذنوب والمخالفات لا يكفر عنها إلا بفك الرقاب. منها اليمين الكاذبة وفطر رمضان فقد قال الرسول: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار» - وقد أعتق النبي في حياته ثلاثة وستين رقيقا - أى بقدر ما عاش من السنوات، وأعتقت عائشة ابنة أبى بكر زوجه تسعة وستين رقيقا أى بقدر ما عاشت من السنوات وأعتق أحد صحابته وهو ذو القرى وأصله من قبيلة حمير ثمانية آلاف رقيق في يوم واحد وأعتق عبدالله بن عمر ألف رقيق وحكيم بن جزان مائة كانوا يحملون في رقابهم أطواقا من الفضة وعبدالرحمن بن عوف ثلاثين ألفا وكانوا جميعا من أصحاب النبي.

والديانة الإسلامية تحبذ تحرير الرقاب وتحث عليه وتدعو إليه حتى إنها لتشترط على من يشتري رقيقا لكى يعتقه الوفاء بعهده بعد الشراء. فإذا أبى الوفاء بعهده عومل بما يلزمه الوفاء ولو بالإكراه البدنى ويجوز بل يجب على غير المؤمن أيضا إعتاق الرقيق ولو كان عدوا مبينا للمسلمين وسواء وقع الإعتاق من مسلم أو من غير مسلم فإن المعتق يظل مقيما في ولاية مولاه. وبين المولى والعبد رابطة وثيقة من القرابة تجعل أولهما الوصى الطبيعى على الثانى في حالة عتقه كما يكون الوالد وصيا.

وهناك طرق متعددة للعتق يقضى أحدها على المعتق أن يصرح كتابة في حياته بإعتاقه رقيقه بعد وفاته. وإليك النص الذى يرغبى أن يكتب به هذا التعهد: «أنت حر لوجه الله بعد وفاتى» ويقضى الثانى أن يفتدى العبد حريته بمبلغ من المال يؤديه على دفعتين. وله أيضا بعد مساومته مولاه على هذا المبلغ أن يؤديه إليه أقساطا صغيرة، فإذا برئت ذمته منه أصبح عتقا طليقا. والحالة الثانية من هاتين الحالتين لا تنطبق إلا على الجوارى في حالة حملهن. أما إذا لم يكن كذلك فليس لهن أن يحصلن على حريتهن إلا بموت مالكنهن.

(٤)

الرجال

انفصال الرجال عن النساء في الهيئة الاجتماعية - الصفات الجثمانية للرجال -
الصفات النفسية والعقلية - القناعة - الصدقة - الشجاعة والتوكل - حب المصريين
أوطانهم - العيوب والنقائص: الجشع، الانتكار، الحسد، كفران النعمة - الكسل -
العزة الدينية - الجهل - العناد والتشبث - الشجار والانتقام - المجون والمباينة -
الملابس القديمة - ملابس الممالك - الملابس الحديثة - الحذاء - أفكار في الملابس
الحديثة - ملابس الفلاحين - عادات المصريين في تدبير الشعر واللحية.. إلخ -
النظافة والوساخة - استعمال الوقت والاشغال - النوم وكيفية الرقاد - عبارات
النداء والتعجب والقسم.

١٩. فصل الرجال عن النساء

يمثل الدين الإسلامى مع ما تواكب عليه من التقاليد الشرقية سدا منيعا
في الهيئة الاجتماعية بين الرجال والنساء. فكان من نتائج هذا الافتراق أن
صار لكل من فريقى الرجال والنساء في مصر أخلاق وعادات خاصة ومتباينة
إلى حد يستدعى بحثها واستقراؤها في الرجال مستقلة عنها في النساء
والعكس بالعكس.

٢٠. الصفات الجثمانية

تنم سحنة العربى وهيئته عن كرم المحتد = الأصل = وصلابة القلب
وجفاء الطبع وشدة الرصانة. والمصرى المسلم وإن حمل الاطمار البالية تبدو
متوافرة في شخصه أمارات السمو ورفعته القدر. إذا وقف وقف مستقيما في
انحناء وبدا في هيئة الجندى وإذا سار اتأد = اطمأن = في مشيته بلا تكلف
كأنما يعد الخطوات، وإذا تحرك تحرك في سكون ورباطة حتى لقد يخيل
للناظر أنه يضبط حركاته وسكناته ويدبرها. والحقيقة أنه لا يرهق نفسه
بعناء شئ من ذلك لأنه يتحرك ويسكن من غير تصنع ولا تعمل. وما يبدية
الأوربى من الهزيمة في الحركة والاسترسال في الفرع والتبسط في المجانة قلما
يخل بنظام مشيته أو يستقره إلى السرعة فيها أو يهز وتر من أوتار نفسه.
وهو إذا نظر كان نظره حادا يدل على الجد وبدأ وجهه من حوله معربا = معبرا

= بملامحه عن البأس والهمة. وهو مطمئن النفس لا يزعزع سكونها شيء ولذا تراه أكظم ما يكون لما ينتابه من الانفعالات الباطنية. ففيما وراء هذا الستار تعصف عواصف المؤثرات المختلفة بدون أن تحرك له ساكنا. وإذا تكلم تحرى الاقتصاد في كلامه والاقتصار منه على ما يؤدي مراده بالضبط من غير لجاجة وبدت كلماته كأنها لا تخرج من فيه إلا وقد وزنت مرارا بمعيار الإمعان والروية. ومن عادته إذا حدث أن يرفع صوته عاليا فيخيل لسامعه أنه وهو يحدث قد ثارت بينه وبين محدثه ثائرة الجدل والخصومة.

٢١. الفضائل النفسية والعقلية

المصريون أقوياء الحافظة أذكىء بالفطرة لا يجدون صعوبة في الاستظهار ولا عناء في الفهم ولكنهم — إما لعدم المبالاة وإما لضعف في الذاكرة — لا يتذكرون زمنا طويلا ما أسرعوا في حفظه أول وهلة. وهم على شيء كثير من سلاسة الطبع، ودماثة الخلق. وهذا ما مهد لهم مزاولة الأعمال بهمة ونباهة على شدة ما بينها من التفاوت. ولسرعة انفعال نفوسهم بالمؤثرات تراههم على استعداد للتنافس والتبارى في العمل فإذا استثيرت كوامن هذا الاستعداد ظهرت أهليتهم للقيام بجلال الأعمال. ولا ننسى ما هم مفطورون عليه من الحذق في الأعمال اليدوية وأنهم يبدون في أدائها مهارة نادرة مقرونة بالإتقان والإجادة.

وللمصريين نزعة إلى السرور واندفاع فطري إلى المزح والمطايبة على وجه ينم عن الذكاء وحضور الذهن وسرعة الخاطر ولكنهم لا يكادون يبلغون إلى سن الرجولة حتى يميلوا عما مالوا إليه بالظهور في مظاهر السمات والوقار وملازمة الجد في القول والفعل. ويرجع هذا التحول بلا ريب إلى تأثير المبادئ الدينية التي تتأصل في نفوسهم كلما تقدموا في العمر وازدادوا رزانة ورصانة.

٢٢. القناعة

القناعة من خصال المصريين التي تستوجب العجب والدهش، وإن القارئ سيقنع بهذه الحقيقة مما سأورده عن كيفية غذائهم. أما المسكرات فتعاطيها غير فاش بينهم وأما الطعام فيراعون فيه البساطة والتقشف

والإقلال. ومن الخصال المحمودة التي درجوا عليها احترامهم الخبز وصونهم إياه من الدنس لاعتقادهم وثوق الرابطة بينه والحياة، فهو في نظرهم قوامها الذي لا تقوم لها بدونه قائمة. ولعل هذا ما حدا بهم إلى تسميته بـ«العيش» الذي يفيد معنى الحياة في اللغة العربية. ولشدة حرصهم عليه واحترامهم له يدأبون على وقايته مما يدعو إلى تحقيره والخط من قدره. فتراهم إذا عثروا في الطريق على شيء من فئات العيش سارعوا إلى التقاطه ولثموه ورفعوه إكبارا إلى رؤوسهم ثم اختاروا لصيانتته مكانا إذا اهتدت إليه الحيوانات استطاعت أن تأكله بدلا من بقاءه عرضة لدوس الأرجل والتلطيخ بالآقذار.

٢٣. الصدقة أو الإحسان

المسلمون ميالون بوجه عام إلى البر بالفقراء والإحسان عليهم، لأن في دينهم من التعاليم والمبادئ ما يجعل هذه الفضيلة فرضا واجب الاتباع. وثمة سبب آخر يدعوهم إلى البذل في سبيل الصدقة وهو الرجاء في الفوز بما أعد للمحسنين في الآخرة من الثواب. وربما كان الباعث لهم على التصديق في سبيل هذا المطلب أقوى منه في سبيل العطف على المساكين والبر بالمعوزين.

أما الضيافة فمن أكثر فضائلهم شيوعا في القطر المصري وهي - حرية بالذكر والإطراء الآن. فالمسافرون وعابرو السبيل على اختلاف عقائدهم وتباين أجناسهم يلقون من المصريين في كل زمان ومكان صدرا رحيبا ومثوى كريما. ومن شيم المسلم أنه إذا جلس إلى الطعام وزاره أحد دعاه إلى طعامه وأشركه فيه. وسواد أفراد الطبقة الوسطى يتناولون طعام العشاء على أبواب منازلهم حتى إذا مر بهم أحد دعوه إلى مشاركتهم في طعامهم.

وهم حينما تلاقوا بدت على وجوههم أمارات البشاشة والهشاشة وتبادلوا عبارات الانس والمودة ثم لا يلبثون أن يحافظوا على السكون ويلزموا التحفظ إذا التقوا بالأوربيين أو تحدثوا معهم.

٢٤. الشجاعة والتوكل

ولد قطان = سكان = القطر المصري تحت تأثير الضغط والعنف. فتراهم في الأحوال المعتادة يظهرون الخجل ويتحامون التعرض للأخطار أو اقتحام

غمارها، ولكنهم إذا نزل بهم نازل أو تهددهم خطر لا تلبث الشهامة الكامنة في نفوسهم أن تهب من سباتها فيدرون هذه النازلة بشجاعة وهمية. وهم في كل ما يحيق بهم من الأحزان والأرزاء يثقون بالله ويتوكلون عليه إتكالاً لا تزغزغه قوة بالغة ما بلغت. وإلى هذه الثقة وهذا التوكل يرجع رضوخهم لمقتضيات الظروف ورضاؤهم بما تجيء به الحوادث باعتبارها قضاء إلهياً لا مرد له وقدر ربانيا لا مفر منه. وهم يقابلون المحن والمصائب إذا نزلت بهم بعبارة تدل على ثباتهم إزاءها وصبرهم عليها وهى قولهم «الله كريم».

٢٥. حب المصريين أوطانهم

لا يوجد بين مخلوقات الله من يذهب المذهب البعيد في حب مسقط رأسه كالصريين فإن الفلاحين لا يجدون للحياة معنى ولا لذة إذا ابتعدوا عن النيل الذى يطفىء ماؤه أوار عطشهم ويروى أرضهم أو حرموا النخيل الذى يكفى أن يهزوا اليهم بجذعه ليساقط عليهم ثمره فلا يتكبدون فى أكله أقل كلفة. ومن ثم تسمعهم إذا حدثوا أوريا عن وطنه يسألونه عما إذا كان يجرى فى أرضه نيل كنيهم أو ينبت فيها نخيل كنخيلهم يعطيهم ما يشتهون من غذاء شهى ومرافق أخرى.

٢٦. الكسل (١)

إذا ترك المصريون وشأنهم أخلدوا إلى البطالة والكسل وتراموا فى أحضان الدعة والخمول أى أنه إذا لم تستفزهم إلى العمل إرادة فعالة وهمية نشيطة ولم تدفعهم إليه يد قوية أثروا قضاء حياتهم فى البطالة التامة. ولعل الباعث لهم على ذلك قلة احتياجاتهم وقدرتهم على قضاء ما يستشعرون به منها وهم على مهاد الراحة. ومن مظاهر جمودهم على هذا السلوك الشائن انهم قلما يفكرون فى المحافظة على خصوبة الأرض التى يلتمسون منها غذاءهم بالعمل المتواصل فى فلاحيتها واستخراج خيراتها. والحقيقة الثابتة أن دولة المصلحة لم تتغلب فى نفوسهم على ما ألفته من الاستنامة إلى الكسل والسكون فتراهم لهذا السبب لا يهتمون من شئونهم إلا بما يتعلق منها بحاضرهم غير ملتفتين إلى مستقبلهم. وهم يشبهون لصوص نابلى لا

(١) الناشر: تعرض الكاتب للنقائص الموجودة فى عهده كظواهر اجتماعية فذكر منها الجشع والإنكار والحسد.

يحركون ساكننا إلا إذا عضهم الجوع بنابه. فالنظر إلى المستقبل لا يمتد عندهم إلى أبعد من الغد.

٢٧ - عزة الدين

من خصوصيات الديانة الإسلامية سلطانها الذي لا يُغلب على نفوس المستمسكين بحبلها وهيمنتها عليهم في أقوالهم وأفعالهم، وتأثيرها فيهم تأثيراً لا يقوون على دفعه مهما أوتوا من صدق الإرادة ولطف الحيلة. ترى أن الواحد لم يتلق شيئاً من دروس الدين تلقياً خاصاً ثم مع ذلك سرعان ما تدرك مبادئه الأساسية وتنطبع عقيدته بالطابع الذي ينبغي أهله أن يبقى منقوشاً في صحيفتها فلا يجد الشك مسرباً إليها.

وترى المسلم لرسوخ عقيدته ووطود دعائم إيمانه لا يلبث أن يصبح مختالاً بها فخوراً بسموها على بقية العقائد. وينتهي الأمر به إلى الاعتزاز بانتمائه إلى ديانة يرى أنها تسمو على سائر الديانات وتفوقها فوقاً عظيماً فلا يسعه إلا أن ينظر إلى المتمسكين بغيرها بعين الاستخفاف والاحتقار.

٢٨ - الجهل

السواد الأعظم من الأمة المصرية هائم في أودية الجهالة، وقد حاول بعضهم إسناد جهلهم إلى الديانة الإسلامية. وهو خطأ فاحش ومذهب باطل فإن في القرآن آيات كثيرة تدل على شرف العلم والحض على تحصيله. على أنه غنى عن البيان ما بلغت إليه العلوم والفنون من التقدم والارتقاء في عهد الحضارة الإسلامية ببغداد والأندلس.

والسبب الحقيقي لانغماس المصريين في حمأة الجهل أن الممالك أطفأوا في مصر نور العلم وهاضوا ركنه ودكوا معالمه حتى صار لا يوجد الآن من المتورين والمتعلمين من غير الذين نشأوا في المدارس الحديثة وتلقوا بها مختلف العلوم من يلم بالقراءة والكتابة سوى النذر اليسير ومعلوماتهم مقتصرة على دراسة العلوم الدينية وحفظ بعض القصائد الشعرية.

٢٩ - التعنت وصلابة الرأي

التعنت من أخص النقائص اللاصقة بالمصريين فإنك ترى فيهم من

يؤثرون الجلد بمائة أو مائتي جلدة على تسديد المستحق عليهم من الضرائب الزهيدة. ومن النادر أن تجد أحدهم مقبلاً بخاطره على دفع المال الذى عليه فإذا دفع أحدهم - بعد معاملته بهذه الاساءة التى يتحملونها بقدر ما تسمح لهم به قوتهم البدنية ما هو مطلوب منه - أظهر الأسف لأمر واحد، وهو أنه لو استطاع بدنه أن يتحمل من الضرب فوق ما تحمله لتخلص من دفع المال الذى لأجله يلقي هذه الإهانة.

والمفهوم أن لا وسيلة فى مصر غير الكرباج لإكراه الممولين على أداء الأموال المستحقة لجانب الحكومة وإقناعهم بالعدول عن الإصرار على عدم سدادها. ولقد كانت هذه حالهم على عهد (أميانوس مرسلانوس) فقد روى هذا المؤرخ أن المصريين يرون من يواعث الفخر والشرف أن لا يؤدوا ما عليهم من الضرائب إلى الخزينة إلا إذا ضربوا الضرب المبرح وعذبوا العذاب الأليم.

٣٢. المنازعات والانتقام

يميل المصريون من أهل الطبقة السفلى إلى المنازعات والمخاصمات التى يرجع سببها فى الغالب إلى الاختلاف على مصلحة لا يبعد أن تكون تافهة غير جديرة بالاهتمام. والذى يرى المشاحنة وقد احتدمت نارها وتلظى سعيها وتبدلت فيها ألفاظ السب والشتم واستنزلت اللعنات وتراشق الفريقان بسهام المخازى والمعايرة يتبادر إلى ذهنه أن الشجار لسوف يفضى إلى أوخم العواقب ولكنه لا يلبث أن يوقن أنها لم تؤد إلى شيء مما يخشاه والسبب فى ذلك أنه كلما ينقلب الشجار بين المصريين من التناوب بالقول إلى التضارب بالأيدى، بل أنه سرعان ما تهدأ النفوس وتسكن ثورة الغضب فيها بعد تنازل أحد الخصمين عن حقه بقوله للآخر: «الحق على».

ويتفق أحياناً أن يتداخل بين الخصمين ثالث، ويجعل تمهيده للمقابلة قوله: «اللهم صلى على سيدنا محمد» فيكرر الخصمان هذه الجملة بصوت خافت ثم يقرآن فى سرهما ما تيسر من القرآن ويستأنفان روابط الود القديم بعد أن يتعانقا تعانق الوثام والوداد.

أما الانتقام أو الإخذ بالثأر فغريزى فى نفوس المصريين. وبين بعض العائلات عندهم آثار = ثارات جمع ثأر = قديمة يثأرون بها على تسلسل

الأعقاب وفيما سبق من الزمن كان الأخذ بالثأر بين قرى برمتها. وهو ما يصح القول معه أن الدم يجذب الدم، فإن أسرة القتل يتحتم عليها الانتقام من أسرة القاتل ولكن القتل لحسن الحظ يكاد يكون مجهولا في القطر المصرى.

٣١. الميل إلى المجون والمطايبة

يميل المصريون بفطرتهم إلى المجون والمطايبة وهم كثيرا ما يبتونهما على النكتة، لاسيما وأن اللغة العربية التى بها يتفاهمون تساعد على التورية والجناس والتحريف والتصحيف والكناية إلى غير ذلك مما ينمقون به الحديث ويكسبونه من الطلاوة ما يرتفع له حجاب السمع وتشتاق له النفس. وهم فى كل ذلك قلما يحرصون على الآداب أو يتصونون عن القبائح إذ يعبرون بفاحش القول عن الآراء التى يجفل من الانصات لها السمع الكريم. ونادرا ما تجد بين النساء حتى الفضليات منهن من يتحاشين تلويث كلامهن بالألفاظ القذرة ذات المعانى المعيبة.

٣٢. الثياب

الملابس القديمة - الملابس التى كان المصريون يكتسبون بها قبل سنوات قليلة تتألف: أولاً من القميص، ثانيا: من اللباس - أى السروال، وثالثا: من الصدرية، ورابعا: من القفطان، وخامسا: من الحزام، وسادسا: من الجبة، وسابعا: من البنش.

ولم يكن للزى الحديث (المودة) تأثير ما على طريقة الاكتساء عند المصريين الذين لم يطرأ تغيير ما على نظام ملابسهم كلها أو بعضها.

وتختلف الأقمصة الشرقية اختلافا بينا عن القمص عندنا. فهى عندهم تمتاز بفرط الطول والعرض إتساع القن (الكم) واسترساله إلى كاحل القدم. أما قمصان أفراد العامة فهى إما من الكتان أو التيل بخلاف أقمصة أصحاب اليسر فإنهم يلبسونها من قماش دقيق النسج يسمونه المغربى أو قماش الحرير، والقميص لا يحشى به داخل السروال كما هو الحال عندنا بل يسبل فوقه.

ويمتاز السروال المصرى بالسعة حتى ليخيل لرائيه أنه جبة خيط الجزء الأسفل منها بحيث يترك فتحتين لخروج القدمين. وهو سابل إلى الركبتين ويثبت حول الجسم بتكة تجرى في باكية وغالبا ما تحلى التكة بالزركشة التي تتفاوت بتفاوت أصحابها في اليسار أما الصديري فيتخذ عادة من الجوخ أو القماش الحريري أو القطنى. وفوق هذه الثياب كلها يفرغ القفطان وهو لباس سابل إلى القدمين عريض الكمين.

أما الحزام فقطعة من قماش الحريري يبلغ عرضها مترا واحدا في ثمانية أمتار إلى عشرة طولا يلف حول الجسم عند الحرقفتين وأصحاب اليسار يتخذونه من الكشمير الثمين.

أما الجبة وتوضع فوق المجاسد السابقة كلها فتبطن بالفرو وإذا كانت للبس الشتاء يكون كماها أقصر من كمى القفطان وتلبس فوقه مشقوقة من الأمام.

ويحمل بعض الناس فيما عدا الجبة ثوبا أعرض منه يسمونه البنش وكماه واسعان جدا وطويلان ومشقوقان في نهايتيهما، ولا يلبس إلا في الحفلات، ويختص رجال الشرع والعلماء بلبسه دون غيرهم من الناس.

ومع أن مصر من البلاد الحارة فإن لبس الفرو شائع فيها شيوعا عظيما. ولم يكن شيوعه للخيلاء فقط بل للحاجة إلى الاكتساء بمعطف واسع عريض الأكمام ومبطن بالفرو. وسبب ذلك أن الطقس في مصر ينتقل فجأة من درجة حرارة إلى درجة مناقضة لها فيجعل الشعور بالبرد شديدا. وكرك السمر التركي عبارة عن معطف من الحريري أو الجوخ لا يلبسه إلا ذوو الحيشيات وأصحاب المقامات العالية ويكون محشوا بالسمر. إلخ. وهو معدود من شارات الشرف ورفعة القدر، والعلماء لا يكتسبون إلا به وإذا عين أحد في منصب خطير فإن علامة التقليد له في هذا المنصب إلباسه كركا من السمر.

أما القلانس - أى ما يلبس على الرأس فعبرة عن طربوش من الصوف المصبوغ باللون الأحمر تلف حوله العمامة. وتحت الطربوش يضع المصريون قلنسوة رفيعة يسمونها الطاقية الغرض منها وقاية الطربوش من تأثير العرق والعمامة شال من القماش الموصل صوفيا أو حريرا ساذجا أو

مشغولا. ولا يزال يوجد حتى الآن أناس يحافظون على الزي القديم ولهم طرائق عديدة في حمل القلنسوة وتنسيق أوضاعها فإنهم يطوون الشال طيا ينطبق على اتجاه أحد قطريه ثم يلقونه بأسلوب معلوم حول الرأس مع جعل اللفات متشابكة بحيث يتكون منها فوق الجبهة ما يشبه خطين متقاطعين هكذا x وأحيانا يجعلون اللفات متراكبة بعضها فوق بعض بحيث يتألف منها ما يشبه الشكل الحلزوني، وقد يكتفون بجعل الشال إلى أحد جانبي الرأس دون الجانب الآخر. واختلاف هذه الأزياء والأنماط يدل على حالة صاحب القلنسوة ويشير إلى مرتبة في الهيئة الاجتماعية. فإما أن يكون موظفا دينيا أو عسكريا أو ملكيا.

وهناك وسائل أخرى لتسوية العمامة تدل على حال لابسها. فهناك العمامة الخاصة بالعساكر والعمامة الخاصة بالتجار والعمامة الخاصة بالبحريين وغيرها كالتى على الطراز التركى أو الألبانى أو الأرناؤوطى أو التى يلبسها القاضى واختها التى يحملها المفتى.. الخ.

وكانت عمامات العلماء تمتاز بضخامة الحجم ، ويتكون منها حول رؤوسهم ما يشبه الكرة العظيمة. وكان بعضهم يحليها بوشاح من الكشمير أو الحرير الموصلى تهبط منه عذبتان أحدهما تمس الصدر وتبقى معلقة أمامه من ناحية إحدى الكتفين، وتمس الثانية الكتف الأخرى وتحف الاثنتان بوجه العالم والشيخ فتعطيانه هيئة الجلال والوقار التى عرفت عن رجال الدين منذ قديم الزمان.

وكانت ألوان العمام في الزمن الغابر تفيد في التمييز بين طبقات الناس. فكان المسلمون يتخذون العمام البيضاء أو الحمراء، والأشراف من آل البيت النبوى العمام الخضراء، أما الرعايا من اليهود والمسيحيين فكان لا يباح لهم من العمام الا أسود اللون أو أسمره أو بنفسجيه أو ما كان لونه أحمر غامقا.

ذاك كان نظام اللباس القديم ، وهو المسمى باللباس الطويل، وقد اندثر اليوم زيه ولم يعد يحمله من طبقات الناس سوى العلماء والتجار وكتبة المصالح وبوجه خاص الوطنيون من النصارى واليهود.

٣٣ - لباس المماليك

لا يزال يحمل هذا اللباس بعض الذين بقوا على قيد الحياة من طائفة المماليك وهو يختلف يسيرا عن اللباس الذى وصفته الآن. فإن قفطان المماليك بدلا من أن يكون مفرط الطول ينتهى عند الحزام فكأنه صدرية لا قفطان. وكان الواحد منهم يلبس قفطانين أحدهما ضيق الأكمام جدا ينتهى عند الكوع. وكانوا يلبسون فيما عدا ذلك سروالا من جوخ البندقية يحملونه فوق السروال الداخلى ويثبتونه عند الحزام بتكة، وكان عظيم العرض سابلا إلى سمانة الساق ويشبه غرارة كبيرة ذات ثقبين فى أسفلها وكانوا يشدون بعد ذلك حزاما على وسطهم من الكشمير.

٣٤ - اللباس الجديد

إن الانقلاب الذى طرأ على لباس المصريين يرجع تاريخه إلى عهد تنظيم الجيوش النظامية فى سنة ١٨٢٣ وكان نتيجة لهذا التنظيم، فكانت العمامة أول ما حذف فى الجيش من ملابس الجنود، وفى سنة ١٨٢٦ أدخلت تعديلات أخرى. إذ تركوا اللباس العريض الهابط إلى الركبتين كما هو وأدخلوا صدرية ذات كمين توضع فوقها سلطة من نوع ما يلبسه عامة الشعب عندنا، وإنما تختلف عنها بالسعة وانفتاح الكمين وهبوطهما خلف الجسم. ولم يلبث المصلحون أن أدركوا مقدار ما تحدث هذه الأكمام من الالتباك فى أثناء القيام بالحركات العسكرية فقصوا بحذفها وحذفت فعلا.

ولما كان الجيش فى القطر المصرى الكل فى الكل الآن فقد كان من المنتظر أن يسرى تأثير التعديلات التى تطرأ عليه ولقد سرى هذا التأثير فعلا فتناول اللباس القديم الشائع الاستعمال إذ أخذ ذوو الحيشيات يجعلون ثيابهم على طراز الثياب العسكرية سواء أكانت لهم أم لم تكن مناصب فى قيادة الجيش، وكان إبراهيم باشا فى مقدمة المقلدين فبدل العمامة بالطربوش. فلم يلبث الناس جميعا أن قلدوه ولبس الوالى نفسه عين اللباس الذى اتخذه لجيوشه.

والشرقيون ميالون إلى اتخاذ الثياب ذات الألوان الفاتحة الساطعة كالأحمر والوردى والأبيض والبنفسجى.. إلخ بقدر ميلهم عن الألوان الغامقة التى جعلوها ميزة الرعية من اليهود والنصارى. ولكن الأذواق والعادات

تغيرت الآن من هذه الجهة تغيرا محسوسا إذ هجر الألوان الساطعة أفراد الطبقات العليا واعتادوا الآن لبس الثياب من الجوخ الأسود والأزرق والكستنى.. إلخ وظل عامة الشعب محتفظين بالألوان الأولى.

وفي ظنى أن القلنسوة الحالية، وهى الطربوش بغير عمامة أصلح بكثير منه بها بل وأظرف شكلا. وأرى أن من غير المستطاع إدخال تغيير عليها فى زمن قريب. ولست أدرى بم يمكن تغييرها لو رغب فى هذا التغيير. فإن القبعة الأوربية ليست فى شكلها أظرف ولا أشرف من الطربوش حتى يمكن القول بالاستعاضة عنه بها. ثم إن المسلمين يمقتون القبعة إلى حد أنهم إذا أرادوا فى ثورة غضبهم قول ما يستفاد منه أنهم سيأتون أمرا نكرا قالوا بصوت التهديد أنهم سيلبسون القبعة. لأن لبس القبعة لا يقل فى نظر المسلمين عن جريمة التنحى عن القومية والكفر بالدين.

وعلى كل حال فالذى نتمناه ونقترحه فى هذا الموضوع أن يجعل المصريون فى طرابيشهم رفرفا يظل وجوههم بحيث تضاهى به القلنسوة التى يحملها جنودنا فى أفريقية. إذ مما تمس الحاجة إليه فى بلد كمصر يشتد فيها سطوع الضوء وحرارة الشمس وقاية العينين والجبهة من تأثيرهما الضار. غير أنى لازلت أشك فى إقبال المسلمين على العمل بهذا الاقتراح النافع. لأن الرفرف الذى أشرت إليه الآن يجعل الطربوش شبيها بالقبعة وهو ما يمقتونه ويتقونه بكل الوسائل.

٣٥. الحذاء

لايلبس المسلمون عمامة الجوارب. ولكن أصحاب اليسار منهم يستعوضون عنها بشيء من الجلد الأصفر يسمونه المزد. فإذا لبسوا هذا الشيء الذى لا هو بالجورب ولا هو بالحذاء دسوا أقدامهم فى حذاء من الجلد الأحمر أو الأصفر يسمونه بالمركوب، واللون الأصفر فى المركوب كان لا يسمح به سابقا إلا للمسلمين. أما المسيحيون فكان لا يسمح لهم إلا بالأحذية الحمراء اللون. وكان السواد اللون الأصلى فى أحذيتهم.

وفائدة لبس الحذاء والمزد معا عند الشرقيين أنهم إذا غشوا مجلسا أو مسجدا تركوا أحذيتهم مع ما يكون عالقا بها من القذر عند الباب وساروا

بالمزء على الحصر والبسط والسجاجيد بدون أن يمسها شيء من الأذى
وبقيت أقدامهم مكسوة غير عارية.

٣٦. أفكار وخواطر في الزي الحديث

بالرغم من أن الزي الجديد قد تناول اللباس المألوف بالتعديل والتغيير
فإنه لم يفقد شيئاً كثيراً من صبغته الوطنية لأنه جمع بعد تعديله إلى مزايا
اللباس الأفرنجي أخص ميزات اللباس الإسلامي. على أنه لم يكن زياً
مستحدثاً فقد كان معروفاً في ألبانيا والروملو ومألوفاً عند أهلها فإذا
اختاره محمد علي وفضله على غيره من الأزياء فما ذلك إلا لأنه طابق عنده ما
كان يرمى إليه من حسن التدبير وسلامة الذوق. أما حسن التدبير فلأنه لو
فرض على أفراد رعيته اتخاذ لباسا لهم لأثار غبار الاعتراضات من جهة
رجال الدين وجر إلى نفسه كراهية الجمهور ونفوره. وإما سلامة الذوق
فلأن الذين اعتادوا لبس الثياب الواسعة عرفوا مالها من المزايا على الثياب
الضيقة وأنها تعوق حركة المفاصل ولو انساقوا بحكم التقليد إلى لبسها
لأضجرتهم فقلقوا وتبرموا وربما أبرزهم القلق والتبرم إلى المترصدين
لانتقاد في شكل يحملهم على الاستهزاء والاستخفاف بهم.

وما حصل من هذا القبيل في الأستانة دل على صدق نظر الوالي وسلامة
ذوقه وسداد رأيه وسرعة خاطره فإن السلطان محمود قد ألبس جنوده شوار
الجنود الأوربية بدون تحوير، وهو مؤلف من القميص الضيق ورباط الرقبة
والبنطلون الضاغط على الفخذين والسترة الواسفة بضيقها للجسم
والأحذية المغطاة فكان ذلك كله فيما عدا الطربوش نسخة طبق الأصل من
الشوار الموماً إليه. وهو ما استاء العثمانيون منه بانتقاده واستهجانه وتقبيح
رأى مقترحيه والذين سعوا إلى تنفيذه بلا نظر إلى أن الجيش الذي ألبس ذلك
الشوار الأفرنجي جيش إسلامي. لا يجوز له التشبه في زيه بالجيش المسيحي
لاسيما وأن الأتراك يتضايق بهم اللباس الأوربي ولا يشعرون معه براحة
حتى أنهم قلما يعنون لهذا السبب بأحكام ثيابهم أو طلب التأنيق فيها أو
صرف العناية بتدبيرها فكان هذا باعثاً آخر على تحول ذلك الإصلاح
السلطاني إلى موضوع السخرية والتهكم.

وليس من الإنصاف بالرغم مما تقدم إنكار ما لتطبيق الإصلاح الموماً إليه

من النتائج الطيبة بقضائه على الفروق التي جعلت المسلمين في معزل عن أهل أوربا ، وصيرتهم أجنب عن هذه القارة وهم إنما يعيشون فيها. أما الإصلاح الذي قام به فكان من نتائجه أن قرب مسألة الخلف بين اللبسين المصرى والأفرنجى بدون أن يؤثر في نمطهما الأصليين تأثيرا ذاهبا بكيانهما. وهذا سيفضى حتما إلى دور من أدوار الانتقال في موضوع اللباس يتم فيه التحول من غير صدام ولا احتكاك.

وأنماط الملابس، ولا سيما إذا كانت رمزا صحيحا للتقاليد الدينية والقومية كما هي عند المسلمين كثيرا ما تقيم بين الشعوب حواجز تتعذر إزالتها. فإذا نظرنا في الأمر من هذه الناحية فلا يسعنا إلا الحكم بخطأ الإصلاح الذي قام به كل من السوالى محمد على والسلطان محمود. وبدهى أن الذين يسرهم بقاء القديم على قدمه لسوف يأسفون على مزايا الملابس الواسعة وفوائدها التي تجل عن الحصر، ولكن الذين ينظرون في الأمر نفسه من الناحية العملية لسوف يرون أنهم عوضوا عن تلك المزايا الصورية والمحاسن الظاهرية بخير منها ألا وهو ما أثمره ذلك الإصلاح من النتائج الجلية والفوائد الجمة المطابقة لمقتضيات الزمان والمكان من جهة والتي لا تخالف من جهة أخرى العقائد المستقرة في النفوس.

هذا وفي النصوص الشرعية ما يحرم على المسلمين لبس الثياب الحريرية أو المزركشة بأسلاك الذهب، ويحظر عليهم التحلى بالذهب والفضة. ولكن صرامة الأوامر والنواهي الدينية في هذا الموضوع لم تغلب على ما هنالك من النزعة الطبيعية الشديدة الى التحلى والتجمل. ومفهوم أن الشارع أنس في العرب الرغبة في التجمل بالحلى والثياب الفاخرة فحاول، ولكن عبثا - أن يصددهم عن مناحى هذا الميل بما سنه من تلك النواهي الصارمة. ويقينى أن لا أمة من أمم الأرض قد شغفت حبا كالأمة الإسلامية بالتحلى بالذهب والأحجار الكريمة والثياب المزركشة واسرفت من مظاهر التزين والتجمل على أنواعها. ورغم هذا فإن المسلمين لا يحكمون الذوق السليم في تنسيق زينتهم وترتيب أوضاع حلاهم، ولا يدرون كيف يوفقون بينها حتى لا تنبو الأنظار عن رؤيتها وتمج الأنواق شكلها لما استحکم في أجزائها من التنافر وزال عنها من طلاوة التجانس والتشاكل فإنه لا يبعد في بلاد الشرق الإسلامى أن يقع

نظرك على رجل يحمل صدرية مزركشة بأسلاك الذهب على ثياب رثة وأطمار بالية. ولا يقتنى المصريون من الثياب بقدر ما يقتنى الأوربيون منها عددا ولكن أثرياءهم وأصحاب اليسار منهم يكثرون منها ويلبسونها على التعاقب ويغيرون المجاسد أى الثياب التى تلى الجسد مباشرة مرارا فى الأسبوع الواحد. أما عامة الشعب فعلى عكس ذلك ولذا كانوا من أحوج المصريين إلى رعاية النظافة والعمل بقواعدها. والمصريون لا يستعينون بالرماد فى غسل ثيابهم إذ يكتفون فى تنظيفها بالماء البسيط والصابون ولا يحملون الثياب مثنية ولا مكوية.

٣٧- ثياب الفلاحين

ثياب الفلاحين فى الدرجة القصوى من البساطة، إذ تنحصر فى قميص وسروال من الكتان يعلوهما قميص أزرق سابغ يسمونه «العري» يضبطونه حول الجسم بنطاق من الجلد أو القماش، وقلنسوة الفلاح صنف من طربوش أبيض أو رمادى يعرف باللبدة. وفى الشتاء يلبسون بدلا من العري عباءة صوف واسعة الأكمام تسمى عندهم بالزعبوط.

وتختلف أشكال اللباس المصرى باختلاف الجهات. فسكان الوجه البحرى يستوفون فى ملابسهم شروط الصحة المتفقة مع أحوال الطقس فيه، وسكان الإسكندرية يتخذون جميعا ثيابا من الجوخ شبيهة بثياب المغاربة. أما القاهرة فالثياب فيها أخف منها فى الوجه البحرى والإسكندرية. غير أن الذين لا يستطيعون من أهلها اقتناء ثياب الجوخ يكتفون بالثياب القطنية. ومن غريب التناقض فى موضوع اللباس فى مصر أن سكان الوجه القبلى رغم شدة الحرارة يرتدون الأقمشة الصوفية حتى فى أشهر الصيف. ويقتصر الرجال والنساء فى ضواحي أسوان فى لباسهم على حزام من الجلد (الرهط) يضربونه على خصورهم فلا يستر من أجسادهم سوى العورة كالشهود عند الأمم المتوحشة بالسواء.

٣٨- عادات المصريين فى تدبير الشعر

يرى المسلمون أن حلق الشعر فرض محتوم عليهم بحكم الدين. فهم يزيلونه برمته ولا يتركون منه سوى خصلة صغيرة وسط الجمجمة

يسمونها «بالشوشة» يعللون ذلك بأنهم إذا وقعوا في أسر العدو وسيقوا إلى الإعدام برمى الأعناق جذبهم العدو منها لكى يمضى فيهم حكمه فلا يلجأ إلى وضع يده المدنسة في أقواهم أو يقبض بها على لحاهم.

وشعر المصريين كشعر أقوام المناطق الحارة غير غزير. وخصوصا في اللحية. وهم يحلقون منه الجزء الذى فوق الفك الأسفل وشيئا من أسفل الفك تحت الشاربين ويغفلون الجزء المصطلح على تسميته عندنا بالملوكية وهى طريقة تسوية شعر اللحية كانت شائعة في فرنسا على عهد الملك لويس الثامن عشر) ويحلقون تحت الذقن جزءا من اللحية وما يكون ناشزا من شعر الوجه ويدعون اللحية تنمو حتى يبلغ طولها قبضة اليد ويقصون الشارب إلى ما يوازى الشفة العليا ، وهم في ذلك يخالفون الأتراك الذين لا ينقصون شيئا من اطرافه بالمقراض فينمو نموا عظيما.

واللحية احترام عظيم عند الشرقيين، لأنها رمز الرجولة والحرية والقوة النفسية والبدنية. والقسم باللحية والشاربين (الشنب) يمين لا يحنثون فيها. وإذا ذكر أحدهم بقله الفهم قالوا أن عد شعر لحيته مستطاع. وهم شديدا العناية بها ، ويحرصون على تعهدها بالنظافة والطيب لمكانتها عندهم واحترامهم إياها. فتراهم كلما اغتسلوا أو توضأوا نظفوها بالصابون وضمخوها بالروائح العطرية وإذا كانوا في بعض الأحيان يصبغونها بالحناء فما هو إلا لما رسخ في اعتقادهم من أن سواد اللحية شطر من الجمال، وهم لا يعدلون عن صبغها إلا لاتقاء الفتنة ، ومع هذا فعادة الصباغة آخذة بالزوال والاندثار الآن على توالى الأيام.

وقد أمر الوالى محمد على بحذف اللحية في الجيش وحتمه على الضباط والعساكر سواء. فأصبحنا الآن نرى قواد الجيش والباشوات وقد تساوا في محو آثار هذه الحالة الطبيعية التى كانوا فيما مضى يهتمون بأمرها ، وعندنا أن إزالة اللحية سيذهب بأحد السياجات الكثيرة التى ما برحت تحول بين الأوربيين والشرقيين، وهى من الأهمية بمكان لا ينكره إلا المكابرون لأنها بإزالتها أحد الفوارق والمتناقضات التى من شأنها أن تجعل الشرق على الدوام شرقا والغرب غربا تتحقق فكرة إتحاد الشعوب واندماجها بعضها في بعض إذا لم يكن في كل شىء فأقل ما يكون في الأخلاق والحالات النفسية

العامة. وفي النظام الملكى لايربى الشاب لحيته إلا إذا أذنه والده بإرخائها أو إذا حان وقت زواجه. أما الأرقاء فيحرمون تربيتها. ولكن إذا بلغوا سن الكهولة وأحبوا إرخاءها أذن لهم سادتهم وأجابوهم إلى رجائهم.

ومن لالحية له يرخى شاربيه على كل حال لأن الشرقيين يرمون من لشاربين له بأقبح الصفات ويلصقون به العار، لذا أنصح إلى الأوربيين الذين يجيئون إلى الشرق للسياحة بأن يعنوا بهما ولا يتركوا موسى تسطو عليهما.

وشهدت بنفسى نادرة مضحكة ذات علاقة باللحية وإنى إذا تصديت لذكرها في هذا المقام فلأزجى إلى ذهن القارئ فكرة عن مبلغ اهتمام المصريين بهذه الشارة التى يعدونها دليلا على كمال الإنسان ورجولته.

في عام ١٨٣٤ كنت أطوف في بعض بلاد القطر لأداء مهمة تتعلق بالتجنيد فلما وصلت إلى الزقازيق - وهى قرية صغيرة من قرى الوجه البحرى واقعة على الضفة اليمنى من بحر موسى - شهدت قضية غريبة كانت اللحية سببها. ذلك أن شيخ البلد كان قد جاء برجل طاعن في السن لينظمه في السلك العسكرى فلم أوافق على قبوله من الوجهة الطبية وكان هذا يخوله الحق في الحصول على الإذن، وقد أعفى من الخدمة العسكرية، بالانقلاب إلى أهله. ولكنه لم يقف عند هذا الحد، بل دنا من المأمور وأخذ يشخص في شيخ البلد الذى جاء به لينظمه في السلك العسكرى وصاح قائلاً: «ألم أقل لك أننى غير صالح للخدمة العسكرية، ثم التفت إلى المأمور واسمه حسن وقال: «انصت إلى قولى أيها المهاب. إن شيخ البلد هذا خصمى وقد حتم على مفارقة الأهل والوطن لأقضى بقية حياتى في ظلال البنادق والسيوف مع مجاوزتى الأربعين من العمر. ولكى يصيب هذا الغرض أكرهتنى على إزالة لحيتى لأبدو صغير السن في نظر البكوات وما أنا كذلك في الحقيقة فكيف أستطيع الآن، وهى دليل مكانتى وشارة شرفى، أن أعود إلى بلدى سليب اللحية، إنى إن عدت إليه لاشك ذاهب فريسة ضحك الصغار وموضع رثاء الكبار فبحياة النبى اقض بينى وبينه بالعدل فإنك ابن إبراهيم صاحب العدل والبطش».

فتأثر المأمور بهذا القول وسأل القاضى الذى كان حاضرا في تلك الآونة

أن يدون حكمه في الموضوع. وكان القاضى متربعا على سجادة يهز رأسه هزا خفيفا كعادة القوم هنا إذا فكروا وترووا ثم نطق بالحكم الآتى ولم يكف عن هز رأسه: «جاء في سورة المائدة» من القرآن الحكيم - «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص» - ولكن لم يرد فيها شيء عن اللحية.

وكان شيخ البلد والقاضى حينما طرحت المسألة على القضاء يتبادلان إشارات تفيد التواطؤ بينهما على أمر ما. فلما سمع المأمور ذلك فكر مليا وأخذ يمر بيده على لحيته التى خطها الشيب ثم قال: «الحمد لله والصلاة والسلام على نبيه، حيث إن من المباح أن يقص أحدهم لحية أخيه فقد حكمنا بأن تقص في الحال لحية حضرة القاضى» ومعنى هذا أن القاضى إذا أصبح ولا لحية له صار في حكم المعزول يسخر الناس منه. فما كادت هذه الكلمات ترن في أذن القاضى حتى اعتراه خوف شديد واعتذر وابتهل وبادر ينقض حكمه الأول منصرفا إلى تطبيق قاعدة «العين بالعين» السالفة الذكر.

وكان شيخ البلد شديد التعلق بلحيته فخشى أن يسطو المقرض عليها وأن يذهب ضحية التهكم عليه من قومه فالتفت إلى صاحب الشكوى وهو ذلك الرجل الذى أكرهه على قص لحيته وقال له: «يا خليل يا أخى! هل إذا قصت لحيتى تنفيذا لحكم القاضى تنبت لحيتك فى أسرع ما تنبت اللحية فيه عادة من الزمن؟ إن الأولى بنا التراضى والاتفاق على أمر. قل لى ماذا يرضيك تعويضا لك عن الضرر الذى ألحقته بك؟» فدارت المساومة على تقدير قيمة لحية الرجل حتى انحطت على ستين قرشا. أى ما يقرب من خمسة عشر فرنكا. ومع أن الرجل قد حصل بهذه الترضية على ما كان يبتغيه من العدل فى قضيته لم يشأ أن يعود إلى بلده بل ظل فى خدمة المأمور إلى أن نبتت لحيته.

والنصارى من سكان القطر المصرى يجلون اللحية. بقدر ما يجلبها المسلمون ويتبعون فى تربيتها وتدبيرها والعناية بها عين الطريقة التى يتبعها هؤلاء. وأجمل اللحية وأوقاها حجما لحي القساوسة، لأنها أدعى إلى احترامهم وتوقيرهم. وإذا لم ييسر للمذهب الكاثوليكي فى الشرق الانتشار المرجو له فما هو إلا لأن قساوسه يجردون أذقانهم من اللحية.

وعادة المصريين من مسلمين ونصارى أن لا يقرؤا بالطاعة لرؤساء دينيين
لا لحية لهم إذ يقولون أنه لا فرق بينهم وبين الأرقاء في الحرمان منها
وبالتالى لا احترام لهم ولا مكانة في النفوس.

وإذا كان قداسة البابا هو الذى استحسن تجريدهم من اللحية فإنك ترى
المصريين من الطائفتين ينظرون إلى قساوستنا بعين الشفقة الممزوجة
بالازدراء. ولست أدري كيف سرى إلى كل هذا الشعور فإنى لا أتمالك هنا من
الاعتراف بأننى لما ذهبت إلى روما وحضرت الصلاة التى أقامها قداسة البابا
بنفسه فى حفلة فخمة أسفت الأسف كله من أن هذا الشيخ الجليل لم يصف
إلى العلامات المحسوسة التى يقصد بها إلى توقيره وإجلاله التأثير الرهيب
الذى يقع فى نفوس الناظرين لو أحاط وجهه بهالة لحيته البيضاء. وإنى
لمعتقد بأن اللحية خير ما يليق بالوقار الكهنوتى ولست استبعد اليوم الذى
يطالب فيه أحد الباباوات الذين سيخلفون البابا الحالى على الكرسي الرسولى
الكرادلة والأساقفة بل أعضاء طبقات النظام الكليروسي كله بإرخاء اللحية
وأثق بأفضاء الخطة التى تقتضيها كرامة الديانة المسيحية لدى الشرقيين إلى
نتائج تستوجب الرضا والارتياح لاسيما وأن الشرقيين تؤثر فى نفوسهم
المظاهر الخارجية أكثر مما يخطر فى بال الأوروبيين.

وفيما عدا اللحية يعنى المسلمون بإزالة الشعر من جميع أجزاء الجسم
التي ينبت فيها عادة، وهذه الإزالة تتم عندهم بطريقة من ثلاث إما حلق
الشعر وإما نتفه - أى استئصاله وإما إسقاطه بعجينة مركبة من الجير
وكبريتور الزرنيخ بحالته الطبيعية، وبعض العامة يحلون أيديهم وأذرعهم
بالوشم المعروف بالدق.

٣٩. النظافة والوساخة

أدرك النبى أهمية النظافة فى بلاد حرها كنار تلظى ففرضها على أصحابه
فرضا دينيا. فالمصريون يحرصون كل الحرص على تنظيف أعضاء التناسل
ومواضع التبرز مرارا فى اليوم، ولا يزالون هذه العملية إلا باليد اليسرى
باعتبار أنها الخاصة بالنجاسات، وأما اليد اليمنى فتستخدم فى الأعمال
الطاهرة الشريفة كتناول الطعام والمصافحة.. إلخ وهم يكثرون من

الاستحمام . وسنتكلم على هذا الموضوع فيما بعد.

ومن عادة المسلمين ألا يبصقوا في حجراتهم ولا في مساجدهم. فإذا كانوا في حضرة غيرهم من الناس واحسوا بالحاجة إلى البصق أداروا وجوههم وبصقوا في مناديلهم بأتم ما يكون من الاحتياط والحذر.

وهم يسمحون لأنفسهم بالجشء على الطعام وأثناء الكلام بل وخلال الصلاة ويتجشأون بصوت مرتفع ينكره الأوربيون ويستاءون منه لجهلهم جريان عادة القوم به. والظاهر أن العرب نقلوا هذه العادة إلى أسبانيا فإنها لاتزال باقية ومعمولا بها حتى الآن.

وبالرغم من أن الدين الإسلامى قد فرض النظافة فإن الأغنياء كالفقراء كثيرا ما تحتوى ثيابهم القمل. وهم لا يخلطهم وجوده ولا يعنون بإبادته وتطهير أجسامهم منه. بل يقتصرون - بما جبلوا عليه من الدعة والخمول - على إمساكه بأطراف الأنامل وطرحه على الأرض بعيدا عنهم. ولدى أرباب اليسار أداة خاصة من الخشب في شكل المغرفة يحكون بها ظهورهم ليخففوا عن أنفسهم آلام وخزها ولسعها. وقد نسب وجود القمل عند المصريين إلى الوساخة وحرارة الطقس واستعمال الثياب القطنية والإخلاد إلى الراحة والنعيم والإمساك عن المشروبات المتخمرة إمساكا تاما.

ومع أن المصريين يغسلون أفواههم مرارا في اليوم الواحد فإن ذوى اليسار منهم الذين يراعون هذه القاعدة يصيب التلف أسنانهم أجمعين بخلاف الفلاحين فإن أسنانهم ناعمة البياض جميلة الشكل، وقد تكلم المؤرخ هيرودتس على الأطباء في مصر أيام الفراعنة فذكر منهم طبقة كان همها الوحيد الاشتغال بعلاج الفم. وهو ما يؤخذ منه أن داء الأسنان كان شائعا في القطر المصرى ومعروفا في كل الادوار التى تقلب فيها، وإن من الخطأ المحض نسبته إلى تعاطى القهوة أو التدخين، وإنما السبب الحقيقى له هو النظام الغذائى الذى يتبعه الاغنياء بأكلهم اللحوم والخضر المهيأة بالسمن وتناولهم الأطعمة الحارة ثم الباردة بغير نظر إلى ضرر الانتقال المتعاقب من الحر الى البرد ومن البرد إلى الحر.

ولا يستعمل المصريون الفراجين الشعرية التى اعتدنا تنظيف أسناننا بها

لأنهم يخشون احتواءها شعر الخنزير وهو دنس في شريعتهم، ولكنهم يتخذون لتنظيف أسنانهم جذورا ليفية لنبات يقال له الأراك ينمو في سنار وبلاد العرب.

ولا يتولى المصريون بأنفسهم تقليم أظافرهم بل يتركون للحلاق أداء هذه المهمة بالمقراض وهم يستأصلون الأجزاء البارزة منها.

ومن عاداتهم ، إذا تربعوا على الفراش، أن يشبكوا سوقهم بعضا ببعض وأن يمرروا بيديهم على باطن القدمين لأنهم يحبون الشعور بالتأثير الذي تحدثه هذه الملامسة.

٤٠. الحمامات

يفرض الدين الإسلامى على المسلمين الاستحمام بالماء الساخن لإزالة القذر. وشدة الحرارة في بلادهم تجعلهم يستشعرون بالسرور والهناء كلما قاموا بهذا الواجب. فلا يدهش أحد مما يراه من إقبالهم على الحمامات وإكثارهم من الاستحمام.

ولقد رأينا فيما تقدم أن عدد الحمامات العمومية عظيم جدا في القطر المصرى، وأنها في الغالب ملحقة بأحد الأبنية الدينية. والموجود الآن منها في القاهرة سبعون حماما بعضها مخصص للرجال دون غيرهم، والبعض الآخر للنساء وصغار الأطفال، والشطر الأكبر منها للرجال والنساء، على أن تخصص في الصباح للرجال وبعد الظهر للنساء. فإذا كان الحمام مشغولا بالنساء علقوا ببابه قطعة من قماش الكتان أو الجوخ إشعارا للرجال بأنهم لا يجوز لهم الدخول في الحمام. وفي كل حمام خدم من الذكور لمباشرة تنظيف الرجال وغسلهم وخدم من النساء لأداء هذا الواجب نحو السيدات.

وواجهة الحمامات مزخرفة على النمط الذى تزخرف به المساجد. ويغلب اللونان الأبيض والأحمر في هذه الزخرفة خصوصا حول المدخل. أما الحمام نفسه فيتألف من حجرات مبلطة بالرخام المختلف الألوان ويتلو بعضها البعض. وكل قسم منها تعلوه القباب مثقوبة بثقوب مستديرة ينفذ الضوء بواسطتها من خلال قطع متكورة من الزجاج. والجدران والقباب تبني عادة بالآجر والمصيص على مستوى الأجزاء المرتفعة من الحمام ساقية لتغذية

القزان = الجزان = بالماء وهو يؤخذ أما من بئر أو من حوض في أسفل البناء.
والقسم الأول الذى يمر به راغب الاستحمام يسمى المسلوخ ويحيط به
صفف = مصاطب = مفروشة للجلوس، وفيه يتجرد المستحم من ثيابه. وإذا
كان يحمل ساعة أو تقودا أو سيفاً عهد حراستها عند دخوله إلى حارس
الحمام الذى يسمونه بالمعلم.

ومتى تجرد الإنسان من ثيابه جعل على وسطه فوطة كبيرة ولبس قبقاباً
من الخشب وقصد بعد ذلك إلى مكان الاستحمام بواسطة دهاليز عديدة
ضيقة يعتاد بالمرور فيها التدرج على الحرارة الأخيرة للحمام، وهى التى
لا يطبقها المستحم إلا بهذا الانتقال التدريجى المتعاقب.

والحمام نفسه عبارة عن بهو كبير ذى قبة عالية وأرضية مفروشة
بالرخام، وفى وسطه حوض ماء ساخن تنبعث منه سحب من الأبخرة لاتلبث
أن تتكاثف فوقه ويستمر انبعاثها على الدوام فتختلط بالروائح الزكية التى
تحرق فى المباخر. وطريقة الاستحمام أن يتمطى المستحم على قطعة من
القماش بحافة الحوض ويسند رأسه إلى مخدة صغيرة ثم يتخذ من الأوضاع
ما يراه الأنسب لحاله والأوفق لراحته ومزاجه. وتكون السحب العطرية
المنعقدة بتباخر الماء قد أحاطت بجسمه وأحدثت شيئاً من التمدد فى مسامه
جميعاً. وعقب برهة من الوقت يقضيها المستحم فى هذه الراحة اللذيذة تكون
البشرة قد اكتست بطبقة خفيفة من الرطوبة فيأتى عندئذ أحد عمال الحمام
ليبدأ عمله بذلك الجسم، ولكنه قبل ذلك يضغط الأعضاء ضغطاً خفيفاً
متداركاً ويطويها طياً رقيقاً حتى إذا أكسبها المرونة الضرورية فرقع ما
تحتويه من المفاصل ثم تصرف فى الجسم بما يخيّل معه أنه بأصابعه
السريعة يعجن اللحم الذى يلمسه بها عجينا يراعى فيه الرقة واللفظ. وفى
أثناء هذه العملية التى لم يقل أحد أنها أفضت إلى حادث مضر لا يقتصر على
فرقة تلك الأعضاء بل يعدوها إلى الرقبة مرتين على الأقل. وحينما تتم إلانة
المفاصل على هذا المثال يحك الكعبين وباطنى القدمين بحجر خشن ذى مسام
متخذ من الآجر المطبوخ فيعمل عمل المبرد فى الحديد ثم يدلك اللحم بقطعة
من الصوف تسمى الكيس. وبتأثير هذا الدلك الشديد يخيّل للمستحم أن
البشرة تنزع من مكانها ولكن الحقيقة أن الأقدار هى التى تنزع من البشرة

وتسقط بما غمر الجسم من العرق. ذلك لأن الجزيئات الصغيرة التي كانت تسد المسام ينتزعها الكيس من مكانها فيتكون من اجتماعها بعضها ببعض ما يشبه الشكل الاسطوانى السالف الذكر. ومتى تمت هذه العملية شعرت بالبشرة وقد تناسق سطحها ونعمت نعومة الحرير ولا يستطيع المرء أن يتصور مقدار القاذورات والأوساخ التي تخرجها يد المالك من جسم أكثر الناس نظافة — أى من جسم الذي اقتصر في الاستحمام على الحمامات المنزلية ولو تتابع استحمامه فيها.

ينتقل المستحم بعد ذلك إلى خلة يصب ذلك الخادم فيها على رأسه رغوّة من الصابون المعطر ثم يغسله بقطعة من ألياف النخل يسمونها بالليف. فإذا تم تنظيف رأسه وجسمه بهذه الطريقة ينزل في حوض ماء ساخن ثم يغطى رأسه وجسمه بعد الخروج منه بالبشاكير الكبيرة ويعود إلى البهو الذي تجرد فيه عن ثيابه، وهناك يطرح نفسه على طراحة يغطى فيها مرة أخرى بالبشاكير الجافة ويجفف الماء الذي كان على جسمه بها بالدلك مرة أخرى ويقضى في هذا الوضع نحو نصف ساعة مستشعرا النعيم والراحة، وتقدم إليه خلال ذلك القهوة أو الشبك للتدخين حتى إذا ما انتهى من ذلك كله لبس ثيابه التي يبخرها الخدم ببخور العود.

والعادة أن الإنسان إذا استحجم على هذه الطريقة الشرقية شعر بهناء ولذة ونعيم يستحيل عليه وصفها. وغاية ما يقال أنه يستشعر بمرونة في الأعضاء ونشاط في الجسم لم يسبق له اعتيادهما بل يستشعر بأن حملا ثقيلا ألقى عن عاتقه، أو أن حياة جديدة فتح له بابها وفيها يتمتع مع الهناء والسعادة بحياة طيبة لا يدرك قدرها إلا العقل والقلب كما تدركه جميع الجوارح.

وكثيرون من الناس يقصدون إلى الحمامات مرتين في الأسبوع كما يقصدها غيرهم مرة واحدة وأقل من مرة. ومنهم من يقتصر على الاستحمام في حوض ويغسل رأسه بماء الصابون المعطر. والاعتسال فرض على المسلمين كلما ضاجعوا نساءهم أو لحق بهم دنس من أى نوع ما.

ورسم الدخول في الحمام زهيد جدا. وفي متناول يد الناس جميعا. فالفقراء منهم لا يعطون رسما لاستحمامهم أكثر من خمس بارات إلى عشر

أى من ثلاثة سنتيمات إلى ستة. وهم بهذا الرسم لا تدلك أجسامهم بالكيس ولا تغسل بالصابون.

أما أصحاب اليسار فيدفعون رسما للاستحمام الكامل من قرش إلى خمسة قروش - أى من خمسة وعشرين سنتيما إلى فرنك واحد وربع الفرنك على أن الدخول في الحمامات أمر من الأهمية بحيث لا يوجد ثرى إلا وفي بيته حمام خاص به.

واعتقد أن الحمامات الشرقية مفيدة للصحة إفادة تامة، أولا لأنها كفيلا باستمرار النظافة. وهو الأمر الذى لا بد منه في بلد تبلغ الحرارة فيه هذا المبلغ ويكثر العرق ويثور الغبار، فيكون ذلك كله من بواعث القذارة، ثم إنها لما كان امتناع العرق في مصر من أهم بواعث الأمراض فإن استعمال الحمامات يكون من هذه الوجهة نافع الأثر عظيم الفعل بإيقاظه على الدوام الوظائف الجلدية. وبدهى أن التجربة أثبتت للشرقيين فائدتها من هذه الجهة، ولهذا تراهم متى استشعروا بألم أو بضعف ولو خفيف في الجسم أو بجفاف في البشرة إلى غيرها من العوارض قصدوا إلى الحمام من فورهم وقضوا به بضع ساعات ثم كرروا هذه العمليات أياما متعاقبة.

وإلى الاستحمام في الحمامات يرجع الفضل في شفائهم من الأمراض الخطيرة كالأمراض الزهرية والجرب إلى آخر الأمراض الشائعة في الشرق.

ومما لا ريب فيه أن انتشار الحمامات في الشرق سبب من أهم أسباب نقص الأمراض الجلدية كالبرص وغيره التي كانت في العهد السابق - بتفشيها بين الناس - تلحق بهم أضرارا كبيرة وتفتك بحياتهم وبناء على ما تقدم فإننى أعتبر أن الحمامات الشرقية من أقوى عوامل حفظ الصحة عند الشرقيين. وإنى أتمنى على الله المنى أن يشيع استعمالها في البلاد الأوربية. لأن الحمامات التي انشئت بها حتى هذا اليوم ليست إلا تقليدا معيبا للحمامات الشرقية إذ توزيع أقسامها ردىء والانتقال فيها من الحر إلى البرد لا تراعى فيه شروط التدريج. هذا فضلا عن أن التدليك والتكيس ليسا فيها كما هما في حمامات الشرق.

ومع انتشار الحمامات في مصر السفلى فإنها غير معروفة فيما يلى مدينة

جرجا جنوبيا . لأن الأهالي هناك من رجال ونساء يكتفون بالانغماس في النيل المتأثر بحرارة الشمس والخروج منه وحرارة الطقس هناك تقوم مقام الحرارة الصناعية الناشئة عن تبأخر الأبخرة من الماء الساخن في الحمامات العادية.

٤١. استخدام الوقت والأشغال

ينهض المصريون مبكرين. إذ من واجب المسلم الذي يهمله أداء صلاة الصبح في ميعادها أن يستعد لها عند بزوغ الفجر فيلبس ثيابه ويهيئ نفسه. وأول عمل يقوم به بعد أدائه فرض الوضوء والصلاة أن يشعل شبكه = يدخن البايب = ويتعاطى قهوته. وكثير منهم يكتفون في الصباح بهذا الشراب، ولكن غيرهم يميلون إلى تناول طعام الفطور.

والموسر المتصرف في وقته يمتطى بعد ذلك جواده وينطلق به إلى منازل أقربائه ومعارفه لزيارتهم أو إلى السوق لشراء بعض اللوازم، ثم ينتظر ساعة العشاء متحدثا مع صديق له ويتناول طعامه الأول قبل الظهر ثم يدخن ويشرب القهوة. وبعد العشاء يدخل إلى حرمه حيث تسهر زوجته وجاريته على إعداد ما تتوافر به الراحة له، وهناك ينام ساعتين أو ثلاث ساعات وبمجرد ما يستيقظ من نومه يغسل وجهه ويعمل على كیفه.

وهذه الكلمة لا مقابل لها في لغتنا وإنما تدل على حالة بها تتوافر الراحة والنعيم للعقل والجسم معا ويسكن الإنسان فيها إلى الدعة والتمتع بالسعادة وتقف الحياة العملية. فهو بالجملة نوع من السبات ترتاح النفس إليه وتكمل اللذة به تلك اللذة التي لا يفيد معناها إلا كلمة Far nienic عند الإيطاليين ثم يدخن جملة شبكات ويتعاطى القهوة ويلعب بلعبة الدامة أو الشطرنج حتى العصر حيث يعود إلى منزله لأداء الصلاة أو يذهب إلى المسجد للقيام بها فيه. وبعد انتهائه من ذلك يخرج للنزهة راجلا أو راكبا، ثم يعود قافلا إلى منزله قبل غروب الشمس بساعة كي يتأهب لصلاة المغرب وتناول طعام العشاء بعدها. وبعد العشاء يبرح منزله مرة أخرى إما إلى إحدى القهوات لسماع القصص التي يرويها الشعراء، وإما إلى أحد الأصدقاء للمسامرة معه ساعة من الزمان أو ساعتين وهو ينام عادة في الساعة الثامنة أو التاسعة من المساء

ما لم تكن هناك حفلة خاصة كزفاف عريس مثلاً فإنه يطيل السهرة أكثر من ذلك. وربما يدعوه جمال الطبيعة في الليل إلى الصعود إلى سطح منزله ليستجلى مناظر السماء ويستنشق النسيم العليل.

تلك هي حياة الرجل الغنى وهي حياة مبنية على الدعة والسكون والتصون عن الأعمال فإذا شئت أن تصفها بوصف ما فقل إنها الراحة المطلقة. والظاهر أن المصرى يمقت الحركة ويجتنب السعى حتى إنه لا يرى في السير للتنزهة باعثاً من بواعث اللهو، ولا يستطيع أن يتصور كيف يجد الأوربيون لذة في هذا النوع من الرياضة.

أما الذى يتولى مراقبة عمل ما أو إدارته أو يكون موظفاً في إحدى المصالح فإنه يذهب في الصباح إلى مقر عمله أو مركز ديوانه حيث يقضى النهار كله ويتناول فيه طعام الغداء ثم إلى داره.

وجماعة التجار يقضون النهار كذلك في حوانيتهم وهذه الحوانيت لا توجد غالباً في البيوت التى يسكنونها ولا فى الأحياء التى هم من أهلها.

أما الصناع فيبدأون أعمالهم مبكرين ومثلهم الفلاحون فإنهم يخرجون إلى حقولهم فى الصباح ولا يرجعون عادة إلى بيوتهم إلا فى المساء، والأعمال الزراعية ليست على جانب عظيم من المشقة لأنهم يؤدون بها ببطء شديد ويقضون شطراً من وقتهم فى النوم لالتماس الراحة مما يكون قد نالهم من العناء ويكونون فى نومهم غالباً معرضين لأشعة الشمس، ولكنهم يقصعون = ينكمشون = فى أرديتهم إذا لم يكن بالقرب منهم أشجار يأوون إلى ظلها. ولقد اعتادوا حرارة الشمس حتى إنهم قلما يضجرون من زمن تأثيرها فيهم أثناء النوم أو يصيبهم من جرائها أقل ضرر.

٤٢- النوم وطريقة الرقاد

إن الشعوب والأقوام الساكنة بالبلاد العثمانية بدوية الأصل كلها على وجه التقريب، فليست مسألة النوم عندهم من المشاغل الهامة أو المسائل الخطيرة لأنهم بما اعتادوه من تقويض خيامهم فى كل لحظة للظعون والانتجاع لا يحوطون النوم بالوسائل الكفيلة بالراحة التى تستلزمها معيشة الإقامة فى البيوت الثابتة، وقد ورث الأتراك والعرب الحاليون فى هذه المسألة

كما ورثوا في غيرها من المسائل مآدرج عليه أجدادهم من الأخلاق والنزعات والعادات فهم بوجه عام لا يعرفون استعمال الأسرة. نعم إن البعض منهم قد درجوا على استعمالها من سنوات قليلة ولكنهم الفئة اليسيرة. والذي جرت عليه عادة المصريين في الرقاد أن يلقوا طراحة أو جملة طراحات فوق البسط أو السجاجيد ثم ينامون عليها بثيابهم ويزعمون أن هذا الفراش الذي يجهزونه في بيوتهم كل مساء ويجعلونه لاصقا بالأرض أصلح من كل طريقة سواها للرقاد بسبب احتفاظ الفراش في كل نقطة من نقطه وجهة من جهاته بالاستواء الأفقى. ويقولون أيضا إنه أقل كلفة من الأسرة وأبسط في الاستعمال، وإذ كانوا لا يخصصون في منازلهم غرفا معينة للنوم بها فإنهم يطوون الطراحات بسهولة ويرفعونها لوضعها في مكان آخر، وبذا يتصرفون في الغرفة التي قضوا الليل فيها نوما لما يشاءونه من المصالح البيتية الأخرى.

وطراحات الشرقيين محشوة بالقطن وليست بذات سمك عظيم. لأن المصريين يفضلون الزيادة في عددها على المبالغة في حشوها. وسعة الطراحات من طول وعرض وسمك مقررة عندهم ومرعية في كل مكان لأن تقديرها بنى على ما هنالك من الضرورة لطياها ونقلها من مكان إلى مكان، دع أنه إذا كان الفرش مكونا من طراحات سميكة فإنه يسد المنافذ ويكون باعثا على زيادة الحرارة.

وملاءات الأسرة عند الأغنياء تتخذ من الحرير أو التيل الناعم، وتكون الملاءة العليا متصلة بالغطاء.

وأصحاب اليسار في المدن يخلعون قبل النوم الثياب التي كانت عليهم في النهار فلا يبقى منها على أجسادهم إلا القميص واللباس ثم يلبسون جلبابا يسمونه بالققطان يشدونه على وسطهم بحزام من الكشمير أو الحرير ويخففون من القلنسوة مكتفين بطاقيّة بسيطة.

والكثيرون من الصناع والعمال لا يملكون في العادة ما يفرشونه أثناء نومهم غير السجاجيد والأبسطة. والفقراء منهم يتوسدون الحصر، والنوم عندهم ليس من المسائل التي تستوجب قلق البال. إذ أنهم يعمدون إلى رداء واسع يلفون أجسامهم به أو يفعلون مثل ذلك بالغطاء الذي ييغون التغطى

به ثم يرقدون على الأرض. وقد اعتادوا جميعا هذه الطريقة في نومهم إلى حد أنه لما شرعت الحكومة في تنظيم الجيش على النسق الجديد ارتأت ألا تعطى العساكر فراشا ما للرقاد عليه مقتصرة على أسرة الميدان التي كان هؤلاء العساكر يفرشونها ببطانية صوف ثم ينامون عليها.

والظاهر أن المصريين ينامون طوع إرادتهم. فالأغنياء منهم إذا أحبوا أن يجلبوا النوم بسهولة كلفوا جواريتهم أو خدمهم أو نساءهم بكبس أقدامهم وسيقانهم فيفعل هذا الضغط فيهم. فعل التنويم المغنطيسي. وإذا اشتدت الحرارة عهدوا إلى عبيدهم السهر طول الليل بجوارهم ليذبوا بالمذبات عن وجوههم ما يساقط عليها من الذباب أو ليروحوا على وجوههم بالمراوح ولهم طرق خاصة للاستيقاظ من النوم فإنهم لا يستيقظون على جلبة صوت أو جذب يد، كلا! بل أن الخدم أو العبيد يدنون منهم باحتراس وحذر ويمرون بأيديهم مرا متداركا على باطن أقدامهم إلى أن ينتبهوا من نومهم مستشعرين بلذة هذا اللمس.

٤٣. أصوات النداء والتعجب والاستفهام والقسم.. إلخ

لما كان المسلمون شديدي التمسك بالدين فإنه غالبا ما تراه في أثناء محادثتهم يرفعون أصواتهم بذكر الإله والنبى والقرآن في كل من تلك الأحوال. وهم شديدي الميل إلى القسم. فلا يستشهدون على ما يقولون إلا بتلك الكلمات التي هي موضع إجلالهم واحترامهم وكثيرا ما ينطقون في الأيمان بكلمة «والله» وقبل أن يبدأوا بعمل أى شىء يرون من الواجب أن يقولوا «بسم الله الرحمن الرحيم» فإذا انتهوا منه قالوا «الحمد لله» وهم لا يحدثون أبدا عن شىء في المستقبل إلا إذا قالوا [إن شاء الله] أو عن حادث وقع في الماضي إلا وقالوا «الله أعلم».

والمسلمون أبعد الناس عن سب الأديان وإذا سمعوا أحدا يسبها امتلأوا حنقا وغيظا. أما معجم الشتائم عندهم فغنى بكثرة الألفاظ. ومنها ما يتدى الجبين خجلا عند ذكره. فهم يتقاذفون بمثل لفظ «الخنزير» و«الثور» وهم يتظاهرون أحيانا بالبصق على الذين يشتمونهم. لأن البصق في نظرهم أبلغ

٤٤. الخدم

اعتاد المسلمون الإكثار من الخدم وهؤلاء ينقسمون فرقا عديدة لكل فرقة اختصاص بحسب ما تزاوله من العمل. فمنهم الفراشون الموكول إليهم العناية بالشئون الداخلية في المنزل وفرش الفراش.. إلخ. ومنهم السقاءون الذين يحملون إلى المنزل ما يحتاجه من الماء، ومنهم الطباخون الذين يباشرون طهي الأطعمة، ومنهم الشبكية الذين يجهزون الشبكات بوضع الدخان وتقديمها إلى المدخنين. ومنهم القهوة والسواس الأولون لتقديم القهوة والآخرين. لتدبير شئون الدواب. ولكل منزل بواب يحرس مدخله ويعرف الداخل فيه والخارج منه.

وجرت العادة بأن تكون رياسة الخدم للسقاء. وفي بيوت متوسطى الحال يكون لكل فراش من الفراشين رئيس مسيطر على أفرادها. والخدم لا يؤدي سوى العمل الذى وكل به أداؤه والذى يعتبر أنه صناعة له لا يجوز أن يتعدها إلى غيرها. وفي هذا من المضار والعوائق ما يجعل رب البيت مضطرا دوما في قضاء حاجته، ولو كانت تافهة، إلى الاعتماد على أناس مختلفين يعلم أحدهم ما لا يعلمه الآخر. دع ما يستلزمه أيضا من استخدام عدد عظيم من الخدم والقيام بالانفاق عليهم جميعا. ولقد تغيرت هذه الحالة بعض الشيء إذ قل عدد الخدم كثيرا عن ذي قبل، واقتصر الناس على الاحتفاظ بمن لا يستغنى عنه منهم، وذلك بفضل سمو الوالى ونجته إبراهيم باشا اللذين نصبا نفسيهما للقدوة في هذا الموضوع.

والمسلمون كثيرون الرعاية والعطف على خدمهم. إذ يتولون تغذيتهم وكسوتهم مع دفع الأجور المستحقة لهم. وليست هذه الأجور بالشئ الذى يستحق الذكر، ومع ذلك فإنهم يقومون بواجبهم خير قيام ويؤدون عن طيب خاطر الأعمال التى لم يكن القيام بها - وقد قسمت ذلك التقسيم - مما يستدعى الكلفة والمشقة. وإن خادما واحدا عندنا ليقوم بسهولة ومن غير ضوضاء بعمل أربعة أو خمسة من الخدم المصريين، ولذا نرى هؤلاء يعمدون

إلى الدعة والسكون ويميلون إلى البطالة والكسل ولا يزاولون العمل بنشاط إلا بدافع الخوف من العقوبة.

ولا يتخذ الرجال ابدا لخدمتهم خدما من النساء ولا النساء خدما من الرجال، والعادة الأوربية الجارية على عكس هذا المبدأ، وهى من أخص عاداتنا وتسوء المسلمين كثيرا إذ يرون فيها العار والفضيحة كلاهما.

والخدم المصريون شديداو الشره إلى النقود، وعاداتهم أن يسألوا جميع المختلفين إلى منازل ساداتهم، وخصوصا في أيام الأعياد، هدية من المال يسمونها «العيدية» فإنك إذا خرجت من منزل بعد زيارة صاحبه جروا خلفك ليساعدوك على امتطاء جوادك أو بفلك ثم مدوا أيديهم لطلب المكافأة الصغيرة المعروفة عندهم بالبقيش. والبقيش عادة جائزة متبعة وهى في ذلك كعادة Bona Manc الشائعة في بعض الأقاليم الإيطالية. ويذهب الخدم المصريون المذهب البعيد في المطالبة بالبقيش لأنهم يتقاضونه في مقابل ما يكونوا قد أدوه إليك أو أداه سيدهم من الخدم وبمناسبة ما تكون قد قمت به منها لأجلهم فإذا أقمت مثلا وليمة ودعوت إليها أصحابك فإنك ملزم بدفع البقيش لخدمهم.

ولقد عدت بصفتى طبيبا أحد المرضى ولم أتناقض أجره عيادتى له فما برحت غرفته حتى حوصرت بالخدم ولم أخلص منهم إلا بإلقائى بعض النقود فى أيديهم. ولقد نهى سمو الوالى عن هذا لعبث وشدد فى أمره ولكنه كان متأصلا فى النفوس فلم يستطع اقتلاعه منها.

وكان من غير المسموح به للمسيحيين فى البلاد الإسلامية اتخاذهم الخدم من المسلمين لاعتبار القوم استخدام المسيحي مسلما إهانة للإسلام وسبة. ولكن مصر ظلت بعيدة عن هذه العادة التى دعا إليها التعصب ولولا تسامح المصريين فى هذه النقطة لوقع الأوربيون المقيمون بها فى أشد الحيرة والاضطراب بدون ريب.

(٤)

النساء

النساء المصريات - وسائل الزينة - تزجيج الحواجب - تلوين الجفون والأظافر والأصابع وياطن القدم - الوسيلة الصناعية لتسمين العنق - الوشم - خفض النساء - النساء التركيات - سن البلوغ عند المصريات وحملهن وشيخوختهن - الملابس - النساء الغنيات - التعديلات الحديثة التي طرأت على ملابس النساء الغنيات - نساء العامة - الميزات الممنوحة للنساء - زيارات نساء الحرم - مشاغل النساء - آراؤهن في حالتهن - استحمام النساء في الحمامات - حكاية رواها نابليون - أخلاق العاهرات المصريات.

٤٥ - النساء المسلمات

النساء المسلمات، وهن الشطر الأوفى من جماعة الجنس اللطيف في القطر المصري، متوسطات القامة يلفتن الأنظار إليهن بحسن شكلهن ويشاركن الرجال في متانة التركيب ووثوق الأركان، ويقاسمنهم مشاق العمل الواجب عليهم وحدهم أن يقوموا به، وكثيرا ما يعلنون عليهم في أدائه . وعمودهن الفقرى مقوس وأعضاؤهن المختلفة مستديرة منتظمة وأيديهن وأرجلهن صغيرة شتنة، وأعينهن واسعة سوداء سوادا فاحما، ينقذ منها شرر الحياة، تحيط بها أهداب طويلة تزيد وجوههن حسنا وتبث فيها من الحلاوة ما يستهوى الأفئدة وأنوفهن صغيرة خفيفة الانبطاح وشفاههن سميقة قليلا وأسنانهن جيدة الاصطفاف ناصعة البياض تخالف ببياضها لون بشرتهن الضارب إلى السمرة، تتفاوت سمرة بحسب ما إذا كن من أهالى الوجه البحرى أو أقاليم مصر الوسطى أو الوجه القبلى أو من أهالى المدن أو الريف. وأثداؤهن جيدة التكون حسنة الوضع وافية صلابة تحلى صدورا عريضة، لا قبل لها بالحيل الضارة التى يلجأ إليها السيدات الأوربيات لتحسينها.

أما مشيتهن ففي النهاية من الرقة والرشاقة والدلال، إذا مشين فبخطوات واسعة معينة المواطىء. وفي أوضاع أجسامهن ما يشعر بالجلال والفخامة وفي حركاتهن من اللطف والرشاقة والخفة ما يحرك ذكرى نساء العصور الغابرة وفي أصواتهن من العذوبة والرخامة واللين ما يستهوى السمع ويرتفع له حجاب الأذن خصوصا وأن عباراتهن في أحاديثهن كثيرا ما تلابسها تلك العذوبة، فإنهن إذا وجهن الخطاب إلى أحد دعونه بقولهن «يا عيني» «ياروحي» «يا قلبي» إلخ ألفاظ الرقة والعطف. وإذا كان المخاطب رجلا أطلقن عليه اسم السيد أو الأخ أو غيرهما من الألفاظ التي تستروح منها رائحة الاحترام.

٤٦ - وسائل الزينة والتبرج

تهتم المصريات كثيرا بوسائل الزينة والتجمل لأنهن شديداً الطموح إلى الظهور في المظهر الفاتن لعقول الرجال وقد استنبطن لإصابة هذا الغرض ألف وسيلة ووسيلة كلها من الغرابة بمكان. منها أنهن بدلا من تركهن الحواجب تنمو على طبيعتها يزججنها أى يرققنها بالإنقاص من عرضها حتى لا يبقى منها سوى خط رقيق جدا. ومنها أنهن يكتحلن أى يصبغن باللون الأسود منابت شعر الأَجْفَانِ ويستعملن لهذا الغرض مسحوقا أسود يسمونه الكحل أو الاثمد يضعنه في إناء صغير من الفضة أو البللور يسمى المكحلة يدخلن فيها عند الاستعمال الميل (المروء) الذى يرفعن المسحوق به إلى الجفون فإذا تكحلن على هذا الوجه بدت أشفار الأَجْفَانِ سوداء براقّة، وإذا لم يسرفن من الكحل حصلن على نتيجة حسنة تبدو عيونهن بها في أجمل ما يكون. ويضعن في مكان يخترنه من الوجه الخال الصناعى كما يضعنه على الرقبة والنحر.

ويصبغن اظافرهن والأجزاء الناتئة من باطن سلاميات الأصابع وباطن القدمين وأطراف أصابعهما باللونين الأسود والأحمر. يحصلان عليهما بورق شجيرة الحناء. فإن هذا الورق إذا سحق وبل المسحوق في الماء تكونت منه عجينة توضع على الأيدي بتقسيم فنى لا يعلمه غيرهن. فإذا نزعن في الصباح وجدت تاركة اثرا جميلا جدا، والمفهوم أن الغرض من هذه العناية أظهار بياض بشرتهن وحسن لونهن.

٤٧ - الوشم أو الدق

اعتاد نساء الطبقة الدنيا وشم شفاههن السفلى وأذقانهن وسواعدهن وأيديهن.

٤٨ - خفض النساء أى (ختانهن)

تعمل للفتيات المصريات عملية الختان أو الخفض متى ناهزن السابعة أو الثامنة، إذ يؤخذن إلى الحمام وفيه تؤدى تلك العملية الموكلات بها بواسطة مقراض ردىء. ولست أعلم أصل هذه العادة ولا سببها، ولكن يظهر أن الغرض منها التلطيف من حدة شهوة المرأة المصرية لا ما يعززون إليها من الأسباب الصحية فإن بظر المرأة المصرية ليس أعظم حجما ولا أكثر انتشارا منه في المرأة الأوروبية. دع أن الديانة الإسلامية لم تحتم حذف هذا العضو من جسم المرأة. والمرجح أن هذه العادة كانت شائعة على عهد قدماء المصريين فوجودها الآن راجع إلى استمرارها على توالى الأجيال ومر الأزمان.

٤٩ - النساء التركيات

النساء التركيات أجمل نساء القطر المصرى على الإطلاق. لأن أغلبهن من الجوارى الجركسيات ومنهن طائفة السرارى والحظيات في القصور ودور الأغنياء وبشرتهن ناصعة البياض وتقاطيعهن من التناسق والجمال بحيث يمكن القول بأنهن أجمل نساء الأرض طرا.

٥٠ - سن البلوغ عند المصريات وسن الشيخوخة

تبلغ نساء مصر سن الحلم في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرهن، ويصرن لهذا السبب أمهات في الثانية عشرة وجدات في الرابعة والعشرين وجدات لوالدات في السادسة والثلاثين وجدات لجدات في الثامنة والأربعين، وليس من النادر في مصر أن يرى الإنسان نساء معاصرات للطبقة الخامسة من سلالتهن.

وبلوغ النساء المصريات الحلم في تلك السن يؤدى غالبا إلى ذبول زهرة شبابهن. بحيث لا يبعد أن ترى مصرية في الخامسة والعشرين قد عراها من علامات الذبول والهرم مالا يعرفه المرأة الأوروبية في الخمسين من عمرها. وقد اجمع المؤرخون من قديم الزمان على سرعة قابليتها للحمل. والمصريات

اللائى يصبن بالعقم ينظر إليهن بعين الاحتقار والامتهان، لذا تراهن دائبات على البحث عن الوسائل الكفيلة بحملهن، ودخولهن فى ديوان الأمهات.

٥١- لباس السيدات الغنيات

نساء العظماء وذوى الحىثيات يمتزرن على سائر النساء بما تجمع ملابسهن على تنوعها من أسباب الزخرف والزينة والتبرج من زركشة بالذهب والحريير والكشمير ذى الألوان الساطعة ومايتعلق بكل ذلك من التوشية وغيرها. وفيما يلى بيان الملابس المختلفة الخاصة بالسيدات:

قميص من حرير الموسلين أو القماش الدقيق السلك أو الكريب أو الأنسجة الثمينة، ويكون إما أبيض وإما على ألوان كالوردى والبنفسجى والأسمر والأزرق السماوى أو الأسود أحياناً. ويزركش غالباً بالحرير أو أسلاك ذهب لامعة ويكون فى العادة واسعاً جداً وعريض الأكمام وقد لايهبط إلى الركبة فيغطى الجزء الأعلى من الملابس الذى يتخذ من التيل الدقيق السلك وإما من حرير الموسلين.

شنتيان عريض القماش يباط بالخصر بواسطة تكة تمر فى باكية بأعلاه ويربط من أسفل بالساق ويهبط من موضع ربط سابلاً إلى القدمين فيكون أشبه شىء بالجوتيل.

يلك (أى ثوب) يلتصق بالقامة عند الحرقفتين فيصفهما إلى القدمين، وهذا الرداء مقور بحيث إن مكان النحر منه لا يغطيه ولا يثبت فى مكانه إلا القميص وهو يحتوى أزراراً من أمامه تتلو بعضها بعضاً من فوق إلى تحت الحزام، ويكون مفتوحاً من الجانبين من ابتداء الحرقفتين، والكمان يلاصقان الذراعين ثم يذهبان متسعين شيئاً فشيئاً من الكوع ويهبطان حتى يعادلا أسفل الثوب وقد ينتهيان عند المعصمين.

حزام يحيط بالوسط، وهو إما من الشال الكشميرى أو مربع من حرير الموسلين أو من أى قماش آخر كالشيت بحسب تفاوت درجات اللابسات فى الثروة. فإذا كان الحزام عبارة عن مربع من الحرير فأنه يطوى على اتجاه أحد القطرين ثم يوضع على أسفل البطن وتبقى زاوية من زواياه من خلف

الجسم، ثم يعاد بطرفيه إلى الأمام حيث يثبتان بعقدة أو مشبك. وبهذه المثابة يكون الحزام المحيط بالجسم غير ضاغط له في أى جزء من الأجزاء التى يلامسها.

وتلبس السيدات فوق اليك جبة من الجوخ في فصل الشتاء، وينتهى كما هذه الجبة عند الكوع وتقور من الأعلى ولا تلتقى حافتها فوق الصدر. ولذا تبقى مفتوحة على الدوام، وتكون إما ساذجة بسيطة أو مشغولة بالتطريز وبعض السيدات يستعصن عن الجبة بلباس آخر معروف عندهن باسم «السلطة».

أما القلنسوة - أى لباس الرأس فعبارة عن طاقيّة حمراء صغيرة يلف حولها على شكل العمة منديل أو أكثر من قماش الكريب أو حرير الموشلين الأبيض أو المرسوم أو المزركش بصنوف الزخرف.

وفي مقدمة الطاقيّة تثبت صفيحة مستديرة مكورة يبلغ طول قطرها ثلاثة بهامات تقريبا وتسمى بالكور، ونساء الطبقة الدنيا يتخذن هذه الصفيحة من الذهب فقط.. أما نساء الأغنياء فيتخذنها كذلك مرصعة بالأحجار الكريمة.

وترسل شعور القسم الأمامى من الرأس مجمعة بشكل الخلقات أو الصدغين أو ترفع الى فوق بالشكل المعروف «بالباندو» والنساء المصريات كنساء أوروبا يجمعن شعورهن خلف الرأس ولكنهن بدلا من رفعه إياه عليه يرسلنه إلى الظهر ويعقصنه ضفائر صغيرة يختلف عددها من إحدى عشرة ضفيرة إلى خمس وثلاثين، ويهتمن الاهتمام كله في أن يكون عدد هذه الضفائر فرديا ويدخلن في تركيبها ثلاثة خيوط خفيفة من الحرير وتنتهى كل ضفيرة بحلية ذهبية أو بقطف من اللؤلؤ أو بقطعة نقد مثقوبة من الحاقة. ومجموع هذه الضفائر منسقة على الوجه السالف يسمى بالصفاء.

ثم أن المصوغات واللآلئ والأحجار الكريمة من الماس وغيره تكثر في زينة تلك النساء، فيكون منها الأقراط في الأذان والعقود العديدة والقلائد في النحور والخواتم الساطعة الضياء في الأصابع.

والسيدات المصريات بوجه عام لا يلبسن الجوارب. ومع هذا فبشرة أقدامهن من النعومة بما لا تختلف به عن بشرة أيديهن لأنهن يغسلنها غالبا

بالماء المعطر ويعنن بتنظيفها ويقلمن أظافرهن بالحناء. واللائى يبالغن منهن فى التأتق ويذهبن المذهب البعيد فى التبرج يحلين أصابع أقدامهن بما يحلين به أصابع أيديهن من الخواتم المرصعة بالأحجار الكريمة ويلبسن فى أقدامهن حذاء يسمونه (المزد) من الجلد الأصفر أو القطيفة المشغولة بالحرير أو القصب لاحافة له من الخلف، لذلك يرى الكعبان ظاهرين للعيان، ويقوم المزد فى أقدام النساء مقام الجوارب. لأنهن ييقينه بأقدامهن أثناء زهابهن إلى الدواوين والسجاجيد. أما إذا أردن السير فى مكان آخر فإنهن يلبسن من الأحذية نوعا يقال له البابوج وهو حذاء من الجلد الأصفر طرفه دقيق ملتو إلى فوق، وإذا أردن الخروج وضعن أرجلهن وسيقانهن فى أحذية صغيرة من الجلد الأصفر صونا للساق من وقوع النظر عليها.

إن اللباس الذى وصفته الآن خاص بداخل الحرم، وهو فى بعض أجزائه على غاية الحسن. ولكن اللباس الذى تتغطى به النساء بين الجمهور يجعلهن شبيهات بالراهبات عندنا، أو بعبارة أخرى بمن يلبسن الثياب المعروفة بالدمينو فى مراقصنا.

فإنهن إذا أردن الخروج أفرغن على أجسامهن فيضا من الحرير الأسود يسمينه «السيلة» ثم يغطين هذا القميص بإزار واسع جدا من حرير الحر (التافتا) ويسمينه بالحبرة. وهو يغطى الجسم كله. وهناك إزار آخر من حرير الموشلين يستر من وجه المرأة المصرية إذا لبسته، كل شىء إلا العينين وحبرة المتزوجات سوداء عادة بخلاف حبرة الفتيات اللائى لم يتزوجن فإنها بيضاء اللون، ونساء الطبقة الدنيا اللائى لا يستطعن اقتناء الحر من الأقمشة الحريرية يتخذن هذا اللباس من نسيج الخيط والقطن ذى الأرضية الزرقاء ويسمينه «الملاءة».

٥٢. التغيرات التى أدخلت على ثياب نساء الأغنياء

إن الزى الحديث فى الثياب لم تصل عدواه إلى النساء المصريات ورجالهن. ومع هذا فقد أخذ اللباس المصرى، منذ سنوات قليلة، يتغير شيئا فشيئا بتأثير التحسينات التى أدخلت عليه—مثال ذلك لباس الرأس عند السيدات أصبح غير مثقل بالعمائم الكبيرة المرصعة بالجواهر، وهذا فضلا عن أن الصفا نفسه كاد يزول استعماله على أثر اعتياد النساء ضفر شعورهن

ورفعه فوق الرأس.

ولم تعد النساء يتركن القميص فوق الشنيتان كما كن يفعلن سابقا، كما أن اليك لم يبق بطول اليك الذي كان شائع الاستعمال قبلا. إذ أصبح كماه منتهيين عند المعصمين ولم يكن مقورا على الصدر بل صار يزرر فوق هذا الجزء من الجسم ويلتقى طرفاه به كما في ثياب الأوربيات. أما الجبة فقد أصبح استعمالها مقصورا على الطاعنات في السن وشاع استعمال الجوارب بين نساء الطبقة العليا وتركت الملابس المزركشة بالذهب في زوايا النسيان وحل محلها نسيج حرير المسلمين الساذج..

وبالجملة فقد تمت هذه الإصلاحات وأدخلت على اللباس المصرى فجعلته مطابقا للذوق السليم ومائعا من الإسراف في النفقة والاسترسال في الزخرف الذي لامعنى له.

٥٣- نساء الطبقة الوسطى

يلبس نساء الطبقة الوسطى بدلا من قميص التيل قميصا من الحرير وحذاء يسمى بالمركوب يمكن أن يقال أن أقدامهن لا تشعرن فيه بضغط ما عليها.

٥٤- نساء الطبقة الدنيا

أما لباس نساء العامة فأكثر من اللباس السابق سذاجة. لأنه عبارة عن قميص واسع من القماش الأزرق عريض الكمين جداً يلبس فوقه قميص أبيض ولباس. وهن بوجه عام لا يحملن الأحذية في أقدامهن.

٥٥- مساكن النساء والحرم

في منازل الأتراك قسم منفصل عن القسم الذى يسكنه الرجال أو الذى يجتمعون فيه . وهو خاص بسكنى النساء ويسمى «الحرم» والفكرة الشائعة عن الحرم في أوربا لا أثر لها من الصحة ولا نصيب من الصواب. فإن هذه الكلمة مستعملة في المعنى الذى يؤخذ من لفظ السراى أو القصر. والحال أن المسلمين يطلقون كلمة الحرم ليس فقط على المسكن الذى يقطنه النساء بل ما يحتويه هذا المسكن من الساكنات - أى على المحل والحال.

وليس في التقسيم الداخلى للحرم ما يعد خارجا عن القواعد المألوفة. فإنه

يحتوى - كالمسكن الخاص بالرجال - ديوانا أى غرفة تجتمع فيها النساء لمشاهدة بعضهن البعض وتستقبل الزائرات، ثم حجرة لكل منهن وغرفا تابعة لهذه الحجرات لسكنى جواريهن وخدمهن وحفظ حاجاتهن المنزلية. ورب البيت يجتهد بقدر الإمكان فى تجنب أن يكون لهذه الحجرات نوافذ تطل على الشارع، ولذا تستمد الضوء والهواء من نوافذ تطل إما على الحديقة وإما على صحن البيت، والنوافذ ذات حواجز من الخشب المشغول بحسب الفنون المستظرفة فتحول دون نفوذ الأشعة الشمسية وأشعة أنظار الذين يحاولون استكشاف ما وراءها.

والفكرة السائدة فى أوربا عن الحرم أنه مهد للفسق والفجور وبؤرة للعاهرة اتخذتها أمة فاسقة لتمتعاتها الشهوية العديدة والمضى فى تيار الفساد الذاهب بالعقل. وهذا هو الوهم الباطل بعينه. فإن الحرم يسود فيه نظام أساسه الشدة والقسوة وتنتشر عليه ألوية الصيانة الدقيقة.. وهذا وذلك مما يجعله أقرب فى الشبه إلى الأديرة الخاصة عندنا بالنساء.

٥٦ - الهيئة التى يتألف الحرم منها

لا يذهب الوهم بالقارىء إلى أن المقصود بوجود النساء فى الحرم الاستعداد لإطفاء شهوات رب البيت. لأن حرم الرجل الغنى يقتضى التوسع فى المعيشة والاسترسال فى المظاهر ويتطلب وجود عدد عظيم من الخادومات للقيام بحاجات الخدمة الداخلية. وتكون هاته الخادومات عادة من السودانيات، وهذا وحده يكفى لإدراك الحالة التى يصير إليها الحرم إذا جاز أن يتألف من السواد الأعظم من نسائه.

ثم أن لكل زوجة من زوجات رب البيت بلاطا صغيرا خاصا بها يتألف من جوارٍ مخصصات لخدمتها بالذات يؤدين حوالىها الواجبات المطلوبة من الخدم فى بيت أحد الرجال، ولكل زوجة كاتمة سر وخازندارة ووصيفة، ولكل منهن وظيفة موكولة إلى عهدتها فمنهن من توكل إليها الخدمة على الطعام أو تدبير شئون الثياب، ومنهن من تكلف بتجهيز القهوة أو الشبك وتقديمهما إلى الشاربات والمدخنات.. الخ.

ومن بواعث الشرف للزوجة أن يكون عدد جوارىها كبيرا. لأنها إذا خرجت

صحبته وسارت هي في طليعتهم افتخارا بأنهن على كثرتهم من توابعها. وكان الممالك في الزمن السابق يرون أن الفخر كل الفخر في أن يسيروا وفي صحبتهم العدد العظيم من الخدم والحشم إظهارا لما كانوا فيه من الثروة والنعيم والصولة.

ولكل من تلك الجوارى اللائى يشغلن لدى الزوجات تلك الوظائف المختلفة طائفة من الخادمت. فيزداد بهذا النسق عدد النساء في الحرم ويتضاعف بازدياد وتضاعف عدد خادمت الزوجات وخادمت خادماتهن. ومن ثم يمكن أن يقال إن في الحرم المؤلف من مائتي امرأة أكثر من مائة وخمسين يجهلن رب البيت. ولست في حاجة إلى التأكيد بأن الحرم المؤلف من مائتي امرأة نادر جداً في أيامنا ، وأن أكابر موظفي الدولة وحدهم هم الذين لا يعجزهم الإنفاق على هذا القدر العظيم من النساء.

٥٧- المعيشة في الحرم

لا ترى النساء المسلمات في بقائهن بداخل الحرم شقاء وعذاباً، لأنهن ولدن في دائرته وبلغن فيه إلى سن الشباب بدون أن يعلمن أن على وجه الأرض مقراً لنوعهن. يخالف هذا المقر ولا طريقة للمعيشة تناقض ما درجن عليه منها في كنفه. فلقد كان الحرم المعهد الأول لألعابهن في طفولتهن وأفراحهن وآلهن وآمالهن فتعاقب الفرح والألم والعمل والراحة في معيشة الحرم الشرقي هو بعينه تعاقب هذه المؤثرات على مسرح الحياة الذي فتح العرب أبوابه لنسائه.

ولقد قيل بحق. وهو قول قاله الحكماء منذ زمن طويل «أن العادة طبيعة ثانية». فمعيشة الحرم من هذا الوجه تنزل من النساء المسلمات منزلة العادة لأنهن إعتدن الحركة في حدود هذه الدائرة فلا يخطر ببالهن أن يتعدينها ولهذا وقفت أفكارهن ورغباتهن عند هذا الحد بدون تكلف وعناء لاعتبارهن إياه مما قضى به الزمن والدين والعادة . وهن إذا بلغن سن الزواج وخرجن من حرم الأم إلى حرم الزوج أحاطت بهن الأفراح والمسرات الجديدة وواجهت أفئدتهم السعادة المأمولة من الحياة الجديدة. لأن التربية التي تربيها لم تضرهم في هذه الأفئدة ضرام الشهوات المخوفة. دع أن العناية التي يلقيها من أزواجهن تجعل الطريق الموصل إلى تلك السعادة سهلاً ممهداً.

وكل ما يملكه المسلم من حسن ونفيس يخصصه لحرمه، وهو يميل إلى

إعطاء مسكن نسائه رونقا من الجلال والفخامة. بينما يكتفى بالمسكن البسيط لإقامته، ويقتصر في الزخرف ومظاهر الأبهة على اقتناء السلاح والخيول. ومع ما استقر في الأذهان من أن النساء المسلمات رقيق لأزواجهن فإن لهن كما بسائر البلاد نفوذا عظيما وبأسا شديدا. فكم من الحوادث السياسية كان الباعث عليها سرا كميننا = دفيننا = في الحرم وكم من سلطان رضى لما لا يستطيع مقاومته من رجاء حظيته المكرمة. فعين في منصب الوزارة من أشارت عليه برفعه إلى هذه المرتبة السامية أو رقى من شئت ترقيته من ضباط البلاط.

فالاستفادة من سلطان النساء الحظيات ودالتهن على أزواجهن أمر لا يحتاج إلى زيادة البيان. والسيدات المسلمات، إذا تزاورن حصلن لأزواجهن أو لبعض أفراد أسرهن بلا كبير عناء فوائد جمة ومزايا جلية يرجع في منحها إلى الزوجات صاحبات الهيمنة والسلطان على أزواجهن.

٥٨- امتياز النساء بالنجدة

في زمن الحرم تحترم النساء احتراماً خاصاً. فالمقاتل المغلوب على أمره، إذا لجأ إلى الحرم واحتوى بحماه، لا يصيبه ضرر، وفي الأزمان السابقة كان مثل هذا الامتياز ممنوحاً لهن بقصد الكرم والنجدة والإغاثة إذ لهن أن يحمين المحرم من توقيع الجزاء عليه والتنكيل به.

وبلغ من الأمر في عهد المماليك أن المجرم الذي يساق إلى الإعدام كانت تعصب عيناه حتى إذا الذي في طريقه بموكب لحرم أحد الأمراء اغتتم هذه الفرصة ليلمس طرف ثوب إحدى النساء السائرات فيه. فإن هذه الحركة التي يقصد بها الاستغاثة كانت تؤدي حتماً إلى العفو عنه وإخلاء سبيله.

٥٩- زيارة سيدات الحرم

لاستقبال السيدات المسلمات من الرجال أهدأ غير الزوج. فإذا اتفق ودعى طبيب إلى الحرم عنى بتغطية المريضة بإزارها أو بأحد الأغطية الخاصة بها وحضر العيادة أحد الخصيان. وفيما عدا هذا فالحرم مفتوح على مصراعيه لجميع السيدات على اختلاف عقائدهن وأجناسهن. وإذا وقف الناس على كثير من تفاصيل الحياة بداخل الحرم وأسرارها فإنما جاء العلم

بها عن طريق المسيحيات واليهوديات اللائي تختلفن إلى الحرم الإسلامى.
وتستغرق زيارة السيدات أحيانا أياما متعاقبة. ومتى كان بالحرم سيده
أجنبية فإن رب البيت يرى من أخص واجباته عدم الدخول فيه مهما طال أمد
زيارتها به.

٦٠- أشغال النساء

لا تتلقى النساء المسلمات شيئا ما من العقلية لاعتقاد المسلمين أن المرأة
من جهة العقل والفهم أخط درجة من الرجل. ومفهوم أن الدين الإسلامى لم
يفرض عليهن بسبب هذا الانحطاط رعاية الفروض الدينية المحضة رعاية
كاملة. وذهب بعض العلماء إلى الشك في أن لهن روحا. وهن يجهلن القراءة
والكتابة، ولكنهن يحاولن بعض الأعمال كالطريز والنسيج والوشى ويزاولن
الخدمة البيتية بحذافيرها ويدخلن السرور على أنفسهن في أوقات فراغهن
بالألعاب المختلفة، وقد يستحضرن إلى حجراتهن المغنيات والعوالم للتسلى
بهن، وسنتكلم في الفصول الآتية على مايقمن به في مجال السرور والأفراح
من آن إلى آن.

أما نساء الفلاحين فيرحن ويجئن طليقات من غير قيد، وكثيرا مايتفق أن
يبعث أزواجهن بهن الى الأسواق لبيع الحاصلات المختلفة أو غيرها.

٦١- رأى النساء في حالتهم

ما سمعت السيدات المسلمات أن السيدات الأوربيات يرثن لحالهن لما هن
فيه من الاحتجاب وعدم البروز للجمهور إلا وقد اعتراهن الدهش، وقابلوا
بالملاحظات المرة القارصة عواطف الرحمة والحنان التى لم يكلفن أحد
بالإعراب عنها لأجلهن. فإن سيداتنا إذا سألتهن عن فائدة التزين والتجمل
إذا كن مرغمت على سترهما عن الأنظار فضلا عن احتجابهن وراء الستار
أجبن: «إنا إذا تزيننا وتجملنا فإنما لأجل سيدنا ومولانا نفعل ذلك. أما أنتن
فلغير أزواجكن من الرجال والنساء تتزين وتتجلن».

وإذا قال لهن أحد إن حالتهم تستدعى الشفقة لعجزهن عن الخروج
والذهاب حيث يشأن أجبن على هذا العطف بقولهن: «إنكن لأسوأ حالا منا
لأننا إذا شئنا أن نشترى شيئا جاء التاجر إلى بابنا وعرض بضاعته علينا، أما

أنتن فلا بد لكن من الذهاب إلى حانوته» الخ.

٦٢- عادة الاستحمام في الحمامات

تذهب النساء المسلمات غالبا إلى الحمامات وحمامات البخار هذه أحد اجتماعاتهن المألوفة يأنسن فيه بعضهن ويروين على مسامع بعضهن نتفا من حوادث الحياة المنزلية فيما يتعلق بأشخاصهن أو بما يتخذنه من التدابير للزواج.

٦٣- حكاية نابليون بونابرته

أورد نابليون بونابرته حكاية مؤامرة دبّرت في أحد الحمامات العامة يلذ لي إبرازها في هذا المقام لما احتوته من الدليل على أن إقامة ذلك الرجل العظيم بمصر قد أدهشت العقول وحركت الخواطر كلها حتى خواطر النساء، وكانت لجميع أهل المشرق عنوانا على تبدل الأحوال بحال لم يسبق لها من قبل مثال. قال: «تزوج الجنرال مينو بامرأة من رشيد وعاملها معاملة السيدات الفرنسيات. إذ كان يمد إليها يده كلما هم بالدخول معها إلى غرفة الطعام ويتحرى لها أوفق المجالس ويقدم إليها خير الأطعمة وأشهاها، وكان إذا سقط منديل الطعام الموضوع على فخذيها بادر بأخذه وأعاده إلى مكانه. فلما روت تلك المرأة هذه الأمور على صاحباتها في أحد حمامات رشيد لاحت لهاته النسوة بارقة الأمل في تغير أحوالهن وعاداتهن وحررن عرضا قدمنه إلى السلطان الكبير- بونابرته- ليحمل أزواجهن على معاملتهن بمثل مايعامل «مينو زوجته الرشيدية به».

٦٤- طباع النساء وأخلاقهن

يتعلم النساء المصريات فيما يتلقينه من التربية عن أهلهن الطاعة والاحترام. وإذا كن لارابطة تربطهن بالرجال فمن النادر أن يستطعن التفرغ للتدابير والحيل الغرامية، وبهذه المثابة كان شرف الأزواج بالشرق في مأمن منه في الغرب. ولابد لنا من القول هنا بأن النساء المصريات. مع محافظتهن على فضيلة العفاف واستمساكهن بعروتها الوثقى إلى وقت زواجهن حيث يلزم بإقامة الدليل القاطع على بكورتهن لايلبثن أن يصرن بعد زواجهن أقل حرصا على كرامتهن. ذلك لأن كرامة النساء - أي العفة لم تكن مرتكزة في

الشرق على قواعد وطيدة من الأخلاق. فإذا وقين أنفسهن شر العار، فما ذلك إلا لخشيتهن بأس أزواجهن لا لاحترامهن أنفسهن أو حرصهن على كرامتهن. وهذا هو السبب الذى جعل الأزواج يضيقون عليهن الخناق ويأخذون عليهن الأطراف بالدأب على مراقبتهن. علما منهم بأن صيانة شرفهم لا تتأتى إلا عن طريق اليقظة والانتباه فى المراقبة والحكمة فى التدابير والاحتياطات التى تتخذ لذلك.

وميل النساء المصريات شديد الى المضاجعة لأنهن تربين فى ظل الدعة وعادة السكون والبطالة . فلا جرم إذا رغبن فى الكسل وطبعن على اللين والتفنج وأن لا يكون لهن هم سوى استهواء أزواجهن إلى الإعجاب بهن ومنهن من يعكفن على شئون البيت، ولكن إدارة هذه الشئون فى الشرق أقل صعوبة منها بكثير فى أوروبا.

وليس بالإمكان العثور فى مصر على امرأة متزوجة تعيش تعيش الخلية مع رجل آخر غير زوجها.

٦٥ - العاهرات

تحرم الديانة الإسلامية، كالديانتين الموسوية والعيسوية العهارة تحريما قاطعا مانعا، ولذا كان وجودها فى الديار العثمانية نادرا جداً، ولكن مصر التى خالفت ممالك الشرق فى أكثر من حال من أحوالها العامة. ولا سيما فى ارتداء حبل الأخلاق، تجاوزت الحد فلم تنتصر على قبول العهارة فى إجازتها بل كانت تجبى من العاهرات مبلغا جسيما يدفع سنويا لخزانة حكومتها، وكانت طائفة العاهرات فيها إلى عهد قريب منا طائفة معروفة ذات رؤوس يهيمنون عليها وأنظمة خاصة تسير على منهاجها. وقد عدلت الحكومة فى آخر الأمر عن جباية ذلك المال منها برسم خزينتها. بل وقررت منعها إزالة لوصمة وجودها وعار الاعتراف بها.

نعم لا يزال يوجد حتى الآن عدد عظيم من النساء العوميات إلا أنهن يزاوئن حرفتهن الساقطة الدنيئة سرا لاجهرا كما كان الأمر قبلا. ومع أن قرار الحكومة بصدها يرمى إلى غرض أدبى أخلاقى بحت. فما نذكره هنا مع مزيد الأسف أنه أفضى إلى اتساع نقيصة أشد خزيا وعارا من نقيصة العهر ألا وهى اللواط. وليس من المستحيل تجاه تفاقم هذه المخزاة الجديدة أن

تنتبه الحكومة لها وتدرأ سوء مغبتها ، بعد أن يستقر في خلدها أن غض النظر عنها مفض حتما إلى تجويز العهارة والرضا بوجودها.

والذى اعتقده أن هذه البلية الاجتماعية يعززها في القطر المصرى العيب بالطلاق وإرخاء العنان للأزواج في تطليق زوجاتهم أكثر مما يعززها المزاج الخاص الذى يحمل المصريين على الأفراط في قضاء شهواتهن. فإن نظرة واحدة في أحوال العاهرات تكفى للإقناع بأنهن بوجه عام من النساء المطلقات اللائى أنفن ذل المعيشة الزوجية وأبين ضيمها أو اللائى لم يستطعن بعد طلاقهن التزوج ثانيا فلم يجدن للارتزاق بابا مفتوحا غير المضى في تيار العهر والفسوق.

٦٦- الخصيان

يجدر بنا - وقد بلغنا إلى هذه النقطة من موضوعنا - أن نذكر شيئا عن الخصيان الموكول إليهم حراسة الحرم ومراقبته. فإن الخصيان هم الرجال الوحيدون الذين يجوز لهم غشيان حجرات النساء باعتبار أنهم الحراس الذين أقامهم الأزواج على عفة أزواجهن . وليس ببعيد أن يراهم الإنسان في الوقت نفسه وقد اكتسبوا ثقة الأزواج والزوجات للتغريز بالفريقين وإدخال الغش عليهما.

واستخدام الخصيان يرجع إلى الأزمان القديمة في التاريخ. فقد روى أن الملكة سميراميس هى التى ابتكرت خصى الرجال واقتدى بها ملوك آسيا واحتفظ اليونان في عهد دولتهم الأخيرة التى كان مقرها القسطنطينية بعادة اتخاذ الخصيان ، وكان أحدهم وهو الخصى (نرسييس) أكبر قوادهم بعد (بليزير) ورفع من شأنهم زمنا في البلاد الإيطالية.

ومع أن الشريعة الإسلامية تحرم الخصى (الجب) فقد عكف المسلمون عليه وبالفوافيه، بحيث يخيل للإنسان أن هذه العادة الوحشية ملازمة لتعدد الزوجات ملازمة لا مفر منها.

وفي بلاد آسيا وأوروبا لا يفوز بامتياز الحصول على الخصيان واقتنائهم غير العظماء والأثرياء. أما في إفريقية - ولا سيما في القطر المصرى - فإنهم أكثر انتشارا لسهولة الحصول فيهما على العبيد اللائقين لعملية الجب.

٦٧ - معاهد الجب

عملية الجب لا تجرى الآن في غير القطر المصرى فهذا القطر أصبح المورد التى تستورد منه الخصيان برسم حرم العظماء والأثرياء فى كل مكان. وصناعة الجب فيه رائجة رابحة يزيد فى ربحها شدة الإقبال عليها وغلاء ثمن التعساء الذين تجرى عليهم تلك العملية القاسية.

ومدينتا أسيوط وجرجا هما الوحيدتان من مدائن القطر المصرى اللتان تباشر تلك العملية الشائنة فيهما. ومن كان يخطر بباله أن الموكلين بمباشرتها جماعة من المسيحيين، وأنهم من رجال الاكليروس القبطى؟ هؤلاء الناس الذى أصبحوا عارا على الدين وخزيا ووصمة مزرية بالإنسانية موضوع احتقار السكان فى تينك المدينتين لما يترتب على الصناعة التى يباشرونها بغير رحمة ولا حياء من الجريمة فى حق المروءة والإثم الغليظ ضد الإنسانية.

وقرية زاوية الدير القريبة من أسيوط عاصمة السفاكين السفاحين الذين يقومون بعملية الجب. وهم يرتكبون جرمها الشنيع على نحو ثلاثمائة شخص فى كل عام ويختارون هذه الضحايا بين صغار العبيد الذين تختلف أعمارهم من ست سنوات الى تسع وتأتى بهم قوافل الجلابية من سنار ودارفور. ويبيع هؤلاء التعساء بحسب ما يكون من حظهم فى الحياة بعد إجراء العملية عليهم وبحسب المزايا المتوافرة فيهم من ١٥٠٠ قرش إلى ٣٠٠٠.

٦٨ - عملية الجب

تعمل هذه العملية عادة فى فصل الخريف باعتبار أنه أوفق فصول السنة لنجاحها. ولا يقتصر القائمون بها على بتر عضو التذكير وحده بل يبترون بالموسى جميع الأجزاء البارزة المرتبطة به ثم يصبون فى الحال على مكان البتر شيئا من الزيت المغلى، ويركبون أنبوبة فى الجزء الباقى من مجرى البول وبعد إلقاء الزيت يلقون على مكان الجرح مسحوق الحناء ثم يدفنون الفتى المعذب على هذا المثال فى الأرض إلى ما فوق البطن وبعد أن يتركوه فى هذه الحالة أربعة وعشرين ساعة يستخرجونه من التراب ويدهنون مكان الجرح منه بعجينة من طين الابلير والزيت.

٦٩- تعظيم الخصيان

إن نحو الربع من الغلمان المساكين الذين تجرى عليهم هذه العملية الشنعاء لا يعيشون بعدها. أما الباقون فيقضون حياتهم في الضعف والآلام. نعم إن المسلمين يحوطونهم بكل ما هو مستطاع من الاحترام والرعاية والتكريم .. حتى أن كبير الخصيان في الآستانة العلية مثلاً يعد من أعظم رجال الحاشية السلطانية، وأن السلطان محمود رفع أحد خصيانه إلى مرتبة الباشوية وعهد إليه قيادة جيوش الدولة ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها أن لا آية من آيات الشرف والترفع ولاشارة من شارات الحظوة والفوز بالرعاية تعدل فقدان الرجل صفته الخاصة به وعلامته المميزة له على غيره.

٧٠- العلامات المميزة للخصيان

بوجه عام يعرف الخصى بمظهره الخارجى وهيئة جثمانه. فإنه يكون أمد سلب اللحية والشاربين وبجسمه ميل إلى السمن وفى صوته خنوثة. وتبدو عليه فيما عدا هذه الصفات، علامات التكبر فى كربة، ووجوم، وتشاهد فيه نزعة إلى الأذى والخوف وسرعة الغضب. وهى نتائج طبيعية لما يشعر به من سقوط شأنه وانحطاط مكانته بزوال أخص صفة للرجولة عنه. ويميل عادة إلى مظاهر الصلاح والتقوى، إذ يرى فى القيام بفروض الدين على وجه التشدد تعويضاً له عما أصابه من النقص فى جثمانه. ومن الخصيان فريق يحبون الاجتماع بالنساء والسكون إليهن. بل أن فيهم من يتزوجون بهن.

٧١- منع الحب

إذا كانت ثمة جريمة نحسب أن الهيئة الاجتماعية بأسرها قد اشتركت فى ارتكابها، وأن لا جريمة تفوقها قذاعة وشناعة فإنما هى عادة إتخاذ الخصيان وبقاء هذه العادة حتى الآن..

ولقد حمل كبار الفلاسفة والمفكرين وبعض رجال الحكومات العاملين فى أيامنا هذه الحملة الشعواء على الاسترقاق وها نحن أولاء نرى أوروبا تسير سيرا حثيثاً فى الطريق المؤدى إلى إلغائه، ولكن عادة إتخاذ الخصيان فضيحة كبرى للطبيعة وهتك مخز لأستار النواميس الطبيعية والخلقية. والغريب مع هذا أننى لا أعلم أن بين الشعوب التى تتولى زعامة الحضارة العصرية من

استجمعوا قواتهم وجهودهم لمكافحة عادة إتخاذ الخصيان.

وتداخل أوروبا اليوم في شئون الدولة العثمانية ذلك التداخل الذى أصابها ببالغ الضرر من جراء ضغطها عليها بأثقال المصالح السياسية والمرافق الاقتصادية المختلفة كان يمكن أن يكون نافعا ومجديا وجديرا بثناء الإنسانية وشكرها لو كان الغرض منه إدخال الإصلاحات المطابقة لروح الحضارة والمدنية. لا التى يقصد بها تحقيق تلك الأغراض السياسية.

وليس من بين هذه الإصلاحات ما هو أوجب للحمد والثناء كمنع الجب وإتخاذ الخصيان .. وأتمنى صونا لكرامة أوروبا وشرقها ووقاية لمجدها أن تفكر حكوماتها في الحصول على هذا الإلغاء من سلطان تركيا ووالى مصر، وإنى لموقن أنه يكفى لتحقيق هذه الأمنية الشريفة أن تعرب تلك الحكومات لهما عن مقاصدها الخيرية نحو الإنسانية المعذبة لترى منهما الإقبال السريع على إجابة مطالبها ، وها هو محمد على المعروف بالمسارعة إلى اتباع النصائح النافعة والمشورات النبيلة لن يتوانى في العمل بهذه النصائح وبذا لاتصبح مصر ميدانا لجريمة لايسع هذا الجيل بعد الآن أن يتهاون في أمرها أو يتغاضى عنها.

(٦)

الزواج وتعدد الزوجات والطلاق

الزواج - تعدد الزوجات في مصر - الطلاق - أسباب تعدد الزوجات والطلاق في الشرق - تأثيرهما.

٧٢ - الزواج

في بلد تجيز شريعته ، بلا قيد، تعدد الزوجات والطلاق لايمكن أن يكون الزواج عظيم الخطر، كلا ولا من المسائل التى يتوقف عليها مستقبل الرجل والمرأة في الحياة كما نراه نحن. ففى الشرق لا يسيطر الحب على الروابط بين الزوجين. لأن احتجاب المرأة في الحرم يحول دون معرفة الخطيب خطيبته التى ستربطه وإياها عقدة الزواج، - ولو بالنظر - بل غالبا ما يتم الاتفاق على تزويج اثنين من بعضهما بين أهليهما وهما لم يخرجوا بعد من سن الطفولة. فإذا ما بلغا سن، الحلم قلما يستشار أحدهما في أمر زواجه بالآخر.

فكان من المنتظر، في هذه الحالة أن يتجلى الزفاف عن حبوط أمل وخيبة رجاء لا يجد الزوج التعس للخلاص من ورطتهما غير حل عقدة الزواج بالطلاق. وفي هذا العهد بدا من جانب الأهل جنوح إلى تلطيف هذه الطريقة المنافية للصواب والعقل من وجوه كثيرة. إذ أخذوا يعدلون الآن عن خطة التشدد والتعسف — لا إلى جهة الرضا بأن يرى الخاطب المرأة التي اختطبها أو يحدثها — بل من جهة أنهم يعنون باستقصاء أحوال الخطيبين سناً وخلقا وخلقا.

وعندما يشرع في الخطبة تذهب أم الخاطب في لفيف من أهلها وقرابتها إلى بيت المخطوبة برسم الزيارة. فإذا وقع نظرهم عليها حفظوا ما بدا لهم من صفاتها جمالا ودمامة فضيلة ورذيلة حتى إذا عادوا إليه سردوا عليه ما ثبت عندهم من أمرها. فإما أن يقبل على الزواج بها وإما أن يعدل عنه.

وفي الشرق لا يمهر النساء الرجال بل الرجال هم الذين يقدمون إليها الصداق. وعند أصحاب اليسار والغنى يبلغ الصداق عادة عشرة أكياس (أى أكثر من ألف قرنك ومائتى قرنك) وهو أقل من ذلك للأيامى والمطلقات.

٧٣- تعدد الزوجات في مصر

رأينا فيما تقدم أن الديانة الإسلامية تبيح الزواج بأربع نساء ومالا عد له مما تملك اليمين. ومعنى هذا أن الإسلام يقرر تعدد الزوجات ويدعو إليه. ومن الخطأ أن يظن أحد أن إباحة تعدد الزوجات معمول بها من جميع الناس فإن السواد الأعظم من المصريين يقتصرون على زوجة واحدة فقط، وإنه ليتعذر عليهم أن يعدوا هذا القدر مالم يكن عدد النساء في مصر يتجاوز بكثير عدد الرجال.

والحقيقة أن عدد النساء في هذا القطر يكاد يعدل عدد الرجال، وهو ما يؤخذ منه انحصار تعدد الزوجات فيه ضمن دائرة ضيقة جداً. لاسيما وأن الإكثار من الزوجات يستدعى من النفقات الطائلة ما لا قبل لأحد به ولا طاقة له عليه إلا إذا كان من أصحاب الثروات الواسعة، وهو ما جعل عادة تعدد الزوجات مقتصرة على أرباب الغنى وأصحاب المظاهر والحيثيات لا تتجاوزهم إلى غيرهم. ويتفق أن يكون للرجل من عامة الشعب زوجتان أو أكثر ولكنهن ينفقن في هذه الحالة على أنفسهن من صفوة أموالهن. ومن

المسلم به أن متوسط عدد الزواج الذى تتعدد فيه الزوجات بالقطر المصرى لايتجاوز خمسة فى المائة من مجموعه.

٧٤- الطلاق

من الأنظمة المرتبطة بتعدد الزوجات بروابط عديدة الطلاق، وقد بلغ من الشيوع مبلغاً فاضحاً مخزياً. لأنه إذا كان تحدد الطلاق يبيح للرجل الإمساك بقدر مايريد من الزوجات فإنه يستطيع بالطلاق التزوج بقدر ما يشاء منهن - على شريطة أن يخلفن بعضهن البعض فيتعاقب استمتاعه بهن بتعاقب الاقتران وتواليه، وتعدد الزوجات والطلاق متحدان فى طبيعتهما لأنهما ناشئان عن أسباب بعينها، ولا بد طبعاً أن يفضيا إلى نتائج متشابهة ويعقبها آثار متجانسة.

ولقد سبق أن، قلت إننى لا استبعد وجود مسلمين فى القطر المصرى تزوجوا وطلقوا خمسين مرة ولكن هذا من النوادر التى لاحكم لها. والمألوف المعروف وجود من تزوجوا وطلقوا عشر زوجات أو اثنتى عشرة زوجة أو عشرين، ويخالف الأتراك المصريين فى ذلك فإنهم يحرصون على عقدة الزواج ويصونونها من الإنحلال أكثر من هؤلاء. وتعدد الزوجات لايلجأ إليه كما لا يلجأ عندهم إلى الطلاق إلا إذا كانا الوسيلة الوحيدة للخلاص من ضيق شديد.

٧٥- أسباب تعدد الزوجات والطلاق

تمتاز الروابط التى تصل الرجل بالمرأة فى الشرق بصفات خاصة بها ومناقضة على خط مستقيم للصفات المميزة فى البلاد الأوربية، ولقد أمعن الفلاسفة النظر فى هذا التباين واقتفى أثرهم فى ذلك كتاب الصحف والباحثون فى الشئون الفسيولوجية وذهبوا فى طرق الآراء متخبطين.

أما فى الغرب فقد حافظت الشعوب جميعاً من الإغريق إلى الفولوى والجرمان إلى الرومان المحافظة التامة على وحدة الزوجة، وأما فى آسيا فقد أباحت شعوبها أجمعين من الفرس إلى الأتراك للرجل الاقتران بعدة زوجات..

ومفهوم أن روابط الرجل بالمرأة لكبيرة الأهمية عظيمة الخطر من الوجهة الاجتماعية ، وأنها سريعة التأثير فى الأسرة وبالتالى فى الهيئة الاجتماعية بأسرها. فمن المفيد والحالة هذه استقصاء الأسباب التى تجعل تلك الروابط

خاضعة لعوامل الاختلاف المترتب على اختلاف البلدان وتباين الشعوب التي تسكنها.

والذى نعتد به فى هذا الموضوع أن السبب الأصلى لتعدد الزوجات جثمانى مادى بحث، فقد لاحظ العلامة الفيلسوف «مونتسيكو» أن بين النوعين الذكر والأنثى فى البلاد الحارة اختلافا طبيعيا وتفاوتا عظيما، قال: «إن النساء فيها يبلغن الحلم فى الثامنة أو التاسعة أو العاشرة من عمرهن، وهوما يجعل الطفولة والزواج يسيران فيها يدا بيد فتصبح المرأة التى تزوجت فى إحدى تلك السنوات عجوزا شمطاء ولن يتفق اقتران العقل عندها بالجمال. فإنه إذا تطلب الجمال النفوذ والسلطان أباهما عليه العقل، وإذا استطاع العقل الفوز بهما يكون الجمال قد تلاشت دولته وذهبت صولته. ومن ثم كان الواجب بقاء المرأة فى حكم أحد وتبعيته — لأن العقل لا يجعل لها فى هرمها سلطانا ونفوذا بخل الجمال عليها بهما وهى فى غض الشباب وإبان الحسن. فمن بسائط الأمور إذن أن يترك الرجل امرأته ليتخذ بديلا عنها — لاسيما إذا لم يكن فى الدين مانع يحول دون ذلك وأن ينشأ عن فعله تعدد الزوجات».

واعتقادى أن ذلك المفكر العظيم قد كشف بثاقب نظره وصائب رأيه عن حقيقة سبب تعدد الزوجات وشيوع الطلاق فى الشرق.

الأطفال

العناية الأولى بهم - تربيتهم.

٧٦ - العناية الأولى بهم

الغرض الأول من الزواج فى مصر استبقاء النسل وتخليد الذكر، لذا كان مولد الأبناء من الحوادث الباعثة فى الأسرة على السرور والابتهاج. وعقم المرأة فى نظر المصريين غضب من الله عليها وباعث من بواعث نفور الزوج منها وعدم رضائه عنها. وبالجملة فاحترام المرأة عندهم يقاس بحسب قابليتها للحمل والوضع قلة وكثرة. والرأى المجمع عليه أن الرجل المستقيم لا يليق به أن يطلق امرأته لكونها لم تعقب منه سوى غلام واحد، ولاسيما إذا بقى هذا الغلام على قيد الحياة.

ولو لم يكن حب الأم لبنيتها فى مصر كما فى غيرها من البلدان أظهر ما بثته

الطبيعة في فؤادها من العواطف لكان من مصلحتها أن تتعهد هذا الحب بما ينميه ويقويه. فإن الامهات يبدن الكثير من الرفق نحو أبنائهن ويتجاوزن عن هفواتهم ويحطنهم بوسائل العناية والرعاية بل ويقمن على إرضاعهم بأنفسهم. والشرعية المحمدية تبيح لهن إرضاعهم حولين كاملين ما لم يأذن لهن أزواجهن بالفطامة قبل هذه السن. والقاعدة المألوفة أن يأذن الوالد بالقطام في منتصف الثانية من أعمارهم. وفيما قررت تلك الشريعة من ذلك ما يطابق الصواب. لأن البلاد الحارة من البلدان التي يموت فيها الأطفال بالأمراض المعوية. فلبس الأم بالنسبة لهم من خير الأغذية الموافقة لهم والمناسبة لحالهم.

وإذا لم تكن الأم في حالة من الصحة تسمح لها بمباشرة إرضاع وليدها فلها أن تتخذ له مرضعا. فإذا كانت المرضع إحدى جوارى البيت عدت لهذا السبب من أفراد الأسرة وكسبت حقوقا مؤكدة تظهر محسوسة في احترام الأبناء الذين أرضعتهم وشكر آبائهم لها وحسن جزائهم إياها.

ولا يحمل الأطفال امهاتهم أو مرضعاتهم وهم في نعومة الأظفار عناء كبيرا في تربيتهم لهم لأنهم قليلو البكاء. ولو امتنع أهلهم من وضعهم في القماط كما نفعل نحن بأطفالنا لنموا وابتدأوا المشى على أقدامهم منذ الشهر السادس من عمرهم.

وهم يكونون في الغالب ضعافا نحيلي الأبدان إذا ناهزوا الثانية أو الثالثة من أعمارهم، وتتكور بطونهم كثيرا لرداءة الغذاء، ولا شيء في ملامحهم وهم في هذا الدور من حياتهم يبشر بأنهم سيكونون على شيء من جمال الصورة العربية وقتما يبلغون سن الشباب.

وأبناء الطبقة العليا لا يعتنى بحسن لباسهم، تتعمد والداتهم ذلك فإذا خرجن من دورهن واستصحبنهم نزعن من ثيابهم ما يمكن أن يحكم الناظر به على يسار أهلهم وقدرتهم وجاههم. وقاية لهم من عيون الحاسدين. أما أبناء الفقراء فيجردهم أهلهم من الثياب بالمرّة. وكثيرا ما تشاهد الأمهات في الأرياف والمدن وهن حاملات لهم بهذا الشكل على أكتافهن.

٧٧. تربية الأطفال

في الطبقتين العليا والوسطى يربى الأطفال بداخل الحرم حتى يبلغوا السابعة من عمرهم. وللتربية الأولى كما هو معلوم أو كما في نفس المرء. فمن

البدهى إذن أن تترك التربية التى يتلقاها المسلمون على هذا الوجه أثرا عميقا فى حياتهم.

وغير منكور أن الأطفال يكتسبون فى داخل الحرم لين العريكة ودمائة الخلق فينتهى بهم الأمر إلى أن يشبوا على شىء من الرصانة والتحفظ والبعد عن نزق الطفولة وطيشها وألاعيبها. وفى الأسرات الغنية يعود الأطفال آداب المعاشرة والاجتماع على الأسلوب المقرر فى الدين الإسلامى. فلا يبعد أن يقع نظرك على غلام فى الخامسة أو السادسة من عمره يدهشك من سلوكه مالا تجده فى خلق الرجل الكبير أو المولى العظيم من الرزانة والسمت والوقار.

وتعمل عملية الختان للطفل وهو فى السادسة من عمره أو قبل هذه السن أو بعدها بيسير وفى الأوان نفسه أو حواليه يعلم الأطفال تلاوة القرآن وكتابة آية فإذا ناهز الثامنة أو التاسعة خرج من وصاية الحرم فإن كان أهله على شىء من الغنى والجاه جاءوا إليه بالأساتذة يلقون عليهم الدروس فى بيوتهم ويتصدى أبائهم لإرشادهم إلى الواجبات والفروض الدينية من وضوء وصلاة... إلخ.

والإسلام يقضى أن يتعلم الأطفال الصلاة فى السابعة من العمر ويدعو آباءهم إلى ضربهم إذا لم يقوموا بفروضها فى العاشرة من أعمارهم. ومتى أشرفوا على تمام الثانية عشرة عهدت إليهم بعض الأعمال العسكرية أو المدنية ليؤدوها بإرشاد بعض الحكام وملاحظتهم.

أما الأطفال من أهل الطبقة الدنيا فيرسلون عند بلوغهم السابعة من أعمارهم إلى المدارس العامة - أى الكتاتيب الملحقه بالمساجد - وفيها يتعلمون القراءة والكتابة ثم يخرجون منها لمزاولة التدريب على إحدى الصناعات بحيث لا يناهزون الثامنة من العمر إلا ولهم قسط فى الأعمال ومشاركة للعاملين فيها. وهم فى الأرياف يفيدون أهلهم فائدة جلية بتسيير الماشية وإدارة السواقي والذين يتخصصون من الأطفال لدرس علوم الدين يباشرون تلقيها فى العاشرة أو الثامنة عشرة من عمرهم. وصفوة القول أن الأطفال يبكرون بمزاولة الأعمال ويربحون منها قوتهم.

الأغذية

وآداب الطعام

الغذاء - ألوان الطعام - الترتيب المتبع في تقديمها - المشروبات -
قهوة البن - الشربات - الحشيش - الأفيون - الوجبة - الآنية والأوعية
المستعملة للأطعمة - آداب الطعام - الاقتداء بالأوروبيين في طريقة
الأكل - طعام الفلاحين.

١- الغذاء

يتناول المسلمون كثيرا من الأطعمة التي اعتدنا نحن تناولها. فهم يحبون من
اللحوم لحم الضأن ويفضلونه على كل لحم سواه. ويأكل أصحاب اليسار، غير
هذا اللحم، اللحم البقري والفقراء اللحم الجاموسي وسكان الصحراء لحم
الجمال أحيانا. ويمسك المسلمون جميعا عن أكل اللحوم المحرمة كلحم الخنزير
والخيل والحمير الخ.. أما لحم العجل وصغار الضأن فانهم لا يتغذون به إلا في
النادر.. لأن الشريعة الإسلامية توصي نصوصها بالامتناع عن ذبح صغار
الماشية دفعا لما يخشى من انقراض أنواعها. أما الطيور فمن النادر مثلها على
موائدهم لأنهم - كما سبق لنا القول - لا يميلون إلى الصيد والقنص لتعذر ذبح
الحيوانات المصيدة بعد صيدها. وهم شديدا العناية باستنزاف دماء الحيوانات
المذبوحة للتغذى بها. ولكنهم لا يجارون اليهود فيما يتخذونه من وسائل الاحتياط
لهذا الأمر.. فمن ذلك أنهم لا يرون ضرورة في أن يكون القائم بذبح الحيوانات
رجلا اقتصر في عمله على هذه المهمة فأصبحت صفة قائمة به لا تتعداه إلى
سواه، ولا أن تكون المديّة التي يذبح بها جامعة صفات وخصائص لا تتوافر في
سواها الخ.

ويكثر المصريون من أكل الطيور الداجنة والسّمك، ولكنهم لا يعرفون من خيرات البحر، غير السمك، شيئاً من الأنواع الأخرى كأنواع المحار والأصداف مع أنها لم تكن محرمة عليهم. ويحبون الألبان والبيض حبا جما، ويستنفدون المقادير الوفيرة من البقول والخضر والحشائش على اختلاف أنواعها، ولا سيما الخبز (الخبيزة) والباميا والملوخيا (الملوكية) والباذنجان والطماطم والقرع والكرنب والعدس والفل والفاصوليا والترمس والبسلة. ومن البقول ما اعتادوا تناوله نيئاً كالبصل والخيار والشمام والخس والرجلة (البقلة الحمقاء) الخ.. ومما يوجب الأسف اساء تهم الظن في البطاطس الذي لو أقبلوا على استعماله غذاء لهم لأفادهم فائدة لاتنكر.. وتدخل فواكه البلاد بنسبة عظيمة ضمن الأغذية التي يتناولونها.

وهم يطهون الأطعمة بالزبدة ويكثرّون من ألوانها، ولكن العناية بالشرط الأكبر منها تكاد تكون معدومة.

ويجلب الزيت الذي يستنفد في مصر من الشام واليونان، وعلى الخصوص من جزيرة كريد. وهو من الصنف الواطيء الذي لو وجد مثله في أوروبا لما استعمل في غير الصناعة، على أنه تجلب إلى مصر أنواع من الزيت الجيد كزيت (بروفانس) وزيت (يوك) ولكن استعمالها لايتعدى الأوربيين والأغنياء من أهل البلاد.

وزيت الزيتون يعتصر في مصر بمقادير قليلة جداً، لان أشجار الزيتون لاتزال - كما قلنا سابقا - نادرة الوجود بها.

ويستخرج الزيت أيضا من بذور الخس والسّمسم. وفقراء المصريين يستعملون في بعض الأحيان زيت بذر الكتان المعروف بالزيت الحار وهو شديد الدسم حريف الطعم بطبيعته وبما يختلط بالبذر من بذور الخردل.

والبهارات شائعة الاستعمال في المطابخ المصرية فإن الفلفل الأسود والشطة والقرفة والقرنفل والحبان الخ يستنفد فيها مقادير عظيمة.

ويكثر المصريون من استعمال الليمون . إذ هم يعصرونه على جميع ألوان الطعام تقريبا ويستخرجون الخل من البلح ولكنه رديء النوع.

أما الخبز - الذي أشرنا فيما سبق إلى احترامهم إياه الاحترام العظيم. -

فهو عندهم كما فى أوربا أساس التغذية الذى تقوم عليه، ولكن الخبز الذى يعجنونه لايجارى خبزنا فى جودته وحسن صناعته. لأنهم يضيفون الماء الكثير إلى العجينة حتى تكاد تصير سائلة ويقللون من الخميرة وينقصون نضج الخبز الذى يختلف شكله اختلافا عظيما عن شكل خبزنا. فإنه عندهم أشبه بقطائر مستوية كبيرة.. ومنذ انتشر الفرنون الأوربيون فى القاهرة والإسكندرية وبعض أمهات مدائن القطر المصرى أخذوا يقلدونهم فى صناعتهم فجعلوا خبزهم بنفس الحجم المرعى فى أوربا.

٢- ألوان الطعام

من ألوان الطعام عند المصريين الحساء. وهو يعمل على طريقة واحدة تكاد لا تتغير، فإنه عبارة عن الماء الذى سلق فى دجاجة أو بعض أفراخ الحمام، على موائد الأغنياء منهم، أو قطعة من اللحم على موائد متوسطى الحال. وقد يضيفون إليه بعض الحشائش أو البقول وأحيانا نوعا من العجين المجفف يشوونه بالشعرية.

ومن الأطعمة التى يميل إليها المصريون ويفضلونها على غيرها شواء اللحم. ويظهر أنهم أتقنوا هذا اللون وأجادوا فيه كل الإجابة.. وإذا شواء اللحم لا يشوونه فى الأسياخ بل فى الأفران، بخلاف الأتراك والعربان فإنهم يشوونه فيها، وقد يشوون على هذه الطريقة خروفا بأكمله. وبعضهم يربطونه بحبل إلى قائمة منصوبة ثم يشوونه بتقليبه على جوانبه المختلفة فوق النار ويهيىء المصريون نوعا آخر من الشواء يسمونه « الكباب » وهو عبارة عن قطع صغيرة من اللحم تسلك فى أسياخ صغيرة.. وإذا كانوا لا يأكلون دهن الخنزير فإنهم يرتبون تلك القطع فى الأسياخ بحيث تتخلل قطع اللحم الأحمر قطع من اللحم الدهنى، أما الطيور فتجهز بالزبدة فى طوة أو فى الفرن.

ويبتدىء المصريون الطعام بأصناف كثيرة تتألف من اللحم وحده أو مخلوطا بالخضر والبقول، وأحيانا بالزبيب وعصير العنب.

وهم يميلون كثيرا إلى الأطعمة المحشوة ويضعون الحشو فى الطيور. بل وفى الخراف نفسها أو فى أجزاء منها ومن لحم البقر، ويحشون أيضا القرع الصغير أو الخيار الخ.

والأرز عندهم من الأطعمة الوطنية يأكلونه مقللا ، ويسمونهم بالأرز المقلل ويطهونه إما بالزبدة أو فى عصير اللحم (البهرين)، ويخلطون الأرز باللحم المفروم ثم يحشون به ورق العنب ويسمونهم بالورق المحشى والضلمة.

أما الفطائر فعندهم شراهة عظيمة إليها. وهم يصنعونها على طرق مختلفة وأصناف متعددة لا تجمعها بفطائرنا رابطة شبه لأن فطائرهم ترجع، على اختلافها، إلى فطائر مسطحة مستديرة يضعون بداخلها اللحم أحيانا أو القشدة أو الجبن الأبيض أو المربى أحيانا أخرى. وعلى كل حال فالشرقيون لا يستطيعون مجاراة الأوروبيين فى صناعة الفطائر أو تجهيز غيرها من الأطعمة.

وفى جميع الأحياء حوانيت تجهز فيها الفطائر مسطحة مستوية لتباع على الجمهور، ويميل العرب إلى المربيات وهم يصنعونها من العسل المتوافر بمقادير عظيمة فى أنحاء القطر المصرى. ولم يعتد المصريون أن يأكلوا، قبل ألوان الطعام المعتاده شيئا ماعلى سبيل فتح الشهية مما يسميه الأوروبيون (هوردوفر) ولكنهم يأكلون أحيانا السمك المملح المعروف بالفسيخ والبطارخ والصحناة (السردين) وبعض الخيار الصغير المخلل والزيتون الأسود وأنواع السلطات الخ. وهذه الأصناف التى تصف على المائدة ليؤكل منها خلال الأصناف. قلما تكون مقبولة فى الذوق لشدة ملوحتها أو لشدة حموضتها بسبب الخل. وإذا كان الشرقيون لا يجدون لذة فى طعم زيتنا الطازج فإنهم يجدون اللذة فى طعم زيتهم الذى اعتراه الفساد ويختتم الطعام عادة بالفواكه التى تثمرها البلاد كالشمش والخوخ والعنب والبلح الخ مما يقطف ويجنى عادة قبل أن ينضج على أمه، والمصريون يعلنون أكلها كذلك بقولهم: إن الفواكه إذا قطفت بعد بلوغها النضج كان طعمها تافها.

٣- الترتيب المتبع فى تقديم أصناف الأطعمة

تقدم أصناف الأطعمة متتابعة بعضها تلو بعض. ولا توضع أبدا مع بعضها. ولكنهم لا يتبعون فى هذا الترتيب النظام المرعى فى أوربا لتعاقب الأطعمة. فإنهم بعد تعاطى الحساء يبدأون بشواء اللحم ويثنون بأصناف الخضر والفطورات متخللة أصناف اللحم. أما الأرز المقلل فلا يؤكل إلا فى ختام الطعام.

٤- المشروبات

لايشرب المسلمون على الطعام سوى الماء صرفا . لأن الدين الإسلامى يحرم عليهم خمر النبيذ كما حرم عليهم جميع الأشربة المسكرة. وهذا التحريم فى الدرجة القصوى من الصواب والحكمة بالنظر إلى أن طقسا كطقس القطر المصرى يضر شرب المسكرات فيه بالصحة الضرر البالغ.

والمسلمون الذين يبيحون لأنفسهم شرب النبيذ وغيره من المشروبات المتخمرة قليلو العدد، وهم الذين وقع الاتصال بينهم والأوربيين فنقلوا هذه العادة عنهم. ومن النادر جدا أن تجد بين العرب من يتعاطى المسكرات بخلاف العثمانيين، ولا سيما الذين أصلهم من تركية أوربا، فإن تعاطى النبيذ عندهم شائع مألوف.

والمتعاطون للخمر من المسلمين لايتعاطونها باعتبار أنها منشط قد يفيد الشارب فائدة بدنية أو نفسية، كما هو المشاهد غالبا فى حالة التعاطى باعتدال وقناعة. وما السبب فى ذلك إلا أنهم يلتمسون بتعاطيه فقدان الرشد وضياح العقل بالسكر ، جاهلين أن الغرض من تعاطى المشروبات لم يكن الحصول على حالة تقف فيها حركة الإدراك والمشاعر وتتعدل المواهب النفسية التعطل الذى لو شعر به أوربى لما راق له أبدا.

واستعمال العرق فى مصر أكثر شيوعا وأقل ضررا من استعمال النبيذ. والعرقى الذى ألف الناس شربه فى هذا القطر هو المستخرج من البلح، ولكنه ردىء النوع، وأجود أنواعه يجلب من بلاد الشام واليونان مصنوعا من العنب، لأنه يقطر مرارا ويكتسب قوة عظيمة (تتراوح بين ١٨ إلى ٢٥ وأحيانا إلى ٣٠ درجة) والذين يقومون باستقطار العرقى نصارى القطر الذين يستنفدون منه مقادير عظيمة جدا .

ولدى المصريين نوع من الجعة (البيرة) يسمونه (بالبوظة) وطريقة تحضيرها تقتصر على تخمير الشعير. وهى كثيفة القوام جدا كمدة اللون ذات طعم ردىء فى أفواه الأوربيين، ولذيد جدا فى حلق أبناء البلاد.

٥- قهوة البن

قهوة البن هى الشراب المختار عند المصريين وضرورته لهم كضرورة التبغ للأوربيين. لأنهم إذا تذوقوه شعروا ببواعث الارتياح والسعادة والهناء وتلذذوا بطعمه رويدا متمطقين. والأغنياء والفقراء منهم سواء فى المحافظة على تعاطيها صباحا وبعد كل طعام وأصحاب اليسار منهم يشربون فى خلال النهار خمسة عشر فنجانا بل وعشرين فنجانا.

وصنف البن الذى يهيئون به قهوتهم فى غاية الجودة لأنهم يجلبونه من مخا (بيلاد اليمن) ويحمصونه كما نحمصه نحن تقريبا ولكنهم يختلفون هنا فى كونهم لايسحقونه بالطاحون بل يدقونه فى الهاون زاعمين أنهم بدقه يستخرجون منه الزيت الذى هو الأصل الفعال فيه.

وطريقتهم فى تهيئة القهوة بسيطة جدا. إذ تقتصر على وضع الماء على النار فى إناء القهوة (الكنكة) فإذا ما بدأ الغليان رفعوا الإناء وأسقطوا فيه المقدار اللازم من دقيق البن وحركوه فى الماء ثم أعادوه إلى النار مع استمرار التحريك فإذا غلا الماء وفار رفعوا الإناء نهائيا وترك زمنا ريثما يتم امتزاج الماء بالبن ثم يفرق على الفناجين. وقهوة البن المجهزة على هذا المثال لاشك فى لذتها وجودة صنعها . حتى أن كثيرين من المغرمين بشرب القهوة يفضلونها على المصنوعة منها بحسب الأسلوب الأوربى.

أما أنا فإننى مقتنع بأن فى الاستطاعة اذا اتبعنا فى تهيئة القهوة الطريقة التى استتبها (دويلوا) أن تكون القهوة أحسن بكثير من التى تصنع به على الطريقة الشرقية.

٦- الشرابات

تعاطى المشروبات المرطبة المعروفة بالشرابات كثير الشيوع فى مصر. ويقدم غالبا بعد تعاطى القهوة أو قبله. وهذه المشروبات أنواع كثيرة أبسطها الماء المحلى بالسكر والمضاف إليه ماء الورد أو ماء زهر البرتقال أو عصير البرتقال أو الليمون، ويتعاطى المصريون أيضا شراب اللوز أو بذور الشمام والبطيخ والقرع الخ. ويشربون غالبا فى نهاية كل طعام الخشاف، وهو ماء محلى

بالسكر غلى فيه من قبل الزبيب والكراز وعطر بماء الورد. وأعظم أنواع المشروبات المرطبة اعتبارا فى نظر المصريين شراب البنفسج ، وطريقة عمله أن يجرد زهر البنفسج من ساقه ويعجن بالسكر ثم يجفف. وبعد جفاف العجينة يدق دقا ناعما جدا ثم يذاب فى الماء عند الاستعمال. ويباع فى الطرقات برسم العامة من الشعب منقوع عرق السوس أو الخرنوب (الخروب).

٧- الحشيش

نرى من المناسب هنا الكلام على مجهز مخدر قد كلف بتعاطيه الشعب المصرى. هذا المجهز هو الحشيش المستخرج من القنب المصرى. وطريقة استخراجة أن تسحق ثمار هذا النبات حتى تصير إلى عجينة ثم تطبخ بالعسل والفلفل وجوز الطيب وخلصات الروائح العطرية. وبعد طبخها تصنع منها أقراص صغيرة ضاربة اللون إلى الخضرة تافهة الطعم قليلا عند المذاق. ويكفى للمرء أن يبتلع منه قطعة بحجم البندقة ليشعر فى الحال بنتائج تأثيرها. وفى بعض الأحيان يجهز الحشيش سائلا كالشراب. وعلى هذه الصورة يستعمله الفقراء. وفى الغالب يتخذ منه مسحوق يدخن ضمن ما يحرق فى نوع من الشيشة يسمى الجوزة. وهو فى هذه الأحوال المختلفة يحدث عند من يستعمله غيبوبة غريبة لاتلبث أن تتحول إلى أقوال وأفعال شاذة.

واستعمال المجهز المسكر المتخذ من القنب قديم جدا، وكان شائعا فى الأقطار الهندية منذ العصور الموهلة فى القدم. وروى المؤرخ (هيرودتس) فى الفصل الخامس والسبعين من المجلد الرابع من تاريخه أن الحثثيين كانوا يستعملونه فى حفلاتهم الدينية. وقد ذكره أيضا الحكيم (جالينوس) وشاع فى بلاد الفرس على أثر اتصالهم بالهنود. فانتقل من هناك أثناء القرون الوسطى إلى بلاد الشام ومصر حيث شاع بين مسلميها. والمحتمل أن الشيع المتعصبة التى زلزلت بفعالها أركان الشرق على عهد الحروب الصليبية تحت قيادة زعيم أطلق عليه اسم شيخ الجبل إنما كانت تعمل تحت تأثير الحشيش. ومن ثم سموا بالحشاشين، وهو اللفظ الذى حرفة مؤرخو الفرنجة بلفظة (أساسين) التى أطلقوها على أولئك الأقوام ولاتزال موجودة فى معجم لغتنا حتى اليوم.

وفى أيامنا هذه يقتصر تجهيز القنب حشيشا على عامة الشعب، فهو محصور بينهم - كما قدمنا - يأكلونه ويشربونه ويدخنونه فى القهاوى العامة

وفى حوانيت خاصة به تسمى (المحاشش) وكلمة حشاش التى تطلق للدلالة على متعاطى الحشيش تستعمل أيضا فى لغة القوم للسباب والشتيم.

والحشيش يؤثر فى الجهاز العصبى تأثيرا بالغاً من الشدة والقوة الغاية القصوى. والظاهر أنه يكسب التصور قوة وحركة فائقتين. فيصبح مخ من يتعاطاه يلتبس منه الغيبوبة والخدر مركز ازدواج أفكار غريبة بأحلام خيالية مضطربة. وبالجمله فان الحشيش يحدث تأثيرا يشعر صاحبه بشيء من الهناء ونعيم البال يزداد ويتسع نطاقه إلى أن يبلغ درجة الهذى والاختلال والشذوذ. وهو يثير الشهية إلى الطعام، ويدعو عند انتهاء التهيج المخى إلى النوم الذى تخالطه الأحلام السعيدة. على أنه لا يصيب الرأس بصداع ما ولا التنفس بشيء من الصعوبة والعناء، وهو كجميع المشروبات التى تززع أركان المجموع العصبى يصيب متعاطيه بالجمود الذى يجعله إلى الحيوانات العجم أقرب منه إلى بنى الإنسان.

٨- الأفيون

الأفيون نادر الاستعمال فى القطر المصرى، ولكنه شائع بين الأتراك الذين يميلون إلى التخدر به. وهو فى الحقيقة أليق بهم بالنظر إلى ما فطروا عليه من حب السكون والميل إلى التأمل. أما الحشيش فالمصريون أميل إليه من غيرهم لأن التأثير الملازم له يتفق مع ما جبلوا عليه من حدة التصور وسهولة الاختراع وقوة الحركة والميل إلى كل مدهش أو مستغرب.

٩- وجبات الطعام

للمصريون وجبتان فى كل يوم. الأولى قبل الظهر بساعة والثانية قبل غروب الشمس بساعة، مهما يكن اختلاف الفصول. أما الأولى فيسمونها « الغداء » والثانية « العشاء » والعشاء هو الوجبة الأساسية. وهذا هو سر العادة الشائعة عندهم من طهى الطعام بعد الظهر. وإذا لم يكن عندهم مدعوون لتناول الطعام فإنهم يحفظون ما يبقى بعد العشاء من الطعام لاستنفاده فى صباح اليوم الالى. والعادة المتبعة فى الطبقة الراقية من الأمة أن لا يأكل رب البيت أبدا مع نسائه وأولاده.

ولما لم يكن فى استطاعة المسلمين أثناء شهر رمضان أن يتعاطوا شيئا ما

خلال النهار فإنهم لا يتناولون طعاما إلا فى الليل. فإذا غربت الشمس وأذن المؤذن لصلاة المغرب انتهى الصوم وبدأوا بتناول طعام الإفطار. وقبيل نصف الليل يستأنفون كرة الأكل، ثم يتناولون طعام السحور قبل شروق الشمس. والأغنياء والفقراء منهم سواء فى اختيار أحسن ما يروق فى الأنواق من شهى الأطعمة.

١٠- الآنية والأوعية المستعملة فى الطعام

قبل أن يجلس المسلمون إلى موائد الطعام يغسلون أيديهم ، وفى بعض الأحيان أفواههم بالماء والصابون. وذلك بأن يتقدم أحد الخدم إليهم ومعه طست إبريق من النحاس أو القصدير أو الفضة، إذا كانوا أغنياء. وللطست غطاء مثقب ترتفع فى وسطه هنة تشبه الحوض الصغير. فإذا سكب الخادم الماء فى الأبريق على يدى المخدم مر من ثقب الغطاء وسقط فى قاع الطست بحيث إذا تقدم الخادم إلى مخدم آخر ليغسل يديه لا يقع نظر هذا الأخير على أثر ما من الماء الذى غسل سابقه به يديه.

ويختلف منديل الطعام (الفوطة) عما نستعمله نحن فى صيانة ثيابنا بكونه مستطيلا لا مربعا ونسججه من القطن وسطحه مغطى بوبر كوبر المخمل قبل قطعه وتسويقه. وهو فى بيوت الموسرين مزركش إما بالحرير أو القصب. وقد تبلغ قيمة الواحد منه ما يعدل ثلاثمائة إلى أربعمائة فرنك. والعادة أثناء الطعام أن يوضع منديل على الفخذين ويحمل آخر على الكتف بحيث يلتقى طرفاه على الصدر فيكون أشبه شىء بالوشاح، وهذا تكون الزركشة فيه أكثر منها فى الأول ويكون بالتالى أغلى منه ثمنا. وأغلب استعمال المناديل على هذا المثال عند العثمانيين لا عند المصريين.

والمشاركة بدويو الأصل من أهل العصر ما برحوا محتفظين فيما يتعلق بالطعام والمائدة بما تلقوه بالتسلسل عن أجدادهم من العادة التى تنحصر فى البساطة ومتانة الأوعية. ولا يزال المصريون إلى عهدنا يتوخون هذه الخصائص فى طعامهم وموائدهم كما يظهر لك من اقتصارهم فى ذلك على صينية من النحاس أو غيره من المعادن يختلف طول قطرها من قدمين إلى ثلاثة أقدام وكرسى = طبلية = بارتفاع قدم ونصف توضع هذه الصينية عليه، واجتماع هاتين الأداتين يتألف منه ما يسمونه « السفرة » التى يجلس الآكلون حولها على

المخدرات المحشوة أو على السجاجيد وتوضع أمام كل أكل قطعة من الخبز وملعة.

والشرقيون لا يستخدمون الشوكة فى تناول الأطعمة. وملاعقهم على ثلاثة اصناف، صنف لتعاطى الحساء والأرز وكل طعام سائل القوام، وهو من الخشب المعتاد فى الأسر الفقيرة، ومن خشب الأبنوس المزخرف بالكهرمان أو المرجان بل والأحجار الكريمة فى الأسر الغنية. وشكل الملاعة المصرية يخالف شكل الملاعة الأوربية من جهة أنها بدلا من أن تضيق شيئا فشيئا حتى تنتهى بطرف مدبب، تعرض شيئا فشيئا حتى يكون طرفها على شكل قوس.

والحلوى والقشدة وما شابههما عندهم ملعة خاصة. وهناك شئ من الملاعق أكثر تجوفا من الصنفين السابقين يصنع من الباغة ويشبه قعبا صغيرا وهو خاص بتعاطى الخشاف.

ولا يتخذ الشرقيون لتناول الطعام صحافا خاصة بكل منهم . بل يأخذون من الصفحة العامة حصتهم من الطعام وليست هذه الصحاف من الخزف الصينى بل من النحاس، وهى على شئ من العمق ولها غطاء تغطى به.

والأوعية المستعملة للشراب هى أنية الماء أولا. وهى نوعان. عريض الفتحة ويسمى بالقلة وضيقها ويسمى بالدورق. وتصنع القل من صلصال واسع المسام يجفف بحرارة الشمس، وخاصيتها حفظ برودة الماء بالتبخر حتى فى وقت القيظ الشديد، ويعطر داخلها عادة ببخور الأخشاب الصمغية العطرية الرائحة وبالمصطكى المجلوبة من البلاد اليونانية. ولها أغطية من الفضة أو النحاس أو القصدير أو الخشب أو ورق النخل، وتوضع فى صينية من المعدن تتلقى الماء الذى يرتشح منها، والقل فى مصر يقابلها فى البلاد الأسبانية الجرازا (الخرزة). وفى بلاد الشرق لا يستعملون الكوب لشرب الماء بل يشربون من فم تلك الأنية ممسكين برقابها، على أن أصحاب اليسار يشربون فى أكواب (طاسات) من النحاس أو الفضة المذهبة أو الذهب.

١١- آداب الطعام

ذكرت فيما تقدم أن الأكلين يقعدون القرفصاء حول السفرة، وهم إذا جلسوا كذلك أمكن أن يحيط بها منهم سبعة أو ثمانية، ونادرا ما تحتوى المائدة

الشرقية مدعوين يربون على هذا العدد فإذا تجاوزوه أقيم من الموائد بقدر ما يكفى لجلوسهم وحصول كل منهم على مكانه حولها . وقبل أن يتناول المسلمون الطعام يبسمون بقولهم : « بسم الله الرحمن الرحيم » وهم لا يستعملون الشوك فى تناوله ورفعهم إلى الفم . بل يأخذون ما يلزمهم منه بين أصابعهم فى الصفحة العامة الموضوعة وسط الصينية . وطريقة الأكل على هذا النمط اللطف مما يخطر ببال الأوروبيين الذين يسمعون هذا الوصف . ذلك لأن جميع الأكلين يغسلون أيديهم قبل الجلوس على الطعام وينظفونها بعناية عظيمة .

ثم إن الطعام يقسم قبل وضعه على المائدة أجزاء صغيرة . إما بقدر عدد الأكلين أو زيادة عليه ، بحيث أن كلا منهم يستطيع أن يصيب منه كفايته بدون تكبد عناء . ومن غير أن يلوث القطع الأخرى . ولا يشترك من أصابع اليد فى هذه العملية سوى الإبهام والسبابة والوسطى من اليد اليمنى . وكيفية استخراج القطعة أن تؤخذ كسرة من الخبز وتجعل لفقين وتوضع بين الأصابع الثلاثة المتقدمة للقبض عليها واستخراجها من الصفحة بنظافة تامة وبشيء من اللطف والرشاقة .

وصاحب البيت أو الداعى ينبغى أن يكون أول من يمد يده إلى الطعام . فإذا لم تكن له رغبة فى اللون الذى وضع أمام الأكلين فأداب الأكل تقضى عليه بأن يمسه إما بطرف إصبعه أو بواسطة قطعة من الخبز ، وبعد ذلك يتناول كل واحد من المدعوين ما يطيب له من الطعام .

وفى المآدب الكبرى التى يستدعى عدد المدعوين إليها إقامة عدد من الموائد تنتقل الأطعمة من مائدة إلى أخرى . وجرت العادة بأن تكون ألوان الطعام كثيرة جدا قد يبلغ عددها الأربعين إلى الخمسين لونا أحيانا ، ولكنها غير وافية المقدار ، فيتمتع الأكلون على هذا المثال بلذة التنقل من طعام إلى طعام من غير كبير كلفة . وتصلح فضلات الطعام غذاء للخدم .

ويلزم المصريون الصمت على الطعام . ومع إسراعهم فى تناوله فإنهم يراعون القناعة ويلتزمون الاعتدال ، إذ من الخطايا الغليظة فى نظر المسلمين أن يدأب المرء على الأكل ، وقد بلغ حد الشبع . وتبلغ مدة مكثهم على الطعام نحو ثلث ساعة . فإذا أطالوا المكث فقلما تتجاوز هذه المدة نصف الساعة . ومتى انتهى

الطعام بادر الآكلون بالقيام بمحمدلين بقولهم: « الحمد لله » واعتنوا بغسل أيديهم وأفواههم كما فعلوا قبل الجلوس إلى الموائد ورب البيت مضطر إلى التخلف على المائدة حتى ينصرف عنها الآكلون. فإذا أكلوا وغسلوا أيديهم برحها ليغسل يديه كذلك ثم يجلس المدعوون على الدواوين لتدخين التبغ وشرب القهوة.

١٢- الاقتداء بالأوربيين في تناول الطعام

هم بعض الذوات والأعيان منذ زمن بتقليد الأوربيين في طريقة طعامهم فاقتنوا صحافا كصحافتنا واستعملوا لتناول الطعام منها الشوك والمضى وقرنوها بالأكواب لتعاطى الماء. غير أن الأسلوب الأوربى فى هذا الموضوع يلقى من الصعوبات ما يحول دون انتشاره وذيوعه بين سائر الطبقات وكل ما بذل من المساعى فى هذا السبيل حتى الآن كانت نتيجة التقليد الأعمى الذى ينافى الطبع والذوق. فلقد شهدت بعينى رأسى جماعة منهم اقتنوا أفخر ما يكون من الأنية الخزفية يشربون الحساء فى الصحاف = الأنية = الفرطاحة الصغيرة الخاصة بتناول الحلوى والعكس بالعكس، وشهدت غيرهم يشربون النبيذ المعتاد فى أقداح الشمبانيا وغيرهم يجمعون بين النمطين الشرقى والغربى فى تناول الطعام فيمسكون اللحم فى الصحيفة = الإناء = بأصابعهم ثم يرفعونه إلى أفواههم بالشوكة بعد طعنهم إياه بأسنانها. وكثيرا ما يحدث فى المائدة التى تقام على النمط الفرنسى أن المصرى الذى تقدم إليه الصحيفة ليأخذ منها كفايته يتناولها من يد مقدمها ويضعها أمامه ليختص نفسه بكل ما يحتويه. وخدام السباط الموكلون بتفريق الطعام على الآكلين لا يدركون حقيقة واجباتهم فى مثل هذه الظروف، دع أنه بسبب ما يصيب الأنية من التلف والعطب لغباوتهم وسوء خدمهم، يصبح من المتعذر الاستعاضة عنها بغيرها.

١٣- طعام الفلاحين

عرف الفلاحون بالقناعة فى المأكول والمشرب والاكتفاء منهما بما يسد الرمق، وخبز الذرة قاعدة غذائهم بل وكثيرا مايكون الغذاء الوحيد الذى يعتمدون عليه. ويحدث أن يضيفوا إليه، إذا استطاعوا، الفول المدمس الموضوع فيه بعض السمن والملح، أو الأرز أو البلح أو الخيار أو الشمام أو الكرنب أو البسلة أو الجبن المالح أو اللبن المخضود أو الفسيخ أو لحم الجاموس الخ، ولايتعاطون من السوائل سوى الماء القراح وقهوة البن.

(٣) الأثاث

ملحوظات عامة - المنظرة: الدركسة والليوان والديوان - زخرفة
الجدران والسقف - الرفارف والبراويز الحائطية - زجاج النوافذ
وحديداتها والفرش - مفروشات الفقراء

١٤- ملحوظات عامة

ترى فى غضون تفاصيل الحياة الداخلية المنزلية للعرب والأتراك آثاراً تدل
على أصولهم البدوية، ويتبين منها أن احتفاظهم بالتقاليد كان من الشدة بحيث
لم تؤثر معيشتهم الحضرية منذ بضعة قرون فى شكل الأمتعة التى يؤثثون بها
منازلهم. فإن الناظر إلى أثاثهم أول ما يخطر بباله أنهم ما برحوا على
الاستعداد التام للرحيل، كما لو كانت المنازل التى يسكنونها أقل استقراراً
وثبوتاً من الخيام التى سرعان ما تقوض لتضرب فى مكان آخر.

ومعنى هذا أنهم يربأون بأنفسهم عن اقتناء الأثاث والأمتعة الثقيلة المتعدرة
النقل التى يؤثث الغربيون بها منازلهم، ويظهر منها أنهم أخذوا على الزمن عهداً
ببقائهم فيها طول المدى. فإنك لا ترى فى حجراتهم لامكاتب للكتابة ولا مناضد
ولا خزانات للثياب ولا ماجرى مجراها من الأثاث التى تألف مزية الانتفاع فيها
بالإسراف فى الزخرفة والتنميق، والمرايا الصافية الأديم والأرائك الناعمة،
والزرابى المبتوثة، والكراسى المصفوفة، والتماثيل المتقنة، والساعات الدقيقة
الصنع.. الخ بل إن متاعهم روعى فيه الإقلال مع البساطة فلم يعد شاملاً لشيء
سوى حصر السمار والسجاجيد والطراحت. فالشرق لم يكن المكان الذى
ينبغى أن يقصد إليه الإنسان للبحث عن تحف البذخ وطرف الرفاهة والنعيم
التي تفنن الغربيون وحدهم فى أساليب ابتكارها، ويرجع فضل تحقيقها
وإيجادها إلى عبقرية العلماء والفنانين منا ومهارة عمالنا وجودة صناعتهم،
والواقع أن الشقى الذى يلذ لبعض الشعراء الخياليين تصويره فى قصره أو
داخل حرمة متقلبا فى الهناء والنعيم وسط ما يعجز القلم عن وصفه من مظاهر
الأبهة والجلال يعيش فى قصارى ما يخطر بالبال من وسائل البساطة والتكشف
والقناعة بالقليل.

١٥- المنظرة والدركة

لا يلتفت النظر من حجرات البيوت المصرية كالمنظرة - أى غرفة استقبال الرجال. والمنظرة غرفة مربعة أو مستطيلة تحتوى نافذة أو نافذتين تطلان على صحن الدار. وجزء من الأرض الممتدة بين باب المنظرة والجدار المقابل ينخفض بمقدار خمسة إبهامات أو ستة عن بقيتها ويسمى « الدركة » والعادة فى منازل الأغنياء أو الأثرياء أن توجد بوسطه فسقية ينبثق الماء منها على الدوام ، وأن تبلط بالبلاط المختلف الألوان على أشكال هندسية جميلة وبأحد طرفيها المقابل للباب قاعدة مبنية بالحجر ومستندة إلى الجدار بارتفاع ثلاثة أقدام أو أربعة ذات أقواس وحنيات محمولة على أعمدة صغيرة وتسمى « الصفة ».

والغرض من الصفة احتواء آنية الطيب والبخور وأدوات غسل اليدين قبل الطعام ويعدده والوضوء وقلل الماء وصينية القهوة الحاملة للظروف والفناجين الخ. وفى المنازل المنمقة تحلى حنيات الصفة وأقواسها والبناء الذى تحمله بالغضائر القيشانى.

١٦- الليوان

يسمى الجزء المرتفع من أرض المنظرة بالليوان وهى كلمة معناها المكان المرتفع. ويبلط الليوان عادة بالبلاط المعتاد. لأنهم يفرشونه فى الصيف بحصر السمار وفى الشتاء بالسجاجيد وحول الجدران الثلاثة المحيطة بالليوان تمتد الدواوين (الكنبات).

١٧- الديوان

تطلق لفظة الديوان من جهة عامة على الحجرة برمتها، ومن جهة خاصة على صفوف مؤلفة من طراحات طويلة أو قصيرة يبلغ عرضها عادة قدمين ونصفا وسمكها من أربعة إبهامات إلى خمسة. وهذه الطراحات تفرش إما على وجه الأرض مباشرة، وإما على دكاكين من الحجارة أو ألواح مرتفعة من الخشب أو أقفاص متخذة من سعف (جريد) النخل بحيث يبلغ ارتفاعها من خمسة إبهامات إلى ستة. وتكون بما عليها فى ارتفاع الكراسى المعتادة تقريبا. والطراحات تتخذ من القماش وتحشى إما بالقطن وإما بالأسبطة = الليف = فى الأسر الفقيرة. وهناك مساند يبلغ ارتفاعها قدما ونصفا فى ضعف هذا

العرض طولا تصف مستندة إلى الجدران في وضع عمودي على الطراحات لكي يستند الجالسون إليها.

وتكسى الطراحات عادة بالجوخ إذا كانت معدة لجلوس الرجال، وبالقماش الهندي (الشيت) أو الحرير المزركش بأسلاك الذهب إذا كانت معدة لجلوس النساء، وتنتهى هذه الأغطية، سواء كانت جوخا أو قماشاً في أطرافها السابلة إلى أسفل مقدمة الديوان بالرفرف أى السجف، مما المساند فيغطي وجهها الظاهر فقط بقماش من نوع الذى غطيت به الطراحات وغالبا ما يكون هذا القماش موشى بالطرازات المختلفة الأشكال والألوان من الحرير.

١٨ زخرفة الجدران والسقوف

تغطى الجدران فى مصر بالقماش، وإنما تبيض بالجير فى منازل الفقراء وتطلى بالزيت فى دور الأغنياء. ولما كان الشرقيون لا يمارسون التصوير لما ورد فى الشريعة من النصوص القاضية بتحريم تمثيل الصور البشرية فإن ما تخطه أقلام الفنانين منهم فى الزخرفة لم يكن إلا رسما غليظا لا أثر فيه لأصول الفن ودقائقه فإنهم إذا تصدوا لرسم شىء لا يراعون فيه نواميس الضوء ولا أحكام المنظور ولا مقتضيات الذوق. وكل ما تتناوله أقلامهم بالتصوير رسم القصور والمآذن والأشجار والحدائق والفسقيات.. الخ وكلها لا أثر فيه - كما قلنا - من طلاوة الفن وحسنه. على أنهم يبرعون بتفوق عظيم فى الرسوم العجيبة المؤلفة من الخطوط والزوايا والدوائر، ويجمعون فيها كل ما ابتكرته عبقرية العرب فى فن التصوير الهندسى، ويجعلون السقوف من الخشب عادة تذرعا إلى تصوير تلك الرسوم عليها.

١٩- الرفارف والبراويز

القاعدة العامة فى النظام الهندسى للدواوين أن تتخلل جدرانها الرفارف والدواليب الصغيرة، ويصفون على الأولى أنية الخزف الصينى وعلى الثانية أدوات المائدة. وأخشاب هذه الرفارف والدواليب تتألف كما يشاهد فى جميع البيوت تقريبا من قطع صغيرة متعاشقة بعضها فى بعض ومنسقة بحيث تتكون منها رسوم تشبه ما تحتويه منها الغضائر القشاني . وهناك سبيان لصناعة الأثاث المصرية على هذا المثال. أحدهما قلة الخشب فى القطر المصرى، فتراهم

يتوخون هذه الطريقة للانتفاع بالقطع الصغيرة منه، والثانى إن حرارة الجو تدعو إلى انشقاق القطع الكبيرة من الخشب كالألواح الكبيرة التى ، إذا استعملت، لا تلبث أن يصيبها هذه الطارىء.

٢٠- زجاج الشبايك والمفروشات

ذكرت خلال وصفى للمنازل المصرية بعض الشئ عن الشبايك، وأضيف الآن إلى ما ذكرته عنها أنه ليس لها دفتان كما هو الحال فى أغلبها عندنا. فإن حلوقها تنقسم إلى قسمين أحدهما وهو الأعلى يظل ثابتا لا يتحرك والآخر وهو الأسفل يتحرك بحركة رأسية صعودا وهبوطا. والزجاج المركب فيها ردىء الصنع مهمل الشأن. إذ يحدث أن ألواح الزجاج فى بيت أصبح عتيقا لا تكون قد غسلت مرة واحدة منذ تركيبها فى مكانها. وهى إذا انكسرت يباعث ما، قلما يفكر فى الاستعاضة عنها بغيرها، لأن الخشب المركبة فيه مصنوع بحيث تستلزم عملية وضع الزجاج الجديدة تفكيك أجزاء الشباك برمته. وقد اعتاد المصريون أن يعلقوا أمام نافذتهم قطعة من قماش الشيت أو القماش الهندى، وفى النادر قطعة من الحرير بمثابة ستار لا يتجاوز طوله طول النافذة. ولا يحلى بشئ ما من الرفارف (السجف) أو غيرها مما اعتيد زخرفة الأستار وتنميقها به.

٢١- الأدوات الأخرى لتأثيث المنازل

رأينا فيما سبق أن الشرقيين لا يستعملون الأسرة لنومهم، وذكرنا كيف ينامون وأن ليس للنوم عندهم غرف خاصة. ونقول الآن انهم لقضاء ليلهم، إذا كان الفصل صيفا، يضعون الطراحات على الدواوين ثم يرقدون فوقها، إذا كان شتاء يبسطون هذه الفرش فى غرفة صغيرة تسمى بالخزانة تكون عادة من الغرف الملحقة بالمنظرة. ولانتشار الحشرات فى مصر ترى الأغنياء وأصحاب اليسار يتقنون شرها بالكلل (التموسيات) المتخذة من القماش أو الحرير الموسلين أو الخز = الحرير = أو أى نسيج آخر دقيق السلك، وبواسطة هذه الأقمشة يضربون الكلل فوق الطراحات فتكون بمثابة الظلة لها، ويثبتونها من زواياها الأربع بحبال دقيقة تناط بحلقات موضوعة بالجدران الأربعة للغرفة.

وتبلغ الكلل أحيانا من العظم ما يجعلها تشغل الديوان كله تقريبا، وتحمى

من البعوض أسرة برمتها. وفي بيوت الأغنياء تزخرف الكلل بالنقوش ومتى انقضى الليل واستيقظ النائمون نزعوا من مكانها وطويت لتتشر مرة أخرى قبيل الرقاد.

وليس لدى الشرقيين دواليب لحفظ الثياب. لأنهم يكتفون في صيانتها، بجعلها صرة تحيط بها مناديل كبيرة تسمى (البقجة) ويتخذون لكل نوع من الثياب بقجة خاصة به. ولما كانت المجاسد - أى الثياب التحتية لا تكوى ولا تشنى بواسطة النار في مصر، وكان استعمال القبعات والمنقبات (الدانتلا) مجهولا من نسائها فإن هذه الثياب تلبس غير معرضة لعبث العابثين بها، فضلا عن أن صرها في البقج يجعلها أيسر حملا وأسهل استعمالا عند الحاجة.

ولا تقع عين الناظر بمصر من المرايا إلا على الصنف الرديء الرخيص الثمن الوارد من مدينة البندقية. وهذا لا ينفى أن هناك عددا من المرايا الجميلة التي أخذ بعض العظماء وذوى الحثيات يستوردونها من البلاد الأوربية.

ولدى أصحاب الوجاهة والثروة من الأهالي ساعات حائطية آلاتها من الخشب أو النحاس، وهى مما تصنعه المانيا برسم التصدير إلى الشرق الأدنى. والمصريون مغرمون باقتناء هذا النوع من الساعات إلى حد أنك لتجد فى الحجرة الواحدة ساعتين، وفى بعض الأحيان ثلاث ساعات من هذا النوع.

ولقد سبق لنا الكلام على الصينية التى يتناول المصريون حولها الطعام كما تكلمنا عن الأشياء المختلفة التى تصلح لهذا الغرض فلا حاجة إذن إلى استئناف الكلام عنها.

أما الشمعدانات فمن النحاس بوجه عام. وليس فى مصر شئ من المصابيح التى نراها فى غرف الاستقبال الكبيرة عندنا تفيض النور على جوانبها فتجعلها ساطعة الضياء. لأن الشرقيين ما برحوا عاكفين على استعمال المصابيح الغليظة التى كان يستصحب بها أجدادنا منذ بضعة قرون، ويستعملون أيضا للاستصباح شمعا من الدهن رديء الصنع جدا غير أن لدى الأغنياء ثريات من زجاج البندقية.

وقد أدخلت إلى مصر وفى السنوات الأخيرة أشياء كثيرة تؤثث بها المنازل عندنا فى بيوت العظماء والأثرياء، ولست أذكر بهذه المناسبة قصور أصحاب

السمو التى بما احتوته من نفيس الرياش وفاخر الأثاث تعد مستكملة لحاجيات الحضارة الأوروبية.

٢٢- أثاث الفقراء

أما الطبقة الدنيا فليس لديها من الأثاث بالطبع مثل ما لدى اصحاب اليسار، وإن يكن فى حد ذاته على شىء كثير من البساطة والسذاجة. ذلك لاقتصار الفقراء، فى تأثيث بيوتهم، على حصيرة سمار وسجادة وطراحة وبعض مساند أو مخدات. أما الفلاحون فيقتنون حصيرة واحدة ويتخذونها فراشا لنومهم وكرسيا لجلوسهم، ومائدة لطعامهم.

وليس عندهم من الأوعية إلا بعض آنية من الصلصال وهاون لصحن البن وتنكة لعمل القهوة وشبك للتدخين . ذاك كل ما يتألف منه أثاثهم ، وليس فى الأمر ما يستغرب. لأن هذا الأثاث أوفق ما يكون لحالة الأكواخ التى اتخذوها مساكن لهم.

(٣)

آداب الاجتماع

بيانات عامة- التحية- القواعد المرعية فى الاستقبال بالديوان - أى مكان الجلوس- القهوة- الشبك .

٢٣- بيانات عامة

تنزل آداب الاجتماع من أمة بمنزلة الحركات والأشارات والأوضاع من الفرد. فآداب الاجتماع حالات تكشف النقاب عن حقيقة أمة بأسرها بل هى، فى يد الباحث الراغب فى تصوير حضارة أمة من الأمم، الذى لا ينبغى له أن يطره = يمدحه = لأنه خير ما يبلغ به إلى غايته فى تشكيل كيائها.

وثمة اعتبارات لاشك فى أنها مما تقدم ارتباطا بالفلسفة، ولكنها ترمى إلى غرض المنفعة، تدعونى فى هذا المقام إلى سرد بعض القواعد والأصول التى تنظم المعيشة اليومية للوطنيين المصريين، وسيسر الرحالون الذين يطوفون فى الشرق، قبل أن يلموا مقدما ببعض أخلاقه وعاداته، أن يجدوا فى البيانات المبسطة فى هذا الفصل متنا وجيزا لقواعد آداب الاجتماع الشرقية. ويتلوتهم

هذا المتن والمأمهم بما يحتويه يآلفون شيئاً فشيئاً الآداب المرعية عند المسلمين ولا ينتابهم من الحيرة والاضطراب ما ينتاب الذين يختلطون بأمة دون العلم بشيء من عاداتها وأخلاقها. وأية حيرة للرحالة الأجنبي من أن يجد نفسه تجاه أخلاق وعادات لا يفهم منها شيئاً. الا يكون شأنه - وهذه حالته - شأن من يحتاج إلى درس لغة جديدة للتفاهم مع أبنائها؟ أما إذا ألم بما يجهله من أمرها فإنه يسهل عليه تبين حقيقة مدنيّتها فيجتهد في التوفيق بين سلوكه وعاداتها وأخلاقها.

٢٤- التحيّة

في الغرب، إذا ساقّت المصادفة شخصين إلى الالتقاء في الطريق ، فإننا نرى الذي يستشعر منهما بسمو الآخر عليه في الوجاهة أو العلم أو الثروة يبتدره بالسلام. أما في الشرق فصاحب المرتبة العليا هو الذي يفتح صاحب المرتبة الدنيا به.

فبين التحيات عند الشرقيين تفاوت يرتبطا ارتباطاً وثيقاً بمراتب الذين يتبادلون التحيّة. فالنظيران إذا التقيا مثلاً سلم كلاهما على الآخر بيده اليمنى رافعا إياها إلى الفم ثم منه إلى جانب الرأس فإذا لم يكن التساوى بينهما تاماً، كأن كان هناك تفاوت يميز أحدهما على الآخر. فالأرفع درجة من الاثنين هو الذي يجب عليه أدباً أداء التحيّة بالوصف الذي أوردناه. ولكن يجب على من يتلقى التحيّة في هذا الحالة أن يردها بمثلها أو أحسن منها، وذلك بأن يحني رأسه وجسمه إحناء خفيفاً. أما إذا أريد تحية شخص من الطبقة الدنيا فالعادة الاقتصار فيها على رفع اليد إلى الصدر. وفي هذه الحالة يجب على من يتلقى التحيّة أن ينحني انحناء محسوساً ويرسل يده اليمنى إلى أسفل لكي يرفعها بعد ذلك إلى الرأس، وإذا كان أحد أفراد الطبقة الدنيا في حضرة أمير أو كبير فقد وجب عليه تأدية التحيّة على المثال المتقدم بكلتا يديه.

وفي تحية النظير للنظير يستمر الاثنان على السير في طريقها. فإذا كان هناك فرق في المراتب، فالواجب على الأدنى مرتبة أن يقف ويواجه الذي يجب عليه رد التحيّة إليه.

وتصحب التحيّة التي تعبر عنها الإشارة بكلمة (صباح الخير) أو (مساء)

(الخير) أو (نهاركم سعيد).

وإذا التقى إثنان فى طريق تساءلا عن أحوالهما الصحية وعن كيفهما ومزاجهما. وأبناء الطبقة الدنيا يكررون هذا السؤال بتكرار الكلمات الآتية (أزيك) (طيبون) الخ. مع التصافح باليدين من غير ضغط ورفعها إلى الفم فى كل مرة يوجهون فيها السؤال.

ونادرا مايستفهم من الشخص المسلم عليه عن أخبار أفراد أسرته وخصوصا النساء منهم. فإن الآداب الإسلامية تستدعى إمساك الرجل عن توجيه التحية إليهن. ولاشئ يخالف مقتضى الآداب الأوربية من تلك الآداب الإسلامية كالعمل بهذه القاعدة.

حقا إنه ليتعذر جدا تمييز النساء بعضهن عن بعض وهن مؤثرات بذلك الإزار الذى لايرى من خلاله شئ يعرفن به، ولكن الواجب بحسب تلك الآداب، حتى فى حالة العلم بهن التظاهر بجهلهن، وإلا عد ذلك من المخالفات التى لا تتفق مع أصول الحشمة والصيانة. ثم إن النساء لايسلمن بعضهن على بعض فى الطريق.

٢٥- القواعد المرعية فى الاستقبال بالديوان

الديوان هو اليهو المخصص لاستقبال الرجال. وقد ذكرت فيما تقدم ترتيبه وقائثته، وأذكر الآن أن الواجب على من يغشى هذا المجلس أن يترك حذاءه عند الباب أو فى الجزء الواطئ من البهو « الدركة » حتى لا تتسخ الحصر والسجاجيد بالقذر أو يصيبها شئ من الدنس الذى لا يتفق مع القيام بفرض الصلاة عند المسلمين. وليس على من يغشى المجلس أن يوجه التحية إلى الحاضرين، كلا بل إن رب البيت هو الذى ينهض واقفا عند دخوله إذا كان من أهل مرتبته ودرجته. فإذا كان أعلى منه مرتبة ودرجة أقبل عليه وتنحى له عن مجلسه. أما إذا كان أحط منه مرتبة فليس على رب المنزل إلا أن يتحرك حركة يوهم بها أنه يهم بالوقوف، ولكنه يبقى مستقرا فى مكانه ثم يشير إليه بالجلوس فيجلس على الحصير أو السجادة أو بحافة الديوان معلقا إحدى ساقيه وثانيا الأخرى تحته تبعا لما يريد أن يظهره من التوقير والاحترام لرب البيت. وإنما يجب عليه فى هذه الأوضاع المختلفة أن يجعل يديه مشتبكتين على أسفل

البطن. أما رجال الجندية فيضعون يدهم اليسرى على مقابض سيوفهم.

وفى مجلس سمو والى مصر يظل الحاضرون جميعا وقوفا على أقدامهم، حاشا الأمراء من أعضاء الأسرة الحاكمة والباشاوات وأكابر رجال الدين. ولم يتبع سموه هذه العادة مع الأجانب - ولا سيما الأوروبيين منهم - فإنه يدعو إلى الجلوس جميع الأجانب الذين يقدمون إليه.

أما الإفرنج الذين فى خدمة مصر، فإنه يطلب منهم مراعاة عادات الشرقيين فى كل أمر.

ولكبار الضباط فى دار الوزير حق الجلوس على الديوان. كما أن لضباطهم حق الجلوس فى حضرته، وهكذا بحسب ترتيب الدرجات فى هيئة الاجتماع العسكرى.

ويجلس الذين يغشون مجالس سمو الوالى بعضهم إلى جانب بعض بحيث يكون أسمائهم مرتبة وأعلامهم مقاما أدناهم منه. على أن هذه القاعدة الأدبية غير مرعية دوما. فقد شوهد سمو الوالى وكثير من العظماء يهملونها فى بعض ظروف معيشتهم حتى أنك لتجد الأمير فى بعض الأحيان يلعب الشطرنج مع أحد خدمه ويأذن له بالجلوس على الديوان من أجل ذلك.

ومتى انتهى المجلس يقوم الحاضرون بدون أن يفوه أحدهم بكلمة ويتراجعون إلى الخلف صارفين وجوههم نحو صاحب الدار حتى لا يولوه أدبارهم أو أكتافهم. وعليه فى هذه الحالة أن يجيبهم وهم يجاوبون على تحيته وينصرفون تباعا. وقد ينهض رب البيت واقفا أو يصحب بعض الزائرين إلى الباب، إذا اقتضى أحد هذين الأمرين مكان الزائر المنصرف ورفعته قدره.

والسيدات تتبعن بينهن هذه القواعد وتعملن بها فى استقبال الزائرات. وهذه العادات الأهلية التى حفظتها التقاليد وجعلتها راسخة ثابتة رسوخ الحضارة التى اشتقت هى منها معروفة ومرعية من الجميع، والكل مجمعون على ضرورة الاحتفاظ بها واستدامة وجودها بالحرص على اتباعها حرصا يكاد يكون إيمانا أو يقينا دينيا.

٢٦- قهوة البن

مما لا يختلف فيه اثنان تعاطى قهوة البن فى أنحاء بلاد الشرق، فإن الشرقيين يقدمونها إلى جميع الذين يحق لهم الحضور فى مجالسهم. فالباشا الذى يتلقى فى دار حكومته أميرا خطيرا أو عظيما من العظماء أو قاضيا جليلا يقوم نحوهم بهذا الواجب الأدبى، ويكفى أن يلفظ بكلمة القهوة ليكرر أحد كبار الخدمة هذه اللفظة خارج الغرفة بصوت جهورى مستطيل، وفى هذا النداء دلالة على الاحترام العظيم لشخص الزائر.

أما اذا كان المزور أقل من ذلك شأنًا وأحط رتبة فليقتصر على طلب القهوة بنفسه واصفا إياها بوصف الجودة.

وتشرب القهوة فى أنية صغيرة من الخزف الصينى تسمى بالفناجين، وهى تشبه قشر البيض مقلوعة نصفين من وسطها وتوضع الفناجين فى قوائم يسمونها بالظروف وهى أشبه شئ بالأنية التى يوضع فيها البيض النمرشت. والظروف تصنع عادة من الفضة أو الذهب أو المينا، وترصع أحيانا بالأحجار الكريمة. وعند الفقراء يكون الفنجان من الخزف الصينى والظرف من النحاس، وتصف عشرة فناجين إلى اثنى عشر فنجاناً، وقدر هذا العدد من الظروف على محيط صينية من النحاس أو الفضة ترتفع بوسطها كنكة القهوة التى تتخذ من أحد تلك المعادن، وتغطى الصينية عادة بقطعة مستديرة من القماش المزركش بالذهب أو بغيره بحسب مقدرة رب المنزل.

ويقوم الخدم أو العبيد بصب القهوة فى الفناجين ثم بتقديمها إلى الحاضرين ممسكين الظرف من أسفله بأطراف الأصابع فيتلقى الزائر الفنجان بالقبض على الظرف بالإبهام والأصابع الثلاثة التالية له من اليد اليمنى. وتقدم القهوة فى أول الأمر إلى الشخص الذى يؤهله مقامه أو رتبته أو ثروته لأن يحوز شرف الأسبقية على غيره فى الخدمة، فإذا وجد بين الحاضرين أكثر من واحد يستحقون هذا الاعتبار فإن فناجين القهوة تقدم إليهم فى آن واحد وعليهم قبل تناول الفنجان الذى يقدم إليهم أن يحيوا بعضهم بعضا. أما إذا كان الزائرون أحط مرتبة من المزور فلا يصح تقديم القهوة إليهم إلا بعده بحسب ترتيب مجالسهم منه، والواجب عليهم فى هذه الحالة أن يحيوا صاحب البيت

بالإشارة قبل تناول الفنجان وكما تلقى تحية أجاب عليها برفع فنجانته إلى موازاة وجهه وعلى أثر هذه المظاهر الأدبية يشرب كل القهوة التى قدمت إليه.

ولا ينبغى فى شرب القهوة أن تشرب إلا مصا بطرف الشفتين ومن غير إمالة الفنجان، ومن يريد من الحاضرين إظهار الاحترام للمزور باعتبار كونه أرفع منه شأنًا فعليه أن يتحول برأسه عنه تحولا خفيفا وأن لا يشرب من القهوة إلا الشيء اليسير منها.

وقد سرى قانون الآداب الإسلامية حتى على الكيفية التى ينبغى أن يرد الفنجان بمقتضاها إلى من قدمه. فإنه يقتضى فى حالة ابتعاد الذراع عن الجسم لرد الفنجان أن يكون هذا الابتعاد خفيفا وأن لا يصحبه كلام مع الخادم وإنه متى تناوله هذا الأخير منه يؤدى بإشارة التحية كما أداها وقتما قدم إليه.

وقد ألف الخدم فى أخذ الفنجان عادات وطرائق تشبه التى يقدمونه بمقتضاها رقة وأدباً. ذلك لأن الفنجان لا يحتوى على بروز خارجى فإنه حينما يتلقاه يفعل ذلك بحركة لطيفة بوضعه يده اليمنى على فتحة الفنجان وتركيزه قاعدة الظرف على يده اليسرى.

ولا يجوز التحدث مع رب البيت فى عمل إلا بعد شرب القهوة. فإذا ابتدره الزائر بالحديث فى المصلحة التى ساقته إليه قبل ذلك كانت هذه المسارعة تهجما لا مبرر له. بل مسلكا لا يليق بالمتأدبين وهذه العادة يستند البعض إليها فى إقامة الدليل على كسل الشرقيين ودعتهم وتهاونهم والتى يبدو - أول وهلة - أنها مضیعة للوقت فيما لا جدوى منه ترتجى لاتخلو من الفوائد والمزايا. لأنها تفتح للزائر والمزور معا طريقا للانتقال الضالّح من المشاغل التى كان خاطرها مشتغلا بها قبل الزيارة والتى سيشغلان بها فى خلالها. وبهذه المثابة لا يحسب المزور أن الزائر أخذه، بزيارته إياه فى الوقت غير الملائم أو فى الأوان الذى كان لا يتوقع فيه زيارته، على غرة منه. لأنه بما ينقضى من الوقت أثناء تعاطى القهوة يكون قد أخذ الأهبة للمفاوضة فى الموضوع الذى يعرف أن زائره جاء من أجله واستعد له استعدادا فكريا.

ومن جهة أخرى فإن الزائر نفسه يجد، أثناء تعاطيه القهوة، فسحة من الوقت للتمعن فيما سيلقيه من القول على المزور وتنسيقه على الوجه الذى يراه

أسهل تتاولا على الفهم أو أبلغ فى الإقناع بالحجة. وإذا فرض أن أحدهما أو كلاهما كان حينما وقع نظره على صاحبه قد ثارت فى نفسه ثائرة الغضب أو اعتراه الحياء أو تملكته إحدى العواطف المؤثرة فى النفس فإن الوقت الذى ينقضى فى تبادل التحيات والتسليمات وشرب القهوة يمهد للغاضب سبيل الفينة = العودة = إلى السكون والحلم اللذين لابد منهما فى كل مفاوضة أو مناقشة.

٢٧- الشبك = الشيشة =

ليس فى استطاعتنا - إذا كنا فى أوروبا - أن نصور لنفسنا منظر تركى وليس بيده شبك يستثير الدخان منه. وما من أحد فى الشرق إلا وهو مغرم بتدخين التبغ. إلا أن القوم يسلكون فى تدخينه مسلكا يدل على تفوقهم فى سلامة الذوق ورشاقة الحركة وما إلى غيرهما من المظاهر التى يندر أن يتصف بها المدخنون عندنا.

والشبك أداة يستجلب الشرقيون بواسطتها لذة تحولت فى نفوسهم، كعادات كثيرة غيرها، إلى طبيعة ثابتة. وللطرق المستحدثة والثروة تأثير فى الشبك باعتبار كونه إحدى الأدوات المنزلية التى يفضلها المدخن على غيرها، والأجزاء الثلاثة التى يتألف الشبك منها هى: الفم والأنبوبة والجوزه أو الحجر.

فالقم ويسمى أيضا التركيب هو الجزء الذى يوضع بين الشفتين لاستنشاق الدخان، ويكون عادة من الكهرمان رقيقا أو غليظا قصيرا أو طويلا، وعلى كل حال مناسبة لطول الأنبوبة مع اختلاف فى الشكل والزخرف اختلافا يوافق مزاج صاحبه وميله. ويبلغ ثمن القم عادة، إذا كان من الكهرمان، من خمسين فرنكا إلى خمسمائة فرنك. ومن الأقسام ما يتجاوز ثمنه هذا الحد، ويكون مزخرفا بالمينا أو مرصعا بالأحجار الكريمة. ويقتصر الفقراء على اتخاذ أقمامهم من القرن أو سن الفيل.

ويختلف طول الأنبوبة من قدمين إلى ستة أقدام، وتصنع إما من أعواد شجر الكراز أو الياسمين أو أى خشب سواهما وتكسى بالحريز. وإذا كان صاحبه من ذوى اليسر والقدرة كسا طرفيها، بطول أربعة إبهامات أو خمسة، بالفضة أو الذهب أو المينا، وربما رصعها بالأحجار الكريمة. أما الفقراء فيقتصرون على الخشب المعتاد فى صناعة الأنابيب لشبكاتهم وربما اكتفوا بقطعة من البوص

لهذا الغرض.

اما حجر الشبك فلا يكون من غير الصلصال المحروق وله أحجام مختلفة ويحلى بنقوش على النمط العربى، وتختلف الأحجار عن بعضها بحسن رونقها وجمال نقوشها ليس إلا.

ولم يكن التلهى وقطع الوقت بتدخين الشبك وقفا على الرجال فقط، فإن النساء يقطعن فراغ وقتهن أيضا بتدخينه داخل الحرم. وهذه العادة أقل شيوعا بينهن منها بين الرجال. ثم إن النساء لايجهرن بالتدخين، وانما يدخن فى حجراتهن بعيدا عن الأعين، وشبكاتهن أجمل رونقا من شبكات الرجال لكثرة ما فيها من الزخرفة .

ويستعمل المسلمون للتدخين أجود أصناف التبغ ويعطرونه أحيانا بماء الورد وبقطع صغيرة من العنبر يخلطونه بها فيكون الدخان الذى يستنشقونه عطرى الرائحة محبوبا فى الشم. ويتخذون أثناء التدخين أوضاعا تتم عن الوقار والهيبة من جهة وعلى الدعة والسكون من جهة أخرى، دع أنها تساعد على المضى فى التأمل والسبح فى أجواء التصور. وجلال تلك الأوضاع مضافا إلى أطوال الشبكات وسحب الدخان العطرى المتصاعدة أكاليل بعضها تلو بعض والظروف والأحوال التفصيلية الأخرى، مما يساعد على تحبيذ تلك العادة التى تبدو لنظر الأوربيين مجردة من مظاهر الرقة ومنافية للذوق السليم.

وكان لابد للشبك أن يدخل، وله مذكرنا من الشأن والمكانة، فى دائرة الآداب الاجتماعية. غير أن استعماله أقل شيوعا من استعمال القهوة، ولهذا كانت القواعد المرعية بشأنه مقتصرة على أنه لايقدم عادة إلا من الرؤوس لرئيسه أو من النظير لنظيره. فمن النادر إذن أن يقدمه الرئيس لمؤوسه، وإذا قدمه فلا يكون ذلك إلا لقصر مدى التفاوت بينهما فى الدرجات، وشكل الشبك وحليته يدلان على درجة الاحترام الذى يستحقه من يقدم إليه. ومن ثم كان للشبك درجات تبلغ الخمس أو الست بينها من التفاوت والاختلاف مايجعلها منطبقة على أقدار الذين تقدم إليهم .

ثم إن الاحتفال بتقديم الشبك ينبغى أن يتفق مع الأساليب الإسلامية الممتازة بالركة فى الأدب. فإن الخادم المكلف بتقديمه لايمسك به إلا من أسفل

الأنبوية فى النقطة المتوسطة من طولها. ويكون إمساكه بثلاثة من أصابع اليد اليمنى فقط كما يمسك قلم الكتابة مع العناية بجعل الحجر إلى الامام. فإذا ما وصل تجاه الشخص الذى يراد تقديمه إليه أسند الحجر إلى الأرض بعد أن يكون قد قاس بنظره المسافة الفاصلة بينه وبين هذا الشخص بحيث يجعل أنبوية الشبك، بعد ارتكاز الحجر على الأرض، تتحرك حركة يرسم الفم فيها ربع دائرة يلتقى فى نهايتها بنقطة فى متناول فم الضيف الذى يقدم إليه.

ويقدم الشبك كما تقدم القهوة إلى الذين يحلون المكان الأول من مجلس صاحب البيت ثم إلى الذين يلونهم يمنا ويسرة، وهذا على حسب ترتيب المواضع. والواجب فى هذه الحالة على من يقدم إليهم الشبك أن يتلقوه بالتحية لرب البيت. وإذا كان على الزائر للمزور فروض احترام وتعظيم إما لجاهه أو وجاهته أو ثروته أو غير ذلك فمن الأدب المستحسن أن يعنى بإبعاد طرف الأنبوية التى فيها الحجر عن مجاورته. لأن ترك هذا الطرف بالقرب منه يشير إلى أن الكلفة مرفوعة من بينهما ويكون الزائر قد أتى، فى هذه الحالة، أمرا لا يتفق مع حسن السمائل وكرم الأخلاق. وواجب الزائر حيال المزور الذى هذا شأنه أن يترك الطرف الأعلى من الشبك مستندا إلى ركبته، وأن يستنشق منه بين حين وآخر نفسا خفيفا لا يزفره إلا وهو محول رأسه عن ناحية المزور. والحذر كل الحذر من انبعاث صوت ما بين الشفتين أو البصق فى منديل أو غيره.

وإذا أراد الزائر مزايلة = ترك = المكان بعد انقضاء الزيارة، فعليه ان يكف عن التدخين بأن يرفع بيده الطرف المشتعل على الفم (المبسم) فلا يلبث الخادم أن يتقدم نحوه ليرفع الشبك.

فإذا فرض ولم يكن هناك خادم ولم يتقدم أحد. فله أن يسند هذا الطرف إلى ديوان الجلوس.

(٤) الختان أو الطهارة

قدم هذه العادة- الاحتفال بها.

٢٨- قدم عادة الختان

كان الختان عند قدماء المصريين إحدى الوسائل الصحية التى تقضى بها القوانين المدنية، وأول من استن هذه السنة ابراهيم (عليه السلام).

وإذا حافظ المصريون على عادة الختان فما هو إلا لما ثبت عندهم من فائده وحسن أثره من الوجهة الصحية. لأنه، بقطع النظر عما يتطلبه الدين الإسلامى من تكرار الوضوء والاستحمام، من أنجع الوسائل لوقاية أعضاء التناسل من الأمراض الكثيرة التى يكون القدر سبباً لها.

٢٩- الاحتفال بالختان

جرت العادة بأن يكون ختان الأطفال فى السابعة أو الثامنة أو التاسعة من أعمارهم. نعم إن السن التى يقام فيها الاحتفال بالختان تحدد على وجه الصراحة. غير أنه يجب الشروع فى إجراء عملية الختان والاحتفال بها قبل مناهضة الغلام سن الحلم، لأنه يعتبر فى هذه السن مكلفاً بأداء فرض الصلاة. فإذا لم يكن قد اختن فلا يعتبر حائزاً على شروط الطهر والنظافة التى يقتضيتها الشرع

والمألوف عند ذوى اليسار والبسطة فى المال أن يبالغوا فى تنميق الاحتفال بمناسبة ختان أبنائهم. فإنهم يؤلفون لهذا الغرض موكباً يجتمع فيه الأصدقاء والمحبون ويتقدمه رجال الموسيقى ثم يطوفون بالشوارع والأحياء القريبة من مساكنهم.

أما الغلام المراد اختنانه فيمتطى جواداً مطهما بعد أن يفرغ عليه ثوب فاخر ويعمم بعمامة من الكشمير الأحمر. وقد يتزيا بزى فتاة صغيرة فيفرغ على جسمه اليك والسلطة والكور والصوفة، ويضع على فمه بيده اليمنى منديلاً مزركشاً بالقصب. وعند تحرك الموكب به يتقدمه صبي الحلاق الذى نيطت به عملية الختان ممسكاً بيده الجلم، وهو صندوق يحتوى عدة معلمه وأدواته. يراد

بجعله فى المقدمة الرمز إلى الغرض من الاحتفال ثم يتلوهُ رجال الموسيقى بزمورهم وطبولهم، ثم الغلام يتبعه أهله وأصدقاء أسرته.

وإذا كان أهله من أصحاب الثروة الواسعة والجاه العريض فإنهم يذهبون إلى أبعد مما تقدم فى جلال الموكب ومظاهر أبهته وجماله، ولاسيما إذا قصد بالغلام إلى المسجد فإنهم، فى هذه الحالة، يحضرون زملاءه فى المدرسة أو أنداده فى السن من أبناء الجيران والأصدقاء والمعارف وبأيديهم المباخر يحرقون فيها الجاوى والصندل. وبعد أن يقضى الموكب فى المسجد حصّة من الزمن بين الظهر والعصر، يدعون إلى الله متوسلين إليه بنبيه أن يحفظ «المطاهر» ويحرسه لأهله، ثم يقيمون مأدبة كبرى يتناول الطعام عليها جميع من رافقوه من الأطفال وغيرهم.

والعادة أن تتم عملية الختان عقب هذه المأدبة بأن يأخذ الحلاق الطفل إلى أبعد حجرة من المنزل فيقطع له الخشقة = الغلفة = بالموسى ويوقف بأحد المساحيق القابضة نزيف الدم. ثم يتقدم أغلب المدعوين لتهنئة المطاهر وإتحافه بالهدايا الجميلة. وبعد أسبوع من العملية يؤخذ إلى الحمام.

والختان فى نظر المسلمين الحد الفاصل بين دورين من أدوار حياة الطفل المختن، فإن الناس ينظرون إليه بعد الختان باعتبار أنه قد ترك دور الطفولة ليدخل فى دور الرجولة. ومن هذا الحين يلحق قواعد الصلاة وأركان الدين. وإذا كان غنيا عنى بتربيته وتعليمه تعليما واسع النطاق، أما إذا كان فقيرا فإنه يساعد أهله على معاشهم بممارسته معهم الحرفة التى يزاولونها.

(٥)

الزواج

ميل المصريين إلى الزواج - السن المعينة للزواج - الزواج المحرم -
مقدمات الزواج - حفلات الزواج - إزالة البكارة.

٣٠- ميل المصريين إلى الزواج

يرى المسلمون فى الزواج أنه من القروض التى لا يحسن بالمرء محاولة
التنصل من القيام بها. فهم يريدون من الرجل الاقتران بالمرأة متى بلغ السن
الملائمة لذلك ولم يحل نون إتمام هذا الأمر حائل لا قبل لأحد على دفعه. وبلغت
شدة الوهم بهم فى هذا الموضوع إلى حد لا يمكن لأحد معه السكنى بأحد
الأحياء فى بيت خاص به ما لم يكن متزوجا أو عنده فى خدمته جارية أو جملة
من الجوارى. فالعازب مضطر إذن إلى السكنى فى الوكائل - أى الفنادق
العامة المعدة لإقامة الغرباء

ويريد الآباء لأبنائهم ما يريدونه لأنفسهم من الحصول على النسل. وهذه
الرغبة أساس الحياة الزوجية عندهم فتراهم لهذا السبب يعجلون بتزويجهم وهم
فى مقتبل العمر. وكثيرا ما يخطبون لهم العرائس وهم فى طفولتهم الأولى
فيحتظون بهن إلى أن يبلغوا سن الحلم فيتم زفافهم بعضهم على بعض.

٣١- السن المعينة للزواج

الحقيقة أن لاسن معينة للزواج عند المصريين، لذا تراهم يذهبون فى هذا
الأمر إلى حد العبث والإخلال بالصواب. فإن منهم من يزجون بناتهم فى
التاسعة والعاشرة من عمرهن - أى فى الوقت الذى لم يتوافر للمرأة فيه من
النمو البدنى والأدبى ما يجعلها أهلا للتزوج.

وكثيرا ما يرى المرء رجالا فى الثلاثين أو الأربعين من أعمارهم، وقد تزوجوا
بفتيات صغيرات يصح أن يكونوا لمتلهن أباء أو أجدادا. وهو الدليل على أنهم
لا يلتمسون من الزواج سوى شفاء الغليل من الشهوات البدنية، وعلى أن الدافع
لهم إلى عقد عقدة الزواج لم يكن العقل ولا العاطفة.

٣٢- الزواج المحرم

ليس لمسلم أن يتزوج بإبنته أو أخته أو بنت الأخ أو بنت الأخت أو الأخت في الرضاعة أو أخت الزوجة ما لم تكن قد توفيت أو طلقت، وفيما عدا هذا من طبقات القرابة يباح الزواج. والشريعة الإسلامية لاتحرم زواج المسلم بالنساء من أهل الكتاب أى اليهوديات والمسيحيات ولكنها تحرمه بالمشاركة من أديان أخرى غير هذين الدينين. ومما يكاد يدخل فى حكم العدم أن مسلما يستفيد بهذه الإباحة فيتزوج بمسيحية أو يهودية.

٣٣- مقدمات الزواج

إذا طلب رجل التزوج من امرأة ورضى والدها بالشروط المقترحة فى حالة عدم بلوغها أو وافقت بنفسها عليها بعد بلوغها الحلم جاز تحرير عقد النكاح.

والزواج فى مصر اتفاق خاص لايحتاج فيه إلى مصادقة من السلطة الدينية ولا إلى إجراءات ما من جانب السلطة المدنية. فاجتماع الزوجين هناك يتم بتبادل الرضا والقبول من الزوجين أمام شاهدين، وتعلن الزوجة رضاها وقبولها فى هذا التعاقد بلسان وكيل تختاره بنفسها إذا كانت بالغا أو بلسان والدها أو وصيها إذا لم تكن كذلك. فالذى يؤدى الوكالة عنها يخاطب الخطيب المتقدم للزواج بقوله « زوجتك إياها » فيجواب هذا: « قبلت ». وكثيرا ما يتفق أن يقصد المسلمون الراغبون فى الزواج إلى القاضى فيفضيان إليه الرضا والقبول. ومنهم من يستغنون عن هذه الصيغة الرسمية

وبتمام الرضا والقبول يشرع فى الكلام على المهر. وليست المرأة فى مصر هى الملزومة بأدائه إلى الرجل، لأن الشريعة الإسلامية تلزم الرجل بدفع الصداق إلى المرأة. وهذا الإلزم غاية فى السداد والعدل فى هيئة اجتماعية تجيز الطلاق لأن الصداق، فى هذه الحالة يكون نوعا من التعويض للزوجة المطلقة.

ويقدر الصداق عادة بالريالات. والريال نقد صورى ينقسم إلى ٩٠ بارة ويساوى ٥٠ سنتيما. وفى الأسر المتوسطة الحال يبلغ الصداق عادة إلى ألف ريال، وأحيانا لايتجاوز نصف هذا المبلغ. أما الاغنياء فيقدرونه بالكيس والكيس يعدل مائة وخمسة وعشرين فرنكا. ويبلغ عندهم عادة إلى عشرة أكياس، وربما تجاوزها إلى ما فوق. ومما يشترط فى عقد الزواج أن تقبض العروس من المهر

عاجلة أى الثلثين من مجموعه، ولها أن تتصرف فى هذا المعجل على مرادها وبدون أن يحاسبها زوجها عليه. أما الثلث الباقي وهو الآجل فيبقى فى ذمته كمال إحتياطى لها يلزم بأدائه فى حالة طلاقه إياها.

٣٤- حفلات الزفاف

تقام حفلات الزواج بعد تبادل القبول والرضا من الخطيبين، وعلى كل حال فالمدة التى تنقضى بين تحرير العقد وحفلة الزفاف لا تتجاوز ثمانية أيام إلى عشرة يقوم أهل العروس خلالها بتجهيز شوارها. وقد يقدم العريس إليها بعض الهدايا أثناء ذلك.

والأيام السعيدة الطالع الموافقة للاحتفال بالزفاف هى الاثنين والجمعة على الأخص.

وأفضل أوقات السنة للزواج هى المنصورة بين فيضان النيل وشهر رمضان. وفى الليلتين السابقتين على يوم الزفاف أو الثلاث لياالى السابقة تضاء الأنوار والمصابيح فى بيت العريس والمسالك المؤدية إليه من الحى الذى يسكنه، وتقام المآدب ويدعى إليها أقرباؤه وأصدقائه.

أما بيت العروس فيكون أثناء ذلك مظهرًا لحفلات باهرة وأفراح عظيمة يشترك فيها النساء من أهلها وقربياتها وجاراتها، ويعد من الأعياد الكبيرة وبواعث السرور والابتهاج اليوم المعين لذهاب العروس إلى الحمام حيث تمشط وتضمخ بالروائح العطرية، ويزال شعر بدنّها للمرة الأولى فى حياتها. ويرافقها إلى الحمام عادة قريباتها وصديقاتها. ويكون الذهاب إليه قبل الزفاف بيومين مجملّة بأحسن ما تتجمل به امرأة من ضروب الزينة والبهرج، ومتوجة بتاج جميل تحت ظلة يرفع قوائمها أربعة من أشداء الرجال ويتقدمها الموسيقيون والراقصات والعالمات، وقبيل المساء تعود إلى بيت أهلها فى مثل هذا الموكب الجميل. أما العريس فيقصد إلى الحمام العام أيضا فى مثل هذا المظهر ويقضى به اليوم بأكمله مع لفيف من أخص أصدقائه. وفى اليوم الذى يذهب فيه العروسان إلى الحمام يخصص هذا المكان لهما بالأجرة فلا يغشاة أحد من جمهور الناس.

ومتى أقبل اليوم الموعود للزفاف، سارت العروس إلى بيت عريسها فى موكب

حافل يشبه الذى سارت فيه يوم زهابها إلى الحمام. وتسير فيه أيضا جواربها بعضهن حاملات أوعية تتضمن أدوات زينتها وبهرجها ومصوغاتها، والبعض الآخر يقمن بإحراق البخور فى المباخر، بينما تبت نساء غيرهن فى الفضاء صيحات حادة تسمى بالزغاريد، ويواصل الموكب السير على هذا النظام متمهلا متوخيا أبعد السبل عن بيت العرس لإذاعة خبر الزفاف وإشراك الجمهور فى بهجة احتفاله.

ولدى عودة العروس إلى الحرم المعد لإقامتها تجد فيه مائدة فخمة جمعت الصنوف العديدة من شهى الطعام. فتجلس إليها للأكل مع صويحيباتها قريبات وجارات. أما العريس فلا يحضر هذه المائدة. بل يقصد مع بعض أفراد أسرته وأصدقائه إلى المسجد لأداء الصلاة ثم يعودون جميعا إلى المنزل لتناول الطعام معا، وبعد الطعام يستأذن منهم فى الانصراف ليدخل على عروسه فى حجرتها. عندئذ يرفع النقاب عن وجه هذه العروس التى لم يكن قد رآها من قبل. وهذه الآونة من الظروف الرئيسية الباتة فى حياة الإنسان. لأنه يتأكد بعينى رأسه إذا كانت الأحلام التى ما فتئت تناوشه وتداعبه، منذ تحرير عقد القران، فيما يختص بمحاسن عروسه قد تحققت أو لم تتحقق. وعقب رفع النقاب يباشر بنفسه العملية التى يقوم بها الدليل على بكورة عروسه من عدمها.

٣٥- فض البكارة

يتم الزواج بمصر فى ظروف خاصة جدا، وخاصة إلى حد أرى معه ضرورة الكلام عليها. نعم إن من المهمات العسرة معالجة موضوع بلغ فى الدقة إلى هذا المبلغ، ولكننى سأجتهد فى القيام بهذا الواجب مع الاحتراز بقدر الإمكان عن إيذاء سمع نوى الحشمة والوقار.

إن الغرض الأول بل الوحيد الذى يقصد من الفتاة التى تتزوج هو البكورة. إذ يرى أهلها أن شرفهم منوط بها. كما يرى العريس أن هناك ما يدعوه إلى التحقق منها. فمن الواجب المحتوم على العروس أن تكون بحالة تستطيع فيها إقامة الدليل - لا لزوجها وأهلها - بل لأصدقاء الفريقين ومعارفهم أيضا، على أن درة البكورة لبثت مصونة ولم تعبت بها يد الثاقب.

لهذا كان المصريون يرون فى إزالة البكارة أن الحاجة لم تكن ماسة إلى

إحاطتها بالأسرار المبنية على الحشمة والحياء، وأن لا مانع - بناء على ذلك - من الاستشهاد عليها بدعوة الناس إلى الحضور لشهود النتيجة المنتظرة من وجودها أو عدمه.

وتجرى هذه العملية عادة على مشهد من الأمهات وبعض كبار السيدات. ومؤداها أن يقوم العريس بإزالة بكارة عروسه بالسبابة من أصابع يده اليمنى بعد تغليفها بغشاء من الحرير الأبيض. وهو - في قيامه بهذه العملية - يبدى الشيء الكثير من الخشونة والفظاظة اللتين يستمدهما من الغيرة المخجلة التي ملأ بها فؤاده قبل أن يستجلى وجه عروسه. أما المنديل الحريري فيعرض على الأهل والأقارب مخضبا بالدم فيهمون بتهنئة العروس ويسترسلون في مظاهر الفرح والسرور. ثم يعرض أيضا هذا الدليل الدموي على عفاف العروس وطهارة ذيلها، على المدعوين. وفي اليوم التالي تطوف به أم العروس أو أختها أو إحدى قريباتها في الحي برمته لتطلع سكانه عليه.

والغاية مما تقدم أنه إذا اتفق أن عروسا وقعت في خطيئة قبل زفافها أو كان بها مرض أو نقص في التكوين الجثماني يحول دون إتيانها بذلك الدليل فإن للعريس أن يطلقها من ساعته. وفي مثل هذه الحالة غالبا ما تكون العروس عرضة لانتقام أهلها الذين لايزعمهم من الرحمة والتبصر وازع عن قتلها ذبحا وإلقاء جثتها في النيل للتخلص من عارها. وقد تكون عفيفة طاهرة الذيل لأحد الأسباب المتقدمة.

والأحوال التي لاتستطيع العروس فيها إثبات عفافها نادرة جدا لحسن حظ الفتيات. لاسيما وأن من السهل، ببعض الحيل الصناعية التي يعرف أسرارها بعض العجائز، إثبات وجود البكارة مع انها غير موجودة لحادث ما. هذا ولا يباح الاتصال للزوجين الا بعد سبعة أيام من إزالة البكارة على الوجه المتقدم.

(٦)

الوفاء والجنائز

الوفاء - حزن الأهل - الكفن - القبور والمقابر - احترام المسلمين للموتى - الحداد.

٣٦- الوفاة

يحترم المسلمون موتاهم ويعظمون سيرتهم، ولهذا كانت الجنائزات عندهم من أهم المظاهر الدينية. غير أن هذه المظاهر لا تنهض في هذا الأمر - كما في كثير من الأمور غيره - دليلًا على الشعور الحقيقي بالحزن والتأسى، لأن الدين الاسلامي يدعو أهله إلى التلطيف من الحزن على موتاهم باعتبار أن الموت قضاء ساقه الله وإرادة لا راد لها وحكم يجب الانقياد إليه والرضا به. فإذا استسلموا إلى الحزن وبالفوا فيه أتوا ما يخالف أوامر الله وذهبوا إلى عكس مشيئته. وهذا هو السر في قولهم أثناء كلامهم على موتاهم، متى هدأت نار حزنهم الأول: إن الله عز وجل قد اختارهم لجواره ودعاهم إليه فلبوا دعوته وأنهم انتقلوا من دار الشقاء إلى دار البقاء الخ.

والذين يحضرهم الموت من المسلمين ويوقنون أن مآلهم إليه يظهرون التوكل العظيم على جانب الله وقوته فيقولون: «لاحول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون» ويقولون لمن يجيء لعيادتهم والاستفسار عن حالتهم: «الحمد لله، هو أرحم الراحمين» وإذا أنسوا في أنفسهم بعض القوة هموا بالوضوء كما كانوا يفعلون قبل كل صلاة، ليكونوا في انتقالهم من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى، على طهارة تامة. فإذا أشرفوا على الموت وجهوا صوب القبلة.

٣٧- حزن الأهل

إن اللحظة التي يلفظ المسلم فيها النفس الأخير تتلوها في العادة مناظر غريبة طالما وقع نظري عليها واستقصيتها من أولها إلى آخرها. فإن النواح والولولة وغيرهما من مظاهر الحزن تبتدىء عادة منذ ساعة الاحتضار. ولكن المسلمين على خلاف ذلك، فإنهم مادام بالمحتضر رمق من الحياة يظل الحاضرون حوله من أهله وذوي قرابته ملازمين للسكون ومتمسكين بأهداب

الصبر، ومهما أقنعهم الأطباء الأوربيون به من قرب الوفاة وأنها لابد تالية لحالة الاحتضار، فقلما يتحرك لهم ساكن أو يأخذون بمثل هذا التأكيد قائلين: «إن الحياة والموت بيد الله، وأن ليس لأحد من البشر أن يخبر عن شخص لاتزال الأنفاس تتردد في صدره، أنه لا محالة مائت» ولكنه متى لفظ النفس الأخير ولبى نداء ربه، سرعان ما يأخذهم الانزعاج وينتابهم الحزن والأسى فيصيحون ويبكون، وترى النساء يضربن صدورهن ويخمشن وجوههن ويجذبن شعرهن ويحثرن التراب على رؤوسهن ويولولن بأصوات محزنة على إيقاع معلوم منهن. وإذا كان المتوفى رب الأسرة انبعثت من صدورهن ألفاظ تدل على مبلغ الحزن والأسى لوفاته من نفوسهن فيقلن: «ياسيدى! يا جملى! أنت الذى كان يجىء بقوتنا! أنت الذى كان يحمل عبء حياتنا! ياسبعى! يا ركنى! يا عزيزى! يا وحيدى! وامصيبته! لماذا تركتنا! ماذا كان ينقصك بيننا! أما كانت طاعتنا لك لا حد لها! أما أحس قلبك بحبنا واحترامنا!» الخ ما هنالك من عبارات الشجوة وصيحات الحزن.

ولا يكاد ينتشر خبر الوفاة حتى تقبل نساء الجيران على بيت المتوفى ويضعن صراخهن وعويلهن إلى صراخ صاحباتهن وعويلهن. وغالبا ما يدعين إليهن الندابات الضاربات على الإطارات ويصحن صيحات يتكلفن فيها إظهار الحزن واليأس ويعددن صفات الفقيد الجثمانية ومناقبه النفسية متوخيات فى إيرادها المبالغة التى لامعنى لها. وفى المصريين كثيرون ينتقدون عادة الاستعانة بالندابات على إقامة الأحزان ويقبحونها ويدعون إلى هجرها والتنصل منها.

ذاك شأن النساء فى المآتم. أما الرجال فيحتفظون غالبا فيها وفى الحوادث المكدره والكوارث النازلة بالسكون والجلد والصبر وقلة الاكتراث، ويحرصون كل الحرص على كتمان شعور الألم والحزن الذى يحسون به شديدا فى قلوبهم، ويتحامون إظهار شىء من العلامات والإشارات التى تنم على ما ينتابهم من ذلك، وغاية ما يشاهد منهم حب الانزواء عن الناس، كأنهم يودون الانفراد بالحزن بدون أن يشاركهم أحد فيه. وهذا ولا شك أحد مظاهر فضيلة الصبر عندهم على الشدائد والمحن.

٣٨ - الكفن

لاقانون عند المسلمين يعين المدة التى ينبغى انقضاؤها بين الوفاة والدفن.

والمجمع عليه بمقتضى نصوص الدين التعجيل بتجهيز الميت وتشيع جنازته ودفنه. وهم يعجلون بذلك حتى إنه ليحدث أحيانا أن تنقل الجثة إلى القبر. بعد الوفاة بنصف ساعة أو ساعة، ونادرا تمتد هذه المدة إلى بضع ساعات. والمقصود بهذه العجلة التى أوصى الشارع بها منع التأذى من تعفن الرمة السريع الحصول فى الأقاليم الحارة. وفى يقيننا أن تلك العجلة ربما أفضت إلى أكثر من حزن موجب الأسف والندم.

وتشيع الجنازات فى النهار عادة فإذا توفى الميت ليلا فإنه لا يكفن إلا بعد شروق الشمس، ولذلك يبيت أهله فى بكاء وعويل لا يكفون عنهما إلا بعد زمن طويل تفتى فيه قواهم وتبج أصواتهم. وبمجرد أن تغمض عينا المحتضر وينبعث النفس الأخير من صدره يذهب أهله فى طلب المغسلين والحانوطيين الذكور منهم للذكور، والإناث للإناث. وبعد غسل الجثة فوق لوحة الغسل يزال شعره وتسد فتحات جسمه جميعا لصيانتة من التدنس بالمواد التى لا يبعد أن تسيل من باطنه بعد غسله ثم يلف فى كفن من قماش جديد.

وعلق المسلمون أهمية كبرى على الكفن حتى إنهم إذا خرجوا، لسفر طويل أو قتال مع العدو، أخذوا أكفانهم معهم. وينعد إدراج الموتى فى أكفانهم يوضعون فى نعش يغطى بقطعة من القماش الفاخر أو المزخرف بالوشى.

وليس محتما أن تكون نعوش الرجال شبيهة بالصناديق المقلدة. ولكن الشريعة الإسلامية التى تلاحق النساء بعواطف الغيرة عليهن، تقضى بأن لاتكون نعوشهن بعد موتهن إلا على الشكل المتقدم الذكر.

وبعد إيداع الجثة النعش، تحمل إلى أحد المساجد بحيث تكون الرأس فى المقدمة بالنسبة لوضعها منه. والمسلمون لا يأتون للمسيحيين بجث موتاهم على هذا الاتجاه. بل يلزمونهم بجعلها على عكس هذا الوضع - أى بتقديم القدمين على الرأس، ويتقدم مشهد الجنازة طائفة من العميان يسرون على ثلاثة صفوف صائحين صيحات موزونة مشجية ناطقين بالشهادتين وهما « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ثم يليهم خدم الفقيد فالندابات مرتديات بأردية طويلة زرقاء ومؤثرات بإزار أبيض. فالأربعة الرجال الذين يحملون النعش على اعناقهم فأعضاء أسرة الفقيد فشيوخ المساجد يتبعهم، فى بعض الأحيان، جماعة من عامة الشعب.

وبعد نقل النعش إلى المسجد يتقدم أحد رجال الدين فيصلى عليه، ويستأنف مشهد الجنازة بعد ذلك سيره إلى المقبرة، وفيها يستخرج الميت ليغيب في القبر الذي أعد له متجه الرأس نحو الشرق. أما المشيعون الذين تألفت منهم الجنازة فيتناولون الطعام حول حفرة الميت، ويعود الأهل والأقارب مع الندابات إلى بيت الفقيد حيث يقمن أياما لأداء وظيفتهن الجنائزية. ألا وهى إذكاء نار الحزن على الفقيد في قلوب أفراد أسرته (١).

٣٩ - القبور والمقابر

إن قبور المصريين عبارة عن أقبية مستطيلة مبنية أو محفورة بحيث يتمكن الموتى الذين يودعونها من القيام لتلقى سؤال الملكين منكر ونكير والإجابة عليه. وأحد وجهى القبر يكون باتجاه الجنوب الشرقى، أى صوب مكة والوجه الآخر المقابل له فى المدخل يحميه مربع صغير من البناء ويمكن أن يحتوى كل قبر أربع جثث لا أكثر، ومن النادر أن تدفن النساء فى نفس القبر الذى يدفن الرجال فيه. وفوق القبو الذى يكون سطحه الأعلى بمستوى سطح الأرض يقام أثر مستطيل مكعب الشكل يثبت بطرفيه لوحان من الحجر يعلوهما شكل قلنسوة تدل على ما إذا كان القبر مخصصا لدفن الرجال أو النساء. وبالرغم من أن الدين الإسلامى لا يبيح وضع النقوش بآيات القرآن على القبور فإنه لا يكاد يخلو قبر منها. ومع تحريمه صراحة العلو ببناء القبور والأضرحة وتحتيمه الاقتصار فى بنائها على الطوب النىء فإن الأغنياء والعظماء يشيدون لأنفسهم أضرحة من الرخام المنقوش بالكتابات والرسوم الجميلة. بل أن منهم من يبنون المساجد الفخمة ليجعلوا فيها أضرحتهم. فلا جرم إذا كانت قبور الخلفاء والأمراء والمماليك من أنفس تحف الهندسة العربية وأجل آثارها. وموقع مقابر المصريين من المدن داخلها أو ضاحيتها القريبة، ويتحرون لها الأماكن الرملية المرتفعة ونادرا ما يقع النظر فيها على النباتات إلا ما يكون من بعض أشجار الجميز التى تنتشر ظلالها الوارفة على القبر، أو بعض شجيرات الأزهار نامية حوله يتعهد بها من آن إلى آن قريب حزين أو صديق حميم.

(١) إن عادة الندابات عادة خاصة بمصر. وقد جاء فى مؤلفات هيرودتس وديودوروس الصقلى ما يؤخذ منه أن هذه العادة كانت غاشية فى الأزمان القديمة.

وقد حرمها الدين الإسلامى، ولكن هذا التحريم لم يأت بثمرة فى مصر نظرا لتأصل تلك العادة وقدمها.

٤٠- احترام المسلمين للموتى

يعنى المسلمون أثناء انتشار الأوبئة بتكفين موتاهم ودفنهم على المثال المتقدم. ولا يظن أحد أن الأوبئة تلقى فى أفئدتهم الروح الذى تلقىه فى أفئدة الأوربيين. كلا فإنهم لا يتنحون أبدا عن موتاهم الذين يموتون بالطاعون. وهذا هو شأنهم أيضا فى الحروب، فإنهم يرون من الفروض الدينية أخذ قتلاهم معهم ليتمكنوا من القيام نحوهم بما يفرضه الدين. وإذا كانوا يخرقون الصحراء فى سفر طويل ثم أعياهم السير وأضناهم حلول الشقة، وأدركوا أنهم مائتون لا محالة، حفروا قبورهم بأيديهم وركدوا فيها إلى أن يدركهم الموت.

٤١- الحداد

لا يحمل المسلمون الحداد كما نحملة نحن، الا أن منهم من يصبغون أيديهم بالنيلة أو بالسواد ولا يزيلونها إلا إذا زالا بنفسهما. وإذا توفى الأزواج صبغ النساء بالنيلة أيديهن وسواعدهن إلى المرافق وفعلن مثل ذلك بثيابهن وقناعهن وتركوا شعورهن شعثة وعطلوا أنفسهن من الحلى وفى حالة وفاة رب المنزل قلبوا الحصر والسجاجيد والمساند وأغطية المفروشات ظهرا لبطن.

(٧)

الاعتقادات الباطلة

الجن- الأولياء- الدراويش- العين الحاسدة- الشعوذة- الأحلام- أيام السعود والنحوس- التنبؤ بالمستقبل- السحر- التنجيم- الكيمياء- أصحاب الفأل- حوالة الثعابين- الاعتقاد فى الخرافات- المرأة التى تنبأت بالمستقبل لمحمد على.

إن الشعب الجاهل الذى أخذت الاعتقادات الدينية من نفسه مغرسا عميقا يكون ميالا فى العادة إلى العقائد الباطلة والخزعبلات الفاسدة. وهذا هو شأن المصريين الذين عرفوا بالميل الشديد إلى العجائب والغرائب وإحاطة جميع الشئون والظروف المعيشية بها.

٤٢- الجن

من الاعتقادات الباطلة الكثيرة الانتشار فى مصر الاعتقاد بالجن. والجن فى نظر المصريين وسط بين الملائكة والبشر، وقد خلقوا قبل آدم

وكان خلقهم من النار. وأطال الله في حياتهم. فحياتهم تدوم قرونا طويلة. ولهم سلطان على جميع العناصر وخاصة التشكل بما يروق لهم من الأشكال. فإذا شاءوا كانوا بشرًا أو حيوانًا وإذا شاءوا كانوا حجارة أو نباتًا وإذا أرادوا خفوا على الأنظار فلا تدركهم الأبصار. أما مساكنهم ففي جبال قاف التي يعتقد الأميون من المسلمين أنها تحيط بالأرض من جميع جهاتها على اعتبار كونها سطحًا مستويًا لا كرويًا.

ومن الجن رهط يميلون إلى الخير ورهط ينزعون إلى الشر، والمسلمون يوقرون الأولين ويحبونهم ويخشون بأس الآخرين ويمقتونهم. وكلما هموا بأداء عمل ولو بسيط كسكب قليل من الماء أو إضرام نار الخ قاموا بكلام يستأذنون فيه من الجن أداء هذه الأعمال. ويعتقدون أن هذه الكائنات أرواح بخارية تسكن الخرائب والأطلال وتختلف إلى الحمامات والآبار والمراحيض، وأهل القاهرة مقتنعون بأن كل حي من أحيائها موكل حراسته إلى نفر من الجن الميالين إلى الخير وأنهم يتشكلون بشكل الثعابين.

أما شرار الجن المعروفين بالعفاريت، فما من عبث أو فساد يقع في الأرض إلا وينسب إليهم فعله. فهم الذين يقضون فراغ وقتهم، أثناء وجودهم بسطوح المساكن أو نوافذها، في إلقاء الأحجار والطوب على المارة ويتخيرون لسكناهم المقابر والهيكل والقصور والآثار القديمة. ويعتقدون أن الله يمنع أذاهم عن الناس في شهر رمضان بحبسه إياهم ومنعه لهم من الانبثاث بين الناس. وإذا حدث أن هبت الرياح وأثارت الرمال أو التراب إعصارًا قالوا في تفسير هذه الآثار والظواهر أن بعض الجن الميالين إلى الشر أفلتوا وعاثوا في الأرض فسادًا. وإذا سقطت الرجوم من السماوات قالوا إنها شهب أرسلها الله ليصيب بها العفاريت الذين يسترقون السمع، ومتى رأوها تخترق كبد الفضاء سألوا الله أن يصيب بها عدو الدين في قولهم: « سهم الله في عدو الدين ».

٤٣- الأولياء

ليس في الدين الإسلامي ما يقضى بتقديس الأولياء، ولكن المسلمين بوجه عام، والمصريون منهم على الأخص يعتقدون في بعض الأولياء، بناء على ما تنهى إليهم من إجماع الرأي العام على تقديسهم. وقد يكون الرأي العام في

ذلك مخدوعا بخدعة مازح أو ماکر، وهم لا يقتصرون على تکریمهم بعد وفاتهم بل يجعلونهم موضوع احترامهم وتوقیرهم أثناء حياتهم.

ويرى المسلمون فى المجازيب والمجانين الذين لا یضرون الناس أنهم قوم أتاها الله من فضله وخصهم بعنايته وأودع فیهم أسرار الطهارة والقداسة. وقد يكون أولئك المجازيب والمجانين فى حالة من ضعف العقل وقلة الفهم تحرمهم الحرمان الكلى من المواهب التى یسمو الإنسان بها على سائر الحيوانات، ولكن عامة الشعب یعللون إجلالهم إياهم أن روحانیتهم اللطيفة عرجت إلى السماء ولم یبق من کیانهم على الأرض سوى الجزء الثقیف منها. ومن ثم تراهم یفضون الطرف على فعال أولئك الأولياء الذين تستدعى حالاتهم العجب والدهش. فإنهم لا یأبهون بهم اذا برزوا فى الطريق وليس علیهم من الثیاب حتى ما یستر عوراتهم. وقد يكون منهم من یهتکون فى كل لحظة ستار الفضيلة ولا یرعون حرمة الآداب والدين. ومع هذا فلست ترى أحدا یتأفف من عملهم أو یرى فيه مخزاة تستوجب الفضيحة والعار. وسبب هذه الغفلة اعتقادهم أنه إذا كان أولئك الأولياء قد تركوا أجسامهم ماضية فى تيار الشهوات البهيمية ومنطلقة بلا عنان فى میدان الملذذ المادية، فما ذلك الا الاستغراق روحانیتهم فى التأملات الربانية وانصرافها عن أمور الحياة فى هذا الكون السفلى. ویرف سواد أولئك المجازيب بقدرة أبدانهم وما یتشحون به من أطمار بالية. وهم یصرفون نظر الناس إلى ذواتهم بما یأتونه من شاذ الفعال وغریبها ویرعشون من الصدقات التى یتهافت الناس على أدائها إلیهم من غیر سؤال فى غالب الأحيان.

ومن لم یصابوا من المشائخ بالبله أو الجنون یطلق علیهم اسم الأولياء، ولكل من هؤلاء طريقة یتصنعها فى إظهار ولايته. بعضهم یحركون على الدوام رؤوسهم فى اتجاهات مختلفة ویکرر البعض الآخر بلا انقطاع کلمات معينة حفظوها عن ظهر قلب. وغیر هؤلاء یلزمون الصمت العمیق فلا یفوهون بكلمة وإنما یريدون فى مقابل ذلك من فاضح الإشارات ما یندى منه الجبین. وهناك فريق لا شغل له إلا الرقص والغناء، وفريق غیره لا عمل له الا إذاقة نفسه صنوف الشدائد والحرمان كما یقع من أمثالهم فى الصين والهند، وجماعة آخرون یأکلون كل ما یقع فى أيديهم أو یكبلون أنفسهم بالأغلال والسلاسل ویقضون السنوات العديدة فى هذه الحالة. وشوهدت طائفة أخرى یلبث رجالها

واقفين ليل نهار لا ينامون إلا مستندين إلى أحد الجدران.

. وليست ثياب هذه الطوائف أقل غرابة من فعالها المتقدمة، فإن منها من لا يغطون رؤوسهم بالقلانس، بل يتركون شعورهم تنمو حتى تبلغ من الطول مبلغا عظيما ويرسلونها من ورائهم وعلى أكتافهم إما شعثا وإما ممشطا. وكثير منهم يجوبون الطرقات والميادين ويندسون بين السابلة لا يستر أبدانهم شيء ما من الثياب مكتفين من المتاع بجلد ماعز أو ضأن أو غزال يحملونه على أكتافهم. ومنهم من يعملون الحياء ويتكلفون السمات والوقار فيسترون أجسامهم بقميص أبيض طويل أو مرقعية متكونة من قطع صغيرة مختلفة الألوان.

وشهرة الأولياء بإتيان الغريب والمعجب من الأعمال غنية عن البيان، ومثلها الاعتقاد السائد على العامة أن أحد الأولياء يسمو على الآخرين بالفضل والورع والعلم فيتولى رياستهم باسم القطب أى المحور الذى يدور الأولياء حوله. وهو يبرز إلى الناس ويختلط بهم، ولكن ليس فى قدرة أحدهم أن يتبين حقيقته أو يعرف أنه هو ذاك الذى امتاز على أقرانه بتلك خلال الجليلة والصفات العالية. وسبب جهل الكافة بحقيقة أمره، ظهر بينهم، تحريه التواضع والخشوع فى مظهره والحسنى والمعروف فى معاملته الناس كى يتمكن من إقناع المخالفين لأوامر الدين والمتغافلين عن العمل بنواحيه بالفئة = الرجوع = إلى طريق الحق والرجوع إلى الصراط المستقيم. والمعروف عندهم أنه يفضل الإقامة على سطح الكعبة ويصيح من أعلاها مع اختفائه عن الأنظار مرتين فى منتصف كل ليلة قائلا : «يا أرحم الراحمين ارحمنا» وله فى القطر المصرى جهات يقف بها، منها باب زويلة بالقاهرة ومقام سيدى أحمد البدوى بطنطا ومقامات أخرى ومعاهد للدين . ومما لا يختلفون فيه أن فى قدرته الانتقال فى لمح البصر من القاهرة المحروسة إلى مكة المكرمة.

والموالد لتكريم الأولياء وإحياء ذكراهم تقام عادة بعد وفاتهم وقد أنشئت المساجد الجميلة على قبور البعض منهم وأقيمت الأضرحة فى المدن والأرياف تعلوها القباب على أجدادهم إجلالا لكراماتهم، وجرت العادة بغرس شجر جميز بجوار كل قبة لتظللها أغصانها بظللالها الوارفة. وأهل البلدان القريبة يقصدون هذه الأضرحة إما لتلاوة الدعوات وإما لالتماس الشفاء للمريض أو قضاء مطلب.

وفى بعض الأحيان تحفر بالقرب من الضريح بئر حتى، إذا وصل إليه أحد السابلة استطاع الارتواء بمائها ويلتمس الراحة من عناء السفر بالجلوس فى ظل تلك الأشجار الباسقة. أما الأضرحة التى لا أبار بجوارها فلا تخلو على كل حال من وجود المياه بها لشرب السابلة. لأن كثيرين من أهل الخير يتبرعون بجعل الجرار والقلل فيها ويتعهدونها على الدوام لإرواء العطشى من أبناء السبيل أو المسافرين. وربما وضعوا بالقرب منها بعض الخبز أو النقود ليلتمسها ذوو الحاجات وينتفعون بها، أو يظهر فيهم أثر لجرح، ويروضون الأفاعي والعقارب حتى تأنس بهم، ويضعون النار متلظية تحت أباطهم بدون أن ينالهم منها أقل أذى.. الخ.

وهم فى هذا العهد أقل إسرافا فى الشموخ والازدهاء بهذه الخاصيات العجيبة التى امتازوا بها على جميع الناس.

ومن أغرب حفلات الدراويش الذكر الذى يتلخص فى تكرارهم لفظ الجلالة مع تحريك الرأس والجسم تحريكا متصلا غير منقطع. وهذه الحركات المترادفة تؤثر فيهم فلا يلبثون أن يقعوا على الأرض، وقد حقنت وجوههم، وسال اللعاب من أفواههم بما يسيل من أفواه المتشنجين وبدت عليهم علامات الأخذة. وفى هذه الآونة التى يبلغ الهياج فى نفوسهم أثناءها مبلغه الأقصى ويرون فيه الدليل المحسوس على ولايتهم يعتدون على بعضهم البعض بصنوف الإيذاء والتمثيل. وربما نجم عن فعالهم موت البعض منهم فيذهبون فريسة الجهل والضلال.

ويحضر الدراويش معا الحفلات الدينية، ويسيرون فى مواكبها، ويمارس فريقهم الأكبر بعض الصناعات، والفريق الآخر لا مهنة له سوى تلاوة القرآن والإنشاد فى الجنازات فى سد جوعة أو قضاء حاجة، والفلاحون ينذرون النذور لأضرحة الأولياء فإذا قضيت حاجاتهم وفوا بها فممنهم من إذا نذر رأسا من ماعز أو ضأن أو ماشية ذبحه وطبخه ومد الأسمطة ودعا إليها الفقراء فيفدون زرافات لتناولها وإشباع البطون منها.

ويحتفل المصريون احتفالا باهرا بمولد الأولياء المشهورين فى القطر المصرى.

٤٤- الدراويش

الدراويش فرقة من المسلمين شديدة التمسك بالصالح والورع تفوق فيهما أبناء الفرق الدينية الأخرى. وهم كثيرون العدد في القطر المصري وينقسمون إلى فرق وأحزاب وطرق شتى يمتاز بعضهم عن بعض بألوان أعلامهم وعماماتهم وإشكال قلائسهم. ويقيمون الدليل على ولايتهم بألف وسيلة ليس منها واحدة إلا وتستوجب العجب والدهش أكثر من أختها. فإنهم مثلاً يأكلون الأحجار والزجاج والمعادن، ويزعمون أن بقدرتهم ثقب أجسامهم من أحد الجانبين إلى الآخر دون أن يشعروا بالألم.

ويطلق الناس عليهم اسم « الفقراء » الذي يطلق عادة على عامة المساكين والزهاد المتعبدين. أما الفريق الآخر فيعيش بما يصدق عليه من الصدقات والمبرات. وفي مصر دراويش كثيرون متشردون وأصلهم من بلاد الشام والعجم.

٤٥- الحسد أو النظر أو العين

يعتقد المسلمون في الحسد أو النظر أو العين، وهم يخشونها ويتخذون الوسائل الكثيرة. للوقاية منها. فإذا رأوا أحدا يغالى في الإعجاب بشيء يملكونه أيقنوا أنه قد حسده. أى أصابه بعينه، ولهذا السبب تراهم، إذا أرادوا الإعراب عن إعجابهم بشيء، يراعون القصد في الألفاظ الدالة على ذلك. وعندهم لا يليق بأحدهم أن يقول فى خلال كلامه عن شيء يملكه أنه جميل أو مليح من غير أن يقرن الإعجاب به بجملة « ما شاء الله » التى تشير إلى الطاعة للمشئة الربانية واحترامها. وإذا بدرت من أحد كلمة تعجب أو استغراب من شيء فالذى يحب من السامعين. لها اتقاء ما يضره المتعجب من الحسد أن يواجهه بقوله: « صل وبارك على سيدنا محمد » فإذا أجاب على هذه الكلمات بقوله: « اللهم صل وبارك عليه » فليس له أن يخاف ما كان يتوقعه من حسد.

ويعلل المسلمون ما ينزل بهم من المصائب الطارئة بسوء الحظ وقلة اليخت وعدم موافقة الطالع. ويعتقدون فى النفاثات فى العقد. ويسندون ما هم فيه من العجز وقلة الحول إلى التأثير السارى إليهم من أعين الحاسدين.

٤٦- الأحجبة

وهم يوقون أنفسهم هذا الشر الذى يتعذر النجاة فى الحقيقة من عواقبه بالطلسمات والأحجبة. فيحملون الحجاب الواقى من الشر مخطا بثيابهم.

وأحسن الأحجية، فى نظريهم وأقواها فعلا وأشدّها تأثيرا ما كان عبارة عن بعض آيات القرآن تكتب فى رقعة وتوضع - بعد أن تغلف فى قطعة من الحرير - تحت الإبط اليسرى.

ومن الناس من يكتفون بالآية الآتية: « والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » أو أسماء الله الحسنى أو أسماء النبى.

ويسند المسلمون إلى الشب فضيلة كبرى فى مقاومة العين فإن النساء يعلقن أهمية عظمى فى ذلك على خليط من العقاقير والمواد يجهز ويبيع فى العشرة أيام الأولى فقط من شهر المحرم يسمينه بيخور عاشوراء أو الملح المبارك. ومما ذاع الاعتقاد بصدق تأثيره من الطلسمات الغبار الذى يجمع من فوق قبر النبى والماء المستنبت من بئر زمزم الموجود بداخل الحرم المكى وبعض القطع من كسوة الكعبة، ومن عادة تجار القاهرة أن يعلقوا فى مقدمة حوانيتهم كتابات تفيد وضعهم هذه المحال تحت الحماية الربانية كأن يكتبوا مثلا شهادة أن « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أو بعض آيات القرآن مثل « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » أو بعض الأدعية مثل « يا مفتاح الأبواب افتح لنا خير باب » إلى غير ذلك من الأقوال والعبارات التى اعتاد التجار تكرارها أثناء فتحهم لحوانيتهم.

وغالبا ما توضع المنازل أيضا تحت الرعاية الربانية بما ينقش على أبوابها من الألفاظ مثل « يا الله » « الخالق الدائم » وفوق الباب يعلقون فى بعض الأحيان إحدى شجيرات الصبار الذى يعزون إليه تأثيرا فى دفع العين وضرها.

٤٧- الأحلام

يقرأ المصريون فى صفحات أحلامهم ما يستنبئون به المستقبل ويستطلعون مكنون أسرار الغيب، وإذا قال أحدهم لآخر إنى رأيت مناما. أجابه السامع حالا بقوله « خير إن شاء الله ».

٤٨- أيام السعود والنحوس

والأيام عندهم قسمان: أيام سعود وأيام نحوس، فأيام النحوس هى الأحد وليلة الإثنين التى توفى فيها النبى ويوم الثلاثاء ويسمى يوم الدم لأن كثيرين من شهداء المسلمين استشهدوا فيه ويوم السبت وهو أنحس الأيام جميعا. أما أيام السعود فيوم الإثنين، ويخصص للزواج ويوم الخميس ويصفونه بالمبارك، ويوم

الجمعة وهو أول الأيام لأنه عند المسلمين بمنزلة السبت عند اليهود. وهم يفضلونه لإتمام الزواج ويصفونه بالفضل فيقولون يوم الجمعة الفضيلة.

ومن أيام السنة ما هو أيام سعود ومنها ما هو أيام نحوس.

وشر أيام النحوس الأربعاء الأخير من شهر صفر، وفي هذا اليوم يهجر الناس مساكنهم تقية الإصابة بالأمراض الكثيرة التي تنصب فيه على بنى الإنسان.

٤٩ - التنبؤ بالمستقبل

إذا تحير المسلمون في أمر ولم يهتدوا إلى وجه الصواب فيه اعتمدوا في تبينه على أمور ترجع إلى الخزعبلات المبنية على فساد الاعتقاد. فمن ذلك التجاؤهم في إصابة الغرض إلى ما يسمونه بالزائرجة. والزائرجة هذه عبارة عن شيء يشبه جدول الضرب يحتوى مائة خانة في كل خانة حرف من حروف الإبجدية العربية، وطريقة استعمالها أن يقرأ فاتحة الكتاب. ثم الآية الآتية من سورة الأنعام وهي: « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ».

ويضع إصبعه على الجدول مغمض العينين ثم يفتحها، ويعد أن يقرأ الحرف الذي سقط أصبعه عليه يكتبه في ورقة ويكرر هذه العملية بطريقة معينة على الحروف المرتبة على عمود رأسى واحد ثم على الحروف التي يحتويها العمود الخامس إلى يمين العمود الذي أرشد إليه الحظ والجفاف أول مرة . فإن اجتماع هذه الأحرف يؤلف كلمات يتضمن مجموعها نصيحة أو حكمة . والمشتغلين بالزائرجة كافة يرتبون حروفهم فيها بحيث تعطى أربعة أجوبة سلبية في مقابل جواب واحد موجب .

ومن الناس من يستخيرون القرآن ويلتمسون منه النبوة القاطعة فيما يحبون استطلاعهم من أحوالهم . وذلك بأن يجعلوه في موضع بحيث إذا سقط منه انفتح أمامهم بحكم المصادفة. فيعمدون إلى السطر السابع من الصحيفة اليمنى ويقرأون، فإذا كان معناه يفيد السكون والسلام والخير كان الجواب موجبا. بخلاف ما إذا أفاد السخط الإلهي أو اللعنة فإن الجواب يكون سلبيا

وكثير من المسلمين يستفسرون المستقبل بأن يحركوا بين أصابعهم حبات السبحة التى بيدهم قائلين عند تحريك الحبة الأولى : «سبحان الله » وعند تحريك الحبة الثانية : «الحمد لله » وعند تحريك الحبة الثالثة :«لا إله إلا الله » . ثم يكررون هذه الأدعية بحسب ترتيبها كلما حركوا حبة حتى يبلغوا الحبة الأخيرة فإذا كانت الاستخارة التى قيلت فى الحبة الأولى تصادف الحبة الأخيرة فإن الإجابة تكون موافقة أى موجبة وإذا كانت الثانية كانت الإجابة لازمة، أى لا موجبة ولا سالبة .

يفهم مما ذكر أن الشعب المصرى الذى يبنى فعاله وتصرفاته على القضاء والقدر لشعب خؤوف يهاب تحكيم الضمير والعقل اللذين وهبهما الله للإنسان وميزه بهما على سائر الحيوان، ويتصل من مسئولية تصرفاته فعلا وقولا ملقيا حبل أموره على غارب الجراف والاتكال الأعمى . راضيا بما تفضى إليه من النتائج ولو ساءت مستسلما لها باعتباره أنها الإرادة الربانية بلا نزاع ولا جدال ومن ذا الذى يعلم كم من الحوادث العظام والوقائع التى روعت العالم إنما كان الإقرار على أسبابها نتيجة حكم حبوب من السبحة أخذت تجرى بين أصابع وزير من الوزراء الذين امتلأت أدمغتهم بالوساوس، ومن ذا الذى يعلم كم مرة عبثت أيدي السلاطين بحظوظ الرجال، بل والدول على أثر التجائم الاستخارة اثناء تحرك تلك الحبوب فى أيديهم.

٥٠- السحر

ان مصر بلد السحر ولا فخر، ولعل القارىء يذكر السحرة الذين كانوا فى خدمة الفراعنة، ومنهم أولئك الذين جىء بهم لمباراة موسى بسحرهم، ومن المؤكد أن خلفاءهم الحاليين لم يرثوا شيئا من قوتهم ونفوذهم السحر اليوم ينحصر فيما يسمونه الآن بالنكرومانسيا إذ إن السحرة رجالا ونساء يقتصرون تقريبا على التنبؤ من باب الحذر والتخمين اللذين يصيبان أحيانا ويخطئان غالبا . وهم، فى بعض الأحيان، يستحضرون الموتى والأحياء ويطلعون الناس عليهم فى مرآة سحرية مؤلفة من بقعة حبر على مربع من الورق يقوم بعملها طفل صغير تحضر له هذه التجربة مقدما . فإن الطفل يرسم صور الأشخاص الذين تسوقهم قوة الساحر إلى المرور أمامه، ومما لاشك فيه أن بعض اللذين يعجلون بتصديق

مما يقع تحت أنظارهم من الحوادث بدون أن يكلفوا أنفسهم مؤونة تمحيصها يؤكدون مطابقة الوصف الذى يصفه الغلام شفويا لحقيقة الواقع. ومن الأوربيين الذين تستميلهم هذه الخزعات الفاسدة، وعلى الخصوص الإنكليز، من يصدقون بهذه التجارب ويصدقون بها كما لو كانت تجارب فى المغنطيسية مثلا. فقد وصف وصف المستر م.و. لان فى كتابه «عادات وملابس المصريين» وفى هذا لم يبد ذرة من الشك فى صحة نتائجها.

ومسلمو مصر يعتقدون أن بالإمكان القيام بالإجراءات السحرية بحسب مبادئ الخير أو الشر. وتسمى نظريتهم فى الحالة. الأولى بالعلم الروحاني، وفى الحالة الثانية بالعلم الشيطاني. فالسحر الروحاني وهو موضوع ذلك العلم يعمل بقصد محمود لأنه يعتمد فيه على الوسائل غير المنافية للدين، أما السحر الشيطاني فيستعان فيه بالأرواح الشريرة والشياطين لغرض سيء وقصد خبيث.

٥١- التنجيم

لعلم التنجيم أنصار وتلاميذ كثيرون بين المصريين الذين يسمونه أيضاً بعلم النجوم، ويتبعون فيه القواعد والأصول التى يقصد بها استخراج وتعيين الأوقات الموافقة للمشروعات واستنباء فلك البروج بحسب التأثير الذى يكون الانسان تحت سلطانه. ويزعم المنجمون أنهم، برسمهم على الرمل صورا وأشكالا لا يعرف أسرارها إلا هم، يستطيعون الوقوف على أحوال الماضى والحاضر والمستقبل.

علم الكيمياء

وفى مصر جم غفير أيضاً من المشتغلين بالكيمياء، يقضون حياتهم وينفقون أموالهم مع حياة وأموال بعض السذج والبلهاء فى البحث عن الحجر الفلسفى الذى يقولون إن الجواهر الخبيثة تستحيل بواسطته إلى الجوهر الكريم وهو الذهب. والعرب أول من اشتغل بهذا العلم وانكب على تجاربه العقيمة النتائج. غير أنهم مما بذلوه من الجهود فى هذا السبيل، توصلوا إلى تقرير كثير من المبادئ الصحيحة والأصول النافعة فى علم الكيمياء الحقيقى.

والمصريون المشتغلون باستكشاف ذلك الحجر واثقون بأن مساعيهم في هذا السبيل تكلل بالنجاح التام، اذا استطاعوا أن يقضوا سبعة أيام بلياليها من غير نوم مطلقاً. ومفهوم أنه لم يستطع أحد ولن يستطيع أن يتغلب أبداً على حاجة النوم التي تدعو إليها الطبيعة ولا يتيسر لأحد الاستغناء عنها.

٥٣- البوهيميون أو الفجر

إن لجنس البوهيميين، وهو الجنس الغريب الخفى الأسرار المتشرد في طول أوربا وعرضها، فروعاً منبثة في ضفاف النيل، ولكنهم في مصر تتألف منهم طبقة مستقلة لا خلطة لها مع بقية السكان. وشكل سحتهم يميزهم عن غيرهم. فإن لون بشرتهم أشد سمرة من لون المصريين، وكلامهم لغة تخالف اللغة العربية، ومع أنهم ينتحلون الإسلام ديناً لهم فإنهم لا يؤدون فرضاً ما من فروضه، ويهيمون على وجوههم من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية، متفرقين أو مجتمعين. ويشغل الرجال منهم عامة بأساليب الشعوذة والحيل. أما النساء، ويعرفن بملايسهن الغريبة، فيزاوِلن حرفة النظر في البخت والإنباء بالمستقبل، ويخترقن الأرياف والمدن حاملات على أكتافهن أخراجاً من جلد الماعز أو الغزلان محتوية لأصناف كثيرة من الأحذية والتمائم والأدوية والثعابين، ويصفن الدواء للأمراض كافة، ويدعين أن عندهن السر الذي يمتنع عقم النساء وبخبرن الجمهور في ندائهن المتكرر بما لديهن من الأسرار العجيبة والكنوز النافعة.

٥٤- حواة الثعابين

اشتهر حواة الثعابين بمصر في كل مكان. وقد ذكرهم المؤرخ (استرابون) وقال (بروسبير البيان) إنه شهد بنفسه غرائب تأثير حرفتهم. وأغلب السياح الذين زاروا مصر حديثاً يعربون عن استغرابهم سهولة تصرف أولئك القوم في الأفاعى والحيوانات السامة. ويطوف حواة الثعابين بال منازل ويتنقلون من مكان إلى مكان يرتلون من الأقوال ما يسحرون به الثعابين التي تحتويها. وهم يزعمون أنهم يجذبونها إليهم بتأثير سر لا يعرفه سواهم. ويمسكون عادة بقضيب صغير من الخشب فيدخلون الغرفة التي يراد تطهيرها من الثعابين ويتمطقون بلسانهم ثم يتفلون على الأرض، وينطقون بمعنى الجملة الآتية: « أستحلفك بالله إن كنت بالخارج أو الداخل أن تبرح مكانك وتجىء

إلى، واستحلفك بالاسم الأكبر أن تظهر لى إن كنت طائعا، أما اذا لم تطع فلتمت وملتمت ولتمت» فاذا كان الثعبان طيعا للأمر خرج من مكمته على الفور ويكون خروجه عادة من ثلثة فى الجدار أو فى الأرض.

ومع أن الكثيرين من المتنورين يذهبون إلى أن فعل الحواة هذا حيلة مدبرة فليست أتمالك من الاعتراف بأننى - وقد شهدت تجاربهم مرارا - لم أقتنع تمام الاقتناع بصدقهم بل كنت أشك دائما فى أمانتهم وصدق شعورهم. فقد ثبت لى أنهم كانوا يتحيلون - فى أحيان كثيرة على إدخال الثعابين إلى المكان الذى يعرفون أنهم سيدعون إلى استخراجها منه، ولما كانت الثعابين تخشى ضوء النهار، فإنهم يبحثون عنها فى الأماكن المظلمة حيث يستطيعون، بلا خوف من الأعين الرقيبة وفى مأمن من نقد الناقدين، تنفيذ ما دبروه من الحيل للتغريب بالناس. ومن عادتهم للوصول إلى هذا الغرض إخفاء الثعابين تحت إبطهم. وبما اعتادوه من الخفة والرشاقة فى الحركة لايسع الناظرين إلا الإعجاب بفعالهم وتجنب إساءة الظن فيهم.

ثم إنه لا يوجد فى مصر من الثعابين السامة إلا النذر اليسير. ومن عادة الحواة استئصال أسنانها. ومن الحيل التى يخدعون بها العامة وضعهم العقارب على رؤوسهم المحلوقة تحت الطواقى التى يغطونها بها. ولكنهم لا يقدمون على هذا الفعل إلا بعد استئصالهم الأعضاء الضارة منها حتى لا يصيبهم أذاها.

٥٥- الاعتقادات الباطلة والخزعبلات

لم يكن العامة فقط هم الذين استحوذت الاعتقادات الباطلة والأوهام على عقولهم، بل يشاركهم فيها الخاصة على اختلاف مذاهبهم.

ولقد اتفق لى يوما، وأنا ذاهب إلى قصر ابراهيم باشا فى صحبة جملة من القواد المصريين، أن مدحت لأحدهم الجواد الذى يحمله. فتلقى راكب الجواد هذه الكلمات بشىء من الاحتياط وعدم التصديق. وما تقدمنا إلى الأمام بضع خطوات حتى كبا الجواد الذى أسأت ولاشك بمدحه. فسارعت إلى التوجه نحو الفارس الذى كان قد سقط عن جواده لمعاونته وإسعافه، وسألته منه عن سبب كبوة جواده. فأجاب مبتسما ابتسامة تشف عما فى قلبه من الغيظ

«لا بأس والسبب وإن خفى معلوم عندي» فأدركت من إجابته هذه أنني قدمت له دليلاً جديداً يؤيد الاعتقاد في الحسد والإصابة بالعين.

وكان محمد بك أول ناظر للحرب في حكم سمو الوالى . وهو من فحول الرجال. إذ اشتهر بمرافقة محمد على ومقاسمته حظوظه ومشاركته إياه في جلائل أعماله ، يأوى عنده رجلا من المجذوبين الذين كانت طرائقهم المستغربة وأحوالهم الشاذة تدعو الناس إلى وصفهم بالولاية. وكان يعتنى بأمره ويظهر له جزيل احترامه. وسبب معرفته بهذا الولي المسمى بالشيخ يوسف، أنه بدر منه مرة ما دعاه إلى حبسه في سجن مظلم. فبينما كان موقنا بأن كأنه لم يقبض عليه ولم يودع سجنا . فلم يسعه الا أن يعتبر هذه النادرة كرامة من كراماته ودليلا صادقا على ولايته. فدأب منذ هذا الحين على احترامه وإجلاله وتقريبه إياه من مجلسه ومؤاكلته مع السماح له بكل ما يخطر بباله من الأعمال، وكان من لازمة ذلك الغى اعتراضه الناس جميعا في الطريق وطلبه من كل منهم خمس بارات، فإذا أبوا عليه دفعها لطمهم على وجوههم. وكان يقطع البارات التى تعطى إليه قطعا صغيرة ويفرق أجزاءها على الخدم والفقراء. وقد أنشأ محمد بك ضريحا له بجوار ضريحه ولا تزال رفاة تظللها نفس القبة التى تظلل رفات هذا الكيخياء العظيم الذى كان وكيلا لمحمد على في إدارة شئون البلاد

وقد بلغ من تأثر المسيحيين وإلهود الوطنيين بالاعتقادات الباطلة الشائعة بين مواطنيهم المسلمين أنهم اعتقدوا بما يعزى للأولياء من القدرة العجيبة. فإن الجهلاء منهم يتوسلون بهم كما لو كانوا قد بلغوا درجة الولاية بمزاولة العبادة على الطقوس المسيحية أو العبرية.

٥٦- المرأة المتنبئة ومحمد على

لقد أقام سمو الوالى الدليل على حدة ذكائه وصدق نظره وأصالة رأيه. فلقد توصل في ظروف كثيرة إلى كسر قيود الاعتقادات الباطلة التى يذعن لها أبناء دينه ويرضخون لحكمها رضوخ الأسير المغلوب على أمره. وسأذكر على سبيل المثال حادثة لا يخلو إيرادها من الفائدة. وبيانها أنه قد ظهر بالقاهرة في إبان حكمه - أى في الوقت الذى لم تكن قواعد سلطانه قد رست على الأسس

الوطيدة، امرأة تزعم القدرة على الإنباء بالغيب فالتف الناس حولها وأصبح الكثيرون منهم من مريديها، وكانوا يقولون إنها تستخدم الجن وأنهم طوع إشارتها تطلب أحدهم أن يبرز فيسارع إلى إجابة طلبها، وتجعل الناس يلمسون في الظلام يده ويسمعون صوته.

وكان السواد الأعظم من أنصارها ومريديها أنفار الجند ورؤساؤهم، حتى لقد استفحل أمرها وارتفع شأنها، فلما علم محمد على بأمرها، وكان يريد استكناه سر هذه الساحرة التي أصبح يخشى خطر نفوذها، استدعاها إلى قصره، وأعرب لها عن رغبته في الحديث مع جنيها. فرضيت أن تطلعه على ما خصت به من قوة وسلطان. وكان الوقت ليلا، فأطفئت أنوار المنظرة التي كان ضباط الجند مجتمعين بها. وكان محمد على قد أمر أتباعه أن يوافقوه بالمصباح بمجرد طلبه منهم. فلما دعت المتنبة الجنى أجابها على سؤالها بما يشبه الصوت المنبعث من داخل المغارة أو من باطن الذين يتكلمون من بطونهم، حتى لقد وقع في وهم السامعين أنهم يسمعون صوتا منبعثا من الجدار. ثم قدم يده لكي يلثمها الباشا. ولكن لم يكد محمد على يقبض عليها حتى صاح بالخدم أن يوافقوه بالشموع. فلما أضاء المكان إذا باليد المرأة نفسها. وحينما رأت انكشاف حيلتها وانتهاك سترها توسلت إليه أن يعفو عنها.

أما الحاضرون فقد أدهشتهم هذه الجرأة من سمو الولي وحكموا بأنها خروج على الدين وتحقير لمبادئه، وأخذوا يمرمرون مستائين، فخطب سمو الولي فيهم مبينا لهم خطأهم في سرعة اعتقادهم بما لم يكن صحيحا، ثم أمر بإلقاء المرأة في النيل فأراد الضباط ممانعته فيما أمر به. ولكن محمد على تغلب عليهم بقوة الحجة قائلا لهم: إنه لو كان أحد الجن في خدمتها، كما تزعم باطلا وبهتاناً، فلن يتركها تذهب ضياعا في النيل. أما إذا لم يكن لها صاحب من الجن، فإن ما لقيته من الهلاك هو الجزاء الحق لاجترائها على التغرير بالناس من غير خوف ولا حياء.

(٨) الآداب اللغوية

الآداب العربية - قصة أبى زيد الهلالي - المحدثون - الشعر -
القصص الخرافية المصرية

٥٧- الآداب اللغوية العربية

إذا كان لابد من ذكر الآداب العربية بمناسبة الكلام على آداب المصريين اللغوية، فإن هذا الموضوع من تشعب الفروع وترامى الأطراف بحيث يتعذر على تناوله بالبحث. وغاية ما يمكننى قوله فيه إن آداب اللغة العربية لمن أوسع الآداب اللغوية فى العالم نطاقا وأكرمها جوهرًا وأحسنها حلاوة وطلاوة.

ولكن دولتها قد دالت وانقضى عهد مجدها وعزها. وساغ لنا أن نقول فيها إنها أصبحت فى عداد الآداب الفانية.

ثم إن اللغة العربية عاشت بعد اندثار تلك الآداب ولم تتقوض معالمها، غير أن الضعف والجهل قد غشيا الشعوب الناطقة بها. فبعد أن كانت من الأمم المتسلطة صاحبة الغلبة والحكم فقدت استقلالها وأضاعت معه المواهب العلية التى كان أبنائها يبتكرون بها أسمى الأفكار معنى وأجلها مغزى، وتبث فيهم العواطف الكريمة وتكسبهم الجلال والهيبة.

وتقتصر الآداب اللغوية العربية الآن على بعض القصص التى يحلو للعامة سماعها واستيعاب حوادثها. ويتناقل الحافظون لها وقائعها العجيبة المختلفة بعضهم عن بعض بطريق الرواية. وهم لا يملون سماعها ولا يضجرون من تكرار روايتها. والغالب فيها أن تكون من حيث الوضع خليطا من النثر والشعر، ومن حيث الموضوع وصفا مستفاضًا لما كان العرب عليه فى معيشتهم، وما كان يقع من الحوادث فى الصحراء لقبائلهم. ومن ثم كانت تلك القصص من أوثق ما يستدل به على أخلاق هذه القبائل التى لا تزال على فطرتها الأولى من الشغف بالتنقل فى الصحارى القاحلة وما كان يقع بينها من قتال لاتحوم أسبابه فى الغالب إلا حول مكيدة غرامية يرصعونها بالحوادث الآخذة بالألباب لغرايتها.

٥٨- قصة أبى زيد الهلالي

من أهم تلك القصص وأحبها إلى الجمهور قصة أبى زيد الهلالي. وإنا لمورودون هنا تحليلاً وجيزاً لها فى الأسطر الآتية:

تزوج رزق أحد أمراء العرب بعشر نساء فلم يرزق منهم بغير غلام واحد لا ذراعين له ولا ساقين. فلما يئس من إنجابهن غلاماً كامل الخلقة تزوج من امرأة أخرى غيرهن تسمى قدرة. فلم يمض بعد الزواج زمن حتى ظهرت عليها علامات الحمل. واتفق، ذات يوم، أن خرجت مع بعض خادماتها لتريض وتنزه النفس، فرأت طيراً أسود اللون انقض على سرب من طيور آخر وقتل منها بعضها وشتت البعض الآخر. فأخذتها من هذا المنظر روعة ودعت الى الله تعالى أن يرزقها بغلام يكون كذلك الطير فى قوته وشدة بأسه، ولو كان أسود اللون مثله.. فأجاب الله دعاءها. فلما ولد الغلام وقرت بمولده عينا والده. جمع نفرا من أخص أصدقائه ليحتفل معهم بميلاده. وفى اليوم السابع من ميلاده عرض الولد عليهم مغتبطاً به. فما كادت تقع عليه أنظارهم حتى طلبوا منه أن يطلق امرأته لوضعها غلاماً لا يشبهه ولأن لونه الأسود ينهض دليلاً على فجورها وذنس ذيلها. فعمل الأمير بنصيحتهم هذه مكرهاً. لأنه كان شغوفاً بامرأته ومقيماً على حبها وعهد الولاء لها. وكان لا يشك من جهة أخرى فى أن الولد ولده.

عادت قدرة إلى بيت أبيها مكتئبة حزينة كاسفة البال. ولقد روت قصتها على أحد الأمراء فترفق لها وآلى على نفسه أن يأويها وابنها عنده، وأن يربى هذا الوليد مع أبنائه كأنه أحدهم وسماه بركات. فانقضى زمن شب الغلام فيه وترعرع ولاحت عليه لوائح الشجاعة وأمارات الفتوة والقوة وشدة البأس. فلما ناهز الحلم أخذ يحارب القبائل المعادية لقبيلته ويظفر بها ويأتى من ضروب البسالة فى القتال ماسارت بذكره الركبان وعلمه الخاص والعام فى كل مكان.

وفى ذات يوم عن له أن يستطلع من أمه حقيقة خبره وماضى أمره. فأثار هذا السؤال فى نفسها الميل إلى الانتقام من زوجها الذى طردها ظلماً وعدواناً من بيته، ولوث سيرتها إذ رماها بشر ما ترمى المحصنات به من التهم. فقالت

لولدها إن رزقا هو السبب فيما يراه من عنائها وتتكبده من بلائها، وأنه القاتل لأبيها والمنأوى لقبيلتها. فاستشاط الفتى غيظا وأقسم إلا أن يأخذ بالثأر، وخرج لوقته رجاء اللقاء به وقتاله. فقاتله وتغلب الولد على والده على والده جهل منه بحقيقة الصلة بينهما، وأطلعتة على سر الأمر قائلة إن الذى ظفرت به وكدت تورده موارد الهلاك إنما هو أبوك بلا نزاع. فتعرف الخصمان على بعضهما، وكان ذلك سببا لرضاء الزوج عن زوجته وعودتها مع ابنها إلى داره حيث عاش معها فى سلام ووثام وأحاطها بمظاهر الاجلال والاعظام، وخصها بالحب الخالص والولاء التام، وسمى بركات بأبى زيد وهو الاسم الذى كان قد أطلق عليه حين ولادته.

ذاك هو ملخص الواقعة الأولى من وقائع قصة أبى زيد وفيها من غريب الحوادث وطرف النوادر وطلبيها مما لا يتسع المقام لإيراده ولا الإشارة إليه. والمفهوم أن قصة أبى زيد هذه كتبت فى القرن العاشر من الميلاد المسيحى.

وهناك قصص أخرى يميل العامة إليها ويحرصون على سماعها. منها قصة عنتره العيسى وغيرها. وقد ترجمت قصة عنتره كبير أبطال العرب إلى اللغات الأفرنجية، وهى ذائعة الشهرة فى أوربا، وأورد المسيو (دى لامارتين) نتفا منها فى غضون كتاب رحلته بالشرق.

٥٩- المحدثون

المحدثون طائفة خاصة من الناس يروون تلك القصص على مسامع الجمهور، وهم ينقسمون إلى أقسام أو فرق تختص كل فرقة برواية قصة واحدة، فلا يفتات محدثو إحدى الفرق على نظرائهم من الفرقة الأخرى بسرد حوادث قصصهم على السامعين. وأكثر تلك الفرق عددا الفرقة المتفق على تسمية أعضائها بالشعراء، فقد احتكر هؤلاء إلقاء قصة أبى زيد فى المجتمعات العامة.

وفى القاهرة وحدها الآن خمسون شاعرا من تلك الفرقة، وتليهم الفرقة الخاصة بقصة الظاهر، ويسمى أعضاؤها بالمحدثين ثم الفرقة المحتكرة لقصة عنتره العيسى، ويسمى رجالها بالعنترية، والعادة المتبعة أن يجلس الرواة من المحدثين والشعراء والعنترية وغيرهم على أبواب القهوات الكبرى فى

كل ليلة، ولا سيما في ليالى الأعياد والحفلات. وقد أعدت لجلوسهم صفة = مصطبة = مرتفعة يستطيعون من أعلاها إبلاغ أصواتهم إلى مسامع الجميع موزونة الأنغام، فيما يلقونه من القطع الشعرية، بأداة موسيقية ذات وتر واحد تسمى الربابة. ويجلس السامعون أمامهم صفوفًا متوازية وكل منهم منصت لما يسمعه من القول ومدخن لشبك أو متذوق طعم قهوة البن تبدو على وجهه علامات السرور والاعتباط بما يسمعه من غريب الحوادث التى يضاعف اهتمامه بسماعها أسلوب إلقائها. فإن الرواة يلقونها بأصوات حماسية مقرونة بالإشارات التمثيلية والحركات التى من شأنها أن تستثير الهمم من مكانها وتوقظ النشاط من سباته. وكلما ازدحم المكان بالسامعين كانت رواية حوادث القصة أفعل في نفوسهم بما يأتيه الراوى من التفنن في الأساليب التى تشد العواطف، وكثيرا ما يستقرهم ذلك إلى ابتكار حوادث وأقوال من عندياتهم يضيفونها إلى الأصل مع التماس المبالغة في تحريك النفوس واستثارتها.

وعندما ينتهى الرواة من سرد حكايتهم يوافيهم صاحب القهوة بيسير من المال أجرة لهم، وهذا غير ما يجمع برسمهم من السامعين. على أنه لا أحد من هؤلاء بملزم في الحقيقة بدفع أى مبلغ إليه بمثابة أجر له، ولكنهم لا يضمنون عادة بشيء من المال كل بقدر همته وبحسب ما تكون القصة قد أحدثته في نفسه من السرور والارتياح والنشاط.

٦٠- الشعر

إن وزن الكلام وتقفيته سليقة في العرب. فإنهم يميلون بفطرتهم إلى النظم والتقفية إلى حد سهل معه عليهم ارتجال الشعر، وقد بلغ عند الشعراء المرتجلين منهم مبلغا عظيما.

وقد انتشرت في مصر الأغاني العامة الشبيهة بما نسميه عندنا بالرومانس. وينقسم إلى مقاطع تنتهى عادة بقافية واحدة.

وأغانيهم تختتم في الغالب بقولهم « يا ليل! يا ليل! » وبعض هذه الأغاني يرمى إلى الهجو، ويباح فيه ذكر ما لا يباح عادة من القول، إلا أن أغلبه يستشعر منه الحزن العميق والشجو بتضمنه وصف متاعب المحبين بنغمة رثائية واحتوائه من التشبيهات الشعرية ما هو مستمد من أخلاق الأمة

والصفات التى اختصت البلاد بها.

والشعراء المصريون يميلون كل الميل إلى تشبيه وجه المحبوبة بالقمر. ومما يذكرونه فى معارض شعرهم شذا الياسمين ولون الورد وصبر الجمل وبأس الأسد وشوكتة وجلاله، ورشاقة الغزال وخفته وحور عينيه وسكون الليل الخ. ويجدون فى لغتهم الغنية بالألفاظ ومطاوعتها لأداء المعانى المطلوبة ما يمهد لهم التعبير عما يخالج الفؤاد من الأحاسيس المختلفة والعواطف المتباينة.

٦١- الأناشيد المصرية

بالقاهرة شعراء كثيرون اعتادوا نظم الأغانى والأناشيد مرة فى كل شهر وهذه القطع الشعرية تتغنى بها العوالم فى الأعياد العامة والأفراح الخاصة ولا تلبث أن تنبث بين الأهلين جميعا فيحفظونها عن ظهر قلب ويتغنون بها فى أوقات بسطهم وانشراحهم.

(٩) الموسيقى

الموسيقى العربية- استعداد المصريين الموسيقى- آلاتهم الموسيقية- إدخال الموسيقى الأوروبية فى الجيش المصرى.

٦٢- الموسيقى العربية

يميل المصريون ميلا شديدا إلى الموسيقى. ولكنهم يرون أنه مما لا يليق برجل الجد والعمل أن يخصص بعض وقته لدراستها والتدريب عليها. وقد ذمها النبى محمد فى أقواله ونهى عنها، ولكنهم لميلهم الغريزى إليها تجاوزوا هذا النهى. فتراهم جميعا من رجال ونساء وأطفال يتلهون بما فى أوقات فراغهم أو أثناء ممارستهم لأعمالهم. وبلغ من شدة ميلهم إليها أنهم يعلمون فى المدارس ترتيل الآيات القرآنية بأنغام محدودة وأوزان معينة.

ومعلوم أن العرب تلقوا عن الأقدمين ما قرروه من القواعد والأساليب فى

الموسيقى وزادوا عليه زيادة كبيرة. ولم يطلقوا على هذا الفن اسما من ألفاظ لغتهم، بل احتفظوا للدلالة على أصله اليونانى بلفظ الموسيقى الذى ما برحوا يسمونه به حتى الآن.

وقد لوحظ أنهم أخذوا عن الهنود والفرس جملة من الاصطلاحات الفنية فى الموسيقى. كما لوحظ أن بين الأغانى العامة فى مصر والأغانى الشائعة فى أسبانيا مشابهة فى كثير منها. ذلك لأن العرب احتلوا البلاد الأسبانية زمنا طويلا. فكانت تلك الأغانى الشبيهة بالأغانى المصرية بعض ما تركوه من آثارهم قبل رحيلهم عنها. والعرب هم الذين اخترعوا الطبل والارغن.

أما الموسيقى المصرية الحالية فلم تكن إلا فنا من الموسيقى العربية طرأ عليه الفساد. وهى تمتاز بتقسيم الصوت إلى أقسام والأقسام إلى أجزاء صغيرة، كما تمتاز باختلاف مقامها عن مقام الموسيقى الأفرنجية. ولا سيما من جهة عدم وجود المفاتيح فيها بالمرّة. ومع هذا فإن العرب يصمون تقسيمنا لمقام الصوت بوصمة النقص والعيب، ويحطونه هم إلى ثلاث وأرباع وأثمان. وهذه المسافات من الصغر والدقة بحيث يتعذر على السمع تقديرها. ولدقة تدرج هذا التقسيم يتعذر. بل يستحيل على الأوربيين تقليد الموسيقى المصرية، وإن يكن أهل البلاد يدركونها ويلتقطونها بسهولة تامة.

والأوربيون، إذا سمعوا الموسيقى العربية، لا يشعرون بشيء غير ذلك الشعور الذى يبيت فى نفوسهم الحزن والشجو. على أن اتصافها بهذا الوصف الخاص، مضافا إلى بساطة الأنغام التى تتألف من مقامات صغيرة العدد جدا، للدلالة على بضعة أسطر من الغناء، يعطيها فى الغالب حلاوة تستهوى الأسماع. ومهما يكن من آراء الغربيين فى محاسن الموسيقى العربية أو مقابحها، فمن المجمع عليه الاعتراف بما فى أصوات المؤذنين من خصائص الجمال والجلال، أثناء دعوتهم الناس من أعلى المآذن إلى أداء الصلاة.

أما المصريون فسريعو التأثر بأصوات المطربين منهم بالأغانى والأناشيد. وهم يشجعونهم على الإحسان ويستفزونهم إلى الإجابة بما يوجهونه إليهم من عبارات الاستحسان والتحييد التى يعبرون بها عن شعورهم، إذ يصيحون بلفظ الجلالة قائلين « الله! » كلما بلغ الطرب منهم قصاراه. فكانهم

يقصدون بإيراد ذلك اللفظ المعنى الآتى مقدرا: « أحسنت أحسن الله إليك! »
أو « صوتك رقيم حفظ الله صوتك! ».

٦٣- استعداد المصريين لسماع الموسيقى

يميل المصريون إلى سماع الموسيقى منذ قديم الزمان. وما برح هذا الاستعداد الفطري باقيا فيهم حتى الآن. فانسجام الأنغام وإتزانها وضبط قوافيها سليقة فيهم، حتى إنك ترى الناس إذا أرادوا التعاون على أداء عمل، قاموا به على أحسن ما يراد بفضل ذلك الاستعداد الفطري الذى ينظم حركاتهم أثناء عملهم. فيعاونهم نظامها على أدائه مع الاتفاق والسرعة. ويتمكنون فى الأعمال التى يستدعى أدائها اشتراك الأيدى العاملة اشتراكاً مقرونا بالإجماع المنظم، من الحصول على هذا الإجماع بالتغنى جميعاً بصوت واحد.

ولبعض الصناعات عندهم أغان خاصة يقصد بالتغنى بها التعاون على إنجازها بالسرعة والدقة. فللمراكبية أغانيهم وأناشيدهم التى إذا تغنوا بها وأنشدوها مهدت لهم القيام بمهمة جر المراكب فى الأوقات التى لا تكون فيها الرياح موافقة، وللسقايين من هذه الأغانى والأناشيد ما يساعدهم على ملء قربهم بالماء وحملها و، تقريغها، وهكذا بالنسبة لكل صنعة وحرفة. وإذا تذكرنا أن بعض شعراء العصور القديمة مثل (ابشيل) و(مارسيال) و(أوفيدس) قد استرسلوا فى وصف محاسن الأغانى النيلية، استطعنا أن نسلم. على سبيل الترجيح. بأن الأغانى التى ما برح نوتية نهر النيل يتغنون بها أثناء تسييرهم السفن فيه، هى عين الأغانى التى كانت ضفتاه ترجعان صداها قبل بضعة ألوف من السنين، ولكل طبقة من الأمة أغانيها الخاصة بها. أما أغانى طبقة العلماء فتستروح منها رائحة الجد والشدة، لأن أغانى الغرام وأناشيد الحب والهيام لا توافق بالطبع أمزجتهم ولا تتفق مع هيبتهم وكرامة مركزهم.

٦٤- الآلات الموسيقية عند المصريين

لدى المصريون آلات موسيقية كثيرة خاصة بهم هى من أبسط ما عرف من الآلات وأوفقها للحالة الفطرية. نذكر منها الطبل البلدى، وهو من النحاس

ويشبهه الرجل (الدست) غطيت فتحته بالرق، والنقاير وتستعمل في المواكب. والكاسات وتستعمل فيها أيضا، ثم الصنوج (الساجات) وهى أشبه شئ من النحاس توقع الراقصات عليها حركات رقصهن، والدف بكاسات صغيرة (الطار) ويشبهه طبل البشكنس، والدربوكة هى طبل مخروطى الشكل ينتهى بأنبوبة مجوفة، وتمسك بإحدى اليدين بينما تدق اليد الأخرى على الرق الممدود فوق فتحتها. وبالجملية فشكلها يشبه شكل القمع الكبير وهى كثيرة الشيوع فى القطر المصرى. والمصريون يستخرجون منها أصوات مقبولة فى السمع ويمزجون أنغامها مزجا غريبا.

ومن آلاتهم الموسيقية الهوائية الناي والصفارة والزمارة التى يميل نوتية النيل إلى الزمر بها.

أما الآلات الوترية فأبسطها تلك الآلة ذات الوتر الواحد المعروفة بالربابة. وهى التى يوقع المحدثون والشعراء عليها أنغامهم أثناء روايتهم القصص. والربابة آلة جديرة بالذكر. فإنها عبارة عن كمنجة لا تجويف لها يستخرج المصريون منها أنغاما شجية يخيل لسامعها أنها أصوات بشرية. واستخراج الأصوات منها بواسطة القوس. والآلات الأخرى التى من هذا القبيل هى الكمنجة، وهى ذات وترين يتألف كلاهما من أكثر من خمسين شعرة من شعر الخيل منضمة إلى بعضها. إذ إن تجويفها عبارة عن ثلاثة أرباع جوزة مثقوبة بثقوب صغيرة. والقيثارة الحبشية وتشبه العود القديم، والقانون، والعود، وهو قيثارة ذات سبعة أوتار تهتز بفعل ريشة تمسك باليد.

٦٥- المغنون المصريون

المغنون الذين صناعتهم الغناء يسمون بالآلاتية، مفردة آلاتى، وتتألف منهم فى مصر طبقة محتقرة فاسدة الأخلاق، إذا جئ بهم إلى أحد منازل الخاصة تقاضوا أجرا لا يتجاوز ما يعادل ثلاثة فرنكات إلى أربعة عن الليلة الواحدة. والمدعوون لسماعهم يغدقون عليهم عادة، من محض كرمهم، شيئا من المال يضاف إلى تلك الأجرة الزهيدة، وتقدم إليهم أثناء الغناء المشروبات الخمرية كالعرقى وغيرها، وهم يفرطون فى شربها إذ يحدث أحيانا وقد لعبت الخمر بعقولهم، أن يفقدوا رشدهم ويسقطوا على الأرض.

وفي مصر مغنيات يسمين بالعوامل، مفرده عالمة، وهى كلمة أطلقها الأوربيون على جميع الراقصات من غير تمييز ولا استثناء. مع أنه ليس في هذا الإطلاق شيء من الصواب. ويقدر المصريون كثيرا مهارة العوامل وحذقهن في صناعتهن، واعتاد نساء الأغنياء أن يأتين بهن إلى داخل حرمهن ليسمعوهن أغانيهن المقترنة بدقات الطار والدربة - بينما يكون رب المنزل وأصدقائه من المدعوين مجتمعين بصرح الدار ليضطربوا أسماعهم بتلك الأنغام. والعوامل الشهيرات بالحذق والبراعة في صناعتهن تدفع لهن الأجور العالية وتقدم الهدايا النفيسة.

وأغاني العوامل شديدة التشابه والتجانس لا تلبث الأذن أن تمل لهذا السبب سماعها. ومن هذا الوجه لا محل لمقارنة بينهن ومغنياتنا اللاتي يمتزن برخامة الصوت ونعومته ورنينه، ومن المغنين من يتسمون بجمال أصواتهم وهم يتوخون من مقامات الصوت، الجهر الكروانى وبالجملة الأصوات الحادة حتى تراهم وقد انتفخت أوداجهن لهذا الغرض وتكلفوا ما فوق طاقتهم للمحافظة على المقامات العالية من الصوت أطول ما استطاعوا من الزمن. وهيئتهن في هذه الحالة لمن أغرب ما تقع عليه الأبصار، لأنهم عقب هذا الانتفاخ يطرقون برؤوسهم ويضعون أصابعهم في آذانهم ويحشونها بتجويف كفوفهم ويخرجون الأصوات من حلقهم بأقصى مجهودهم.

٦٦- الموسيقى الأوروبية في الجيش المصرى

لما تم تنظيم الجيش المصرى، وكانت الحكومة المصرية تعلم أن لكل أورطة في الجيوش الأوروبية موسيقى خاصة بها، أرادت هذه الحكومة أن لا تكون من هذه الجهة دون غيرها من حكومات الغرب. فاستدعت إلى مصر طائفة من الموسيقيين الفرنسيين عهدت رياستها إلى مؤلف حاذق من مشاهير المؤلفين الأسبانيين في الفنون الموسيقية. فأنشأ هذا الأستاذ ببلدة الخانقاه، حيث كان ميدان تعليم الجيش وأركان الحرب، معهدا للموسيقى جمع بين جدرانه مائتى تلميذ. فتعلم هؤلاء الطلبة الموسيقى الأوروبية الصوتية وتدريبوا على الضرب بالآتنا. وكما أنهم استعاروا منا آلاتنا الموسيقية. كذلك أخذوا عنا أدواتنا الحربية وأغانينا العسكرية.

وفي هذا المقام لايسعنى إلا الاعتراف بأننى بالرغم من سرورى واغتباطى

بسماع أنغامنا الوطنية والأناشيد العسكرية ترددها الأجواء على مقتضى إيقاع تلك الأنغام والأناشيد، إلى غايات الفوز والفخر في المكان الذي سار أبطالنا فيه قبل ثلاثين عاما، لم أشعر قط بمثل ذلك الاغترباط والسرور لمناسبة استعادة المصريين لها منا، ونقلهم إياها عنا من غير تحوير ولا تبديل. فإن موسيقانا لا تؤثر بالمرّة في المصريين، حتى أن أنشودة بونابرت لا تهز وترا واحدا من أوتار أفئدتهم، ولا تنشرح لها صدورهم، ولا تميل إلى التقاطعها أسماعهم. دع أن مطالبة المصريين باستعمال آلاتنا الموسيقية والتغنى بأناشيدنا الخاصة لم يتوافر معه الغرض المطلوب من الموسيقى العسكرية. فإن حكومات أوروبا لما أنشأت كل منها موسيقاها العسكرية كانت لا ترمى إلا إلى غرض واحد وهو التأثير في العساكر بقوة تبث فيهم النشاط والحماس والهمة.

ولاشك في أن الموسيقى لغة، ولغة فصيحة تؤثر في مجاميع الناس وطوائفهم تأثيرا عظيما، ولكن إرغام المصريين على سماع أدوارنا الموسيقية وأدائها بآلات غير التي ألفوها قد أوقع الذين أرادوا هذا الإصلاح المعكوس وقاموا به في عين الخطأ الذي وقع فيه من يريد تحريك شعب بإرغامه على حفظ عبارات فصيحة فخمة بلغة لا يفهمونها لأنها غير لغتهم. وعلى هذا فالمصريون الذين يغمى عليهم سرورا إذا سمعوا أغاني المغنين والآلاتية منهم، وهي على ما عرفت من التجانس والتشابه الباعثين على المل، لا يشعرون حين سماعهم الآلات والأدوار الموسيقية الأوروبية إلا بالمل وانحراف المزاج. وإذا كان من الآلات الأوروبية ما يتلذذون بسماعه وتحسن في نظرهم رؤيته فهو الطبل الكبير. أما الآلات الأخرى فأصواتها في حكمهم خليط لا يستحق الاهتمام والاعتبار.

وكان الواجب والصواب في آن واحد، أن يستدعى إلى مصر فريق من الفنانين في الموسيقى القادرين على إدراك مغازي الموسيقى العربية وعبقريتها ليركبوا منها موسيقى خاصة يكون للآلات الموسيقية الوطنية نصيب من مجموعة آلاتها. وبهذه الوسيلة كان يمكن التأثير في نفوس الجنود المصريين تأثيرا موسيقيا لا ريب فيه.

وبدهى أنه ما كان لموسيقانا أن تجد، بين أناس لا يهتمون بها ولا يخفق

لهم قلب عند سماعها، أن تؤدي أداء حسنا بمعرفتهم، فلم يكن من الغريب إذن أن تقر الحكومة ما أقزته من إلغاء معهد الخانقاه الموسيقي الذي كان - بالرغم من الموانع والصعوبات السالفة - ينشئ عددا لا بأس به من الموسيقيين الأكفاء القادرين. وقد استعاضوا عنه بأن جعلوا في كل أورطة من الجيش معلما أوربيا للموسيقى، ولكن ما كان بميسور لمعلم واحد أن يحرز ذهنه نظرية الآلات المراد استعمالها جميعا ولا طريقة استخراج الأصوات منها. لذا كان متعذرا على الموسيقي العسكرية المصرية أن تجاري الموسيقى الأوربية. ولو ترك المصريون وشأنهم في تطبيق الموسيقى الأوربية. على حاجاتهم لتطرق إليها الفساد والاختلال بلا ريب.

(١٠) الرقص

الرقص المصري - الرقصات والعوالم - الرقاصون.

٦٧- الرقص المصري

لا وجه بالمرّة من وجود الشبه بين رقص الشرقيين ورقص الغربيين. فعندنا ينظر إلى الرقص بوجه عام من حيث كونه إحدى وسائل الابتهاج والسرور بين طائفتين من الجنسين اللطيف والخشن. أما في الشرق فمحال أن ترقص امرأة مع رجل. والرقص في أوربا رياضة عملية تتلخص في أداء أشواط من الحركات موقعة إيقاعا متناسقا وتحريك الساقين تحريكا يراعى فيه الاقتران والتوفيق على وجه الدقة والضبط.

أما في مصر فما هو إلا تتابع أوضاع وتعاقب حركات يلتوى الجسم فيها تارة وينعطف أخرى. يرمى بذلك إلى غرض واحد هو استثارة كوامن الشوق إلى الملاذ الشهوية.

والمفهوم أن الرقص المصري وجد بنوعه وشكله منذ العصور الموحدة في القدم. فقد رأيت في النقوش الهيروغليفية بمعابد طيبة والقرنة وغيرهما مناظر مما يقع داخل البيوت كمناظر الراقصات في ثياب كالتى يلبسها الآن

وأوضاع وحركات لا تختلف في شيء عن أوضاعهن وحركاتهن اليوم.

ثم إن هناك تشابها عظيما بين رقص الراقصات الهنديات والعوالم المصريات. وليس هذا وحده وجه الشبه بين الفريقين. فإن رقص الراقصات الأسبانيات من نوع الرقص المصري، وهو مطبوع بالطابع العربى. ولكنه، والحق يقال، أخف من الرقص المصري وأرشق وأدق وأطبق على المعانى الشعرية.

والغرائز في مصر، من حيث ارتباطها بالآداب النفسية، أكثر انفعالا بعوامل الفساد منها في سائر أقطار المملكة العثمانية. فإن الرقص، مع أنه غير مباح في الديانة الإسلامية، مسموح به لغوازي (الراقصات العموميات) اللائى لا يقتصرون في عرض حركاتهن الشهوية على المنازل الخاصة. بل يتجاوزنها إلى الطرقات والميادين العامة. على ملاء من الجمهور. ومنذ سنوات قليلة صدرت أوامر الشرطة في مصر بمنع تلك الراقصات من التجوال في طرقات القاهرة والإسكندرية.

ولا يدخل الرقص في برنامج الدروس التى تعلم للبنات، ولكن البعض منهن يتدربن على أداء حركات العوالم ورقصهن. ومع أن هذه الحركات في غاية القبح وسوء الأدب فإن الأهلين لا يستقبحونها ولا يتضجرون منها. والمحقق أن النساء المحصنات العفيفات الذيل لا يجرؤن على الرقص إلا في داخل منازلهن بين صويحباتهن، ولكنهن لا يأتينه على مشهد من أبائهن أو أمهاتهن أو أزواجهن. ولما كان الرقص من وسائل التسلل والابتهاج التى تروق السيدات كثيرا، فقد اعتاد العظماء والأثرياء اتخاذ الراقصات في منازلهم من الجوارى لإدخال السرور على زوجاتهم برقصهن وشرح صدورهن بحركاتهن.

ومن النادر جدا أن يدعو المسلمون الغوازي إلى منازلهم. فإذا وجد من بين سكان مصر من يجيز لنفسه هذا الترخص فإنما هم اليهود والأوربيون. وإذا اتفق وجود الغوازي في منازل المسلمين برسم الرقص فإنهن لا يرقصن إلا على مشهد من الرجال وحدهم أو من النساء بمعزل عن الرجال. وسواء أكان الرقص لهذا الفريق أم لذاك فإنه يحصل في بهو الاستقبال. والراقصات إذا

رقصن فيه برسم الرجال جىء بالنوبة - أى طائفة آلات الطرق، ويبد كل من رجالها إحدى الآلات التى سبق وصفها، لايقاع الحركات على مقتضى الأنغام. ويبلغ شعور الراقصات بالحاجة إلى الإيقاع والتناسق فى الحركات إلى حد أننى شهدت بنفسى البعض منهن لا يستطعن القيام بأداء حركاتهن، إذا قصرت الموسيقى عن أداء الأنغام بحسب الوزن المطلوب.

والعادة أن يجلس الموسيقيون فى ركن من أركان البهو وأن تشغل الراقصات المكان المعروف بالدركة، وأن يجلس المدعوون فى سكون تام على الدواوين يتمتعون بهذا المراءى الشهوى وهم يدخنون الشبكات. ويطاف على الراقصات والموسيقيين، من آن إلى آخر، بأقداح العرقى الذى يستفزههم بالتدريج إلى الإمعان فى الرقص والغناء. ولكنه كثيرا ما يفقدهم الصواب ويلقيهم فى غيابات السكر جميعا فلا يفيقون من سكرتهم إلا بعد ساعات طويلة. أما إذا كان الرقص فى الحرم فإن الموسيقيين لا يحضرون مجلسه. وفى هذه الحالة توزن حركات الراقصات بالطار والدبكة الذين ينقر عليهما جماعة النساء من حاشية ربة البيت.

٦٨- الراقصات

السواد الأعظم من العوالم فى مقتبل العمر وعلى حصة وافية من الجمال والحسن، إنهن يجمعن إلى فن الرقص مزية الاتصال مع الرجال بالروابط التى تربط الخلية عادة بخليها. وملابسهن تشبه على وجه التقريب ملابس السيدات المتأنقات فى ثيابهن اللائى وصفناهن فى غير هذا الموضع، ولكنها تختلف فى مظهرها الخارجى عن ملابس الحلائل الطاهرات الذيل. فمن ذلك أنها تضغط على أجسامهن فتصفها أكثر مما تصف ثياب الحلائل أجسامهن، دع أنهن يكشفن عن نحورهن وسواعدهن، ويتوخين الزخرف والزينة فى ثيابهن وحليهن، ويتخذن هذه الثياب من فاخر الأقمشة ويتحلين بالكثير من المصوغات والجواهر.

وإذا رقصن يرقصن إما مثنى وإما رباعا. ومع كونهن يتحرين التوفيق أحيانا بين حركاتهن، فإنهن لا يأتين بأوضاع منتظمة كالتى تترأى لنا فى الصور أو على مسارح التمثيل.

وطبيعة رقصهن من مخالفة الآداب والأخلاق بما يمنعني عن التصدي لإيراد تفاصيله ووصف أجزائه. لذا أكتفى بوصفه وصفا سطحيا يصور للقارئ شيئا من حقيقته. فإنهن إذا اصطفن في الدركة تقدمن بضع خطوات ضاربات بالصنوج (الصاجات) المثبتة بأطراف أصابعهن (الإبهام والسبابة) محركات أيديهن فوق رؤوسهن وحول أجسامهن، فيؤدين هذه الحركات أداء جميلا للغاية، وبعد هذه المقدمة يبتدىء الرقص الذي يتلخص وصفه في احتفاظ الساقين والجذع من الجسم بسكونها مع تحرك الذراعين والتقاءهما بحيث يتكون منهما ما يشبه الحلقة ثم انخفاضهما تارة وارتفاعهما أخرى بحسب الأطوار المختلفة للشعور الشهوى الذي يستثير هذه الحركات فيهن.

وترى أجسامهن مضطربة على الدوام اضطرابا يشتد أحيانا بما يبذلنه من النشاط ويضعف أحيانا أخرى لتكلف الكلل والملال وما يستتبعانه من الفتور والدلال. وقد تضطرب أعضاء من الجسم دون غيرها وتنثنى فتتحط بفعلها الحرقفتان تارة وترتفعان طورا آخر، وتنطبع هذه الحركات كلها بطابع يجعلها مناقية للحياء والحشمة لدالتها على المقاصد الشهوية بالغة أقصى حدتها.

ورقص الغوازي على صنوف متنوعة. أولها، وهو أدلها على ما هناك من الجرأة في أداء تلك الحركات، مصرى الابتكار. وثانيها خليط من الرقصين المصرى واليونانى إذ يتخلله التنقل بالخطوات. وثالثها الرقص المعروف برقص النحلة. ومؤداه أن يتصنع العوالم حالة من تلسعة النحلة، فيأخذن بالبحث عنها في ثيابهن صائحات : « النحل أوه! النحل أوه! » ولكى يقبضن على هذه الحشرة التى لا وجود لها الا في مخيلتهن يتجردن شيئا فشيئا من ثيابهن حتى لا يبقى على أجسادهن سوى غلالة شفاقة تخفق بشدة حركاتهن حول أجسامهن، ويفتحنها من آن إلى آن ثم يضممنها بمقتضى الإيقاع النغمى.

وإنى اترك للقارئ الحكم على تأثير هذا المنظر المحرك لكوا من الشهوات حتى فى العواطف الجامدة.

ومتى بلغ الرقص من مداه حدا تثور فيه الأشواق الشهوية، تلجأ الراقصات إلى الراحة وتختلطن بالمتفرجين لعاكستهم ومناوشتهم. وأغلب ما يوجهن دعابتهن إلى زعيم المدعوين وعظيمهم. ولست بحاجة إلى القول بأنه لا يتمالك نفسه من الاسترسال معهن في هذه الدعابة. ومن مزاجهن في هذه الفرصة جلوسهن في حجر من يقصدنه بملاطفتهن وتقبيلهن أو معانقتهن إياه. وبالجمله فإنهن يتطوحن معه في أساليب من المداعبة والمطايبة يتفر منها من لم يعتدها. والأوربيون يخلجون طبعاً من نظرها أو سماعها. أما بقية المدعوين فيظهرون للراقصات ارتياحهم منهن وإعجابهم بحسن أسلوبهن في الرقص، ثم يخصوهن بالتحف والهدايا يقدمونها إليهن على شكل يدعو إلى الاستغراب. إذ غالباً ما تكون هذه الهدايا قطعاً صغيرة من النقود الذهبية يريقونها بلعابهم ثم يلصقونها على جباههن ونحوهن وسواعدهن.. الخ.

وأجمل العوالم وأبرعهن في استمالة الرجال إليهن يحرزن في الغالب جانباً لا بأس به من الثروة والنفوذ والدالة، وتتألف منهن في الأمة المصرية طبقة خاصة تعيش في معزل عن سائر الطبقات.

وغير خاف أن الغوازي يرجع تاريخ وجودهن إلى العصور الموعلة في القدم أى إلى العصر الذى ابتكرت فيه حركات الرقص الشهوية التى كان الفراعنة الأولون يتلهون بمشاهدتها. بدليل ما هو منقوش من صور تلك الراقصات في قبورهم منذ آلاف السنين.

٦٩- الراقصون

معلوم أن في الرقص المصرى شيئاً يخالف المؤلف المؤلف ويستفز العجب. ولكن من المرغوب فيه أن يستبدل هذا الرقص بما يكون أوفق لمقتضى الآداب والأخلاق الفاضلة. وعلى كل حال فالرقص كما يشاهد الآن من الوجهة العامة أفضل بكثير من الحركات السخيفة السافلة التى يقوم بها الراقصون في مصر.

ومع أنه من المقرر في الدين الإسلامى أن لايباح لرجل مشاهدة رقص النساء. فإن من الرجال في مصر طائفة تحترف الرقص وتعرف فيها باسم «الخولات».

والخولات يتزيفون عادة بزى النساء . وإذا كان الرجل الذى يرقص عندنا قليلا ما ينال من الرأى استحسان رقصه فإن الخول المصرى إذا رقص، لا يترك فى نفس من يشاهده إلا التقزز والاستككار . وحينئذ فما يعتبره الناقدون غير ملائم للأدب فى رقص العوالم ممقوتا ومخجلا فى رقص الخولات.

ومنذ صدرت الأوامر بمنع رقص النساء على قوارع الطرقات إزداد عدد أولئك الراقصين المخنثين زيادة يندى منها جبين الأدب ويحمر وجه الإنسانية، وكان من أثر ذلك المنع أن حل مكان فساد فساد آخر أسوأ وأفظع منه. وإنى لأرجو من الحكومة المصرية أن تعجل باقتلاع جذور هذا الخزى الذى يندس أرض مصر أو احتمال الخفيف الضر منه من باب التفضيل على مالا قبل لأحد بضره وشره.

(١١) الألعاب والرياضات والمشعوذون

الألعاب الحسابية- الرياضة البدنية- ركوب الخيل- الحواة
والمشعوذون

٧٠- الألعاب الحسابية

أكثر الألعاب موافقة لطبيعة الدعة والسكون فى المصريين وأوفقها لميولهم وأذواقهم الألعاب الحسابية التى تذكر منها الدامة والطاولة والشطرنج. ولهم بهذه الألعاب ولع شديد. إذ كثيرا ما يرى اللاعبون بها يقضون النهار برمته فى نقل قطعها على الرقع. وصناعة هذه القطع لا أثر فيها لدقة. وهى برسم الكبراء والأثرياء تصنع من الأخشاب الثمينة أو سن الفيل.

أما لعبة الورقة (الكتشينة) فالأقبال عليها قليل، ولذا ترى المصريين يجهلون الألعاب التى تبني عليها وتستنبط منها ولا سيما لعبة القمار التى مدارها ربح المال وخسارته.

وهناك ألعاب أخرى خاصة بمصر والشرق يطول بنا الشرح إذا تصدينا لبيانها فى هذا المقام، وإنما نذكر منها لعبة المنقلة وهى تلعب من اثنين على

لوحة من الخشب حفر في اتجاهها الطولى إلى كل جانب من جانبيها ستة تجاويف يتألف منها صفان متوازيان وتوضع فيها قطع صغيرة من الأحجار أو أصداف بحرية بقصد ضمها جميعا بتدبير اللعب وسياسته في تجويف معين من قبل.

ثم لعبة الطاولة وهى عزيمة الانتشار شديدة الالتباك، وبينها وبين لعبة الطاولة بعض المشابهة. أما لعبة السيجا فأكثر الناس إقبالا عليها هم الفلاحون، وتشبه من وجوه كثيرة لعبة الدامة.

واللعب بهذه الأدوات تجرى أدواره إما بالمنازل أو بالقهوات العامة وفي النادر يكون النقد موضوع المراهنة. إذ لا يتعدى موضوعها بوجه عام بعض الفناجين من القهوة.

٧١ - الرياضة البدنية

مما يجعل المصريين غير صالحين للقيام بالتمارين الرياضية البدنية التى تتطلب من مؤديها الرشاقة والقوة والحيلة سرعة وقوع الوجل في قلوبهم أمام ما يحسبونه خطرا على حياتهم وضمنهم بأرواحهم أن تجشم المتاعب والمصاعب. لهذا لم تقع الأنظار عليهم متنافسين في إحراز قصب السبق في الركض أو المصارعة أو غيرهما من ضروب الرياضة التى تبتث في الجسم النشاط والهمة وتكسب الأعضاء اللين والمرونة. نعم إن الفلاحين اعتادوا المنازلة أحيانا في الأعياد والحفلات العامة بالعصى الطويلة المسماة بالنبابيت التى مدار الفوز بها محاولة إصابة الخصم في رأسه ولكنهم، إذا هموا باللعب، يحملون على بعضهم البعض بالضربات أو يتقونها بهمة فائرة ولين وتقصف لا أثر فيه من البسالة والإقدام

وعلى كل حال فمنازلتهم بعضهم البعض على الوجه المتقدم لا تنهض دليلا على أن فيها شيئا من البراعة والحدق. وهم يباشرون المصارعة أيضا، والمصارعون يتجردون عادة من ثيابهم بحيث يبقى نصف أجسامهم عاريا. وهم يدلكون هذا الجزء بالزيت ثم يتظاهر كل مصارع بأنه يحاول التغلب على خصمه بصرعه على الأرض. ولكن الذين يشهدون هذه المصارعات ممن يفهمون معنى النشاط واليقظة والحيلة ويقدرونها قدرها ويعتقدون توافر

هذه المزايا في المصارعين الأوربيين لايسعهم النظر إلى تلك الجهود إلا بعين
الازدراء والتهكم والاحتقار.

٧٢- ركوب الخيل

ركوب الخيل أو الفروسية من الرياضات المنظورة إليها في الشرق بعين
الاجلال والاحترام. والشرقيون يعتبرونها من أشرف ضروب الرياضة
وأسمها قدرا، ولا يكادون يتجاوزون طور الطفولة حتى يتفرغوا للتدريب
عليها، ولا سيما إذا كانوا من البيوتات الكريمة أو الأسر المعروفة بسعة العيش
وكثرة المال، ولتدريبهم على الفروسية وبراعتهم فيها تراهم يركبون أشد
الخيال جموحا وأكثرها شموسا بهيئة تدل على الوقار وحسن السمات وجلال
الهيبة. ويقومون وهم ركوب عليها بصنوف كثيرة من الحركات التي من
شأنها توثيق قوتهم وفتح أبواب الخيل أمامهم وتنمية البداهة فيهم حتى
يصير حضور ذهن من أخص صفاتهم، ولقد كان الممالك في الزمن السابق
متفوقين في هذا النوع من الرياضات وأفضى تفننهم في الخطران بالسلاح،
وهم على متون الجياد وترويضهم الخيل على أداء أسرع الحركات وأصعبها،
إلى وصف فرق الخيالة وشرانمها منهم بأنهم أحسن الفرسان طرا على وجه
الأرض.

وكان من أخص رياضاتهم بعد انثلال = زوال = عرشهم وانقراض
ذريتهم من مصر الرياضة المعروفة بالجريد. وهي مما يذكرنا ببراجسنا
القديمة أيام انكباب الناس في فرنسا على الفروسية واشتغالهم بالرياضات
البدنية على متون الخيل، ومؤدى تلك اللعبة أن يركض فارسان عدوا من
جانبين متقابلين ليلتقيا ببعضهما.. ففي أثناء هذه يقذف أحد الفارسين
بأقصى في ساعده من القوة والشدة عصى من جريد النخل يختلف طولها
من أربعة أقدام إلى ستة يقصد بها إصابة الفارس الآخر. فإذا أصابه بها فقد
يحدث به جرحا بالغا - ربما يلقي بسببه حتفه، وهذا لا يكون طبعاً إلا إذا
أنفق من قوته الكثير من إلقاء تلك العصى على نظيره. ولكن وجه الحيلة في تلك
اللعبة أن يستطيع الفارس المراد إصابته بالجريدة اتقاءها بل واختطافها بيده
وهي تخترق الجو مصوبة إليه. وقبل أن يبرز فرسان العرب لأداء هذه اللعبة
العسكرية يقضون زمنا طويلا في التمرن على إصابة غرض ثابت معين

بالعصى من الجريد.

على أن هذه التمارين الرياضية لن تقرب من نظائرها التى تشاهد فى ملاعب الخيل بأوروبا ولن تعدلها.

٧٣ - الحواة والمشعوذون

الحواة منتشرون كثيرا فى شوارع القاهرة وميادينها، وهم يقدمون أدوارهم التمثيلية وسط حلقة من المتفرجين الذين سرعان ما يتواردون من كل جهة للتفرج على هذه المناظر. وهم يقومون بعدد عظيم من الأدوار يكسبون استحسان الجمهور المتفرج وما يقدمه إليهم من العطايا الصغيرة بما يبذلونه من الكلمات ويبدونه من الحركات التى لا تتفق ومكارم الأخلاق. وللحواة عادة عون أو عونان من الأطفال فيوهمون المتفرجين أنهم يغرزون فى جسم أحدهم نصلا أو رمحا من الحديد، وهذا السهم انما يغيب فى قراب من الخشب. وقد يطرح الطفل أرضا ويستعمل الطريقة عينها.. موهما الناظرين أنه يغرز فى أنفه نصلا مطويا أو مدية صغيرة. وفى أحيان أخرى يفتح شدقه ثم تمسك بخديه داخلا وخارجا لينفذ منه قفلا لا يلبث أن يقفله بالمفتاح فيظل هذا القفل معلقا بوجه الطفل المسكين، والحقيقة أن شيئا من هذا القفل لم ينفذ من خد الطفل الذى يظن المتفرج أنه يقاسى من العذاب ألوانا.

وبالجملة فأغلب أدوار الحواة المصريين تشبه من وجوه كثيرة أدوار الحواة المتنقلين فى أوروبا. ومن أخص أدوارهم دور الأكواب التى يحولون البيض فيها إلى كتاكيت، ويصبغون بالألوان المختلفة قطع الورق الأبيض الخ. ومن أدوارهم أيضا إيهامهم الناظرين أنهم يبتلعون الخام من القطن أو الصوف ثم يستخرجونها من أفواههم مغزولين وملونين بمختلف الألوان، ومنها أنهم يلقون التراب فى إناء ممتلئ ماء ثم يستخرجونه فإذا به جافا، ويتفننون فى أشباه هذه الحيل التى لا يحصيها العد بين استحسان المتفرجين وتصفيقاتهم الحادة.

وفى أيام الأعياد والحفلات يقوم الجعيدية المضحكون بتمثيل نوع من المناظر المضحكة فى الطرقات والميادين لإدخال السرور على العامة. ولدى

المصريين وسيلة لهو يقوم بالتمثيل فيها تماثيل صغيرة على شبه الإنسان وتسمى بالأراجوز. والممثل الذى يحرك التماثيل يستتر عن أنظار المتفرجين فى مربع من الألواح الخشبية ثم يحرك تلك التماثيل بخيوط يمسك بأطرافها ويقرن حركاتها بأقوال يفوه بها. فيخيل للسامع أنها أقوال تلك التماثيل وألفاظها.

وهناك طائفة من ممثلى الروايات المضحكة تؤدى أدوارها فى منازل الخاصة ولا يدخل فى تضاعيفها من الحوادث ما يستمد من الحيل والدسائس أو يشير إلى أنها جاءت عفواً ومن غير تكلف أو قامت على أساس من الذكاء والعقل. وبالجمله فإن مصر مهد لفرع من فن الروايات لا يزال على فطرته الأولى مجرداً مما تحسن فى السمع أو البصر.

وهناك طوائف وقرق من البوهيميين « الغجر » يمثلون أمام الجمهور بعض أدوار القوة والصلابة البدنية، فيرقصون على الحبال المشدودة أو يطوفون على الناس بقرودهم وكلابهم وغيرها من الحيوانات المعروفة بالذكاء فيجعلونها ترقص أمامهم أو تأتى من الحركات المضحكة ما يدخل السرور عليهم.

(١٢)

٧٤- الأعياد والحفلات العمومية

إذا استثنينا حفلة قطع الخليج، وهى الحفلة العامة التى حرص المصريون بحكم التقاليد على إقامتها احتفاءً بوفاء النيل منذ الألوف العديدة من السنين، فإننا نجد الأعياد والحفلات الأخرى كلها ذات صبغة دينية لا مرأى فيها.

والذى يمر بخاطر الناظر فى هذا الأمر والباحث عن أسبابه، أول وهلة، أن الشريعة الإسلامية لم تترك جهداً إلا وبذلته لتمييزهم على غيرهم من معتنقى الديانات والعقائد الأخرى. فهى فى دعوتهم إلى أداء فرض الصلاة بالمساجد لم تتخذ النفير الذى ينفخ العبرانيون فيه لهذا الغرض، ولا الأجراس التى يدقها المسيحيون له، بل قضت بأن يكون الأذان هو النداء الداعى إلى الصلاة.

والعادة، إذا دخل الإسرائيليون معابدهم، أن يدخلوها لابسى أحذيتهم غير مكشوفة رؤوسهم. كما أن عادة المسيحيين، إذا غشوا الكنائس، أن يكشفوا رؤوسهم.

أما المسلمون فإنهم إذا دخوا مساجدهم أبقوا عمائمهم على رؤوسهم وخلعوا نعالهم. وحتى لا تكون هناك قدوة باليهود والمسيحيين في راحتهم الأسبوعية لم تتخذ الشريعة الإسلامية أحد يومى السبت والأحد للتماس الراحة من عناء العمل، بل اتخذت له يوم الجمعة الذى لم يكن المقصود به، بمقتضى الشريعة الإسلامية، الإمساك عن العمل لطلب الراحة بل أداء صلاة الجمعة. ولهذا ترى المسلمين، بعد قيامهم بهذه الفريضة الدينية، ينصرفون إلى ممارسة أعمالهم كما اعتادوا مزاولتها في بقية أيام الأسبوع بلا فارق أبدا.

أما الأعياد العامة التى يتحتم عليهم الاحتفال بها فتتخصر في عيدى الفطر والأضحى. وليست الأعياد الدينية الأخرى التى سأسردها فيما بعد، إلزامية كالعيدين.

فالسنة الهجرية من هذه الأعياد، تبتدىء بشهر محرم الحرام. لأن العشرة الأيام الأولى من هذا الشهر تعد من الأيام المباركة، ويرتبط بها كثير من الأوهام الباطلة التى يسلم العامة بصحتها، ويسمى اليوم العاشر منها بعاشوراء بذكرى وفاة الحسين شهيدا في واقعة كربلاء.

وفي صفر تبدو بين الناس حركة عظيمة سببها الاهتمام بالاستعداد لعودة المحمل الشريف من مكة إلى مصر.

ومنذ الشهر الثالث من السنة الهجرية تعد المعدات العظيمة للاحتفال بمولد النبى وإقامته في ميدان الأزبكية بمظاهر الأبهة والجلال. والدرأويش السعدية المحور الأكبر الذى يدور عليه هذا الاحتفال العظيم. فإنهم يجتمعون طوائف كثيرة ويعكفون على الأذكار التى سبق لى وصفها في إحدى الفقرات المتقدمة. والعادة أن يبقى الشيخ البكرى، شيخ سجادتهم، بميدان الأزبكية. فإذا أقبل ذلك اليوم عاد في موكب جليل من المسجد إلى داره. وقبل أن يصل إليها بقليل يقف في الطريق حيث تقام بحضوره الحفلة المعروفة بالدوسة.

وبيان هذه الحفلة أن ينكب نحو مائة من الدراويش أو مائتين على وجوههم فوق الأرض متلاصقين متلاحمين فتتكون من أجسامهم سجادة بشرية لا يلبث الشيخ الجليل أن يسير عليها ممتطيا جواده. يتبعه بعض مريديه سائرين عليها حفاة الأقدام. والذي يزعمه أولئك الدراويش بعد مرور الشيخ ومريديه فوق أجسامهم أن سنايك الجواد لم تصبهم بألم ما، وأن هذا ينهض دليلا على ولايته. وتقام حفلات عديدة بمناسبة موالد بعض الأولياء أشهرها مولد الحسين ثم مولد السيدة زينب. وليلة السابع والعشرين من شهر رجب تعد من الليالي المباركة التي ينبغي إحيائها بالحفلات لأنها ليلة المعراج التي عرج النبي فيها إلى السماء. وقد ذكرت أن شهر رمضان وعيد الفطر الذي يتلو ختامه وعيد الأضحى الذي يطابق وصول الحجاج إلى مكة من الأعياد التي تقام الحفلات العامة برسمها. ففي هذه الأعياد وفي ليالي رمضان كلها يقوم المغنون والمحدثون والشعراء والحواة والراقصات والموسيقيون بإدخال السرور على الجمهور في الشوارع كلها مما يسهل على الباحث في أحوال مصر وعادات أهلها الوقوف على ما يمتاز به الشعب المصرى من الأخلاق الغريبة والعادات العجيبة.

(١٣)

بيانات تفصيلية عن الأخلاق

٧٥ - الشحاذة

بالرغم من أن أهالى مصر يرزحون تحت أعباء الفقر ويرسفون في أغلال العوز والفاقة، فإن الشحاذة لم تكن فاشية فيهم بنسبة فقرهم وعوزهم. وسبب ذلك أن احتياجات المصريين تنحصر في دائرة ضيقة تجعل مداركتها أمرا ميسورا عليهم. بل إن مداركتها من السهولة بحيث يندر أن يوجد في القطر المصرى كله رجل واحد يعجز عن كسب قوته بنفسه.

ويتقى المصرى برد الشتاء بقميص بسيط. لأن الشتاء في مصر لم يكن زمهريرا، ولا يرهب حرارة الشمس وقيظ الهاجرة لاعتياده إياهما منذ نعومة

أظافره. وإذا لم يكن مالكا ما يسد به الرmq من القوت فإنه يثق بحصوله على شىء من الخبز من أى مكان من أبناء جلدته يواجهه فى طلب إسعافه، فالمرى الفقير لا يموت بالجوع أبدا.

وكان بعاصمة القطر الممرى فى زمن مضى جماعة من الشحاذين يتجرون بالعواطف التى يستفزها الإسلام فى نفوس المسلمين بما فرضه عليهم من الزكاة والإحسان، حتى اقتنوا من المال شىئا كثيرا من تلك الطريق بإلحاحهم وإلحافهم فى السؤال. وكان سوادهم الأعظم ينفقون هذا المال فى ملاذهم، ولا سيما فى تدخين الحشيش. فيصور لهم الخيال أثناء تخدرهم بهذه المادة أنهم أسعد الناس حظا فى هذا العالم للشحاذين وأن ما يشعرون به من الملذات الخيالية لا يختلف فى شىء عن الملاذ الحقيقية التى يحس غيرهم بها فى عالم الحقيقة. ومنذ بضع سنوات أنشأ محمد على مستودعا لشحاذين جمع فيه أكثر من أربعمئة شحاذ رجالا ونساء وأطفالا.

٧٦- اللصوص

كان انتشار الفوضى فى مصر، قبل أن يتسلم محمد على ذروة الحكم، من بواعث اختلال الأمن واضطراب حبل النظام وتؤلف عصابات اللصوص فى كل مكان، وعلى الخصوص فى الوجه البحرى. وقد اختص لفيق منهم بالقرصنة على نهر النيل. إذ كانوا يلاحقون القوارب سباحة لسرقة ما تحمله، ويتخيرون الليل لارتكاب جرائمهم.

وتدور على السنة الناس قصص عن مهارتهم وجراتهم تكاد لاتصدق. ولكنهم كانوا مع ذلك فى غاية الجبن. إذ كانوا يخشون بأس الأوربيين ويفرون من أمامهم إذا وقفوا لهم وقفة الجاد لا المازح وكشروا عن أنيابهم. لقد استأصل محمد على شأفة أولئك اللصوص وتمكن بعزمه الماضى وبأسه الشديد من القضاء على القرصنة فى النيل واللصوصية التى اتخذها العربان حرفة لهم، وألزم سكان القرى جميعا الذين تقع فى دائرتهم التعديات على عابرى السبيل بتبعة ما يقع منها من دفع التعويض الوافى متضامنين لمن يصيبهم الضرر من جرائمها. فصاروا لهذا السبب يهتمون بالمحافظة على النظام، ويؤدون وظيفة الشرطة متطوعين من السهر على حفظ الأمن

والسكينة في نواحيهم.

ومع هذا فحوادث السرقات بمصر أقل منها بأوروبا، وعلى الخصوص الحوادث المصحوبة بالظروف المضاعفة للعقوبة كأن تكون السرقة سطوا استعمل فيه السلاح أو الكسر الخ.

٧٧- المحكوم عليهم

منذ أنشئت ترسانة الإسكندرية ابتكرت للمجرمين عقوبة جديدة قصد بها إفادة هذا المصنع العظيم ببعض الأيدي العاملة وصرف أصحابها عن الأذى وتعويدهم العمل الصالح. فالمجرمون الذين ارتكبوا جرائم معينة يحكم عليهم الآن بالأشغال الشاقة المؤقتة لمدة طويلة أو قصيرة. وهذه العقوبة في مصر لا تسبى سمعة المحكوم عليهم بها ولا تحط من أقدارهم، إذ كثيرا ما شوهوا بعد انقضاء مدة العقوبة وانقلابهم إلى أهليهم وهم يحلون محلهم القديم في المجتمع الإنساني، ويتحلون بالرتب والامتيازات التي كانت لهم قبل الحكم عليهم. ولو حظ في حالة ميلهم إلى الزواج أن لا أسرة من الأسر التي طمح في الارتباط معها برابطة المصاهرة رأت في سعيه لديها ما يلوث شهرتها أو يذهب برونقها أو يحط من مكانتها بين الناس. ويدعو إلى ذلك أن المسلم لا يرى في العقوبة التي يقضى بها الشرع ما ينافي شرفه وكرامته أو يصمه طول عمره بوصمة الخزي والعار.

٧٨- القتل

إذا كانت حوادث القتل فاشية عند الأمم المتقدمة فإنها في بلاد الشرق نادرة الوقوع جدا. أما ما قد يحدث أحيانا في هذه البلاد من جرائم التعدي على النفس فتعليقه لا يرجع إلى مثل ما يعلل القتل به في أوربا من الشهوات الدنيئة والأهواء السافلة والغرائز الوحشية الخ ما يدعو عامة المجرمين بأوروبا إلى إزهاق النفوس البريئة.

إن المصري قد فطر، في الأحوال العادية، على دعة الجانب ودماشة الخلق والنزوع إلى الطاعة. وليس من الممكن، وهو في هذه الحالة، أن يقصد ارتكاب جريمة تقضى إلى إراقة الدماء أو يصر على أى جرم من هذا القبيل، فإنما تلك نزعته الطبيعية إلى السكون والهودة في معاملاته.

٧٩ - الشغب والفتنة

إن مآذكرناه من انفطار الأمة المصرية على السكون والهدوء وحبها العيش في ظلال الأمن والسلام يقعدان بها عن رفع لواء العصيان والخروج على أولياء الأمور. نعم إن الفلاحين ينزعون أحياناً إلى الشغب وإضرار نار الفتنة. ولكنهم لا يلبثون أن يفيثوا إلى الطاعة ويخلدوا إلى السكينة قبل أن تتحول تلك النزعة في نفوسهم من التردد إلى اليقين. وهذا فضلاً عن أنه لا يدور بخلد مصري ولا يخالط مزاجه شيء من البواعث التي توطن العزم على الثورة كالتروى في عواقبها والاحتياط لها بالوسائل العملية كالمتابعة والهمة واليقظة. إذ كثيراً ما يحدث أن يتجمهر الفلاحون وتحتشد حشودهم وتثير التراب في الهواء وتصيح قائلة: هلموا! هلموا! (يلا! يلا!) فإذا حان وقت العمل لا يلبثون أن يسكن الروع قلوبهم. وأن يخشوا عاقبة طيشهم وغرورهم. وربما كان الباعث لهم على ذلك يقينهم أنهم عزل من السلاح وأن لا خطة عمل مرسومة عندهم ولا رئيس يشرف على تنفيذها.

وقبل أن تتوثق أركان حكومة محمد على وتشتد مقاومتها، كانت الفتن والمشايخ متواترة الوقوع في القاهرة. وكان رجال الدين يعززون جانبها بتأييدهم ويعضدونها (١). والسبب الديني وحده هو الذي يستفز المصريين إلى العصيان، كما يدل عليه ما لا يزال حاضراً في الأذهان لقرب عهده من توصل الكذابين، وفي مقدمتهم المهدي، إلى جمع شتات بعض الألوف من الفلاحين أيام الحملة الفرنسية لإغرائهم بجيوشنا وتحريضهم على النكاية برجالها.

وفي سنة ١٨٢٤ احتدمت في الوجه القبلي نار الثورة فالتهمت ما بين إسنا وأسوان، لاشتغال الحكومة بتكوين الجيش على النسق الجديد. وكان زعيمها ومذكي ضرامها شيخاً ممن يدعون أنهم مهبط الوحي الإلهي. وكانت في تلك الأرجاء شذمة جنود الأورطة الأولى فتفرقوا ولم يبق في الصفوف منهم إلا العدد الكافي لإخماد تلك الثورة التي لو حدث مثلها في بلد آخر لاتسع نطاقها وخيفت مغبتها.

(١) لقد خلط المؤلف بين الثورة التي تحض عليها الأديان السماوية وتعتبرها واجبا مقدسا دفاعاً عن حقوق الأوطان والكرامة والسيادة، ولم يفرق المؤلف بين الثورة والفتنة التي تعمل الأديان السماوية وخاصة الدين الإسلامي على وأدائها في مهدها، ولكنها بعض الرؤى الغربية التي لم تفهم حقيقة الأديان خاصة الإسلام.

٨٠- تنفيذ أحكام الإعدام

اعتاد المجرمون المحكوم عليهم بالإعدام الرضا والتسليم بما ساقه القدر. وكل ما يتذرعون به من وسائل الدفاع أثناء سوقهم إلى ساحة الإعدام تكرارهم الجملة الآتية « هذا ما أراده الله . هذا ما كتب في لوح القدر». ولاعتقادهم بأن هناك قوة فوق الطبيعة تحركهم على مشيئتها وتسيرهم إلى حيث تريد، يتحملون بالصبر والسكون وعدم الاكتراث عاقبة خطيئتهم. وإنك لتعتقد، إذا رأيتهم، أنهم ليسوا المقصودين بتنفيذ الحكم الذى سيطوى حياتهم. ولقد شهدت مرارا حوادث الإعدام، فكتت أرى المحكوم عليهم يسرون نحو آلة التنفيذ من غير اكتراث، وبدون أن تبدو على وجوههم علامات الانفعال أو الذعر، بل ويتحدثون بسكون مع الحراس الذين يقودونهم إليها. أما جماهير الناس فقلما تسوقهم الرغبة إلى ذلك المكان لمشاهدة التنفيذ أو ينجلبون إليه من كل فج وحذب كما تفعل الجماهير عندنا كلما سيق مجرم إلى ساحة الإعدام.

والعادة المألوفة أن يكون التنفيذ فى الساحة التى تقام فيها الأسواق. فإذا سيق مجرم إلى هذا المكان فقلما ترى ممن اجتمعوا فيه من قبل للبيع والشراء اهتماما بغير أعمالهم التى جاءوا من أجلها، إذ يعكفون على مساوماتهم وبيعهم وشرائهم بدون أن يولوا وجوههم شطر الرواية المحزنة التى تمثل على مقربة منهم. ويصعد المحكوم عليهم بالإعدام فى سلم آلة التنفيذ بغير تردد، وبعد أن ينطقوا بالشهادتين يمدون عنقهم إما إلى حبل المشنقة وإما إلى سنان سيف الجلاد، بدون أن يبدو على وجوههم أثر ما من آثار الخوف حتى أن المتفرس فيهم لا يفرق بين حالتهم فى موقفهم أمام الموت وحالتهم العادية قبله.

٨١- الانتحار

حوادث الانتحار فى مصر أندر من حوادث القتل. لأن ذلك الوباء الأدبى لا يفتك إلا بالجماعات التى انطفا نور الإيمان من قلوبها، ولا ينزل إلا حيث يصطدم العزاء الذى يبيته فى النفس الاعتقاد بالحياة الأخرى والاستسلام لقضاء الله وقدره، بمذهب الشك الذى لم يذر من دعائم الإيمان سوى الاعتقاد بالحزن والألم.

ولكن الدين الإسلامى يثبت فى قلوب ذويه جذورا قوية من الإيمان لا تلبث أن تتأصل فيها، لذلك كانوا فى طليعة الذين يدركون حقيقة معنى الانقياد لطاعة اله والخضوع لإرادته الظاهر أثرها فى الحوادث كلها صغيرها وكبيرها. ولاشئ فى العالم يزعزع هذه العقيدة فى نفوسهم لأنهم يرون أن ما قدر عليهم مكتوب منذ الأزل فى اللوح المحفوظ، وأن أوامر الله ونواهيه لا معقب عليها. فالمسلم، لاستقرار هذه العقيدة فى نفسه، لأسرع الناس إلى التعزى والسلوان عما ينزل به من بوائق الدهر. اذا جاءه نبأ بخسارة مال أو فقدان مظهر، يتلقى هذا النبأ بالصبر والسكون. فلا يسقط فى يده ولا يضطرب جأشه ولا يختلج فؤاده. وهذه حالته أيضا إذا فقد أعز الأشياء عليه كزوجته أو أولاده أو سائر أفراد أسرته.

ومهما تكن الدرجة التى يهبط إليها فى سلم الهيئة الاجتماعية على أثر كارثة حاقت به، لا يعتقد أن هذا الهبوط يحط من كرامته ويقلل من شأنه. فلا غرو، وهذه قوة توكله ووطود إيمانه، أن يكون من اليأس وخور العزيمة مناط الثريا، وأن لا يفكر أبدا فى الانتحار ولا يخطر له مثل هذا الفعل على بال. ولو كان فى وسعنا أن نذكر أمثلة على عكس هذا لزمنا أن نتحراها فى طبقة المسلمين الذين انغمسوا فى رذائل الحضارة الأوربية ومخازيها. ذلك لأن الشرقيين لا يسخطون فى الغالب على أخلاقنا، كلما اختلطوا بنا، سوى ما كان منها سىء العاقبة بعيدا عن الصواب.

٨٢-المبارزة

إن المبارزة، وهى تلك العادة التى اتصلت بنا منذ عصر المروءة القديمة والتى تدعو إليها فى أوربا عزة النفس والحاجة إلى صون الكرامة والذود عن الشرف، مجهولة عند الأمم الشرقية. وبلغ من جهلهم بها أنه لا توجد فى لغاتهم كلمات للدلالة على ذلك الشعور الكريم الذى ينزل عندنا فى منزلة الإيمان الحقيقى، بالرغم من أن المسلمين يتعلمون ضروب القتال ويواصلون الليل بالنهار فى التدريب على استعمال السلاح. ولقد رأينا فيما سبق كيف أنهم يتابعون بعضهم البعض على الخيل وبأيديهم الجريد يتراشقون به. ولكنهم لا ينازلون عادة سوى المستظهرين بالعداوة لهم من أعداء دينهم أو وطنهم.

نظرة في العناصر
الأخرى من سكان مصر

(١) العربان

قبائل العربان - شغف العربان بالصحراء - صفاتهم وطباعهم -
قناعتهم - مكارم أخلاقهم وجميل عاداتهم - تربيتهم ونظامهم - حروبهم -
حريتهم الدينية - تربيتهم العقلية - الأدلاء من العربان - سرقات العربان
وقطعهم الطريق - مكافحة محمد علي لهذه النزعة - تنظيم فرسان العربان
على هيئة جيوش غير نظامية - فضائل العرب الرحل.

١- قبائل العربان

يطلق اسم العربان أو البدو على القبائل الرحالة التي تعيش في الصحراء،
وكانت القبائل التابعة لمصر أيام الحملة الفرنسية ستين قبيلة عدد أفرادها
مائة ألف نفس، منهم ثمانية عشر ألفا إلى عشرين ألف فارس. وهذا الإحصاء
التقريبى لم يتغير منذ ذلك الوقت، إلا قليلا. ومن أشد تلك القبائل بأسا
وأبعدها شهرة الهوارة والعبادة والهنادى والهندوة بالوجه القبلى، والمعازة
بمصر الوسطى والطرابين والقطاوية والبكابيش وأولاد علي.. الخ بالوجه
البحرى.

٢- شغف العربان بالصحراء

اخترقت الصحراء المترامية الأطراف إلى أبعد مدى مرات كثيرة. فأدركت
السر في تعلق العربان بها، واستكشفت سبب نظرهم إلينا بعين الاحتقار،
نحن الذين كدستنا الحضارة في آفاق ضيقة الحلقات. وقد بلغ ذاك التعلق
وهذا الاحتقار من نفوسهم مبلغا جعلهم لا يطيقون سكنى الحضر إلا بعد
معالجة طويلة لاعتيادها وتوطين النفس عليها.

ولقد تعرفت بشيخ من أغنياء العربان كان لايميل بفطرتة إلا إلى الصحراء، ثم تغلب على هذا الميل باعتياده الإقامة في الحاضرة. حيث تسلم مقاليد الحكم على إحدى المقاطعات. ولقد طلب، وهو في مركزه هذا، مصاهرة أحد مشائخ القبائل العربية فرفض طلبه بحجة أنه بتطوره بطور الحضارة وإيثاره المعيشة في المنازل المنجدة عليها في بيوت الشعر، وطلبه خصب العيش في ظل الدعة والراحة والسكون، فقد خشونة البداوة وضعفت فيه العصبية والبسالة. فأصبح غير أهل لأن يختلط نسبه بنسبه.

٢- صفاتهم وطباعهم

احتفظ العرب الرجل بحسن شكلهم الأول وببساطته. فالناظر إليهم يخيّل له أن نفوسهم لا تتفعل إلا بالعواطف السامية والإحساسات الشريفة، وأن الفضائل العالية خلق فيهم وسجية. فمن محض الخطأ إذا تخيلناهم في صفة المتوحشين وثوب الهمج وأسأنا الظن فيهم بذلك. نعم لا تخلو الحال من قبائل بدوية تدهورت في الدرك الأسفل من حضيض الرذائل، إذ جعلوا همهم اللصوصية والدعارة، ولكنها لا تخالف في ذلك شأن قبائل كثيرة اشتهرت بعراقة الأصل وإكرام النزيل وبسطة الكف. ومن أخص صفات البدوى ومميزاته ولعه بالحرية والاستقلال إلى حد يخيّل معه للناظر أن لوائح هاتين الصفتين مرتسمتان في وجهه. فلا يدهشك إذن أن تراه مفاخرا على الدم بأصله، معاليا الشعوب الأخرى بصراحة نسبه العربى الذى لم يعرف فيه الشوب = الاختلاط = وأنه ما رضى قط لمذلة. وما أجمل منظره، إذا غشى مجلس عظيم أو ديوان ثرى، متدثرا بردائه ومتشحا ببندقيته ورافعا رمحه بلا تعمل ولا معاناة خيلاء، لا يرضخ للنظم المرعية في الاجتماع ولا يأبه بالآداب المسنونة له، فجسمه مستعص على الحركات التى يراد بها الاحترام وإظهار شعائر الخضوع. وإذا خاطب عظيمًا، ولو كان سمو الوالى نفسه أو سمو ابراهيم باشا، خاطبه بجرأة وسهولة وصراحة لا أثر فيها لتكلف، مخاطبة النظر. فإذا واجه سمو الوالى أو ابنه خاطبهما بالكاف قائلاً: « كيف الحال يا محمد على وكيف مزاجك يا إبراهيم ». وهذه سجيته دوماً في الأسئلة التى يروم بها فتح باب الكلام مع سيد مصر وصاحبها وأكبر قائد في المملكة العثمانية كلها.

٤- قناعتهم

اشتهر البدو بشدة القناعة، فقليل من لبن النياق وبعض التمر يكفيان الواحد منهم غذاء طول النهار. وهم لا يعولون على أكل اللحوم إلا في الأعياد والحفلات الكبيرة. حيث يذبحون رؤوس الضأن الكبيرة أو الصغيرة ويشوونها على الطريقة التي كانت معروفة على عهد (هيرميس) الشاعر اليوناني. وغالبا ما يقع النظر على نسائهم وهن مشغولات على متون الهجن، بإدارة الرحى لطحن الحبوب واتخاذ الخبز من دقيقها عجنا ثم إنضاجا على ألواح حديد، يوقدون النار من تحتها كلما حطت القبيلة رحالها في مكان. وهم في الشراب أشد قناعة منهم في الغذاء، أما النبيذ فلا يشربونه أبدا وهكذا شأنهم في سائر الخمور، وبفضل تقشفهم في معيشتهم واعتدالهم في طعامهم يقل فيهم المرضى ويزداد عدد المعمرين.

٥- مكارم أخلاقهم وجميل عاداتهم

المعيشة في الصحراء تصون الأخلاق من الدنس وتربأ بها عن المخازي، فمكارم أخلاق العرب وجميل عاداتهم أمر لا يختلف فيه اثنان وهم كغيرهم من مخلوقات الله تتأثر أفئدتهم بعوامل الغرام، إلا أنهم يجهلون التسرى ويمقتون الزنا إلى حد أن الفتاة عندهم يستحيل على رب الحيلة اغواؤها. وذلك لأن احترام الرابطة الزوجية والاحتفاظ بالشرف والكرامة أصبحا من غرائزهم وسجاياهم المخالطة لدمائهم. والذين يجرعون منهم على انتهاك الحرمات ويخالفون ما ألفته القبائل من العفة والنزاهة والطهر يعرضون حياتهم لخطر الموت. ومع شدة غيرتهم على الأعراض تراهم يمنحون نساءهم من الحرية أكثر مما يمنحه لهن غيرهم من المسلمين. فإنهن يبرزن سافرات الوجوه، ولا يتنقبن إذا وقعت عليهن أنظار الرجال. ولما كانت تربيتهن من تربية الرجال، فإنهن يتشبهن منذ الطفولة بعادات هؤلاء ويتخلقن بأخلاقهم.

٦- تربيتهم ونظامهم

إذا تنجع البدو في طلب الكلاً ونزلوا جعلوا خيامهم على استقامة خط واحد. وهذه الخيام أو البيوت تصنع من الأوبار السوداء أو السمراء، أو من جلود الماعز والجمال. وخيمة شيخهم أو زعيمهم تمتاز على ما سواها ببياض

لونها. وتحتوى كل خيمة أسرة واحدة، وتنقسم بفاصل من القماش إلى قسمين، أحدهما خاص بالنساء. وإذا كانت القبائل لا تستطيع المعيشة متضامة إلى بعضها فإنها تنقسم إلى شعب متفرقة تسمى كل شعبة منها بالفريق، وتتألف من أربعين إلى مائة خيمة. ويختار كل فريق شيخا له من رؤساء الأسر وعظمائها. وتنتخب الفرق مجتمعة شيخا كبيرا تجعله الرئيس الأعلى لها. وسلطة الشيوخ محدودة في دائرة ضيقة جدا، إذ في الإمكان عزلهم من منصبهم بصوت الأغلبية التي أفضت بالرئاسة إليهم من قبل. على أنهم يحتفظون بحقوق وامتيازات لا ينازعهم عليها أحد، بعد اعتزالهم العمل في المشيخة، ولكل قبيلة راية ترفع أمام خيمة شيخها، وفيها يكرم مثنوى الغرباء وتطرح الآراء وتدور المناقشات في شئون القبيلة لتقرير ما يتفق مع مصلحتها. وتحصل المفاوضات في الصلح والحرب. دع أن شيوخ القبائل وهم الذين يقودون التجريدات الحربية ويسوسون المقاتلة في ساحات الوغى.

٧- حروبهم

لكل قبيلة نصيب من الصحراء وحدودها التي تنتهى إليها مراعيها الخصبة. ومفهوم أنه من المتعذر تعيين هذه الحدود بالدقة في أرض تنطمس معلما بهبوب الرياح في كل حين. فلا عجب إذا نشأت المنازعات بين القبائل المتجاورة على حدود أراضيها، وسرعان ما يتحول الكلام فيها إلى خصام فقتال بين الفريقين.

وكثيرا ما تستمر الحروب بينهما زمنا طويلا. بل ربما لا تجد حدا تقف عنده. وربما كان الباعث على انحلال عقدة السلم وقوع الحيف بأحد الناس أو شكوى أحد العربان من سوء معاملته فيكون هذا السبب الفردى أو ذاك، من بواعث التناحر بين الجماعات. وقد ألفت البدو الصدق والشهامة في حروبهم. فإنهم ، قبل مفاتحة أعدائهم بالخصومة، يذكرونهم بها ويطلبونهم إلى منازلهم. وهم في قتالهم يتبارون في إظهار الشجاعة والإقدام. ونظامهم في القتال يلفت النظر ببساطته، ويذكر بأساليب القتال في العصور الأولى. إذ يجعلون مصافهم للقتال على الترتيب الآتى: الصف الأول لشبان صفوة أهل القبيلة في الفتوة والحماس وسرعة النجدة، فإن هؤلاء المقاتلة الطامحين إلى

الظهور والشهرة يطلبون بعضهم البعض إلى المبارزة، ويتلاقون مرارا في
ساحة النزال. أما الصف الثاني فخاص بأرباب الأسر الذين بلغوا سن
الكهولة. ويقف خلفهم في الصف الثالث ذوو الأسنان من الرجال والنساء.
وحكمة وجود هاته النسوة في ساحة القتال واختلاطهن بالرجال أنهن يحتثن
المقاتلين ويشجعنهم بالأغاني والطبول وارتجال الأناشيد الحربية.

أما الفتيات المخطوبات لزواج فيستنهضن همم خطبائهن ويعدتهن بقرب
الزواج مكافأة لهم على انتصارهم المأمول. وأما النساء المتزوجات والأمهات
فيذكرن أزواجهن بالروابط المقدسة التي تربطهم بهن ويمثلن لهم حالة
الأبناء والأسرات إذا لم يعودوا مكللين بغار الانتصار. وتحرض أجمل بنات
القبيلة الشبان المحاربين وأعداء إياهم جميعا بأن تهب نفسها لمن يحرز منهم
في القتال أوفر قسط من المجد والفخر.

٨- حريتهم الدينية

يحمل أهل الحضر من العرب نيرين: نير الاستعباد السياسى ونير
الاستعباد الدينى، بخلاف أهل البادية الذين يجهلون النير الأول جهلا تاما،
ويلمون بطرائق تحرير أنفسهم من النير الثانى وإلقائه عن أعناقهم. وغنى
عن البيان أنهم مسلمون كغيرهم من أهل الإسلام، ولكن اسلاميتهم لا تزال
على فطرتها الأولى من الصراحة والسذاجة، إذ لم يدخلها شوب التعاليم
الدقيقة ومذاهب أهل الكلام ومختلف آراء الأئمة. لهذا تراهم يتصلون
بمهارة وحذق من تبعة مخالفتهم لقواعد الدين ونصوص الشرع فيقولون
مثلا: « إذا لم نؤد فرض الصلاة فلأن الماء ينقصنا للوضوء، وإذا لم نتصدق
فلأننا فقراء أحق بالزكاة من غيرنا، وإذا لم نصم شهر رمضان فإننا نصوم
من الجوع طول السنة، وإذا لم نحج إلى بيت اله الحرام فلأن بيت اله الحرام
حيث يصلى الانسان» (١).

٩- تربيتهن العقلية

لغة أهل البادية مبنية في الغالب على التشبيه. وهم في شعرهم يستعيرون
تشبيهاتهم مما تقع عليه أنظارهم فيما حولهم كعيون الغزلان وسرعة الفرس

(١) الناشر: إنها رؤية مشومة وغير موضوعية للإسلام

وصبر الجمل وقناعته وقوائد الصحراء وصفاتها المميزة. وليس في أذهانهم أثر من العلوم، بل إن السواد الأعظم من مشائخهم أميون لا يقرأون حرفا ولا يكتبون، ولكن مواهبهم العقلية بالغة أقصى مبلغ من الاتساع. معرزة الجانب بالمواهب الجثمانية التي تقويها الرياضة البدنية واستنشاق النسيم النقي من الشوائب.

١٠- السنيورة

أتيح لي مرارا البحث في عادات البدو وأخلاقهم خلال رحلاتي العديدة الطويلة في الصحراء. ومما عرض لي فيها من الحوادث الجديرة بالذكر الحادثة التي أسوقها فيما يلي إلى القراء:

لما شرع الفرنسيون في الجلاء عن مصر، هاجم البدو التابعون لقبيلة الزعيم الشهير المعروف بأبى قوره، وهو الزعيم الذى طالما قاوم المماليك ونافسهم على السلطة حتى حصلت له السيادة على إقليم المنصورة، حاميتهم في هذه المدينة. وكان مقره قرية (ميت العامل) على مسافة ستة فراسخ من الجنوب الغربى لها. فلما احتدمت نار المعركة سبى العربان امرأة فرنسية في ريعان الشباب وأخذوها إلى زعيمهم الذى لم يلبث أن تزوج بها. ولقد اشتهر أمرها في تلك الجهات وأطلق عليها اسم « السنيورة » لجمالها.

وكثيرا ما ذكر أمرها على مسمع منى. فوددت التعرف عليها واعتزمت اللقاء بها. فلما كانت سنة ١٨٣٤ ذهبت إلى مديرية الشرقية ومررت بالقرية التى قيل لي إنها تسكنها ونزلت بدارها. فإذا بها قصرا فسيح الجنبات قائما بالقرب من مساكن العرب.. وقد أحسن أحد أبنائها لقائى وأكرم مثواى. وما عرف أننى فرنسى الجنس حتى ذكر لي والدته وقال إنها لكذلك. فأعربت له عن رغبتى في لقائها، وكانت الذريعة الوحيدة إلى ذلك مهنة الطب التى أقوم بها. فلما وصلت إلى خدرها تلقتنى محيبة باللغة الفرنسية. ولكننى سرعان ما تبينت أنها إيطالية الجنس، وعلمت منها فعلا أنها ولدت بمدينة البندقية، وأن والدها كان تاجر قبعات، اسمه بارتولى، وأن والدتها كانت تسمى مرجريت، وأن اسمها هى جوليا، وأن العربان سبوها وهى خارجة من المنصورة إذ أركبوها جوادا وانطلقوا يطوون بها الفدافد والسباسب حتى بلغوا بها فى الماء دارا كبيرة التقت فيها برجل يغطيه من الرأس إلى القدمين حرام أبيض، وأن

هذا الرجل بذل لها من مظاهر العطف والميل ما لا يوصف، وأنه جردها من ثيابها الأوربية ليلبسها بدلا منها ثوبا شرقيا واسعا، ثم سلمها من الحلى والجواهر ما قيمته ستمائة كيس - أى ما يعدل مائة ألف فرنك تقريبا، وجعل في خدمتها عددا كبيرا من العبيد والجواري. ذلك الرجل هو الزعيم (أبو قوره) الذى كان مشهورا بالشوكة والجاه الطويل، ولكن هذا الالتفات وهذا العطف كانا يضجرانها، فكانت لا تكف عن البكاء وتعرب بالقول والإشارة والصياح عن رغبتها فى العودة إلى ذويها. ومع هذا فلم ينقض أحد عشر شهرا حتى رزقت غلاما، فهذا شعور الأم نحو وليدها ثائرة التذمر والاستياء ولطف من أسرها فى هذا المكان فلم يسعها إلا احتمالاه والرضاء به.

ولما مات زوجها وكانت توليه الحب الصادق وتعيش معه فى بحبوحه الهناء والنعيم، أكرهت على التزوج بأخيه فلم تجد منه ما كانت تألفه فى أخيه المرحوم من حسن الرعاية وجميل العطف. وبعد انقضاء أربع سنوات فى هذا الحال، توفى هذا الزوج تاركا لها ابنة فى الثانية من عمرها تسمى (حفيظة) وجنينها فى بطنها سمى بعد ميلاده بعلى. ومع أنها كانت لا تزال بعد ميلاد هذا الابن تكابد من زوجها صنوف العسف والعنف، فإنها خسرت بموته خير معوان وأقوى سند لها فى الملمات. ذلك لأن الشر أغرى أقاربه بالاستفادة من ضعفها على أثر وفاته. فنصبوا المكائد وفسدوا الدسائس التى توصلوا بها إلى اغتصاب الشطر الأكبر من ثروة هذه الأسرة التى كان قد اعتورها النقص بامتداد أيدي السلبية اليها.

وكان منصور ابنها البكرى لا يزال فى مقتبل العمر وعاجزا عن الدفاع عن ميراث أبيه. فأصابه غم شديد من رؤية تلك الثروة تتحول من يده إلى أيدي الأغيار. ولم يلبث هذا الغم أن انقلب معه إلى جنون. أما أخوه على، فهو الآن عماد بيت أبيه وسنده الوحيد، هذا البيت الذى كان فيما سبق رفيع العماد ومرموقا من الرواد والقصاد، إذ كان يملك زعيمه أربعاً وأربعين قرية وبضعة آلاف من الجمال وقطعانا لا عداد لها من الأغنام وأكثر من خمسمائة عبد وجارية من الأرقاء، فلم يبق من هذه الثروة الطائلة إلا فضلات يسيرة تكاد لا تفى بقضاء حاجاتها ولا تكفى لإعالمتها بما اعتادته من السعة والخضب والنعيم.

ومنذ الأربعة والثلاثين عاما التى قضتها السنيوة فى هذه الدار لم ترحها قط، بل لم تر رجلا من الأجانب سوى. ولقد أثار وجودى فى نفسها بواعث الانفعال والتأثر، فتبينت من حالها أن عوامل الشوق إلى وطنها والرغبة فى استنشاق نسيم الحرية لم تنطفىء نارها بعد فى فؤادها. وعندما انصرفت من حضرته كانت تشيعنى بنظرات العطف والمودة. ولقد برحت دارها وقلبي يتحفز تأثرا بما رأيته وسمعته فى هذه المقابلة، ولا سيما ما أفهمتنى إياه من أنها لم يصل إليها منذ وقعت سبية فى أيدي العربان، خبر ما عن أسرتها ولا عن زوجها الضابط (ديفو) الذى لا تدرى أقتل فى معركة المنصورة أم بقى على قيد الحياة.

ولقيت فى دار السنيورة كل ما يؤثر عن العرب فى ضيقتهم للأجانب من مظاهر الحفاوة والإكرام، فلقد تناولت الطعام فيها مرتين على مائدة كبيرة مستديرة كانوا يضعون فى وسطها، عند كل وجبة، خروفا بأكملة ويصفون على حافتها كثيرا من الصحاف الصغيرة، فينتابها أولا أفراد الأسرة والأعيان من أهل القرية، وكنا نأكل جلوسا على السجاجيد ونمزق اللحم بأصابعنا وبها كنا نتناول الارز مطبوخا على الطريقة العربية. وبعد أن نأكل كل على قدر همته، ينتاب المائدة بعدنا غيرنا من المدعوين. ثم يحيط بها بعدهم الخدم والفقراء. ولقد أحصيت عدد هؤلاء، ومما ضاعف دهشتى احتفاء رب الدار بالآكلين وملاطفته لهم وأنسه بهم إلى نهاية الطعام. وكان يبدو على وجوه أولئك الفقراء الذين يقريهم رب الدار كل ليلة على هذا المثال، أثر السرور من تلك الملاطفة التى تمحو فى نفوسهم أثر الفوارق بينهم وسائر الضيوف. خصوصا وأنهم يعتقدون أن ما يجدونه من حسن القرى لم يكن الباعث عليه الرياء وحب الظهور والخيلاء، لأن أهل البيت يكرمون زائريهم فى كل يوم على هذا المثال السابق.

١١- العربان الأدلاء

يعتمد السياح والمسافرون الذين يقصدون اختراق الصحراء على البدو فى الاهتداء والوصول إلى مقاصدهم. ويسترشد العربان فى قطع الطريق الذى يسرون فيه ويقدرون أبعاد ما اجتازوه وما يتبقى عليهم اجتيازه منه تقديرا دقيقا مبنيًا على صدق النظر. والأدلاء من قبيلة بيزار، وهم أهدي من غيرهم فى

مسالك الصحارى الشرقية إلى جبل طور سيناء أما قبيلة أولاد على فمنها
الأدلاء العارفون بأسرار صحراء ليبيا، وهكذا قبيلة العباددة بالنسبة لبلاد
النوبة وقبيلة العوازم بالنسبة للصحارى الممتدة بين النيل والبحر الأحمر
فيما بين القصير ورانيس القديمة، وبالنظر إلى حذقهم فى الصيد والقنص
ترى أنهم من أنفع العربان الباحثين فى الشئون الطبيعية .

١٧- سرقات العربان وقطعهم الطريق

إن العربان كقطعة النقد التى إذا سرك منها منظر أحد وجهيها ساءك
منظر الوجه الآخر. لأن محامد الخلال ومحاسن الخصال لا توجد، عند جميع
القبائل على السواء، خالية من الشوب. وربما لم يكن ما وصفتهم به من كريم
الشيم متوافرا فيها جميعا . فإن منها قبائل لا تستطيع مقاومة ميلها الفطرى
إلى النهب والسلب . فكان اعتيادها قطع الطريق على السابلة واعتقادها أن
الحكومة لن تنزل بها العقاب على سوء فعلها، ومن بواعث خوف المسافرين
على حياتهم. ومع ما تقدم فليس من العدل تعليل تلك النزعة فى العربان إلى
ارتكاب الشرور ورداءة الطبائع وفساد النفس، فإن أهل البادية والمعتصمين
بأوغار الجبال من شعوب العربان وقبائلها يرون أنهم فى حرب لا يخدم
ضرامها مع أهل الحضر، فهم يبيحون لأنفسهم كل ما يبيح العدو لنفسه مع
عدوه من ضروب التعدى والسلب والنهب. وكان هذا على الدوام شأنهم
معهم. إذ يرون أن ما يسلبونهم إياه إنما هو من الغنائم الشرعية والفيء التى
لم يحرمها الله فى كتابه.

وغنى عن البيان أن العربان أزعجوا طويلا جيش الحملة الفرنسية بمصر
بما تراءى للجنرال بونا برته معه أن يشكل لقتالهم وكبح جماحهم فرقة من
الهجانة . كان كل هجين فيها يحمل رجلين. ومما ذكره نابليون فى مذكراته عن
ذلك ما يأتى: «إذا كان موقع مصر الغريب، وهى البلد الذى يستمد ثروته من
اتساع نطاق الفيضان يقتضى حسن الإدارة لانتظام شئونها واستقامة
أحوالها، فإن ضرورة كبح جماح عشرين ألفا إلى ثلاثين ألفا من اللصوص
المعتصمين بفسيح الصحراء حيث لا تنالهم ضربات العدل تدعو إلى أن تكون
تلك الإدارة من مضاء العزيمة ومتانة القوة بحيث توقع رهبتها فى أفئدة أولئك
الأشرار فلا يعيثون فسادا فى تلك الأقطار».

ولقد بلغت بهم الجرأة ، في العهد الأخير، إلى التعدي على قرى الفلاحين بدون أن يطاردتهم أحد أو ينكل بهم، عقابا لهم على سوء فعلهم. ولكن ما كاد الفرنسيون يحتلون القطر المصري حتى كسروا شكيمتهم وقبضوا على ناصيته، فلم يتمادوا في باطلهم.

ولقد حذا محمد على حذوهم في معاملته لهم. فردهم، بإدارته الحازمة، عن بغيتهم وألزمهم الوقوف عند أفقهم.

١٣- مكافحة محمد على لهم

في الوقت الذي تسلم محمد على فيه زمام مصر، كان العربان قد بلغوا من الجبروت وشدة البأس النهاية. فقد كانوا يفرضون الأتاوات على سكان مصر ويضربون الفدية لايزعهم عن ذلك وازع. بل كان لا يصددهم أحد عن الزحف على مدينة القاهرة ودخولها دخول الفاتح لسبى النساء وخطف الأطفال ونهب الأموال. وكان لا يجرؤ أحد على زيارة الأهرام بغير رضائهم وأمرهم. وكانت القوافل التي تجتاز برزخ السويس تدفع لهم الفرض الفادحة من المال.

فلما وقف محمد على على حقيقة هذه الحال، قرر أن يمد رواق سلطته المطلقة على الصحارى كما نشر لواءها على الأرياف، مقتديا في ذلك (بسكست كنت) الذي يؤثر عنه قوله: « من أجل الأمور أن يستطيع الناس في مملكتي حمل أموالهم في أيديهم وترك أبوابهم مفتوحة على أعقابها طول الليل بدون أن يتعرض لهم أحد بأذى أو يسطو عليهم في مأمْنهم». ولعل الوالى - حينما تسلم زمام الأمر - جرى في خاطره ما ينطبق على قول ذلك الملك، فهم بالعمل على تحقيقه. إذ سلك مع العربان مسلك المهادن المسالم، فعقد الاتفاقيات مع قبائلهم. ولكنهم لم يلبثوا أن هتكوا ستارها ونقضوا عهودهم غير مبالين ولا هيابين. وأيقن محمد على لهذا السبب أن لا مناص له من الاعتماد على القوة في قمعهم وتأديبهم فعول على قتالهم، وسير لمطاردتهم فرقا من الفرسان المتحركة انطلقت تناوشهم وتأخذ الآفاق عليهم وتسد السبل، حتى اضطرتهم إلى التماس الصلح واستمناع العفو. ومنذ هذا الوقت ثابوا إلى الطاعة لوالى مصر وأقسموا بالولاء له. ولقد اشترط في عقد الصلح معهم أن يسكن كبار زعمائهم وشيوخهم مدينة القاهرة ليكونوا رهنا عنده على طاعتهم

وضمامنا لوفائهم بعهودهم، ولتقع على عواهنهم تبعة ما يرتكبه رجالهم من الجرائم ضد النظام والأمن. وزاد على ذلك أن أجرى عليهم الأرزاق والمرتبات لمعاشهم.

وفي رأيي أن هذه الطريقة التي ابتكرها محمد على في معاملة العربان ينبغي تطبيق مثلها على قبائل العربان في بلاد الجزائر الملحقة بأملاكنا، فإنها خير وسيلة لكبح جماع أمة .

١٤- تنظيم جيوش فرسان العرب بهيئة جيوش غير نظامية

وبعد مضي زمن من تقرير أحوال العربان على النمط المتقدم، عرض محمد على عليهم تشكيل جيوش منهم للعمل في جيشه، واقترح أن يدفع لهم الأجور في مقابل خدمتهم، على شرط أن يأتي كل منهم بفرسه وبندقية. ولقد أفادت هذه الفرق المساعدة محمد على فوائد جلية، إذ اشتركت في حروبه بالسودان وسنار وجزيرة العرب وبلاد الشام كافة. وكانت منزلتهم من الجيش - من الوجهة العسكرية - كمنزلة غير المنتظمين في بعض الجيوش الأوربية. وكان عليهم القيام بمهمة الاستطلاع أثناء زحف الجيوش ومطاردة العدو أثناء الهزيمة أو مناوشته ومعاكسته أثناء انسحابه. وهم من أصلح ما يكون لأداء هذه المهمات الحربية.

ولا يزال عالقا بالأذهان أن العربان هم الذين أسروا السر عسكر رشيد باشا قائد قواد الجيش العثماني في معركة قونيا خلال الحملة الأولى على بلاد الشام.

١٥- فضائل العرب الرحل

مما لا ريب فيه أن محمد على توخى مع العربان أصوب خطط السياسة وأحكمها، وجاء من ذلك بما لا يستطيع غيره أن يجيء به لاتقاء شرهم، ولقد عقد على بك وهو أحد امراء المماليك الذي استقل زمنا ما بالقطر المصري في النصف الأخير من القرن الماضي، النية على إبادة العربان جميعا للتخلص من شرهم، وشرع فعلا في تنفيذها، إذ نكل ببعض القبائل وقضى عليها، واضطر غيرها إلى التراجع في الصحراء فرارا من المجزرة. وكان هذا العمل منافيا بلا ريب لمقتضى الحكمة السياسية ومضادا لطبيعة الإنسانية، فلا

غرو إذا عاد بالوبال والشر على الممالك أنفسهم. وإذا قلنا إنه ما كان لعل بك أن يعامل تلك القبائل بمثل ما عاملها به من القسوة والقهر، فما ذلك إلا لما هو ثابت ومستقر قى الأخلاق = النفوس = من فائدة وجودهم. فإنه إذا صح لنا أن نقول إن الجمال سفن الصحراء، فمن الحق والعدل أن نقول أيضا أن العربان ربانو هذه السفن وقادتها في ذلك الاوقيانوس الأرضى الذى لا أفق له. فالعربان هم الذين يسهل عليهم دون غيرهم اجتياز تلك الفلوات الرملية المترامية الأطراف إلى أقصى مدى والخالية من السكان والكائنات الحية، وأنهم هم الذين يقدرون دون غيرهم أن يوثقوا عرى المواصلات السريعة بين البلاد التى على حافاتها. فالاحتفاظ بهم، وذلك مبلغ أثرهم فى إفادة الإنسانية، يعود عليها بأجل المزايا. وإذا كان هناك ما يدعو إلى اتخاذ شيء من الوسائل لقمع شرورهم وصد طغيانهم فلا يجوز أن يتعدى حدود التهذيب والتأديب، لتتم الاستفادة بالمزايا المتوافرة فيهم والتي لا يجاريهم فيها مجار غيرهم. ذاك ما كان ينبغى أن يعامل به العربان لدفع شرهم والانتفاع بمزاياهم وهو ما قام به محمد على على خير ما كان يريده ويتمناه.

(٢)

الحكومة فى مصر

أتراك مصر - صفاتهم النفسية - ازدهاؤهم بأنفسهم وكبرياؤهم - شعور الأتراك نحو الأوروبيين - الإسلامبولية - أتراك أوربا والألبانيون والعثمانيون - الأتراك الآسيويون والممالك.

١٦- أتراك مصر

العثمانية أجنب عن مصر. وهم يفدون عليها من أنحاء المملكة العثمانية كافة، يجذبهم إليها فى الغالب اشتهاى محمد على بمكارم الأخلاق بين مسلمى الأرض قاطبة. ويرى الأتراك أنفسهم أنهم يؤلفون فى مصر طبقة ممتازة - أى طبقة الظافرين الفاتحين. وازدهاؤهم شديد بالفارق الذى يتخللونه فاصلا بينهم والعناصر العربية. لذلك تراهم لا يرتبطون مع المصريين بصلة مبنية على قاعدة المساواة، ولا يلتحمون معهم بلحمة المصاهرة، إلا فى النادر

الذى لا حكم له. والذين يشغلون منهم المراتب الصغيرة والدرجات الواطئة هم الذين يتحرون مصاهرة المصريين، وإنما يشترطون فيها أن تكون مع الأسر الوطنية الممتازة بمركزها في الهيئة الاجتماعية والمعروفة بسعة الثروة والجاه، وفي المدن دون الأرياف.

ثم إن العثمانلية يترفعون عن تعلم اللغة العربية، إذ يعتبرونها لغة الأمة المغلوبة على أمرها، ويرون أنهم من سمو المكانة بحيث لا يليق بهم علمها، ناسين أو متناسين أن بها شيدت آثار جلييلة في الآداب اللغوية ستظل باقية أبد الدهر، وأنهم قد استعاروا منها ثلث كلمات لغتهم التى يتحدثون ويتفاهمون بها، وأن اللغة العربية هى التى تنزل بها القرآن وهو كتاب المسلمين وفيهم الأتراك. وإذا كان الأتراك لا يظهرون نحو المصريين الميل والعطف، فإن هؤلاء يعاملونهم بمثل معاملتهم، إذ من النادر أن نجد بينهم من يعرف كلمة واحدة من اللغة التركية.

١٧- صفاتهم النفسية

من الحقائق المقررة أن للعثمانيين أخلاقا وعادات وطبعا مغايرة كل المغايرة لما يقابلها عن المصريين. أما صفاتهم النفسية فعين الصفات التى توصف بها الطبقات الشريفة الراقية. فمن صفات العثماني الحزم والثبات والصلابة والمتابعة والتحفظ وبعد النظر في المستقبل. وطالما لاتعترضه الوسواس الناشئة عن التنطع في الدين، فإنه يمتاز بسلامة القلب وسلاسة الخلق، وبالشهامة والمروءة في صلاته الاجتماعية. والناظر إليه يخيّل له أن آدابه السامية غريزة فيه. وهو شديد الشعور بكرامة الذات، ومع أنه لايفوق المصرى في حدة ذكائه وصفاء ذهنه، فإنه يسمو عليه في العلم بأساليب التسلط والحكم والإدارة.

١٨- ازدهاؤهم بأنفسهم وصلفهم

هذه الصفة من صفاتهم النفسية منبئة فيهم انبثاا يكاد يكون نقيصة ورذيلة. فإن الأتراك متكبرون إلى أقصى حد. ومن مظاهر كبريائهم أنهم لا يترددون في أمر ما، ولايتراجعون عن إنجاز ما يعن لهم من عمل، ويعتقدون في أنفسهم القدرة على القيام بجميع الأعمال على حد سواء. وهذا الصلف البالغ مداه فيهم إلى الحد الأقصى، كان من أقوى أسباب سقوط الدولة

التركية، لأننا طالما رأينا الوصولييين الذين لا يعرف لهم أصل ولا فرع قد ترقوا في هذه الدولة ، وبلغوا من مراتبها إلى الدرجة العليا لمجرد عطف السلطان عليهم. وبما أظهروه من دلائل العجز في المناصب الخطيرة التي أسندت إليهم، لقد أورد هؤلاء الوصوليون الحكومة العثمانية شرا الموارد وأوقفوها على شفا جرف هار من هاوية الهلاك.

يكون أحدهم بالأمس خادما لخادم، فإذا هو اليوم قائد لجيش عزم، وما هي إلا لفظة من لفتات المولى المعظم، في ساعة من ساعات رضائه، حتى يصير في الغد أميرا لبحر أو في منصب قبطان باشا. فمجرد هوى السلطان ومطلق إرادته يعفيانه من شهادة الفضل تليدا أو طارفا، أو من تركية العلم معقولا كان أو منقولا. أو من الفوق على الأقران بالاخصاء = بالتخصص = في فرع من فروع المعلومات البشرية، وبالجملية فتلك الإرادة. إذا انصرفت إليه أو رمقته بعين عنايتها، كانت بمثابة الشهادة له بالكفاءة التي لا تبارى في علم كل شيء. ومن مدهشات الأمور أن يتجرد المحسوب الذي يؤاتيه الحظ بمثل هذه السعادة الفجائية، من مزية الاعتراف بعدم كفاءته. فإنه سواء أكان قائد الجيش أم أمير الأسطول، يعتقد أنه القابض دوما على ناصية الفوز والمتصرف في أطوار الانتصار.

وإذا كان إدراك الأتراك وفطنتهم قد بلغ الفساد منهما هذا المبلغ. فمن أين لهم أن يتمالكوا أنفسهم عن التدفع والتدهور مع دولتهم على المنحدر السريع الذي زلت فيه أقدامهم، نحو مهواة الفناء والهلاك؟

ومما لا بد لنا من الاعتراف به في هذا المقام – بالرغم مما أوردناه من عيوب الأتراك ونقائصهم – أنهم أقل من العرب طمعا في عرض الدنيا وحرصا على حطامها الفاني، لذا يمكننا القول بأنهم كرماء، وأنهم يذهبون في الكرم إلى حد الإسراف، وأنهم مولعون بالسعة في النفقة والأخذ بمذاهب الترف والنعيم في الحياة.

بدهى أن هذا الميل الطبيعي يسوق أصحاب المناصب في الحكومة إلى ارتكاب الرشوة، ليستطيعوا قضاء مطالب النفس من وسائل البذخ والعيش في ظل الهناء والسعادة.

ولقد قلت إن كرامة النفس غريزة فيهم، وأقول الآن إن من أخص صفاتهم وأوجبها للعجب، ما يجدونه من السهولة كلما أرادوا اتخاذ الأصوات أو الأوضاع التى تلقى فى يقين السامع أو الناظر معنى العظمة والأبهة والجلال. وهم من الثقة بنفوسهم والاعتداد بذاتيتهم بحيث إذا فاجأهم الحظ بمال أو منصب، لا تعترتهم دهشة ولا يأخذهم من ذلك ما يحمل الناظر على الحكم بأنهم دونها. ثم هم ينتقلون بالسهولة التامة من صوت الجبروت وأوضاع العظمة والعزة، إلى الطرائق التى يلجئهم إلى اتباعها حب التزلف إلى الذين يسمون عليهم فى المراتب ورفعة الشأن. وكثيرا ما يفضى فجأة هذا التنقل إلى التناقض، فبينما ترى كبار الضباط يتظاهرون أمام الوزير بالطاعة والانقياد ويؤدون إلى مقامه إشارات الاحترام المقرونة بمظاهر الانصياع، إذا بهم متى برحوا ديوان هذا الوزير وغشوا مجلسا أو مكانا اجتمع فيه أناس أحط منهم درجة فى سلم الاجتماع، قد رفعوا عقيرتهم، وقوموا من منحنى صالبيهم، وأكسبوا سحتتهم وحركاتهم وأوضاع أجسامهم سمات العزة وإباء الضيم. ومن ثم ترى ذلك الرقيق الذى رأيناه مرذولا وقد صار فى لحظة واحدة مولى عظيما يتوخى فى حركاته وإشاراته الصفات الارستقراطية المبنية على النهى والأمر.

١٩- شعور الأتراك نحو الأوربيين

للعثمانيين فى حكمهم على الأوربيين أفكار مستغربة ومذاهب لامثيل لها. فهم يعتقدون أننا إذا أشهرنا الحرب عليهم فإنما نشهرها على ديانتهم، وأن الغرض الذى نرمى إليه هو إزالة معالمها من عالم الوجود. وأننا إذا كنا لا نستولى على بلادهم فما هو إلا لضعف جانبنا وخور عزيمتنا. وطالما عانيت الكثير من المشاق فى تفهيم بعضهم ما نحن عليه من التسامح الدينى، وأن تفاوت وجهات النظر فى السياسة كان السياج الوحيد الذى وقى كيان الدولة العثمانية من خطر الزوال حتى الآن. وقليل من يستطيع منهم تكوين فكرة واضحة عن مركز تركيا حيال أوربا، كأنهم لا يذكرون شيئا من فشل الدولة العثمانية المتكرر فى العهد الاخير أثناء حروبها مع روسيا. وأعرف من بينهم فريقا لا يترزعزع يقينه فى أن أوربا تدفع الجزية، وهى صاغرة، إلى السلطان المعظم.

نعم إن الأتراك يضطرون - في مسائل كثيرة - إلى الاعتراف بتفوق الأوربيين عليهم، ولكنهم لا يكفون عن النظر إلى هؤلاء بعين العطف الممزوج بالاحتقار. وغنى عن البيان أنه ما دامت عقيدتهم الدينية متأصلة في نفوسهم، فلن نكون في نظرهم إلا كفارا مشركين، ونذكر بهذه المناسبة أسلوبهم في استقبال الأوربي من ذوى المكانة والنفوذ، فإنه مما يؤيد الرأى الذى أسلفناه. وبيان ذلك أنهم، مع استقبالهم إياه بشئ من مظاهر الأدب والاحترام التى كثيرا ماينخدع بها الجاهلون بحقيقة العادات المرعية فى المراسم الشرقية، لا يقومون إجلالا له عند دخوله بهو الاستقبال. وغاية الأمر أنهم يتحركون، وهم فى مكانهم، حركة خفيفة. فإذا كانوا ممن يحبون أن لايتهمهم أحد فى أدبهم فلا يكون هذا عادة إلا إذا علموا أن زائرهم الأوربي من أفاضل الرجال وأعظمهم الجديرين بالاحتراف والاحترام، إذ يكلفون خدمهم عندئذ بإنبائهم بوصول هذا الذات. فإذا ما وافاهم النبأ على لسانهم قاموا واقفين قبل دخوله حتى لا يظهر له أن قيامهم كان من أجله. وإن ننس لاننسى أخبار الخلاف الذى سار ثائرته فى هذه المسألة بين سفراء الدول والباب العالى، فقد كانت العادة أن يحتاط الصدر الأعظم لمقابلاتهم بأن يدخل معهم بهو الاستقبال فى آن واحد، حتى لا يتكلف القيام خصيصا لهم إذا دخلوا عليه وهو فيه.

وفى ظروف كثيرة قامت الأدلة على هذا الصلف المستمد من التمسك الدينى. وآخر دليل منها ما حدث، منذ زمن قريب فى الديار المصرية، من رفض أحد الضباط، وهو برتبة أمير لاي، المرور على مشهد من الدوق (دى راجوز) الذى دعاه سمو الولى إلى مشاهدة عرض جزء من الجيش أمامه.

أما سمو محمد على، فقد ربأ بنفسه عن الانغماس فى هذه الأوهام الفاسدة، وسما فوق خرافات العوام والمتعصبين، إذ أقام الدليل القاطع على رجاحة عقله وحسن تسامحه وجم أدبه. فإنه يتلقى الأجانب دوما بما جبل عليه من الأئس والرقّة وحسن التعهد، ولا يكف أبدا عن ضرب الامثال لضباطه وحضهم على الاقتداء به فى حسن معاملتهم إياهم وسلوكهم معهم بما يقتضيه الأدب وواجب المجاملة. ولطالما تعرض بسبب ذلك للتهم التى رماه بها أفراد رعيته يتهمونهم فيها بقلّة الإيمان، فكان يغتنم هذه الفرص

ليشرح لهم تفوق الأوروبيين على الوطنيين في العلوم والمعارف، ويتخذ الوسائل لحمل هؤلاء على احترامهم وإجلالهم. وفي وسعى أن أذكر في هذا المقام طائفة من الحكايات الغربية في هذا الموضوع، ولكنني أجتزئ منها بحكاية واحدة تكفى لإثبات ما ذكرته الآن.

جاء بعض ذوى الحشيشات من الأجانب يوماً، لزيارة الوالى فتلقاهم سموه فى الديوان. وما استقر بهم المقام، حتى أمر محمد على بإحضار القهوة. فما هى إلا برهة حتى تقدم الأعوان المكلفون بها لتوزيعها عليهم، فكانوا يقدمونها بأيديهم اليسرى. ولم يلتفت الزائرون إلى هذا الأمر ولا فطنوا لسبب الباعث عليه، جهلاً منهم بتفاصيل الآداب المرعية فى الشرق. والذين فطنوا منهم للأمر، لم يذهب سوء الظن بهم إلى الحكم بما فى تقديم القهوة على هذا الوجه من سوء الأدب وقلة الاكتراث بالضيوف. إذ لا يخفى أن المسلمين يرون فى اليد اليسرى أنها خلقت لدنس، فهم لا يستعملونها إلا فى الأعمال التى يصح وصفها بهذا الوصف. وما كاد الزائرون ينصرفون من حضرة الوالى الذى لم تفتته ملاحظة ما أتاه خدمه من سوء الأدب فى حق زائريه، حتى استدعاهم اليه. وبعد أن بالغ فى تأنيبهم أمرهم بلبس الثياب البيضاء والسفر فوراً إلى مكة ليكونوا ضمن خدم الكعبة. ثم قال لهم: «إذ بلغ بكم التعصب الذمى إلى حد تعمد سوء الأدب مع أناس يشرفنى لقاءهم والاجتماع بهم، فأولى لكم أن تقطنوا المدينة التى لا يوجد بها أوروبى واحد تسوءكم رؤيته والتى لا تستطيعون أن تعرضونى فيها إلى الخجل من قبح فعالكم وسوء أخلاقكم».

٢٠- الإسلامبولية وأتراك أوروبا والأرنؤود

والعثمانيون والأسويون والمماليك

إن خلال التى استددلت عليها بالحادثة السابقة غير شائعة بدرجة واحدة بين العثمانية. بل إن هناك فوراق تترتب على اختلاف أنحاء السلطنة العثمانية التى تواردوا منها على مصر.

فالإسلامبولية جبلوا على البشاشة واللفظ، وربما بالغوا فىهما إلى حد التصنع. وكثيراً ما يقولون عن غيرهم من الأتراك إنهم ريفيون وإنهم لا يجاورونهم فى سمو الأدب ورقة الأخلاق وسلامة الذوق وغيرها من الصفات

التي يمتاز بها أهل العواصم والحوضر على أهل الأرياف والبادى. ومنهم من يميلون إلى الازدهاء بأنفسهم ويتطوحن في الغرور إلى حد يجر عليهم السخرية والاستهزاء. أما أتراك أوربا واليونان ومقدونيا. فلاعتيادهم مخالطة الأوربيين فقدوا بعض سماتهم الأصلية المميزة لهم على غيرهم، حتى أن منهم من يجهلون اللغة التركية ولايتكلمون إلا بلغة الوسط الذي يعيشون فيه.

وإذا نظرنا إلى الأرمنؤود من هذا الوجه فلا نلبث أن نرى أنهم جنس مستقل بذات، وذرية لا تمت إلى الأتراك بحبل القرابة. وهم مشهورون بالبسالة والولع بالقتال، وهذا هو سبب إقبالهم على التطوع في خدمة الولاة، وإذا انتظموا في سلك الجيش تفوقوا على غيرهم في الصفات المطلوبة من الجندى. وإنما عيبهم الوحيد العناد والنزوع إلى الثورة والشغب، ولهم حرص شديد على المال وغرام بجمعه إلى حد يمكن القول معه بأن جميع حوادث الاضطراب ترجع غالباً إلى النزاع على المال. وسواد = معظم = الأتراك الموجودين بمصر من أصل أرمنؤودى أو أوربى. أما الأتراك الآسيويون فقد احتفظوا بالصفات المميزة لجنسهم إذ لم يطرأ عليهم تغير كالذى ذكرناه.

أما المماليك فيحتفظون بأصولهم بدليل ما يبدو عليهم من سماتها الخاصة بها. وهذا بالرغم من تطبعهم بالعادات والأخلاق التي يقتضيها نوع التربية المعطاة لهم. ومع أن الكثيرين منهم مسيحيو الأصل، وإنما اعتنقوا الإسلام في نعومة أظفارهم، فإن التعصب الدينى تأصل في نفوسهم إلى حد جعلهم من ألد خصوم الديانة المسيحية. وهم، بوجه عام، لا يمتازون بشيء من الذكاء والعقل. وكل ما يميزهم عن غيرهم، ويعتبر الصفة الخاصة بهم والفطرة التي فطروا عليها دون غيرهم، العناد. وأعرف منهم فريقاً لا أشك في سمو مكانتهم من العقل ونباهة الذكر. وفي تاريخ الدور الخطير الذى قاموا بتمثيلة على مسرح الديار المصرية إلى أوائل هذا القرن أمثلة لا عداد لها على خيانتهم وغدرهم، فالأمانة لم تكن إذن من الفضائل الشائعة بينهم. وليس هذا مما يستغرب إذا نظرنا إلى أصل نشأتهم، وعلمنا أنهم في طفولتهم الأولى حرموا لذة الخب العائلى ولم يتذوقوا لها طعماً، وانتقلوا بغتة من بيئاتهم التي نشأوا فيها إلى وسط اجتماعى لا تلحمهم بآله لحمه قرابة ولا يعطف عليهم

إحساس الشفقة الوالدية. فهذا الحرمان مما من أفئدتهم العواطف الطاهرة والخلال الكريمة والصفات التي يحول دون انبثاقها فيهم شوبوبهم، منذ المهدي، في ضيق البيت وذل الاغتراب.

ولم أستطع، في هذه النبذة الموجزة، أن أقدم من طباع العثمانليين إلا البارز المشهود. وليس هو في الحقيقة مما يجوز فيه الإطلاق، فإن بينهم كثيرين اكتسبوا بتأثير التربية القويمة والعلم الصحيح، منذ جلس محمد علي على أريكة ولاية مصر، من الآداب العالية ما جعلهم أهلاً للإجلال والتوقير، نخص منهم بالذكر جميع أفراد الأسرة المحمدية العلوية وأكابر رجال معيتها.

(٣) الأقباط

نتائج فتح المسلمين لمصر وتأثيرها في حالة الأقباط - طباع الأقباط وأخلاقهم - عقيدتهم الدينية - كنائسهم - حجهم إلى بيت المقدس - اكليروسهم - الزواج وتشجيع الجنازات - صناعات الأقباط وحرفهم.

٢١- نتائج فتح المسلمين لمصر وتأثيرها في حالة الأقباط

الأقباط أقدم سكان القطر المصري، والاختلاف طفيف بينهم والعرب الذين يعيشون، منذ الفتح الإسلامي، مختلطين بهم. وأغلب هؤلاء العرب سلالة المصريين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي، على تعاقب الأجيال. ولقد تأثرت طباع الأقباط بما ظلوا يعانونه من الاضطهاد والظلم مدة اثني عشر قرناً. وغنى عن البيان أنهم، حينما نادوا بالمسلمين لاستنقاذهم من ربقة الحكم اليوناني والتفكيك بدولة الروم لما بينهما والمصريين من الاختلافات الدينية.

٢٢- طباعهم وأخلاقهم

طباع الأقباط وأخلاقهم ليست مما يستهوى الأوروبيين إلى محبتهم والعطف عليهم. فإنك تراهم في وجوم دائم واكتئاب ملازم، كأن الحزن لا ينفك عنهم. وسبب ظهورهم في هذا المظهر الشدة المرعية في تربيتهم والطرائق والأساليب المتبعة في قيامهم بفروض دينهم.

والأقباط يمتازون بأهلية خاصة للقيام بأعمال الحساب على أنواعها ومسك الدفاتر. وهذا هو السبب الذي جعل المماليك - وهم أولئك الفرسان الشجعان الذين لا يقدرّون من العلوم والفنون إلا ما تعلق منها بالحرب وحمل السلاح - يتخذون من الأقباط القومة على إدارة شئونهم المالية، وخصوصاً وأنهم من أصحاب الدراية ببعض المعلومات.

وقد نجم عن تولي الأقباط بعض المناصب الإدارية، لما اضطرت الحاجة المماليك إلى التنازل لهم عنها، أن توافرت لديهم الوسائل للأخذ بالتأثير من جراء ما لحق بهم من المظالم والاضطهادات. فإنه لما عهدت إليهم مساحة الأرض وإدارة الأموال رأوا من استئانة الرؤساء إليهم واعتماد أرباب الأموال عليهم خير فرصة لاعتبارهم أنفسهم أصحاب مصر الشرعيين وصادتها الحقيقيين، ونظرهم إلى المسلمين بوصف كونهم الفاتحين الغاصبين. فكأنى بأولئك المسيحيين قد نسوا كلمة اليسوع: «رد إلى قيصر ما لقيصر».

٢٣- ملابسهم

أوليس الأقباط مثل ما يلبسه المسلمون من الثياب. وإنما يفضلون منها ما كان قاتم اللون. وإذا كانوا من سكان المدن، آثروا من الثياب ما يكون أسود اللون أو أزرقه أو رماديه، ذريعة إلى التمييز بينهم والمسلمين. وجعلوا عمائمهم بأحد هذه الألوان. أما نساءؤهم فيتنقبن حتى لا يرى شيء من وجوههن سواء خارج منازلهم أو داخلها، وفي حضرة أقرب الناس إليهن.

٢٤- إيمانهم الديني

الأقباط شديداً التمسك بعقيدتهم، ولهم في أداء فروضها أساليب في غاية القسوى من الشدة والصرامة. فمن ذلك أنهم يقومون بالصيام مراعين في أداء فرضه منتهى الصلابة والدقة والصوم عندهم صومان يسبق أحدهما عيد الفصح بأسبوع، ويسمى صوم (يونان) ومدته ثلاثة أيام وصيامه تذكّار لصوم نينوى الذي سببه نبوءة النبي يونس. وأكثر الأقباط تشدداً في رعاية هذا الصوم يمسون عن كل طعام مدة الثلاثة الأيام التالية. أما الثاني فيسمى عندهم بالصوم الكبير، وكان في الزمن السابق، لا تزيد مدته على أربعين يوماً. ولكن أقطاب الدين زادوا فيه زيادات متوالية

حتى أبلغوه إلى خمسة وخمسين يوما. وهم في هذه المدة يمسكون عن تعاطي الاطعمة الحيوانية الأصل ومنها اللبن والبيض والزبدة والجبن، ويقتصرون في القوت على النباتات والبقول. ويحتفلون بـ « قبل المجيء » أى مدة التجهز لعيد الميلاد والأربعة الآحاد السابقة عليه. وهناك صوم آخر يدعونه صوم الرسل، وهو يشمل المدة بين عيد الصعود والخامس من شهر أبيب. ويقومون أيضا بالصوم الذي قام به الرسل بعد موت المسيح.

وهناك صوم غير ما تقدم يسمونه صوم العذراء، ويقع في الثلاثة أيام السابقة على عيد صعود العذراء، وصوم يومى الجمعة والسبت من كل أسبوع وما يقع من هذين اليومين في غضون الخمسين يوما الفاصلة بين عيد الفصح والعيد الخاص بحلول روح القدس على التلاميذ. أما الأعياد الكثيرة التى يقيمونها بهذه المناسبات فأضرب عن ذكرها صفحا دفعا للتطويل.

٢٥- كنائسهم

سبق لنا القول بأن للأقباط عددا عظيما من الكنائس والأديرة. ولنذكر الآن أن الكنائس عندهم تنقسم عادة إلى أربعة أقسام أو خمسة: القسم الأعلى أو الفوقى والهيكل ويحتوى المذبح، وهذا القسم ينفصل عن بقية الكنيسة بحاجز يتوسطه باب ينسدل عليه ستار رسم فوقه طايب كبير، والقسم الذى يلى هذا الحاجز خاص بالقساوسة والشمامسة والمرتلين وكبار أعضاء الطائفة. وهذا القسم أيضا يفصله عن الأقسام التالية المخصصة لعامة المصلين حاجز من الخشب. وأرض الكنيسة تفرش عادة بحصير السمار، وعلى الجدران صور غليظة تمثل القديسين، وعلى الأخص القديس الذى نسبت اليه الكنيسة. أما التماثيل فممنوعة من الكنائس القبطية.

وعادة الأقباط عند دخولهم الكنيسة أن ينزعوا الأحذية كالمسلمين إذا غشوا مساجدهم، حتى لا تتلوث الأرض بلوثها.

٢٦- الحج إلى بيت المقدس

من جوامع الشبه بين الأقباط ومواطنيهم المسلمين، اهتمامهم بالحج إلى بيت المقدس. والمسيحيون الوطنيون من أهل الممالك العثمانية يقتدون بالمسلمين في الطموح إلى التحلى بلقب (الحاج) فتراهم يتهافتون على زيارة

الأماكن المقدسة، ويرون في هذه الزيارة فضلا كثيرا ومزية عظيمة. وهم يؤلفون القوافل العديدة لهذا الغرض، ويسيرون بحيث يدركون المدينة المقدسة في أسبوع الصلבות « الآلام » وأعياد الفصح. وعقب الأسبوع المقدس بثلاثة أيام يقصدون نهر الأردن للاستحمام بمياهه.

٢٧- الإكليروس القبطي

يقوم بالخدمة الدينية في الكنائس القبطية الرهبان والشمامسة الإنجيليون والكهنة ورؤساء الكهنة والأساقفة الذين يخضعون لسلطة أحد البطارقة. ولا يجوز عند الأقباط أن يترشح أحدهم للانتظام في سلك الإكليروس إلا إذا كان متزوجا. فإذا وافته المنية وهو قائم بوظيفته الكهنوتية. فالواجب أن تقضى أرملته بقية حياتها في العزوبة. وكذا الحال بالنسبة له إذا توفيت زوجته، فإنه لا يجوز له أن يتزوج مرة أخرى. ويشترط في قبوله بالإكليروس أن يكون خاليا من العيوب الجثمانية، وأن لا يقل عمره عن ثلاثة وثلاثين عاما. وعليه أن يعيش من ثمار الحرفة التي يحترفها. ويتلقى الصفة الكهنوتية المقدسة إما من يد البطريق وإما من يد أحد الأساقفة.

أما الرهبان فتحتم عليهم العزوبة، ويتتلمذون قبل قبولهم ليمعنوا في الصبر والتقوى، وذلك بأن يرسلوا إلى أحد الأديرة الواقعة في وسط الصحراء ويستخدموا في الأعمال الحقة المزرية. فإذا ظلوا بعد هذه التجربة مصرين على عزيمتهم، قبل اندراجهم في سلك الكهنوت، وتقرأ عليهم صلوات الموتى في حفلة تكريمهم لتمثيل موت الإنسان وفنائه في الحياة الدنيا. والرهبان كثيرون العدد جدا، ويعيشون عيشة أساسها الزهد والتقشف، فلا يحملون من الثياب إلا الصوف، ويميزون عن غيرهم بشريط من الصوف الأزرق سابل حول القلنسوة.

وللاقباط في القطر المصري إثني عشر أسقفا ينتخبون عادة من بين الرهبان أو القساوسة العزب، ويظلون طول مدة أسقفيتهم محافظين على الأساليب الصارمة لمعيشة الرهبان.

أما البطريق فهو رئيس الكنيسة الجالس على كرسي مار مرقص الذي يقول الأقباط إنه تولى تحويل المصريين من عقيدتهم الأولى إلى الديانة المسيحية. ويلقبونه ببطريك الإسكندرية، وأن يكون مقيما بالقاهرة.

وينتخب عادة من رهبان دير مار أنطونيوس القريب من البحر الأحمر. ويجوز أن يكون تعيين البطريك بمعرفة سلفه ولكن القاعدة المرعية بوجه عام في اختياره، أن يكون بواسطة الاقتراع.

وطريقة ذلك أنه إذا خلا الكرسي المرقصى انتخب رئيس دير مار أنطونيوس عشرة رهبان أو إثني عشر راهبا من المعروفين بالنسك والزهد والأهلية لحلول ذلك المركز السامى، ويكتب أسماءهم في قطع صغيرة من الورق بعضها في كيس بعد أن يجعلها في شكل الأنابيب. ثم تخلط الأوراق بعضها ببعض خلطا جيدا، ويدخل أحد القساوسة يده في الكيس ويأخذ ورقة منها، فالذى يوجد اسمه مكتوبا فيها ينصب بطريكا ويعهد إليه الكرسي البطريكى. وينبغى أن تكون عمامته أكبر من عمامة أهل ملته أجمعين، وأن يلبس من الملابس أفخرها. على أنه يبقى خاضعا لقواعد نظامية في غاية الصرامة والشدة منها أنه لا ينام إلا إذا أوقف مرة في كل ربع ساعة ولبطاركة تأثير كبير في الأمة القبطية وسلطتهم محترمة منها وهى ترجع إليهم غالبا في حسم منازعاتها وحل مشكلاتها.

٢٨- الزواج وتشيع الجنازات

يحصر الأقباط الزواج في دائرتهم بحيث لا يتعدى قط أفقها، فهو بينهم وأهل الديانات الأخرى محرم قطعاً. ويحتفلون به على الطريقة التى يتبعها المسلمون. وعندهم أن من بواغت العار والخزى أن تكون المرأة مصابة بالعقم.

أما الجنازات فليس فيها ما يستوقف النظر وغاية الامر أنهم، كالمسلمين، يستأجرون فيها المعدادات والندابات. والمرأة التى توفى «زوجها تحمل الحداد عاما بخلافه إذا توفيت زوجته، فإنه يحمل حدادها نصف هذه المدة. والزوج الذى يعيش بعد وفاة زوجته لا يجوز له الزواج ثانيا خلال مدة الحداد.

٢٩- صناعات الأقباط وحرفهم

للأقباط مدارس كثيرة، ولكنها قاصرة على الأطفال. فالنساء اللاتى يعرفن القراءة والكتابة قليلات العدد جدا فى الطائفة القبطية: والدروس التى تعلم ولاد فى هذه المدارس هى مزامير داود (الزبور) والأنجيل ورسائل الرسل.

ويتكلم الأقباط باللغة العربية وبها يتفاهمون. أما لغة أجدادهم فلا يدرون منها شيئاً، خصوصاً في الوجه البحرى. ولا يزال الكثيرون منهم كما كانوا في عهد المماليك يشغلون وظائف الإدارة والمساحة وجباية الأموال. أما في المدن فيباشرون الحرف المختلفة، وفي القاهرة يزاولون الصياغة والتطريز، وفي مديرية منوف يصنعون حصر السمار، وفي مديرية الفيوم يستقطرون ماء الورد، وفي أسيوط ينسجون الكتان. ويزاولون فيما عدا هذه الصنائع مايزاوله بقية المصريين من أعمال الزراعة وما يرتبط بها.

(٤)

اليهود والأرمن واليونان والسوريون

الفقر الظاهري لليهود - أخلاقهم - بغض المسلمين لليهود واحتقارهم إياهم - يهود دمشق - الصناعات التي يمارسها اليهود - الأرمن - اليونان - السوريون.

٣٠- الفقر الظاهري لليهود

يسكن السواد الأعظم من يهود القطر المصرى مدينة القاهرة. ولهم فيها حى خاص بهم ضيق الطرقات مظلماً قذر بلوث لوساخات مختلفة. وله أبواب خاصة يغلق بها فيحبس اليهود أنفسهم فيه، كلما أرادوا ذلك، ليكونوا في معزل عن بقية سكان المدينة. ومنازلهم متلاحمة متراكمة إلى بعضها، رديئة التقسيم زرية الشكل. واختلاف يهود مصر عن بقية سكانها من حيث السحنة والملامح، أقل منه في أوروبا بينهم والأقوام التى يسكنونها. ومن عاداتهم لبس الثياب الرثة والأطمار البالية، وقد جبلوا على هذه العادة إلى درجة يخيّل للناظر منها أنهم يزدهون بما هم متمرغون فيه من تلك الفاقة والمترية. أما وجوههم فشاحبة اللون، والمجمع عليه أن هذا العارض المرضى فيهم سببه الإفراط من أكل زيت السمسم المعروف بالسيرج أو الشريج.

٣١- أخلاقهم

تلاقت في يهود الشرق الأدنى الطباع والغرائز التى جعلتهم في القرون الوسطى مبغضين في أوروبا وممقوتين من الناس طراً. وهم ما برحوا إلى اليوم على ما فطروا عليه من الجشع والشح، لا تراهم يجتهدون في ستر ما لديهم

من الثروة عن الأنظار، والغالب على اليهود الجهل مع التدين، والتشيع للدين تشيعا يزيده حدة توالى وقوع المظالم والاضطهاد من كل نوع عليهم حتى في أيامنا هذه.

ورغم ذلك فإنهم يمتازون بالنشاط والملاينة والمداهنة ومعالجة الصناعات المختلفة. ولا يترفعون عن الوسائل أيا كانت مادامت تكفل لهم الربح، قل أو كثر. أما أخلاقهم وعاداتهم فمبنية على الشدة والصرامة، لذلك كانت بعيدة عن مظنة الدنس والشوب.

ونساء اليهود تتحجبن كالمسلمات والقبطيات تحجبا تاما. ولا سبيل إلى اتهامهن بما تتهم به المرأة التي تفرط في عفتها مع الرجل وتساومه على شرفها.

٣٢- بغض المسلمين لليهود واحتقارهم لهم

المسلمون من أكثر أهل الديانات الأخرى بغضا واحتقارا لليهود. ويرجع ذلك إلى ما وقر في نفوسهم من أن اليهود أكثر حقدا على الإسلام وكراهة له. فقد ورد في القرآن (المائدة): «لتجدن أشد الناس عدواة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة لذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون».

٣٣- يهود دمشق

ولقد شملهم سمو الوالى الآن بنعمة تسامحه وكرمه، كما فعل مع أهل الديانات الأخرى. فهم يتمتعون الآن في ظلال حكومة محمد على ، بأكثر مما يتمتع به أهل ملتهم من الحرية الصحيحة والحماية الفعلية، في سائر أجزاء السلطنة العثمانية. ومن الدلائل البينة والبراهين الساطعة على ما لقيه اليهود من العناية والرعاية في عهد محمد على، حادثة يهود دمشق، وهى الحادثة التعسة التى دوى رنينها في أصقاع أوربا كافة. ولسامع هذا القول أن يعرب عن دهشته واستغرابه ويجنح إلى عدم التصديق به، ولكننى أقول لمن لا يؤمن بقولى ان مدينة دمشق تأصلت فيها جذور التعصب للدين وفشت الضراوة بمخالفيه. فلو أن تهمة كالتى وجهت إلى اليهود من أهلها بحق أو بغير حق، وجهت قبل فتح البلاد السورية بالجنود المصرية، لأفضت بلا ريب إلى إنزال

النقمة بالامة الاسرائيلية فيها وتسلب الناس عليها بالتخريب المتلف.

ولنفرض أن مدينة دمشق الآن في قبضة وال كأحمد باشا الجزار أو عبد الله باشا أو غيرهما ممن لا يكثرثون بحياة الرعية، فإنه ما كان من المأمول مع طول التروى وإمعان النظر في القضية التى تورط اليوم فيها جملة من يهود الشام، الوصول إلى حلها حلا عادلا. أما الآن، وقد أحاط الوالى هذه القضية بجميع الضمانات الكفيلة بالعدل وعدم التحيز، وأصبحت إدارته الحكيمة فى بلاد الشام بعيدة عن مزلق الانتقاد، فقد أقام الدليل الساطع على أنه يعمل بمحض الميل لخير الإنسانية.

٣٤- الصناعات التى يمارسها اليهود

يعالج اليهود من الصناعات ما يتطلب أداؤها أكثر ما يكون من النشاط والحركة، وتكون أرباحها محفوفة بالمصاعب والأخطار. فأغنياؤهم يسلفون النقود بالربا الفاحش، وغيرهم يزاولون بيع الأمتعة القديمة أو يتدخلون بين الباعة والمشتريين لأداء مهمة السمسرة، أو يحترفون بالصاغة.. الخ. ومن اليهود فريق كبير يعانون الفقر ولا يعيشون إلا من الصدقات التى يتيحها لهم ذوو اليسر من أبناء دينهم.

٣٥- الأرمن

الأرمن قليلو العدد فى مصر، والأسر المقيمة بها الآن هاجرت إليها مع الفاتحين العثمانيين. ولسنا بحاجة إلى ذكر التأثير العظيم الذى نتج عن مداخلة الأرمن، وهم على ما هو معروف من اقتدارهم ونفوذهم بالآستانة، فى أعمال الحكومة المأجورة لباشوات، يتسلطون على إدارة الأقاليم. والباحث فى أحوال بلاد الدولة العلية يخيّل له أن السلطنة العثمانية أصبحت بين الأتراك والأرمن، ملكا مشاعا استقل هؤلاء بالنصف من خيراتها. ومن عادتهم التى درجوا عليها أن يتعقبوا العثمانيين فى تنقلاتهم من بلد إلى آخر فوصلوا بهذه الوسيلة إلى مصر واستوطنوها.

وليس لأرمن فى القاهرة حى خاص بهم. وقد درجوا على أن ينظروا إلى الوطنيين بالعين التى ينظر الأتراك إليهم بها. فهم يعاملونهم بالعجرفة والصلف ويبرزون لهم فى مظاهر الكبرياء والسمو، وبلغ من أمرهم فى ذلك

أنهم يتحاشون مخالطتهم ويتقون لقاءهم. والغالب عليهم اليسر وسعة الحال، لأنهم يعالجون صنوف التجارة ويشغلون باستثمار الأموال.. والعظماء الأذكىاء منهم هم الصرافون، كما أن أغلبهم يتجرون بالجواهر وصنع الثياب وكراكي السمرور وشغل الحديد. ويبدون الكثير من النشاط والهمة والأهلية في أداء هذه الأعمال التي زاولوها مزاولة تعلم وتدريب منذ نعومة أظفارهم.

٣٦- اليونان

في مصر طبقتان مختلفتان من الإغريق لم تختلطا حتى الآن ببعضهما. الطبقة الأولى منهما سلالة الإغريق الذين كانوا يسكنون القطر المصري قبل الفتح الإسلامي، وقد احتفظ هؤلاء بشيء كثير من السمات المميزة لأصلهم. ولا يتكلمون اليونانية وإنما لغتهم العربية، ويحاولون من الصناعات النجارة والتطريز، ويتجرون بالقطاعي في كل شيء. أما الطبقة الأخرى فتشمل اليونان الذين هاجروا إلى مصر منذ فتحها العثمانيون، وجميعهم تقريبا يشتغلون بالتجارة.

ويقطن اليونانيون في القاهرة حين متباعدين: الحى الأول سمي أرض الروم (لعلها حارة الروم)، والآخر الحى المعروف بالجوانية. وهناك طائفة منهم تسكن مصر العتيقة، وسوادهم الأعظم على المذهب اليوناني المبتدع. ولهم ثلاثة معاهد دينية كبرى وهى: كنيسة مار نيقولاس التي يباشر شئونها بطريرك الأروام، ودير القديسة كاترينة في الجوانية، ودير مار جرجس في مصر العتيقة. وهذا الدير موضع احترام الأروام وتبجيلهم وهو عبارة عن قصر حصين يتعذر الولوج فيه من مدخله، وفيه كنيسة يصعد إليها بسلم ضيق مركب في جدار سميك جدا. وفي الكنيسة برج مرتفع يشرف الواقف بأعلاه على الأراضى الخلوية المحطية به. وقد اعتاد المسلمون والمسيحيون الذهاب بالمعتوهين والمجانين إلى هذا الدير لالتماس الشفاء لهم من القديس الذى أطلق اسمه عليه.

هذا وقد أسر عدد من الشبان اليونانيين خلال الحرب في شبه جزيرة مورِه. فلما جرى بهم إلى مصر بيعوا ببيع الأرقاء ثم اعتنقوا الديانة الإسلامية فتوصل بعضهم بذلك إلى أسمى المناصب في الإدارة والجيش.

٣٧- السوريون

بدأ السوريون بالهجرة إلى مصر منذ قرن تقريبا، وكانت تدعوهم إليها الروابط العديدة التي تربط بلادهم بالقطر المصري. ولقد عالجوا فيه التجارة فلم يلبثوا أن أحرزوا منها الثروة الواسعة، ولا يزال أعقابهم يسرون على النهج الذي سلكه أجدادهم فأباؤهم.

والسوريون كاثوليكيون على المذهب اليوناني، وقد حاول بطارقة المذهب المبتدع استدراجهم إلى الاندماج في طائفتهم، واتخذوا التدابير المختلفة لحملهم على ذلك. فلكي يوقوا أنفسهم عاقبة اضطهادهم تعهدوا بأن يدفعوا إليهم في كل سنة إتاوة من المال قدرها ثلاثة آلاف قرش.

وبالقاهرة نحو ثلاثة آلاف مسيحي من أهل سوريا وخمسمائة إلى ستمائة بدمياط، ومائتان إلى ثلاثمائة بالإسكندرية ورشيد. ويحرصون على جنسهم من اختلاط الأنساب وتداخل الشعوب. فبقيت عاداتهم وأخلاقهم مصونة لهذا السبب وبعيدة عن شوب الالتحام بالعناصر الغربية.

(٥)

الحالة السياسية للرعية

٣٨- يطلقون اسم « الرعية » على الأهالي الوطنيين الذين لا يدينون بالإسلام. والرعية في تركيا أوروبا شطر الأمة الأكبر، أما في مصر فلا يتجاوز عددهم مائتين وخمسين ألفا من الأنفس. وهو ما يؤخذ منه أن حالتهم السياسية في القطر المصري لا تؤثر تأثيرا كبيرا في أعمال الحكومة، حاضرة أو مستقبلية، كما هو الشأن في بقية بلاد الدولة العثمانية.

ومما يلفت نظر الباحث ويستدعي دهشته طابع التطور الذي رسم به الأتراك كل شيء في أنظمتهم السياسية. ولقد مضى زمن طويل قيل فيه أن الأتراك لا عمل لهم الا التنقل بخيلهم ورجلهم في فسيح أملاكهم ولكننا رأينا، أثناء الكلام على عادات المسلمين وأخلاقهم، أن هذا القول لا يزال صحيحا في مدلوله الخاص به.

فإن العثمانيين لم يلحقوا المملكة التي أسسوها بشيء من عنصر البقاء ولقاح الحياة بل تركوا للمصادفة العمياء أو لحكم القوة والجبروت تدبير

أنظمتهم الإدارية والعسكرية، إذا صح أن نسمى بهذا الاسم النظام الفظ الغليظ الذى تخبطوا فى وضعه تخبط من به مس. فإنهم لم يدركوا قط أن الاستقرار فى البلاد المفتوحة حديثا لا يستدعى احتلال أراضيها فقط، بل أيضا إفناء سكانها فى ذواتهم بما يتفرغون لتحقيقه من مزج الأديان والأنظمة والأجناس بعضها ببعض. ولقد تحول البرابرة المتوحشون الذين أغاروا على أوروبا، إبان سقوط الدولة الرومانية، عن عقيدتهم الدينية ليعتنقوا عقيدة الأمم المغلوبة بهم، ويتخذوا دينها ديناً لهم، وجعلوا قوانينها شريعة لهم ولغتها اللغة التى يتفاهمون بها. ومن هذا الاختلاط الذى بث فيه احتضان الزمن له روح الحياة تولد، مع حالتنا الاجتماعية الحاضرة، ما هو مشاهد من آثار التقدمات الحديثة فى الأمم الأوروبية جميعا.

أما العثمانيون فقد ساروا - بالنظر إلى ازدهائهم برفعة عقيدتهم وسموها على سائر العقائد - على عكس الخطة المتقدمة فلم يمنحوا المغلوبين ميزة ولا تحفؤهم بعباء، بل أقصوهم عنهم وعمولوا بالقهر وسيموا بالمدلة. فلم يتوافر فى المملكة العثمانية، لهذا الباعث، اتحاد أو امتزاج ما بين عنصر القوة والنشاط الحيوى الذين يحملهما الفاتحون إلى المغلوبين كوثيقة تتضمن وعودهم للمستقبل، وعنصر المدينة الذى هو تراث الماضى مصوناً بيد المغلوبين. ولم يتم فى تركيا ما تم بأوروبا فى القرون الوسطى من تلقيح الجسم - الذى أخذت تتلاشى حياته - بدم جديد كريم توافر فيه ما يحتاجه هذا الجسم الآيل إلى الفناء من عناصر القوة والتجديد. وكل ما حصل هناك تراكم العنصر المتوحش المتمرغ فى خيلاء جهله تراكما عقيما على أنقاض هيئة اجتماعية ألقاها الانحطاط فى هاوية الانقراض والفناء أجيالا متعاقبة.

قامت الدولة العثمانية على هذا الأساس فأوصدت فى وجه نفسها كل باب للتقدم والنجاح، ولم تحصل من الزمن على ضمان بالبقاء، إذ كانت مؤلفة من أمتين إحداهما واقفة حيال الأخرى ومتصلة بها اتصالا لا انقطاع له، مع تناقض مصالحهما وتعاكس أخلاقهما وتباين عاداتهما وانفراج أفكارهما وخواطرهما، وشعور كلاهما للأخرى فى نفسها بالازدراء والبغضاء.

فلم يكن يوجد فى أفق السلطنة العثمانية أمة واحدة بل أمتان لإحداهما على الأخرى التفوق فى العدد، وإن لم تكن قابضة على ناصية الشوكة والحكم

في الحال، والحقيقة التي لا ريب فيها أن وحدة الأمة شرط أساسي لا مفر منه لشباب الدول وحياتها ولا مستقبل لها من غيره.

ومما أدهش ذوى العقول الراجحة ما يمكن أن يفضى إليه من النتائج انقسام شعوب تركيا إلى شطرين كبيرين. فقد قال أوركارت في كتابه (تركيا ووسائلها): «إن للرعية من المكانة والشوكة ما تستطيع به تعطيل إصلاح الدولة العثمانية وإعادتها إلى نشأتها الأولى».

وليلاحظ ما هناك من الفرق المشهود، من هذه الوجهة، بين مصر وبقيّة أملاك الدولة العثمانية. فإن مصر لا تخشى تفشى المنازعات الداخلية فيها، وكل ما تخشاه أن ترى النصف ترى النصف من سكانها يستصرخون بالأجانب ويدعونهم إلى قلب النصف الآخر والتحكم في أهله بالغلبة والقهر. ولنفرض جدلاً أن هناك أسباباً لتقليل التهم التي يوجهها خصوم مصر إلى حالتها الحاضرة. ولكنني أود أن يعترف هؤلاء الخصوم بأنها جزء من أملاك الدولة العلية مخالف بالمرّة لسائر الأجزاء، بتوافر الدلائل الراجحة فيه على حسن مستقبله، لتحقيق معنى الوحدة الجنسية فيه بحذاقها.

والرعية التابعون لدولة العثمانية لا يساهمون مع المسلمين فيما هو مفروض عليهم من الكف والرسوم، ولا فيما هو ممنوع لهم من المزايا والخصائص في السياسة. فمن ذلك أنهم غير مطالبين بالتجند للدفاع عن حوزة الوطن، غير أنهم محرومون إزاء ذلك، من مساواتهم في الحقوق المدنية، فضلاً عن أدائهم إلى الخزينة ضرائب خاصة بهم إلخ. فالتقريب بين الرعية والمسلمين بإزالة الفوارق القائمة بينهما ومساواة أحدهما بالآخر في الحقوق هما الغرضان اللذان يجب أن ترمى إليهما، في تركيا، كل سياسة رشيدة تتمنى من قلب سليم تجديد الدولة العثمانية وإعادتها سيرتها الأولى، والظاهر أن إلى هذه النتيجة تشرئب أعناق مستشاري السلطان، وفي طليعتهم رشيد باشا الممتاز عليهم جميعاً بصراحة الأفكار وحريتها وصدق الميول إلى ناحية الخير.

وإذا أتيح لي أن أزجى إلى سمو وإلى مصر رأياً، فإنما أول ما أشير به عليه إقامة المساواة في الحقوق المدنية بين المسلمين ورعاياه المسيحيين (الرعية). وبدهى أن هذا العمل لا يكبده من الصعوبة والحيرة ما يكبد الباب العالي

منهما، لأن الرعاية في حكومته أقل نفرا وأضعف شوكة منهم في بلاد الدولة العلية. فإذا سعى سعيه في هذا السبيل، عاد سعيه بالنفع الجزيل والخير الوفير على اعتبار أن هذا العمل لم يكن إلا تجربة ضيقة النطاق، فإذا أفلح، وهو المرجو، هيأت هذه التجربة سائر بلاد الدولة العثمانية لثورة يكون من صالح هذه البلاد أن تتقلب في أطوارها على عجل حتى تستقصيها كلها. وفي هذه الحالة يكون بإمكان محمد علي البدء بتنفيذ وسيلة من وسائل التقدم والإصلاح التي يعد العمل بمقتضاها فاتحة خير للحكومة العثمانية نفسها. فإذا أتم ذلك بمعرفته فإنما يتم عملا بدأ به، فقد رأينا أنه قام بأعمال كثيرة لتحرير الرعاية من ربة الاستعباد بقبولهم في المناصب الكبرى الإدارية واختيار المحافظين والمديرين منهم.

(٦) الفرنجية

القناصل- التجار- الصنائع- مستخدمو الحكومة- أخلاق الإفرنج وطبائعهم- المسافرون والرحالة- شعور المسافرين- ما يستحقونه من اللوم- نصائح.

في جميع بلدان الشرق، يطلق اسم الفرنجة أو الإفرنج على جميع الرعايا التابعين للشعوب المسيحية وجميع الذين يحملون الثياب الأوروبية. وقد رأينا - في غضون الكلام على سكان القطر المصري - أن عدد الإفرنج فيه ستة آلاف نسمة تقريبا. ومن هؤلاء السكان تتألف عدة طبقات تختلف عن بعضها، وسأتناولها كلها بالبحث طبقة تلو طبقة.

٣٩- القناصل

الطبقة الأولى جماعة القناصل والقنصليرية والأعوان المرتبطون بالقنصليات على اختلافهم. وأهل هذه الطبقة حائزون على احترام الوطنيين وتوقيرهم.

وفي مصر قناصل جنرالية يقيمون بالإسكندرية. والدول الأوروبية التي ينوبون عنها هي فرنسا وروسيا والنمسا وانكلترا وبروسيا وأسبانيا والسويد وصقلية وسردينيا وهولندا وبلجيكا والدنمرك وتوسكانا.

والقائمون بتلك المناصب السياسية الكبيرة يعلقون على أبواب دورهم
شارات حكوماتهم ويرفعون أعلامها خفاقة على أرفع نقطة منها.

أما القاهرة فالمباشر لشئون الأجانب فيها وكلاء بدرجة (قيس قنصل) في
حين تتطلب أهمية هذه المدينة أن يكون بها لفرنسا قنصل من الدرجة الأولى
لما يوجب ارتفاع مرتبة الوكيل عن هذه الدولة فيها من احترام الوطنيين لها.
فإنهم لا يحترمون الحكومات الأجنبية ووكلاءها، إلا بقدر ما يكون لها من
جلال المظهر وحسن الهيئة. وللدول السالفة الذكر وكلاء في دمياط ورشيد
والسويس وقنا والقصير تختارهم عادة بين أهالي القطر الذين يدينون
بالنصرانية.

وعلى القناصل في بلاد الشرق أداء مهمة غير التي يقوم بها أمثالهم في
أوروبا. فإنه لما أبرمت الامتيازات المنظمة لعلاقتنا مع الدولة العثمانية، كان
الاختلاف بين أخلاق الأتراك وأنظمتهم وبينها عند الأمم الأوروبية عظيما إلى
أحد استدعى سن قوانين خاصة لمعاملة الإفرنج بمقتضاها، وتوسيع نطاق
اختصاصات القناصل، وجعلهم الرؤساء على أبناء وطنهم والمكلفين بالسهر
على تنفيذ القوانين الصادرة من حكوماتهم والمنوطين بحمايتهم، على وجه
يستدعى دوام رعايتهم أكثر مما لو كانوا في أي بلد غير ذلك البلد. وسبب ذلك
أن الأتراك — لما فطروا عليه من التوحش والهمجية — كانوا لا يكفون عن
استعبادهم بوسائل القهر والإذلال، فكان التصدى لدفع هذا البلاء يقتضى
من القناصل همة ويقظة لا تنقطع، فكان فرضا محتوما أن تحتفظ قنصليات
الدول الأوروبية في الشرق بمثل تلك الصبغة الخاصة، إلى أن تصبح الأخلاق
والأنظمة في الدولة العثمانية متفقة مع نظائرها في الديار الغربية.

ويميز القناصل الجنراليون للدول في الإسكندرية، على زملائهم في سائر
بلاد الشرق الأدنى، ويسمون عليهم في رفعة القدر.. لأن الدرجة التي بلغت
مصر إليها في العالم السياسى، منذ قبض محمد على على زمام شئونها،
أفضت بحكم التبعية إلى رفع القنصل الجنرال لدولة عظمى لدى حكومة
الوالى إلى مكانة تتناسب مع مركزه الذى أصبح أرفع شأنًا وأعظم حظوة مما
كان، ومن الحقائق الثابتة أن قناصل فرنسا وانكلترا وروسيا والنمسا
الجنراليين يؤدون وظيفة السفراء، لأنهم لا يقتصرون على حياطة المصالح

التجارية أو المدنية الخاصة بأبناء وطنهم بما تستدعيه من وسائل الحماية والرعاية . بل يتصلون بسمو الوالى اتصالا مستمرا ليرفعوا إليه بلاغات حكوماتهم ويعالجوا معه المسائل السياسية البالغة أقصى حد من الخطورة والصعوبة. فالشأن الخاص الذى صار إليه القنصل الجنرال فى الإسكندرية منذ بضع سنوات يتطلب إذن تحويل هذا المنصب إلى مركز سياسى بحيث تعهد مصالحنا السياسية فى القطر المصرى إلى معتمد سياسى.

ولكل من انكلترا وروسيا وكيل خاص عهد إليه النظر فى الشئون السياسية. فخليق بالدولة الفرنسية أن ترفع إلى مستوى هاتين الدولتين. لاسيما وأن اهتمامها المتواصل بشئون مصر وتأيدها محمد على فيما يبذله من الجهود الجليلة لما يدل دلالة واضحة على أنها بإنابتها أحد المعتمدين السياسيين عنها فى القطر المصرى تريد أن يرى الملأ فيه وليا عظيما لا باشا من مطلق الباشوات الكثيرين.

ثم إنه لمن الواجب على فرنسا الاقتداء بانكلترا فى الفصل بين الاختصاصات السياسية والاختصاصات التجارية فى منصب القنصل الجنرال، وذلك بأن تعهد الاختصاصات الأخيرة إلى قنصل خاص بها. وغير خاف ما للشئون التجارية من الأهمية العظمى، فإذا اعتبرنا الأحوال الحاضرة فإن القنصل الجنرال الذى يكلف بالنظر فيها سيكون العمل لديه كثيرا والمشاكل عظيمة بالنسبة إلى اضطراره من جهة أخرى للنظر فى شئون القنصليات التابعة له بالقطرين المصرى والسورى.

يتولى القنصل الجنرال أمور الجالية من أبناء وطنه المقيمين بدائرة سلطته وهو يديرها بمقتضى الأوامر والقوانين المعمول بها فى كل الشرق، ويصدر أحكامه بمساعدة نواب الأمة المنتخبين من الأعيان فى القضايا المدنية والجنائية، ويبرز فى الجمهور بالزى الخاص بمنصبه يحف به النواب المنتخبون كلما اقتضت الظروف ذلك.

وللقنصل الجنرال، فضلا عما تقدم، الحق فى حماية جميع الأديرة أما معاهد نشر الديانة المسيحية، فحمايتها من حق القنصل وهى داخلة فى دائرة اختصاصه.

ومن المهم لرفع مقام قناصلنا فى المملكة العثمانية وإعلاء شأنهم توفير

ما ينبغي من الوسائل لقيامهم بالمهمة الموكولة إليهم ليكونوا أهلا للثقة التي وضعتها فيهم حكوماتهم. ومن المرغوب فيه أيضا تزويد السلطة القنصلية بالقوة الكافية، وأن لا يسمح بوجه ما لأحد من أبناء وطننا التنصل من الطاعة لهذه السلطة أو امتهاتها. والواجب على قناصلنا أن يكونوا بحيث يستطيعون المحافظة على النظام بين أفراد التبعة الفرنسية وتطهيره - مادام النظر في شئونها موكولا إليهم - من أدران المحتالين والداساسين الذين لا إلا = عهدا = لهم ولازمة، الذين يلوثون سمعة أمتهم باغتنامهم فرصة طيبة الشعب المصرى واستنামته إليهم لابتزاز أمواله وانتحالهم ما ليس لهم من الألقاب والصفات للتغريب بهم. ويجب أيضا إلزام السياح والمسافرين باحترام سلطة القنصل.

٤٠- التجار بالجملة

الطبقة الثانية من الإفرنج تتألف من كبار التجار. وهم يقيمون غالبا في الإسكندرية، وعددهم الآن أربعون، يقيم بعضهم بالبلاد مع أسرهم منذ سنوات عديدة. ولا يتضمن عددهم طبعاً التجار بالقطاعى، إنما ينبغي أن يضاف إليهم الوكلاء التجاريون الذين يقيمون بمنازل رؤسائهم التجار.

٤١- التجار بالقطاعى

الطبقة الثالثة منهم تتألف من التجار بالتجزئة، وبالإسكندرية نحو مائة حانوت للتجار الأوربيين يباع في بعضها القماش وفي البعض الآخر الزجاج أو الجواهر. والأزياء الحديثة.. الخ.. وجملة من هذه الحوانيت مملوءة بالبضائع على اختلاف أصنافها. أما مخازن الأزياء المستحدثة فإنها من استجماع أسباب النظام والكمال بحيث تستطيع إيقاف زبائننا على حركة الأزياء المستحدثة بأوربا.

وتحتوى الإسكندرية ثمانية مطاعم أو عشرة للفرنسيين والإنجليز والإيطاليين على ما يرام من النظام، وقهوات جميلة تقدم فيها الشيكولاتا على الطريقة الأوربية، وفي فصل الصيف أنواع الجليد المحلى = الجيلاتى = الذى يرد الثلج اللازم لتبريده من بلاد كرامانيا ولفطاطرية الإفرنج بالإسكندرية زبائن كثيرون يترددون عليهم وهم يربحون ربحا لا بأس به. وفي القاهرة مطاعم عديدة على الطراز الأوروبى.

٤٢- أرباب الصنائع والحرف

أما طبقة الصنائع فتتألف من النجارين والبنائين وصانعي الأقفال والكوالين والسمكرية والنحاسين وصانعي المركبات والصبياغ والجواهرية والساعاتية وصانعي الأحذية والقبعات والخياطين وأصحاب الأزياء الحديثة للسيدات.

٤٣- موظفو الحكومة

تتألف من الأوروبيين المنتظمين في خدمة الحكومة طبقة مستقلة ليست من كثرة العدد كما يتبادر للذهن أول وهلة. ومن أفرادها مائتا طبيب وصيدلى وعشرون معلما في الجيش. هذا كل عددهم الذى يتوهمون بأوروبا أنه يتجاوز بضع مئات بل بضعة ألوف، ولقد كانوا أيام تشكيل الجيوش البحرية بمقتضى النظام الجديد أكثر عددا منهم الآن، ولكن عددهم قل كثيرا منذ تدريب الجنود المصريين، ولم تعد الحاجة ماسة إلى الأوروبيين في تعليمها الفنون العسكرية. أما المدارس ففيها نحو العشرين إلى الخمسة والعشرين أستاذا أوروبيا أغلبهم من الفرنسيين وأما مصانع الحكومة وفاوريقاتها فبها جملة من الفرنسيين والإنجليز والإيطاليين يزاولون أعمالهم بمثابة مديرين لحركتها أو كصنائع فيها. وبين موظفى الإدارة بعض الإفرنج يؤخذ من إحصائهم والإحصاء المتقدم أن عدد الأوروبيين الذين في خدمة سمو الوالى لم يكن من الكثرة بما ذهب إليه الظن واتجه الخاطى. ولا جرم فإن بدهيا أن يكون اهتمام محمد على منصرفا إلى استخدام أكبر عدد ممكن من أفراد رعيته، وأن يتخلص من الوصاية التى كان لابد لمصر أن ترزح تحت أعبائها لو تمادت في استمداد أوربا والاستعانة بها على كل أمر من أمورها. وهى نزعة وطنية محمودة العقى، غير أننى ألاحظ أن فيها مبالغة وشططا. إذ لا يخفى أن الأنظمة الجديدة تحتاج في حفظ كيائها إلى الحرص على ثمراتها والضن بنتائجها أن تذهب ضيائها حتى يتيسر اطراد السير في سبيل التقدم والفلاح. وهذا يستدعى الاستمرار على طلب المعونة من الأوروبيين والاسترشاد بهم.

٤٤- طباع الإفرنج وأخلاقهم

إن الأوروبيين الذين ذكرت نتقا من أحوال طبقاتهم، تتألف منهم جماعات

يلم شتاتها أحياء خاصة بهم. ومما يؤثر عنها التشدد في رعاية التفاوت بين المراتب والدرجات فيها، والحرص على الآداب والاصطلاحات الرسمية مع المبالغة في تطبيقها. فإن أفراد كل طبقة من طبقاتها الاجتماعية لا يجوز لهم أن يتعدوا في علاقتهم وروابطهم ببقية الطبقات الحدود المرسومة بمقتضى وظائفهم أو حرفهم أو ثروتهم. ويمتاز أهل الطبقة العليا بالتوسع في الإنفاق على ما هو مألوف في الهيئات الاجتماعية الاستعمارية، وتحري البذخ والأبهة في الأثاث والرياش والثياب، وتعقب الأزياء الباريسية فيما يطرأ عليها من التغير والحضور فيها. وغالبا ما تقيم الحفلات الليلية الفخمة، وتعد المعدات الباهرة لإقامة المراقص التي تحف بها مظاهر البذخ وتشف عن سلامة الذوق في التنميق والتنسيق. وفي الإسكندرية معهدان صغيران في الغاية القصوى من إحكام الترتيب وجمال الزخرف لتمثيل الروايات على اختلاف موضوعاتها، وقد خص أحدهما بتمثيل الروايات الفرنسية والآخر بتمثيل القطع الإيطالية وكان بناؤهما على نفقة بعض هواة الفن، ويتسم الإفرنج برقة مقرونة بمظاهر الأدب وإكرام مثوى الزائرين وبسط الكف بالمال لذوى الحاجة، حتى أنهم كثيرا ما يوافقون البائسين بمساعدات تبلغ الثلاثمائة فرنك إلى الخمسمائة. ويتعهدون دائما الفقراء من أبناء وطنهم فيكتتبون لمساعدتهم بالأموال التي كثيرا ما تبلغ مبلغا عظيما. وقد أنشأوا بالإسكندرية مستشفى يتولون الإنفاق عليه من صفوة مالهم، ويعالجون فيه الصناع والبحرية وسائر الإفرنج الذين تنقصهم وسائل العناية بشئونهم في منازلهم، أثناء علاجهم.

وما يؤسفني ذكره هنا ما لاحظته في الأخلاق والآداب بين الجالية الأفرنجية، من التجوز والترخص. فحيل الغرام أو دسائسه من الحوادث الشائعة المألوفة، ولكن هذا الانحلال الخلقى لا ينفى وجود أشخاص وأسرار على غاية ما يراد من العفة واستقامة الأحوال والمحافظة على نواميس الآداب والتدقيق في رعاية ما يليق وما لا يليق. وهؤلاء خير قدوة لمن يجب أن يستن بسنتهم في الفضائل ومكارم الأخلاق.

٢٥- الرحالة والمسافرون

يوجد بمصر دوما، فيما عدا طبقات الأوروبيين الذين سبق الكلام عليهم، عدد غير معين من المسافرين يفضى البحث في طباعهم وأخلاقهم وأعمالهم ومشروعاتهم إلى الانتقاد الشديد.

إن الأسباب التي يستند الأوروبيون إليها في اعتزام زيارة القطر المصري كثيرة ومختلفة. فبعضهم وهم الرحالة الحقيقيون يقصدون بزيارتهم الانتفاع في أوقات فراغهم بعمل ما يجهلونه، فهم كالنحل يتنقلون من زهرة إلى زهرة لاجتناء ما يطمحون إليه من ثمرات العلوم والفنون، والبعض الآخر وهم لفيف الفنانين والكتاب يقصدون بالزيارة حل رموز العلم وتلقى آيات الوحي في أقدم معهد للفنون بل في الأرض التي أغدقت عليها الطبيعة نعمها الجزيلة وزينتها بالطرف النادرة واللطائف المستملحة، وتحوم في جوها ذكريات ترجع في القدم إلى بضعة آلاف من السنين، وهناك فريق ثالث يشخص إلى مصر في طلب المال، وسوادهم الأعظم من رجال العسكرية والتجار والأطباء والمهندسين وذوى الابتكار لمشروعات والواقفين على الأسرار العجيبة وغيرهم ممن رفضت اختراعاتهم واستكشافاتهم في أوربا، فهبطوا مصر ليضعوا غراسها بأرضها العذراء.

وممن يحضرون إلى مصر التماسا للنزهة وتمتيع النفس أصحاب المقامات العالية والمراتب الخطيرة. وهؤلاء يعاملون بما هم أهل له من الإكبار والإجلال، إذ يحتفى سمو الوالى بلقائهم ويكرم مثواهم ويبذل المستطاع في العناية بهم وحسن الالتفات إليهم، وكثيرا ما يخصص لنزولهم أحد قصوره الباذخة أو ينزلهم دور العظماء من رجال دولته. وإنا لنذكر بهذه المناسبة الحفاوة الباهرة التي لقيها (الدوق دى راجوز) و (البرنس بوكار مسكو) وحديثا (البرنس لويس) شقيق ملك نابولى.

أما السياح الذين لا ألقاب لهم ولا شهرة، وإنما هم على شيء من الغنى واليسر، فيجوبون القطر المصري في أمن وسلام، ويتمتعون بكل ما يستطيع أحدهم أن يتمتع به من الطيبات. وذلك باستصدارهم من الوالى فرمانا (١) أى

(١) كان هذا فرمان يكتب كما يلي :

من ديواننا في سنة من الهجرة

إن صديقنا القديم الحميم المسير . «تذكر هذا الجنسية» جاء إلى أملاكنا ليزور المعاهد الأثرية وغيرها من الأماكن المفيدة له في أبحاثه . وقد قدمه إلينا جناب قنصله . وبناء عليه قد سلمنا فرماننا هذا لينتفع ويستظهر به أثناء رحلته في طول أملاكنا وعرضها .

فعلى المديرين والمأمورين وأرباب الحل والعقد ملكيين وعسكريين، وبالجملة كل من يقدم إليهم هذا فرمان أن يعنوا بأمره ويهتموا بأداء الخدم التي يروم منهم قضاءها حتى لا ترفع إلينا منه شكوى فيما بعد . ونوصيكم بعمل ما يلزم كي لا يلحقه حيف أو يوجه إليه شتم من الفلاحين أو غيرهم وإن تبادروا بموافاته بكل ما يحتاج إليه، وأن لا يدفع ثمنه إلا ما يطابق السعر الجارى في البلاد وذلك فيما يختص بأجر الدواب أو المراكب وثمان الأغذية الخ ... وإنى اعتبر أن الخدمات التي ستؤدونها إليه كأنها أدت إلينا بالذات .

نوعاً من جواز المرور يتيسر الحصول عليه بواسطة قناصل الدول التي هم تابعون إليها.

٤٦- تأثير الزيارة في نفوس السياح

التأثيرات التي تتركها مصر في نفوس السياح كثيرة التباين والاختلاف. واختلافها تابع لغرائزهم وأمزجتهم، فإن بعضهم يصلون إلى ضفاف النيل وأدمغتهم ملاءى بما تراكم فيها من الخواطر والهواجس قبل تحركهم للرحيل من بلادهم، فاستقر في أخلاقهم أنهم سيجدون بمصر - فيما عدا الوسائل الحديثة لتوفير أسباب الراحة والهناء والمزايا المادية التي هي ثمرة الحضارة والآثار القديمة - عادات وأخلاقاً تبعث على الدهشة والاستغراب فكانوا يمنون أنفسهم بالسرور الشديد أثناء ملاحظتهم إياها وبحثهم فيها ولكنهم متى استقر في أخلاقهم أن بلد الأهرام وأبى الهول والمسلات ليس فيها من تلك الوسائل ما يسهل السفر ويذهب بمشقتهم كما هو في أوروبا، بل متى علموا أنهم لا يستطيعون الذهاب إلى الأهرام في السكة الحديدية، وأن ليس هناك طريق سلطاني أو إقليمي أو زراعي يصل الإسكندرية أو القاهرة بأطلال الكرنك والاقصر الضخمة الفخمة، لا تلبث هذه الخيبة أن تتحول عندهم إلى شكوى مرة أو كراهة بالغة أو غيرهما مما يجعلهم يرون الأشخاص والأشياء في غير مظهرها الحقيقي، فيؤدى خطأ الحس حتماً إلى خطأ الحكم والمبنى على الفاسد فاسد بطبيعته.

ولا يهمهم من الأمر أن يكون الجو معتدلاً، والسماء صافية الأديم، ماداموا يشعرون بأن الشمس محرقة وأن حرارتها لا تطاق. ومن أين لهم، - وهذه حالتهم النفسية - التمتع بسكون الليل وصفائه اللذين يبتان في الجسم والنفس نشوة السرور والفرح، بل إذا كانت أنظارهم تقع على ما تثيره الرياح من الإعصار فيكفى هذا لكي يتأهبوا للقاء يوم عبوس قمطير. ومع اعترافهم بخصوبة الأرض، تراهم يقولون إن مناظر البلاد وما يحيط بها من المزروعات تبت اليأس والقنوط في النفوس لتجانسها وسذاجتها، دع أنهم لاتهمهم خصوبة أرض مصر مادام أن هذه الأرض لا تعدو كونها شريطاً ممتداً وسط الصحراء القاحلة. ويضيفون إلى ماتقدم قولهم إن الآثار القديمة ضخمة جليلة، وأن ما تثيره من جليل الذكرى يتجة إلى خاطر الرائي ويناجي

فؤاده، غير أن المدن الحالية قبيحة المنظر زرية الشكل، وسكانها رجالا ونساء لا يستر أجسادهم من الثياب البالية سوى قميص واحد. أما الأطفال فمجردون من الثياب بالمرة، تبدو على وجوههم وأجسامهم أعراض الأمراض المختلفة، وأن كل شيء تنبو عنه الأنظار لقبحه وبشاعته. يضاف إلى ما تقدم كله ما يستشعر الغريب به من القلق والانزعاج وسط قوم يتكلمون بلغة غريبة صعبة، ينشأ عن عدم العلم بها من الصعوبات والموانع ما يبعث على الضجر والمل في كل آن.

لهذه الاسباب ترى أولئك السياح الذين خابت آمالهم واضطربت أمزجتهم حتى رأوا كل شيء سوادا، لا يتنفسون الصعداء إلا إذا توارت أرض مصر خلف مؤخر السفينة التي تنزح بهم عنها، وتوقيهم بابتعادها رؤية تلك البلاد فإذا ما عادوا إلى مواطنهم واستقروا بهم النوى، وكبر تأثر نفوسهم بما أصابهم من الفشل والخيبة في رحلتهم، أطلقوا لألسنتهم العنان في ميدان ذم مصر والطعن في أهلها، كلما سنحت لهم فرصة، وإذا عمدوا إلى تدوين رحلتهم أبرزوها في ثوب مبرقش بألوان لا تطابق الحق والعدل في شيء.

وهناك فريق من السياح يذهب الغلو في عكس ما شرحناه من الشعور والتأثر، فإنهم لإعجابهم بكل جيد وتحمسهم له وشرهم إلى استطلاع ما يدعوهم إلى العجب والدهش، لا يستثنون من إعجابهم ودهشهم شيئا مما تقع عليه أبصارهم. ففي نظر هذا الفريق، ينبغي أن يشمل إعجابهم واستحسانهم المراثيات التي تلفت أنظارهم، سواء في ذلك المنظر الخاص للقطر أو الشكل الغريب لمدنه أو أحوال سكانه الخ.

لهذا السبب تراهم يسارعون إلى تقليد طرائق المسلمين في المعيشة فيلبسون مثل ثيابهم، حتى لقد صار من التقليد الشائع بين الذين يصلون حديثا من الإفرنج، أن يكتسوا في أقرب وقت بالثياب الشرقية. ومع أن الذين يلبسون الملابس الأوربية لا ينقص احترامهم في نظر الناس بسبب لبسهم إياها بل يزيد، فإن أولئك المقلدين يبررون فعلهم بأن الباعث عليه مجاملة أهل الوسط الذي نزلوا فيه، بينما هم لا يقصدون في الحقيقة إلاقضاء حاجة في نفس يعقوب، فيكون من أشهى الأشياء إليهم أن رأوا أنفسهم وقد لبسوا الثياب العريضة وتعمموا بالعمائم وحملوا إلى جانبهم سيفا. والذين يزعمون

أنهم من الفنانين والعارفين بأسرار الثياب، يفرطون من التشيع للثياب الإسلامية القديمة بما يدعو الناس إلى انتقادهم والتهكم عليهم. فإنهم يتعملون الرفق بالشرقيين فيرثون لحال الذين منهم هجروا عاداتهم المحمودة ليستبدلوا منها بعاداتنا. ومع أن استعمال العمة بمثابة لباس للرأس قد أخذ نطاقه يضيق شيئاً فشيئاً بحيث أصبح استعمالها لا يتعدى أهل الطبقة الدنيا إلا قليلاً، فلا يزالون يتعممون بها. كما أنهم يفضلون الآن القيطان الحريري الذي كان الشرقيون يحملون به السيف قديماً على المناطق الجلدية المستعملة عندهم الآن لهذا الغرض

وهناك فريق تمكن منهم حب التقليد إلى حد السير على الأرض حفاة الأقدام. فيخيل للناظر إليهم أنهم أصبحوا بحيث لا يعرفون كيف يجلسون على الكراسي، وأنهم لكي يوقوا أنفسهم ضر الجلوس متربعين على الدواوين، لا مناص لهم من معاناة بعض الألم. ولكن الطرائق الشرقية لاتخاذ الأوضاع وحمل الثياب تستدعى — بالرغم من مزاعم أولئك الزاعمين — الاختبار والدربة. وإنه ليكفى أن يتنبه الإنسان لما هناك من التصنع والكلفة في اختيار الثياب الشرقية وتسوية بعض أجزائها، وفي خطأ الحركات والأوضاع في الجلوس والمشي، لتمييز بين الذين اعتادوا ذلك كله بالمران والذين لم يعتادوه، ومعرفة المقلدين الأوربيين المتكررين بالثياب الشرقية بعد اطراحهم الثياب الافرنجية على أن هذا لا ينفى وجود لفيف من السياح ذوى عقول راجحة ينصفون في الحكم، ويتحامون التحيز والمتحاشين لغلو من يدركون حقيقة مركز الشعوب الشرقية ويقدررون البلاد وسكانها والأشخاص والأشياء حق قدرها، فلا يأنفون من الرضوخ لمطالب الوسط وحكم العادات. بل يستطيعون الحكم حكماً صائباً على مصر التي أتاح لهم استعدادهم العقلي البحث في شئونها بحثاً تنتظر منه الفوائد الشاملة والمنافع الجارية

٤٧- أصحاب المشروعات

إن أصحاب المشروعات الذين يصلون أفواجا إلى مصر، يزودون عادة برسائل التوصية. والمشتغلون منهم بالفنون العسكرية يقترحون على الحكومة المصرية الأساليب المستحدثة لتدبير القتال، أو المبتكر من الطرائق لتعبئة الجيوش وترتيب أوضاعها في ميدان الحرب. ومنهم خبراء في الشئون

المدفعية يقدمون إليها قذائف يقولون عنها إنها أصلح ما يكون لإحراق المواقع الحصينة وأفتك ما شوهه بالدوننمات. ومنهم من يكاشفها بسر تركيب السفن الغواصة أو يقترحون عليها الوسائل المختلفة لرفع الماء مؤكدين بأنها إذا روعيت تجيء بالمعجزات المدهشات، أو يرفعون إليها مشروعا بصنع آلات يعززون إلى قوة عجيبة منها، وبمناسبة أساليب رفع الماء نذكر هنا على وجه خاص، أنها جربت مئات المرات وآلافها فأدى الامتحان إلى إصابة أصحابها بالفشل والامتهان.

ولقد رأينا فيما شهدناه بمصر أطباء من الدجالين يزينون للناس أنهم يملكون من أسرار طرق العلاج ما يمتدحون لهم تأثيره الفعال ونتيجته المحققة النفع. وقد جاء أحدهم، وهو من أهل مذهب الأوميوباتيا في العلاج، بدواء خاص أطرى قوائده، وقال بصدق تأثيره في الأمراض الثلاثة الكبرى المتفشية بمصر وهى: الدوسنطاريا والرمم الصديدي والطاعون. واقترح، تحبيذا لهذا الدواء، إلغاء النقالات العلاجية. إذ قال إنه يكفى الطبيب أن يكون في جيبه علبة صغيرة من الأدوية لمعالجة جميع المرضى في إحدى فرق الجيش أو في أحد المستشفيات. حقا إنه لم يقل بفائدة طريقته العلاجية في الأمراض التى تستدعى العمليات الجراحية، بل جهر بأن علاج الجراح الناتجة من الرصاص والسلاح الأبيض تخرج من اختصاصه، وأنه يكل العناية بأمرها إلى الطب العادى. وشهدت دجالا آخر ذا شهرة واسعة ومزاعم أكثر من مزاعم زميله المتقدم، إذ جعل اختصاصه ادعاء القدرة على انقاذ مصر كلها من فتكات الرمم الصديدي. ولقد كان هذا الرجل أسعد الأفاكين الذى وجد من ديباجته وأشداهم دهاء ومكرا. إذ استطاع، زمنا ما، التغرير بالناس وإدخال الغش عليهم فسهل له ابتزاز أموالهم على وجه فاضح جدا. ومما ينبغى الاعتراف به سرعة انخداع الأوربيين بتغريرات من لاذمة لهم من المتشردين والأفاكين على أثر ما يظهرونه من المجاملة والتسامح، بغير روية نحو أفراد هذه الطبقة. فإنهم يسارعون إلى تزويدهم بكتب التوصية على جهل منهم بحقيقة أمرهم وجليية خبرهم، وهو ما جعلهم يلقون من مظاهر الإجلال والتكريم — لدى وصولهم إلى مصر — ما لا يستقبل بمثله إلا الكبراء والعظماء. وماهم في الحقيقة إلا لصوصا يتبرأ الرجل الشريف من معرفته بهم.

وفي استطاعتي أن أورد هنا حوادث عديدة ليس منها إلا ما يدعو إلى العجب والدهشة. ولكنني أجتزئ منها بحادثة البارون (دى ولفنجن) الشهير الذى استقبل استقبالا باهرا من أهل الإسكندرية إجلالا للقبه الدال على علو القدر ونباهة الذكر، وتقديرا لكتب التوصية العديدة التى زود بها. فقد بدا هذا الأفاق الحاذق بالنزول فى دار جليلة تبدو عليها مظاهر الأبهة والبذخ، وإنفاق المال عن سعة وبذل، واستقبال الزائرين من أهل البيوتات الكبيرة والأسر الكريمة. وكان لا يدور حديثه معهم إلا عن قصوره الشامخة وأمواله الزاخرة وخيراته الوافرة. فكانوا يتسابقون إليه جميعا رجاء أن يتفضل عليهم بإصدار أمر أو الإعراب عن أمنية ليتباروا فى تحقيقها على الفور، وما من أحد منهم إلا وتقدم إليه بماله يسأله التعطف عليه بقوله، وما من حفلة ليلية شائقة الا وأقيمت عنده أو جمعية صفاء وهناء إلا وأخذت مجالسها فى بهوه. واندرع جميع الناس يتفاخرون بأنهم ممن فازوا بحظوة المثول بين يدى البارون والذى كان - والحقيقة - من أعرف الناس بأساليب الطف والإيناس وأوسعهم إلماما بطرق مقابلتهم ومجاملتهم على ما تقتضيه مراسم الأدب. وما كانت تقع الأتظار على ذى حيثية سائرا فى الطريق إلا ويجاوبك على سؤالك إياه: إلى أين أنت ذاهب؟ إننى أقصد البارون. يقول ذلك بصوت ينم على شعور الكبرياء والصلف الذى دب فى نفسه، ولا يحس عادة به سوى من يدعى إلى لقاء ملك جليل الشأن.

وما كان أعظم يأس أولئك المغرورين وأشد شعورهم بالفشل حينما حامت الشكوك حول ذلك الثرى العظيم وأصبحت يده صفرا من المال ولم تنفعه الحيل الجديدة فى تحصيله. فإنه لم يتمالك أن نبه أولئك الحمقى ذات يوم بحقيقة أمره إذ قال: أن أمواله الطائلة وقصورة المشيدة فى ألمانيا، لم توجد قط إلا فى مخيلته أثناء حديثه عنها وفى حماقة الذين سلموا اعتباطا بمبالغاته فيها.

وقد خسر هؤلاء من جراء سذاجتهم وحسن اعتقادهم فى هذا اللص ما لا يقل عن خمسين ألف فرنك إلى ستين ألفا. ولقد كانت هذه المبالغ وافرة بالنظر إلى المدة القصيرة التى أقامها ذلك المحتال بالإسكندرية، وهى نحو خمسة عشر شهرا إلى ثمانية عشر.

٤٨- لوم يستحقه السياح

كثيرون من السياح الذين يزورون مصر يستحقون اللوم العنيف والتقريع الشديد، لأنهم متى وصلوا إلى هذا القطر ووطئت أقدامهم ثراه أعاروا أسماعهم إلى الترهات والأقاويل التي تحملهم على إساءة الظن بالنزلاء الأوربيين والتسليم، من غير بحث بأنهم في حالة يرثى لها من التأخر، وأنهم هم الذين يحملون إليه وحده مشاعل العلم والعرفان. وترى البعض منهم يصدرون الأحكام الجازمة في المسائل الإدارية ويرون فيها رأيهم البات قبل أن يلموا بشيء من أحوال الوسط وساكنيه. بل ويجرءون على موافاة الوالى بنصائحهم ومشوراتهم عن أعمال حكومته ونظامها. وربما بلغ الطيش بهم أحيانا إلى إتهام الأوربيين الموظفين في حكومته بقلّة الكفاءة وشدة الجهل، لأن بعض ما تم على أيديهم من الإصلاح لم يرق في نظرهم إما لأنه لايفيد البلاد فائدة مؤكدة وإما لأن حقيقة ماقد يعترضه من الموانع يكون لا قبل لأحد على دفعه.

وخطأ ذلك الفريق أنهم، قبل رحيلهم إلى مصر، تجهزوا بمعلومات عنها اقتطفوها من مطالعة الكتب. فتوهموا أنهم يعرفون من أمرها ما لم يعرفه غيرهم من الأوربيين الذين يقيمون فيها منذ سنوات طويلة

وثمة فريق آخر منهم يستهجنون عادات البلاد وأخلاق أهلها استهجانا غير لائق بآداب المجاملة. ويرون أن من بواعث السرور ودواعى الشرف والهمة أن ينتهكوا حرمة تلك العادات والأخلاق، وأن يعبثوا بالحرية التي منحها سمو الأمير للأوربيين من فيوض مكارمه. فلقد شهدت بعضهم يحاول مخالفة الأوامر العسكرية حين أيقن أن فيها ما يناقض آراءهم ويزعجهم فيما اعتمدوه من قول أو فعل.

ويتبع هذا الفريق فريق آخر سلكوا مع المصريين مسلك الشدة والقسوة ويعاملونهم معاملة لا تليق بالمدينة التي ينتسبون إليها وذلك لأنهم يعتبرونهم ككائنات حقيرة مرذولة خارجة عن نطاق النوع البشرى ويقولون، جهارا نهارا، أن ليس من الواجب مخاطبتهم بغير لسان الكرياج. ولأجل هذا تراهم يتزودون عند وصولهم إلى مصر بالكرابيج يضربون بها — من غير رحمة ولا سبب معقول — الحمالين المكلفين منهم بحمل أمتعتهم وأشياءهم

باعتبار أنهم دواب يسامون سوء العذاب، وكذا يفعلون مع الحمارين والمراكبية الذين ينقلون هذه الأمتعة برسمهم من مكان إلى مكان.

٤٩- نصائح إلى الرحالة والمسافرين

يجب على الرحالة والمسافرين الذين يصلون إلى الإسكندرية أن يقصدوا - بعد نزولهم من السفن مباشرة - إلى دور القناصل الذين ينتمون إلى دولهم كي يحصلوا لهم على الفرمان الذى يسمح بتنقلهم فى البلاد وطوافهم فى أنحائها وجوبهم أطرافها. فإذا لم يكونوا مزودين بتوصية خاصة إلى واحد من أبناء وطنهم المستعدين لإيوائهم وإكرام مثواهم مدة إقامتهم بذلك الثغر، فإنهم يجدون فى هذه المدينة من الفنادق والمطاعم ما يليق بنزولهم فيها وأصحابها من جميع المل والنحل.

ويجب عليهم - إذا هموا بالسفر إلى القاهرة - استئجار قارب أو زورق يصلون به إلى النيل عن طريق ترعة المحمودية، وهذه المسافة تقطع عادة فى نحو اثنى عشرة ساعة أو أربع عشرة. وفى نهاية التربة - أى عند مأخذها من النيل بجوار بلدة العطف القريبة من قوة، ينزل الركاب من ذلك الزورق إلى قارب آخر يصعد بهم فى النيل إلى مدينة القاهرة، وهذه الرحلة الثانية يطيلها انعطاف النيل والتواء مجراه. فإذا كانت الرياح موافقة ظلت من يومين إلى ثلاثة أيام أما إذا لم تكن موافقة فربما استغرقت ثمانية أيام وأحياناً خمسة عشر يوماً، ومهما يكن من مشاق هذه الرحلة الناشئة عن شدة بطئها، فعلى المسافر التذرع بالصبر لاحتمال مشاقها من اتباع طريق البر ابتغاء الوصول إلى القاهرة، لأن هذا الطريق متعب للغاية لاسيما وأن نظام النقل بين الإسكندرية والقاهرة لم يستتب حتى الآن.

وأجرة القوارب للذهاب من الاسكندرية إلى القاهرة تختلف من خمسين فرنكا إلى ستين للقوارب العادية، وتزيد على ذلك بحسب سعة المركب الذى يختاره المسافر واستيفائه وسائل الراحة وحسن منظره. وإذا كان المسافرون عديدين فإن الأجرة توزع عليهم فيصيب كلا منهم ما لا يكاد يذكر من المال، والنزول من المراكب - عند وصولها إلى القاهرة - يكون فى بولاق، مرفأ هذه العاصمة وموردها.

ويحسن بالمسافر أن يقضى بالقاهرة من ثمانية أيام إلى خمسة عشر

يوما. والحقيقة أن خمسة أيام منها أو ستة تكفى لزيارة ما يهيم الأجانب الإطلاع عليه كالأسواق والمستشفيات ودور الصناعة (الترسانات) والفاوريقات والمدارس والمقابر وأهرام الجيزة وسقارة.

وبعد ذلك يعد معداته للصعود في الوجه القبلى حيث الآثار التى تلفت أنظار الرحالين. والواجب قبل كل شىء، فى هذه الحالة، الحصول على قارب جيد واستئجاره بأجرة تختلف من ألف قرش إلى ألف وثمانمئة شهريا، وتتضمن هذه الأجرة النفقات الخاصة بالنوتية من طعام وغيره. والأفضل أن يحرر مع الرئيس صاحب المركب أو ربانها عقدا لبرازه عند الحاجة لدى السلطة المحلية، خصوصا إذا لم يف صاحب القارب بوعوده ولم يحم بعهوده. ومما يفيد المسافرين كثيرا، أن يكون استئجار القارب بالشهور لا باليوم، ويحسن به الاحتياط، فياخذ معه بعض ما يلزمه من المؤن كالبن والسكر وغيرهما من الأشياء التى يتعذر الحصول عليها داخل البلاد. أما اللحم والبقول والخضر والفواكه والبيض واللبن الخ. فالحصول عليها ميسور على طول الطريق بأبخس الأثمان.

ولابد - قبل مبارحة القاهرة - من استخدام ترجمان من أهل البلاد ليقوم بالترجمة، ويشترط معه فى ذلك أن يكون ملما باللغتين التركية والعربية. ومن الممكن الحصول على ترجمان جيد بمرتب مئة وخمسين قرشا شهريا. وغنى عن البيان أن الترجمة المصريين لا تتواءم فيهم الشروط المتوافرة فى الترجمة والأدلاء الإيطاليين حذقا وإلماما بالشئون العامة. فإنه إذا كان الترجمة لا يدرون فتىلا من تاريخ الآثار التى اعتزم الرحالة زيارتها، فلا مناص لهم من محاولة التفاهم بشأنها مع أهل البلاد، وربما اضطرتهم الضرورة إلى مواجهة السلطة المحلية لسؤالها عما يجب الوقوف عليه والإلمام به.

وإذا كانت الريح موافقة عند السفر من القاهرة، فمن الأنسب الصعود فى النيل إلى أقصى نقطة منه فى القطر المصرى، ومن ثم يسهل عليهم فى أى وقت شاءوا العودة من هذه النقطة متجهين نحو الشمال والرسو بحسب الإرادة فى الأماكن والبقاع التى ينوون زيارتها على الضفتين، لأن المركب يكون فى هذه الحالة مسوقا بقوة التيار.

الباب الثامن

الحكومة
والأنظمة السياسية

١ - أسباب ظهور الحركة المدنية فى الشرق منذ هذا القرن

١- لو لم تظهر آيات الحضارة بالقطر المصرى فى هذا الزمن وتجل
للأنظار آثار قوة انبعاثها، لما عدت المسألة الشرقية التى يعتبرها رجال
الصحف وأساطين السياسة كافة سنوات عديدة، تلك الوجفة التى زلزلت
أركان العالم السياسى فى هذه الأيام.

ولو لم يستعر الباب العالى من جهة أخرى شيئاً ما من مظاهر حضارتنا،
لما حركت أوربا نبضاً أو اشرأب لها عنق اهتماماً بأمره. بل لما شك أحد فى
سقوط تركيا من علوة مجدها.

فبدهى إذن أن يتساءل الناس عن الحضارة التى ظهرت فى الشرق آيات
حركتها منذ أوائل هذا الجيل.

فإذا كان ما نشهده فى الشرق من آثار المدنية ثمرة أنضجتها حرارة الزمن
والحد الأقصى لشوط التقدم المستمر، فليس بمستطاع الجواب فى بضع كلمات،
على هذا السؤال الذى يتطلب موضوعه درسا خاصا وبحثا عميقا يتناول
الدولة التركية فى شئونها الداخلية كافة.

وإنما الحركة الحاضرة إحدى الحركات الطرآنية = الطارئة = التى
لايتأتى انبعاثها من جماعات الناس، بل انبعثت من رجل واحد أو رجلين. فلا
بد أن يكون هنا باعث كبير طراً، هو الفعل أو رد الفعل الناجمان عن حادث
خطير لن يتعذر على أحد استكشافه

وللحوادث العظمى دواما - على ما هو مقرر ومفهوم - نتائج لا ينتظر
الذين سببوها أو شهدوها رأى العين وقوعها في الحين الذي تقع فيه. ففي
سلسلة الحوادث التي لا يعدو المرء أن يكون فيها مسوقا بقوة إلى غاية
يجعلها، تتجلى القوة الإلهية المهيمنة على شئون البشر جميعا. ولقد فطر
الإنسان على حب استكشاف الصلة السرية التي تربط الحوادث بعضها
ببعض، وعلى قدر المقدمة يتوقف عادة قدر النتيجة.

فمقدمة حركة الحضارة التي بدت أثارها الآن في الشرق هي الحملة
الفرنسية في مصر.

لم يوفق نابليون بونابرت فقط لتحديد مجرى الأحوال في أوربا والإشاعة
باسمه في طول هذه القارة وعرضها، بل هزت يده القوى الأساطين التي ظن
الشرق القديم أنها دعامة بنائه التي لا يزلزلها الحدثان. ولما رأيت الآثار
الجليلة التي خلفها من ورائه لم استطع الجزم في هل كان أثره في آسيا أقل من
أثره في بلاد الغرب.

أما الحملة الفرنسية التي ساقته إلى مصر أشجع فرق الحرب الإيطالية،
أي الجنود الذين عادوا مكملين بأكاليل المجد والغلبة في وقائع (لوإي)
و(أركول) فقد كانت أشبه شيء بصاعقة هوت من السماء على الشرق
فأيقظته منزعجا من سباته الطويل.. وكانت الأساليب القديمة فيه قد بقيت
إلى ذلك العهد على حالها لم يتناولها تغيير ولا تعديل. وكانت الدولة العثمانية
قائمة بحروب طويلة ضد روسيا والنمسا. ففازت بالنصر تارة وباءت
بالخذلان أخرى. لكن هذه الحروب لم تغير شيئا من أفكارها العتيقة ولا من
عقائدها التي أكل الدهر عليها وشرب. ومع هذا فإن الروسيين والنمسيين لم
تقتف المدنية أثر جيوشهم. لأنهم لم تكن لهم مصلحة في نشر أنوار العلوم
والمعارف بين الأتراك، وكانت الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية تعتقد أنها
بعيدة المنال على من يرومها بفتح أو قهر، وأنه لا يمكن أن يوجد على سطح
الأرض دولة تبلغ مبلغها عزا ومنعة. وذلك لأن ذكرى فتوحاتها القديمة كانت
لا تزال عالقة بأذهانهم، ولأن الدول الأوربية لم تنتزع هذا الوهم من نفوسهم
ولم ترشدهم إلى الصواب من أمرهم، بل كانت تزيد تلك الذكرى استقرارا في
نفوسهم بعجزها البين عن القضاء على قراصنة المغاربة الذين كانوا، في ذلك

الوقت، يقاتلون أوربا ويجبهون الدول جمعاء بجرأتهم ويفرضون عليها صنوف الفدى وأنواع الإتاوات.

ومن جهة أخرى، كان الممالك القابضون على زمام الحكم والسيادة في مصر يعتقدون أنهم في طليعة جيوش العالم منعة وعزة جانب، كما تثبته لك النادرة التالية التي تشير من جهة أخرى إلى ما بلغ إليه أولئك البكوات من الضعف الممزوج بالحمق المضحك والجهل المزرى بهم.

لما استولى بونابرت على جزيرة مالطة أراد المسيو (روسيتي) قنصل النمسا وبعض الدول الأخرى في القاهرة وقتئذ وأحد أكابر تجار القاهرة ومعتبريها وصاحب الحول والطول والكلمة المسموعة لدى الممالك، إذ كان القيم على تدبير شئونهم والمتعهد بتوريد ما يلزم من حاجياتهم، أن يوافيهم بهذا الخبر ويحذرهم من عاقبته.

قبادر بمقابلة مراد بك زعيمهم، وكاشفه بهواجسه وما وقع في نفسه من عزم الفرنسيين على النزول إلى بر مصر، وألح عليه في اتخاذ وسائل الحيطة للذود عن حياضها، فكان جواب مراد بك على هذا التحذير أن قهقهه ضحكا حتى كاد يستلقي على قدميه وقال: ما مرادك من إخافتنا بالفرنسيين؟ ألم يكونوا أشباه الخواجات- التجار- الذين نراهم بيننا؟ إنه ليكفيني، إذا نزلوا إلى بر مصر في مائة ألف من رجالهم، أن أبعث للقائهم بعض التلاميذ من الممالك ليقطعوا رؤوسهم بحد الركاب (١) فحاول المسيو روسيتي جهده عندئذ لإقناعه بأن الفرنسيين قد فازوا بالنصر المبين في إيطاليا، وأنهم غير التجار المساكين الذين اعتاد أن يراهم في أسواق القاهرة. ثم أعاد كرة الإلحاح بتحسين الإسكندرية، فلم يأت تحذيره إياه بفائدة، لأنه لم يشأ أن يعمل به وأراد أن يجامله، فأرسل إلى هذا الثغر قنطارين من البارود فقط ذخيرة لدافعها.

وحدث بعد ذلك بقليل أن وصل الفرنسيون إلى الإسكندرية ونزلوا إلى البر واستولوا عليها وانتهى هذا النبأ إلى علم مراد بك فاستدعى المسيو (روسيتي) على الفور، وقال له بصوت المغضب: إن أولئك الفرنسيين الوقحاء

(١) كان الممالك يتخذون في استوائهم على خيلهم ركابا عريضا قاطعا من ضلعيه الأمامي والخلفي وكانوا يستعملونه كسلاح قاطع ضد المشاة والفرسان من العدو بل ضد خيل هؤلاء فيصيبونها بالجراح البالغة.

اجترأوا على وطء ثرى بر مصر، وطلب منه ان يكتب إليهم على لسانه
بالمسارعة إلى الجلاء في أقرب وقت.

فلاحظ المسيو (روسيتى) قائلاً: « ولكنهم يامولاي لم يأتوا إلى هنا
ليعودوا كما جاءوا عند أول إشارة تصدر إليهم منك » فقال مراد بك وقد تولاه
الجزع الشديد: « وماذا يريد هؤلاء الكفار إذن؟ ماذا يبغى هؤلاء المتشردون
الذين يموتون جوعاً؟ إن كانوا طامعين في مال فأرسل إليهم بكذا ألف من
البطاق (أى خمسين ألف فرنك تقريباً) وليزايلا مكانهم. فرد عليه المسيو
(روسيتى) قائلاً: « ولكن هذا المبلغ يا مولاي لا يعدل أجرة شحن أصغر
سفينة نقلتهم إلى مصر. والأحرى بكم والأولى من هذا كله أن تأخذوا عدتكم
للدفاع ».

لم يستطع مراد بك أن يدرك بأكثر مما تقدم معنى جرأة الفرنسيين
واقدامهم على الحضور إلى مصر لمنازلته. ذلك لأنه كان مزدهياً بقوته
ومغروراً بعلوه إلى حد أنه لم يعبأ بهم ولم يرسل للقائهم بادية الأمر سوى
شرذمة من الجند. ولم يرجع عن غروره وصلفه وفرط اعتداده بنفسه إلا حين
فتك الفرنسيون بهذه الشرذمة في أول لقاء لهم بها، وعاد من بقى من رجالها
يخبرون مولاهم بأن الفرنسيين لم يكونوا كما توهمه أول وهلة، ففطن عندئذ
لأمره وأدرك حقيقة الخطر المحدق به. وكان أول جرح أصابه في كبريائه
وعزته، اندحار جيوشه في معركة (شبراريس) التى لم تنته حتى أعقبها
اندحارها في معركة الأهرام المعروفة.

وفى هذه الرواية الصحيحة من كل وجه ما يدل على مبلغ ازدهاء المماليك
بأنفسهم، وجهل الذين كانوا فى عهدهم يقبضون على دفعة إدارة الحكومة فى
الدولة العثمانية. لأنه إذا كان ذلك شأن الزعماء والحكام، فماذا يكون شأن
عامة الناس الذين لم يكن لديهم من الوسائل ما يستطيعون به أن يعرفوا
شيئاً عن أوربا وحقيقة أمرها ومحض كيانها؟ فمن الميسور والحالة هذه
تقدير الانقلاب الكبير الذى أحدثته فى نفوس الشرقيين ما أحرزته فرنسا من
الانتصارات الباهرة، على مشهد منهم فكان علمهم بها أشبه المرائى بالتجلى
الذى يؤتاه المرء على غرة منه. ولا شك أنهم أدركوا أهمية الوقوف على الوسائل
الجليلة التى كان من آثار تنفيذها ما أفضت إليه معركة عين شمس مثلاً من

استطاعة جيش لم يتجاوز عدده تسعة آلاف أوربي التغلب على جيش مؤلف من ثمانين ألف تركي وأن يمزق شمله ويقضى عليه قضاء مبرما.

ولما بهر فوز نابليون أنظار المسلمين وفتن عقولهم انتهى الأمر بهؤلاء، وقد أيقنوا بالاختبار والعيان أن الغربيين يسمون عليهم سموا كبيرا في الشئون العسكرية، إلى أن يتمنوا عن طيب نفس لو تمت عندهم الإصلاحات في هذا الباب، وأن يكون رائدها التجربة التي أظهرت فوائدها المدنية الأوربية. ومن رجال الحرب الذين جاءوا إلى مصر لقتال الفرنسيين بطل مقدوني ساقته المصادفة الحسناء إليها، وهو الرجل التي شاءت القدرة الأزلية أن يستفيد من أعمال حملة بونابرت بما تركه من الأثر في أحوال الشرق. ومن محاسن الاتفاق أنه تلقى من فرنسي يدعى المسيو (ليون). من مدينة مرسيليا أول عبارات التشجيع التي نبهت في نفسه الآمال وأيقظت المطامع فيها من نومتها.

بلغ محمد علي إلى أسمى المراتب في الحكومة المصرية مجتازا من الصعوبات مالا حصر له فتغلب عليها، تارة ببسالتة وإقدامه وطورا بدهائه وصائب رأيه. والحقيقة التي لا مرء فيها أن نابليون أو بعبارة أخرى فرنسا، هي التي أخذت بيده في الطريق وفتحت له مغاليق الأبواب، فنابليون وفرنسا كانا يعدلان فيما أصاب من النجاح نصف طالعه السعيد، لأنهما بفورهما على الممالك، أصحاب السيادة الحقيقية على مصر في ذلك الوقت، وانتصارهما عليهما في ثلاث معارك كبيرة، مهدا له طريق الوصول إلى الغاية البعيدة التي كان يرنو إليها.

ولا يزال محمد علي — وهو القابض الآن على زمام الحكم — مؤيد الجانب من الفرنسيين. فلكان لفظة الفرنسي أصبحت حرزه الحريز وطلسمه الجالب للخير والدافع للشر، وكان في القطر المصري للحكومة الفرنسية قنصل اسمه (دلسبس) كان أول من وافاه بنصائحه ومشوراته. وجاء من بعده المسيو (دروفتي) الذي أحرز عنده نفوذا كبيرا ومكانة عالية — ليس فقط باعتبار كونه وكيلا لأمتنا — بل أيضا باعتبار أنه من البارعين الماهرين في الفنون العسكرية. وبالجمله ففي عهد قناصلنا الجنراليين الذين تعاقبوا على كرسى القنصلية الفرنسية، ما برحت الروابط بين فرنسا وسمو الوالي وثيقة العرى

قائمة على أساس المجاملة وحسن التفاهم.

وكان مما يهم محمد علي، بعد اذ تسلم أزمة الحكم، الاحتفاظ بها حتى النهاية. فلكى يصل إلى هذه الغاية استهدى بخطط نابليون وسياسته مستقيدا من عظمات القتال مع الفرنسيين وعبره. وكان يرى أنه لا بد له في الاحتفاظ بسلطانه، من جيش قوى منظم ليس على الأساليب التركية، فيكون جيشا نزوعا إلى الفتن والاضطرابات. متهددا على الدوام حياة الذين يجرون عليه الأرزاق والأعطيات، بل جيشا خاضعا للقوانين والنظام، قادرا على اعتياد التدابير العسكرية ليكون الفوز مكفولا له في ميادين القتال. فالغرض الأول الذي قرطس محمد علي سهمه، فيه، إنما هو اجتياز انجع الوسائل لإصابة الغرض الآنف الذكر ألا وهو تنظيم جيوشه طبقا للأساليب الحديثة.

ولست أدعو أحدا إلى اعتبار والى مصر واحدا من رسل الحضارة والمدنية، بل أدعو إلى وجوب اعتباره من فحول الرجال والعبقريين، وأنه مع كونه لم يعلم شيئا من شئون الأمة التي ظهر بينها أمره ولم يجد منها تشجيعاً ولا مؤازرة على العمل قد سلك مسكلا مبنيا على الحذق وحسن التدبير ورام به الاستيلاء على زمام الحكم أولا ثم الاحتفاظ به بعد ذلك.

وعلى أثر تنظيم الجيش والدونمة بمعاونة جماعة من الفرنسيين من ضباط الجيش السابقين والمهندسين، وبأنوار عرفانهم وسعة مداركهم وقوة عارضتهم أقيمت معاهد التعليم العام والمدارس العالية وشيدت المستشفيات وسلم زمام إدارتها والخدمة فيها إلى فريق من، الفرنسيين. ومن ثم يرى أن الجيش وما يرتبط به من الفروع العديدة هما للذان دفعا بمصر في تيار حركة المدنية التي ما برحت تسوقها إلى الأمام حتى اليوم.

غير أنه لا ينبغي أن يخطيء القارىء في الأمر أو يعسر عليه إدراك سره، فإن الذى أثار تلك الحركة ونبهاها من خمودها إنما هو ذلك الرجل العظيم، بما فطر عليه من كرم الشمائل ونبالة المقاصد وأصالة الرأى وبعد النظر. أما الشعب المصرى فلم يساهمه = يشاركه = قط في شيء ما من التصميمات التي أقرها، ولا في اختيار الوسائل التي استحسنها لتنفيذها. بل ألقى في طريقه كل ما استطاع أن ينتثره فيه من الصعوبات والمعثر لتعطيلها، وأقام في وجهه الاعتراضات الجمة عليه. ولقد رأى محمد علي عندئذ أنه لإيلاف ذلك

الشعب وتعويده الأُنس بتلك الأنظمة الجديدة ينبغي العمل لإزالة ما ران على قلبه من الشكوك ومكافحة ميله إلى التشبث والعناد.

ولا يأخذن المصريّين أحد بجريرة هذه النزعات ، فإن الروسيّين لم يشدوا أزر بطرس الأكبر فيما تصدى لإجرائه من جلائل الأعمال وإدخاله على شئونهم من نافع الإصلاحات وتلك شنشنة معروفة عن الأمم في أدوار ارتكاسها وتنكسها كلما ظهر من بينها مصلح يريد الأخذ بيدها والنهوض بأمرها والسمو بها إلى الغايات العالية في الحضارة والرفاهية، تعرضت له بالعمل على إحباط مساعيه وألقت في طريقه العقبات والمصاعب.

لم يذكر التاريخ مثلاً لأمة نهضت بدافع من نفسها لبناء صرح المدنية وإقامة معالِمه. وإنما الذين تعرضوا لذلك أفراد امتازوا بذاتية متينة وعبقورية عالية، فدعوا إلى مشاركتهم في عملهم أبناء وطنهم. وكثيراً ما لجأوا في تنفيذ مقاصدهم إذا أرهقتهم من هؤلاء نزعة الجمود على القديم، إلى وسائل العنف والشدة. وتعليل هذه الحالة ليس بعازب على الفطن اللبيب لإمكان تطبيق المنطق عليه فقد جبل الإنسان على أن لايهتم إلا بما يشعر بضرورة قضائه من الحاجات لنفسه، وأن لا يتحرى المزايا والفوائد إلا بنسبة أهميتها وضرورتها لشخصه. ولما كانت الشعوب، التي على فطرة التوحش والهمجية لا تشعر بشيء من الحاجات عادة، فإنها تجهل طبعاً فوائد المدنية ومزاياها، ولا يتاح لها تقدير أهميتها إلا إذا رضخت لإرادة رجل تأججت في صدره نار المطامع الشريفة وجمع عزمته على نيلها مستعينا في ذلك بتلك الشعوب ذاتها، وإنما عبقرية الرجل العظيم في تقديره أهمية ما يراه من الوسائل محققاً لمراده، ولقد كان محمد على ذلك الرجل فيما يتعلق بمصر (١).

هذا ولم يبدأ بتطبيق الإصلاحات الحديثة، على الطراز الأوربي بالآستانة إلا من باب المجارة والمنافسة لمحمد على. ولعل السلطان محمود تذكر وقتئذ ما كان من انصراف سلفه السلطان سليم الثالث إلى فرنسا في أن توافيه ببعض البيانات اللازمة لإدخال النظام والترتيب على جيشه.

يؤخذ مما تقدم أن الإصلاحات في تركيا لم يبدأ بها إلا بعد أن تم في مصر

(١) : من الطبيعي أن تكون هذه الرؤية استمراراً للنظرة الظالمة غير الموضوعية لطبيب يناصر الحملة الاستعمارية على مصر وهي لا تمت للحقيقة بأدنى صلة.

تنفيذها، ولم يقصد ها في الحقيقة سوى مناظرة محمد على كيلا يقال أن المتبوع أصبح - بالنسبة إلى تابعه - في طريق التقدم من المتخلفين. وإذا جاء تطبيق، الإصلاحات في مصر مقرونا بالنجاح مكفول الثمرات، فإنما الفضل في ذلك يرجع إلى تأثير الحملة الفرنسية في شئون مصر وأحوالها، وهو ما يستخلص منه أن فرنسا وناپليون كانا سبب حركة الحضارة التي ظهرت في الشرق، وتولى محمد على غراسها في مصر وتعهدها بعنايته حتى أينعت ثمارها على ما هو مشاهد اليوم.

٢. الحكومة في مصر

إدارة الأقاليم في عهد باشوات الباب العالي - آراء محمد على في الإدارة -
تشكيل المجالس الخصوصية والدواوين في مصر.

٢- لقد كان المفهوم أن تدار حكومة مصر، بالنظر إلى كونها إقليما تابعا للسلطنة العثمانية اسما لا فعلا بحسب قوانين هذه السلطنة وأنظمتها الإدارية، إذا صح أن لها قوانين تسير على منهاجها، ولكننا نعرف كيف تشكلت الدولة العثمانية، وأن خلفاء عثمان لم يخطر قط ببالهم، عندما دوخوا الممالك وفتحوا الأقاليم وأخضوعها لسلطانهم، أن ينظروا فيما إذا كانت هذه الأقطار تتكون منها - باجتماعها بعضها إلى بعض - حكومة متجانسة العناصر داخلة في نطاق حدودها الطبيعية.

كلا ! لم يفكروا في شيء من ذلك ولم ينظروا فيه، بل جعلوا مقصدهم الوحيد، بلا روية ولا تبصر، ضم بلاد إلى بلادهم وإلحاق أرض بأرضهم على طريق الجزاف والمصادفة، وكأننا بهم وقد استدرجهم الزهو والغرور، فبدلا من أن ينشئوا ضمن دائرة محدودة - وإن تكن كافية - حكومة منتظمة كان المرجو أن يساعد انتظامها على تنمية قوتها، بددوا سيادتهم الاسمية في أقاليم وأقطار سحيقة عن عاصمتهم بطول الشقة وانفراج ما بين الأخلاق والعادات والأجناس واللغات، منفصلة عنها بذلك أكثر من انفصالها بالمسافات الطويلة والحواجز الطبيعية، فأضعفوا لهذا السبب أعصاب سلطتهم الحقيقية بقدر ما أعطوا من السعة والامتداد لمظهرها الخيالي. وكانوا غلاظا في السياسة فلم يهتموا إلا يسيرا بتفاصيل إدارة الأقاليم التي أرضخوها لحكمهم. وكانت

أهمية الولايات (الباشلكيات) تقدر في نظرهم بما يرد من محصولها وأموالها على الخزانة العامة. وهو مادعاهم إلى أن يعهدوا بإدارة الولايات إلى أقدر الباشوات على تقديم أعظم ما يمكن من أموال الجباية. وكانوا يعطون الأقاليم التي يربو نفوذهم وسلطانهم فيها عليها في غيرها، بطريق الالتزام لمن يقدم أوفر عطاء. بل كانوا يعمدون إلى المساومة في إعطاء هذه الالتزامات كما لو كانت تجارة أو احتكار، وكانوا يطلبون من الملتزمين، إذا شبت الحرب، إمدادهم بالجنود والسفن ليس إلا. فلم تتعد الروابط السياسية بينهم والولايات التي فتحوها بسلاحهم هذا الحد.

وكان، أرفع الباشوات مقاما وأجلهم شأنًا في نظر الباب العالي أكثرهم توريدا للأموال. وكان الواجب أن تكون الحالة غير ذلك بالنسبة لتلك الأقاليم، فإنه بقدر ما كان يناله الوالى من الحظوة والزلفى لدى الديوان بموافاته إياه بأكثر ما يكون من المال، كان يتذرع بسلطته للضغط على الأهلين والسلوك معهم مسلك الجور، ويبتز ما بأيديهم من المال. ومن أين كان له أن يعمل لمحض خير الولاية الموكول أمرها إليه؟ نعم إن هناك مستثنيات لكل قاعدة، ولكننى لا أفرض وجودها هنا إلا من باب التجوز والتسامح، تكريما للفطرة البشرية وحسن ظن بها. وإلا فهل كان مما يسلم به اتفاق مصلحة الولاية والأحوال فيها على مارأيت من الظلم والاستبداد، مع مصلحة الوالى الخاصة؟ بل هل كان من المستطاع أن يتفق مستقبله مع مستقبل محكومين ويمتزج به؟ كلا! لأنه إذا ترك الجرح الذى أصابهم به ليمتص منه دماءهم ويستلب أموالهم يملأ بها صناديقه، ويسدد ديونه ويعمر خزائن حماته والذادة عنه فى الآستانة، لا يلبث أن يصل إليه فرمان الخلع فى الحال أو أنشودة ينصرم بها مع حبل إدارته حبل عمره أيضا. فمن غير الممكن لوالٍ فى مناصب الولاية توافر الضمانات الكفيلة له بالترقى والاستمرار على العمل، مالم يبهظ عواتق محكوميه بمختلف الفرض والجبايات. ثم لا ينسى أن له مصلحة كبرى فى الضغط على محكوميه ليس فقط بدافع الطمع، وهو الشعور العام فى بلد يرتفع المرء فيه بالدسائس من أحط الدرجات إلى أعلى الدرجات، بل أيضا بسائق قوى من غريزة حفظ الذات، وهى صوت الطبيعة الأمر ونداؤها الذى لست أظن أن من بين الرجال

من يقدر على مقاومته.

يفهم مما تقدم أن علائق الولاية مع الديوان كان لامناص من أن تلقى الأمة في حماة الهمجية، وتحول بينها والوثوب في طريق التقدم والنجاح. دع أنهم كانوا يجعلون استبداد القوة من مظاهر منصب الولاية، حتى بلغ من أمر هذا الاستبداد أن جميع الحقوق - إلا ما كان متعلقاً منها بالدين - لم يستطع أحد الجهر بها. وتلك إرادة الولاية وسلطتهم المطلقة وسيرهم بين الناس بالحيف والعسف. ومما لا ريب فيه أن هناك أنظمة كثيرة ركنها الاستبداد وقمتها التحكم ومطلق التصرف، ولكن هذا الاستبداد كان شائعاً في كل أرجاء الدولة العلية. إذ كان ينبعث من المركز متشععا فيما حوله كما تتشعع أنصاف أقطار الدائرة إلى جميع نقط محيطها.

أما محمد علي فقد عرف كيف يوطد دعائم شوكته ويرسيها على القرار المكين. فهو أول عثمانى استطاع إدراك الأفكار النافعة فيما يتعلق بالحكومة والإدارة. وهو أيضا أول من أبرزها من حيز العدم إلى عالم الوجود.

نعم إن سلطته مطلقة، ولكنه أحكم التدبير بتحاشيه عن الحكم الاستبدادي الذي كان لمثله، في شوكته وقدرته أن يجرى على خطته إذ شكل لنفسه مجلسا خاصا اعتاد المداولة مع أعضائه في جميع الأعمال المتعلقة بالحكومة قبل الشروع في تنفيذها. وألف لكل فرع من فروع الإدارة مجلسا من الأخصائيين، فكان هناك مجلس للحرب ومجلس للبحرية ومجلس للزراعة وآخر للتعليم وغيره للصحة.. إلخ.. وكان هناك مجلس عام فوق هذه المجالس جميعاً يدعى بمجلس الحكومة، من اختصاصه النظر في جميع أقسام الحكومة وكان إذا عنت الحاجة إلى وضع قرارات مهمة في الزراعة أو الأشغال العامة الخطيرة، يعقد مجلسا لذلك يجتمع فيه حكام الأقاليم ومديروها.

ولقد أدرك - أول وهلة - أنه لأجل تسيير الإدارة على المنهج القويم، لا بد من العناية بتقسيم الحكومة إلى فروع مختلفة. وقد شكل فعلا هذه الفروع وجعل على رياستها الوزراء والنظار. فأنشئت على التتابع وزارات الداخلية فالحربية فالبحرية فالمعارف العمومية فالمالية فالخارجية فالتجارة.

ومن المؤكد أن هذه المعاهد الحكومية لم تبلغ درجة الإتقان والنظام المرجوة من أول أمرها. إلا أن هذا لا يخلينا من تبعة الاعتراف بالجهود التي بذلها سمو الوالى فى هذا السبيل، وبمئابة من النظام وحسن الأساليب فى إدارة الأعمال، بل بما أظهره من صدق الإرادة بإدخال النظام الإدارى فى بلاده على وجه يثبت تقديره لأهميته.

ومما لاشك فيه أنه إذا توافر عنده الوقت الكافى وانتهى من الأعمال التى يعنى الآن بإنجازها وخرّجت المدارس العدد الكافى من الأكفاء، ستتحدى مصر بحلية نظام دستورى ثابت يكون قد قتله من قبل فحصى ودرسا ونظر فى وسائل تنفيذه من الوجهة العملية.

وعلى كل حال ينبغى لأوربا أن تعلم علم اليقين أنه إذا اغتصبت من مصر السلطة التى أقام محمد على صرحها لتعطى إلى الباب العالى، فإن ذلك القطر لابد له أن يهوى فى مهواة من التأخر لاقرار لها. واللازم لمصر الآن أن تكون لها حكومة خاصة منظمة تنظيما متينا، فقد قال نابليون إن للحكومة فيها من التأثير أكثر مما للحكومات الأخرى فى بلادها، خصوصا إذا كان الغرض المقصود تعزيز ثروتها العامة. وسمو محمد على جدير، ولاشك بالمكافأة لأنه أول من أرسى فى مصر قواعد إدارة حكيمة تعتبر وحدتها وقوتها من أهم الشروط الحيوية للمحافظة على كيانها.

٣. الوظائف الإدارية الكبرى التي استحدثها سمو الوالى

الموظفون الجدد: المديرون والمأمورون والنظار ومشائخ البلاد والخولية والصيارفة والشهود- شرطة القاهرة.

٣- الموظفون الجدد

رأينا فيما تقدم أن محمد على غير تقسيمات القطر المصرى وبديل منها بتقسيمات إدارية تكفل للسلطة حصر الموارد ووحدة العمل. وكيفية ذلك أنه قسم مصر إلى سبع حكومات أصلية، جعل عليها قومة يسمون بالمديرين، ومن تلك الحكومات إثنان يتألف الوجه البحرى منهما وواحدة تتألف منها

مصر الوسطى وأربع يتألف منها الوجه القبلى. وكل حكومة أو مديرية تنقسم إلى مراكز والمراكز إلى أخطاط.

أما المراكز فرؤساؤها يدعون بالمأمورين، وأما الأخطاط فرؤساؤها يدعون بالنظار والخط يشمل فى دائرته جملة قرى لكل قرية رئيس يدعى بشيخ البلد.

٤- اختصاصات هؤلاء الموظفين

يتصل شيخ البلد مباشرة بالفلاحين الذين يلجأون إلى قراره وحكمه فيما يشجر بينهم من المنازعات، وهو الكفيل للحكومة بدفع الضرائب وأموال الجباية.

أما رئيس الخط فيطلب منه الإشراف على العمال المعهود إليه أمرهم فهو الذى يقوم بتوقيع العقوبة عليهم ، إذا أنس منهم إهمالا فى تنفيذ أوامر الحكومة أو إعراضا عنها.

أما المأمور فوظيفته تحديد الأعمال الزراعية، ويشترك مع المدير فى تقدير عدد الفدادين المخصصة فى كل قرية للزراعات المختلفة بحسب ما تقتضيه طبيعة الأرض. وعليه أيضا مطالبة الفلاحين بالضرائب، إما أصنافا من الحاصلات وإما مالا نقدا وأن يجمع فى الشئون بعد الحصاد الحاصلات التى تؤول إلى الحكومة.

وإلى المأمور يرجع الأمر فى جمع الأنفار للخدمة العسكرية والأشغال العمومية. وعليه أيضا مراقبة المعامل والفاوريقات.

أما المدير فمن واجباته تفقد الأقسام والمراكز الداخلة فى نطاق اختصاصه والسهر على تنفيذ أوامر الوالى وقرارات المجلس والعناية بترميم الترع والقناطر والجسور.

وعلى المأمير والمديرين أن يبعثوا فى نهاية كل أسبوع إلى وزارة الداخلية جريدة ببيان تفصيل أعمالهم اليومية والأعمال التى سيقومون بها. وما من مسألة إلا وتدور المناقشة عليها ولا يتقرر شىء فيها إلا بعد إمعان النظر فيها وتدقيق البحث وبعد أن يبدى سمو الوالى رأيه بشأنها.

وجميع المأمير الآن من المصريين الوطنيين، إلا النزر اليسير منهم. والسبب الذى دعا سمو الوالى إلى أن يعهد إليهم هذه الوظيفة اعتقاده بدرائتهم التامة بأحوال البلاد وخبرتهم الوافية بزراعتها، وأنهم أقدر من غيرهم على الإلمام بمراكز مواطنيهم واحتياجاتهم ومواردهم وأنهم أولى بالقيام على شئون الإدارة من الأجانب الذين لا يخلون من نزعات التشيع الجنسى. على أن هذا التسامح لم يأت بكل ما كان ينتظره محمد على من النتائج الحسنة. لأن هؤلاء الموظفين المصريين كانوا يعاملون الأهلى بأقل مما كان يعاملهم به الأتراك من الرفق والرحمة.

ولقد أقام الوالى الحجة البالغة على حسن نياته وعظيم تسامحه باختياره بعض المأمير من نصارى البلاد. ومفهوم أنه لم يسبق لمن حكموا مصر من المسلمين أن قلدوا أحد المسيحيين مثل هذا الشرف أو منحوهم مثل هذه الثقة لأن أما المديرون فهم جميعا من الجنسية التركية.

وفيما عدا مشائخ البلد يوجد بكل قرية رئيس للزراعة ومساح يدعى الخولى وصراف لجباية الأموال وحساب المبالغ التى يسلمها إلى المأمور ليتولى تسليمها إلى خزينة المدير. وفى كل قرية شاهد ينتدبه القاضى للحكم وتحرير العقود العمومية باعتبار كونه من المأذونين.

يفهم مما تقدم مقدار ما هنالك من التباين بين اختصاصات الموظفين المصريين وصفاتهم فى مصر وبينها فى موظفى البلاد الأخرى.

فليس للموظفين المصريين فى القطر المصرى تأثير سياسى ما، فهم حكام إداريون لا أكثر. تنحصر سلطتهم فى تقدير حاصلات الأرض وتعهد إدارة المصانع والقيام ببيان موارد البلاد المعهودة إلى إدراتهم.

ولأولئك الموظفين مراتب تختلف باختلاف درجاتهم. وقد جعل لهم منذ زمن قليل شوار - أى لباس خاص وشارات معينة لتمييزهم بعضهم عن بعض فمشائخ البلد يعرفون بوساماتهم الفضية والنظار بها ذهبية، والمأمورون بها ماسية. ويشغل وظائف المديرين إما البكوات برتبة الميرالاي أو الفريق وإما الباشوات.

٥- البوليس أو الشرطة

لا يعد ثغرا دمياط ورشيد ولا مدينة القاهرة من البلدان الداخلة في اختصاص المديرين. فإن إدارة هذه المدن الثلاث موكولة إلى حكام خصوصيين، ولما كانت العاصمة أكثر سكانا من غيرها فالحاجة إلى حفظ النظام وصون الأمن فيها تستدعى دوام اليقظة والتعهد، فقد عني بهذا الفرع من فروع الحكومة وأتقن تنظيمه فيها. ومنذ سنوات قليلة كان يتولى أمره موظفان كبيران يسمى أحدهما بالوالى والآخر بالضابط. أما الآن فلا يوجد على إدارته غير موظف واحد هو ثانى الاثنين المذكورين، وتحت إمرته ضباط تميزهم شارة خاصة. وهم منتشرون في أنحاء المدينة تميزهم عن غيرهم علامة خاصة ويصونون — بمراقبتهم الفعالة ويقظتهم المستمرة — النظام العام والأمن الخاص بأفراد الناس. ويقومون أثناء الليل بالنوبة، فإذا مضت ساعة ونصف من غروب الشمس ألقوا القبض في الطريق على كل شخص لا يحمل بيده مصباحا. وبهذا لا تمر ساعتان أو ثلاث ساعات بعد الغروب حتى تكون الشوارع خالية من السابلة. وفي يقينى أن الأمر القاضى على الذين يخرجون في ظلام الليل من بيوتهم — وعددهم قليل جدا — بأن يحملوا المصابيح المنيرة لمن الأوامر الحكيمة في مدينة كالأاهرة لم ينشأ بها الاستصباح العام. وعادة الشرطة في قيامهم بالنوبة — أن يوجهوا إلى المارة السؤال الآتى باللغة التركية « كيم دورو » ومعناه « من هذا؟ » فيجاوبون بقولهم: « ابن البلد » فيصيح العسس عندئذ قائلا له: « وحد الله » فيجاوبه بقوله: « لا إله إلا الله ».

والمسيحيون ملزمون بالنطق بهذه العبارة كالمسلمين سواء. وسبب ذلك ما وقر في نفوس أهل الملة الإسلامية من أن مرتكب الجريمة أو المعول على ارتكابها بقصد، لا يجرؤ بوجه ما على مجاوبة العسس بالقول المتقدم. ولقد اشتهر الاغاوات بالمهارة والتفنن في استكشاف اللصوص، ونقلت عنهم في ذلك حوادث كثيرة وحكايات نادرة تدل على براعتهم في اصطياد اللصوص بنفس المكائد التى يحاولون أن يكيدوها للآمنين.

٤. الموارد المالية لوالى مصر

٦- أشرح هنا القواعد التى أقام محمد على عليها بناء شوكته وقدرته، ومنها يتبين أن الضرورة القاهرة التى ألجأت سمو الوالى إلى إنشاء الحصون والمعازل للامتناع بها، قد أرشدته إلى الوسائل التى لايتسنى له تحقيق غرضه بدونها. وسوف يقتنع المكابرون انه برضوخ محمد على لقوة الحوادث ومضيه فى تيارها ولبسه لكل حال لبوسها وضمانته لوجوده السياسى بما وضعت ظروف الزمان والمكان فى يده من وسائل العمل ومقوماته، قد صنع القالب الذى أراد أن يفرغ لمصر فيه دستوراً موافقاً لعبقريتها وموفياً بمطالبها وحاجتها، بحيث لا يكون أثراً زائلاً لسياسة لا حياة ولا أفق لها. الدستور لا يكون فى هذه الحالة إلا نتيجة طبيعية ترمى إليها مقدمات لا تعدو كونها ماضى أمة قضت ضرورة الحاضر بتعديله على ما يطابق مقتضيات هذا الظرف وبث عنصر الحياة فيه، تلك الحياة الضمنية بمستقبل ساطع النور لن يقبل إلا فى هيئة وحشد عظيم من آثار التقدمات الفكرية والاصطلاحات التى أولدتها طبيعة الأشياء والتى سيقوم على تنميتها التدبير والاعتدال.

ومما لا يختلف فيه اثنان أن ما أنجزه محمد على من الأعمال حتى الآن لم يبلغ درجة الكمال المطلق. ولكن سمو الوالى وصل به فى الظروف الراهنة إلى أسمى ما فى قدرة إنسان أن يبلغه من غايات الكمال. وعلى كل حال فإنه لن يتركه بعده عملاً مبتوراً لا أمل فى بقاءه واستقراره. كلا! لأنه لقح أعماله كلها بلباق البقاء والاستمرار، وحسبه هذا فخراً ومجداً. وفطاحل الرجال لا يموتون إذا غيبت أجسامهم فى الأحداث، بل تعيش ذكراهم مؤيدة بما شادوه من الآثار وقاموا به من جلائل الأعمال. فإذا اتسع نطاق المستقبل الذى مهدوا له الطريق فى حياتهم وترامت آفاقه إلى أبعد مدى، تيسرت تنمية التراث الذى تركوه فتنمو بنمائه سيرتهم العطرة وتتسع الإشاعة بها حتى يطبق الخافقين ذكرها، وقدم الناس إلى عبقريتهم الممثلة فى آثارهم إناوة الإعظام التى تزداد باطراد نمو ذلك التراث وتحسنه على توالى الأيام وتعاقب الأعوام.

وفى شوكة محمد على وقدرته أمران جديران بإمعان النظر فيهما لتبين

حقيقتهما. ألا وهما: ماهية هذه القدرة في ذاتها والشروط التي يترتب عليها بقاؤها أو بعبارة أخرى العناصر المكونة لها وقوام هذه العناصر. وسأقدم الكلام على ثانى الأمرين وهو الموارد المالية كى أتطرق منه فيما بعد إلى الكلام على الأمر الأول وهو القوة العسكرية. لأن القوة العسكرية في المال كالنتيجة للمقدمة في القياس المنطقي ولنجمل القول في ذلك الموضوع فنقول: إن الموارد المالية التي يعتمد الوالى عليها هى: أولا تشكيل الملكية في القطر المصرى.

وثانيا احتكار الحاصلات الزراعية. وثالثا الضرائب والرسوم.

الملكية

تشكيل الملكية في الشرق - حالتها في مصر منذ الفتح الإسلامى على يد عمرو بن العاص إلى الفتح العثمانى على يد السلطان سليم - حالتها على عهد المماليك. الأوقاف، الأرزاق، الالتزام - أراضى الفلاحين والأوسية - التغيير العظيم الذى أحدثه محمد على - آراء وخواطر في النظام الحالى للملكية.

٧- تشكيل الملكية في الشرق

مسألة الملكية من أهم ما يرتبط بمصر من المسائل العامة لسببين: أحدهما أن الملكية فيها قائمة على قواعد وأساس تغاير ما تقوم عليها منها في مختلف البلاد الأوربية. والثانى أن الأسلوب الذى كانت الملكية قائمة عليه لمحمد على السبيل لجمع الموارد التى استعان بها على تشييد صرح شوكته.

ولم تعين طبيعة الملكية في المدينيات الشرقية بمثل الصراحة التى عينت بها في الحضارة الغربية. لأن الحضارة الشرقية مغايرة للحضارة الغربية ببقائها واستمرارها. وإذا جعلت بيانى بشأنها قاصرا على مصر، فإنى مثبت هنا أن الأراضى المصرية كانت منذ عهد الفراعنة الأقدمين ملكا لولى الأمر.

٨- حالتها في مصر منذ الفتح الإسلامى إلى الفتح العثمانى

قرر الإسلام مبدأ عاما في ملكية الأرض تلخصه الآية الآتية من القرآن: «أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

فبمقتضى هذا المبدأ العام كل حق للملكية الفردية مستمد من ولى الأمر. ولما استولى عمرو بن العاص على مصر أقر الخليفة عمر بن الخطاب سندات الملكية التى كانت موجودة إبان الفتح، وتم انتقال الملكية بعد ذلك بطريق الوراثة مقابل دفع فرضة من المال إلى الأمير. وظلت الأحوال سائرة على هذا المنوال فى عهد سائر الخلفاء والسلاطين الجراكسة. ولم يطرأ عليها تعديل إلا عقب الفتح العثمانى على يد السلطان سليم الأول. فقد قرر هذا السلطان أن الأراضى التى أعطيت فى الأصل من الأمراء تحول منذ الآن فصاعداً إلى ملكية ولى الأمر. وبهذه الكيفية أصبح صاحب الأرض لا يملك رقبتهما بل حق الانتفاع بها، فإذا مات ألت أملاكه إلى الحكومة. غير أنه كان لورثته ردها إلى حوزتهم بدفع مبلغ معين، على طريق العسف والاستبداد، لا تقبل فيه مساومة.

وقد أخذ السلاطين، من خلفاء السلطان سليم الأول، يعهدون إدارة البلاد المصرية إلى دفتردار عنده سجل بجميع أراضيها. وكان قصدهم من ذلك تأييد الحقوق التى انتحلها ذلك السلطان لنفسه عليها. غير أن هذه الحقوق لم تلبث أن تلاشت بشوكة الممالك وامتداد نفوذهم، لأنهم كانوا أصحاب السيادة الفعلية على البلاد وكانوا يتصرفون فى الأرض على ما تشاء أهواؤهم ويضعون أيديهم على ما يروق فى نظرهم منها بلا أدنى التفات إلى الحقوق التى انتحلها الباب العالى على الوجه السالف.

٩- حالتها على عهد الممالك

فى عهد الممالك وإبان وجود الحملة الفرنسية بمصر، كانت الملكية منظمة على الوجه الآتى:

كان الشطر الأوفى من الأراضى ملكاً للممالك والحكومة وكان الشطر الباقى فى حوزة نحو ستة آلاف مالك يعرفون بالملتزمين. أما ما بقى من الأراضى، فكان موقوفاً على المساجد ويعرف بالأوقاف أو الرزقة.

وكانت أملاك الملتزمين من الأرض على نوعين: نوع يسمونه بأطيان الفلاحين إذا كان الفلاحون يزاولون العمل فيها لاستدراخ خيراتها ابناً عن أب وأباً عن جد. وكانوا يدفعون الضريبة عنها والإيجار المستحق عليها، فكانوا

لها بمثابة المزارعين. أما النوع الثانى فكان يعرف بأطيان الأوسية - أى أن الأطيان التى اشتراها الملتزمون بأموالهم وأخذوا يزرعونها على حسابهم. وكانت أطيان القرى مقسمة إلى أربعة وعشرين قيراطا يملكها ملتزم واحد أو جملة من الملتزمين. وكانت الرابطة بين نوعى الأطيان السالقى الذكر وثيقة إلى حد أن الملتزمين كانوا لا يستطيعون أبدا أن يبيعوا شيئا من أطيانهم المعروفة بأطيان الفلاحين إلا إذا باعوا فى الآن نفسه جزءا من أطيانهم المسماة بأطيان الأوسية. وكان الملتزم لا تنقل ملكية أطيانه بعد وفاته إلا إلى أبنائه أو من يوصى بهم أن يكونوا ورثة له. وعلى كل حال فقد كان من المفروض على الورثة أو الذين احتازوا الأرض بمبيعها إليهم - كلها أو جزءا منها - أن يحصلوا على تقليد الوالى بذلك لكى يجوز لهم الحلول محل المورث فى الحقوق المخلفة عنه. وكان ثمن التقليد مبلغا من المال يعدل القيمة التى اشترت الأرض بها، فإذا لم يدفع ذلك الثمن آلت الأرض إلى الحكومة. وكان هذا ما يحصل غالبا، إذا لم يوص الملتزم المتوفى - بدون أن يعقب - بأملاكه لأحد. ذلك لأنه كان لا يعترف شرعا إلا بأبنائه كورثة طبيعيين له.

وقد قلت إنهم كانوا يطلقون كلمة الوقف إطلاقا عاما على الأملاك الخاصة بالمساجد ومعاهد البر والإحسان. فإذا كانت هذه الأملاك أطيانا سميت بالرزقة. وكان لها شأن عظيم أيام حكم الدولة العلية والمماليك، إنها الدلالة الواضحة على أن حقوق الملكية لم تكن مأمونة فى عهدهم. ولما كانت الأوقاف مما لا يجوز التصرف فيه بوجه ما، فقد نشأ عن ذلك أن عددا عظيما من الملاك عمدوا إلى تخويل من يوصون بهم من أفراد أسرهم حق الانتفاع بأطيانهم بعد وفاتهم فأوقفوها على المساجد. وكان يدفع إليهم جانب من ريعها ليكون لهم بمثابة إيراد ثابت لا يجوز تقاضى الضرائب عنه ولا تمتد إليه مطامع البكوات. وقد بلغت فوائد هذه الأوقاف ومزاياها من قوة التأثير الجاذب للملكية إلى حظيرة الوقف، ما استفز الحكومة إلى إصدار أمرها بمنعه، إلا بموافقة منها. فقد خشيت أن ينتهى الأمر إلى اندراج جميع الأراضى فى سلك الأملاك الموقوفة ووقوع الأرزاق الكبيرة بعد ذلك فى ملكية أصحاب النفوذ والوجاهة من المشايخ، وأن يتمتع هؤلاء بها آمنين فى ظل القانون الذى خص الأملاك الدينية بالرعاية والحماية.

تلك كانت حالة الملكية في القطر المصرى حينما استولى الفرنسيون عليه. ولقد انتقلت إليهم حقوق الحكومة السابقة في ملكية الأقطان، غير أنهم لم يستطيعوا جعل الفلاحين ملاكا بالنظر إلى انحطاط أحوالهم العقلية والنفسية وقتئذ.

١٠- التغيير العظيم الذى تم على يد محمد على

في سنة ١٨٠٨ تم على يد محمد على التغيير العظيم الذى أصبح بمقتضاه مالكا لجميع أراضى القطر المصرى إلا القليل منها.

فقد طلب في ذلك الوقت من الملتزمين أن يطلعوه على سندات ملكيتهم، فلما قدموها إليه قرر بطلانها جميعا - معتمدا في ذلك على حق ملكية ولى الأمر - أى الحق المعترف به للحكومة من قديم الزمان. ومع هذا فقد أراد التعويض على الملتزمين، فقدر ريع كل منهم من إيراده ودفعه إليهم سنويا من الخزانة. ثم ترك لهم حق الانتفاع، مدة حياتهم بأراضى الأوسية بعد أن فحص سنداتها فحصا جيدا، وقرر مبدئيا، للتمشى مع الاعتقادات الدينية، احترام الأقطان الأرزاقية. ولكنه لم يلبث أن ألغاهم أخذا على عهده الإنفاق على المساجد وضمانة شعائر الدين، ثم أجرى على الشيوخ الذين كانوا واضعى الأيدي على تلك الأقطان معاشات سنوية. ولم يحتفظ بصفة الوقف إلا للأماكن المبنية والحدائق.

وكان يبنى بهذا التغيير العظيم الذى ملك بمقتضاه أراضى القطر المصرى إنماء موارده المالية لسد نفقات الإصلاحات العامة، ولكنه لم يكن يريد القضاء على الملكية الفردية. بدليل تنازله منذ بضع سنوات عن أكثر من مائتى ألف فدان، فضلا عن إبقائه على الأملاك المبنية كما ذكرناه.

وبعد أن حل محمد على محل الملتزمين توثقت عرى الاتصال بينه والفلاحين. فمهدت هذه الخطوة الأولى له تنظيم الزراعة وتقرير أساليبها واستأجر الفلاحين للعمل فى الأرض باليومية، إذ عين للواحد منهم قرشا واحدا يوميا كان يدفع إما نقدا وإما أصنافا من الحاصلات. ثم وزع عليهم الأقطان - على أن يبقوا مالكين لها دواما إلا إذا عجزوا عن سداد ضرائبها. وقرر فى الحالة الأخيرة أن يحل غيرهم، من القادرين على السداد، محلهم فى

ملكيتها. وقدم إليهم آلات الحرث وأدوات الزراعة والماشية اللازمة للرى. وكان على مأمور المركز أن يعين للفلاح مساحة الأرض التى تعطى له ليقوم بحرثها وزرعها. فإذا زرعها وحصد غلتها اشترتها الحكومة منه بأثمان معلومة. على أن يكون له التصرف كما يشاء فى الحبوب منها. فإذا باع هذه الحبوب بالمدن دفع عنها من الرسوم النسبية ما يدفعه عما يستنفده أو يبيعه منها فى مكان الزراعة والحصد.

١١- أفكار وخواطر فى النظام الحالى للملكية..

كان من تنظيم الملكية على الوجه السالف ومانشأ عنه من الارتباط بين الوالى والفلاحين، أن انبرى بعضهم لانتقاد هذه الحالة انتقادا مرا يرومون الحكم على مصر وسكانها بمقتضى مذاهب أوربا فى الملكية، من غير نظر إلى ما هنالك من الفارق بين أمة شرقية والأمم الأوربية. ومما هو أوجب للدهش أن أرى ذلك الانتقاد فيما يكتبه الانكليز الذين يظهر أنهم نسوا الأسلوب الذى تخيروه لتنظيم الملكية فى الهند، وهو المعروف باسم «زمندار» الشديد الشبه بما تتمشى الملكية على قواعده الآن فى القطر المصرى. على أن التجربة التى قام الفرنسيون بها أيام الحملة، والخبرة التى اكتسبها الأوربيون الذين تناولت اقامتهم بمصر منذ ذلك العهد، دلتا صراحة على أن النظام الذى سنه محمد على للملكية هو أحسن ما يكون من الأنظمة وأوفقها لحالة البلاد. إذ لولا هذا النظام لما تقدمت الزراعة بخطوات واسعة فى سبيل الاتساع والإتقان، ولا أدخلت إلى مصر زراعة النباتات المجهولة بها إلى ذلك الوقت. مع أن تربتها موافقة لها كل الموافقة، بل ولا زادت الحاصلات زيادة هائلة فى زمن يسير.

والفلاح المصرى نزوع بطبيعته إلى الدعة والسكون لضيق دائرة حاجته وأنها أقل مما يخطر ببال الأوربى أن فيه الكفاية للمرء. فلو ترك وشأنه، وهو على ما فطر عليه من تلك النزعة، لأدى تركه إلى سقوط الزراعة المصرية. فالنظام الذى سنه محمد على للملكية هو خير الأنظمة، لاسيما وقد تيسر بتطبيقه زيادة إيراد مصر الذى بلغ إلى ٦٠ مليون فرنك بعد أن كان لا يزيد على ٣٥ مليون فرنك فى سنة ١٧٩٩ أيام الحملة الفرنسية.

ولست أنكر أن هناك إصلاحات جمة تقضى الحاجة بإدخالها، إلا أننى أجاب الذين يأخذون على سمو الوالى أنه السبب فى عيوب الحالة الحاضرة بما يأتى:

أولاً- إن الحالة الحاضرة أفضل بكثير من الحالة السابقة.

ثانياً- إنها من الحالات المؤقتة التي تبشر الأمة المصرية بمستقبل سعيد محفوف بالخيرات والبركات، وتمهد السبيل شيئاً فشيئاً، بحسب سرعة تقدمها في طريق المدنية، لتملكها حاصلات الأرض.

وأضيف إلى ما تقدم أن الحيف سيظل ملازماً لتلك الحالة، إذ يصادر في القريب العاجل على المركز السياسى الذى آل إلى محمد على وأسرته، ويزول بلا شك إذا سويت هذه المسألة التى يرتبط بها إما البقاء وإما الموت. وإنه لمن الجور الفادح والظلم الغاشم أن تلقى على عواهن سمو الوالى نتائج صراع أثير ثائرته لغرض هو حرمانه، بغير حق، من ثمرات جهوده العديدة الطويلة.

٢. الاحتكار

الغرض من الاحتكار- قدمه في القطر المصرى- سبب ضرورته فيه.

١٢- الغرض من الاحتكار

الاحتكار في مصر، على عهد محمد على، هو الحق الذى احتفظت الحكومة به لنفسها في أن تكون المشترية الوحيدة للشطر الأوفى من حاصلات الأرض. ومما انساق الناس إليه على طريق الوهم، الاعتقاد بأن هذا الاحتكار سار على حاصلات مصر كافة من غير استثناء. وهذا خطأ محض فإن هناك أصنافاً عديدة من الحاصلات ومن بينها أغلب الحبوب لا تسرى عليها قواعد الاحتكار، بل ترك للفلاحين حرية التصرف فيها. وإنما الاحتكار يتناول القطن والأرز والصمغ والنيلة والسكر والأفيون الخ ولا يتعداها إلى غيرها.

١٣- قدمه في مصر

اتخذ خصوم محمد على مسألة الاحتكار تكأة لتوجيه التهم البالغة إليه والنيل من شوكته والخط من كرامته والخط من شهرته.

ومما لا مرأى فيه أن نظام الاحتكار نظام معيب من عدة وجوه، وإنما كان من الواجب، قبل اعتباره جريمة وإسناد هذه الجريمة إلى محمد على، الإقرار بأنه لم يكن ثمرة من ثمار اختراعه. بل إنه كان معروفاً في سائر أنحاء الممالك

العثمانية ومعمولا به، وأن الخط الشريف لم يصدر بإلغائه منها إلا من عهد قريب. مع أن هذا الإلغاء لا تزال الشكوك تحوم حول صحته أو الدقة في تنفيذه، دع أنه بعد هذا وذاك من الأنظمة اللاصقة بمصر منذ قديم الزمان إذ من المقرر المعروف أنه كان معمولا به في كل زمان واستمراره ينهض دليلا على ضرورته والحاجة إليه.

ألم يعهد إلى يوسف (عليه السلام) بعد إذ قام بتأويل الرؤيا لفرعون بجمع حاصلات مصر واختزانها لتوزع — في سنى القحط والمجاعة — على الأهلين؟ وهل في هذا الأمر إلا الاحتكار بعينه؟ ولقد أجمع المؤرخون على تمجيد (سيزوستريس) والإشادة بذكره لأنه خول رعيته حق الملكية. أفليس هذا دليلا ناصعا على أنهم كانوا من قبله لا يملكون هذا الحق؟ ومع هذا فقد توافرت الأدلة على أن حق الملكية لم يرتكز قط في مصر على أساس وطيد. وقال أحد مؤلفي مصنف الحملة الفرنسية الموسوم: « تخطيط مصر » (المجلد السابع عشر، الطبعة الثانية - الحكومة الحديثة -) ما يأتى:

« منذ حدثت أول غارة على مصر، قام نظام حكومتها على حق الفتح. وقد تمسك بهذا الحق كل من الفرس واليونان والرومان والعرب والمماليك، بدون أن يسنوا قانونا لتحديده وتعيين شرائط التمتع به. وإذا كان الشعب المغلوب على أمره قد منح أحيانا حق الانتفاع ببعض قطع من الأرض فإنه كان يكفى، لا سترداد هذا الحق غير الثابت، صدور الأمر به بمحض إرادة الفاتح. وتلك لا تزال الحال التى عليها الأملاك المسماة هنا بالأملاك الخاصة. فإنها تبقى مستقرة فى الأسرة — لا كحق ناشئ عن الوراثة — بل كآية من آيات عطف الحكومة التى يبقى لها دائما حق فيها طبق مشيئتها. فليست تلك الأملاك إذن كما شهدناه الآن، ألا أحد ضروب الالتزام التى تنقلها الحكومة من يد إلى يد، بدون أن يكون للمنتفع بها حق التصرف فيها. »

ولقد أحست الإدارة الفرنسية — إذا لم يكن بضرورة الاحتكار — بصعوبة استبداله بحالة أخرى منافية له. على أن الجنرال (ديزه) كثيرا ما فكر فى توزيع قسم من أراضى الوجه القبلى على الفلاحين، ولكنه لم يستطع وضع هذه الفكرة موضع الإجراء (راجع فى كتاب تخطيط مصر السالف الذكر، الطبعة الثانية، المجلد السابع عشر، موضوع — الحكومة الحديثة -).

١٤- سبب ضرورته

يسهل بمقتضى ما تقدم تعليل الاحتكار وإقامة الدليل على قدمه وإثبات أن محمد على لم يكن الواضع له من عندياته. ومن الحقائق الثابتة أن النيل، بفيضانه المنتظم، أوجد بالقطر المصرى حالة خاصة به. فإن هذا النهر، إذا ترك وشأنه، لا يروى إلا القليل من الأراضي إذ تضيع مياهه كلها في البحر، فاقترضت هذه الحالة احتقار الترع العديدة وإقامة الجسور واتخاذ التدابير التى لا يمكن لأحد غير الحكومة أن يقوم بها. وهذه الترع والجسور كان من غير الميسور للأهلين، ما لم يكونوا على إرث من الحضارة والعلم أن يتعهدوها بالعناية لانصرافهم إلى شئونهم الذاتية، ولا أن يفقهوا لما وراء هذا التعهد من الفائدة العامة للبلاد. وهذا فضلا عن أن إدارة تلك الأعمال والحاجة إلى من ينجزها من العمال وما يقتضيه إتمامها من وفير المال، أمور تستدعى وجود شركات تتعاون على أدائها، وهو أمر لم يكن ميسورا بالمرة، عند أمة كالأمة المصرية، بل كان من رابع المستحيلات.

وكان من الواجب على الحكومة - بعد أن تضع نظاما لرى الأراضي - أن تزرع بواسطة الفلاحين الأطيان التى ساقط إليها بذلك مواد الخصب والنماء، لاستحداث موارد جديدة للمال وتوسيع نطاق الزراعة طلبا للمزيد من الحاصلات. ولقد أدركت هذه الضرورة فأعطت الفلاحين ما يلزم من البذور والمواشى وآلات الحراثة لاستثمار الأرض محتفظة لنفسها - فى مقابل ذلك - بحصة من الحاصلات غير ناظرة إلى ما قد يحيط بالسوق من اختلاف الأسعار وتذبذبها. ذاك هو بيان أصل الاحتكار فى مصر على عهد محمد على وضرورته.

ومفهوم أنه إذا كانت الإدارة قديمة حكيمة رحيمة، فإنها لا تتطلب من المزارع إلا ما يلزم لتحصيل ما أنفقته من النفقات ومداركة حاجيات الحكومة، ولكنها إذا كانت طموعة شرهة - كما هى فى كل مكان - فلا تلبث أن ترى نفسها مسوقة إلى الإجحاف والظلم. أما إذا اتسع نطاق حاجياتها، فلا مناص لها من ابهاظ عاتق رعييتها بالكلف الفادحة والفرض الباهظة.

ولمعترض أن يقول إنه كان من الأولى ترك الخيار للفلاحين فى مبيع حاصلاتهم على أن تجبى الحكومة منهم الضرائب نقدا عينا، لما يستتبعه ذلك

من تزاخم التجار على الشراء وتنافسهم التنافس الذى تنجم عنه مضاعفة الفائدة للبائع. وجوابى على هذا الاعتراض أن المصريين لم يعتادوا ادخار المال لوقت الحاجة إليه، فهم مضطرون بحكم هذه الغفلة إلى بيع حاصلاتهم وهى على سوقها - أى قبل أن تنضج وتحصد. وهو مايتأتى منه تحكم المشتري فيهم بفرض الشروط المجحفة عليهم، وأخذهم المحصول الذى اشتراه بثمن بخس دراهم معدودة فى اليوم المعلوم، فيصبح الفلاح المسكين وليس فى يده ما يسد به الرمق. فى حين أن نظام الاحتكار يقضى بتمويله بكل ما يحتاج إليه من الزاد، وقد ترى نفسها بعد ذلك عاجزة عن جباية المستحق لها من الأموال فى ذمته. وشتان بين الحالين.

ولا يخامر القارئ أننى ممن يذهبون مبدئياً إلى تبرئة الاحتكار من العيوب والموانع، أو يقولون إنه غير قابل للتحسين والتعديل. وكل ما أراه أن تفكر الحكومة فى قلب النظام الحالى رأساً على عقب، بل أدعوها إلى التريث حتى يبلغ الغاية القصوى من التحسن والارتقاء. والأمثل لمصلحة الجمهور وهو أمر تقره البدهة ويستدعيه الطبع السليم، اقتضاء أقل ما يمكن من المال من الممولين المصريين. غير أن السر كل السر هو فى أن المطالبة بالقليل ينبغى معها أن تكون دائرة الاحتياجات ووجوه الإنفاق ضيقة وقليلة معاً. فعليكم أن تخفضوا اليوم من غلواء احتياجات الحكومة المصرية، فإن شكاكم من وجود الاحتكار ثقل، إذا لم تمنح برمتها. ويكون محمد على فى طليعة من يهتمون بإصلاح الفاسد وتقويم المعوج.

٣. الضرائب أو الأموال

الضريبة العقارية أى الميرى - الضريبة الشخصية أو فرضة النفوس والخراج - الضرائب المختلفة والجمارك - آراء فى جباية الأموال. إيرادات الحكومة من الضرائب ثلاثة أنواع: إيرادات ضريبة الأتبان وإيرادات الضريبة الشخصية أو فرضة النفوس وإيرادات الجمارك.

١٥- الضريبة العقارية أو الميرى

لما استولى السلطان سليم على مصر أجرى التأريع = تحديد الربيع = لشطر كبير من أطيانها، وقرر بناء على ما ظهر من نتيجة هذا العمل مقدار ما

كان يجمعه كل ملتزم من الضرائب العقارية. وكانت تتألف هذه الضرائب من ثلاثة أجزاء: الأول وهو أوقافها قدرا كان مخصصا لسداد أموال الميرى والثانى كان مخصصا للكشوفية والثالث لفائض الالتزام.

أما الميرى فكان يؤول إلى السلطان، وأما الكشوفية فإلى البك أو الكاشف حاكم الإقليم، وأما فائض الالتزام فكان يزيد وينقص وكان يعطى للملتزمين كالميرى والكشوفية. وكان لا حق للملتزمين فى فائض الالتزام، إلا إذا أدوا ما عليهم للسلطان والكشاف. ثم إنهم فرضوا على الفلاحين رسوما كانوا يدققون فى مطالبتهم بها وكانت تسمى بالبرانى.

ولم تكن الأراضى كلها، خاضعة على السواء لفرض الضرائب عليها. فإن الأراضى التى كانت معروفة منها باسم الرزقة والأثر كانت معفاة منها فكان شأنها فى ذلك شأن الأراضى البور غير الصالحة للزراعة. أما الأراضى الرديئة التى كانت للملتزمين والفلاحين فكان لها ضريبة معتدلة أقل من الضريبة المفروضة على الأراضى الجيدة. أما أراضى الأثر والأوسية فكانت الضريبة تدفع عنها بحسب جودتها وكثرة ما تعطى من المحصول وكانت الأثرية منها تدفع عنها الضريبة المعروفة بالبرانى.

أما الآن فلا تمييز بين الأراضى، لأنها أصبحت لا تدفع إلا صنفا واحدا من الضرائب وهو الميرى. ومتوسط ضريبة الأطيان مقدرة بما يعدل عشرة فرنكات تقريبا للفدان الواحد، أما الأراضى الممتازة بالخصوبة ووفرة الحاصلات، فالضريبة التى تدفع عنها لا تزيد على ما يعدل ١٤ إلى ١٦ فرنكا. والأراضى الأقل منها درجة فى تلك المزايا تدفع عنها ضريبة تختلف من ستة فرنكات إلى ثمانية. ومنذ عهد قريب أعطى الوالى فريقا من المزارعين القادرين على تعهد الأراضى بالحرث والرى لا ستمارها، ما مساحته ٢٠٠٠٠٠ فدان تقريبا من الأراضى البور ليتولوا إصلاحها وزرعها، وأعفاها من مال الميرى. وهذا المال يعدل نصف إيرادات الحكومة على وجه التقريب.

١٦- الضريبة الشخصية أو فرضة الرؤوس

الضريبة الشخصية أو فرضة الرؤوس فرع لا يستهان به من موارد إيراد الميزانية المصرية. ويباشر تحصيلها باعتبار كونها جزءا من اثنى عشر جزءا من المال الذى يفرض أنها تعدل دخل الممول. والذكور المراهقون كافة،

مسلمين كانوا أو رعية، ملزمون بدفع هذه الفرضة متى بلغوا الثانية عشرة من عمرهم. وتختلف - تبعا لتفاوت الناس في الثروة - من ١٥ قرشا إلى ٥٠٠ قرش. وفي المدن تحصل الضريبة الشخصية عن النفوس، وفي القرى عن المنازل. ويبلغ ما يحصل من هذه الفرضة عادة السدس من إيراد الخزانة المصرية.

ويدفع الرعية من الأهلين ضريبة خاصة بهم تسمى الخراج. وقد فرضت في الأصل بحسب المبادئ المستمدة من القرآن، والقاضية على غير المؤمنين بدفع الجزية. وتقدر بوجه عام من ثمانية قروش إلى عشرة. ولا يتجاوز المتحصل منها ١٠٠٠٠٠ فرنك (١).

١٧- الضرائب المختلفة والجمارك

وهناك ضرائب مفروضة على الماشية. فالبقرة والجاموس يدفع عنها عشرون قرشا للرأس الواحد، وسبعون إذا كانت مخصصة للذبح. على أن تبقى الجلود المسلوخة ملكا للحكومة. أما الجمال والنعاج فيدفع عن الرأس الواحد منها أربعة قروش. وأما قوارب النيل فيدفع عن كل قارب ضريبة قدرها مائتا قرش وكذا النخل فإنه خاضع لضريبة تختلف بحسب أصناف محصوله ولكن متوسطها قرش ونصف عن كل نخلة.

ورسوم الجمارك المتفق عليها في الامتيازات الدولية والمعاهدات التجارية، تحصل على البضائع المجلوبة من أوروبا إلى مصر، وهذا فيما عدا الضرائب التي تعينها الحكومة لتحصل من القوافل الآتية من بلاد العرب وسنار ودارفور الخ.

ولقد رأينا فيما سبق أن بعض الحاصلات تدفع عنها مكوس عند دخولها في مدن معلومة.

أما الجمارك فمعطاة بالالتزام. ووجه الحكومة في تفضيل هذه الطريقة أنها تخليها من مشاغل إدارتها والقيام على ضبط أعمالها. والحاصلون على هذا الامتياز، وكلهم من التجار الأتراك والأرمن، تتألف منهم شركة أو ما

١ - أبطل الخراج في الممالك العثمانية بمقتضى خط كلخانة. لأنه أفضى فيها إلى العبث بحقوق الرعية ولكن نصروا هذا القانون لم يتناولوها بالتنفيذ بعد ولم توضع حتى الآن موضع الإجراء.

يشبهها لتحصيل الرسوم الجمركية. وهذه الطريقة، وإن تكن حسنة من بعض الوجوه، رديئة من وجوه غيرها. فإذا كان في نية الحكومة إبقاؤها، فقد حق عليها وضع تسعيرة ثابتة للرسوم المراد تحصيلها واتخاذ الاحتياطات الكفيلة باحترام اللوائح والقوانين والعمل بها في جميع الأحوال والظروف.

١٨- أفكار وخواطر في جباية الضرائب

لسكان مصر، إذا شاءوا، أن يدفعوا الضرائب المفروضة عليهم أصنافا من حاصلات أرضهم. وقد وضع لذلك نظام دقيق كفيل بتحصيل الضرائب المفروض وصولها إلى الخزينة، ومن شأنه أن يجعل سكان القرية الواحدة متضامنين في السداد. تتوسع دائرة هذا التضامن فتتناول القرى الموجودة في مركز واحد، فالمراكز التي تتألف منها مديرية واحدة. ولا شك أن هذا النظام يلجئ العامل الذكي الذي يكد ويكدح ليضاعف ثمرات عمله، إلى سد العجز الناشئ عما لم يكن مسئولا عنه من غباوة زملائه وجيرانه وخمولهم. وفي هذا من الحيف بحقوقه وهضم جانبه ما تأباه أخلاقنا ومذاهبنا في تصريف العدل بين الناس.

إلا أن هذا لا ينبغي أن يحول دون اعتبار طريقة التضامن الأنفة الذكر مطابقة من كل وجه لروح الحضارة الشرقية. فقد عمل بها عمرو بن العاص منذ الفتح الإسلامي من سكان إذ تبينت ضرورته في استفزاز الكسالى والعاطلين من سكان القطر إلى ممارسة الأعمال والانصباب عليها. ومع هذا ففي نية سمو الوالى، متى صرف عنايته إلى إتمام التنسيقات والإصلاحات الداخلية التي اعتزم إجرائها للسمو ببلاده وأمتة إلى الدرجات العليا، وهى العناية ما برح في حاجة إلى صرفها بالخارج، أن يقضى على كل اثر للحيف والظلم في الأنظمة الحالية، فيتعهد بنفسه وقتئذ رم الجراح الذى أثخن بها جسم مصر في السنوات الأخيرة العديدة. وهو يرى أن من بواعث الفخر تخليد اسمه برفع هذا الاثر الجليل الذى يود من صميم فؤاده أن يتولى إقامته لمصلحة مصر ومنفعة بنيتها، إذا ما انتهى من إرساء قواعد أسرته وإعطاء مصر كيانه السياسى الذى لا قوام لها إلا به.

٤. إيرادات مصر ومصرفاتها

لكى أزجى إلى ذهن القارئ فكرة عن إيرادات مصر ومواردها المالية الأساسية التى تعتمد عليها فى تدبير أحوالها وتصريف شئونها، سأطرح جدولاً ملخصاً من الميزانية السنوية لحكومة الوالى فى سنة ١٨٣٣ الميلادية الموافقة لسنة ١٢٤٩ الهجرية وإذا تخيرت هذه السنة دون غيرها من السنوات، فما هو إلا لأن ميزانية الإيراد من هذا التاريخ حتى الآن لم تتغير تغيراً محسوساً.

١٩- إيرادات مصر فى سنة ١٨٣٣

الميرى - أى الضريبة العقارية	٢٨١٢٥٠٠٠	فرنك
الرسوم الشخصية - أى ضريبة النفوس	٨٧٥٠٠٠٠	فرنك
الخراج	٨٠٠٠٠	فرنك
عوائد التركات (بيت المال)	١٥٠٠٠٠	فرنك
عوائد المواشى المخصصة للذبيح	٢٥٠٠٠٠	فرنك
عوائد الوكائل والأسواق فى الوجه القبلى	٤٨٠٠٠	فرنك
عوائد الراقصات والموسيقيين والحواة	٦٠٠٠٠	فرنك
عوائد صب الفضة والمقصب	٥٦٢٥٠	فرنك
عوائد (عشور) النخل	٥٠٠٠٠٠	فرنك
عوائد الصيد فى بحيرة المنزلة	٢٥٠٠٠٠	فرنك
عوائد الملح والقوارب والأسماك	٤٣٧٠٠٠	فرنك
عوائد الحبوب	٤٥٠٠٠٠٠	فرنك
رسوم الجمارك والمكوس	٤٥٠٠٠٠٠	فرنك
عوائد السوائل	٣٠٧٠٥٠٠	فرنك
عوائد السنامكى	٣٤٦٠٠٠	فرنك
عوائد الصيد فى بحيرة قارون والمكوس بالفيوم	٣٢٥٠٠	فرنك

الأرباح الناشئة من الأشياء الآتية:

القطن والنيلة والأفيون والسكر والنبيلذ والأرز والعسل وجمع العسل والحناء وماء الورد وبذر الكتان والسمن وبذر الخس والقرطم والحرير والزعفران والنتر والجير والمصيص والأحجار والنظرون والصودا والملح.

النشادر	١٣٠٠٠٠٠٠	فرنك
الأرباح من دار الضرب (الضربخانه)	٣٧٥٠٠٠	فرنك
الأرباح من الأقمشة	١٥٠٠٠٠٠	فرنك
الأرباح من فاوريقة أقمشة الحرير	١٢٠٠٠٠٠	فرنك
الأرباح من الجلود الخام والمجهزة	٨٧٥٠٠٠	فرنك
الأرباح من مبيع الحصر	٩٢٧٧٨٧٥٠	فرنك
المجموع	١٦٠٨٥١٥٠٠	فرنك

٢٠- المصروفات في سنة ١٨٣٣

فرنك	١٥٠٠٠٠	أموال مرسله إلى الأستانة
فرنك	١٥٥٠٠٠٠	ميزانية الجيش (وكان مؤلفا من ١٥٠٠٠٠ جندي)
فرنك	٥٠٠٠٠٠	مرتبات كبار الضباط ورؤساء المصالح
فرنك	٨١٢٠٠٠	جمكيات الخيالة الأتراك غير النظاميين
فرنك	٦٥٠٠٠٠	أجور العربان
فرنك	١٧٥٠٠٠٠	ثمن أدوات حربية
فرنك	٣١٢٠٠٠	المعينات للعلف والجمال والبغال
فرنك	٢٠٠٠٠٠	المدرسة الحربية
فرنك	٧٥٠٠٠٠٠	ميزانية موظفي البحرية ورجالها
فرنك	١٨٧٥٠٠٠٠	إنشاء مباني حربية
		نفقات ترسانة (دار صناعة) إنشاء القوارب في بولاق
فرنك	٤١٢٥٠٠	نفقات الفاوريقات وأجور العمال
فرنك	٧٥٠٠٠٠	مرتبات موظي الإدارة
فرنك	٢٠٠٠٠٠٠	معينات غذائية للموظفين
فرنك	٦٢٥٠٠٠	معاشات الملتزمين السابقين
فرنك	٤٤٠٠٠٠	معاشات ممنوحة لبعض العربان
فرنك	٧٥٠٠٠٠	مصروفات لإنشاء القصور والفاوريقات والقناطر
		والجسور
فرنك	٢٢٥٠٠٠٠	أشياء مجلوبة من أوروبا برسم الفاوريقات
فرنك	١٨٧٥٠٠٠	مخصصات لصيانة قصور سمو الوالي
فرنك	١٢٥٠٠٠٠	مخصصات غذائية لسمو الوالي
فرنك	٥٠٠٠٠٠	مخصصات لإدارة مشتريات الكاشمير والأثواب
فرنك	١٧٥٠٠٠٠	الحريرية والجواهر الخ
فرنك	٢٥٠٠٠٠	نفقات قوافل الحجاج
فرنك	٤٩٩٥١٥٠٠	المجموع

٥. الوسائل السياسية

تشكيل الجيش المصرى وحسن تأثيره فى الحضارة - المسيو سيف (سليمان باشا) - تنظيم الجيوش النظامية - المشاة المصرية - الفرسان - مدرسة الخيالة - المدفعية أو الطوبجية - مدرسة الطوبجية - الإدارة العسكرية - شوار العساكر (ملابسهم الرسمية) - الرتب.

٢١- تشكيل الجيش المصرى وحسن تأثيره فى الحضارة

كانت الحروب ولا تزال حتى الآن - بالرغم مما تجره وراءها من المصائب والمحن - أقوى عوامل الحضارة وبواعث الرفاهية. فإنه ما انتقل بلد من التعس والشقاء إلى السعادة والهناء، إلا وكانت الحروب رائد هذا التحول الذى كثيرا مما يبقى مقرونا باسم فاتح أو رجل عظيم. ومن فحول الرجال الذين يشار إليهم بالبنان الإسكندر الأكبر وقيصر وشارلمان ونابليون الذين كانوا - قبل كل شىء - من رجال الحرب.

وليس بمستطاع لباحث أن يشهد تأثير الحرب، محسوسا ملموسا فى سائر فروع الحضارة، كما يشهده فى حالة مصر الآن.

فقد كان كل شىء فى هذا القطر ناقصا بل معدوما، وكان يجب لإيجاده من العدم البدء فى خلقه وتكوينه. وهو ما حدث فى مصر على أثر تنسيق النظام العسكرى.

ناصب محمد على الفرنسيين العداء واشتبك معهم فى معارك عدة فأدرك مزايا العمل فى الحرب بمقتضى فنونه وسياسته، وكان همه قبل كل شىء اتخاذ التدابير لصيانة المركز الذى بلغ إليه من الولاية على شئون مصر، فرأى أن هذه البغية لن تنال إلا بقوة السلاح. فاتجهت جهوده منذ هذا الحين إلى تشكيل الجيش. فالجيش الذى شكله بيده هو الذى كفل له الأمن فى الداخل والقدرة والشوكة فى الخارج.

ولقد كان من وراء تشكيل جيش منتظم لمصر على المثال الذى حبذه وتوخاه، نتائج عامة جزيلة النفع، أولا لأن هذا التشكيل كان من شأنه تعويد

الأمة المصرية النظام، بعد إذ لم تألف سوى الاختلال والفوضى، حتى ذلك العهد، ولم تعامل بغير الضراوة والاقتراس من جنود الأتراك والأرنؤود الذين اشتهروا بالعصيان والخروج على النظام والسير بالعنف والشدة بين الناس والنزوع إلى الفتن في كل آن.

وكان من نتائج ذلك التنسيق أيضا، أنها أحلت وحدة العمل وترتيب الدرجات من المرؤوس إلى الرئيس وسير الأحوال على النهج القويم وهيبة السلطة، محل الانحلال والاختلال والضعف وغيرها من العيوب التي كانت فاشية في كل مكان. ولقد رفع من شأن الشعب المصري بأن جعل له روحا وطنية استرد بها ما فقدته من الثقة والاعتزاز بنفسه وغيرهما من العواطف التي لا بد منها لكل أمة تلتمس الحياة في ظل الاستقلال. أما النتائج العملية لذلك التنسيق فكانت أكثر عددا وأعظم أهمية، إذ من المستطاع القول بأنه هو الذي كان الباعث على ما شهدته مصر من أطوار التقدم خلال السنوات الأخيرة.

وكان لابد في تنظيم الجيش بحسب الأساليب والأنظمة الجديدة، من معلمين يتولون تدريب الجنود على فنون الحرب. وكان لا مناص، لإصابة هذه الغاية، من الالتجاء إلى المسيحيين لاختيارهم من بينهم، وتعويد العساكر الخضوع بالرغم مما هنالك من الاختلاف في العادات، وأخذ الفنون العسكرية عنهم من زحف واستعمال أسلحة وتعبئة جيوش وطاعة للرؤساء والنظام المسنون ودقة في جميع الأمور الحربية. وبدأ التنسيق بتدريب العساكر، ثم بدت الحاجة إلى الضباط اللازمين لتولى قيادتهم فأدت إلى نشر تعليم الرياضيات والرسم والجغرافيا وفن تدبير القتال الخ.

ولما تم تشكيل الجيش، قضت الضرورة طبعاً بالنظر في مداركة حاجاته وتدبير شئونه والعناية بأمره، من لبس وإقامة في ثكنات تبني خصيصاً له وتخصيص أطباء لمعالجة المرضى منه. واستلزمت مسألة التسليح وإعداد المعدات العسكرية إنشاء دور الصناعة (الترسانات) والفاوريقات. وتعد الجيوش عادة، ضمن أسلحتها، المدفعية والفرسان وفرقة الهندسة الحربية. فللقيام على تدبير هذه الأسلحة التي يرجع أمرها إلى العلم، عني بتوسيع نطاق التعليم، فأرسل الشبان من الأتراك والمصريين إلى أوروبا لتلقى علوم

الحرب فى مدارسها، وغيرها من العلوم والحرف التى لها مساس بعيد أو قريب بالحرب وشتونها.

٢٢- المسيو سيف (سليمان باشا)

الذين عهد إليهم تشكيل جيش الوالى بمقتضى النظام الجديد كانوا جميعا من ضباط عهد الإمبراطورية الفرنسية والإيطاليين الذين حالت حوادث السياسة دون مواصلتهم العمل فى وظائفهم فنزحوا من بلادهم قاصدين إلى الشرق. وكان من أعظمهم كفاءة وأوسعهم علما وأحسنهم استعدادا المسيو (سيف) ملازم الركاب سابقا لكل من الماريشال (نى) والماريشال (جروشى).

ومع رغبتنا الصادقة فى أن لا نغبط حق أحد ما من أولئك الضباط الأبطال الذين كانوا خير معاون له على أداء المهمة التى عهدت إلى كفاءته، لا يسعنا إلا الاعتراف برجوع الفضل إليه فى إنجاز تنسيق الجيش المصرى بمقتضى النظام الجديد على أتم ما يرام.

ولد المسيو (سيف) موفقا للقتال. فقد دخل مبكرا فى الخدمة العسكرية عام ١٨٠٤ ومضى على التعاقب بالأسلحة المختلفة فكان له من ذلك خير نهضة لتوسيع نطاق معلوماته، وتنمية كفاءته وحذقه وتدريبه على أنواع الرياضات البدنية التى كان يساعده على أدائها قوة بدنه ومثانة أساطينه. وكان من سلامة الطبع ودمائة الخلق وسعة الصدر بحيث اقترنت جهوده بالنجاح فى القيام بأعباء المهمة الكبيرة، مهمة تشكيل الجيش على النظام الجديد. وقد كان هذا الفوز مما وجه إليه الأنتظار، وجعل كلا من الوالى وإبراهيم باشا يقدران كفاءته وينزلانه المنزلة اللائقة به إذ رقى بالتعاقب إلى رتبة بكباشى ثم إلى رتبة أميرالاي، وكان حائزا عليها حينما قام بالحرب فى شبه جزيرة (مورة) بعد أن منح لقب البكوية. ولما انتهت الحملة المصرية ببلاد اليونان وعاد معها إلى مصر، رقى إلى رتبة أمير لواء، ثم إلى رتبة أمير ميران مع لقب الباشوية بعد انتهاء حملة الشام. وكان ما أبداه من الصفات العالية أثناء خدمته باعثا من بواعث إعجاب الدوق دى راجوز به. لهذا لا أجد بأسا من إيراد رأى هذا الماريشال الشهير فيه منقولا بالحرف الواحد مما كتبه. قال:

« كان سليمان باشا نافذ البصيرة في رؤية طويل الروية في عمله، وكان كلما ارتفع درجات في سلم الترقى ازداد استشعارا بثقل مسئوليته تبعا لانفساح أفق سلطته. إذ كان من أصحاب النظر في الكتب والاطلاع على ما تحويه من نفائس العلوم والفنون، وسنحت الفرص له مرارا لتطبيق العلم على العمل فاغتنتمها فقد أصبح بحق في طليعة ذوى الفضل الكبير والكفاءة العالية. بل إنه وصل في هذا الميدان إلى حد يجيز لى أن أقرر هنا أن ما لم تسمح له ظروف الحياة بتعلمه، قد أدركه وعمله بطريق الحزر والتخمين. ذلك لأنه قام بخدمته في فرنسا وحارب معنا حينما كان في الرتب الصغيرة. فاستظهر أسرار الحروب الكبرى على طريق التخمين كما قلنا، وكللت الحروب التي اشترك فيها لأجل مصر بالنجاح والفوز الباهر. وهو يحدث عن هذه الحروب حديثا عجيبا، وله فيها من الآراء ما يطابق الصواب دائما، سواء فيما يختص بتنظيم الجيوش وحركاتها أو بالمبادئ التي ينبغى أن تكون قاعدة هذا التنظيم وهذه الحركات. وصفوة القول أنه قائد مدرب سيحرز ما هو أهل له من الالتفات والإعجاب لدى أركان حرب البلدان الأخرى».

٢٣- مبادئ تشكيل الجيوش النظامية

أذكر فيما يلي بيان مبادئ تنظيم الجيوش النظامية في مصر فأقول:
قدم محمد على إلى المسيو (سيف) خمسمائة من مماليكه كى يعلمهم استعمال السلاح ويدربهم على فنون الحرب. وما من عظيم من عظماء القطر إلا وقدم عددا من مماليكه لهذا الغرض، حتى بلغ عدد أولئك الشبان ألفا. وكان المقصود أن يكونوا نواة الجيش المصرى، غير أنه لم يكن ميسورا حملهم على رعاية النظام وتلقينهم تلك الفنون فقرر الوالى إرسالهم إلى أسوان، لا ليطيعوا أمره فقط. بل أيضا ليحول بينهم وأسباب اللهو ويمنع ظنون ذوى التعصب والأوهام الباطلة من التحويم حولهم. وكان الوالى قد أنشأ بتلك الجهة أربع ثكنات فسيحة وضع فيها أولئك الألف من التلاميذ وأخذ يعلمهم قواعد فنون الحرب.

وكان تعليمهم مبادئ هذه الفنون يستدعى قضاء ثلاث سنوات تقريبا، فاعترضت هذا النظام موانع كثيرة، لم تلبث أن ذلت وأزيلت من الطريق. وكان من أهم هذه العقبات ما فطر المسلمون عليه من الشمم وإياء الضيم

والصفات النفسية التي تحول دون رضوخهم لمعلمين مسيحيين. وكان النظام والسكوت اللذان لا بد منهما أثناء المناورات العسكرية مما لا يروق لتلك الجماعة من شبان اعتادوا - منذ نعومة الأظفار - الألعاب والتمارين التي تتخللها الضوضاء والحركة واختلال النظام. فلقد دبّروا المؤامرات مرارا ضد المسيو (سيف) لاغتياله، وبلغ من أمرهم معه أنه كان ذات يوم يدير تمرينات ضرب النار، فإذا بأحدهم أطلق عليه رصاصة مرت بجوار أذنه وسمع صفيرها. فلم يفقد شيئا من ثبات جأشه بل أستأنف التمرين الناري نفسه وأمر التلاميذ بإطلاق النار من جديد.

وحدث مرة أخرى أن نزع التلاميذ إلى الفتنة وتهددوه بالتنكيل به، فاقترح عليهم أن يبارزوه بالسيف جميعا بعضهم تلو بعض قائلا: إنه يريد بذلك أن يقيهم معرة الجبن، إذا قتلوه غيلة. فلم يسع الثائرين إزاء هذا التسامح الغريب والبسالة النادرة إلا أن كسروا من شدة حدتهم. وبعد إذ كانوا ناقلين عليه صاروا أولياء له . ولقد تمكن بفضل هذه العواطف من إتمام تعليمهم في مدة ثلاث سنوات وبعد أن تكونت على المثال المتقدم الهيئات الأولى من الضباط، شرع في حشد العساكر وتكوينهم. وكان الوالى لا يذهب إلى اختيارهم من الأتراك أو الأرمن، لإقضاء الجهود التي بذلت في سبيل تنظيمهم إلى الفشل والخيبة، بسبب أنهم كانوا يجهلون النظام ويكرهون بفطرتهم الرضوخ لأحكامه. وكان من جهة أخرى لا يميل إلى المجازفة بأخذهم من المصريين فلم يجد بابا لحيلة مفتوحا أمامه إلا الاعتماد على تجنيد السودانيين من أهل كردفان وسنار. ولقد جند فعلا منهم ثلاثين ألفا، وأرسلهم على الفور إلى بنى عدى بالقرب من متفلوط في الوجه القبلى على الضفة اليسرى للنيل. وفي الوقت الذى وصلوا فيه إليها، أخذ شبان المماليك الذين تلقوا العلوم العسكرية بأسوان يبرحونها قاصدين الجهة الآتفة الذكر لتولى الرياسة على أولئك العساكر السودانيين، وما أقبل شهر يناير سنة ١٨٢٣ حتى تألفت الأورط الستة الأولى، وعين أولئك المماليك ضباطا وقضيت سنة ١٨٢٣ كلها ثم الأشهر التالية إلى يونيو سنة ١٨٢٤ في إتقان التعليم العسكرى وترقيته. ولما لاح للوالى نجاحه أنفذ بالأورطة الأولى من تلك الأورط الست إلى بلاد العرب الوسطى، وبالأورطة الثانية إلى سنار وبالأربع

الباقية إلى شبه جزيرة مورِه تحت إمرة إبراهيم باشا.

على أن هذه التجارب الأولية لم تتوج كلها بالنجاح، فإن السواد الأعظم من السودانيين الذين جندوا من كردفان وسنار فشا بينهم الموت لعدم موافقة جو مصر لأمزجتهم. دع أنهم كانوا لا يصلحون في الحقيقة لتحمل أعباء الخدمة العسكرية كما ينبغي.

وكان لا يمر يوم إلا ويزداد شعور الوالى فيه بالحاجة إلى جيش منظم لتنفيذ مقاصده العالية وبلوغ مطامحه البعيدة. فاعتزم حشد الجنود من المصريين. وكانت هذه المجازفة محفوفة بالأخطار الكبار، كما يثبتته تدمير الأمة المصرية ونزوعها إلى الهياج في جهات متعددة حتى اضطرت الحكومة إلى التدخل لإخمادها. ولكن لما رأى الفلاحون الذين انتظموا في سلك الجيش ما يعاملون به من الرعاية وحسن العناية بشئونهم، ورأوا أنهم يتغذون ويلبسون أحسن مما كانوا في بيوتهم، انتهى الأمر بهم إلى اعتياد حالتهم الجديدة والاغتراب بها.

ولما عظم شأن التنسيق العسكرى بحسب النظام الجديد وظهرت أهميته للناظرين، استدعت الحكومة من فرنسا الجنرال (بوابين) والكولونيل (جودان) وجملة من كبار الضباط الذين كان لهم الأثر الظاهر في إتمام ذلك التنسيق على خير ما يرام.

٢٤- المشاة أو البيادة المصرية

كان تشكيل جنود المشاة المصرية أول ما استرعى أنظار الحكومة واستدعى عنايتها. فلا عجب إذا ظل هذا التشكيل موضوع اهتمامها المستمر، حتى أنها أنشأت بثغر دمياط مدرسة لتخريج الشبان اللازمين للاندراج في سلك الجيش كصف ضباط أو ضباط. وبهذه المدرسة الآن أربعمئة تلميذ يدرّبون على المناورات الحربية والإدارة العسكرية ويتلقون اللغات العربية والتركية والفارسية. وناظرها ضابط من مقاطعة (بييمونت) وهو المسيو (بولونى) الذى كان ضابطا برتبة اليوزباشى في عهد الإمبراطورية. وقد ترقى في مصر إلى رتبة القائم مقام مكافأة له على ما أداه من الخدمات الجليلة كمعلم لفنون الحرب وإشعارا بما أحرزه من النجاح في مهمته.

ولقد شهد الدوق دى راجوز فيلقا من المشاة المصرية أثناء قيامه
بالمناورات فكتب ما يأتى:

« كان لواء المشاة المؤلف من الأورطة التاسعة والأورطة العشرين متأهبا
لرحيل إلى السويس للإبحار منها إلى الحجاز لتعزيز الحملة المصرية فيه.
فتوليت بنفسى عرضه فقام بالمناورات أمامى مدة ثلاث ساعات فى سهل
القبة القريب من قبور الخلفاء وقبر الملك العادل فرأيت منه ما استوجب
سرورى وإعجابى . وكان عساكر اللواء المذكور فى مقتبل العمر، فتيسر بذلك
لى الحكم بما كان للقائد الأعلى للجيش من الأثر الجليل فى تشكيله والحق
يقال، فإن العساكر الذين عرضتهم جمعوا إلى الدراية بالأساليب العسكرية
حسن الهيئة ودقة المحافظة على النظام.

٢٥- الخيالة أو الفرسان

لم يبدأ تشكيل الخيالة بحسب النظام الجديد إلا عقب عودة الجيوش
المصرية من حرب مورة. فإن إبراهيم باشا كان قد رأى فى هذا البلد الخيالة
الفرنسيين، فأدرك ما يكون من الأهمية للفرسان الذين يعملون جماعات أو
شرانم أو أورطا، والامتياز على الفرسان غير المنتظمين، وأن هذا الامتياز يشبه
نظيره فى المشاة المنتظمة بالنسبة له فى المشاة غير المنتظمة. وبمجرد عودته
إلى مصر صرف همهته بنشاط ومثابرة إلى تشكيل الخيالة بحسب النظام
الجديد واستدعى لهذا الغرض المعلمين الأوروبيين وشكل أورطا عديدة من
الفرسان على اختلاف أنواعها. من صيادة ومدرعة ورماحة الخ.

٢٦- مدرسة الخيالة

أنشئت مدرسة الخيالة فى الجيزة بقصر مراد بك. وقد طبق عليها حديثا
نفس النظام المعمول به فى مدرسة الخيالة بمدينة (سومور) بفرنسا مع
رعاية ما اقتضاه المكان من اختلاف بعض التغيير والتبديل. ويتعلم بهذه
المدرسة شبان من الأتراك والمصريين — مختلطين بعضهم ببعض — ضروب
المناورات على الخيل والقدمين والرسم والمبارزة والإدارة العسكرية.

قال الدوق دى راجوز: « وقد بلغت هذه المدرسة درجة الكمال وسيكون
لها التأثير العظيم فى مستقبل الجيش المصرى»، ويتلقى العلم بها الآن

ثلاثمائة وستون شاباً منقسمين إلى ثلاث فرق. والذي قام بإنشائها ويتولى إدارتها الآن هو القائم مقام (فاروق) الذي كان فيما سبق ملازماً لركاب الماريشال (جوفين سان سير).

وعلى أثر رحيل الدوق دى راجوز من مصر أنعم على المسيو (فاران) برتبة البكوية ورقى مير الايا. وهى مكافأة عادله على خدمه الجلييلة لمصر ولسمو الوالى.

٢٧- المدفعية أو الطوبجية

شكلت المدفعية النظامية فى الوقت نفسه الذى شكلت فيه المشاة النظامية. وغنى عن البيان أن الذين أنشأوها طبقة من المعلمين الأوربيين وجماعة من الضباط السابقين فى عهد الإمبراطورية. ومن الأتراك الذين تفرغوا لإتقان هذا السلاح جماعة فازوا فيه بالقدح المعلى، وفى مقدمتهم الضابط القدير أدهم بك، وهذا الضابط الممتاز هو الذى أنشأ معامل صنع السلاح والمدافع الموجودة بقلعة القاهرة ويقوم الآن على إدارتها. ولقد أشار الماريشال (دى راجوز) إلى تلك المعامل، وهو ممن يوثق بحكمهم فى مثل هذه الموضوعات، فقال: «إنه لايسع من شهادتها إلا الإطراء فيها» وإنه ليسرنى بهذه المناسبة أن أثبت هنا رأى الماريشال فى كفاءة أدهم بك وحكمه على ذكائه واقتداره. قال: «لقد تعلم أدهم بك اللغة الفرنسية بقوة إرادته وعلى غير أستاذ، وهو صحيح اللهجة فيها. وتعلم الرياضيات بفروعها فقبض على ناصيتها وأحاط بشتات المعلومات الخاصة بفن الطوبجية. وأرى أنه يناظر فيها أحسن ضباط المدفعية وأمهر مديرى الأدوات المتعلقة بها، وأنه أقدر من عرفتهم من الناس فى الشئون الإدارية. ولا شك أن محمد على كان صادق النظر حينما اختار مثل هذا العامل النشيط. بل كان سعيد الطالع بعثوره على مثله.

٢٨- مدرسة المدفعية أو الطوبجية

أنشئت ببلدة طره، منذ سنوات، مدرسة للمدفعية تحتوى الآن من ثلاثمائة إلى أربعمائة تلميذ. يعلمون اللغتين العربية والتركية والحساب والجبر والهندسة والحيل (الميكانيكا) والرسم والاستحكامات، وكل ما هو صالح من

العلوم العالية للتطبيق على المدفعية. ولقد أدى - البرتغالى الميرالاي (ساجرا)
الذى تولى إدارة هذه المدرسة سنوات عديدة ورقى من فيض أنعم سمو الوالى
إلى رتبة أمير لواء - خدما جليلة لها - وألحقت بالمدرسة أورطة لمدفعية المشاة
وأورطة أخرى لمدفعية الفرسان. وأنشئ لها ميدان ضرب نار (بوليجون)
يصلح فى آن واحد للجنود والتلاميذ.

وهاك ما ذكره عن هذه الجنود الدوق دى راجوز الذى لايسعنى إلا
الاعتماد عليه والاستمداد بآرائه الصائبة وأفكاره العالية فى الموضوع. قال:
« تحركت أمامى أورطة المدفعية الراكبة للمناورات، وكانت مؤلفة من ستة
بلوكات، فقامت بها على أتم ما يكون من الترتيب والدقة وبأقصى ما يراد من
السرعة.

وكان رجالها على ما يرام من حسن الهيئة وسعة العلم والدربة ونظام
الحركات العسكرية، كما كانت مركبات المدافع مستوفية لشروط الإتقان،
وإن تكن الخيل التى تجرها صغيرة الجسم. وكل خيل القطر المصرى من هذا
القبيل. ورجال المدفعية مجهزون بما يلزمهم تجهيزا حسنا، وهم لا يخطئون
الهدف بل يصيبونه بدقة وسرعة. فالمدفعية المصرية جامعة لشروط الكمال
والإتقان وتشبه من هذه الجهة مدفعات الجيوش الأوروبية. وأمير آليها من
الرجال الأكفاء الممثلين نشاطا وغيره. أما أورطة المدفعية المشاة فتتألف من
ثمانية عشر بلوكا وقد قامت بتمريناتها أمامى فألفيت أن مدافعها كانت
تصوب مقذوفاتها نحو الهدف تصويبا حسنا. أما نار مدافع الهاون، فكانت
أقل ضبطا منها وإحكاما.

« ولا يسع الرأى لهذه المدفعية إلا الإعجاب بالقوة التى حولت الفلاحين
الذين ديدنهم الاستنامة إلى الدعة والسكون، إلى جنود على جانب عظيم من
البسالة والإقدام ».

وأستمح الدوق دى راجوز الإذن لى بإيراد آخر عبارة كتبها فى هذا
الموضوع، على سبيل الحكاية، فقد قال: « ومتى تخرج من المدارس نحو ألفين
أو ثلاثة آلاف من تلاميذها، وهو ما لابد حاصل فى بضع سنوات إن شاء
الله، فإن الجيش المصرى يكون قد تم تشكيله بحسب النظام الحديث
فيبارى أمثاله فى الديار الأوروبية ».

٢٩- الإدارة العسكرية

نسقت الجيوش المصرية كلها من مشاة وفرسان ومدفعية على نمط الجيوش الفرنسية. واتبع فيها ما هو متبع عندنا من الأساليب والأنماط في أداء الحركات والسير، وسلكت في نظامها الموسيقى العسكرية. وتم التشاكل من كل وجه تقريبا فلم تبق مغايرة إلا في النداء بالأوامر التي يصدرها الضباط إلى الجنود فإنه حاصل باللغة التركية لأنها من أنسب اللغات لأداء هذا الغرض. وطبقت على الجيش المصرى القوانين والأوامر التي يدار بمقتضاها الجيش الفرنسى تطبيقا دقيقا محكما. وبلغ من المغالاة في التقليد والأخذ عنا أن الرتب العسكرية في ذلك الجيش مطابقة بالضبط لها في هذا.

وقد أنشئت منذ البداية، للقبض على زمام الجيش وإدارة شئونه، نظارة على نظام أبسط من نظامها عندنا، مع توسع في اختصاصاتها. فنظارة الحربية المصرية هى المنوط بها جميع ما يورد إلى الجيش من سلاح ومعدات ووثياب. وهى التى تستخرج من مخازن الحكومة ومستودعاتها ما يلزمها من الذخائر والمؤن الغذائية والأدوية الخ.

وإدارة الفيالق فى الغاية القصوى من البساطة والخلو من التعقيد فإنها لا تحرر عقودا بشراء، ولا تساوم أحدا على ثمن ولا تطلب اعتمادا من أحد ولا تحول اعتمادا من باب إلى غيره. وفى اتباع هذا الأسلوب الساذج وقاية من الاختلاس والسرقة أما مصلحة الصحة، فقد جعل النظام الفرنسى قاعدة لتنسيقها وترتيبها، مع شئ من التعديل الذى يتطلبه اختلاف البيئات. ولكل أورطة من الموظفين والأدوات العدد اللازم والمقدار الكافى لتشكيل المستشفيات الخاصة بالأورط كلما مست الحاجة. وسنفيض فى الكلام على هذا الموضوع بالفصل الذى سنشرح فيه حالة الطب فى القطر المصرى.

وأغذية العساكر عبارة عن معينات من الخبز واللحم والأرز والعدس والسمن والزيت والصابون، وكلها من الصنف الجيد وبالمقادير الكافية.

٣٠- شوار = لبس = الجنود

شوار الجنود - أى ملابسهم الرسمية المتشابهة، فى الغاية القصوى من البساطة. وهى، على صلوحها وفائدتها، حافظة للزى الوطنى الأصلى بقدر المستطاع لتألفها من طربوش أحمر، (والعقائد الدينية تحول دون اتخاذ قلنسوة تشبه قبعة المسيحيين) وصدرية كالشعار متشابكة على الصدر

ومحشورة في السروال. والسروال يثبت بتكة على الوسط ويذهب عريضا واسعا إلى الركبة حيث يضبط برباط الساق (القلشين)، ويدار على الجسم حزام. والملابس تكون من الجوخ لفصل الشتاء ومن قماش القطن السميك لفصل الصيف. ويلبس الفرسان ورجال المدفعية ورجال الحرس، شتاء، صدرية زرقاء اللون وغيرهم صدرية حمراء. وفي الصيف يرتدى رجال الجيش كله الملابس البيضاء ويحملون أحذية تركية من الجلد الأحمر. وأما مجموعة الأدوات الجلدية الخاصة بالسلاح فبيضاء اللون للمشاة والفرسان وصفراء للمدفعية. ولا يختلف شوار الضباط عن شوار العساكر إلا في نوع الجوخ وما هو مجمل منه من الوشى، واللون الأحمر خاص بالضباط أما الشارات التي تميزهم بعضهم عن بعض بحسب مراتبهم ودرجاتهم فهي: يحمل الأونباشى شريطا واحدا على الصدر والجاويش شريطين والباشجاويش ثلاثة. أما الملازم الأول فيحمل على الصدر من ناحية اليمين نجمة فضية، واليوزباشى نجمة وهلالا فضيين والصاغقول أغاسى هلالا من الذهب ونجمة فضية، والبكباشى هلالا ونجمة من الذهب والقائمقام هلالا من الذهب ونجمة من الماس، والميرالاي هلالا ونجمة كلاهما من الماس وأمير اللواء نجمتين في هلال، وكلها من الماس، والميرميران ثلاثة نجوم في هلال وكلها من الماس.

٣١ - الرتب في الجيش

الرتب في الجيش كما يأتي:

الأونباشى	رئيس العشرة
الجاويش	
الباشجاويش	مساعد اليسار
الصول قول أغاسى	التالى الثانى للرئيس يساعده وينوب عنه
الملازم الثانى	التالى الأول للرئيس يساعده وينوب عنه
الملازم الأول	رئيس المائة
اليوزباشى	مساعد اليمين
الصاغقول أغاسى	رئيس الألف
البكباشى	الذى ينوب مناب الميرالاي
القائمقام	أمير الآلاى
المير الالى	أمير اللواء
المير لواء	أمير الأمراء
الميرميران	رئيس القواد
السر عسكر	

وأمرء الآليات وأمرء الألوية يحملون لقب البكوية. أما الميرمرانات فيحملون لقب الباشوية ذات الذنبين.

٣٢- المرتبات والمهيات

مرتب الجندي البسيط خمسة عشر قرشا في الشهر - أى ما يعدل صليدين ونصف صلدى في اليوم. ومرتب الأونباشى خمسة وعشرون قرشا، والجاويش ثلاثون، والباشجاويش أربعون، والصولقول أغاسى ستون، والملازم الثانى مائتان وخمسون، والملازم الأول ثلاثمائة وخمسون، واليوزباشى خمسمائة، والقائمقام ثلاثة آلاف، والميرالاي ثمانية آلاف والميرلواء أحد عشر ألفا، والميرميران اثنا عشر ألفا وخمسمائة.

ومرتبات كبار الضباط جسيمة، على ما يؤخذ مما تقدم، وسبب ذلك أن سمو الولى كان يريد استمالة الأتراك إلى النظام الحديث في الجيش على أثر ما أبدوه من النفور الشديد منه، دع أن الرؤساء في الجيش تدعوهم طبيعة مركزهم إلى بسط اليد بالنفقة.

٣٣- الطاعة للرؤساء

الطاعة للرؤساء في الجيش المصرى جارية على مثالها في الجيش الفرنسى. فإن القانون العسكرى الفرنسى، الباحث في هذا الموضوع، قد ترجم من اللغة الفرنسية ليعمل بنصوصه. وفي بادىء الأمر، اضطر إلى استعمال الجلد عقابا للمخالفين. ولكن سمو الوالى وإبراهيم باشا حصرا استعماله في دائرة ضيقة والهمة متجهة الآن إلى إلغائه بالمرّة.

٣٤- الروح العسكرية في المصريين

ربما كان المصريون من أصلح أهل الأرض لأن يكونوا أفضل الجنود وأحسنهم. لأنهم بوجه عام يمتازون ببداثة الأجسام وتناسب الأعضاء والقناعة بالقليل والقدرة على العمل واحتمال المشاق والأتعاب. ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامتثال للأوامر والبسالة والثبات عند الخطر، ومقابلة النوازل والمحن بالاتكال والصبر والانصراف نحو النار وتوسط معامع القتال، بلا وجل ولا تردد. والحوادث للدلالة على ذلك كثيرة نكتفى منها بما يأتى:

حدث فى معركة حمص أن جنديا من الأورطة السابعة الفرسان يدعى منصورا انتزعت ذراعه من جسمه بقنبلة فأبى - وهو فى هذه الحالة - التراجع عن ميدان القتال. بل تقدم رجال كتيبته حاملا على العدو بأشد ما يكون من البأس والبسالة. وظل يحارب إلى أن مات.

وحدث فى معركة (قونيا) أن ترك جميع الجرحى الذين كانوا يستطيعون حمل السلاح، أسرتهى فى المستشفى قاصدين إلى ميدان القتال لمساهمة = مشاركة = إخوانهم مجد الانتصار أو شرف الموت.

وفى تلك المعركة سقط جندى من الأورطة الرابعة الفرسان من ظهر جواده مصابا بجرح، فلما شهده أمير لوائه أحمد المنكلى سارع بتقديم جواده إليه، لكى يرجع إلى الساقاة. فأبى الجندى قائلا إنه يفضل البقاء فى ميدان القتال ليشهد إخوانه منتصرين، ولو لقى حتفه.

وفى إحدى المعارك أصيب فتى من جنود الأورطة الخامسة عشرة بجرح، ورأى رفاقه فى فصيلته يذهبون كل مذهب فرارا من العدو. فعلى الرغم من استنهار جرحه واحتدام نار القتال حوله لم يكف عن النفخ فى بوقه بإشارة الاستمرار على الحملة ومتابعة الهجوم، ولم يتراجع خطوة واحدة إلى الوراء. ولما شهد زملاؤه الفارون فعله عراهم الحياء من رؤيته، وهو فتى صغير جدا، يضرب لهم أمثال الشجاعة والبطولة ببسالة فلموا فى الحال شعتهى وجمعوا قلوبهم ثم عادوا إلى القتال ليثأروا لشرفهم الذى تلمه العدو برهة ما من الزمن.

ومن أهم الحوادث وأجدرها بالذكر — لا سيما وأن فيها ما يذكر بشهامة الفرنسيين وبسالتهم — أن سليمان باشا كان ذات يوم يعرض أورطة وصلت إليه حديثا. فوقع نظره على فتى نحيل ضئيل فى السادسة عشرة من عمره يدعى بالحاج على، فهم سليمان باشا برفضه معترضا على تجنيد مثله، وهو فيما يشاهد من ضعفه وظهور علامات المرض على وجهه فأبى الحاج على إلا أن يبقى تحت السلاح قائلا لسليمان باشا إنه لسوف يكذب سوء ظنه فيه ويدحض خطأ حكمه عليه فى أول نهزة ينتهزها لذلك.

وكان الجيش المصرى ضاربا الحصار على (عكا) فخرجت الحامية يوما

وتغلبت على المشاة المصريين وألزمت جنود الأورطة الثامنة المقاتلة في الجبهة ملازمة الهزيمة. فتقدمت الأورطة الثالثة من الفرسان التي كان الحاج على منتظما في سلكها لتعزيز جانب أولئك الجنود، وحملت حملة باهرة صدت فيها المحصورين إلى مواقعهم. ولكن الحاج على لم يكفه أنه شاطر رفاقه فخار فوزهم. بل أنقذ بيده يوزباشيا كان على وشك الوقوع في أسر العدو. ثم انقض على ضابط تركي فأسره، وجاء بالضابطين المصري والتركي إلى سليمان باشا وقال له: «ألا تزال تعتقد أنني جندي لا أصلح لشىء؟».

وكان الأتراك، لما يشعرون به من علوهم وكبريائهم يحتقرون المصريين ولا يكثرثون بهم. ويعتقدون بهم العجز عن مجاراتهم. ولكن حرب مورة أثبتت لهم بالبرهان القاطع أن ذلك الشعب الخجول المنجم، الذى أذله الضغط والعسف، قدير على استرداد مجده القديم وأهل لمنازعتهم على فخر النجاح والفوز في القتال. ولقد أثبت لهم فتح الشام وانتصارات (حمص) و(بلان) و (قونيا) سموهم الذاتى عليهم باعتبار كونهم أفرادا كما أثبت شوكتهم باعتبار أنهم جموع مسوسة بقواعد علم خطط القتال وتدبيره.

على أن المصريين الذين يستحقون هذا الإطراء العظيم بوصف كونهم جنودا، لا يستحقونه أبدا متى وصلوا في مدارج الترقى إلى مراتب القيادة، لأنهم في المراتب العالية لا يشعرون بكرامة مراكزهم الجديدة ووجاهتها فهم يغايرون العثمانيين والمماليك في الأهلية للقبض على زمام القيادة، وسرعان ما يتحولون إلى عادتهم القديمة بما اضطر سمو الوالى وابنها إبراهيم، على الرغم منهما، إلى العدول عن ترقيةهم وترفعيهم إلى المراتب السامية في الجندية.

وتلقاء هذا النقص، أسندت إلى المماليك والأتراك في الجيش المناصب العليا. وليس بمستبعد أن تكون قلة أهلية المصريين للقيادة من الظروف الملائمة لجريان الأحوال على مقتضى الواجب. فإن الشعب المصرى سريع القلب عديم الثبات إلى حد يخشى معه. فيما لو سلمت قيادة الجنود إلى ضباط منه، نزوعهم إلى الهياج والثورة. أما وقد وضع النظام على الترتيب السابق فإن العساكر يخضعون لضباطهم، ويستطيع هؤلاء إلزامهم بتنفيذ أوامره ما يتخذونه من وسائل الاحتياط والتحفظ لذلك. لاسيما وأنهم لا يستطيعون الاعتماد عليهم، كما لو كانوا من أبناء جنسهم والشعور العائلى

من أخص صفات المصريين، فهم لا يستغنون عن الأنس بنسائهم. ولقد أذن لهم من أجل ذلك بأن يكون معهم بعض أقاربهم وبأن يتزوجوا أيضا. ولولا هذا الاحتياط لتعذر صدهم عن الاندفاع في تيار العصيان والشغب ومنعهم من التشرذ. على أنه لما يهيم في بلد قليل عدد السكان كالقطر المصرى، أن يساعد الخمسون أو الستون ألفا من الجنود المصريين، بزواجهم وهم في الجيش، على تكثير النسل. ومفهوم أنه إذا تحرك الجيش للقتال يفارق هؤلاء الجنود زوجاتهم وأولادهم ويزحفون وحدهم إلى ميدان القتال. وتهتم الحكومة، في مثل هذه الحالة، بأطفالهم وتتولى الإنفاق عليهم فترتب من التعيينات الغذائية لكل منهم ما يعدل نصف المرتب الذى يتقاضاه آباؤهم.

٣٥- جدول القوات العسكرية المصرية وتوزيعها

نذكر فيما يلى بيان القوات العسكرية المصرية قبل الحرب الأخيرة:
حرس صاحب السمو الوالى، وهو مؤلف من أورطة من المدفعية وثلاثة آليات من المشاة وآلايين من الفرسان أى من ١٢٠٠٠ عسكرى.
حرس شرف السر عسكر، وهو مؤلف من ٥٠٠ عسكرى
أورطة أساس الضباط، وهى مؤلفة من ٨٠٠ عسكرى
خمسة آليات من المدفعية منها ثلاثة من المشاة واثنان من المشاة الراكبة وعدد عساكرها ١١٦٠٠
ستة عشر بطرية كل بطرية مؤلفة من ستة مدافع، وعدد عساكرها ١٨٠٠
الآلى الحملة مؤلف من ١٢٠٠ عسكرى
أورطتا هندسة وعدد رجالهما ١٦٠٠
ستة وثلاثون آليا من المشاة وعدد عساكرها ١١٥٠٠٠
خمسة عشر آليا من الفرسان عدد عساكرها ١٢٠٠٠
جيوش غير نظامية مؤلفة من الكريديين والأرنؤود والعربان، وعددهم ٢٦٠٠٠ مقاتل
المجموع ١٨٠٠٠٠ تقريبا.
وهاك عدد عساكر جيوش محمد على الآن وبيان الجهات التى يقيمون بها:

جيوش نظامية

عدد العساكر	محل الإقامة	بيان الجيوش
١٣٧٢	حماه	الآلاى الأول من طوبجية الحرس
٢٣٤٩	الإسكندرية	الآلاى الثانى من طوبجية المشاة
١٩٤٩	حلب	الآلاى الثالث من طوبجية المشاة
٩٨٢	حمص	الآلاى الأول من طوبجية الراكبة
١٠٠٧	دمشق	الآلاى الثانى من طوبجية الراكبة
٣٣٧	عكا	أربع فصائل من طوبجية متفرقة
٣٧٩	الحجاز	الأورطة الأولى من المدفعية
٣٠٤٨	عينتاب	الآلاى الأول من مشاة الحرس
٢٦٤٥	مرعش	الآلاى الثانى من مشاة الحرس
٢٤٣٥	حلب	الآلاى الثالث من مشاة الحرس
٤٥٤٧	السودان	الآلاى الأول من المشاة
٢٢٥١	عينتاب	(الأورطة الخماسة)
١٥٢٦	اليمن	الآلاى الثانى من المشاة
٢٥٩٣	مرعش	الآلاى الثالث من المشاة
٢٦٢٩	أطنه	الآلاى الرابع من المشاة
٢٣٦٢	قليس	الآلاى الخامس من المشاة
٢١٩٢	الحجاز	الآلاى السادس من المشاة
٣٣٩٦	السودان	الآلاى السابع من المشاة
٢٣٠٤	حلب	الآلاى الثامن من المشاة
٢٠٥٤	حلب	الآلاى التاسع من المشاة
٢٣٣٨	أورفه	الآلاى العاشر من المشاة
٢٣٢٦	عينتاب	الآلاى الحادى عشر من المشاة
١٢٢٥	الحجاز	الآلاى الثانى عشر من المشاة
١٩٨٨	حلب	الآلاى الثالث عشر من المشاة
٢٥٥٥	الدرعية	الآلاى الرابع عشر من المشاة
٣١٤٩	قنديا	الآلاى الخامس عشر من المشاة
٢٣٦٩	أورفه	الآلاى السادس عشر من المشاة
٢٠٤٩	عكا	الآلاى السابع عشر من المشاة
٢٣٤٩	الحجاز	الآلاى الثامن عشر من المشاة
٢٦٧٧	اليمن	الآلاى التاسع عشر من المشاة
٢٣٦٣	الحجاز	الآلاى العشرون من المشاة
٢٢١٢	أورفه	الآلاى الحادى والعشرون من المشاة
		الآلاى الثانى والعشرون من المشاة

عدد العساكر	محل الإقامة	بيان الجيوش
٢٣٤٢	ينبع	الآلای الثالث والعشرون من المشاة
٣١٢١	انطاكية	الآلای الرابع والعشرون من المشاة
١٧٥٥	أورشليم	الآلای الخامس والعشرون من المشاة
٢٣١٨	القاهرة	الآلای السادس والعشرون من المشاة
٢١٢٩	الحديدة	الآلای السابع والعشرون من المشاة
٢٤٤٦	الحديدة	الآلای الثامن والعشرون من المشاة
٣١٧٢	أطنه	الآلای التاسع والعشرون من المشاة
٢٩٢٥	حماه	الآلای الثلاثون من المشاة
٢٤٠١	حلب	الآلای الحادی والثلاثون من المشاة
٢٣١٨	القاهرة	الآلای الثاني والثلاثون من المشاة
٢٦٠٤	الإسكندرية	الآلای الثالث والثلاثون من المشاة
٢٥٦٤	قليس	الآلای الرابع والثلاثون من المشاة
٢٣١٨	القاهرة	الآلای الخامس والثلاثون من المشاة
٧٩٦	اللاذقية	الآلای الأول من فرسان الحرس من المشاة
٨٤٤	بيسان	الآلای الثاني من الحرس المدرعين
٨٢٥	أورفه	الآلای الأول من الفرسان
٨٣٠	زامبا	الآلای الثاني من الفرسان
		الآلای الثالث من الفرسان
٨٤٧		في الطريق إلى الإسكندرية
٦٧٨	أطنه	الآلای الرابع من الفرسان
		الآلای الخامس من الفرسان
٨٢٢		في الطريق إلى الإسكندرية
٧٧٠	دمشق	الآلای السادس من الفرسان
٧٤٢	طرسوس	الآلای السابع من الفرسان
٧١٢	دمشق	الآلای الثامن من الفرسان
		الآلای التاسع من الفرسان
٨١٦		في الطريق إلى الإسكندرية
٧٦٨	عكا	الآلای العاشر من الفرسان
٧٥٦	قليس	الآلای الحادی عشر من الفرسان
٦٦٢	طرسوس	الآلای الثاني عشر من الفرسان
٨٠٦	أورفه	الآلای الثالث عشر من الفرسان
٣٩٨٠	القاهرة	أورطة المتقاعدين
٨١٢	عكا	الآلای الأول من البلطة جيه
٧٩١	إسكندرية	الأورطة الأولى من المتقاعدين

عدد العساكر	محل الإقامة	بيان الجيوش
١٦٤١	طرابلس	أورطان من المتقاعدين
٨٨٥	دنقله	أورطة من المتقاعدين
٧٥٨	أدليب	أورطة من فرقة المهندسين
٨٠٨	إسكندرية	أورطة من البلطة جيه
٩٤	القاهرة	فصيلة من اللغامين
٢٨٥	القاهرة	الأساس
١٦٧١	مراكز القطر	١٦ بلوكا من العساكر المتقاعدين
١٨٥	مصر العتيقة	رجال الألعاب النارية والصواريخ
١١٥٢	السر عسكر	آلاى من رجال القراية
١٠٦	في الحجاز	فصيلة من رجال القراية
٢٠٠	في الحجاز	بلوكان من العساكر المتقاعدين
١٣٠٣٠٠	المجموع الكلى	

الجيوش غير النظامية

عساكر	ضباط	في الحجاز
١٥٨٠	٤	فرسان أترك
٣٩٥	١	مشاة أترك
٩٤٥	٩	فرسان مصريون
٣٣٩	٥	مشاة مصريون
٧٨٧	—	مدفعية
٤٠٤٦	١٩	المجموع
٢٧٨٥	١٠	في القطر المصرى
٢٧٧٥	٧	فرسان أترك
١٦٦٠	٧	مشاة أترك
١٢٩٩	—	فرسان مصريون
٨٥١٩	٢٤	مدفعية
١٩٧٠	٥	المجموع
		في اليمن:
		فرسان أترك

٧٦٠	٩	مشاة أتراك
٢٠٠	—	مدفعية
—	—	
٢٩٢٠	١٤	المجموع
٤٥٠	٢	في قنديا:
٢٤٠٥	٦	فرسان أتراك
٢٨٠	—	مشاة أتراك
—	—	مدفعية
٣١٢٥	٨	المجموع
٣٠٢٠	٣	في المدينة:
٣٧٥٠	١٠	فرسان أتراك
٢٢٥	—	مشاة أتراك
١٢٢٥	١٦	مدفعية
—	—	مصريون
٨٢٢٠	٢٩	المجموع
١١٧٠	١٧	في السودان:
١٢٨٠	٤	فرسان أتراك
٩٥٠	١٠	فرسان مصريون
١٨٦	—	مشاة مصريون
—	—	مدفعية
٣٥٨٦	٣١	المجموع
٤١٢٥	١٤	في الشام:
١٩٣٠	٥	فرسان أتراك
٤٩٨٠	٦٣	مشاة أتراك
—	—	فرسان مصريون
١١٠٣٥	٨٢	المجموع

فيكون مجموع الجيوش غير النظامية كما يأتي:

ضباط ٢٠٧

عساكر ٤١٤٧١

٤١٦٧٨

وقبائل العربان في القطر المصري كقبائل أولاد علي والجميعات والهنادي والجهلات ولد سليمان والزوفه وجهينه والهواره والعبابده والمعازة وغيرهم مستعدة على الدوام لتوريد الكثيرين من الرجال والخيول والجمال ولوازم القتال لأول إشارة من سمو الوالي.

الحرس الأهلى

الإسكندرية	آليان	٦٨٠٠ جندي
البرلس ورشيد	آلى واحد	٣٤٠٠ جندي
دمياط	آلى واحد	٣٤٠٠ جندي
القاهرة	ثمانية آليات	٢٧٤٠٠ جندي
مصر القديمة	آلى واحد	٣٤٠٠ جندي
بولاقي	آلى واحد	٣٤٠٠ جندي
		٤٧٨٠٠

وفي استطاعة مدارس الطوبجية والخيالة والمشاة والبحرية والهندسة الحربية أن تقدم للخدمة العاملة في الجيش ١٢٠٠ مقاتل.

وعدا ما تقدم فإن جميع عمال الفاوريات في القاهرة وعددهم ١٥٠٠٠ عامل يقومون يوميا بالتدرب على المناورات الحربية والإجراءات العسكرية، وفي الإمكان إبلاغ عدد من يحشد منهم إلى ٥٠٠٠٠ إذا مست الحاجة لذلك

مراجعة عامة لما تقدم

جيش نظامية	١٣٠٣٠٢ عسكري
جيش غير نظامية	٤١٦٧٨ عسكري
الحرس الأهلى	٤٧٨٠٠ عسكري
عمال الفاوريقات المدربون	١٥٠٠٠ عسكري
رجال مستعدون فى المدارس	١٢٠٠ عسكري
الدوننمة ومن ضمنها الترسانة	٤٠٦٦٣ عسكري
المجموع	٢٧٦٦٤٣

٢. البحرية المصرية

إنشاء البحرية المصرية - حالة البحرية المصرية ومنشأتها قبل وصول المسيو سريزى بك إلى مصر - إنشاء دار صناعة الإسكندرية - العقبات التى ذللها المسيو سريزى - الأعمال والمباني والمنشآت فى الترسانة - السفن الحربية التى شرع فى بنائها - عمال الترسانة من المصريين - أحواض السفن - نوتية الدوننمة - القوات البحرية لمصر وتركيا .

٣٦- إنشاء البحرية المصرية

جاء تنسيق البحرية المصرية بعد تنظيم الجيش البرى بزمان يسير. نعم إنه كان لمصر أيام حرب موره دوننمة حربية، غير أن الشطر الأكبر من سفنها أنشئ أو اشترى فى (مرسيليا) و (ليفورنة) و (تريسته) وقد قضى عليها بالدمار والفناء فى معركة (نافارين) البحرية الشهيرة.

ولم يرتفع للبحرية المصرية شأن عقب ذلك، إلا حينما نيط بالمسيو (دى سريزى) من مهندسى ثغر (نولون) المشهورين بالخبرة والبراعة فى فنون البحرية، لتشكيل ترسانة (دار صناعة) لإسكندرية والإشراف على إنشاء السفن فيها. ولنا أن نقول فى موضوع هذه الترسانة أن إنشاءها كان، كإنشاء الشعر ونظمه، عفو الساعة لم يسبقه أقل استعداد. ولعل إيجادها من العدم كان المظهر الأول لعبقرية محمد على، والدليل الساطع على عزيمة وإرادة حاسمة لا ينتلم لها حد ولا يكبح لها جماح.

٣٧- حالة البحرية قبل وصول سريزى بك

لما وصل المسيو دى (سريزى) إلى مصر فى أبريل سنة ١٨٢٩ ألفى = وجد = البحرية المصرية مؤلفة من وحدات قليلة من السفن، هى التى نجت من كارثة (نافارين)، نذكر منها فرقاقة ذات ٦٠ مدفعا أنشئت بثغر (البندقية) وأخرى أنشئت فى (ليفورنة) وجملة سفن من طراز الكورفيت والبريك. وكانت هذه السفن ينقصها لوازم القتال ومعداته، لأنها أنشئت فى ثغور تجارية لا حربية. فاضطر (دى سريزى بك) إلى إنشاء مخازن للبارود فيها وإدخال تعديلات عليها تتفق مع احتياجات المدفعية وضرورتها.

ولم يكن فى الإسكندرية ترسانة لبناية السفن. وغاية الأمر أنه كان بسيف البحر مكان قريب من الماء تبنى فيه سفينة من طراز الكورفيت وأخرى من طراز البريك وثالثة ذات حجم عظيم حولت فيما بعد إلى فرقاقة. وكانت ورش الصناعة عبارة عن ظلات بسيطة من الخشب، وكانت المواد والخامات الضرورية للبحرية يوردها تجار من الأوروبيين يجلبونها من أوروبا.

وكان يرأس أشغال بناء الأساطيل وترميمها مصرى طاعن فى السن يدعى الحاج عمر، وهو رجل شهم واسع الحيلة. وقد صار فيما بعد الساعد الأيمن لمسيو (سريزى) وموضع ثقته. وكان معه رجل تركى الجنس يزعم العلم بالهندسة، ولكنه كان فى الحقيقة عنوان الغباوة والجهل، فاستغنى (سريزى) عنه وفصله من وظيفته. وكان العمل قائما على قدم وساق لبناء سفن حربية أخرى برسم سمو الوالى بعضها فى (ليفورنة) والبعض الآخر فى (مرسيليا) و (لوندرة).

٣٨- تشكيل ترسانة الإسكندرية

كان محمد على يدرك ما للبحرية من الأهمية وخطر الشأن فى حرب الشام وصد غارات الأستانة وحملاتها. فكان إذا وقع إبطاء فى بناية السفن بالتغور الأجنبية أو أعترض إنجازها عارض ناله من ذلك غم شديد. فعقد النية لهذا السبب على إنشاء ترسانة. وكان يقدر كفاءة المسيو (دى سريزى) وهمته بما ظهر له منهما فى إنجاز الأشغال البحرية التى أنجزت بثغر مرسليليا لحساب مصر فرجا من الحكومة الفرنسية أن تأذن له بالحضور إلى الإسكندرية لتولى إدارة الأعمال البحرية فى ثغرها.

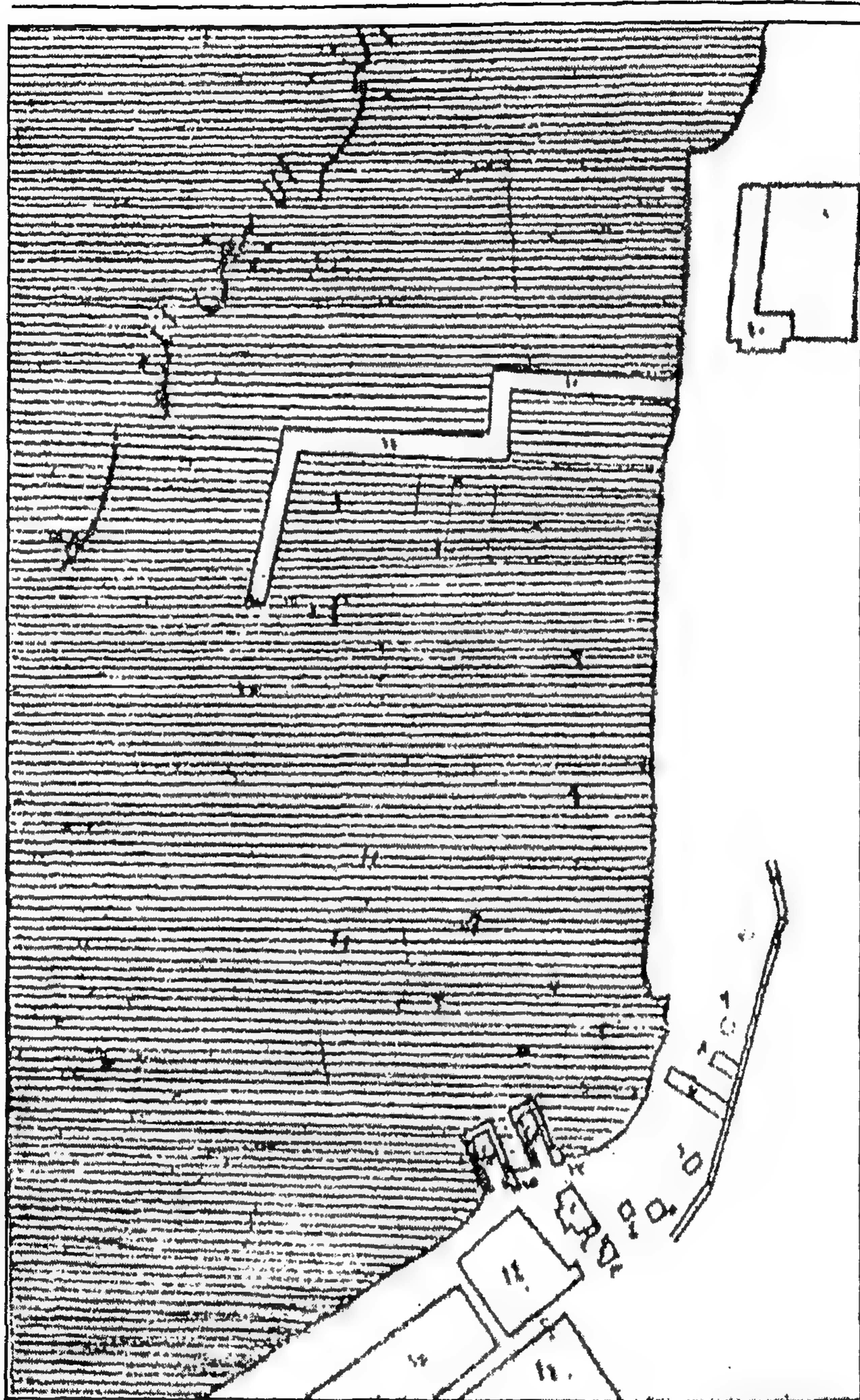
وكان كل ما ألقى في وهم محمد على من استحالة دخول السفن الحربية إلى ميناء الإسكندرية وتحققه من نقص الأدوات الحربية والعمال اللازمين لمباشرة الأعمال المختلفة بها، مما شجعه على التمسك بإنشاء الفرقاطات الكبيرة. وكانت طلباته الأولى للسفن قائمة على أساس هذه الفكرة. فلما نظر سموه في الرسوم التي قدمت إليه، واطلع على رأى المسيو (دى سريزى) فيها ووقف على دقائق ملحوظاته بشأنها وأيقن مطابقتها للصواب، اعتزم أن لا يقتنى من السفن الحربية إلا ما كان منها كبير الحجم. ومن ثم ورد على خاطره إنشاء ترسانة كبيرة.

وبينما كانت تجهز الأدوات اللازمة، بالديار الأوربية، لإخراج هذا المشروع إلى حيز الفعل، كان المسيو (دى سريزى) يعد في الإسكندرية المعدات ويهيئ المقدمات. إذ تفرغ لأخذ أعماق الميناء لاختيار أوفق موقع منها لإنشاء الترسانة الجديدة. ولقد تبين له أن عمق الماء في بعض السواحل من ناحية مريوط لا يعوق إقامة البناء المطلوب. ولكن هذه السواحل - فضلا عن بعدها عن المدينة - كانت أمواج البحر في هياجه ترتطم بها ارتطاما شديدا وتحول دون إصابة الغرض المطلوب من الدفاع عن ثغر الإسكندرية. وكان العساكر يشتغلون في أمالة الساحل، وهو متكون من مادة حجرية رخوة بالقدر اللازم لبناء القاعدة المنحدرة التى تنشأ السفن عليها، بينما كان يعمل غيرهم في استخراج الأحجار التى ستبنى بها من الأبنية الأخرى. وصفوة القول فقد كانت بوادر العمل بما تخطاها من آيات النشاط والهمة أصدق دليل على شدة الحاجة إلى سفن لقتال في أقرب ما يمكن من الزمن. وعلى الرغم من هذا فقد كان المسيو (دى سريزى) غير مرتاح لذلك الموقع، فصرف عنايته إلى البحث عن موقع آخر تتوافر فيه الشروط الملائمة لإنشاء الترسانة. وكان مما لاحظته أن الشاطئ الذى تنشأ فيه الزوارق في وقاية من هبوب الرياح واضطراب الأمواج، وأن الهجوم عليه مواجهة متعذر، إن لم يكن مستحيلا، وإنما كان عيبه قلة عمق الماء به. فمر بخاطره أن يعمل للتغلب على طبيعة الأرض فيه. وكان يعلم أن المواد الصخرية موجودة على عمق ثلاثين قدما، وأن من الميسور رفع الرمال بالآلات دون أن يطرأ تعطيل ما على إقامة المباني المطلوبة. فعول نهائيا على إنشاء الترسانة فيه.

وما اختمرت هذه الفكرة في ذهنه، حتى انصب على العمل ليل نهار لوضع رسوم الورش والمباني التي تنفذ بمقتضاها مشروعات الوالى العظيمة. وما وافى اليوم التاسع من شهر يونيو سنة ١٨٢٩ حتى رفع إلى أعتاب سموه مجموعة من عمله الابتدائى، فأجال فيها نظره وتروى ملياً ثم وافق عليها. وما هى إلا ساعة واحدة حتى شوهد بضعة آلاف من العساكر يحفرون الأساس للمباني التي كانت الحاجة إلى البدء بها أشد ما يكون. وناط بالقيمين على الآلات وضع الأوتاد (الخوازيق) للارصفة وحفر الأحواض.

**دليل تفصيلى
لتصميم ترسانة الإسكندرية
قبل المشروع الذى صودق عليه سنة ١٨٢٩**

- ١- الجمرک
- ٢- قهوة عمومية
- ٣- دكان
- ٤- مسجد
- ٥- ورشة بالبناء
- ٦- أرضية مستعملة لإنشاء السفن
- ٧- ظلة من الخشب لآلات الحدادة
- ٨- ظلة من الخشب لصناعة البراميل
- ٩- مسجد
- ١٠- مخازن ومكان للزجاج.
- ١١- الرصيف القديم، وقد تلف جزء منه
- ١٢- رصيف الخشب للنزول فى السفن
- ١٣- مكاتب مستخدمى الجمارك
- ١٤- مخازن الحكومة
- ١٥- مخازن خصوصية
- ١٦- جزء من مدينة الإسكندرية



«ترتيب أقسام ترسانة الإسكندرية» بحسب تصميم سنة ١٨٢٩

وكان سمو الوالى ، اثناء ذلك، يستدعى من أقاليم القطر المصرى الشبان الذين توجهت إرادته إلى تنشئتهم التنشئة التى تتطلبها أعمال السفن. فلما اجتمعوا لديه أخذ يرتبهم بحسب النظام العسكرى، إذ قسمهم فرقا كل فرقة لمزاولة عمل. فكان منهم النجارون والحدادون والجلافة والسباكون والميكانيكيون الخ. وقد تألفت هذه الفرق بالتدريج. وكان كلما اتسع نطاق تعليم العساكر على هذا المثال، اختير الأونباشية والجاويشية والضباط بين الممتازين منهم بالهمة والنشاط والذكاء.

وأجل خدمة قام بها المسيو (دى سريزى) لسمو الوالى تشكيلة هيئة عمال الترسانة على النسق المتقدم. ونظرا إلى ولعه الذاتى بالصناعات المختلفة ودرايته التامة بأسرارها على اختلاف مناحيها، كان يتولى بنفسه تدريب العمال على مباشرة الأعمال كل فى الصناعة التى اختير لمزاولتها. وعلى هذا النمط سار العمل فى تشييد المبانى وتعليم الرجال مختلف الصناعات سيرا مطردا منتظما. ولم تشرق شمس يوم ٣ يناير سنة ١٨٣١ حتى كانت سفينة ذات مائة مدفع تتزلج من البر إلى البحر.

ومنذ هذه الآونة وضع وضوح الشمس فى رائعة النهار ان مسألة «البحرية المصرية» حلت على أحسن ما يرام. ولكن كانت لاتزال الحاجة ماسة إلى إقامة الدليل على خطأ الأوربيين الذين زعموا أن السفن ذات الأربعة والسبعين مدفعا لا تستطيع اجتياز بوغاز الإسكندرية فى مأمّن من الأخطار. فلما تصدى (دى سريزى)، لإثبات فساد هذا الزعم إثباتا عمليا بإنشائه تلك السفينة، استهدف نفسه لصنوف الملاوم والانتقادات. وتمادى اللائمون والمنتقدون فى غلواء اللوم والانتقاد إلى حد إتهامهم أياه بأنه خدع سمو الوالى وغشه وقابل بالاساءة إحسانه. ولكن لم تلبث هذه الحملة أن انتهت بسلام، إذ تقرر أن بالإمكان اجتياز البوغاز بلا خوف من خطر ما، إذا اتخذت احتياطات معينة وتدابير معلومة. وكانت الهمة أثناء هذه الحوادث منصرفة إلى تسليح السفينة التى تم بناؤها فلم يمض زمن حتى نشرت أشرعتها وأبحرت من الميناء للإيغال فى خضمات البحر الابيض المتوسط.

ومنذ هذا الحين أحرز المسيو (دى سريزى) ثقة الوالى الذى شرحت هذه النتيجة الباهرة صدره، وملأت بالسرور والابتهاج قلبه، فخوله السلطة

المطلقة وحرية التصرف في شئون الترسانة. وكان مما اشترأت إليه عنق (دى سريزى) أن يقوم بعمل جليل يكسب به ثقة محمد على، فتفرغ لهذا العمل ووهب لأجله وقته وحياته وهمته.

٣٩- العقبات التى تغلب عليها المسيو دى سريزى

وبالرغم من الهمة العالية التى أمتاز بها المسيو (دى سريزى) تكاثرت العقبات والمعاثر فى طريقه وأصبح فرضا عليه تذليلها بحكمته وقوة إرادته وصبره. وبيان ذلك أن مجيئه إلى الإسكندرية لإنشاء الترسانة وتشكيل البحرية المصرية، أزعج البيوت التجارية التى كانت تربح الأموال البالغة من التوصية فى الخارج لديها على بناء السفن الحربية بلا مراقبة عليها، وألقى الخلل والاضطراب فى أعمالها، فأخذت تضيع عنه من الأحاديث المفتراة مالا حصر له، وترميه بما يروق لها اختراعه من صنوف التهم الشائنة. بل بلغ من أمرها أن حاولت استفزاز العمال الأوربيين الذين يتولون رئاسة الأقسام الصناعية فى الترسانة ويقومون على تعليم المصريين وتدريبهم، إلى الشغب والعصيان. وكثيرا ما وقعت الورش والمعامل بالترسانة فى الالتباك والخلل من جراء هذه الفتن، حتى لقد حدث عند الشروع فى دفع السفينة الثانية من منشآت الترسانة إلى البحر، أن انقطعت أمراسها المثبتة لها فى مكانها قبل الاجل المعين، وكان ذلك بفعل فاعل بقصد إتلافها. وكان العمال المالطيون واليفورنيون يحضون على الشغب والثورة عمال ترسانة (تولون) الذين كانوا يعملون معهم فى ترسانة الإسكندرية. وكان المسيو (دى سريزى) قد جاء بهم من ذلك الثغر فى السنة التالية لتعيينه ليتولوا رئاسة الأقسام المختلفة، فلم يتحرك لمسيو (دى سريزى) نبض ولم تختلج عين ولم ينزعج فؤاد. بل قابل دسائسهم وأفاعيلهم بجنان ثابت وإرادة قوية، فلم تقو عند الارتطام بهذه الصفات العالية على البقاء. أما الولي، وهو صاحب العبقرية العالية فى كل شأن، فقد أغلق صيوان أذنيه دون تلك الوشايات فمهد له بذلك سبيل التفرغ لأعماله والاهتمام بإنجازها من غير توان ولا إمهال.

على أنه يتعذر تصوير فكرة كاملة عن العقبات الجزئية التى اضطرت ذلك المهندس الخبير إلى مكافحتها ليتمكن من إنجاز ما عاهد نفسه على تنفيذه من المشروعات. وكانت ظروف الأحوال قد ألجأته فى بادئ الأمر إلى استخدام

الجم الغفير من الأوربيين لتسليح السفن التي كانت تبني بسرعة مدهشة، فأدت معالجته هذا الأمر إلى وقوع فتن واضطرابات لم يلبث أن تغلب عليها بفطنته. ولكنه ما انفك، مع ذلك، عن الاهتمام بمنع السرقات وحسم ما يقع من الشقاق والنزاع بين العمال الوطنيين، ومعاقبة المقصرين في أداء أعمالهم، سواء أكان هذا التقصير عن إهمال أم عن غلط، أم عن سوء نية. وقد حملته تعليم المصريين تدريجيا تلك الصناعات التي حذقوها حتى ضارعوا الأوربيين فيها، على الاستغناء عن فريق كبير من هؤلاء بحيث أن الأعمال في العهد الأخير كان ينجز الشطر الأوفى منها بواسطة عمال من أهل البلاد ولم يحتفظ من هؤلاء الأوربيين إلا بشرذمة صغيرة من المعلمين الفرنسيين قصد ببقائهم في الخدمة الإشراف على كيفية استعمال المواد اللازمة لبناء السفن، ومما هو جدير بالذكر أن امتثال المصريين للأوامر وانكبابهم على العمل فضيلتان جليلتان عاونتا المسيو (دى سيرزى) على أداء المهمة التي وكلت إليه على خير مايرام.

دليل تفصيلي لتصميم ترسانة الإسكندرية

بحسب المشروع الذى صودق عليه سنة ١٨٢٩

- ١- مدخل الترسانة، وسيكون بعد انتهاء العمل في نمرة ٢٤.
- ٢- قواعد مائلة ومبنية بالحجر لإنشاء السفن عليها.
- ٣- قواعد مائلة ومبنية بالحجر لإنشاء الفرقاطات والسفن الصغيرة.
- ٤- ورشة مد الزوارق وغرف قوالب السفن ونماذجها.
- ٥- ورش الساريات والقلوع.
- ٦- ورش البكرات والخراطة.
- ٧- مكان أدوات السفن وأطقمها.
- ٨- مكان إبرام الحبال، وبالدور الأول مكاتب الإدارة ومدارس مختلفة.
- ٩- ورشة البراميل ودفات السفن وآلات رفع وجذب الأثقال.
- ١٠- ورشة الآلات البحرية والمعادن والصفائح والرصاص والنجارة.
- ١١- المخزن العمومي.

-
- ١٢- الإدارة الهندسية.
 - ١٣- إدارة الميناء.
 - ١٤- ورش الحدادة الكبرى.
 - ١٥- معمل المزاليج والبرادة.
 - ١٦- المسبك.
 - ١٧- ورشة حدادة الأحواض.
 - ١٨- ورش أشغال ترميم السفن في الأحواض.
 - ١٩- ورش نجارة العمارات والثقب والجلفطة.
 - ٢٠- موضعا الحوضين.
 - ٢١- مكان إذابة الزفت والقطران.
 - ٢٢- ليमान.
 - ٢٣- ثكنة.
 - ٢٤- صحن المدخل الأصلي.
 - ٢٥- آلات ابرام الحبال.
 - ٢٦- المخازن.
 - ٢٧- مساكن المديرين والضباط وموظفي الترسانة.
 - ٢٨- ورش المعادن للمدفعية.
 - ٢٩- ورش الخشب للمدفعية.
 - ٣٠- مخزن وإدارة المدفعية.
 - ٣١- مخازن خاصة بالسفن التي ينزع سلاحها.
 - ٣٢- مستودعات لأخشاب بناء السفن.
 - ٣٣- آلات وسطوح مائلة لسحب أخشاب بناء السفن.
 - ٣٤- ترسانة الزوارق والسفن.
 - ٣٥- مكان ترميم الغائص من السفن.
 - ٣٦- حراس الميناء.
-

٣٧ فرقة الحرس.

٣٨ مخزن الحكومة ومطبعتا الحجر والحروف والمكاتب.

٣٩ جزء من المدينة يسكنه بعض المستخدمين.

٤٠ جزء من المدينة وحوانيت.

٤١ الرصيف المحيط.

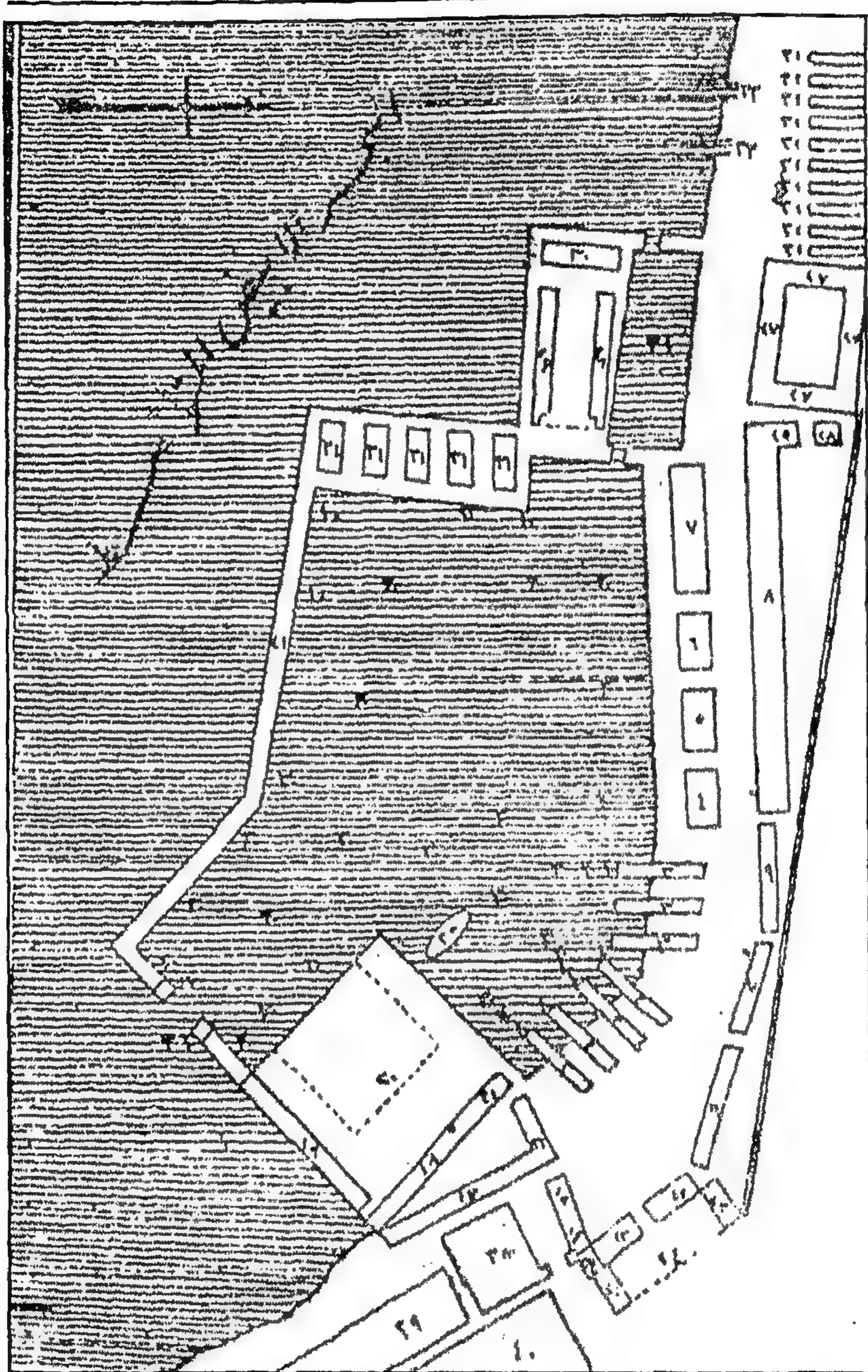
٤٠- أعمال الترسانة وبنائاتها

بالنظر إلى إنشاء الترسانة على ساحل رملى لا بناية فيه من أى نوع، قضت الحاجة ببناية ما يلزم لها من جديد. أما الأعمال الأصلية التى تم إنجازها فأربع قواعد من الحجر لبناء السفن عليها مع ما يتبعها من الانحدار الممتد إلى داخل البحر لتزليج سفن الدرجة الأولى، وثلاث قواعد غيرها لبناية الفرقاطات والسفن الأقل من تلك حجما، ومخزن عام لإيداع الذخائر البحرية. ومصنع للحيال بآلاته، وورش الحدادة والمزاليج، وورشة النشر والخرط، والمعامل الميكانيكية ومعامل السبك والصفيح والرصاص والزجاج والآلات البحرية والبكر والأشعة والبراميل، ومصانع الفلاثك والزوارق وآلات رفع الأثقال وسحبها «الكابستان» ودفات السفن والمركبات، وورشة النماذج لأجزاء السفن والمدافع، وغرفة نماذج الأشياء التى يتألف منها سلاح السفن برسم تعليم الضباط وظلات لخزن الأخشاب اللازمة لبناية السفن وحفظها وآلات التنظيف والتطهير وأدوات ترميم القسم الغاطس من السفن الخ.

وقد أنشئت برشيد فاوريقة لنسج قماش الأشعة ومعامل أخرى للحدادة كى يستعان بها عند الضرورة. وكانت ورش القاهرة ومعاملها تشتغل أيضا لهذا الغرض، وكان المسيو (دى سريزى) لايميل إلى حصر الصنائع فى مكان واحد، فدرّب جماعة من المصريين على صناعة حبال السفن وأمراسها ثم أعادهم إلى بلدانهم ليتفرغوا بها لصناعتها.

٤١- السفن الحربية التى شرع فى بنائها

بينما كان الخشب والموارد اللازمة لبناء السفن تصدر من أوروبا إلى الإسكندرية، كان المسيو (دى سريزى) يحث العمال على إتمام بناية فرقطة



تصميم ترسانة الإسكندرية
قدمه المسيو ليفوبور ديسريزي يوم ٩ يونيو سنة ١٩٢٩ ووافق عليه سمو الوالى

وسفینتین آخرین من طراز الكورفیت والبريك كان قد بدىء ببنائيتها قبل وصوله إلى الإسكندرية، فتعذر تحويلها إلى سفن حربية. ثم شرع فى بنایة سفينة من طراز الجويلیت لم یستطع إتمامها إلا بتكبد العناء الشدید فى تعلیم العمال بنفسه وارشاہم مباشرة إلى دقائق البنایة البحرية وتفاصيلها الجزئية، فكان فوق ما هو منوط به من عمله أستاذًا یلقن العلوم والفنون فى مدرسة العمل والتجربة.

وما كادت تصل إلى الإسكندرية الارسالية الأولى من الأخشاب التى وصى بها، حتى بدأ ببنایة سفينة حربية من ذات المائة مدفع، وما أشرف على إتمام بنائها حتى شرع فى بنایة اثنتین آخرین من حجمها وطرازها.

وسنأتى بعد على بیان واف للمنشآت التى أنجزت أو رمت فى ترسانة الإسكندرية أثناء وجود المسیو (دى سريزى) بالقطر المصرى.

بنیت السفینتان (مصر) و (عكا). وهما بحجم السفن الفرنسية ذات الثلاثة سطوح، إلا أنها لم توضع بهما البطارية الرابعة بسبب أن السطح الأول منهما یحمل فیهما اثنین وثلاثین مدفعا من عیار ۳۰، وهى مدافع طويلة، والسطحان الآخران كلاهما ۶۸ مدفعا قصيرا من عیار ۳۰.

وأربع سفن من ذات المائة مدفع وهى المعروفة بأسماء: (المحلة الكبرى) و (المنصورة) و (حمص). وفى كل من هذه السفن اثنان وثلاثون مدفعا طويلا من عیار ۳۰ فى البطارية الأولى و ۳۴ مدفعا قصيرا من عیار ۳۰ فى البطارية الثانية و ۳۴ مدفعا من الزهر (كاروناد) من عیار ۳۰ فى مقدم السفينة ومؤخرها.

والسفينة (أبوقير) ذات الثمانية والسبعین مدفعا منها ثمانية وعشرون مدفعا طويلا من عیار ۳۰ فى البطارية الأولى، و ۳۰ مدفعا قصيرا فى البطارية الثانية، وعشرون مدفعا من الزهر من عیار ۳۰ فى مقدمة السفينة ومؤخرها.

والكورفيت (طنطا) وفيها أربعة وعشرون مدفعا قصيرا من عیار ۳۲ انجليزى.

والجويلیت (عزيزية) وفيها عشرة مدافع من عیار ۴ وقوطر النزهة وفيه ۴ مدافع من عیار ۴ وسفينة لمدافع الهاون وسفينة نقالة لأخشاب الساريات.

وكانت السفينة (بيلان) ذات الستة والثمانين مدفعا تحت التسليح، فوضع بها ثمانية وعشرون مدفعا طويلا من عيار ٣٠ في البطارية الأولى و ٣٠ مدفعا قصيرا في البطارية الثانية وثمانية وعشرون مدفعا من الزهر في المقدمة والمؤخرة.

وكان العمل جاريا في سفينتين من السفن ذات المائة مدفع من عيار ٣٠ وهما (حلب) و (دمشق).

وفرقاطة كبيرة ذات ستين مدفعا من عيار ٣٠.

ومما تقدم يرى أن السفن الكبرى للبحرية المصرية قد عنى المسيو (دى سريزى) بالتوحيد بين عياراتها وهو الأمر الذى كثيرا ما طالب المصلحون البحريون به فى أوربا بلا جدوى.

أما السفن الدوننمة التى اقتضى ترميمها وتعهدا من الوقت والعمل أكثر مما كانت تقتضيه السفن المنشأة حديثا فهى:

(الجعفرية) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٣٢ انكليزى وكان انشاؤها بمدينة (ليفورنة).

والفرقاطة (بحيرة) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤ وكان إنشاؤها فى ثغر (مرسيليا).

و (رشيد) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٢٤ وثمانية وعشرين مدفعا من الزهر من عيار ٣٦ وكان انشاؤها بمدينة البندقية.

و (كفر الشيخ) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٣٢ انكليزى، وأربعة وعشرين مدفعا من عيار ١٢ انشئت فى ثغر (أرخانجل) بالروسيا، ولكنها لم تتم فكمل انشاؤها فى (لوندرة) فرقاطة للقتال.

و (سرجهاد) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤، وكان إنشاؤها فى ثغر (ليفورنه) ثم عدلت فى الإسكندرية تعديلات تناولت جميع أجزائها.

و (الدمياطية) وهى ذات أربعة وعشرين مدفعا من عيار ٢٤ وثلاثين مدفعا من الزهر من عيار ١٨، وكانت كبيرة وحولت فى الإسكندرية إلى فرقاطة حربية.

و (مستاجهاد) وهى ذات ثمانية وعشرين مدفعا من عيار ١٨ وثمانية وعشرين مدفعا من عيار ١٢ ، و«كلانت» فرقاطة جزائرية أهدتها فرنسا إلى مصر.

والسفن (جثة بحرى) وأصلها من ثغر (جنوة) ، و (جهادبحر) وأصلها من (جنوة) أيضا و (فوه) وأصلها من الإسكندرية، و(بلنك جهاد) وأصلها من (مرسيليا). وكلها من طراز الكورفيت وذات ٢٢ مدفعا من عيار ٢٤. و(واشنطن) وأصلها من (بورديو) ، و(فولمينان) وأصلها من (ليفورنه) ، و(الفشن) وأصلها من الإسكندرية ، و(شاهين داريا) وأصلها من تركيا. وكلها سفن من طراز البريك الكبير وتحمل كل منها إثنين وعشرين مدفعا من الزهر.

و(سمند جهاد) وأصلها من (مرسيليا) ، و(خبر جهاد) وأصلها من (سيوتا) ، و(التمساح) وأصلها من (مرسيليا) ، و(بأدى جهاد) وأصلها من (الإسكندرية) ، و(الأمريكانى) وأصلها من الولايات المتحدة ، وهى سفن من طراز البريك الصغير ، وتحمل كل منها إما ستة عشر مدفعا واما ثمانية عشر من مدافع الزهر .

وأربع سفن نقالة محمول كل منها ٤٠٠ طن .

وفرقاطة وبريك وقوطر من السفن العثمانية التى غنمت أثناء الحرب .

وكذا جملة سفن صغيرة وباخرة تسمى (النيل) أصلها من (لوندره) .

وقد راعى المسيو (دى سريزى) فى بناء السفن الحربية الإصلاحات والتعديلات التى كان الضباط الفرنسيون يطالبون بإدخالها على السفن الفرنسية ، وكذا الإصلاحات التى اهتمت إليها بخبرته أثناء قيامه بالعمل فى ثغور فرنسا ، والملاحظات التى لاحظها فى إنجلترا ورأى من الأفضل العمل بها لفائدة البحرية . ولذلك بنيت السفن التى أنشئت فى ترسانة الإسكندرية بمقتضى التصميمات التى وضعها بنفسه .

ومن المستطاع التأكيد بأن قسما عظيما من التنسيقات والترتيبات المرعية الآن فى بناء السفن الفرنسية الحربية ، وجدت فى السفن التى أنشئت بالقطر المصرى قبل وجودها فيها بزمان طويل . وهو ما يرجع الفضل فيه إلى همة المسيو (دى سريزى) ودرايته.

٤٢-عمال الترسانة المصريون

إن العمال المصريين هم الذين كانوا ينجزون اعمال إنشاء السفن، وقد أظهرو فيها من الأهلية والدراية ما يوجب الدهش . وكان يشتغل منهم بالترسانة من ستة آلاف عامل إلى ثمانية آلاف . أما العمال الأتراك فلم يبد منهم ما يستوجب ارتياح المسيو (دى سريزى) ورضاه عنهم ، لأنهم كانوا من الازدهاء بنفوسهم والنزوع إلى العصيان والتمرد بما يحول دون صلوحهم لإجادة مايناط بهم من الأعمال ، فكانوا من هذا الوجه على نقیض المصريين الذين كانوا يدركون بسهولة أسرار الأعمال التى تنجز أمامهم ويتفهمون دقائقها بما عهد فيهم من الذكاء ودماثة الأخلاق والامتثال للرؤساء . دع أنهم فطروا فى محاولة فهم ما يعجم عليهم فهمه على تحكيم النظر أكثر منه على الذكاء والعقل حتى ان الرسم البسيط يرشدهم إلى فهم حقائق الأشياء بمجرد النظر إليه قبل إمعان الفكر والروية فيه . إلا أنه مع هذا سريع النسيان لما يتعلمه ، فضلا عن انه إذا بلغ من التعلم درجة ما لا يرغب فى تجاوزها ما بعدها . وهذا النقص يحول ، بلا ريب ، دون سعيه إلى الكمال .

وهم أميل إلى مزاولة الصناعات التى أساسها تقليد الأشكال والنماذج الثابتة . ومن ثم تراهم يجيدون صناعة البكر وقماش الأشرعة والحبال والبراميل والنجارة الدقيقة، ويحسنون ثقب الثقوب وقلطة المراكب . وإنما لا يمكن الاعتماد عليهم فيها إذا مست الحاجة إلى تغيير الأحجام واستنباط أشكال تخالف ما عهدوها عليه من المثال ، كما يتفق أحيانا فى ورش الآلات والحدادة والسبك، ما لم يراقبهم أثناء أدائهم أياها الرؤساء الاوروبيون فإنهم فى هذه الحالة يقومون بما هو مطلوب منهم على خير ما يرام .

وترسانة الإسكندرية التى يصنع فيها كل شىء بأيدي المصريين وتناظر لهذا السبب جميع ترسانات الدنيا دليل ناطق بمبلغ ما يمكن الاستفادة به من العمال المصريين ويقىنى أن عامة الشعب فى أوروبا يستطيعون أن يؤدوا من جلائل الأعمال ما يؤديه العمال المصريون فى مثل الوقت القصير الذى يقومون بها فيه .

٤٣- أحواض ترميم السفن

لما أنجز الوالى بناية السفن الحربية الكبرى، وشعر بضرورة انشاء حوض أو أحواض لترميمها عند الحاجة، أطلعته المسيو (دى سريزى) على الصعوبات والعقبات الجمة التى تعترض إنشاءها بالإسكندرية ، وقال إنها فى أوروبا تلتبس العناية المتتابعة من حذاق المهندسين وأذكىاء العمال. وكان مشروع المسيو (دى سريزى) لإنشاء ترسانة بالإسكندرية يتناول بناية حوضين، مع أن حوضا واحدا كان فى الحقيقة كافيا لسد حاجة البحرية المصرية، ولكن المسيو (دى سريزى) كان لا مفر له من العمل بإدارة صاحب السمو والمسارة إلى تحقيق أمانيه، ولو استلزمت التحيل لإيجاد كل شىء من العدم. وكانت حالة الحرب بالنسبة إلى مصر تستدعى السرعة فى إنجاز تسليح السفن المبنية. فلم تتوافر له وقتئذ الوسائل التى تمكنه من إنشاء تلك الاحواض. وعقب رحيله من الإسكندرية تصدى بعض المهندسين إنشاءها فذهبت جهودهم فى هذا السبيل سدى وعندئذ لم يسع صاحب السمو الولى إلا أن رجا من الحكومة الفرنسية، وقد كان هذا منذ عامين، أن تبعث إليه رجلا قديرا على إتمام هذا العمل الجليل، فاختارت إدارة القناطر والجسور المهندس (مونجل) الذى ذاعت شهرته بفرنسا على أثر الأعمال الهندسية الجليلة التى قام بها فيها، وسيبقى اسمه مرتبطا بالعمل الجليل المحفوف بالمصاعب الذى ندب للقيام به.

أما العقبات التى تعترض تنفيذ بناية حوض للسفن فى الإسكندرية فترجع فى الأصل إلى طبيعة قاع البحر بهذه المدينة فإن هذا القاع طينى المادة إلى عمق ستين قدما تقريبا تحت الماء وكان المطلوب أن ينشأ فوق هذا القاع الرخو حوض متين البنيان موثق الأركان لا ينفذ منه الماء، ومن السعة بحيث يقيم بين جوانبه سفن الدرجة الأولى. أى السفن التى عمق الجزء الغاطس منها فى الماء عشرون قدما. فإذا ضم إلى هذا الارتفاع أربعة عشر قدما وهو سمك الأساس الكافى لحمل ثقل السفينة المراد ترميمها، فلا مناص إذن من بناية أرضية الحوض بهذا السمك من الحجر على عمق أربعة وثلاثين قدما تحت الماء، بحيث لا ينفذ الماء منها. وهو ما لا يتأتى طبعا على قاع طينى هش إلا إذا استعملت لتحقيق هذا الغرض وسائل خاصة.

أما المسيو مونجل فلم تهن عزيمته أمام العقبات ولم تخذله صعوبتها، بل رفع إلى الوالى تصميمًا جليلاً محقق التنفيذ - على بساطته - فقد اقترح عليه فيه ما يأتى:

اقترح أن تغرز بالمكان لبناء الحوض أوتاد من السمك بحيث تجعل الأرض مندمجة صلبة، ومن الطول بحيث تهبط إلى القاع اليابس. وقال إن هذه الأوتاد إذا وضعت على الوجه المتقدم صلحت لأن تكون أعمدة وقوائم لبنانية الحوض. وأنه بعد توطيد المكان على المثال السابق واحاطته بخط من أوتاد أخرى متتابعة تنزل منه بمنزلة السياج وتختلف عن الأوتاد الأولى بطولها الذى تبلغ به إلى مستوى الأرضفة، يصب خليط المونة المعروف بالبيتون الذى من خواصه التجمد فى الماء بعد زمن قصير، وتتكون منه كتلة جسيمة من البناء أو صخرة صناعية مصبوبة. وأن يحفر الحوض فى هذه الصخرة على مثال يجعل إغلاقه ميسورا عقب مرور السفن إلى داخله بواسطة عوامة خاصة تشبه السفينة، تغرق وتعود بحسب الإرادة. وهذه الطريقة هى المتبعة تقريبا فى إنشاء الحوض الجديد بثغر طولون.

ولقد بدىء العمل لإنشاء الحوض على هذا النمط. وهو جار الآن على قدم وساق. والمرجو أن يتم فى زمن قريب، لاسيما وأن الأخشاب والمواد اللازمة لإتمامه مكدسة بالمخازن والآلات البخارية التى يستعان بها على استنزاف الماء من الحوض، قد ركبت فى المكان اللازم لقيامها بعملها.

ولقد قامت الكراكات بحفر القاع. أما وضع الأوتاد وهو عمل فى غاية الصعوبة فقد أنجز سريعا بواسطة آلات خاصة انشئت بإشراف المسيو (مونجل) وإطلاعه.

٤٤- النوتية والدونمة

كان فرضا، وقد تم إنشاء الأسطول بهذه السرعة، إيجاد النوتية لها فى أقرب آن. لذا بادر بتدريب عشرة آلاف رجل على الخدمة البحرية. وأنشئت للملاحة مدرسة نظم فى سلكها الشبان المماليك لتعليمهم من فنون البحر ما يؤهلهم للقيام بالواجبات المطلوبة من الضباط، وطبقت القوانين المسنونة لهذا الغرض فى فرنسا، ورتبت درجات الوظائف بحسب الترتيب المرعى عندنا، ونيط بضباط فرنسيين تسليح السفن وتعليم بحريتها. وكان من

أطولهم باعاً في تشكيل البحرية المصرية وأعظمهم أثراً في تدريب رجالها ومعاونة سمو الوالى بجهودهم العظيمة ومساعدتهم المبرورة، كل من المسيو (بيسون بك) الذى أسفت مصر جد الأسف لوفاته، والمسيو (هوسار) الذى لايزال يؤدى أجل الخدم لسمو الوالى.

ومما لا ريب فيه أن إيجاد ترسانة وإبداع أسطول على ذلك الوجه من السرعة لما يقضى بالعجب، ويدل على قوة العبقرية. فقد كان شاطئ البحر بالإسكندرية كالصحراء الخالية من كل أثر لكائن، فلم تمض سنوات أربع حتى عمر بترسانة كاملة الأدوات مستجمعة لشتات اللوازم والتجهيزات. فمن قواعد لإنشاء السفن عليها وتزليجها إلى البحر، وورش ومخازن ومصنع الحبال امتداد بنايته طولاً ألف وأربعون قدماً - أى كطول مصنع الحبال في ثغر طولون. وأنشئت خلال تلك المدة دوونمة مؤلفة من ثلاثين سفينة وسلحت وجهزت بالعدد والرجال وجربت للمرة الأولى من انشائها في مطاردة أحد الأساطيل العثمانية.

وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى أدهشت البحرية المصرية أساطين علم البحر وثقاته، سواء بدقة حركات السفن وضبطها أو بدربة البحرية وحسن قيامهم على الأعمال المنوطة بهم وقد أصبح المصريون، وهم شعب مفلور على الامتثال ومحامد الخصال، كأنهم خلقوا أكثر صلوحاً لممارسة البحر من غيرهم ولقد سبق لنا ذكر فضائلهم الحربية ومناقبهم العسكرية ونقول الآن إنه بالنظر إلى سكانهم شواطئ النيل، وهو النهر الذى بلغ من السعة في نظرهم ما دعاهم إلى تسميتهم إياه بالبحر، كانوا من أقدر الناس على السباحة وأميلهم إلى معاناة فنون الملاحة. ومن المناقب التى توافرت فيهم، غير ما تقدم، تأثرهم الشديد بعوامل المناظرة وحبهم أن لا يحرز قصب السبق سواهم.

ومعلوم أن ثغر الإسكندرية تتردد عليه برسم الزيارة سفن كثيرة تخفق عليها أعلام دول مختلفة فكان منظر هذه السفن يبعث في نفوس الشبان المنتظمين منهم في سلك بحرية الوالى روح الغيرة والحماس ويستفزهم إلى الرغبة في إطلاع الخبيرين في الفن كل يوم على ما حذقوه من الحركات في المناورات ونمى بذلك في نفوسهم إحساس الشمم وتنبه الشعور بالكرامة -

فكانت هذه المظاهر من أقوى العوامل على تنافسهم في إحراز أوفر قسط من العلوم والفنون. ويؤخذ من آراء الاختصاصيين في حالة البحرية المصرية أن الفرق بينها وبحرية القسطنطينية كالفرق بين جيوش محمد علي البرية وجيوش الباب العالي.

وامتازت بحرية محمد علي، أول وهلة، بالتفوق في شبه جزيرة (مورة) وكان من دلائل تفوقها العظيم أن الحراقات اليونانية التي طالما هلعت لمراها قلوب أهل الآستانة وقبعت بسببها أساطيلهم ، لم تخش بأسها السفن المصرية التي كان يقوم على أمرها في ذلك العهد ربان السفينة الفرنسية المسيو (لوتلية).

ولقد شرف الأسطول المصري الجديد مصر ورفع ذكرها أثناء حملة الشام إذ قامت بمراقبته سواحل الشام ومنعت الأتراك من النزول إليها وقبضت في أنحائها على بعض السفن العثمانية وساعدت المصريين على حصار عكا واقتفت أثر الدوننمة العثمانية التي كانت أكثر منها عددا وأوفر مددا حتى حصرتها في مرسى (مارماريل) ثم دفعتها أمامها حتى مضيق الدردنيل الذي أشرفت أن تجتازه لولا مداخله الدول الأوربية التي حالت دون تحقيق هذه البغية مدفوعة بما هو معروف من عوامل السياسة.

وتتألف الدوننمة المصرية من إحدى عشرة سفينة كبيرة وسبع فرقاطات وخمس سفن من طراز الكورفيت وتسع من نوع البريك والجويليت: وبلغ مجموع عساكر هذه السفن (الأطقم) ١٦٠٠٠ رجل تقريبا. ونورد فيما يلي بياناً وافياً لقوات البحرية المصرية. وإن قد أصبحت البحرية العثمانية في قبضة محمد علي ، فقد عنيت ببيان قوات هذه البحرية تجاهها، مع ذكر عدد نوتية كل سفينة مصرية وتركية.

القوات البحرية المصرية
الدونمة العثمانية الدونمة المصرية

السفن الكبرى

أسماء السفن	عدد رجالها	أسماء السفن	عدد رجالها
محمودية	١٣٧٢	المحلة الكبرى	١٠٣٤
مسعودية	١٣١٢	المنصورة	١٠٣٤
فيضيان	١٠٣٤	الإسكندرية	١٠٣٤
فتحية	١٠٣٩	أبوقير	٧٣٦
ممدوحية	١٠٧٥	مصر	١٠٩٧
نصرتية	٩٠٦	عكا	١١٤٨
تعريفية	٩٧٢	حمص	١٠٣٤
توفيقية	٩٤٨	بيلان	٩٠٠
برج ظفر	٧٦٥	حلب	١٠٣٤
		بنى سويف	١٠٣٤
		الفيوم	١٠٣٤
المجموع	٩٤٤٥	المجموع	١١١١٩

الفرقاطات			
الدوننمة المصرية		الدوننمة العثمانية	
٥٥٨	المنوفية	٦٧١	نظامية
٥١٠	البحيرة	٦٧٥	جهادية
٤٧٠	الدمياطية	٥١٦	نافيك
٥١٠	سر جهاد	٥٤٨	شهاب
٥١٠	رشيد	٦٦٢	خوز أمان
١٥٢	وابور النيل	٥٣١	تافير
		٤٨٤	مراد ظفر
		٥٥٥	سوريا
		٥٣٤	راسم ظفر
		٤٧٨	قائد ظفر
		٣٨٦	فضل الله
٢٧١٠	المجموع	٦٠٤٠	المجموع

الكـــــــــــــــــــــــــــــف
ورفيت

١٥٩	جهاد فكر	٢٧٧	مسير فرج
١٨٣	طنطا		
١٥٩	جنه بحرى		
١٥٩	بلنك جهاد		
٢٦٢	دمنهو		
٩٢٢	المجموع	٢٧٧	المجموع

الجواب

الدونمة المصرية	الدونمة العثمانية
١١٥	الصاعقة
١١٥	واشنطن
١١٥	شاهين داريا
٩٧	التمساح
٤٤٢	المجموع

البريك

٩٧	سمند جهاد	١٣٩	جاي فرح
٩٧	شباس جهاد	١٥١	قوس ظفر
٥٢	وابور الجوكا	٨٤	بحر سفيدي
٢٧	الوابور الجديد		
١٧	وابور بولاق		
٢٩٠	المجموع	٣٥٤	المجموع

القواطر

٢٩	نمرة ١
٣١	نمرة ٢
-	
٦٠	المجموع

٣. حشد الرجال لخدمة البرية والبحرية

الأسلوب المتبع في التجنيد - عيوب هذا الأسلوب - أسباب هذه العيوب - جهود محمد على لعلاج هذا الداء - كراهة المصريين للخدمة العسكرية - النتائج المحتملة لتشكيل الحرس الأهلى.

٤٥- الأسلوب المتبع في التجنيد

اعترض الكثيرون بحق على الأسلوب المتبع في التجنيد للجيش بمصر. فقد كان هذا الأسلوب ولا يزال حتى الآن جم العيوب، مخالفا لطبيعة البشر ومقتضيات العمران، وموجها لما لا مزيد عليه من الاسف.

فإنه لا نظام ولا قانون بمتبع في التجنيد للجيش. فالجيش فى القطر المصرى لا يتشكل. كالجيش الفرنسى قبل الثورة، بالتطوع أو بالاتفاق بين الطرفين على أجر معين، ولا يتكون بطريق القرعة الخالية من شوائب الظلم والاححاف حيث اختيار المطلوبين للتجنيد موكول إلى الاقتراع بين المتساوين فى حظ القبول فى الجندية. كلا بل إن القوة الغاشمة وحدها فى مصر، وهى فيها على أقصى ما يتصور من الوحشية، هى التى يرجع إليها فى تزويد الجيش بمن يحتاج إليهم من المجندين. فالتجنيد فى مصر من وجوه الظلم البين بالإجحاف المتلف الضار بها. ولا شك فى أن ما رواه الرحالة عنه فى كتب رحلاتهم صحيح ولا اعتراض عليه، لأنه يكفى فى موسم التجنيد أن يتوجه بلوك من العساكر إلى إحدى القرى فينقض عليها ويجردها من سكانها الذكور بإلقائه القبض عليهم بمجرد وصوله إليها. وبعد أن يشد وثاقهم بالحبال ويربط بعضهم ببعض يسير بهم إلى بندر المديرية، يتبعهم أمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم صائحين مولولين. وهناك يختار الطبيب منهم من يكونون أهلا لخدمة العسكرية.

٤٦- عيوب هذا الأسلوب

هذا الأسلوب لم يكن همجيا فقط، بل سىء العاقبة أيضا، وعبوبه بادية للعيان. لأنه بصرف النظر عن الأعمار وحالة العائلات التى تحرم بالتجنيد

من رجالها، يحول دون نمو عدد السكان ويلقى هذه العائلات في مخالب الحزن والفاقة. فإنه بمجرد توارد الأخبار على القرية بدنو الموكلين بالتجنيد يلجأ الشبان الأصحاء الأبدان إلى الفرار إلى الفلوات التي يعرفون بأسرار وهادها وتجاهها فيختفون بها شهورا، فينشأ عن اختفائهم أن تتعطل حركة الزراعة وتقضى الضرورة للسبب عينه بتجنيد غيرهم ممن يجب إعفاؤهم من الخدمة العسكرية برية كانت أو بحرية لعله أو عاهة فيهم ولست أستر هنا الضرر الناشئ عن هذا الأسلوب، بل الخطر الذي يتهدد كيان الأمة المصرية. فليس في مقدور أحد أيا كان أن ينكر عواقبه المشئومة ونتائجها الضارة وسمو الوالى نفسه عالم علم اليقين بضرره، ويتمنى أن يوفق لعلاج يستأصل به شأفة هذا الداء. لأنه يرى أن مصلحته الذاتية مرتبطة بمصلحة مصر الخالدة وأن لا شيء يفصل المصلحتين عن بعضهما. فلنجتهد في البحث عن سبب الداء واستكشاف ما يلائمه من الدواء .

٤٧- أسباب هذه العيوب

لما هم محمد على بإدخال النظام العسكرى الجديد إلى مصر قامت عليه الاعتراضات من الأهالى الوطنيين بل بلغ من نفورهم منه بسبب تمسكه بهذا الإصلاح أن أزدروا به وحقروه ولقبوه « باشا النصارى » ولم يكن قد سبق لمصريين أن خضعوا لنظام عسكرى . دع أنه لم يكن في نفوسهم من روح الوطنية ولا في رؤوسهم من الذكاء والحصافة ما يدركون به حقيقة المثل الأعلى الذى ترنو مصر إليه بعينها. فيستقزهم إلى الانقياد لتلك اليد القابضة على زمام أمورهم. ثم لا ينسى أنهم لا يفهمون لغة يتكلم بها لسان السلطة غير لغة القوة الجائرة والاستبداد الغاشم، فكان هذا باعثا منذ البداية على استعمال الشدة ليضطرهم إلى معاونته على إصابة مقاصده وتنفيذ أغراضه.

ولقد خبرت المصريين بالمخالطة الطويلة فعرفت من خلالهم ما يدعونى إلى التأكيد بأنه يستحيل حملهم بالحسنى على الانتظام فى سلك الجيش. ولكننى أؤكد فى الآن نفسه أنه كان لابد من مضى وقت طويل لانتقالهم من الحالة التى ألفوها إلى حالة مغايرة لها، بل إلى حالة لم يعهدوا لها مثيلا من قبل، لا سيما وهى تنافى عاداتهم وأخلاقهم ومذاهبهم فى الفكر والتصوير. تلك هى الحقيقة. غير أن محمد على ما كان يستطيع الانتظار والتريث طويلا حتى

تتطور الأمة. إذ لا بد من اعتبار أنه هبط القطر المصري لتنشئة المصريين على مهل التنشئة التي يتمناها لهم. نعم إن ما قام به من جلائل الأعمال يعد بناء في جدار المستقبل، ولكن ينبغي النظر إلى أن الحاضر يتطلب منه العمل السريع والاحتفاظ بدقائق الزمن ويأمره بالاحتفاظ بمركزه ودرء الأخطار المحدقة به، وبأن يكون منيع الجانب على من يرومه بسوء ليصون ما ربحه من جهة، ويدراً عن حياته ومستقبل أسرته من جهة أخرى ما يتهدها من الخطر. فكان مما لا مفر منه أن يتوافر لديه في الحال جيش كثيف وأن لا يقف في التجنيد له عند أوفق الوسائل لمبادئ الحرية والإنصاف. بل عند أدعائها إلى إتمام الحشد له بأسرع ما يستطيع. واتفق لسوء الحظ أن اقترنت الوسائل التي ترمى إلى هذا الغرض بالشدة والعنف، فإذا أفضت السرعة إلى تكبد فريق من الناس هول الشدائد والآلام، فإن الإنسانية تأسف من أجلها وليس المسئول عنها سمو الوالى بل أولئك الأشرار الذين لا يكفون عن دس الدسائس له والمؤامرة على حياته وتلك الظروف القاهرة القاسرة التي حفت به.

ولما أتم محمد على تشكيل جيشه أراد أن يطبق على العمل أسلوباً عادلاً لتجنيد تقدم إليه به بعض قناصل الدول رفقا بالأهلين. ولا يسعنى هنا إلا الجهر بأننى لم أكن قط آخر المتحمسين والمشايعين لهذا الإصلاح، علما منى بما جبل عليه الوالى من عواطف البر بالإنسانية. ولهذا أراد - مضياً مع ميوله الشريفة واحساساته العالية - أن يطرق باب التجربة مرة أخرى رجاء أن تفضى نتيجتها إلى ما يتفق مع الإنسانية ومبادئ العدل.

٤٨- جهود محمد على لعلاج هذا الداء

لما اتجهت رغبات محمد على إلى حسم هذا الداء وعلاجه بالأنسب من الدواء، شكل مجلساً للتجنيد مؤلفاً من كبار الضباط في جميع الأسلحة، وعهد رياسته إلى أحد قواد الطوبجية، وكنت أنا بالذات من أعضائه. فبدأنا بإنجاز مهمتنا في مديرية قليوب، لأنها أقرب المديرية إلى القاهرة. ولما تقابلنا مع المدير واستقر بنا المقام عنده استدعى مشائخ البلاد حتى، إذا كمل عددهم وانتظم عقدهم طرح القول الآتى عليهم : « إن جميع أقطار الدنيا في حاجة إلى القوى العسكرية للمحافظة على كيانها بتوطيد دعائم الأمن والسلام في

الداخل والدفاع عن استقلالها ضد الفاتح المغير. وهذه الحاجة تدعو إلى تشكيل الجيوش، والجيوش لا تتشكل ولا تتم هيئتها إلا إذا قدمت الأمة رجالها لهذا الغرض، والرجال الذين تتألف الجيوش منهم ينبغي أن يكونوا حائزين على الشروط المطلوبة فيما يتعلق بالسن وصحة البدن».

« ومن المفروض على طبقات الأمة كافة وعلى جميع الأقاليم والمديريات التعاون فيما بينها على تشكيل القوات العسكرية كل بما يتناسب مع قدرته، وما هو متوافر لديه من الوسائل. ومعلوم أن الحرب تتطلب من الرجال الأقوياء الذين لا تربطهم بالهيئة الاجتماعية روابط وثيقة تجعل لوفاتهم في نفوس أسرهم الأثر السيء. وهذا معناه أن العساكر ينبغي أن يؤخذوا من شبيبة القطر الممتلئة بالقوة والنشاط. وإنما يحدث أن يوجد بين أفراد هذه الشبيبة من يستحقون الإعفاء من تلك الخدمة المفروضة قانونا على السواد الأعظم ويدخل في عدادهم من لهم أخ أو إخوان في سلك الجيش أو يكونون أياما. على أن الحكومة لم تكن بحاجة إلى جميع الشبان، فمن الواجب بناء على ذلك وضع قاعدة من شأنها — بعد جعل الحظ مقسما بالسواء بين الجميع — تعيين الأفراد الذين يتحتم عليهم بكيفية جازمة الانتظام في سلك الخدمة العسكرية».

وعلى أثر ذلك شرحت لهم كيفية التجنيد في فرنسا وأنها مؤسسة على القرعة. فلما سمع الحاضرون من المشائخ هذا التفسير لقاعدة التجنيد المعمول بها في أوروبا أعربوا عن استحسانهم وصاحوا جميعا بالموافقة عليه داعين إلى اتباعه والعمل به.

فطلب منهم عندئذ أن يعود كل منهم إلى قريته وأن يحرر كشفا بأسماء الشبان الذين تختلف أعمارهم فيها من الثانية عشرة إلى الثانية والعشرين وأن يشرحوا لمن تحت إداراتهم المبادئ العادلة التي ستجرى عليها أعمال التجنيد منذ الآن فصاعدا. فعاد المشائخ تبدو على وجوههم علائم البشر والابتهاج، ولكنهم ما كادوا يفاتحونهم في أمر تلك الطريقة الجديدة. والأسلوب الحادث حتى ولى جميع السكان الادبار وأركنوا إلى الفرار، فلم تجد الحكومة إزاء هذه الحالة إلا الالتجاء إلى القوة وأن تأخذ الآفاق على الذين في سن التجنيد لتنظمهم في سلك الجيش.

ومن النوادر التي يحسن إيرادها في هذا المقام، أن إبراهيم باشا كان يشرح ذات يوم لبعض علماء دمشق أسلوب التجنيد في فرنسا، فتحمسوا له ووافقوا عليه ودعوا إليه واعترفوا بما انطوى عليه من رفق وعدل. ولما أنس منهم إبراهيم باشا هذا الاستحسان العام قال لأحدهم: « بما أنك موثق بمزايا توزيع عبء الخدمة العسكرية على الشبان التوزيع العادل - فمما لا ريب فيه أنك ستعطينا واحدا من أبنائك الخمسة فأجاب العالم وكان الجزع قد ملأ فؤاده - : « أنا.... أنا... لا أقدر على مفارقة ولد من أولادى».

٤٩- نفور المصريين من الخدمة العسكرية

لا يستطيع مصرى أن يتخيل امكان اندراج إنسان في سلك الجيش بمحض إرادته، لان المصريين يجزعون من العسكرية ويبغضونها إلى حد أن الأمهات يتعمدن إتلاف بعض أعضاء أبنائهن ليصيروا غير صالحين للتجنيد. فهن يسملن عيونهم أو يبترون أصابعهم إلى غير ذلك. ولقد شوه بعض الفلاحين الذين على وشك الانتظام في سلك الجندية يقطعون جملة من أصابع يدهم إليسى بل يبرونها برياً بالسيف من غير ما تردد ولا اكتراث ولكنهم كانوا، بمجرد استيقاقهم إلى العمل في الجيش، يخضعون للقوة القاهرة لارتياحهم منها، ويرضخون لأحكامها باعتبار أنها قضاء واقع ليس له من دافع. ومع هذا فإنهم متى انتظموا في هيئة الجيش تطوروا سريعاً بطور العسكرية واعتادوا حالتهم الجديدة ومحووا من ذاكرتهم سيرة نفورهم القديم. وتراهم إذا دارت النوبة دورتها فكلفوا بمباشرة التجنيد، يعاملون المجندين بمثل الشدة التي عوملوا بها من قبل وقتما انتزعوا من بيئاتهم لحمل السلاح.

٥٠- النتائج المحتملة لإنشاء الحرس الوطنى

ولكن أستنتج من هذه الخاصية الغريبة لدى المصرى أنه لايرجى، فيما يتعلق بمسألة التجنيد، الوصول إلى سن نظام له أفضل من النظام المعمول به؟ كلا، فإن بالصبر يكون الظفر والتغلب على الصعوبات وتذليل ما يعترض في الطريق من العقبات. ولا بد أن يأتى يوم يكونون فيه قد اعتادوا ممارسة الأعمال الحربية وشغفوا حبا بالمعيشة العسكرية. فمتى أتيح لمحمد على بذلك أن يحصر كل أفكاره في مصر ويقصر عليها أنظاره وقلت حاجته إلى الجنود. فلا جدال في أنه سيضع للتجنيد أسلوباً يجعل قوامه النظام والإنصاف.

وعندئذ يتمسك بأهداب الصبر وبه يتغلب على الصعوبات ويكتسح بهيمته ما يعترضه من العقبات. وهاهو الحرس الوطني الذي أنشاه في الأزمنة الأخيرة لسوف يفلح في تعويد المصريين حب الخدمة العسكرية واستقراهم إلى القيام بواجباتها عن طيب خاطر. فإنه متى قضى الفلاح بعض الزمن في التدريب على الرماية بالبنادق والمناورات وألف معيشة المعسكر بالقرب من أهله، زال ما كان يغشاه حتى الآن من الكراهية للجندية وحل محل نفوره منها ميله الشديد إليها. وسوف يتمهد له، وهو يتدرب في المدرسة العملية للحرس الوطني، سبيل التحول والانتقال من النظام الملكي إلى النظام العسكري. ومتى راق له هذا النظام وحسن في نظره، لما يكون قد استقر في خلده من مطابقته لمبدأ الرفق والرعاية، فإنه لن يلجأ في مقاومته لتجنيد، وهو الضرورة التي ساقها واجب الدفاع عن الوطن، إلى تشويه نفسه ذلك التشويه الذي لم يجرؤ على ارتكابه إلا بدافع من الطيش والجهل والعناد. وعندئذ لا ترى الحكومة أن هناك ما يدعوها إلى الانبراء لمكافحة تلك النزعات الشريرة والنزعات الباطلة التي ليس من ورائها إلا الضرر المحقق لأصحابها فتتبع الطريقة الفرنسية لتجنيد إلا وهي طريقة الاقتراع التي لم توفق للعمل بها.

ولا ريب في أن الأمة والحكومة ستجنيان من هذه الطريقة فوائد جلية. أما الأمة، فبتوزيع المطلوبين للخدمة العسكرية عليها توزيعاً أساسه المساواة والعدل، وقوامه رعاية الرفق والإنسانية. وهو ما يبيت في نفسها الإقدام شيئاً فشيئاً بمحض إرادتها على الانتظام في السلك العسكري، فلا يعتمد وقتئذ على وسائل الشدة والإكراه في التجنيد. وأما الحكومة فبما تربحه من مزايا تنظيم جنديتها شأن كل حكومة رشيدة. وأهم هذه المزايا: الوحدة والبقاء والقوة.

الزراعة والصناعة
والتجارة

(١)

الأراضى القابلة للزراعة والأراضى المزروعة بمصر

١- الزراعة صفة خاصة بمصر وميزة لاصقة بها إلى حد يتسع معه مجال القول بأن الطبيعة ، إذا حرمتها العناصر الأولية اللازمة للصناعة لتوزيعها على كل قطر ما يميزه من الصفات عن سائر الأقطار، أرادت أن تجعل الزراعة عملها الذى ينبغى أن لا تتعداه إلى غيره من الأعمال.

ولقد رأينا فيما تقدم ماهية تركيب أراضى القطر المصرى وأنواع حاصلاته. وسنذكر بعض الشئ الآن عن الظروف الخاصة التى توجد الزراعة المصرية فيها الآن والأساليب المتبعة من الفلاحين للقيام بواجباتها. ونفيض فى بيان التفاصيل المتعلقة بالحاصلات الزراعية.

غير أننى أرى قبل ذلك، أن أطرح على أنظار القراء الجدول الآتى ببيان الأراضى القابلة للزراعة والأراضى المزروعة فعلا بالقطر المصرى.

٢- جدول الأراضي القابلة للزراعة والمزروعة

الوجه البحري

المديريات	الأراضي المزروعة	الأبعاديات	الأبعاديات من الأراضي الداخلة في المساحة ولكنها لم تزرع ولا تدفع ضرائب الأطنان
الغربية	٤٥٠٠٠٠	٤٠٩٠٠	١٥٥٥٠٠٠ فدان
منوف	٣٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠	أراضي الأبعاديات يوجد منها قسم مزروع تبلغ مساحته ٣٠٠٠٠٠ فدان يضم إلى مساحة الأراضي المزروعة
الشرقية	٣٦٠٠٠٠	٥٣٠٠٠	يخصم من مساحة الأراضي غير القابلة للزراعة هكذا الأراضي غير قابلة للزراعة
المنصورة	٣٢٠٠٠٠	١٥٢٠٠	١٥٨١٠٠٠
البحيرة	٢٤٥٠٠٠	٢٢٠٠٠	٣٠٠٠٠
قليوب	٠٢٩٠٠٠٠	٨٠٠٠	أرض غير قابلة للزراعة
الجيزة	٢٤٥٠٠	٦٤٠٠	١٥٥١٠٠٠
الأراضي المزروعة	٢٢١٩٠٠٠		«مزروعة» ٢٢٤٤٩٠٠٠
الأراضي «القابلة للزراعة»	٣٨٠٠٠٠٠		المجموع ٣٨٠٠٠٠٠٠
«غير»	١٥٨١٠٠٠		

مصر الوسطى

المديريات	الأراضي المزروعة	الأبعاديات	الأبعاديات من الأراضي الداخلة في المساحة ولكنها لم تزرع ولا تدفع ضرائب الأطنان
المنيا	١٥٢٨٠٠	٥٠٩٠٠	٦٦٧٢٠٠ فدان أراضي
بنى مزار	١٤٨٢٠٠	٤٩١٠٠	الأبعاديات منها
الفشن	١٦١٠٠٠	٣٩٢٠٠	٢٥٠٠٠ مزروعة الآن
بنى سويف	١٣٩٤٠٠	٣١٠٠٠	تخصم كما تقدم
الفيوم	١٢٤٠٠٠	٤٩٧٠٠٠	٨٦٨٦٠٠
الأراضي المزروعة	٧٢٥٤٠٠		٢٥٠٠٠
الأراضي القابلة للزراعة	١٥٩٤٠٠٠		أرض غير قابلة للزراعة ٨٤٣٦٠٠
الأراضي غير القابلة	٨٦٨٦٠٠		أرض مزروعة ٧٥٠٤٠٠
			المجموع ١٥٩٤٠٠٠

الوجه القبلى

المديريات	الأراضي المزروعة	الأبعاديات	الأبعاديات من الأراضي الداخلة فى المساحة ولكنها لم تزرع ولاتدفع ضرائب الأطين
إسنا	٤٧٣٣٧	٢٦٦٥٤	٢٩٧٢٤٠ فداناً أراضي
قنا	١٠٢٣٩٠	٥٤٢٣٢	الأبعاديات ومن هذا
فرشوط	٩٨٨٢٢٨	٣٧٦٦٦	المقدار يمكن حساب
جرجا	١٠١٢١٧	٤٩١٩٢	١٠٠٠٠ فدان أصبحت
سوهاج	١٣٤١٦٩	٣٧٣٦٦	قابلة للزراعة الآن هكذا
أسيوط	١٦٣٥٥٤	٣٠٠٣٠	٧٧٣١٧٤
منفلوط	٩٨٩٦٤	٢٦٧٥٤	١٠٠٠٠
ملوى	١٠٠٣٦٧	٢٤٣٠٦	أرض غير قابلة
أراضي مزروعة	٨٤٦٨٢٦		للزراعة ٧٦٣١٧٤
أراضي قابلة للزراعة	١٦٢٠٠٠٠		أرض مزروعة ٨٥٦٢٨٦
أرض غير قابلة	٧٧٣١٧٤		المجموع ١٦٢٠٠٠٠

مراجعة عامة

المديريات	الأراضي المزروعة	أراضي غير قابلة للزراعة	المجاميع	مجموع مساحة أراضي القنطر المصري ٧٠١٤٠٠٠ فدان
الوجه البحري	٢٢٤٩٠٠٠	١٥٥١٠٠٠	٣٨٠٠٠٠٠	
الوجه القبلي	٨٥٦٨٢٦	٧٦٣١٧٤	١٦٢٠٠٠٠	
مصر الوسطى	٧٥٠٤٠٠	٨٤٣٦٠٠	١٥٩٤٠٠٠	
	٣٨٥٦٢٢٦	٣١٥٧٧٧٤	٧٠١٤٠٠٠	

الرى

الرى بالترع - الرى بالآبار - السواقى - الشواذيف

٣- من الحقائق الثابتة أن سكان القطر المصرى وجهوا عنايتهم فى جميع الأزمان والأدوار إلى الانتفاع ، بقدر الإمكان، بما يحمله النيل إليهم سنويا من عناصر الخير والثروة. فكان إنشاء الترع وتعهدهم إياها بالترميم والإصلاح مما استجمعوا فى سبيله جهودهم وصرفوا نحوه عنايتهم. ومعلوم أن خصوبة أرض مصر سببها فيضان النيل، فلا بدع إذا كانت مسألة جر مياه هذا النهر لتغمر أوسع مساحة مستطاعة من الأرض، من أمهات المسائل التى شغلت خواطرم منذ قديم الزمان وارتبطت بحالها حالة مصر من يسر ورخاء أو ضيق وشقاء.

ولاتزال الحال اليوم كما كانت عليه فى ذلك العهد. فإن ثروة مصر تتوقف على تدبير مياه النيل، كما أن لأساليب الرى الآن نفس ماكان لها فى تلك العصور الغابرة. والترع بالوجه القبلى تشبه فروع الشجرة التى تتفرع عن أصلها الثابت، إذ تتجه نحو سلسلتى الجبال الحافتين بوادى النيل من جانبيه، حتى إذا بلغت إلى سفوحهما استطالت بالتوازى للصحراء وحصرت الأراضى الزراعية بين خطوطها المخصصة.

وقبل الفيضان تقام السدود عند مأخذ ترع الرى المتفرعة من النيل على ضفتيه، فإذا بدأ النيل بالارتفاع والنمو تقطع تلك السدود فتجرى المياه فيها إلى أن تلتقى بسد آخر تقف عندها فتفيض المياه على الأراضى التى يخرقها هذا الجزء المحصور بين السدين.

وكما كان الفيضان عظيما ارتفعت المياه دون السدود المشار إليها واتسع نطاق الأراضى المغمورة بالمياه.

وبعد ان تغمر هذه الأراضى وتروى ريا جيدا، تفتح السدود التى كانت المياه قد وقفت عندها فتتسكب فى القسم التالى لها وتملأه إلى أن تقف عند سد جديد فتفيض المياه على الأراضى التى يخرقها هذا القسم من الترعة المنحصر بين السدين، فإذا تم رى الأرض ريا جيدا وعمت المياه الأراضى البعيدة قطع السد الثالث، ويحدث فيما يليه ماحدث فى الذى قبله وهكذا بقدر ماتسمح به

حالة الفيضان ارتفاعا وانخفاضا.

ومأخذ المياه من النهر تتعدد على مسافات متفاوتة من شاطئه بترع خاصة يقصد بها زيادة إيراد المياه لتعويض الذهاب منه ضياعا بتفرعه وانبثاقه في الجهات المتطرفة من الترع وتوزعه على المسطحات الواسعة من الأراضي بالقنوات التى تشتق منها فى أطرافها.

وبذا يمكن تمثيل وادى النيل أثناء انتشار الفيضان من ضفتيه إلى سفوح الجبال الحافة به من جانبيه بمناطق تذهب صاعدة كالدرج وتنغمر بالمياه الغزيرة.

ولاستمرار الماء فوق الأرضى ومنعه من الانحسار عنها والعودة الى مجرى النهر أقيمت على ضفتيه جسور اتخذها الناس طريقا للمواصلات مدة الفيضان، بين الأماكن والنواحي المتناحية، حتى أن المياه المحجوزة كثيرا ما تبقى أثناء مرتفعة فوق مستوى سطح النهر. ومن ثم كان تعهد الجسور الأصلية الواصلة من قرية إلى أخرى أمرا من الأهمية بمكان مكين. وكذا السدود التى يتم بها فيضان المياه من الترع ذلك الفيضان التدريجى، فإنها جديرة بدوام التعهد والعناية، إذ لابد فى قطعها من أعمال الروية دفعا لما يمكن أن يصيب القرى البعيدة بسببها من الضرر.

يؤخذ مما تقدم أن مياه النيل تشبه الكنز. الثمين تقبض الإدارة على مفتاحه وتهيمن على وسائل تدبيره بتوحيد الاجرياء = الإجراءات = اللازمة لذلك وبقوة مابيدها من الوسائل. فإذا كانت الإدارة حكيمة مدبرة حاذقة مهية الجانب فقد سهل عليها التحكم فى العناصر النافعة التى يسوقها النيل فى جريانه تحكما يمهد توزيعها على الأرضى المراد إرواؤها بالعدل والنزاهة. أما إذا كانت جاهلة غاشمة ضعيفة متوانية فإنها تترك ذلك الكنز الثمين يفلت من يدها وتعرض ثروة البلاد وحياتها إلى خطر مدلهم وخطب جل.

٤- الري بالآبار

رأينا هذا المصنف أن فيضان النيل لم يكن العامل الوحيد لخصوبة الأرض فى مصر. إذ لو كان كذلك لكان هذا القطر أخصب بلاد الدنيا فى أحد فصول السنة وأقلها وأمحلها فى الفصول الباقية . وقد ذكرنا أن ارتشاح المياه خلال الطبقات الرملية التى هى فى مصر قاعدة الأرضى الصالحة

للزراعة، كان من أقوى عوامل نجاح الزراعة المصرية لقيامه بتغذية النباتات أثناء السنة كلها. ولنذكر الآن كيف استفادت الأراضي الزراعية في مصر منذ قديم الزمان بارتشاح المياه.

لما رأى الأقدمون أن المياه العليا من النيل تنحط في القيعان وتهوى إلى المنخفضات، ابتكروا فكرة الآبار المعروفة بالسواقي أو النواعير ليتمكنوا بواسطتها من رفعها إلى سطح الأرض وري المزروعات بها. وهذه الآلة الرافعة عبارة عن دولاب يدور حوله حبل ربطت فيه قدور من الفخار تسمى بالقواديس. ويحرك هذا الدولاب عجلة مسننة تدور حول محور تحركه ماشية من الجواميس أو الثيران.

والسواقي آلات بسيطة يصنعها الفلاحون أنفسهم ويركبنها في مواضعها ولقد جربت طرق عديدة لرفع الماء آلاتها كثيرة الالتباك والتعقيد، فلم تفلح التجارب بسبب ما تقتضيه من العناية التامة ودوام التعهد، بالترميم والإصلاح على أيدي صناع حاذقين. وما من مرة أجريت تجربة من هذا القبيل إلا وانجلت عن ضرورة الرجوع إلى طريقة الري بالسواقي والتعويل عليها، لاسيما وأنها منتشرة في طول البلاد وعرضها، حتى أن عددها في الوجهين البحري والقبلي الآن يربو على خمسين ألف ساقية. وأكثر ما تفيد السواقي المزارعين في الأماكن البعيدة عن النيل، لري الأراضي التي لا يفيدها الري بالفيضان. والحدائق المنتشرة في ضواحي المدن لا تروى غالبا إلا بمياه السواقي.

وتستعمل للري أيضا آلة أخرى غير السواقي ترى على ضفاف النيل وشواطئ الترع، خصوصا في الستة أشهر السابقة على الفيضان، وهي أبسط من السواقي. وقد وصفها الرحالون في رحلاتهم، واسمها «الشادوف» ويتألف الشادوف من رافعة معلقة في نقطة تقع في الثلث الأول من طولها بعارضة أفقية ترتكز على دعامتين رأسييتين قائمتين على جسر النيل أو التربة المراد رفع الماء منها لري الأرض.

وفي طرف الجزء القصير من جزئي الرافعة ثقل من الطين الجاف. وفي الطرف المقابل له - أي طرف الجزء الطويل من الرافعة عقدة مرنة يهبط منها قضيب إذا تحركت الرافعة احتفظ باتجاهه الرأسى. وبأسفل هذا القضيب

دلو من الجلد أو غيره يملأه العامل الواقف على أرض بارزة من الجسر، وذلك بأن يغرز طرف القضيب في الماء حتى إذا امتلأ الدلو رفعه بواسطة إلى أن يوازى صدره، فيسكب ما فيه في رأس جدول صغير. وتكرر هذه العملية فيندفع الماء ذاهبا في القناة إلى الأرض المراد ريها أو إلى حفرة أخرى، ليلتقطه رجل ثان فيرفعه بتلك الوسيلة عينها إلى رأس جدول آخر. وربما كان هناك، فيما عدا هذين الرجلين، رجال آخرون يفعلون فعله إذا كانت الأرض المراد ريها عظيمة الارتفاع. ومتوسط الارتفاع الذى يبلغ إليه الماء بواسطة كل شادوف ثلاثة أمتار تقريبا. وقد وضع أولئك الرجال على منحدر ضفة واحدة بحيث تكون حركة الماء في ارتفاعها ووصولها إلى سطح الأرض على شكل الدرجات التى يتلو بعضها بعضا.

ولقد قام بعض علماء الحملة الفرنسية بتجارب عديدة على هذه الآلات الرافعة. فتبين لهم منها أن العامل المصرى يستطيع أن يرفع بالشادوف ما متوسطه ٥٠ لترا من الماء في الدقيقة الواحدة إلى ارتفاع ثلاثة أمتار تقريبا. وهذا فوق طاقة القوة العادية للرجل الواحد. على الكيفية التى تقدر بها هذه القوة في أوربا. وظهر أيضا أن متوسط ما ترفعه الساقية الواحدة من الماء يعادل خمسة أمثال ما يرفعه الشادوف.

والشادوف في الوجه القبلى حيث شواطئ النيل أكثر ارتفاعا منها في الوجه البحرى، عظيم الانتشار. وقد يضعون خمسة شواذيف أو ستة بالتتابع على درجات متفاوتة الارتفاع لإيصال الماء إلى الأراضى المطلوب ريها. ولما كانت مأخذ ترع الرى من النيل بالوجه القبلى قليلة العمق، فإنها تبقى جافة أثناء الشطر الأكبر من السنة. ولكنهم يعالجون هذا النقص بالصناعة والحيلة. إذ يضعون العدد العظيم من الشواذيف على خط واحد بعضها لصق بعض. لإيصال الماء إلى تلك الترع. وكثيرا ما يقضى الرجال الموكلون بتلك الشواذيف النهار والليل أحيانا، لرفع الماء من النهر وكثيرا ما أدهش جميع السياح الذين ساروا في النيل أثناء التحاريق، منظر تلك الشواذيف متراسة على ضفتى النهر يحركها باستمرار رجال مجردون تقريبا من ثيابهم، وهم ينظمون حركة عملهم للتوفيق بينها في حالتى الخفض لأخذ الماء والرفع لسكبه بالأناشيد والأغاني المقفاة.

والأراضي التي تغمرها مياه الفيضان تعطى محصولاً واحداً. أما التي يمكن ريها على مدار السنة فتعطى في السنة ثلاثة محاصيل وفي بعض الأحيان أربعة.

(٣)

آلات الحراثة والأساليب الزراعية

المحراث - الكرك - الحصاد - النورج - تعاقب الزراعات في الأرض -
تمسك الفلاحين بالأساليب القديمة - العزبة المتخذة نموذجاً
٥ - لا تستدعى أعمال الزراعة في مصر كبير عناء، إذ إنها من السهولة بحيث لا يحتاج في القيام بها إلا إلى آلات في الغاية القصوى من البساطة. ولعل هذا هو السبب الذي لأجله حفظت الآلات الزراعية شكلها المصري منذ سكان مصر الأولين وهو الأمر الذي تؤيده النقوش الموجودة في الآثار القديمة.

المحراث

والمحراث المصري عبارة عن قطعتين من الخشب تلتقيان ببعضهما من الطرفين بحيث تكونان زاوية يتغير انفراجها بأداة مثبتة في القطعة السفلى، مارة في ثقب بالقطعة العليا. وهذه الأداة ذات ثقب عديدة تمر فيها قطعة خشب تجعل فتحة الزاوية ثابتة. وانفراج هذه الزاوية كثرة أو قلة يكون بحسب ما إذا أريد جعل الحرث عميقاً أو غير عميق.

أما القطعة الكبرى من القطعتين اللتين يتألف المحراث منهما فتتزل من المحراث بمنزلة العريش من العجلة. وفي طرفها عارضة خشب هي النير = الناف = الذي يعلق به الثوران أو غيرهما من الماشية المستخدمة في الحرث. ويوضع هذا النير على عنقي الثورين أو غيرهما ويثبت في مكانه من العنقين بحبال من الليف.. أما القطعة السفلى فيجتمع فيها بشكل عاشق ومعشوق قطعتان من الخشب تسهلان على الحارث توجيه المحراث نحو الجهة التي يرومها أو غرز سلاحه في الأرض بالقدر الذي يريده.

وبعد حرث الأرض يسوى سطحها ويمهد بقطعة من جذع نخلة تلقى عليها يسحبها ثور أو ثوران باتجاه عرضها. وقد يكون الجذع خفيفاً، ففي

هذه الحالة يقف فوقه الرجل الذى يسوق الثور ليزيده ثقلا. ولكى تصرف المياه من الأرض التى تروى ريا صناعيا تستعمل أداة تسمى «الزحافة» وهى عبارة عن لوح من الخشب فى طول متر بأحد طرفيه مقبض وبالأخر حبل، فيمسك رجل أو رجلان بهذا الحبل بينما يحرك اللوح من المقبض رجل آخر.

وبعد بذر البذور لا يعود الزارع إلى الغيط إلا لتنقيته من الحشائش أو ريه أو مباشرة الحصد. وتقطع سوق النباتات بالمنجل إذا لم يكن المراد انتزاعها بجذورها. وبعد الحصاد تجمع النباتات المحصودة حزما كبيرة ثم تلقى فى مكان خاص من الغيط الذى حصد محصوله أو فى مكان آخر قريب منه. لأنه بالنظر إلى قلة هطول الأمطار وسقوط الجليد فى مصر، لا يحتاج المصريون فى الاحتفاظ بحاصلاتهم إلى الحظائر المسقفة. بل يدعونها معرضة فى الغيط للهواء والشمس. وفى جهات الصعيد الأعلى تدرس الحبوب بالمواشى بعد نشرها على البيدر أى الجرن. أما فى الجهات الأخرى فتتم هذه العملية بالآلة المعروفة بالنورج. والنورج عبارة عن إطار أفقى يتألف من أربعة قطع كبيرة من الخشب متعاشقة بعضها ببعض. وقد ثبت فى جانبي قطعتين منهما عمودان أو أكثر من الخشب، فى كل عمود منهما ثلاث صفائح من الحديد الذى سمكه ملليمتران تقريبا مستديرة الشكل، ونصف قطر كل منها أربعون سنتيا. وهذه الأعمدة بصفائحها المستديرة تتحرك كالعجل بحيث تكون فى وضعها على شكل تتقابل فيه صفائح كل عمود مع وسط المسافات الواقعة بين صفائح العمود التالى له. قد ركب فوق الإطار كرسى غليظ الصناعة يجلس عليه سائق الثورين. وفى العارضة الداخلية من الإطار المربع حلقة يربط فيها عريش من الخشب يعلق بطرفها نير يوضع على عنقى الماشيتين المعلقتين بالنورج. فإذا فرشت حزم الحبوب المحصودة المراد درسها بتلك الآلة على شكل دائرة يختلف نصف قطرها من ثمانية أمتار إلى ثمانية عشر مترا، ومر النورج فوقها مرادائيا، داست الثيران والمواشى الحزم المفروشة بأرجلها. فيخرج الحب من سنابله بينما تقطع الصفائح المدورة السوق الجافة فيتكون منها التبن.

هذا والأراضى التى يخصبها الطمى الساسب من ماء النيل تنبت باستمرار. والفلاحون لا يتركونها لترتاح، بل يتابعون حرثها وزرعها. وغاية

الأمر أنهم يراعون التناوب في زراعتهم.

والفلاحون كغيرهم من الشعوب الجاهلة متمسكون بالأساليب الزراعية التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم. ولعل ذلك هو لأن الأعمال الزراعية لا تستدعى في مصر إلا اليسير من المشقة إذ يظهر أن الطبيعة في هذا القطر تتولى العمل الزراعى بنفسها، بحيث لا يحتاج هذا العمل من الإنسان شيئاً سوى القيام على الري وتعهده شئونه. فالفلاحون المصريون لا يحتاجون في الحصول على مايطمعون فيه من وفرة الحاصلات الزراعية إلى الأساليب الراقية التي استكشفها العلم الحديث. غير أنه لما كان تأثير العلم طيباً ومفيداً في كل مكان وزمان، فمن المحقق أنه سيأتى بأحسن الثمار وأجل النتائج في مصر. وهو ما أدرك سمو الوالى حقيقته، ولأجله أرسل فريقاً من الشبان إلى أوروبا للوقوف على ماوصل إليه علم الزراعة من التقدم عندنا.

ولقد تلقى لفيف من المصريين هذا العلم بمدرسة (روفيل) تحت إدارة العلامة (ماتيو دى دمبال) وأنشأ محمد على بالقرب من شبرى عزبة على المثال الحديث لتكون نموذجاً لما ينشأ من العزب في المستقبل، فجاءت ببعض الفوائد. ومحقق أن بالإمكان الاستفادة من هذا العمل، متى أتيح لسمو الوالى التفرغ التام لتوسيع نطاق الموارد السلمية في مصر التي مازال مضطراً إلى تعزيز قوتها الحربية بحكم الظروف والمؤثرات السياسية.

(٤)

الزراعات الكبرى في مصر

مواسم الزراعة : الزراعة الشتوية - القمح - الشعير - الفول -
العدس - الترمس والحلبة - الزعفران والبرسيم - الزراعة القيفية -
القطن - النيلة - الزراعة الصيفية : الذرة - الأرز - الكتان - دود القز -
جدول الحاصلات المصرية.

٦- مواسم الزراعة

يقسم فيضان النيل السنة إلى ثلاثة أدوار زراعية. ولعل هذا هو السبب الذى دعا قدماء المصريين إلى تأليف السنة المدنية من ثلاثة فصول فقط . كل فصل مائة وعشرون يوماً. ففى ارتفاع المياه فى النهر إلى أعلى مقياس لها

وانتشارها على الأراضى الزراعية بعد قطع السدود، كانوا يباشرون زراعة الأصناف التى لا تحتاج للسرى إلى أن تبلغ تمام النضج وتصلح للحصد، وتعرف أصناف هذه الزراعة باسم الفياضى. أما الزراعات التى تزرع فى الفصل نفسه فى أرض لم يسبق غمرها بماء الفيضان أو لم تحتفظ بهذا الماء على سطحها زمنا طويلا، فلا بد فى ريهها من الاستعانة بالوسائل الصناعية. وتلك الزراعات تسمى لهذا السبب بالزراعات الشتوية. وكل من هذين الصنفين من الزراعات أى الفياضى والشتوى تتبعهما الزراعتان المعروفتان بالصيفى والفيضى. وهاتان الزراعتان تقابلان الزمن الذى يكون النيل أثناءه فى التحريق، وتقتضيان لهذا السبب الرى الصناعى.

ومتى بدأ ارتفاع النيل تبتدىء الزراعتان الآتيتان وهما:

الزراعة الدميرى، وهى التى تحصل فى الأراضى الواطئة والزراعة النبارى وهى التى تحصل فى الأراضى العالية التى يحتاج ريهها إلى رفع الماء بالوسائل الصناعية.

٧- الزراعة الشتوى : القمح

تزرع الحبوب عادة فى الأراضى التى غمرت بماء الفيضان إذ تبذر بذورها عقب انحسار المياه عنها. والعادة أن يتم بذر القمح بالوجه القبلى قبيل شهر نوفمبر، وبالوجه البحرى قبيل بداية ديسمبر. وتبلغ البذور اللازمة للفدان الواحد ثلث الأردب المصرى بعد انكشاف الأرض ببضعة أيام.. ولا يعنى بتنقية البذور من الأجسام الغريبة التى تحتويها، ويحصل الحصد قبيل أوائل مارس بالوجه القبلى وفى أبريل بالوجه البحرى. ولقد ذكرنا فى الفصل المخصص للنباتات مقدار محصول مصر من القمح فلا حاجة هنا إلى التكرار. ويزرع القمح أيضا أثناء فصل الربيع فى الأراضى التى سبق زرعها بالبرسيم الحجازى، وتروى الحقول المزروعة به وصنفه أحسن بكثير من القمح القياضى ولكن زراعته تستدعى نفقات أكثر من زراعة الأصناف الأخرى.

٨- الشعير

بعد حرث الأرض حرثا خفيفا يبذر الفدان الواحد منها بثلاث كيلات إلى أربع من الشعير. ويتم الحصد بعد البذر بمدة تختلف من أربعة أشهر إلى خمسة.

٩- الفول

يُبذر الفول في الميعاد السابق تقريبا على الطمى الذى يتركه النيل ويغرز في الأرض بالزحافة وتبقى زراعة الفول في الأرض نحو أربعة أشهر ونصف. ويبلغ مايلزم للفدان الواحد من البذور من خمس كيلات إلى ست.

١٠- العدس

يبدأ بذرُه في نوفمبر من غير أن يعنى بالأرض المخصصة له، ولا أن تجهز تجهيزا خاصا لزراعته. ويكفى الفدان الواحد من البذور من ثلاث كيلات إلى ثلاث ونصف. ويتم الحصاد بعد ذلك بثلاثة أشهر أو أربعة.

١١- الحمص

يُبذر له في نوفمبر بالأراضي التي لا تحرث إلا لتغطية هذه البذور بالتراب. ويبلغ مايكفى الفدان من البذور من ثلاث كيلات ونصف إلى أربع كيلات.

١٢- الترمس والحلبة

يُبذر لهما في الأراضي الضعيفة وطريقة زراعتهما كطريقة زراعة الحبوب التي سبق الكلام عليها.

١٣- الزعفران

يُبذر له في الآن نفسه بلا تكلف عناء لإعداد أرضه، وغاية ما هنالك أن البذور تغطى بالتراب بواسطة الكرك. يلزم لزراعة الفدان من كيلة إلى كيلة ونصف من البذور. ويحصد الزعفران في مارس، وبعد حصده يجعل حزما ويحمل إلى الأمكنة التي ينزع فيها من بذوره فيترك بها من خمسة عشر يوما إلى عشرين حتى إذا جف تماما ضرب بالعصى لفصل البذور منه.

١٤- البرسيم الحجازى

البرسيم الحجازى من الزراعات العظيمة الأهمية للفصل الذى يلي انصراف المياه. لأنه المحصول الذى يعتمد عليه في تغذية مواشى القطر المصرى.

١٥- الزراعة القيسى : القطن

زراعة القطن حديثة في مصر وقد أشار بها على سمو الوالى في سنة ١٨٢١ فرنسى يدعى المسيو (جومل)، إذ أوقفه على مزايا هذه الزراعة وبين له مقدار فوائدها وما يستثمر من ربحها. وكان القطن الذى تنتجه مصر حتى ذلك

الوقت من الصنف الردىء، بخلاف الصنف التى اقترح المسيو (جومل) إدخال زراعته فإن أصله من الهند، وكان يزرع فى بعض حدائق القاهرة كنبات من نباتات الزينة. فلما وقف المسيو (جومل) عليه وسع نطاق زراعته وعنى بها فبقى اسمه مرتبطا بهذا المحصول الذى صار أهم الحاصلات الزراعية التى يعتمد عليها سمو الوالى.

وأرض مصر من أوفق الأراضي وأصلحها لزراعة هذا القطن. نعم إنهم يبذرونه فى جميع الأراضي على حد سواء، ولكن أصلح الأراضي له الأرض الكثيفة القوية الحافظة للرطوبة التى تستطيع شجيرات القطن أن تستمد من عناصرها العصير المغذى وأثمار اللوزات ومما يساعد نموه مجاورة الأراضي التى تزرع به للنيل حيث يتوافر الرى بالراحة وبأقل ما يمكن من النفقات.

ومما ينبغى رعايته فى زراعة القطن أن تكون الأراضي التى تزرع به بعيدة عن مضان فيضان النهر، لأن، بقاء الماء بجوار الشجيرات يميته حتما والفلاحون شديدا والاهتمام بحماية الأراضي المعرضة للفيضان، أثناء ارتفاع مياه النيل، بالجسور القوية من الطين. وشجيرات القطن تروى فى مواعيد دورية بالسواقي والشواذيف. وفى فصل الشتاء تروى كل خمسة عشر يوما مرة. أما فى الخريف فتروى كل اثنى عشر يوما إذا كان الندى كثيرا وكل ثمانية أيام إذا كان الزمن صيفا.

ويبذرا لقطن فى شهرى مارس وأبريل بالوجه البحرى. ويعنى قبل البذر بحرث الأرض مرة واحدة إذا كانت الأرض قوية. أما إذا كانت ضعيفة فيكرر الحرث مرتين أو أكثر، وفى الصعيد يبلغ إيفال المحراث فى الأرض ستة وثلاثين سنتيا وبعد الحرث على هذا المثال ترسم الخطوط متوازية على مسافة متر بعضها من بعض. ويكثر القليل عقب ذلك وتمهد الأرض، وتفتح جور قطر كل جورة من ثلاث بوصات إلى أربع وعمقها كذلك ويوضع فى كل جورة من بذرتين إلى أربع من بذور القطن التى يعنى بوضعها فى الماء قبل ذلك بنحو أربع وعشرين ساعة لتعجيل انباتها. وتجعل المسافات بين سوق شجيرات القطن نحو المتر تقريبا وعادة الفلاحين فى المزارع القريبة من المدن أن يبذروا مع القطن بذور الخضر والبقول للاستفادة بالأرض كلها. وفى زمن الفيضان تنقى الزراعة القطنية من الحشائش الطفيلية التى تنمو حول الشجيرات.

وفي السنة الثانية لاتعزق الأرض إلا للتنقية مرة أخرى وشجيرة القطن التي يبلغ ارتفاعها في السنة الأولى من متر إلى متر ونصف يزداد نموها في السنة الثانية. ولكن هذه الزيادة أضعف منها في السنة الأولى.

ومنذ السنة الأولى تقلم شجيرات القطن بأداة مخصصة لهذا الغرض أسمها المشذب. وتنزع جميع فروعها لاتخاذها وقودا وهذه العملية تعطى الشجيرات قوة جديدة وتقيها ضرر البرد الذي يسطو عادة على الفروع فيهلكها.

ويبتدىء جنى القطن عن السنة الأولى في شهر يوليو وينتهى في يناير إذا لم يكن البرد شديدا.

ومحصول الشجيرة الواحدة رطل وربع من القطن الخام عن السنة الأولى ومن رطل وربع إلى رطلين عن السنة الثانية، ومثل هذا القدر عن السنة الثالثة. ولكن الشجيرات تفقد في السنوات التالية هذه الخاصية ، ولذا كان من الأوفق تجديد زراعتها كل ثلاثة أعوام . وبالرغم مما تقدم فإن شجيرات القطن تستمر على الإنتاج زمنا طويلا فقد شوهد منها ما لايزال يثمر اللوزات بعد خمسين سنة، ومفهوم أن شجيرات القطن تنمو نموا عظيما في آخر السنة الثالثة وتتكاثر أغصانها وتزداد أوراقها.

وفي استطاعة رجل واحد أن يزرع أربعة فدادين من الأرض. بحيث يحتوى هذا المسطح أربعة آلاف غرس من شجيرات القطن. أما في موسم الحصاد فيستطيع العامل الواحد أن يجمع في اليوم خمسة عشر رطلا من القطن الى ثمانية عشر، وكيفية حليج الأقطان أنهم يأتون بآلة مؤلفة من اسطوانتين موضوعتين أحدهما فوق الأخرى ومثبتتين في قائمتين وطول قطر كل منهما تسع بوصات. فإذا تحركت هاتان الاسطوانتان بعجلة يديرها رجل بقدمه ووضع القطن بينهما، مر شعر القطن ووقفت البذور بدون أن تمر وسقطت في مكان معدلها. وفي استطاعة العامل الواحد أن يحليج في اليوم اثني عشر رطلا إلى خمسة عشر .

ويقتصر الفلاحون في تعبئة القطن على كبسه بالأقدام، كلما وضعوا جانبا منه في الأكياس. ولكن سمو الوالى استحضر من انجلترا مكابس من النوع المستعمل لهذا الغرض في أمريكا، وأمر بصنع آلات أخرى عل مثالها. وحجم

البالة على الطريقة المتبعة عند الفلاحين في تعبئتها متر ونصف ارتفاعا في متر واحد عرضا. أما حجمها إذا كبست بالآلة الأمريكية، فمتر واحد ارتفاعا ونصف متر عرضا.

١٦- النيلة

زراعة النيلة في مصر أهم الزراعات وأوسعها نطاقا. وهذا النبات أصله من الخارج وقد نجح نجاحا باهرا حتى شاعت زراعته في القطر المصري ولاسيما في الصعيد والفيوم. والعادة في زراعته أن يبذر له عقب الفيضان في الأرض السميكة الرملية التي يسهل ريها بمجاورتها للنيل أو الترعة المتفرعة منه. وقبل البذر تحرث الأرض مرة واحدة ثم يقسمونها مربعات صغيرة تخترقها قنوات متقاربة يضعون فيها البذور. وتروى الشجيرات مرة كل ثمانية أيام أو عشرة فإذا بدأت النباتات بالإزهار شرع باقتطاف الأوراق للمرة الأولى. فإذا تم نضجها وبلغت الغاية من نموها حصدت والبذور في آن واحد.

١٧- الزراعة الصيفية : الذرة

الذرة البلدية أساس غذاء الفلاحين الذين يفضلونها على القمح. وهم يبذرون لها في آخر مارس بالغيطان والحقول التي كانت مزروعة قبلا بالبرسيم الحجازي. والعادة إحراق الحشائش الطفيلية التي تكون الأرض المراد زرعها ذرة مغطاة بها. وبعد هذه العملية التي تزيد في خصوبة الأرض تحرث مرة واحدة ثم تحفر فيها جورات بالفأس يودع في كل جورة من ثلاث حبات إلى أربع وتغطي بالتراب وتقسم الأرض بعد ذلك إلى مربعات طول أضلاعها من أربع أقدام إلى خمس، تحيط بها حواجز يسيل الماء حولها، ثم يرسل إلى خطوط تعمل بواسطة الفأس. وبعد ري كل مربع رياً كافياً يطلق الماء في المربع الذي يليه وهكذا بالتعاقب، وفي الغالب يستغنون عن الري، ولكن المحصول يكون في هذه الحالة رديئا وقليلًا.

وتحصد الذرة خلال يوليو. وطريقة حصدها أن تقطع السوق من فوق الجذور بالمنجل أو الفأس. وفي فصل الخريف يزرع نوع من الذرة يسمى بالذرة البيضاء أو الذرة التي يسميها المصريون بالشامية. فتزرع مرتين في

السنة. مرة في الخريف وأخرى في الصيف. ويبلغ ما يلزم من البذور لزراعة الفدان الواحد نحو ربع أردب ويختلف المحصول من أربعة أراذب إلى عشرة ولكن الذرة الشامية يختلف محصولها للفدان الواحد من عشرة أراذب إلى أربعة عشر أردبا.

١٨- الأرز

لزراعة الأرز، وهى من أعظم الزراعات في الوجه البحرى أسلوب خاص وطريقة تغاير طرق المزروعات الأخرى. ولقد سبق لنا القول بأن مزارع الأرز شائعة في الوجه البحرى، ولا سيما في ضواحي دمياط ورشيد.

وقبل وضع بذور الأرز في الأرض، توضع في قفف تغمر بالماء من عشرة أيام إلى خمسة عشر يوما، حتى إذا لانت البذور نشرت على الحصير، ثم جعلت أكواما طول كل كومة ثلاثون قدما في عرض أربع أقدام وارتفاع قدم واحد، وغطيت بالبرسيم أو التبن وبقيت كذلك إلى أن تنبتها الحرارة. وهو ما يحدث عادة بعد يومين أو ثلاثة أيام من بقائها في هذه الحالة. وتبذر بعد ذلك في أرض تكون قد غمرت من قبل ببضعة أيام وحرثت حرثا متقاطعا وتركت أياما لترتاح، ثم أعيد حرثها وغمرت بالماء ثانيا ومهد سطحها بعد تشربها بالماء بالزحافة أو الكرك. والبذور التى تنتثر عليها تنغرز فيها بنفسها بحكم ثقلها، خصوصا وأن الأرض تكون وقتئذ متشبعة بالرطوبة الشديدة. وبعد ثلاثة أيام تطلق المياه مرة أخرى على المربعات التى نثرت عليها البذور وتترك كالسابق ثم تصرف عن الأرض وتروى الأرض على هذه الطريقة الى أن يتم نضج الارز. وإذا بقيت مزارع الأرز من غير ماء، فإن الزراعة تصبح معرضة للخطر.

والعادة أن يبدأ بزرع الأرز في شهر نوفمبر فإذا تم نضجه قطع بالمناجل وعقد حزما ثم نقل إلى بيدر (جرن) لتستخرج الحبوب منه بأداة شبيهة بالنورج يجرها ثوران بضع ساعات على تلك الحزم، بعد فك رباطها ونشرها على سطح البيدر. وبعد غريلة حبوب الأرز تعرض للشمس لتجف وتجرد من قشورها بضربها في هاون بمضربين يتحركان بوسيلة آلية خاصة. وبعد تبييض الأرز يعاد ثانيا إلى المضارب ويخلط بكمية من الملح تعادل خمس مقداره.

١٩- التيل أو القنب

الأرض الموافقة لزراعة التيل هي التي على ضفاف النيل وحفاف الترع، بشرط أن تكون دائمة الرطوبة. وقبل الشروع في مباشرة بذرها بالتيل تحضر بالكيفية التي تجهز بها لزراعة قطن جومل. والعادة البدء بالبذر في شهرى يناير وفبراير، فلا يمضى أربعة أيام حتى تنبت البذور فتظل آخذة بالنمو نحو خمسة عشر يوما، وتنقى عندئذ من الحشائش، وتكرر هذه العملية كل ثمانية أيام. ويلبث نبات التيل فى الأرض من ثلاثة أشهر إلى ثلاثة ونصف تقريبا، ويستدل بلونه على بلوغه حد النضج، وبعد حصده يترك معرضا للهواء عشرين يوما لتجفيفه، ثم يضرب لفصل البذور منه فالألياف التى تنتج عن هذه العملية تنقع فى الماء خمسة عشر يوما، فإذا تطورت بطور معروف عند أهل الفن فصلت بعضها عن بعض وعرضت للشمس ستة أيام ثم نظفت من الشوائب المخالطة لها وأرسلت بعد تنظيفها مع البذور الى الشون والمخازن المعدة لحفظها.

٢٠- الكتان

يزرع الكتان بطريقتين: الأولى لايعنى فيها بتجهيز الأرض المخصصة لزراعته سواء قبل البذر أو بعده، إذ يكتفى ببذر البذور عقب انصراف المياه والثانية يعنى فيها بحرث الأرض على الاتجاهين الطولى والعرضى وقسمتها إلى مربعات تبذر باليد، ثم تروى مرة واحدة فقط، ومتى ظهر النبات ونما نثر على الأرض تراب قلوى ثم رويت أثناء نمو السوق وتركت حتى تبلغ حد النضج فى مارس حيث تنتزع السوق وتنشر لتجفيفها، ومتى تم جفافها جعلت حزما صغيرة لاستخراج البذور منها إما بالضغط على أجزائها العليا أو بنفضها على أنية من الفخار. والطريقة الأولى شائعة فى الوجه البحرى والثانية فى الصعيد. وبعد الضرب توضع المحافظ المحتوية للبذور فى الرحى لاستخراج هذه منها. وعقب هذه العملية يربط التيل حزما ربطا شديدا وتعرض الحزم للشمس والندى زمنا ثم توضع فى المياه الراكدة أو الترع وضعا رأسيا لعطنها وتتقل بالحجارة حتى لاتطفو على وجه الماء. وتبقى كذلك خمسة وعشرين يوما تستخرج فى نهايتها وتطرح تحت أشعة الشمس لتجفيفها. ومتى زال ما بها من الرطوبة توضع على حجر وتضرب بعصى ثم

تنفض نفضا لنزع القشور اللاصقة بها. وتمرر بعد ذلك من بين أعواد متوازية كأسنان المشط لتنقيتها مما يكون متخللا أليافها من القشور.

٢١- دود القز أو دود الحرير

عُضد محمد على تربية دود القز في مصر، وغرس لهذا الغرض أكثر من ثلاثة ملايين شجرة توت، في الوجه البحرى وحده، وشجر التوت يورق عادة في يناير من كل عام، كما أن نقف دود القز للبيض يوافق شهر مارس أو ما قبله وبين النقف والميعاد الذى تغزل فيه دودة القز شهران تتطور أثناءها بالأطوار المعلومة عند المتفرغين لتربيتها.

ولا يصاب الدود في مصر بالآفات الوبية ولا تعرف هذه الآفات فيها. ولكن الحرارة الشديدة والعثير والندى مما يضر به. وهبوب رياح الجنوب المحرقة تجففه وتحرقه حتى يصير كالفحم

والأوقية الواحدة من البيض تعطى ٧٠٠٠ فيلجة أو شرنقة تزن الواحدة منها من نصف درهم إلى درهم. وفي سنة ١٨٣٣ بلغ محصول الحرير المصرى ٦١٥٠ أقة. أما البيض الذى يبيضه الفراش، فلا يستلزم عناية ما، لأن الذكور منه تزواج الإناث بنفسها. ويكفى عشرون يوما لتكون الفياالج على أتم ما يراد. أما البذور التى يبيضها فتحفظ شتاء في أكياس تدلى في الآبار.

٢٢- حاصلات القطر المصرى

نورد فيما يلى كميات الحاصلات الأصلية للقطر المصرى في سنة ١٨٣٣ ليقف القارئ على أهميتها التى نذكر أنها ما برحت حتى الآن حافظة لمكانتها:

هتکولتر	قمح
۲۶۶۸۰۰۰	فول
۱۲۸۸۰۰۰	شعیر
۱۱۹۶۰۰۰	ذرة شامی
۲۹۴۴۰۰	ذرة بلدی
۱۳۸۰۰۰۰	عدس
۱۲۸۸۰۰	حمص
۴۶۰۰۰	ترمس
۳۶۰۰۰	حلبة
۱۱۰۴۰۰	أرز رشیدی
۵۵۲۰۰	أرز دمیاپی
۹۲۰۰۰	بذر کتان
۴۰۴۸۰	بذر خس
۱۴۷۲۰	بذر سمسم
۳۳۱۲۰	بذر قرطم
۲۷۶۰۰	
کیلو جرام	قطن شجری
۴۸۹۱۷۰۰	قطن حشیشی
۲۰۰۱۱۵	سكر
۲۸۲۴۴۹	زعفران
۲۶۶۰۰	حناء
۱۵۵۵۴۵۰	کتان
۸۰۰۴۶۰	نیله
۹۴۷۱۰۰	أفیون
۱۸۴۵۰	حریر
۷۹۹۵	

(٥) الصناعة

٢٣- الصناعة المصرية قسمان قسم يشمل الصناعات الكبرى أعنى الصناعات التى أنشأ محمد على لأجلها المصانع الكبرى الكثيرة. والثانى الصناعات الصغرى المحلية والأنوال المختلفة التى يكسب الأهليون أقواتهم من ممارسة العمل بها.

١

الفاوريقات = الشركات =

مغازل القطن وفاوريقات الأقمشة القطنية: ببولاق والقاهرة والوجه البحرى والصعيد - فاوريقات الأقمشة الكتانية - مبيضة بولاق - بصم الأقمشة والمناديل - فاوريقات الأنسجة الحريرية - معامل الحبال - فاوريقة الجوخ فى بولاق - فاوريقة الأنسجة الصوفية - فاوريقة الطرابيش فى فوه - مسبك الحديد - معمل الأسلحة القابلة للحمل - فاوريقة السكر - معاصر الزيت - معامل النيلة - معامل البارود وملح البارود والمواد الكيميائية - أفكار وخواطر عن فاوريقات مصر ومعاملها.

أنشأ والى مصر عددا عظيما من الفاوريقات، فمن مغازل القطن الى فاوريقات الأقمشة الكتانية الى معامل البصمة (الشيت) والجوخ والصوف. إلى مصانع الطرابيش والأقمشة الحريرية إلى مسابك الحديد ومعامل الأسلحة الخ.

٢٤- مغازل القطن وفاوريقات الأقمشة القطنية

فى أنحاء متفرقة من القطر المصرى عدد غير قليل من معامل غزل القطن، فقد بلغ عدد هذه المعامل خمسة عشر تحتوى ١٤٥٩ نولا منها ١١٥ للغزل الغليظ و ١٣١٤ للغزل الدقيق. أما أنوال النسيج فأكثر من ١٢٠٠ تنسج فى فصل الشتاء أكثر من ٣٥٠٠ قطعة من القماش يوميا، وفى الصيف نحو ٦٠٠٠ يوميا كذلك، أما ما تنتجه فى السنة من قطع القماش فيبلغ على حساب المتوسط مليونى قطعة.

وأتقن تلك الفاوريات وأكملها فاوريقة (مالطة) ببولاق، وهذه البلدة هي المرفأ الصناعى والتجارى لمدينة القاهرة. فإن القطن يغزل فى المعمل ثم ينسج أقمشة مختلفة الأنواع. وقد أعتنى ببنائها وجعل فيها للعمل ثمانية وعشرين عجلة وأربعة وعشرين محلاجا. وهذه الآلات تصل إليها الحركة من أحد عشر طنבורا يحركها ثمانية أبقار بالعدة المعدة لهذا الغرض. وكل عجلة يشغل عليها رجل وثلاثة أطفال يعقدون الخيوط التى تنقطع بحركة الآلة. وفى فاوريقة مالطة مائتا نول تنسج خيوط القطن. ومما ينسج فيها قماش المسلمين والباتست. وبجوار هذه الفاوريقة معملان آخران لغزل القطن يعرف أحدهما بمعمل إبراهيم أغا والآخر بمعمل السبتية.

أما القاهرة ففى حى الخرنفش منها فاوريقة من هذا النوع تحتوى مائتى عجلة، عشر منها للغزل الغليظ والباقي للغزل الدقيق. وتحمل المائة الأولى مائة مغزل وثمانية مغازل على خط واحدة والمائة الثانية مائتين وستة عشر.

وفى الوجه البحرى تسعة فاوريات لغزل القطن ونسجه واحدة منها فى قليوب وهى فسيحة الجوانب بعيدة الأطراف تحتوى سبعين عجلة وثلاثين محلاجا تحركها ثلاث عدد. وفى قرية شبين من مديرية منوف فاوريقة أخرى لغزل القطن فيها سبعون عجلة وثلاثون، محلاجا يحركها عدتان. وفى المحلة الكبرى فاوريقة بها مائة وعشرون عجلة وستون محلاجا يحركها ثلاث عدد، والخيوط التى تغزل هذه الآلات تنسج فيها قماشاً على مائتى نول.

وفاوريقة غزل القطن فى زفتى من مديرية الغربية تحتوى خمسة وسبعين عجلة وخمسين محلاجا يحركها ثلاث عدد. وفى بلدة ميت غمر فاوريقة من هذا النوع.

أما فاوريقة المنصورة فتحوى مائة وعشرين عجلة وثمانين محلاجا يحركها أربع عدد وفيها مائة وستون نولا لنسج الخيوط التى تغزل فى مغزل الفاوريقة. وفى دمياط مصنع للغزل شبيه بالمتقدم، وفيه مثل ما يحتويه عددا من الانوال.

أما فاوريقة دمنهور ففيها مائة وخمسون عجلة وثمانون محلاجا. وفى فاوريقة رشيد مائة وخمسون عجلة وثمانون محلاجا يحركها أربع عدد وهى خاصة بنسج أقمشة القلوع.

وفي الوجه القبلى مصانع للغزل والنسيج ازداد عددها منذ بضع سنوات، وأهمها الفاوريقتان اللتان ببنى سويف وأسيوط ولقد أنشأ الوالى فاوريقتا أخرى بالمنيا وفرشوط وطهطا وجرجا وقنا وإسنا.

٢٥- فاوريقتا الأقمشة الكتانية

أما فاوريقتا الأقمشة الكتانية قموزعة كالسابقة على جملة من المديريات، ولاسيما مديريات الوجه البحرى. وما تصنعه من الأقمشة يستنفد بالقطر المصرى. ويبلغ ما تنتجه فى السنة ثلاثة ملايين قطعة، يصدر قسم كبير منها إلى (تريسته) و(ليفورنة) وفى القطر المصرى ثلاثون ألف نول لنسج أقمشة الكتان.

وفيما بين بولاق وشبرى حظيرة فسيحة جدا تسمى (المبيضة) تجرى فيها، على الأقمشة المنسوجة فى تلك الفاوريقتا، عمليات التبييض المختلفة. وفى هذا المكان تبصم هذه الأقمشة أيضا بالألواح أو الاسطوانات الميكانيكية. ويبلغ ما يبصم منها فى الشهر ثمانمائة قطعة. وفى السنوات الأخيرة أخذت الأقمشة المبصومة فى المبيضة (البصمة) تنافس الأقمشة الواردة من نوعها من انجلترا وألمانيا، ولذلك قل المستورد منها قلة محسوسة. وهى تمتاز على هذه بدقة النسيج وجمال الرسوم وثبات الألوان. وتبصم فى المبيضة أيضا مناديل الموسلين التى يعصب النساء بها رؤوسهن.

٢٦- فاوريقتا الحرير

كانت الأقمشة والحريرية تنسج بمصر فى كل زمان ولكن محمد على هو الذى وسع نطاق صناعة نسجها بغرسه المقدار العظيم من شجر التوت. ولقد أحضر من الأستانة عمالا أخصائيين لنسج الحرير على الطريقة التى ينسج بها فى هذه المدينة وفى الأقطار الهندية. وبمصر الآن نحو مائة نول مستعملة لنسج الحرير والأسلاك الذهبية وعمال هذه الصناعة يشتغلون بالمقطوعية وهم على غاية من الحذق فى صناعتهم. لأنهم يجيدون النسيج ويظهرون البراعة فى تحليته وتنميته بالرسوم اللطيفة.

٢٧- معامل الحبال

إن القنب الذى أصبح محصوله أقل منه قبل أن يبلغ محصول القطن ذلك

المبلغ العظيم بتعصيد سمو الوالى، لم يعد يستعمل الآن لنسج المنسوجات ، منذ اقتصر فى استعماله على صنع الحبال اللازمة للبحرية، وبالقاهرة مصنع كبير للحبال ترسل مصنوعاته إلى ترسانة الإسكندرية.

٢٨- فاوريقة الجوخ

ببولاق فاوريقة لصناعة الجوخ على اختلاف أنواعه وألوانه وبالرغم من أنها لم تأت منذ البداية بالنتائج المرضية المنتظرة. جاءت فيما بعد بفوائد لا تنكر، خصوصا منذ تولى أمرها خمسة من الفرنسيين انتخبوا من بين صناع معامل الجوخ فى مقاطعة (لنجدوك) بفرنسا. وقد عكفوا على إدارة هذا المصنع منذ أربعة عشر عاما. فتمكنوا من تدريب لفيف من الغزاليين والنساجين والكباسين والقصاصين والصباغين والطبايعين من الأهالى الوطنيين. ولم يكتف سمو الوالى بما تقدم. بل أرسل لفيفا من الشبان المصريين لتعلم هذه الصناعة بفاوريقات الجوخ بمدينتى (سيدان) و(البوف) بفرنسا. فاستطاعوا بعد عودتهم، وقد تدربوا على العمل، إفادة البلاد بما حصلوا عليه بخبرتهم وتجاربهم.

وتنسج الأجواخ المصرية من الصوف المصرى الذى يرد أجود أصنافه من دمنهور والمنيا. ويستعمل لهذا الغرض أيضا الصوف المستورد من الأيالة التونسية.

أما الجوخ المصنوع فى الفاوريقة المصرية فحيد الصنع متين الثيلة، ومنه تتخذ ملابس الجند، واللون الذى يلون به فى الغالب هو الأزرق الغامق والأزرق اللازوردى والأحمر القرمزى والأحمر البرونزى والأخضر الغامق. ويبلغ ما ينسج منه فى الشهر الواحد ١٣٥٤٠ مترا تقريبا.

وتصنع فى الفاوريقة الآنفة الذكر - فيما عدا الأجوا - منسوجات من الصوف لملابس النوتية المصريين (البحارة) وأغطية (بطاطين) للنوم. والصوف المستعمل لهذا الغرض هو الصوف الغليظ الوارد من الوجه القبلى. وبالقطر المصرى ٤٠٠ نول لنسيج الصوف.

٢٩- فاوريقة الطرابيش

فاوريقة الطرابيش التى أنشأها سمو الوالى توجد الآن ببلدة فوه. وقد

نجحت نجاحا باهرا في صناعتها لأنها تنتج مصنوعات جيدة جدا بأيسر كلفة. وقد وضعت في الأصل تحت تاجر من المغاربة واستدعى صناعها من حاضرة تونس المشهورة بصناعة الطرابيش على اختلاف أنواعها. أما الصوف المتسعمل لصنع الطرابيش فيستورد من أراضى (آليكانت). وبعد شغل الطرابيش وكبسها تصبغ باللون الأحمر القرمزى والعفص والطرطير والشب. وتصنع فاوريقة فوة من الطرابيش يوميا ستين دستجة، = دستة = منها ما يصلح للبس عساكر الجيش ومنها ما يباع على الأهلين.

٣٠- فاوريقات السكر

يصنع السكر بكميات عظيمة في الوجه القبلى، ولكن الطرق التى يستخرج بمقتضاها لاتزال متأخرة. وفي سنة ١٨١٨ أنشأت الحكومة ببلدة الايدمون من مديرية المنيا فاوريقة للسكر. على نمط فاوريقات بلاد (الانتيل) بأمريكا. ثم أسست فاوريقتان من هذا النوع، أحدهما في ساقية موسى والأخرى في الروضة من مديرية المنيا. وبلغ ما صنع في الايدمون من السكر سنة ١٨٣٣ نحو ١٢٩٩٥ قنطارا من السكر الخام، وفي ساقية موسى ٥٢٠٠ قنطارا، وفي الروضة ٣٢٠٠. وفي هذه الفاوريقات يستقطر شراب الروم بمقادير عظيمة.

٣١- مصانع النيلة

أنشئت حديثا جملة مصانع للنيلة، واستدعى إلى مصر بعض الهنود لتعليم المصريين تحضير هذه المادة. وقد خص سدس محصول هذا النبات ليصنع في تلك المصانع التى أنشئت حديثا بالبلاد الآتية وهى: شبرى والشهابية من مديرية قليوب، العزازية من مديرية الغربية، ثم في ميت غمر والمنصورة ومنوف وإبيار والأشمونين وبركة السبع والمحلة الكبرى والجيزة وأبو تيج وطهطا وأسيوط وملوى ومنفلوط والفشن.

٣٢- معاصر الزيت

يحتوى الوجه البحرى مائة وعشرين معصرة لاستخراج الزيت من بذرة الكتان. وهناك آلات أخرى لعصره من السمس (السيرج) وبالقاهرة أربعون معصرة لعصر الزيت من بذور القرطم. وفي الوجه القبلى يعصر الزيت من بذور الخس. وهذه الزيوت على اختلاف أنواعها داخلة في احتكار الحكومة.

٣٣- معمل البارود وملح البارود (نترات البوتاسا) والمواد الكيميائية

بالقرب من المقياس في الطرف القبلى من جزيرة الروضة معمل للبارود يديره فرنسى كان سابقا من مستخدمى معمل بارود (سان شاماس) من مقاطعة (بوش دى رون) والحكومة تأخذ كل حاجاتها منه.

وقد أنشأ المسيو (هيم) الكيميائى الفرنسى جملة مصانع مهمة لتحضير المواد الكيميائية اللازمة للفاوريقات ، وعلى الخصوص منها حامض الكبريتيك. وتحت تصرفه الآن جملة مناجم لاستخراج ملح البارود الذى تستخرج هذه المادة منه بالتبخير، والمعامل التى من هذا القبيل ستة أذكرها فيما يلى مقرونة بكمية ما أنتجته فى سنة ١٨٣٣ :

معمل القاهرة	٩٦٢١ قنطارا
معمل البدرشين	١٦٨٩ قنطارا
معمل الأشمونين	١٥٣٣ قنطارا
معمل الفيوم	١٢٧٩ قنطارا
معمل أهناس	١٢٥٠ قنطارا
معمل الطرانة	٤١٢ قنطارا

٣٤- مسابك الحديد

ببولاق مسبك كبير بلغت النفقة على بنيته وحدها مليوناً ونصف المليون من الفرنكات. وكان إنشاؤه بمقتضى تصميم وضعه المهندس (جالويه) الإنكليزى مطابقاً للتصميم الذى بنيت بحسبه مسابك الحديد فى لوندرة. وقد تولى هذا المهندس بالاشتراك مع معلم وخمسة عمال من الإنكليز. إدارة الأعمال فيه وهم يرأسون خمسين عاملاً من المصريين، ويصبون من الحديد المصهور فى كل يوم ما يبلغ وزنه على وجه التقريب خمسين قنطاراً من الحديد، وما يصنع من الأدوات والآلات فى هذا المسبك خاص بالبحرية المصرية، والفاوريقات المختلفة التى أنشأها سمو الوالى.

وفى ترسانة القاهرة مسبك يقوم بحاجات المدفعية والبحرية، وفيها أداة طرق المعادن لعمل صفائح النحاس المستعملة فى تجهيز السفن . وهذه الأداة تحركها آلة بخارية شديدة الضغط قوتها عشرون حصاناً.

٣٥- معمل الأسلحة القابلة للحمل

أهم معهد للصناعة في مصر ، بل أحق المعاهد التي من نوعه بالذكر هو . بلا خلاف معمل الأسلحة القابلة للحمل. ولست أظننى قادرا على وصف هذا المعمل بأحسن مما وصفه به جناب الدوق (دى راجوز) فيما أبداه من الآراء بشأنه. ورأيه في مثل هذا الموضوع حكم قاطع، فقد قال: «مما أعجز عن توفيقته حقه من المدح معمل الأسلحة القابلة للحمل الذى يبدع من هذه الأسلحة أكثر استجماعا لضروب الكمال والأتقان. والمعامل من هذا القبيل في مصر ثلاثة، زرت منها معمل القلعة باحثا مدققا منتقدا فرأيت ان الأسلحة التى تصنع قد جمعت وسائل الإتقان والإحسان المتوافرة فيما تصنعه معاملنا من نوعها. والنوع الذى يصنع فيها منقول عن الطراز الفرنسى. وجميع الاحتياطات الكفيلة بجودة نوع السلاح تتخذ في معامل مصر كما تتخذ في معاملنا. سواء. وقد اتبعت فيها طريقة توزيع العمل والمراقبة المتبعة في معاملنا فإن كل شئ يعمل بالقطعة بحسب تعريفه مقرر. وخلاصة القول فإن معمل السلاح الذى زرتة يناظر أحسن معامل فرنسا وأرقاها نظاما وجودة مصنوعات وأكثرها رعاية لأصول الاقتصاد.

٣٦- آراء وخواطر في فاوريقات مصر

أثار إنشاء الفاوريقات في مصر انتقاد الكثيرين. وقد بنوا انتقاداتهم على الأسباب الآتية:

أولاً- أن الآلات الضرورية للفاوريقات لا يمكن صنعها ولا تركيبها في القطر المصرى. وأن مصر ستبقى مضطرة دواما إلى الاستمداد بأوربا فيما يتعلق بالوسائل الأولية لنشر الصنائع في أرجائها.

ثانياً- إنه لمن المتعذر جدا تعهد الآلات بالعناية في قطر لا مناص من إصابتها فيه بالتلف بسبب الحرارة والعثير والرطوبة.

ثالثاً- إن الأمة المصرية تنقصها جميع المزايا والفضائل التى تحملها على الميل الى الصناعة والانصباب عليها. دع ماجبلت عليه من الدعة والتراخى وقلة البصر بالعواقب وعدم الحرص على الضبط والدقة . فهى لا تملك إذن شيئا من العبقرية التى تتطلبها الصناعة فيمن يتصدرون لممارستها.

رابعاً- إن الحكومة لم تخلق للتفرغ إلى تسيير الصناعة في الطريق الطبيعي الذي ينبغي أن تسير فيه ، وإنما يتوقف اتساع نطاق الصناعة على التنافس فيها بشرط أن يهيمن على إدارة شئونها أخصائيون يهتمهم بالذات رقيها في مدارج النجاح. لا موظفون ليس من مصلحتهم الاشتغال بها ولا باعث هناك يستنفروهم إلى التنافس في طلب الربح منها.

خامساً- إن من المتعذر على المصريين فيما وصلوا إليه الآن من الحضارة أن ينتجوا شيئاً يضارع في الجودة ما تنتجه الشعوب الغربية التي أمعنت البحث في العلوم الطبيعية والرياضيات ولا تزال حتى اليوم تقطع الأشواط البعيدة عن طريق نموها.

سادساً- إن مصر لن تستطيع استعمال الآلات البخارية مادامت تستعين بالأجنبي في استيراد الوقود منه، ولا تستطيع لحرمانها من الشلالات والأنهار السريعة التيار استخدام الوسائل المائية لتوليد القوة المحركة. يضاف إلى ما تقدم أن القوة التي تنتجها الحيوانات لا تكفى في هذا الزمن لأداء الأعمال الكبيرة ولا تلبيح إلا بالصناعات الصغرى التي ما برحت على الفطرة الأولى.

سابعاً- إن مصر مضطرة إلى الاستقرار والبقاء في نطاقها الزراعى بحكم خصوبة أرضها وطبيعة طقسها وأخلاق سكانها.

وهذه الاعتراضات على مكان مكين من الصواب والحق كما هو ظاهر، ولا غبار عليها، إذا نظرنا إليها من جانب الإطلاق والتعميم. وقد أيدت الحوادث بعض ما ورد فيها، إذ كثيراً ما تبين النقص والعيب في المصنوعات المصرية مع زيادة كلفتها على ما يقابلها من المصنوعات الأوروبية. وأن هذا الفارق لم يمنع سمو الوالى من المضى في تجاربه الصناعية مراعاة لشعور الحب الذاتى والنصرة الوطنية.

ومع هذا فمما ينبغي الاعتراف به أن نظر محمد على على البعيد في السياسة. كان القائد الرائد له في سبيل اقراره على إنشاء المعامل الكثيرة. فلقد كانت همته منصرفة إلى تخويل مصر كل ما ينقصها من عناصر الاستقلال وأسبابه. وأن له من هذه الجهة الحق في اتخاذ الوسائل الكفيلة بتخلصه من ربة التبعية الصناعية لأوربا.

ولا ينبغي ان يتطلع أحد - باسم النواميس الصارمة التي أقرها علم الاقتصاد السياسى. إلى تجريد مصر من بعض الحاصلات الصناعية التي تساعدنا ظروف كثيرة على انتاجها كالغزل والأنسجة القطنية والكتانية والصوفية الخ. فإن وفرة المواد الأولية ورخص أجور العمال يجعلان مصر من أكثر البلاد صلوحا لإنتاج هذه المصنوعات. ولايسع الذين تحملهم بعض البواعث على استحسان أفكار سمو الوالى وابتكاراته من جهة الصناعة إلا أن ينصحوا له بترك إدارة تلك المعامل زمنا ما لذوى الخبرة والاختصاص من الأوروبيين . فإن من البديهي، إذا كانت إدارة المعامل قد كلفت الكلف الفادحة ولن تأت من الثمرات بما يعوض بعض ما أنفق في سبيلها من الأموال الباهظة والكلف الفادحة، أن يكون السبب في ذلك عدم حسابان الحكومة مايتأتى عن اخلائها - في غير الأوان المناسب - سبيل المديرين والمعلمين الأوروبيين الذين عهدت إلى كفاءتهم إدارة تلك المصانع وتعليم صناعاتها، لمجرد انصراف رغبتها إلى تعيين غيرهم من الأتراك والمصريين في وظائفهم، قبل أن يحصل هؤلاء على الخبرة والدربة الضروريتين في عملهم. ومع أنهم لايزالون خلوا من الكفاءة وصفرا من العلوم التي تؤذن لهم بتتبع أثر الصناعة الأوروبية في تقدمها المطرد وانسياقها المستمر إلى الأمام.

ومما يجىء بالفوائد الجزيلة إجازة أصحاب المشاريع الخاصة باستغلال تلك الصناعات. شيئا فشيئا، حتى تصير في معزل عن الحكومة، وفي بعض تلك المعامل - إذا لم يكن فيها كلها - من المزايا النافعة والخواص الثمينة ما يغرى المضاربين من أصحاب المشاريع بالإقبال على استثمارها. وأعتقد أن الحكومة المصرية باتباعها هذا الأسلوب الجديد وسيرها على هذا الدرب، لابد واصله في النهاية إلى خير النتائج وأجداها نفعا. وهى إذا فعلت ذلك ستشجع الصناعة تشجيعا نافعا بوضعها تحت تأثير المصالح الشخصية، دع أنها بذلك تستدرج إلى مصر كثيرا من رؤوس الأموال الأوروبية التي لانظن أنها تجد موطننا لاستثمارها أوفق من البلاد المصرية.

(٢)

الصناعات الصغرى والفنون والمهن

الطوائف الصناعية . الفنون الغذائية: تجهيز القمح — الفرانجون-
الجزارون- معامل الدجاج- تحضير الفول- الخل- الاستقطار- صحن
البن- صنع الفطير — الفنون الخاصة بالكسوة: الغزل- اللبد والحريير
وتبييض الغزل والقماش والصبغ والتلميع والتطريز والمخيشات- الدباغة-
صناع الأحذية والسروج- الخياطون- صناع الكراكي — الفنون الخاصة
بالسكنى: البناءون- الحدادون- نجارو العمارات والنجارون الدقيون-
صناع المزاليج من الخشب- الخراطون- صناع الفخار- صناع الزجاج-
الجوهريون والصياغ- صناع السلاح- الحصرية — صناعات مختلفة :
الشبكجية- المزينون- التجار.

٣٧- الطوائف الصناعية

يمتاز نظام الصناعات الصغرى في مصر بعلامات يفيد القراء الوقوف
عليها. فإن كل حرفة يدوية يتألف منها طائفة يرأسها شيخ يتولى النظر في
شئونها، ولمشائخ الطوائف الصناعية نواب أو وكلاء يعرفون بالنقباء،
يختارهم إما حكام المدن التي يقيمون بها وإما السلطة العليا. وكلما رأت
الحكومة ضرورة إلى النظر في نظام تلك الطوائف أو تحصيل ما تفرضه عليها
من الفرض خاطبت في ذلك مشائخها. فيتولون توزيع الفرض المطلوبة مثلا
على كبار الصناع التابعين لطائفتهم.

وليس تأليف الطوائف قاصرا على الصناعات النافعة. بل يتناول المهن
الدنيئة كمهن الجعيدية والآلاتية والشعراء الذين يروون القصص
والحواة والرقاصين والعوالم والمومسات فكل طائفة من هذه الطوائف شيخ
تخضع لسلطته وينوب عنها لدى الحكومة ويتولى شئونها ويدافع عنها عند
الحاجة.

وكان للصوص قبل محمد علي رؤساء معترف بهم، يأخذون على أنفسهم
استرجاع الأشياء المسروقة في مقابل مكافأة تعطى لهم، وهى التى يسمونها

بالحلاوة. وهو مايؤخذ منه أن هذه العادة التي كانت شائعة عند قدماء المصريين قد استمرت خلال القرون الطويلة إلى العهد الحاضر.

ولكل صناعة مدة يتدرب العمال خلالها على العمل فيها:

فإذا أراد الصبي المتعلم أن يصير معلما أو «أوسطى» بعد حذقه الصناعة التي اختارها تحت مباشرة عامل ذي حيثية وصفة ذهب إلى شيخ الطائفة مصحوبا بمعلمه. ومتى اجتمع به سلم عليه وقال له: «لنقرأ الفاتحة» فيقرأ الشيخ هذه السورة مع الصبي والحاضرين جميعا، وبعد القراءة يسأله الشيخ عن سبب زيارته له مع معلمه، فيقول المعلم إن صبيه قد تعلم الصنعة وأحكمها وأنه يرغب أن يصير معلما وأن يمارسها في مصنع خاص، فيدنى الشيخ الصبي منه ويحزمه بحزام خاص عنده وينادى به عضوا من أعضاء الطائفة وعلى أثر هذه الأجرىاء = الإجراءات = يدعو المعلم الجديد شيخه وكبار رجال الطائفة، إلى وليمة في بيته إشعارا بامتثانه منه وشكره له، فيجيب المدعو. هذه الدعوة أما المعلم الجديد فلا يطالب بدفع شيء ما من المال إلى الشيخ في مقابل تكريسه إياه معلما على الوجه السابق.

وإذا ترك الصبي معلمه، فإنه لا يستطيع الدخول في معمل ما إلا إذا زار الشيخ ليبسط له الأسباب التي حملته على مغادرة معلمه الأول، فإذا ثبت له من بيانه أن الانفصال حصل لوقوع مشاجرة بين الاثنين تداخل الشيخ في الخلاف. وكثيرا ما يؤدي تدخله إلى إزالة الخلاف ووقوع الصلح بين الصبي ومعلمه. أما إذا ثبت له أن السبب مصلحة مالية فلا أسهل من أن يدخل العامل . بموافقة الشيخ وواسطته، في خدمة معلم آخر.

وفي القاهرة المهن والصناعات كافة على اختلافها، لكل مهنة مثل هذا النظام الغريب وأهم المهن ما كان عدد الصناعات فيها أعظم منه في غيرها كمهن الطباخين والخبازين وصناع معاصر الزيت والخل والنساجين والدباغين والخياطين وصانعي الفخار والحدادين والنجارين والخراطين والطرزية والعقادين. وفيما عدا هذه الصناعات والحرف مهن كثيرة يزاولها جم غفير من الناس، منها مهنة تجهيز الفول المدمس وتحضير الجير والجبس والطوب والفحم.

ومن المحتمل أن تكون الأساليب المتبعة في مزاولة هذه الصناعات الآن مطابقة لها في عهد قدماء المصريين، وأن ماتعطيه من النتائج والثمرات تماثل ماكان يجتنى منها في أيامهم بفارق بسيط يستدعيه تأثير طول الزمن بتعاقب الأجيال. لاسيما وأن المصريين امتازوا، على توالى العصور، بالاحترام التام الثابت للعادات والتقاليد القديمة والتمسك بها، كما عرفوا بالحرمان من عبقرية الاختراع إلا أنهم يتفوقون في مقابل ذلك، بالحدق في التقاليد بمعنى أنه إذا أعطى أحدهم نموذجا ما أحكموا تقليده وذهبوا في إتقانه إلى الغاية القصوى.

ويجلس الصناع القرفصاء أو متربعين أثناء اشتغالهم عملا بتقاليدهم المألوفة. ويؤدون وهم في هذا الوضع، أعمالا يعجز صناعنا عن أدائها. وقد أعجب السياح برشاقتهم ومهارتهم في استخدام أرجلهم.

ولكن أتى على وصف الحرف الأصلية التي تتألف منها الصناعة الصغرى وصفا سريعا، لا أظننى قادرا على تقسيمها تقسيما يوافق المنطق والصواب كتقسيم العلامة (جومار) لها في الجزء المخصص لوصف القاهرة من مذكرته الجميلة المدرجة في المجلد الثامن عشر من كتاب «تخطيط مصر» وفيه بيان شاف للصناعة والمهن الميكانيكية. فاقترء به سنقسم الفنون والمهن المصرية الصغرى إلى أربع رتب: الأولى للمهن التي يرتبط بها غذاء الإنسان، والثانية للمهن التي يتعلق بها لباسه، والثالثة والرابعة للمهن الخاصة بالمساكن وتأثيثها وزخرفتها، وبالجمله كل مايتعلق باحتياجاته البيتية.

٣٨- المهن الغذائية: تحضير القمح والخبازون

يستعمل المصريون لطحن القمح طاحونا بسيطا مؤلفا من حجرين تحركهما عدة يعلق بها عادة حصان أو بغل.

وهم يخبزون الخبز في أفران بسيطة، مرتين كل يوم. والخباز يدخل الخبز الذى يرد إليه في الفرن لإنضاجه ثم يخرج منه بعد أن يلبث فيه بضع الدقائق الكافية لنضجه.

٣٩- الجزارون

الجزارون قليلو العدد في القطر المصرى تبعاً لقلّة استنفاد اللحوم فيه بسبب عدم إقبال طبقة الشعب عليها.

٤٠- معامل الدجاج

لمعامل الدجاج - أى أفرانه شهرة متصلة من قديم الزمان، ويستطيع المصريون بواسطة هذه المعامل تفريخ الدجاج بمقادير عظيمة، ويستعيضون بتأثير حرارتها عن التفريخ الطبيعى. ولا خلاف أن الذين ابتكروا هذه الطريقة هم قدماء المصريين، دعاهم إلى ذلك أن الدجاج المصرى لايميل، إلى احتضان البيض.

والأمكنة التى يعالج المصريون فيها عملية التفريخ المتقدمة تسمى «معامل الفروج» ويحتوى الواحد منها عادة من أربعة إلى ثلاثين فرناً مصفوفة على خطين متوازيين، يفصلهما عن بعضهما ممر ضيق، والمعمل عبارة عن خلية صغيرة إرتفاعها ثلاثة أمتار وطولها كذلك وعرضها متران ونصف متر. وتنقسم فى منتصف الارتفاع إلى طبقتين بواسطة سقيفة من الآجر ذات فتحة تسمح بمرور الإنسان من بيت إلى بيت - أى من طبقة إلى طبقة. ولكل من البيتين باب ينفتح على الدهليز - أى الممر الضيق المتوسط بين الصفين، وأبواب مثله فى الحواجز الجانبية التى بين كل خلية والخلية التالية لها، بحيث تتصل جميع الخلايا الموجودة على صف واحد بعضها ببعض. وتخصص البيوت السفلى لوضع البيض المراد تفريخ الدجاج منه والعليا لوضع النار، وهى ذات شكل خاص يلائم الغرض المطلوب منها.

والعادة أن يوضع فى كل فرن من الأفران برسم التفريخ من ثلاثة آلاف بيضة إلى أربعة تبسط على سطح البيت الأسفل من المعمل فوق حصيرة، طبقات يفصلها بعضها عن بعض شئ من الأبسطة أو التبن. وبعد ترتيب البيض على هذا المثال تضرم النار فى ثلث عدد الأفران تقريبا بحيث تكاد تكون المسافات بينها متساوية ، وبعد أربعة أيام أو خمسة تضرم النار فى أفران غير الأولى، وعقب مضى أيام مثلها، تضرم فى الأفران الباقية. وكلما أوقدت الأفران اللاحقة عنى بإطفاء الأفران السابقة. وتجدد النار ثلاث مرات أو أربعاً فى كل يوم، وتذكى قبيل الليل لدفع طراوة الجو فيه. ويكلف أحد العمال بغشيان

البيوت السفلى جملة مرار في اليوم لتقليب البيض وإبعاده عن الأماكن التي تزيد درجة الحرارة فيها عنها في الأخرى. وفي اليوم الخامس يتفقد كله على ضوء المصباح ليعزل مالا يكون منه قد أخصبه الديكة.

والحرارة الضرورية لنجاح عملية التفريخ هي ٣٢ من ميزان (ريومور). والمصريون المزاولون لهذه الصناعة يجهلون موازين الحرارة (الترمومتر). ولكن العادة أكسبتهم شعورا لا يخطئ في تقدير درجة الحرارة الضرورية. وهذا الشعور سر صناعتهم وقوامها. وهم لا يكسبون إلا بعد المرات الطويل المتواصل على العمل سنوات عديدة. وإذا كانوا لا يطلعون أحداً على سر هذه الصناعة إلا إذا كان من أبنائهم أو أقاربهم فلا عجب إذا تأصل هذا الشعور فيهم وصار فطرة يتوارثها الأبناء عن الآباء.

ويتم تفريخ البيض بعد عشرين يوماً إلى خمسة وعشرين من وضعه في الأفران ويبلغ متوسط البيض الذي لا يفرخ الخمس تقريباً. وبمجرد فتح المعمل. في فبراير أو مارس يتسابق أهل القرية ومعهم البيض الذي يرومون تفريخه. والمألوف أن يرد صاحب المعمل إليهم منه ٥٠ فرخاً عن كل مائة بيضة وما يتبقى هو ربحه، وبعد انتهاء مدة الاحتضان في معمل واحد نقف عن بضع عشرات الألوف من الكتاكيت. وقد قدر عدد الكتاكيت التي تخرج سنوياً من معامل الفروج في مصر، وعددها مائتا معمل، بـ ٢٤٠٠٠٠٠٠ فرخ - أي كتكوت.

٤١- تحضير الفول

يرد الفول على القاهرة بمقادير جسيمة، ويباع في طرقاتها بعد تجهيزه تجهيزاً ينحصر في نقعه يومين، في الماء حتى ينبت ثم يطبخ على طريقة معلومة عند الأهليين.

٤٢- الخل

بالقطر المصري عدد عظيم من المعامل المخصصة لعمل الخل. والخل المتخذ من البلح أكثر شيوعاً من غيره. ويستخرج الخل أيضاً من الزبيب.

٤٣- الاستقطار

بالقاهرة جم غفير من الناس يمارسون مهنة الاستقطار. فهم يستقطرون

العرقي من البلح والزبيب ليشربه المسيحيون ومما يستقطر فيها أيضا ماء الورد.

٤٤- البن

يحمص البن ثم يصحن في هاون من (الجرانيت) محفور على شكل مخروط مقلوب، ويقوم بصحنه ثلاثة من الدقاقين أو إثنان بمدقات يحملونها بأيديهم، ويدق كل منهم دقة بحيث تتتابع الدقات. وزنة المدق تختلف من خمسة كيلو جرامات إلى ستة، ويقرن الدقاقون حركاتهم أثناء رفع المدق وإنزاله بنشيد مقفى بينما يدلى طفل صغير يده إلى قاع الهاون ليحرك البن، مهتديا في ذلك بقوافي النشيد، فهو في غنى عن متابعة حركات الدقاقين بنظره لكى يقى يده خطر سقوط المدقات عليها. وكثير من الأوربيين الذين يشهدون هذه العملية يخشون على يد الطفل الصغير أن تحطمها المدقات. إذا لم يظن اتقاءها بنظره. ولكن الشعور بموازين الشعر خصية راسخة فيهم ينطبعون عليها منذ نعومة الأظفار، بحيث لا يخشى وقوعهم في الخطأ أثناء عملية صحن البن.

ولعل أصل هذه الخصية أن المعلم في مدارس الأطفال يدرّب تلاميذه على حركة تمرينية يبدو - أول وهلة - أنها تستدعى الازدراء والسخرية ولكنها تستر تحت مظهر الغرابة فائدة مؤكدة جلية النفع في جملة من الحرف الصناعية التى يزاولها المصريون. وبيان ذلك التمرين أن المعلم يضرب بمقرعته المنضدة التى أمامه، ثم يطلب من الغلام أن يضع يد على النقطة التى لمستها المقرعة وأن يسحبها على الفور ويكرر هذه العملية مسرعا شيئا فشيئا فيتابعها الغلام فى كل حركة من حركاتها بوضع يده على تلك النقطة. وقد يعتاد هذه المتابعة حتى يبلغ الأمر به إلى القدرة على اجتناب الضربات وتوقيها.

٤٥ الفطاطرية

قلنا إن المصريين شديداً الشره إلى الفطير. وللفطاطرية عدد عظيم من الحوانيت بحى السكرية فى القاهرة والشرهون الى فطيرهم من أفراد الطبقة الدنيا يقصدون إلى هذه الحوانيت لتناولها فيها.

٤٦- الفنون المتعلقة بالملابس: الغزل

قبل أن ينشئ محمد على فاوريقات الغزل الكبرى. كان القطن والكتان والصوف يغزله الرجال والنساء بالمغازل اليدوية، ثم يلفونه بطريقة بسيطة حول «الطيار» ومفهوم أن هذه الصناعة القاصرة على الاحتياجات البيتية لم يبق لها اليوم شأن يذكر. وقبل أن تحتكر المواد الأولية ذات الأهمية برسم المعامل الكبرى، كان المصريون ينسجون غزلهم بأجهزة بسيطة جداً ويتخذون منه الأقمشة الكتانية والقطنية والصوفية.

٤٧- اللبد والحريز وتبييض الخيط والقماش

والصبغ والتلميع والتطريز

كان ينسج بمصر أيضاً بعض الأقمشة من الحريز. كما كان عدد وافر من الصناع يشتغلون بالطرابيش اللبدية أو اللبد. وكانت صباغة الأقمشة صناعة شائعة إلا أنها كانت غير متقنة. وكان بالقاهرة معامل عديدة لتلميع الأقمشة وتبييضها.

أما المطرزون الذين كان لهم عدد عظيم من المحال يزاولون فيها هذه الصناعة فكانوا يمتازون بدقة عملهم وأنيق رسومهم واتساق نقوشهم. وكان أبرعهم في صناعة التطريز أولئك الذين كانوا يطرزون أنواع الجلود بأسلاك الذهب والفضة.

٤٨- العقادون

العقادون المصريون بارعون جداً في صناعتهم. وهم يصنعون «القيطان» (الكردون) من القطن والحريز وأسلاك الذهب والفضة كما يصنعون أيضاً «الشراريب» من الحريز وأسلاك الفضة والذهب أيضاً.

٤٩- الدباغة

الدباغة بالقطر المصري صناعة واسعة النطاق. والمصريون يتبعون فيها أساليب خاصة بهم يستعينون بها على ديبغ جلود البقرات والجواميس والأغنام والماعز. الخ. وهم بارعون جداً في تحضير الجلد السختيان الذي هو جلد الماعز مصبوغاً باللون الأحمر أو الأصفر أو غيرهما من الألوان بعد العناية بدبغه.

٥٠- الصرمانية والسروجية

يصنع بالقاهرة كل ما يلزم للبلاد من الأحذية (المزد والمركوب والبابوج). وفي حى البرادعية بها جم غفير من الصناع يصنعون سروج الخيل وبرادع البغال والحمير.. الخ. أما اللبب وهو ما يشد من سيور السرج فى صدر الدابة ليمنع استئثار الرجل، والزمام - أى المقود، والقيد، فتصنع فى حى السكرية . وهذه المصنوعات تزخرف غالباً بنقوش جميلة تشغل باليد على الجلد.

٥١- الخياطون

الخياطون المصريون كثيرو العدد بالقاهرة. ويقومون بخياطة ثياب الأهالى من أبناء البلد، وقد يتصدرون أحياناً إلى خياطة ملابس السيدات. وبها أيضاً خياطون من اليونان والأرمن يهيئون ملابس أفراد الطبقة العليا، ولا سيما العثمانية منهم. وهم بارعون فى صناعتهم ولهم دراية تامة فى تكليف الثياب بالقيطان الحريرى أو الذهبى ينمقون به أشكالا تطريزية جميلة ورسومها فى غاية الحسن. ومعتقدى أن قليلاً من الخياطين بأوروبا يتفوقون عليهم فى هذا النوع من أعمال الخياطة.

٥٢- الفراءون

عامّة الفرائين بمصر من اليونان والأرمن. وعددهم قليل جداً . لأنه لا يلبس الفراء فى الأمة المصرية سوى أفراد طبقتى العظماء والعلماء.

٥٣- الفنون المتعلقة بالمباني: البناءون

المواد المستعملة عادة لتشيد المنازل هى: الآجر (الطوب الأحمر) والطوب النىء وأحياناً أحجار النحت والمصيص والجير.

أما الطوب الذى مادته الأولى طمى النيل مخلوطاً، على نسبة قليلة أو كثيرة، بالطين الأبلين، وأحياناً بالرمل فيجفف فى الشمس أو يحرق فى أفران خاصة به.

أما أحجار النحت فتأتى من مقالع جبل المقطم أو من أطلال المباني القديمة.

ويحرق البناءون الحجر الخاص بعمل الجير بطريقة تقرب من الطريقة

المتبعة في أوروبا لهذا الغرض. ويطفئونه بكيفية مماثلة لكيفية إطفائه عندنا. غير أن النقص يظهر بادية في كيفية تحضير المونة، فإنهم، بدلا من أن يخلطوها بالرمل الموجود في متناول أيديهم من أجود الأصناف وأصلحها للبناء. يخلطونه بالتراب المضاف إليه رماد الأفران.

أما المصيص فيؤتى به من حلوان وغيرها ويقوم على استعماله عمال مخصوصون، لطلاع داخل المنازل به وقد ذكرنا قبلا أن الجبس الأبيض غير موجود عندهم وأنهم يستعملون الجير أحيانا فيما نستعمل نحن المصيص فيه.

والمباني التي يشيدها المصريون المحدثون لا تتوافر فيها مزايا المتانة والإتقان التي امتازت بها الأبنية الفخمة والآثار الضخمة في عهد أجدادهم. فإنهم يتخذون لأبنيتهم المواد الرديئة النوع والدبش الصغير. ويدخلون في أسماك الجدران عوارض من الخشب لتمكينها، مع أنها تمنع أجزاء الجدار من التلاحم والتراكن وتآليف كتلة واحدة لاتشوبها شائبة.

وآلات البنائين المصريين وأدواتهم ناقصة كثيرة العيوب وهي تنحصر في مملسة صغيرة (مجارة) من الحديد ضيقة أما المسطرة والمثلث وخيط الرصاص والمقاييس فلا تستعمل إلا في أحوال نادرة جداً. وهذا هو السر في أن جدرانهم لا تطابق في الغالب الاتجاه العمودي، وتبقى لهذا السبب معرضة لخطر السقوط بأدنى طارئ. ومن النادر جداً أن تكون الأبواب والنوافذ مستطيلة الشكل أو غير منحرفة الجانبين. ومما ينقصهم في صناعة البناء أيضا الضبط ورعاية المضاهاة (السيمتريا) وبعد هذا وذاك فإن المباني تقام غالبا من غير أن يوضع لها تصميم سابق أو تخطيط بل يبلغ من الأمر أنهم يضيفون غرفة إلى غرفة أخرى من غير تدبر ولا حساب ولا يفكرون فيما هنالك من ضرورة إيصال الضوء إلى الغرف المبنية والتوصيل بينها بالأبواب إلا بعد البناء.

٥٤- نحاتو الأحجار

المنازل المبنية بحجر النحت قليلة العدد، لأن المسلمين لا يرمون إلى بقاء المباني فكأنما هم يبنون للحال لا للمستقبل ولا يهتمون أقل اهتمام بنماذج الهندسة العربية الجميلة التي هي في مطرح أنظارهم أثناء تنقلهم جيئة

وذهابا في كل مكان. وهذا هو علة عدم انتشار فن نحت الأحجار وتنسيقها في مصر وارتقائه. والآلات التي يتخذها النحاتون المصريون غليظة جداً، وإذا كانوا لا يعملون بها إلا في صنوف الأحجار اللينة فإنهم لا يكادون يشعرون بمشقة ما في مزاولة عملهم. ومع هذا فلا يزال يوجد نحّاتون بارعون في صناعة نحت الصّوان أى الجرانيت ومجيدون في تكييفه بالصّور والرسوم المطلوبة

ويوجد، غير نحّاتى الأحجار فريق من الصناع متفرغين لقطع البلاط ووضعها في أماكنه ويسمون بالمبلطين، أما سقوف المنازل فيعهد عملها إلى رجال لا يمارسون غير هذه الصناعة. وطريقتهم في ذلك أنهم يربطون بعروق السقف الخشبية البوص منضما بعضه إلى بعض ثم يطرحون عليه حصيرا ينشرون فوقه طبقة من المونة هى التى تعلوها غالبا طبقة البلاط.

٥٥- الحدادون

آلات الحدادين وأدواتهم غليظة جداً وأتاتين = أفران = النار عندهم تذكى نارها المنافخ المزدوجة. والسواد الأعظم من الحدادين بالقاهرة يسكنون الحى المعروف بالنحاسين.

٥٦- النجارون

أجود الأخشاب الشائعة الاستعمال فى النجارة هى أخشاب اللبخ والسنط والنبق والجميز، وفيما خلفه لنا قدماء المصريين من المصنوعات الخشبية الدلالة الواضحة على أنهم لم يستعملوا من الأخشاب إلا ما ذكرنا. أما الآن فيستورد المصريون ألواح الخشب بمقادير وافرة من (تريسته) و(البندقية) و(ليفورنه) و(الشام) و(كرمانيا).

والنجارون المصريون فى غاية الحذق والبراعة ولا يتخذون المناضد (البنوكة) للاشتغال عليها، لأنهم يشتغلون قاعدين أو جاثين على ركبهم. والفارة التى يستعملونها شبيهة بالمستعملة عندنا وهكذا الشأن فيما يتعلق بالمنشار. والأداة الأصلية التى يستعملونها فى جميع الأعمال كالبرى والشق والدق والخلع هى القدوم.

وفن النجارة بمصر أقل تقدما فيها من جميع الفنون، إذ من النادر أن

ترى المصريين يضمون أجزاء الخشب بعضها إلى بعض عاشقا ومعشوقا. بل يبرونها من الأطراف في زوايا حادة ثم يثبتونها بعضها ببعض بالمسامير. وقلما يستعملون الخوابير لهذا الغرض، وهذا هو السبب الذى يعرض أشغالهم الى سرعة التلف ويجعلها قبيحة الصناعة. على أنه قد كان من نتائج انتشار الترسانات والمصانع التى أنشأها محمد على إتقان هذا الفن اليدوى بتخريج عمال على يد بعض الأسطوات الأوربيين، أحرزوا شيئا من الحذق والبراعة فى صناعتهم.

٥٧- صانعو الضيب أو المزاليج

صانعو الضيب — أى المزاليج فريق كبير من النجارين.. والسبب فى ذلك أن أغلب الأبواب لاتغلق إلا بمزاليج من الخشب. وكل مزلاج يتألف من ثلاث قطع.

٥٨- الخراطون

الخراطون يقطنون بالقاهرة حى الشعراوى. وهم كثيرو العدد جداً لأنه ما من قطعة من قطع الأخشاب التى تتألف منها النوافذ والمشربيات وغيرهما إلا وهى مخروطة بيدهم. والخراطون أحذق صناع القطر المصرى بلا ريب، وصناعتهم من أكثر صناعاتها تقدما وإرتقاء. وآلات الخراط عندهم ليست مثبتة، كما فى أوروبا — على البنوكة فتضطرهم الى الاشتغال واقفين. بل إنها عبارة عن جهاز واطىء يشتغلون أمامه جالسين وهو مؤلف من عروستين إحداهما ثابتة والأخرى متحركة — فالمتحركة تبتعد أو تقترب لتضغط الأشياء المراد خرطها بين نقطتين. وبالرغم من أن آلات الخراطين بسيطة وناقصة، إلا أن الخراطين بلغوا من الحذق والرشاقة وخفة اليد وضبط حركاتها فى صناعتهم مبلغا يمكن معه القيام بأدق الأعمال التى تعهد إلى كفاءتهم. وهناك عمال آخرون يحذقون مهنة الخراطة إلى حد أنهم يخرطون أشياء كثيرة غير الخشب كالكهرمان والعاج لعمل أنابيب الشبكات منها.

٥٩- صناعة الفخار

صناعة الفخار معروفة فى القطر المصرى منذ قديم الزمان، وتصنع بالقاهرة والصعيد أصنافا مختلفة من الأوانى.

ولقد سبق لنا الكلام على أهم المصنوعات الفخارية وأشهرها كالقلال التي تصنع في جهات عديدة من القطر المصرى وخصوصا في قنا . ولا شك أن الأسباب التي تجعل الناس يفضلون القلال المصنوعة في قنا على غيرها، نعومة الطين الذى تصنع به وجمال الأشكال التي تعطى لها أثناء صنعها والروائح العطرية التي يخلطها الصانع بها والخصية التي توافرت فيها من تبريدها الماء وجعلها إياه المذاق سائغا للشاربين.

ويصنع في تلك المدينة أيضا نوع من الجرار (الأزيار) تصدر منه مقادير وافرة إلى القاهرة. ونقلها إلى هذه المدينة يحصل بطريقة غريبة فإنهم ينكسون تلك الأزيار في الماء ويربطونها بعضها إلى بعض بحيث يتألف منها ما يشبه طوفا كبيرا يدفعه تيار النيل إلى الجهة المراد تصديرها إليها.

وفي أغلب مدائن القطر المصرى العليا معامل للفخار تختلف عن بعضها في جودة الصناعة أو رداءتها. ففي ملوى ومنفلوط تصنع أوعية العجن الجسيمة (المواجير) والجرار الكبيرة (الدنان) التي تستعمل في المصانع والمدابغ.

وفي بلد (البلاص) يصنعون البلايص. وصانعوها يجيدون حرقها بحيث تكون غير قابلة تقريبا لنفوذ الماء من مسامها.

ويستعمل سكان الأرياف البلايص لادخار ما يلزمهم في بيوتهم من ماء النيل. فترى جماعات النساء رائحات غاديات بين منازلهن والنهر يحملن البلايص على رؤوسهن في وضع يلفت النظر ويقع الموقع الحسن من القلب.

وأنواع الفخار العادية تصنع في الوجه القبلى. وفي القاهرة وبعض قرى الصعيد مصانع لعمل أحجار الشبكات، وفي هذه العاصمة معامل لصناعة الفناجين مدهونة بالطلاء اللامع الملون.

ومفهوم أن المصنوعات المصرية من الفخار لا تطل عادة بهذا الطلاء، ولذلك تحفظ لونها الطبيعي. فالقلال مثلا ترى في بعض الأحيان رمادية اللون. ولكن القسم الأكبر منها لونه أحمر. إلا أن الفناجين التي تصنع بالقاهرة على المثال المتقدم غليظة الشكل.

أما التي يستعملها الأغنياء فواردة، كغيرها من أصناف الفخار الدقيقة

الصنع ، من البلاد الألمانية والإيطالية.

٦٠- الزجاج

صناعة الزجاج في مصر ناقصة وغير متقنة. ومصنوعاته من القناني وغيرها رديئة الصنف واطئة النوع. ولقد أنشأ محمد علي بالإسكندرية مصنعاً للزجاج تشبه مصنوعاته مثلها في أوروبا. وفيه صنعت جميع ألواح الزجاج التي استعملت في السنوات الأخيرة بأنحاء القطر المصري كافة.

ولقد أنشئ حديثاً معمل آخر للزجاج بالقرب من ضفة المحمودية على مسافة أربعة فراسخ من الإسكندرية.

ولما كان الوقود من الوسائل الحيوية التي ينبغي الاحتياط لها حرصاً على حياة المصانع التي أنشئت بالقطر المصري وبقائها. فقد اتجهت النيات السامية إلى غرس غابة كبيرة من شجر الصفصاف وغيره من أصناف الأشجار الأخرى التي تصلح أرض مصر لنموها بالقرب من ذلك المعمل.

٦١- الجوهريّة والصياغ

للصياغ بالقاهرة حى خاص بهم والبارعون منهم في هذه الصناعة مقرهم خان أبى طاقية، وهم جميعاً من اليهود والأقباط ولم تبلغ الصياغة بمصر من الإتقان المبلغ الذى أدى إليه عندنا التفنن في البهرج والبذخ. أما الجوهريّة الذين في القاهرة فأكثرهم عددا الأرمن والمنتسبون إلى الآستانة. ولهم معرفة عجيبة بتركيب الأحجار الكريمة التي يكلفهم بتركيبها العظماء والوجهاء من الأتراك. وفي حى مرجوش يشتغل الصناع بالمرجان والكهرمان ويتخذون منهما العقود والمسابح .. الخ.

٦٢- صانعو السلاح

مقر صانعى السلاح بالقاهرة الحى المعروف بسوق السلاح وهم أخصائيون في صناعتهم فلا يشتغل بعضهم إلا بالأسلحة النارية ولا البعض الآخر إلا بالأسلحة البيضاء. وهم لا يظهرون في ممارستهم هذه الصناعة شيئاً من الخصائص الجديرة بالذكر، فإن أجمل الأسلحة التي يقتنيها الأغنياء مستوردة من أوروبا. وإذا كان لصانعى السلاح بالقاهرة عمل فيها فإنما هو الترميم والإصلاح ليس إلا.

٦٣- صناعة الحصير

استعمال الحصير في مصر بالغ من الانتشار حدا يسهل معه إدراك جسامه عدد العمال الذين يزاولون هذه الصناعة. وتصنع الحصر بالقاهرة والفيوم وأحسنها ما يصنع من أعشاب السمار وأجود السمار ما يؤخذ من الجهات القريبة من بحيرات التطرون وتصبغ هذه الأعشاب بالألوان المختلفة وتجعل بحيث تكون أشكالاً ظريفة في الغالب على الشكل المعين.

٦٤- الصناعات المختلفة: الشبكجية

لا جرم أن يكون صانعو أنابيب الشبكات كثيرى العدد في قطر أعتاد أهله جميعاً بوجه التقريب تدخين التبغ. وتتخذ هذه الأنابيب عادة إما من البوص أو خشب الكراز أو الياسمين أو الزئبق.. ويثقب هذا الخشب بمثقب يحركه وتر قوس تمسك به يد الصانع.

٦٥- الحلاقون

يمتاز الحلاقون المصريون بالحدق والرشاقة في مهنتهم والطريقة التي يتوخونها في الحلاقة غريبة في ذاتها وجديرة بأن يطلع القراء عليها ولست بمحدثهم في شأنها بشيء من عندياتي وإنما اقتصر في تكوين فكرة لهم عنها بإيراد ما ذكره الدكتور (براير) في مؤلفه النفيس الموسوم «تسع سنوات في القسطنطينية» عن تلك الطريقة. فإن أساليب الحلاقين المصريين مطابقة لأساليب زملائهم في الأستانة. فقد قال ذلك المصنف ما يأتى:

« لا يكاد الإنسان يستوى على العرش الخشبى المنصوب بداخل حانوت الحلاق حتى يقدم إليه المعلم صاحب الحانوت شبكا، ثم يأخذ بتحضير فنجان من القهوة برسمه. ولا تنقضى دقيقتان إلا وهو يقدم له هذا الفنجان تتصاعد من سطحه أبخرة القهوة.

«ولما كان أهل القسطنطينية لا يكثرث أحدهم بالسرعة ولا يهتم إنجاز الأعمال في مواعيدها، فقد اعتاد الراغب في الحلاقة الانتظار بسكون زمنا طويلا ريثما ينتهى المعلم الحلاق أو القلفة الأول (الصبى الأول) من حلاقة زبون، سابق عليه. ومتى جاءت نوبته على هذا المثال فقد وجب عليه أن يحل محل هذا الزبون الراح، وعندئذ يجد فوق رأسه ساقا معدنية مثبتة من

طرفها في الحائط أو السقف وحاملة في الطرف الآخر المقوس أنية معدن بشكل القمع مثقوبة ثقباً ضيقاً. فبينما يحمل بيديه تحت ذقنه صحناً للحية من المعدن مستديراً، ينسكب من الأنية المعلقة على رأسه سلسول ماء فاتر يستعمله الحلاق لغسل رأسه ووجهه ورقبته بالصابون. فإذا كان بالرأس شعر غسله واستغرق زمناً طويلاً في حكه متخذاً أظافره كأسنان المشط ثم يجفف رطوبة الماء بمنديل ويلف رأسه بمنديل آخر.

«وبعد ذلك يتفرغ للحلاقة فيرطب اللحية بالماء ترطيباً جيداً، ويتناول موسى حقيرة الشكل مصنوع النصل في ألمانيا لا يتجاوز ثمن الدسنة الواحدة منها فرنكين. غير أن الحلاقين يستعينون بحجر المسن وقطعة من الجلد على شحذ تلك الأسلحة. بحيث تصير أتم ما يكون صلوحاً للاستعمال. ويرتكز الحلاق بقدمه اليسرى على العرش الخشبي، ثم يسند رأس الزبون إلى ركبته بعد تغطيته إياها بمنديل ويشرع في إزالة الشعر مبتدئاً من أعلى الخد اليسرى إلى أسفلها، ثم ينتقل إلى الخد اليمنى مكرراً هذه العملية فمتى انتهى منها وقف تجاهه وأنشأ يسوى شعر اللحية والشاربين ويزيل ما يعثر عليه في الوجه من الشعرات الشاذة.

«وإذا أحببت تزجيج الحاجبين فإنه يسويهما بالحلاقة على شكل يجعلهما بمقتضاه تامي التقوس. ولما كان أهل البلد يعتبرون الشعر من القدر، فإنه يعتمد بمقراضيه إلى فتحتى الأنف فيقص بهما ما فيهما من الشعر، ثم الأذنين فيضع فيهما ماء فاتراً ويكرر ذلك لإزالة ما يكون بهما من الصملاخ، فإذا لان استخرجه بأداة صغيرة عنده. ويقص بعد ذلك ما يجده من شعر في مدخل الصماخ. أما إذا رأى سنطة صغيرة بالوجه عمد إلى إزالتها بالموس، غير أنه لا يقدم على هذه العملية عادة إلا بعد الاستئذان. وكل هذه العمليات تتم بالبطء والتوانى، لأن الأحاديث والمحاورات تتخللها حتماً، على أن تمامها لا يكون بمواصلة العمل، بل على دفعات متكررة. إذ قد يحدث أن يدخل زبون، أثناء تفرغه لشأن الزبون الأول، فسرعان ما يتركه بلا احتشام ولا كلفه كي يقدم إلى القادم الجديد شبك التبغ ويجهز له فنجان القهوة. وفي تلك الأثناء يتناول الزبون الأول الذى لم يتم حلاقته سوى النصف أو أكثر أو أقل الشبك الذى كان قد تخلّى عنه لأمد، ليستأنف التدخين به ريثما يعود الحلاق

إليه بعد فراغه من المهمة التى لأجلها تركه.

وعقب الانتهاء من الحلاقة يقدم القلفة الصغير (الصبى الصغير) إلى الزبون مرآة لينظر فيها نفسه، ويمعن النظر فى حلاقته ليحكم بما إذا جاءت وفق المراد. فإذا لم يكن فيها ما يوجب الانتقاد، اندرع الحلاق يعرك بين أصابعه خصلة الشعر التى اعتاد الشرقيون تركها بأعلى جمجمتهم ويمشطها بالمشقة ثم يغطيها بالطربوش أو العمة أو الكلبك. وهذه تستغرق عادة من عشر دقائق إلى نصف ساعة.

٦٦- السقاؤون

لما كان ماء الآبار فى القاهرة أسنا غير صالح للشرب فإن السقائين، وعددهم فيها جسيم جداً، يحملون ماء النيل إلى السكان، ومنهم من ينقلونه فى قرب كبيرة من الجلد على الجمال أو الحمير أو على ظهورهم فى قرب صغيرة. وينادى السقاؤون على الماء بقولهم «العوض على الله.. عليه العوض». ونادراً ما يتقاضون أكثر من عشرة سنتيمات (أربعة مليمات) ثمناً لقربة ماء واحدة ينقلها من مسافة كيلو متر ونصف.

ويبيع بعض السقائين الماء على السابلة، وهناك فريق غيرهم كثير العدد يبيعونهم فى الطريق أشربة مختلفة من نوع ما ذكرناه أثناء الكلام على أصناف المشروبات المرطبة فى أول هذا المجلد.

وفى مصر مهن أخرى خاصة بها غير التى تقدم ذكرها.. منها مهنة المكارية - أى الحمارين ومهنة الجمالين ومهنة النوتية فى النيل. وسأتكلم على هذه المهن بالتفصيل الوافى فى أحد الفصول الآتية:

٦٧- التجار

سبق لنا الكلام على شكل حوانيت التجارة بالقاهرة، وسمينا الأحياء المختلفة التى يصح اعتبارها مركزاً للمتاجر الكبرى فيها. ونقول الآن إن أصحاب الحرفة الواحدة يجتمعون عادة فى ناحية واحدة من العاصمة المصرية. ولهذا ترى أن شوارع برمتها أو أقساماً من هذه الشوارع مخصصة لصنف واحد من التجارة.

والتجار المصريون يجلسون متربعين فى حوانيتهم، كأن على رؤوسهم

الطير دعة وسكونا. وفي كل حانوت ديوان أو «دكة» تحف به على ضيقه، هي التي يستوون عليها بذلك الوصف. وغنى عن البيان أن المقارنة بينهم والتجار بأوربا، من حيث اليقظة والحركة والتوافر على العمل، مستحيلة إذ شتان بين أولئك في تكاسلهم وتواكلهم وجهلهم بأساليب استمالة الناس إلى الشراء وتركهم زمام رواج تجارتهم بيد القضاء والقدر وقلة تحفزهم لاقتناص قنيصة الربح، وهؤلاء في نشاطهم ولطف أساليبهم في اجتذاب الناس إلى اشتراء بضائعهم.

وبالقاهرة تجار من المسيحيين واليهود والعرب والترك. والفريق الأول من هؤلاء يطالبون دائما بالأسعار العالية أثمانا لبضائعهم، ولكنهم يضطرون بعد المساومة والمماكسة إلى الرضى بالثمن المعتدل الذي تساويه بضاعتهم. أما الأتراك فيحددون للمشتري الثمن الذي يريدون أن يبيعوا به بضاعتهم ويتمسكون به ولا يتنازلون عنه مهما بلغ من مماكسة المشتري. ومن عاداتهم أنهم لا يبيعون التمسك بالمشتري ولا يبدلون جهدا ما في سبيل الاحتفاظ به، لاعتقادهم أن الأرزاق مقدرة وأنهم لا يصيبون منها إلا ما قسمه الله لهم.

(٤) التجارة

الأهمية التجارية لمصر - الأصناف التي تتألف منها التجارة المصرية -
الواردات والصادرات - تجارة القوافل - المحال التجارية الأوربية - خواطر
وأفكار

٦٨ - الأهمية التجارية لمصر

ليس بين المواقع الجغرافية ما يشبه موقع مصر في صلوحه للتجارة إلا القليل. وإذا اكتفينا في النظر إلى هذا الامتياز بالاعتبارات التجارية فقط، فإننا لانرى قطرا كمصر جديرا بأن تكون له حكومة خاضعة ذات إدارة مستقلة. فإن مصر تتلقى بواسطة الإسكندرية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط جميع أصناف التجارة الواردة من الشمال والغرب، كما تقبض بيدها على

مفتاح تجارة القسم الشرقى من أفريقية. وفوق هذا وذاك فإنها الملتقى الطبيعى لشطر كبير جداً من القارة الأفريقية وصاحبة الشأن فى التماس المسالك إلى المحيط الهندى بواسطة البحر الأحمر الممتد على سواحلها . وهى التى ينبغى أن يؤول إليها الامتياز على البلدان الأخرى بنقل البضائع الجسيمة المصدرة برسم أوربا من جنوب آسيا، بعد أن كان مصدروها يلتمسون فى إيصالها إليها أبعد ما يكون من الطرقات ، ألا وهو طريق رأس الرجاء الصالح.

ولا يسع أحد أن يتصدى للكلام على مصر التجارية من غير أن ينصرف خاطره إلى المستقبل، وأنه سيجعل لها شأنًا رفيعا باعتبار كونها الطريق الوحيد إلى الهند، ولا سيما لأن المشروعات المتعلقة بحفر ترعة بين النيل والسويس أو إيجاد وسيلة للاتصال بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر قد جعلها الحكام المصريون، فى ظروف عديدة، نصب أعينهم واتخذوها المثل الأعلى الذى طالما بذلوا فى تحقيقه أقصى مجهودهم.

ولقد ظلت مصر إلى القرن الخامس عشر الوسيط فى المبادلات التجارية بين مصر وأوربا. وهى وظيفة ترجع بطبيعة الحال إليها وتختص بها دون غيرها، حتى أن البرتغاليين لما فتحوا طريق المحيط الأطلانطيقى، أراد أحد الذين تكاتفوا منهم على توطيد شوكة البرتغال فى آسيا ألا وهو المقدام (لبوكرك) أن يكفل لأمته على طول المدى ما أحرزه برسمها من المزايا والفوائد، فقرر احتفاظا بتلك الطريق أن يحول مجرى النيل إلى البحر الأحمر كي تنصب مياهه فيه، ويغتصب بهذا الفعل من مصر طريق البلاد الهندية.

وليس فى هذا الأمر ما يستغرب ، فما من أحد من كبار الرجال العارفين بحقائق الأحوال وتصاريقها ، إلا وقد أدرك أهمية موقع مصر وقدره حق قدره. فالإسكندر الأكبر إستشعر بهذه الأهمية، وبسببها خطط على سواحل مصر ثغرا أراد به أن يخلف ثغر (صور) فى عظمتها التجارية. وما دفع بنابليون إلى ضفاف النيل سوى التجارة، ولا سبب غيرها. فقد كان هذا الرجل العظيم يريد أن يبذر للتجارة الفرنسية فى مصر بذورا ويقوم لها بها صروحا، ويتخذ هذا القطر مظهرا لنشاط التجار الفرنسيين. اعتقادا منه بأنهم سيدخلون البحر الأحمر فى نطاق أعمالهم التجارية مع البحر الأبيض

ويقبضون بيدهم على زمام احتكار التجارة الهندية البريطانية.

والذى أراه بعد هذه المقدمة أنه لا ينبغي أن يعهد أمر مصر، وهى على ماتقدم ذكره من أهمية الموقع، إلا إلى دولة مستقلة حريصة على حيادها، يدعو إلى ذلك ويتمسه بلوغ أهمية هذا القطر، من الوجهة التجارية، إلى الدرجة القصوى وانصراف الأطماع إليها من قديم الزمان. دع أن التجارة يتطلب نموها واتساع نطاقها أن تعيش في ظلال القوة الحامية لها والحياد الذى لا يعرضها للمجازفات والأخطار.

٦٩- أصناف التجارة المصرية

وصف نابليون «التجارة المصرية» في مذكراته وصفا سطحيا مابرح منطبقا عليها إلا في بعض الشئون الصغيرة. ولست أظننى قادرا على أن أزجى إلى ذهن القارئ صورة ممثلة لحقيقة هذه التجارة كالتى رسمها هو بوضوح فيما يأتى قال:

«تنتج مصر المحصول الوفير من القمح والأرز والخضر. وقد كانت لهذا السبب المخزن الذى تستورد منه رومية مؤونتها، وما برحت حتى اليوم خزائن الخير الوفير لمدينة القسطنطينية. وهى تنتج، فيما عدا ماتقدم، السكر والنيلة والسنا والنطرون والكتان والقنب، إلا أنها محرومة من الأخشاب والفحم والزيت. فإن هذه الأشياء تنقصها كالتبغ الذى تستورده من بلاد الشام والبن الذى تجلبه من بلاد العرب، وفيها القطعان الكثيرة من الأغنام والماشية. وهى غير ما يوجد منها في الصحراء كما أن فيها أنواع الطيور المختلفة، والفروج يفرخ بها في أفران = حضانات = خاصة فيكون عدده لهذا السبب عظيما جداً.

«ومصر واسطة بين أفريقية وآسيا. وتصل القوافل إلى القاهرة كما تصل السفن إلى الساحل - أى في الوقت الذى لم يكن وصولها منتظرا فيه لورودها من الأصقاع النائية ولتعذر الوقوف على أخبارها قبل وصولها إلى الجيزة. وهى تدخل إلى القطر من ناحية الأهرام، وهناك يعين لها المكان الذى تعبر منه النيل فالمكان الذى تحط فيه رجالها من ضاحية القاهرة. ومن الجيزة أيضا ترد الأنباء بوصول قوافل الحجاج أو التجار الآتية من مراكش وفاس وتونس

والجزائر وطرابلس، قاصدة إلى الأقطار الحجازية ومعها صنوف البضائع التى تقايض عليها فى القاهرة، وتتألف هذه القوافل عادة من بضع مئات من الجمال وأحيانا من، الألوف، يحرسها رجال مسلحون. وتتوارد القوافل أيضا من الحبشة وباطن أفريقية (وتنجوست) وما يتصل بهذه الأصقاع من الأقطار المفضية إلى رأس الرجاء الصالح من جهة وبلاد سنغال من جهة أخرى. وهى تحمل إلى مصر الأرقاء من العبيد والجوارى والصمغ والتبر وسن الفيل، وسائر حاصلات تلك الأقطار للمبادلة عليها ببضائع أوروبا والشرق الأدنى.

وهناك قوافل أخرى تصل من أنحاء بلاد العرب والشام كافة حاملة الفحم والخطب والفواكه والزيت والبن والتبغ، وعلى العموم كل ما ينتج داخل البلاد الهندية من مختلف الأرزاق.

إن التجارة الحالية لمصر، وإن تكن فى حاجة ماسة إلى استتباب السلم ليتسع نطاقها وتزداد منافعتها، ما برحت - بالرغم من الحرب - رفيعة الشأن عظيمة الأهمية. وهى مبنية على استيراد الأنسجة وخشب البناء والحديد والأنية والورق والعقاقير وحاصلات المستعمرات وغيرها من أوروبا، وتصدير الأرز والقطن والحبوب والنيلة والأفيون .. الخ من مصر.

وفى الملخص الآتى عن واردات مصر وصاداتها فى سنة ١٨٣٦، مقدرة بطريق التقريب، ما يشير إلى درجة أهمية ذلك التبادل التجارى.

الواردات	
أنسجة قطنية	١٦٠٠٠٠٠٠ فرنك
أجواخ	٣٥٠٠٠٠٠٠ فرنك
طرابيش	١٨٠٠٠٠٠٠ فرنك
أنسجة صوفية	٢٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
أنسجة حريرية	٢٣٠٠٠٠٠٠ فرنك
خشب للعمارات	٩٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
حديد قضبان	٤٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
وأسلاك حديدية	
أنية من الحديد	٢٥٠٠٠٠٠٠ فرنك
والنحاس وسكاكين	
ورق	١٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
عقاقير وأصناف عطارة	١٥٠٠٠٠٠٠ فرنك
قحم حجر وخطب	١٢٠٠٠٠٠٠ فرنك
قرمز	١٣٠٠٠٠٠٠ فرنك
سكر	٦٦٦٠٠٠٠ فرنك
زجاج ومرايا	٦٤٠٠٠٠٠٠ فرنك
زيوت	٧٧٠٠٠٠٠٠ فرنك
أنبذة ومشروبات روحية	٧١٠٠٠٠٠٠ فرنك
بضائع أخرى	٢٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
المجموع	٥٠٧٨٦٠٠٠ فرنك
الصادرات	
قطن	٢٤٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
أرز	٤٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
صمغ	٣٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
أنسجة كتانية	١٦٤١٠٠٠٠٠ فرنك
حبوب	١٦٢٥٠٠٠٠٠ فرنك
صودا	١٥٨٠٠٠٠٠٠ فرنك
بلح	١٢٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
خضر جافة	١٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
أفيون	٩٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
حناء	٦٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
بضاعات أخرى	١٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك
المجموع	٤٠٥٤٦٠٠٠٠ فرنك

لم نذكر في الجدول السابق إلا ما يتعلق بالتجارة بين مصر وأوروبا. أما الجدول الثاني فقد ذكرنا فيه بيان الحركة التجارية العامة في الإسكندرية مشتملة على حركة التجارة مع البلاد العثمانية.

مجموع التجارة	الصادرات	الواردات	جهات الورد والتصدير
٥٨٣٠٠٠٠٠	١٤٥٠٠٠٠٠	٤٣٨٠٠٠٠٠	النمسا
٢٤٨٠٠٠٠٠	١٢١٠٠٠٠٠	١٢٧٠٠٠٠٠	تركيا
٢٠٥٦٠٠٠٠٠	٥٤٠٠٠٠٠	١٥١٦٠٠٠٠٠	إنجلترا
١٦٦٠٠٠٠٠٠	١٠٨٠٠٠٠٠	٥٨٠٠٠٠٠	فرنسا
١٥٣٩٠٠٠٠٠	٥١٣٠٠٠٠٠	١٠٢٦٠٠٠٠٠	توسكانا
٩٠٠٠٠٠٠٠	٦٢٠٠٠٠٠	٢٨٠٠٠٠٠	الشام
٦٠٠٠٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠	٤٥٠٠٠٠٠	بلاد الغرب
٢١٨٠٠٠٠٠	٨٢٠٠٠٠٠	١٣٦٠٠٠٠٠	اليونان
			بلجيكا
٨٥٠٠٠	٣٠٠٠٠٠	٥٥٠٠٠٠	وهولاندا
١١٧٠٠٠	—	١١٧٠٠٠	السويد
٣٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠	ممالك أخرى
١٥٤٠٩٧٠٠٠	٥٦٩٠٠٠٠٠	٩٧١٩٧٠٠٠	المجاميع

في سنة ١٨٣٦ المزم لتجارة الإسكندرية الواردة ١٢٣٥ سفينة محمولها بالطن ١٥٣١٤٨ والصادرة ١١٤٧ محمولها بالطن ١٣٤٠٠٠.

٧٠- تجارة القوافل

تقدر تجارة مصر كلها، بواسطة البحر الأحمر والقوافل بنحو عشرة ملايين من الفرنكات. وفي كل سنة تصل إلى القاهرة من بلاد الحبشة قافلة تجلب معها العبيد والجواري وسن الفيل وريش النعام والإبريز والصمغ الخ.

وتتألف في مراكش قافلة أخرى برسم الحج إلى مكة. فتتبع سواحل البحر الأبيض المتوسط وتأخذ معها الحجاج من الجزائر وطرابلس الغرب وتونس الخ، وتصل إلى صحراء الإسكندرية في أربعة آلاف جمل، ثم تقصد منها إلى القاهرة حيث تنضم إلى القافلة المصرية، وتتجه القافلتان بعد ذلك إلى البلاد الحجازية.

وتجبي حكومة القاهرة رسوما للمرور عن البضائع والحجاج. وتصل من دمشق بين حين وآخر قوافل صغيرة تحمل معها الأقمشة الحريرية والقطنية والزيت والنقل.

٧١- المحلات التجارية الأوروبية

يبلغ عدد محلات التجارة الأوروبية بالإسكندرية الآن أربعة وأربعين محلا، وكانت في سنة ١٨٢٢ لا تتجاوز ستة عشر محلا. ومن المحال الموجودة الآن ثلاثة عشر محلا فرنسيا وسبعة محال إنجليزية وتسعة نمساوية وثمانية توسكانية واثنان سردينيان وواحد دانمركى وواحد هولندى وواحد بروسى وواحد تابع لحكومة اليونان الجديدة.

وهناك فيما عدا ما ذكر، ستة محال لتجار من المسلمين وأربعة لتجار من أساكن الشرق وهم يونان جميعا على المذهب الكاثوليكي.

والتجار المشتغلون لحساب أنفسهم بالقاهرة قليلو العدد وإنما الموجودون بها وكلاء عن بيوت الإسكندرية، ففيها محل إنجليزى وتسعة محال نمساوية وأربعة توسكانية اثنان سردينيان واثنان يونانيان وعشرة للرعايا العثمانيين من أساكن الشرق وثلاثة وستون لتجارة صغار من الأتراك والمغاربة والمصريين.

٧٢- أفكار وخواطر

لم تكن، مصر على عهد المماليك بحيث تنتج من المحصولات ما تنتجه الآن ، وهذه الحقيقة يسهل فهمها بمجرد التفكير فيما صرفه محمد على على وسائل العناية بالزراعة فلقد أدخل إلى مصر زراعات وافرة المحصول طيبة الثمرات كزراعة القطن التي يصح اعتبارها اليوم الفرع الأصلي من فروع تجارة التصدير.

هذا وقد زادت الواردات أيضا كما زادت الصادرات لسبب يرجع — بلا ريب — إلى ما تشعر مصر به أثناء انسياقها في طريق النجاح والرقى من الاحتياجات المختلفة، إذ غير خاف ما هناك من ضرورة تمويل الترسانات والفاوريقات والمدارس والمصالح، وعلى الخصوص الجيش الكبير المضطر بظروف الأحوال إلى البقاء تحت السلاح، باللوازم والمعدات.

وما ينقص مصر لكي تبلغ إلى الغاية القصوى من الثروة التجارية هو المعيشة في ظلال السلم. فلو أن عقدة الإشكال التركي المصري حُلت نهائيا وحُسم الخلاف المشتجر بين الحكومتين العثمانية والمصرية، بعناية من الدول الأوروبية لاتسع نطاق الزراعة بما ينضم إليها من ألوف العاملين الذين تثقل عواهنهم الآن أعباء السلاح، وارتفع عن الميزانية الشطر الأعظم من باب المصروفات، وغنى عنى البيان ما تجنيه مصر أولاً ثم الدول الأوروبية التي ترتبط مصالحها التجارية بمصلحة مصر، من الفوائد الجزيلة والمنافع العميمة إذا تحققت تلك الأمانى.

التعليم العام والمدارس في مصر

العلوم في الأزمان القديمة وفي عهد العرب- عصر الخلفاء- عصر
المماليك- نهضة العلوم والمعارف في عهد محمد علي- البعثة المصرية في
باريس- تأسيس المدارس- تنظيم المعارف العمومية.

١- العلوم في الأزمان القديمة وفي عهد العرب

كانت مصر مهد العلم ومبعث أنوار العرفان. فظلت إلى ما بعد الفتح
الفارسي، رافعة لواءهما وطارحة في جميع الأرجاء ضياءهما. ومما لا يحتاج
إلى عناء التفكير أن أغلب فطاحل علماء اليونان (كفيثاغورس) و (هيرودتس)
و (أفلاطون) و (أرسطو) وفدوا على مصر في تلك الأزمان. فتلقى بعضهم عنها
أصول الفلسفة وقواعد الدين، والبعض الآخر حقائق العلوم والفنون وما هو
متبع في استقصائها عن الأنماط والأساليب. ولما انطفأ سراج المدارس
اليونانية وخبا نورها وغشيت بعده ظلمات كثيفة بعضها فوق بعض، سما
لمدرسة الإسكندرية كوكب تكبد السماء. فلم تلبث أن صارت للعلم والعرفان
مشكاة تبهر الأبصار بسنائها الساطع. ولقد نبغ فيها علماء بثوا في الخافقين
شهرتها منذ عهد البطالسة إلى أوائل القرن السادس من الميلاد، ومنهم
المهندس (أرخميسدس) والفلكي (بطليموس الفالوذي) والفيلسوفان
(جمبليكس) و (بلوطانس) والأطباء (هيوفيلس) و (إيروز ستراتس)
و (جالينوس) وغيرهم.

٢- عصر الخلفاء

جاء العهد الأول من عصر الدولة العربية مبددا لما غشى النفوس من سحب المخاوف والهلع من تعصب الفاتحين المسلمين. فلقد كان عصر الخلفاء غرة في جبين الدهر ومن أعلى وأغلى ما تزدهن به توارىخ العلوم والآداب والفنون. ولا عجب فقد كانت أسماء هارون الرشيد والمأمون والمنصور لاتزال من العناوين الخالدة على الملوك والأمراء الذين أحاطوا العلوم والمعارف بسياج حمايتهم وأمدوها بمتواصل رعايتهم. فإنهم عهدوا الى لفيف من أعيان المسيحيين واليهود الواقفين على أبوابهم والمتصلين بحكومتهم في نقل أهم المصنفات العلمية الى اللغة العربية. ومع أن المغالين في التحبيذ قد تجاوزوا حد المعقول في برقشة الحضارة العربية بألوان المديح، فلا يسعنا إلا الاعتراف به على الملأ بأننا مدينون لها، فيما عدا الآثار الفخمة والمصنفات الأدبية الجليلة - بالاستكشافات الأولى في الكيمياء ومبادئ علم الجبر، وبما أحرزه من التقدم على يدهم علم الحيل (الميكانيكا) ثم بالمزاويل الشمسية والساعات والأراغن الموسيقية وغيرها.

٣- عصر المماليك

اندثرت باندثار الأنظمة العلمية التي خفقت عليها رايات مجدهم وأظلمت رواق شوكتهم. لأن الأسر المملوكية التي خلفتهم في ولاية الأمر كانت على الدوام مزعزعة الأركان ضعيفة القواعد، فلم تعن بالشئون العلمية التي أخذت تضمحل وتذوى كما تذوى أوراق الشجر. فإن السلاطين المماليك الذين ألقوا أساس الحكم الاستبدادي الذي أقاموا عليه صرح شوكتهم قد تركوا بعد انقراضهم من الآثار الهندسية الفنية، فلما حل المماليك محلهم ولم تكن لهم دراية بشيء غير العلم بأساليب القتال، ولا عمل عندهم أشرف من رياضة الأجسام، دفعوا بمصر الى الأمام، وإنما في طريق الهمجية والجهل. ففي عهدهم لم يرتفع شأن لعلم سوى دراسة القرآن. أما العلوم والفنون الأخرى، فقد ألقيت في زوايا النسيان، واطرحت حتى صار علم الطب دجلا وشعوذة فظيعة وساءت الأحوال الى أن فقد المصريون كل ذكرى تتعلق بماضى بلادهم. وفي عهد الحملة الفرنسية أخذ بعض مواطنينا يقصدون إلى الأهرام لمشاهدتها، فكان الأهلون يقولون أن تلك الأهرام شاهدها أقوام

الفرنسيون من سلالتهم. وكانوا قبل ذلك يعتقدون أنها أثر من آثار الطبيعة وعمل لادخل ليد الإنسان فيه.

وكانت تنتف العلوم التى تتحلى مصر بها فى ذلك الأوان احتكاراً للعلماء ووقفاً عليهم. إذ كان هؤلاء يتلقون فى الجامع الأزهر بعض الشئ من فلسفة (أرسطو) واللغة العربية والكتابة والحساب وتفسير القرآن وتاريخ الخلفاء، لينقلوه فيما بعد إلى غيرهم ولم يكونوا حاصلين من مبادئ علم الهيئة وتخطيط البلدان إلا على مبادئ وأصول مبنية على الأغلاط والأباطيل.

ولم تكن الثلاث سنوات التى قضاهـا رجال الحملة الفرنسية فى مصر وعادت على العلم بأجزـل الفوائد وأوفر الثمار بكافية لنمو نبت التعليم وترعرعه وإزهاره بين المصريين الوطنيين.

٤- نهضة العلوم والمعارف فى عهد محمد على

كان من نصيب محمد على أن يتولى نشر راية العلوم والمعارف فى قطر قطعت فيه الدور الأول من أدوار نموها وازدهارها، وجاءت بباكورة طيبة من الثمرات الشهية الجميلة. فلقد وجه هذا الوالى منذ البدء لفئة من لفتاته الصائبة الحكيمة إلى التعليم، وقدر ماله من جليل المزايا فلم يمض على استلامه مقاليد الأمور زمن يسير حتى أنشأ جملة من المدارس لم تبلغ من الأهمية المبلغ الذى كان يتمناه لها. ثم أدرك فيما بعد أن لا مناص له من الاعتماد على أوربا فى الاسترشاد بها إلى طريق التقدم العلمى، فوجه إلى إيطاليا وفرنسا طائفتين من الشبان المسلمين لتنشئتهم فيهما على تلقى العلوم والتحلى بحلية الآداب والفنون. فنبغ من بينهم فى مقدمة من نبغوا عثمان أفندى نور الدين الذى بعد أن قضى سنوات فى بلادنا عهدت إليه إدارة مدرسة القصر العينى الكبرى، وأسس مدرسة أركان الحرب بالخانقاه فى سنة ١٨٢١.

٥- البعثة المصرية

لما عاد السلم إلى نصابه فى سنة ١٨١٥ خاطب العلامة (جومار) - أحد مهندسى الجيش الفرنسى بالشرق سابقا - ومرخص الحكومة المندوب منها عامئذ لمباشرة نشر استكشافات المعهد العلمى المصرى، قنصل فرنسا

بالإسكندرية ليستأذنه في استئناف المباحث العلمية والتاريخية التي بدىء بها أيام الحملة الفرنسية. وقد حزر منذ هذا الحين كل ما كان ينتظر أن محمد على سيبدله من الجهود لاستنبات الغراس الذى غرسه تلك الحملة على ضفاف النيل.

وكان من الأغراض التى يرمى إليها توثيق الصلة بين مصر وفرنسا بأواخى الشكر وقيود الامتنان لما ستقدمه الثانية إلى الأولى من وسائل الرقى العلمى وتمهده لها من طرق النقد الفنى والأدبى. وكان تعليم الأهالى الوطنيين من أقوى عوامل الإصلاح والحضارة فى مصر. وكانت الحكومة المصرية ميالة بالبداهة الى التذرع به لإنهاض البلاد من كبوتها ورفعها إلى المستوى الجدير بها أن تظهر فيه.

وأثناء وجود عثمان أفندى نور الدين بفرنسا كاشفه العلامة (جومار) بمشروع ابتكره لتحقيق ذلك الغرض، وهو إرسال بعثات مصرية إلى أوربا لطلب العلم فيها فتلقاه عثمان أفندى بالاستحسان وأطلع عليه سمو الوالى الذى لم يلبث أن أمر بتنفيذه، وقد نفذ فعلا منذ سنة ١٨٢٦ إذ عهد سموه إلى المسيو جومار إرسال أول بعثة مصرية فى فرنسا وكانت مؤلفة من أربعة وأربعين شابا من الأتراك والمصريين.

ولست أقصد هنا إثبات تاريخ هذه البعثة الفريدة فى بابها. بل أقصر على القول بأن مديرها حصل بعد مضى سنة أو سنتين من تأليفها على نتائج جليلة ومزايا نافعة بتهيئته أحد عشر طالبا من أولئك الشبان لدرس أساليب الإدارة العسكرية والمدنية والسياسية، وثمانية لتعلم فن البحر والهندسة العسكرية والمدفعية، وإثنين لاستقصاء علوم الطب والجراحة وخمسة لدرس الزراعة والمعادن والتاريخ الطبيعى، وأربعة لتحصيل العلوم الكيميائية، وأربعة لممارسة فن الأيدروليك وصب المعادن، وثلاثة لمباشرة الحفر فى المعادن والطباعة، وواحد لإتقان فن الترجمة، وآخر لإجادة فن العمارة وقد اضطر خمسة من أعضاء البعثة إلى العودة لأسباب بعضها صحى والبعض الآخر يتعلق بعدم الكفاءة وقلة الأهلية.

وأخذ الطلاب يتواردون بعد ذلك إلى فرنسا فى كل عام وينضمون إلى طلاب البعثة الأولى، فبلغ عدد الذين قدموا إليها فى طلب العلم من سنة ١٨٢٧

إلى سنة ١٨٢٢ نحو ستين طالبا. سوادهم الأعظم من أبناء الفلاحين، وقد تخصص أربعون منهم لدراسة العلوم الآلية (الميكانيكية) وإثنا عشر لدراسة الطب والأقرباذين = صناعة الدواء =، وكنت أنا الذى جاء بهم إلى باريس. وإذا ضممنا إلى هؤلاء الطلاب سبعة من الحبشان وثلاثة من أبناء الذوات فإن مجموع طلاب البعثة حتى تلك السنة يبلغ مائة وأربعة عشر طالبا.

فماذا كانت نتائج هذه البعثات ؟ لست أزعم أن هؤلاء الطلاب جنوا من الثمرات ما كان مرجوا لهم أن يفوزوا به منها. ولكنى أستطيع التأكيد بأن نسبة الناجحين منهم تجاوزت الحد المعتاد وأن نجاحهم فى الامتحانات العامة التى لا سبيل فيها إلى المحابة كان باهرا جداً، إذ أحرز بعضهم قصب السبق بإمتياز عظيم فى امتحانات مدارسنا الكبرى فتخرجوا منها مزودين بأجازة الليسانس أو الدكتورية فى العلوم أو بشهادة النبوغ فى علوم الطب والصيدلة.

ولا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أورد أسماء بعض النابغين على طريق التدليل والاستشهاد. وإذا كنت أثرتهم على غيرهم بإيراد أسمائهم فما ذلك إلا رجاء أن يكون هذا الإيثار منشطا للآخرين وحثا على الجد فى تحصيل العلوم وأن يكونوا أهلا للتنويه بهم. أما أولئك الذين أثرتهم على غيرهم فأذكر فى مقدمتهم عبدى بك ومختار بك وقد تولى أحدهما رئاسة مجلس الحكومة والآخر إدارة المعارف العامة، وحسن بك الذى عهدت إليه نظارة البحرية، وأرتين بك وخسرو أفندى ويشغل أحدهما الآن المنصب الأول لكتابة السر والترجمة لسمو الوالى والآخر المنصب الثانى لها، وأمين بك مدير فاوريقة ملح البارود، واسطفان أفندى عضو مجلس الحكومة والشيخ رفاعة رافع أستاذ التاريخ والجغرافيا ثم ناظر مدرسة الترجمة، ومظهر ومصطفى المهندسان، ومحمد بيومى أستاذ الرياضيات، وحسن الوردانى ومحمد مراد ومحمد إسماعيل المعلمون فى النقش والزخرفة والرسم، وأحمد يوسف مدير دار الضرب (الضربخانة)، وهو الذى كلف بالذهاب إلى فازوغلى للبحث عن الإبريز فى رمالها أو زار مناجم الذهب فى (مكسيكا)، ومحمد نافع وأحمد الرشيدى وعشرة غيرهما من الأطباء الأساتذة بمدرسة قصر العين، وحسين الرشيدى مدير معمل الصيدلة وغير هؤلاء كثيرون منهم، المدفعيون ومنهم الموظفون فى الفاوريقات ومنهم المزارعون وغيرهم ممن امتازوا بالبراعة

وفاقوا الفوق العظيم في العلوم والفنون التي تفرغوا لدراستها وتوفروا على اسقضاء غايتها. وهم يبلغون النصف من عدد الطلاب الذين آثروا البقاء في مصر ولا يزالون يقومون به يوميا من جليل الخدمة وجزيل الإفادة فذلك غنى عن البيان وأشهر من نار على علم. وإنما نخص بالذكر ثمرة من الثمار الغضة فازت فرنسا باجتنائها من وراء البعثة المصرية ألا وهى نشر اللغة الفرنسية والنفوذ الفرنسى في مصر. وبحصول فرنسا على هذه الثمرة لن يأسف سمو الوالى محمد على ما كلفت البعثة المصرية من الجهود المتواصلة والكلف الباهظة إذ تكون فرنسا قد حصلت على ماتطمح إليه من حسن الجزاء تلقاء ما بذلته من العناية في تعليم الشبيبة المصرية وتبريزها. شكرا من مصر لها علياكرامها مثنوى أولئك الشبان، واعترافا بحسن صنيعها وجنوحا إليها بباعث الحب الصادق والولاء الخالص. أما العلامة (جومار) الذى يرجع إليه الفضل في ظهور تلك النتائج الجليلة بما بذله في سبيل ذلك من الهمة والغيرة والعناية والإخلاص فلن توفى مصر وفرنسا والعلوم ما هو جدير به وأهل له (١).

٦- تأسيس المدارس

في سنة ١٨٢٧ أنشئت مدرسة أبى زعل الطبية التى سنخصصها ببعض البيانات عند الكلام على الطب. وقد أنشئت المدارس تباعا بعد ذلك، ولم يكن النظام فيها كلها متشابهها. وكانت، تابعة لنظارات الحكومة على اختلافها، ولكن انحلال الرابطة بينها بعدم وجود نظام شامل لها أفادها في بادىء الأمر فائدة لا تنكر، فقد قامت بينها قائمة التناظر والتنافس على وجه زج ببعضها في طريق التقدم فقطعت منه أشواطا طويلة بخطوات حثيثة من غير أن يقيد سيرها فيه نظام مسنون من قبل. على أن المصريين لم يقبلوا على تعليم أبنائهم طائعين مختارين بل قاوموا التعليم وأقاموا في طريقه العقبات وألقوا المعاشر كما فعلوا لتعطيل حركة التجنيد وحشد العمال لمزاولة الصنائع. وقد بلغ من كراهيتهم للتعليم أن بعض الآباء اعتادوا التمثيل والتنكيل بأبنائهم

(١) أنى أغتتم هذه الفرصة لكي أؤدى إلى المسيو جومار ماهر حقيق به من المدح من جهة تستدعى مزيد الشرف له فلقد أرادت الحكومة المصرية أن تكافئه على متاعبه وأعماله الجليلة، فلم يكن من هذا العالم الجليل إلا أن رفض هذه التقدمة بعزة نفس وحسن قصد. بالرغم من أهمية المرتب الذى ألح عليه بقبوله.

بترا للأصابع وسملا للعيون. منعا لقبولهم بالمدارس في حين أن التلاميذ يعاملون بها معاملة مملوءة بالعطف والرعاية إذ تنفق الحكومة على شئونهم كافة من مسكن وغذاء ولباس بدون أن تتقاضى منهم درهما. بل هي فوق ما تقدم، تجرى عليهم الأرزاق والمرتبات وتعتبر المدة التي يقضونها بالمدارس من أدوار الانتقال المقضية بهم إلى المراتب الرفيعة المفضلة، بلا ريب - على البيئات التي منها توافدت وفودهم. ولقد أدرك الآباء فيما بعد ما يترتب على التعليم من المزايا المادية والمنافع الدنيوية. فكفوا عن المعارضة في إرسال أبنائهم إلى المدارس التي شادتها الحكومة لهم بالمال الكثير.

٧- تنظيم التعليم العام

لما أتت المدارس التي تم تنظيمها وأحكم ترتيبها نهائيا بثمرتها الأولى، أدرك الناس أهميتها. فعهدت الحكومة بإدارتها إلى ناظر خاص، كان أول ما مارسه من أعمالها أن قسم التعليم ثلاث درجات شملت الدرجة الأولى المدارس الابتدائية والثانية المدارس التجهيزية والثالثة الخصوصية.

وأنشئت مدارس ابتدائية في الأقاليم وأطراف القطر فبلغ عددها بالوجه البحرى أربعين مدرسة وبالوجه القبلى ستا وعشرين، وفي كل مدرسة مائة تلميذ. تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثانية عشرة. والمدة المقررة للدراسة فيها ثلاث سنوات، يتجدد ثلث عدد التلاميذ في كل سنة ويتعلمون المبادئ الأولية من اللغة العربية والحساب وغيرهما.

ومن المدارس الابتدائية تستمد المدارس التجهيزية تلاميذها، ومن هذه المدارس واحدة كبيرة جداً بأبى زعبل. وكانت قبلاً بقصر العينى ثم نقلت منه لما خصص هذا القصر بالمستشفى العسكرى العام والمدرسة الطبية. أما المدرسة التجهيزية الثانية فبالإسكندرية. وفي المدرستين يتناول التعليم علوماً أكثر مما يتناوله التعليم الابتدائى، إذ تعلم فيها اللغة التركية ومبادئ الرياضيات والجغرافيا والتاريخ والرسم وغيرها، والتلاميذ يقضون بها أربع سنوات ويتجدد عددهم فيها بنسبة الربع سنوياً.

أما المدارس الخصوصية فهي: مدرسة الهندسة ومدرسة الطبوجية ومدرسة الخيالة ومدرسة البيادة ومدرسة الطب ومدرسة الطب البيطرى ومدرسة الزراعة ومدرسة اللغات والألسن ومدرسة الموسيقى ومدرسة

الفنون والصنایع.

وبالقطر المصرى تسعة آلاف تلميذ تنفق الحكومة على سكناهم وغذائهم ولباسهم، وتدفع لهم المرتبات الشهرية. وهم ينامون على أسرة حديد مفروشة بمرتبة من القش وأخرى من القطن ويصرف لهم فى كل عام طربوش وأربعة أقمصاة وأربعة سراويل وأربع تكك وأربعة مناديل للجيب ومنديلان (فوطتان) لتجفيف الجسم من ماء الاستحمام وثلاثة مراكيب وصدريتان الخ.

والغذاء الذى يقدم إليهم صحى جيد وهم يتناولونه فى وجبتين الأولى قبل الظهر بساعة والثانية بعد غروب الشمس بساعة ودروسهم مقسمة حصصا بحسب الساعات ، ويتقاضون فى آخر الشهر مرتبا، فتلاميذ التعليم الابتدائى يتقاضون فى السنة الأولى خمسة قروش شهريا، وفى السنة الثانية عشرة وفى الثالثة خمسة عشر قرشا. أما الذين يتلقون التعليم التجهيزى فيتقاضون فى السنة الأولى عشرين قرشا شهريا وفى الثانية خمسة وعشرين، وفى الثالثة ثلاثين وفى الرابعة خمسة وثلاثين ويقبض تلاميذ المدارس الخصوصية أربعين قرشا شهريا فى السنة الأولى، وخمسين فى الثانية، وستين فى الثالثة وسبعين فى الرابعة.

ولكل مدرسة ناظر توكل إليه إدارتها من الوجهة المادية وعالم لإرشاد تلاميذها.

صحة المصـريين
وأمر راضهم وطبهم
وتنظيم المصلحة الطبية

(١)

تربية المصريين - طريقة معيشتهم - إمساكهم عن المشروبات - استعمال القهوة والأفيون والحشيش - الحمامات - نصائح الأجانب المقيمين بمصر.

١- تربية المصريين

إذا تأملت المصرى أثناء تقلبه فى طوار الحياة ، فإنك تجده منذ مبارحته لحضن أمه ، عارى الجسم أو مستترا بخرق من القماش الغليظ ، ومعرضا لاختلافات الطقس وتقلبات الفصول ، فيصير منذ ولادته سلبيا من الشعور بالفواعل الخارجية التى تؤثر قليلا أو كثيرا فى النظام العضوى لجميع الكائنات. وتراه ينمو سريعا ، ويتزعزع بدون أن تصيبه أمراض الخنازير ولين العظام وغيرها. حقا تظهر عليه أحيانا ، وهو فى سن الطفولة أعراض مرضية فى ناحية البطن يدل على وجودها مايعترى هذا العضو من الضخامة إلا أن هذا الاستعداد المرضى ينسب إلى قلة العناية بالأطفال وإغفال أغلب شئونهم فى السنوات الأولى من حياتهم . كما يعزى أيضا إلى الطريقة المتبعة فى تغذيتهم ونوع اللبن الذى تسد به حلوقهم أثناء الليل وأطراف النهار فيصابون بسوء الهضم وينتهى الأمر بهم - على توالى الأيام - إلى تضخم أحشائهم وأمعائهم كما قلنا. وهذه الاستعدادات المهيئة للمرض لم تكن عامة ، وإذا توافرت فسرعان ماتزول. لأن الغلام لا يكاد يبلغ الشهر السادس أو الثامن من عمره حتى يدب ويدرج ، فإذا بلغ من سنه السابعة أو الثامنة ، وقد نمت قوى بدنه وعقله نموها المبكر ، تراه وقد أصبح قادرا على كفاية نفسه. ومنذ هذا الوقت تبتدىء حياته فى ميدان الجد والعمل ، فتراه بالقاهرة

والإسكندرية وسائر المدن مغرما بالربح، يقدم إليك حماره لتقطع به المسافات الطويلة المحقوفة بالأخطار، ومن ذا الذى جاء للسياحة بمصر ولم يحمل عليه جماعة الحمارين (المكارية) حملاتهم العنيفة؟ بل من منهم لم يعجب بخفتهم ونشاطهم وسرعة حركتهم مع عدم احتياجهم لشيء ما أثناء قطعهم الأشواط الطويلة والشقق البعيدة ركضا على الأقدام بلا حذاء وجريا على أرض تلظى بحرارة قيظ لا يطاق؟

وإذا تقدم فى السن قليلا بعد ذلك، ورأى رفيقه فى أوصاب الحياة ومتاعبها غير كاف لقضاء حاجته وسد عوزه فسرعان ما يطلب الانتظام فى سلك السواس (السياس) الذين ذكرنا عنهم أنهم يعتادون الركض منذ الصغر ويدربون أنفسهم عليه بحيث يستطيعون مجازاة الخيول فى سرعة ركضها زمنا طويلا. وهذه الرياضة - التى لا يشك أحد فى عنفها ومتاعبها التى لا يحتملها غير المصريين - لاتصيبهم بما تصيب به غيرهم ممن يحاولون معالجتها من الضرر، إذ قصارى ماينجم عنها بالنسبة للمصرى أن أعضاء التنفس والعضلات فيه تنمو وتكتسب حجما كبيرا.

٢- طريقة معيشتهم

من أسباب قوة بنية المصريين ومتانة عضلاتهم ووثوق أساطينهم التزامهم جانب القناعة والاعتدال فى المأكول والمشرب وطريقتهم فى توزيع وجبات الطعام. فالفلاح فى الأرياف كالعربى فى الصحراء يعلم علم اليقين أن الغذاء الوفير الذى يدخل فى تركيبة الكثير من المواد الحيوانية والدسمة لا يتفق وطقس القطر المصرى وحرارة الشمس الشديدة فيه. ويعلم أيضا بدافع من فطرته وتجاربه أنه إذا لم تحتو المعدة من الغذاء السهل الهضم سوى النزر اليسير، أدت أعضاء الجسم جميعا وظائفها بسهولة وانتظام، فضلا عن أن التنفس لاتعترضه العوائق وعن أن المفاصل تبقى لينة، فيحتمل الإنسان فى هذه الحالة بسهولة تامة لقطع أجواز الفلاة، لا يأخذ معه ذخيرة ليومه سوى كيس صغير يحتوى بعض الدقيق وقربة ماء صغيرة، فيعجن من الدقيق فى رؤبة (قصعة) صغيرة هى التتمة لما يحمله معه من المتاع مايلزم لعمل خمسة أو ستة أقراص من الخبز لاتتجاوز القطعة التى يصنع منها القرص حجم الجوزة، ثم يجفف الأقراص فى الشمس أو ينضجها على النار، وقد

يقترن هذا الغذاء بشيء من التمر الجاف فيكفى ذلك لإشباعه طول النهار.

وإذا كان الفلاحون المصريون لا يبالغون في التقشف مبالغة عربان الصحراء فيه بل إذا كان سكان المدن يتحرون في طعامهم الأصناف اللذيذة التى يجهلها أولئك العربان، فلا ينهض هذا دليلا على أنهم ليسوا على جانب كبير من القناعة والاعتدال، إذ إنهم لا يتناولون أبداً من الطعام إلا ما يقوم بأودهم ولا يلجأون إلى الأغذية المحرصة والتوابل المشهية التى يكثر الأوروبيون من أكلها لتحريك الشهية.

٣- الإمساك عن المشروبات

إمساك المسلمين عن تعاطى النبيذ والمشروبات الكحولية سبب آخر من الأسباب التى تقيهم شر الأمراض والآفات التى تتحيف سكان الأقاليم الحارة حتما إذا أقبلوا عليه.. وسواد المصريين لا يعرفون من ضروب الشراب سوى الماء القراح، أما المسيحيون واليهود فيتعاطون الأنبذة بوجه عام، والشراب المعروف بالعرقى بوجه خاص.

٤- قهوة البن والأفيون

قهوة البن من المنبهات التى ألف المصريون تعاطيها وتأثيرها فى النظام العضوى أخف وطأة بلا ريب من تأثير المشروبات المحرصة فيها، إلا أننى أعتقد أن اعتياد المسلمين شربها لا يخلو من أثر ضار بصحتهم. وضررها هذا مؤكد بذوى المزاج السريع الانفعال والتهيج العصبى. ولا يبعد عن الظن أن يكون هذا الشراب من بواعث العنة التى يشكو منها الكثيرون من الشرقيين غير أن لهذه العاهة - فيما نعلم - سببا أقوى من إدمان القهوة. ألا وهو استعمال الأفيون على وجه أصبح منتشرا معه بين المسلمين، ولا سيما الأتراك منهم. ويحدث الأفيون بفعله المحرض ضعفا فى الجهاز العصبى وخمودا فى أعضاء الجسم وأنه لمن حسن الحظ أن يكون الأفيون غير ماهو شائع الاستعمال بين المصريين ولكن من أقوى بواعث الأسف ماهو مشاهد من إقبالهم العظيم على الحشيش، وهو تلك المادة التى سبق لنا الكلام عليها والتى لا يقل ضررها بالجسم عن ضرر الأفيون.

٥- الحمامات والدلك

سبق لى أن أفضت فى الكلام على الحمامات البخارية وعملية ذلك الجسم وما ىنجم عنها من جزیل الفوائد باعتبار أنها من وسائل الصحة أو طرائق العلاج من الأمراض ولست بمكرر فى هذا المقام ماسبق لى إیراده فى هذا الموضوع بل اقتصر على تحويل القارئ إلى ماأوردته من التفاصيل السابقة. إن المصرى مدين بقوة بنيته واعتدال مزاجه إلى تمسكه بما ذكرته الآن من عاداته المختلفة كالقناعة والتقشف والأساليب المتبعة فى حياته ، والظروف الخاصة بالطقس والمحیطة بالمكان. فإلى هذه الأسباب بلا ریب يرجع انحصار الأمراض بمصر فى دائرة ضيقة جداً حتى أنهم لا يعدون من الموتى فى مدينة القاهرة التى يتجاوز عددها ثلاثمائة ألف نسمة أكثر من ثمانية عشر إلى عشرين كل يوم.

ويسیر المصريون الآن سیرا حثيثا فى سبیل الحياة الصحيحة. فإنه لا یندر أن تجد بینهم أناسا تجاوزت أعمارهم المائة. وشهدت بنفسى شیخاً من هذا القبیل فى الثلاثین من عمره بعد المائة ولم یکن مصابا بعاهة أو مرض سوى الماء الساقط فى إحدى عینیه. وفى بلدة (کفر نجم) من إقليم الشرقية لا يزال على قید الحياة رجل فى الثالثة والعشرين بعد المائة من عمره حائزا تمام الصحة، وله جملة أبناء أكبرهم سنا فى الثمانین من عمره ، والثانى فى الرابعة والسبعین، والثالث فى السنة الثالثة والأخیر لا یتجاوز عمره بضعة أشهر. وزوجة هذا الشیخ من طهارة الذیل بما يدفع كل شك فى أن المولود الأخیر الأخیر من صلبه. واتفقت لذلك الشیخ الفانى حادثة فى غاية الغرابة وهى أنه لما بلغ الثانية والثمانین من عمره نبتت له ست أسنان جديدة اضطر بعد ذلك إلى خلعهما لما كان یشعر به من الضیق والحيرة بوجودها.

٦- نصائح إلى الأجانب المقيمين بمصر

ماذكرته الآن من حسن تأثیر قناعة المصریین فى صحتهم والحرص على أداء بعض الإجراء = الإجراءات = الصحية یدعونى فى هذا المقام إلى توجيه بعض النصائح إلى الأوربيين من ساكنى مصر والسیاح الذین یجوبون أرجاءها. أذكر فى طلیعتها التحاشى عن التغذى بما یدخل فى ترکیبه الكثير من

الأصول الحيوانية لما هو معروف ومقرر في العلم من أنها تفيض عن حاجة الجسم إلى تعويض ما فقده، وتتجاوز القدر المناسب من التنبيه والتحريض، ثم الإمساك عن النبيذ الصرف والمشروبات الكحولية.

وتأثير المشروبات الكحولية بالبلاد الحارة في صحة متعاطيها ردىء للدرجة القصوى ولعل في التجارب الكثيرة التى قام الباحثون بها في هذا الموضوع مقنعا للناس كافة بهذا الضرر، إذ غير خاف عليهم ما لوحظ من ازدياد عدد الوفيات بمصر بنسبة مزعجة بين الأجانب الذين ألفوا تعاطي تلك المشروبات. ومما هو غنى عن البيان وإقامة الدليل عليه لبدايته أن الإنجليز النازلين في هذا القطر يهلكون بنسبة فاحشة جداً بالقياس على نسبة الوفيات في الجاليات الإفرنجية الأخرى. وما ذلك إلا لأن الإنجليز احتفظوا في مصر بعادة إدمان المسكرات. وهى عادة لا تتفق وطقس البلاد التى جاءوا ليتخذوها مقاما لهم.

وهناك أمر آخر ينبغى أن يلاحظه الناس كافة ويعملوا به أثناء إقامتهم في القطر المصرى، نريد به التوقى من تأثير الرطوبة واختلافات الطقس المتواترة الوقوع في هذا القطر. والسبيل الى هذه الوقاية إنما هو بالحرص على لبس الثياب المدفئة والإحجام عن النوم في المخادع والغرف المفتوحة النوافذ، أثناء النوم، والاحتراز من الرقاد في ظل الأشجار كما يفعل الفلاحون غالباً فإن إهمال الاحتياطات يفضى في كثير من الحالات الى ضعف الجسم وانحلال قواه، ويسبب الأمراض الروماتزمية والإصابات الرمدية وغيرها من أنواع الأمراض التى تهيب حالة الجسم واستعداده إلى الإصابة بها.

ومن عادة الأهليين بمصر إذا أحسوا ببوادر أعراض ما يلحقهم من مرض أو انحراف في الصحة أن يعطّلوا ما اعتراهم من ذلك - وهو ما نذهب إلى أنه الصواب بعينه - نسداد المسام وقللة افرازات الجلد. وسرعان ما يلجأون في إزالة هذه الأعراض إلى وسيلة لاريب في حسن أثرها وصدق فعلها، ألا وهى التوجه إلى الحمامات البخارية لاستثارة إفراز العرق الغزير من أبدانهم وهذا وحده يكفى لتبديد مظهر من تلك الأعراض عادة. وأنى لأنصح بالاعتماد على الحمامات إلى من يشعرون بما وصفته من مرض أو انحراف، واعتقد يقينا أنها تفيد غالباً في إيقاف أمراض جمة لولاها لسرت في الأجسام وأنهكتها.

والاستحمام فى حمامات البخار مع ما يتخلله من ذلك البدن كله بالكيس لمن أفضل الوسائل التى ينبغى لأجانب المقيمين بمصر أن يعتمدوا عليها لتحسين صحتهم من الأمراض الداهمة. ولقد سبق لنا الكلام على المزايا التى تنجم عنها من جميع الوجوه فلا حاجة إلى التكرار.

الأمراض المصرية

الطاعون . أمراض أعضاء الهضم: الدوسنتاريا- التهاب الكبد- البواسير.. الخ- الفتق- الأمراض الجلدية: الجذام - حب النيل- البرص- الحصبة.. الخ- الفترتيت. أمراض العيون: الرمى الصديدي- الشترى انقلاب العين للداخل- الشعرة.. الخ. أمراض أعضاء التناسل ومجارى البول: الحصاة المثانية- الايدروسيل- المبارك أو الزهرى- الأمراض السرطانية- الأمراض الصديدية- الأمراض المخية- الأمراض العقلية- الأمراض العصبية- الروماتزم أو وجع المفاصل - النقطة- التيتانوس- الكلب.

أشرنا فيما سبق إلى أن المصريين ، بما هو معروف من مزاجهم وقوة بنيتهم وطريقة معيشتهم ، ليسوا عرضة إلا لليسير من الأمراض . ولكنهم إذن فى أمان من شرور الأمراض الجمة التى تدهم الأوروبيين والشعوب المتمدينة كانوا عرضة لأدواء = جمع داء = كثيرة غيرها ، بعضها خاص بالمواطن التى يستقرون فيها والبعض الآخر مشترك بينهم وشعوب الأرض المختلف ، وسنتكلم عليها فيما يلى:

٧- الطاعون

إذا لم يكن الطاعون أكثر الأدواء انتشارا فى مصر فهو على الأقل من الآفات الفتاكة أكثر من غيرها بالأرواح. بل هو من الأوبئة الكامنة فى بلاد الشرق، وعلى الخصوص فى أرض الفراعنة القديمة.

يجوز إذن القول بأن مصر مهد للطاعون، وأنها كانت - سواء فى أيام عزها القديم أو فيما تلاها من القرون - ميدانا لانتشار ذلك الوباء فيها وفتكه بأهلها أذرع فتك. فليس سقوط الحضارة المصرية من علوة مجدها القديم ولا إغفال القواعد الصحية التى كان المصريون أشد الناس حرصا على

اتباعها هما اللذان أولدا ذلك المصاب المخيف والطامة الكبرى، كلا بل إن أسباب انتشاره ما برحت في أيامنا هذه كما كانت في تلك العصور الغابرة سرا من الأسرار الغامضة. وهى كغيرها من أسباب أمراض وأوبئة شتى لاتزال مستعصية على المتصدين لمعالجتها بالبحث والتمحيص والاستقصاء.

ولم يكن الطاعون وباء كامنا في مصر فقط، بل في سائر البلدان الممتدة على السواحل الشرقية والجنوبية من البحر الأبيض المتوسط. ومع تفاوت درجات انتشاره فيها شدة وخطورة، فإنه لاتكاد تمر سنة حتى ينزل بكلّله على الشرق في ميعاد واحد. والعادة أنه. إذا فشا بين الناس بادية ذى بدء لا يكون شديدا. فإذا انتشر بشكل وبائى. وهو ما يحدث مرة في كل ست سنوات أو ثمان أو عشر، فإنه يحصد الأرواح حصدا، ويكون شأنه في ذلك شأن الكوليرا إذا انتشرت وأحلت بهم بأسها فجعلتهم غرضا لسهامها وجزرا لسيوفها.

وليس الطاعون من الأوبئة المعدية الوبائية. وسواد الأطباء الذين فحصوه في السنوات الأخيرة ودرسوه درسا دقيقا يشاطروننا هذا الرأى. وقد كان هذا الاعتقاد ولا يزال اعتقاد المسلمين لا يحدون عنه. لذلك تراهم لا يوقون أنفسهم شر ملامسة المصابين بالطاعون والاتصال بهم. ومما يبعد عن الظن أن تكون أراؤهم في هذا الموضوع مستمدة من الاتكال على القضاء والتسليم بما يأتى به القدر .. فإنه مما لا يصح التسليم به أن يتعرض شعب بمحض اختياره للإصابة بداء يعرف أنه من الأدواء المعدية، إذا كان فى استطاعته أن يدرأه بلا معاناة إذ يكفيه مجانية الموبوئين به.

أمراض أعضاء الهضم

٨- الدوسنتاريا

الدوسنتاريا من الأمراض الملازمة لمصر، وهى بعد الطاعون من أشدها فتكا بالمصابين بها، ويعرفها المصريون باسم الدوسنتاريا وعنصل البطن والسهلة، والإصابة بها فى الوجه البحرى أكثر تواترا منها فى مصر الوسطى والصعيد، والغالب عليها أن تكون فى أيام الحر حيث يأخذ انتشارها فى بعض

الأحيان شكلا وبائيا فتصيب العدد العظيم من الناس.

ذلك المرض الذى يكافحه الأهالى الوطنيون بالشعوذة وطب الركة ودجل الدجالين. فتكون عاقبته وخيمة عليهم ، ويعالجه الأطباء الأوربيون بالطرق النافعة الناجعة وأخصها مضادات الالتهاب والحمية. والحمية شرط لابد منه فى نيل الشفاء التام.

أما الأمراض الأخرى لأعضاء الهضم فنادرة الوجود فى القطر المصرى.

٩- التهاب الكبد

يشاهد هذا المرض فى أحيان نادرة ، فهو أقل انتشارا مما يتبادر إلى الذهن، والسبب فى ذلك شدة حرارة الطقس، وأكثر الناس تعرضا للإصابة به الأجانب بوجه عام والأوروبيون منهم بوجه خاص.

١٠- امتلاء المساريقا

أما الامتلاء المعروف باسم امتلاء المساريقا أو انسدادها أو احتقانها فقليل الشيوع أيضا. إذ لا يشاهد إلا فى عدد قليل من الأطفال.

١١- الاستسقاء

ومما تنهى الفرصة كثيرا لمشاهدته أحوال الإصابة بالاستسقاء أو ترشيع البطن. غير أن هذا المرض فى مصر لا ينشأ عن الإلتهاب المزمن فى البريتون. وشأنه فى ذلك بمصر كشأنه فيه بالبلدان الأخرى. وتزداد خطورته عادة بتأثير أحوال عديدة كاحتقان الكبد أو حدوث الأعراض التى تعوق الدورة الدموية.

١٢- البواسير

أما البواسير فكثيرة الانتشار فى مصر، بعكس الأمراض المتقدمة، وعلة انتشارها على ما يظهر تفشى داء الدوسنتاريا فى هذا القطر. والأهالى الوطنيون يعالجون البواسير بوسائل تبعث كلها على العجب والدهشة. فإنهم متى شعروا ببروزها وتضخمها ، يستدعون الحلاق فيقطعها لهم بالموس.

١٣- الآفات الديدانية

وهناك أمراض أخرى كثيرة الشيوع والتفشى فى مصر يجمعها اسم

الآفات الديدانية. فإن أهالى القطر، من جميع الأسنان والأمزجة، معرضون للإصابة بها. وكثيرا ما تنتشر الديدان الباطنية فى جسم المصاب بها بحيث لا يحصى عددها ولا يحصر.

١٤- الفتق

الإصابات بالفتق شائعة فى مصر. وقد عزوا حدوثها إلى ماء النيل باعتبار كونه شرابا يشربه المصرى وينتفع به فى مرافقه كما عزوا إليه ما لاحصر له من الامراض ولاسيما داء الفتق الذى ينسبونه إلى استعمال الحمامات الساخنة الشائعة فى الشرق، ولكن يبدو لنا أن لاسبب من الأسباب الموما إليها بصحيح، وأن لانصيب لهذا التعليل من الصواب. والذى نرتئيه أنه إذا كان لمياه النيل بعض التأثير فى ازدياد المرض، فإن هناك أسبابا أقوى من التى تقدم ذكرها، منها: بنية الأشخاص الذين نسيجهم الخلوى الشحمى رقيق جداً لايسد التجاويف التى تهبط الأحشاء منها سدا محكما، ومنها ارتخاء المجموع العضلى فى أجسامهم. وهذا الارتخاء يتسبب عن طبيعة مزاجهم وحرارة الوسط الذى يقيمون فيه، ومنها إدمان ركوب الخيل وهو ما لاغنى لسواد المصريين عنه.

وزعم بعضهم أنه لولا إحتياط الفلاحين بضغط بطونهم بالأحزمة العريضة الجلدية لبلغ عدد الإصابات بالفتق فى مصر مبلغا فاحشا. وهذا الزعم ظاهر البطلان. لأن القائلين به لم يلتفتوا إلى أن الضغط بمثل تلك الأحزمة على الحرقفتين والجزء الأعلى من البطن من شأنه أن لايرفع الأحشاء إلى فوق. فهو لن يأتى بالفائدة التى تعزى إليه. بل من شأنه أن يدفع الأحشاء التى يضغط عليها نحو النقط التى يحدث الفتق عادة فيها، إذا ثقلت عليها الأحشاء. وعليه فاستعمال الحزام كوسيلة لمنع الفتق لمن أقوى البواعث على حصوله وتفاقم خطره.

١٥- الأمراض الجلدية

الأمراض الجلدية شائعة فى مصر، وتبدو للناس على أشكال مختلفة، وأكثرها شيوعا مرض الجذام الذى يصيب الأعضاء ومواقع التناسل وحب النيل والبرص والقوبه والحصبه والجرب وغيرها.

١٦- الجذام

يعرف هذا المرض في أوروبا بأسماء مختلفة منها الفتق اللحمي (بروسير ألبان) ومرض جزائر (البرباد) وسرطان الخصية المصرية، وقد سماه العلامة (الار) بمرض المجموع اللنفاوى، وهو شائع في مصر وإن لم يكن خاصا بإقليمها، وما سمي في اللغة الافرنجية باسم (اليفانتيازيس) اشتقاقا من اسم الفيل، إلا للشكل الذي تتشكل به الأجزاء المصابة. من حيث إنه يجعل العضو المصاب بهذا الداء شبيها برجل الفيل. وهذه التسمية التى تليق إلى حد ما بالمرض إذا أصاب الساقين، لا محل لها إذا أطلقت عليه فى حالة إصابته أجزاء أخرى من الجسم كالخصيتين مثلا، ثم أن تسميته بأسماء الفتق اللحمي وسرطان الخصية والقيلة المائية لا تنطبق أيضا على حقيقة الواقع، كما سيتبين للقارئ عند ذكر طبيعة المرض وشرح أعراضه. أما تسميته بمرض المجموع اللنفاوى فغير صحيحة كذلك. لأن المجموع اللنفاوى لم يكن مركزا من مراكز الاضطرابات الباطنية.

إن الجذام الذى اقترح بعضهم بحق تسميته بالارتشاح أو الانتفاخ الارتشاحى، إنما هو من الأمراض التى مركزها النسيج الخلوى الذى تحت الجلد، فإن هذا النسيج إذا وقع تحت تأثير ظروف مختلفة يرجع أغلبها إلى أسباب التهيج، ينفذ إليه مقدار يختلف قلة وكثرة من المواد المصلية التى تزداد تراكما بازدياد نمو الأجزاء الصلبة. فمن هذين الظرفين يتولد الجذام ويكون فى آن واحد نتيجة الرشح وفرط النمو فى النسيج الخلوى. يؤيد ذلك استئصال الغدد والعجز الناجمة بالقطع عن هذين السببين، فإن هذا القطع يفضى إلى إنسياب مقدار كبير من المواد الصلبة فيقل حجمها قلة محسوسة. ويؤيده أيضا تشريح الأجزاء الصلبة فإن هذا التشريح يجلى عن مثل النتيجة المتقدمة.

وتجرى الأحوال على هذا المثال. سواء اتسع نطاق الداء بالأطراف السفلى للجسم، أو اتخذ غلاف الخصيتين مقرا له. وفى الحالة الأخيرة على الأخص يبلغ الجذام فى الضخامة وفرط النمو أقصى مبلغ له. فلقد رأيت أوراما من هذا القبيل تجاوز وزنها مائة رطل. وأستأصلت بنفسى أوراما مثلها بلغت من ضخامة الحجم مبلغا وصل معه قطرها الرأسى إلى أسفل الساق.

أما أسباب الجذام والظروف التي يتولد فيها، فهو ما لم يحققه المحققون حتى الآن، وغاية ما في الأمر أن من الأسباب المختلفة التي يعزى إليها فرط نموه وتضخمه سببا ربما كان صحيحا وهو تأثير البرودة الرطبة والحمامات الباردة وكثرة الاغتسال إلى غير ذلك من الأسباب المختلفة التي من شأنها أن ترد العرق إلى مصادره . ولكن هذه الظروف لا تكفى وحدها لتوليد الداء. إذ لو كانت هي الموجدة له، لكان من أكثر الأدوية الباطنة شيوعا في العالم خصوصا وأن العرق كثيرا ما تتعطل بمصر وظيفته بدون أن يترتب على توقفه ظهور ذلك الداء.

ولكى يأتى علاج الجذام بفائدة قاطعة ونتيجة حاسمة، تحسن المبادرة بعلاجه بمجرد ظهور علاماته. لأنه مادام في دوره الأول يكون الأمل في الشفاء منه، باتخاذ الوسائل الطبية الأصولية، أوثق وأدنى إلى التحقق. وعليه فمن الميسور الحصول على نتائج حسنة باستعمال مضادات الالتهاب والفصد واللبخات المليئة، ويحمل الأحزمة بعد وضعها في المكان اللازم وضعا لاثقا. أو إذا كان ثم ما يدعو إلى الاشتباه في أصل المرض، وأن له ارتباطا بإصابة زهرية مثلا فتستعمل الأدوية الزئبقية. أما إذا مضى بعض الزمن على الإصابة فيعتمد فيها على قطع الجذام كذريعة يلتمس منها تخفيف الألم لا الشفاء التام من المرض. وأما إذا بلغ الداء إلى الدرجة التي أشرنا إليها. أى إذا دهم الخصيتين وأحدث فيهما ذلك الانتفاخ البالغ ، فالوسيلة الفعالة في الخلاص منه هي الاستئصال التام.

١٧ - حب النيل

يطلق المصريون هذا الاسم على مرض خاص ببلادهم لا يعدوها إلى غيرها، وقد أجمعت الآراء على أن سببه استعمال ماء النيل شربا.

ولم يكن حب النيل مرضا جلديا كما ذهب إليه العلامة (بونيه) وإنما هو بثور تخالف بطبيعتها وشكلها أنواع البثور الأخرى، إذ تشبه دمامل صغيرة ملتهبة مختلفة الأحجام تكون منضمة تارة وطورا متفرقة، وتحدث أكلانا يزعج المصاب بها. وقد تستحيل إلى دمامل كبيرة تنتشر على ظاهر الجسم كله وتتفشى في الأجانب أكثر منها في الوطنيين. ويتفق أوان ظهورها مع أوان فيضان النيل. ولا خلاف في أن مياه النهر هي السبب في حدوثها بدليل أنها

تزول بانتهاء الفيضان وانخفاض الماء.

وحب النيل أكثر شيوعا في الوجه البحرى منه في مصر الوسطى. فشأنه من هذه الجهة شأن الجذام. أما الوجه القبلى فالإصابة به نادرة جداً، ولم يستطع أحد حتى الآن تعليل هذه الخصية.

١٨- البرص

البرص أحد أمراض الشرق التى فقدت كثيراً من قوتها بتعاقب الأجيال ومضى الأحقاب. ومع هذا فإن بلاد الهند وبعض شطوط أفريقية والشام ومصر وعلى الخصوص جزيرة كريد ما برحت ملوثة بتلك الآفة. وكثيرا ما تشابه الأمر على الناس فخلطوا بين الجذام والبرص مع بون ما بين المرضين، والبرص يظهر فى شكلين أصليين دعيا إلى تسميتهما. الأول بالبرص الدرني العربى، والثانى بالبرص الأكال اليونانى.

أما البرص الدرني المشاهد فى مصر بوجه خاص فيظهر بشكل أجسام درنية صلبة صغيرة الحجم تنتشر فى النسيج الخلوى فتحدث نتوءا فى الجلد وتكسبه لونا ضاربا إلى الحمرة ويبتدىء المرض بالوجه والأعضاء ولا يصيب الجذع إلا فى أحوال نادرة جداً. ويتبع فى سيره سير الأمراض الخنازيرية، مفضيا إلى أعراض واضطرابات تشبه ماتحدثه هذه الأمراض منها .. فمن ذلك أن الدرن يلتهب ويتقيح ويحدث جروحا تلتحم عن ندب بشعة المنظر. بل ربما أحدث تشويها فى الأعضاء أو أدى إلى فقدانها وسقوطها إذا وصل الدرن إلى المفاصل.

أما البرص اليونانى الذى يقرب بطبيعته من الأمراض القوبية، فنادر الحدوث فى مصر. وهو ببلاد اليونان ألصق منه بأى بلد آخر ويحدث كالسابق اختلالا واضطرابا مختلفى الضعف والشدة فى النظام العضوى.

وكثير من الأطباء يعتبرون البرص مرضا معديا، ولكنه غير ما زعموه من ذلك. فإن الأبحاث التى قمت بها فى هذه الموضوع والمرضى الذين فحصت إصاباتهم فى مستشفياتنا وفى جزيرة كريد أقنعتنى وزملائى المصريين بأن المرض غير معد. وهذا الاقتناع يطابق رأى السائد منذ زمان طويل بين شعوب الشرق.

١٩- الأمراض القوبية والخنزيرية

الأمراض القوبية موجودة بمصر ، ولكن الإصابة بها نادرة وإذا وقعت كان وقوعها في جهات متفرقة ومتباعدة وهذا الوصف ينطبق على الأمراض الخنزيرية لسبب لا خلاف في وجاهته ، وهو المزاج الخاص بالمصريين وطبيعة الوسط الذي يعيشون فيه . وبما أنه ليس لهذه الأمراض من الصفات الخاصة ما يميزها بعضها عن بعض ، فقد اكتفينا بالكلمات السابقة عن الاسترسال في وصفها والتوسع في بيانها .

٢٠- الجدري

الجدري من الأمراض الجلدية الأكثر شيوعا في مصر وفتكا بأهلها . على أنه فقد منذ بضع سنوات كثيرا من قوة انتشاره وشيوعه ، بفضل ما اتخذته الحكومة من الوسائل لإجراء عملية التلقيح على الأطفال . والمأمول أن ينتهي الأمر بانقطاع ضرر هذا الداء عن مصر كما انقطع عن الديار الأوروبية .

٢١- الجرب

الإصابة بالجرب من أكثر الإصابات شيوعا بين المصريين ، وخصوصا في صفوف الجيش . والأسباب المحدثه له في مصر هي عينها في كل قطر آخر . وإذا كان هذا المرض أكثر شيوعا في القطر المصري منه في غيرها ، فإنما يرجع السبب إلى عدم احتفاظ الناس بالنظافة وإهمالهم وسائل الوقاية .

لمحة عن «كلوت بك»

نعم .. مصر لاتنسى أبناءها.. ولا تنكر ولا تتنكر لغيرهم من الذين عاشوا على أرضها من غير فساد أو إفساد أسمائهم وحفظت لهم إسهاماتهم..

ومن هؤلاء العالم الفرنسى الشهير «كلوت بك» الذى وفد إلى مصر سنة ١٨٢٥ ميلادية، ولسيرته مزايا منها أنه رتب الاسبتالية العظمى والمدرسة الطبية أحسن ترتيب. وبذل جهده فى ترجمة الكتب الطبية من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية.. وفى سنة ١٨٣٢ ميلادية ذهب إلى باريس وبصحبه اثنا عشر تلميذا من المصريين منتخبون من مدرسة «أبى زعبل»..

وهذه نبذة عن «كلوت بك» وعصره بقلم «عبدە محمد لبيب» أحد تلامذة مدرسة «الألسن» بتكليف من سعادة الدكتور «محمد بك الدرى» وهذا الجزء متمم للكتاب «لمحة عامة إلى مصر» وتعريف بصاحبه الذى قدر له، معايشة المصريين وأحوالهم فى فترة تاريخية مليئة بالأحداث والمواقف.

أحمدك يا من جعلت الأمم الغابرة موعظة واعتبارا للأمم الحاضرة
وخصصت بعض أفراد النوع الإنساني بمزايا حسب ما لديه من الاستعداد،
وأوضحت له بجليل آياتك خفايا طريق الغنى من طريق الرشاد وأصلى وأسلم
على نور الوجود وواسطة الفضل والجود، وعلى آله الكرام وأصحابه الأعلام.

وبعد فيقول العبد الفقير المضطر إلى رحمة مولاه الملتجئ إليه دون من
عداه عبده محمد لبيب أحد تلامذة مدرسة الألسن التي طار صيتها في الآفاق:
بينما كنت عاكفا على تحصيل المعارف والتظلل بظلها الوارف، وإذا بشمس
الحكماء وقدوة الفضلاء الحائز قصب السبق في مضمار العلوم الطبية لقمان
عصره وبقرط مصره. العلم الشهير الغنى عن البيان الذي يعجز عن تعداد
فضائله اللسان، ويكل عن الإحاطة بوصف جليل معارفه فكري. سعادة
الدكتور البارع المتفنن محمد بك الدررني بترجمة كتاب محتو على سيرة
كلوت بك من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية فأجبتة إلى مطلوبه وبذلت
الجهود في إنجاز مرغوبه. كيف لا ولصاحب هذه السيرة مزايا تجل عن أن
يحصرها الفكر منها أنه رتب الاسبتالية العظمى والمدرسة الطبية أحسن
ترتيب. وبذل جهده في ترجمة الكتب الطبية من اللغة الأجنبية إلى اللغات
العربية حتى استمد أبناء أوطاننا من معارفه الجليلة أشهر العلوم خصوصا
الأعمال الجراحية واستدعى لها جميع ما يلزم مقدما الأهم فالأهم حتى
تكاملت فيها الآلات الطبية والجراحية والمادة الطبية والتاريخ الطبيعى
وغيرها مما تحتاج إليه من زوال فن الطب ومتعلقاته. كالقطع المرضية
التشريحية الصناعية المزين بها الآن كل من قاعة الاكلينيك الجراحى
والقاعات التشريحية المنسوبة إلى الدكتور (تيبير Thibert) حتى بلغت غاية
الكمال، وطبع فيها عدة كتب طبية بعد أن ترجمت من اللغة الأجنبية إلى اللغة
العربية فتقدمت هذه المدرسة إلى الدرجة العليا وأصبحت كعبة معارف تتوارد
إليها التلاميذ من سائر القرى والبلدان في ظل العائلة المحمدية العلوية وما
زالت كذلك حتى زاد تقدمها في زمن الخديوى المفخم ملك مصر الجالب لها
ثروتها والمعيد لها نخوتها توفيقنا الأول الذى نشر ألوية المعارف في هذا
القطر بعد أن درست معالمها . جعله الله دوحة مجد وإجلال وحفظ أنجاله
الكرام ووزرائه الفخام.

مقدمة مؤلف هذه النبذة التاريخية

اعلم أن التاريخ هو أجل العلوم نفعا وأعظمها فائدة فهو محط أنظار العقلاء وبغية الفضلاء. إذ هو المرشد الأمين الذى يوقفنا على أحوال الأمم الماضية ويبين أعمالهم الحسنة والقبیحة كى يتحلى الناظر فيه بالخطه الأولى ويتخلى عن الثانية فهو أعظم مرب وأجل مرشد لمن نظر فيه بعين الاعتبار.

ومن وعى التاريخ فى صدره أضاف أعمارا إلى عمره

غير أنه قد وقعت فى بعض كتبه أغلاط أوجبها الخروج عن جادة الإنصاف من حب التقرب لأرباب العظمة وعدم معرفة طبائع العمران وغير ذلك من الأسباب التى يمنعنا ضيق المقام عن ذكرها ومن ثم عزمنا على أن أتبع سبيل الصدق فى ذكر سيرة هذا الرجل الذى حاز المقام الأسمى حتى أنه نجح فى جميع مشروعاته وأحدث فى البلاد إدارات نجمت عنها فوائد شتى من المصالح العمومية ، حتى أصبحت تشابه البلاد الأوروبية - مع كونه لم يكن من رجال الإدارة . وإنما أسس كل ذلك بثاقب فكره وسامى إدراكه فهو الجدير بأن يقوم له المصريون بأنواع الشكر جزاء على ما له من جليل الأعمال كغيره من عظماء هذه الأمة الساهرين على منافعها ، ولم يكن هذا العالم الشهير من المبعوثين المسيحيين . مع أنه كان من أجل العالمين بالدين المسيحى الساعين فى نشر المعارف ، ولا من قبيل بعض الذين يتخذون العلوم سلما للغنى ووسيلة للتعيش ليس إلا ، وكان من سجاياها الانكباب على المطالعة فى العلوم والانهماك فى تحصيل المعارف حتى تحصل منها على ما يتعلق بجميع المنافع البشرية بسبب تفننه فى العلوم الطبية ، ولنتعرض إلى سرد ما كان من هذا الرجل منذ سمحت الظروف ببروزه إلى عالم الوجود إلى أن اغتالته أيدي المنون مبينين ذلك فى مطلبين الأول يشتمل على بيان حالته منذ حاز صفة الوجود وزوال العلوم إلى أن نبغ فيها وعرف غثها من ثمينها والثانى على ما كان منه من جليل الأعمال بعد ذلك إلى أن انتقل من الدار الفانية إلى الدار الباقية ولنشرع فى ذلك فنقول:

المطلب الأول

ولد (الدكتور أنطون برتيلمي كلوت بك Le Doctor Antoin Barth'elmy Clot) في جرينوبل (Grenobel) لسبع خلت من شهر نوفمبر سنة ١٧٩٣ مسيحية، وكان من عائلة فقيرة جداً، وبهذه الوساطة لم يتحصل إلا على تعليمات ابتدائية وكان والده ضابطاً بالجيش الطلياني وأضطر إلى أن يعود إلى عائلته بعد واقعة (مارانجو Marango) لأجل الاستراحة مما عاناه من مشاق الحرب والمرض الذي ألم به منها، وتوجه إلى بلدة تسمى (برينيول Brignoles) لأجل أن يعالجه هناك الدكتور (سابيه Sapay) الشهير الذي عرفه في الجيش أيام الحرب المذكورة، وكان الدكتور الموماً إليه مديراً لمستشفى البلدة المذكور المسمى (باسبتالية الصدقة L'hotel- Dien) ثم مات والده في سنة ١٨١١ تاركاً زوجته وبنجله ييتكبدان آلام الفقر وكان لهذا النجل (كلوت بك Clot--bey) رغبة شديدة في تعلم فن الحكمة والجراحة حتى أنه كان في مدة طفولته يزاول تشريح مايعثر عليه من الحشرات في مزارع (دوفينه Daufin'e) مع غاية من الحداقة وشدة الرغبة ومازالت تنمو فيه هذه الرغبة كلما نما سنه حتى أن الدكتور (سابيه Sapay) الذي كان محباً لوالده ألحقه بوظيفة مساعد له في الأعمال الجراحية وبعد مدة قليلة نبغ في هذا الفن وظهرت نجابته حتى أصبح يجارى الدكتور المذكور في صغار العمليات.

وفي هذه المدة كان منكبا على مطالعة الفنون الطبية في كتيخانه هذا الدكتور، واستمر على هذه الحالة باذلاً جده واجتهاده حتى أنه حفظ كتاب الجراحة المنسوب إلى (لافيه Lafaie) وبعد بقاءه على هذه الحالة بضع سنين علم أنه لايجد في هذه البلدة (برينيول Brignoles) وسائل التبصر في هذه العلوم. فعزم على أن يتوجه إلى (مرسليا Marseille) لكي يلحق بالمستشفى الذي بها فعارضته والدته وأقاربه وأحبابه بأنه مخطيء في هذا الرأي فلم يصنع لقولهم، وتوجه إليها منكسر الخاطر من أسف والدته وأقاربه وأحبابه على فراقه وتقبيحهم له هذا الرأي، وكان عمره وقتئذ يناهز تسع عشرة عاماً ولم يكن معه سوى ثلاثين فرنكا ومنديله وفيه بعض لوازمه، وبعد مدة من

وصوله إليها نفذ ما كان معه فعزم على أن يسافر في سفينة يقال لها (هازار hasard) أى الصدفة بصفة جراح ولكن لم يحصل ذلك لأن قبطانها عين ابن أخيه لهذه الوظيفة وسافرت هذه السفينة ولم يعلم إلى أى جهة توجهت غير أن الأخبار أفادت أنها غرقت..

فاشتغل (كلوت بك Clot Bey) بأشغال لاتفيد، ثم اضطره احتياج المعيشة إلى أن يقيم عند حلاق له إمام ببعض المسائل الجراحية الصغيرة فكان يشتغل بالفصد والعمليات الأولية ثم عاد جناب هذا الدكتور إلى حالة التلمذة، ورجع ثانيا إلى محله واشتغل بتحصيل العلوم بجد واجتهاد ثم حضر إلى المستشفى وطلب الانتظام في سلك التلامذة فما تيسر له أن يقبل تلميذا خارجيا، ولكن لم يضعف هذا الأمر رغبته في تحصيل العلوم بل زاده رغبة في تحصيلها، وبعد ذلك حضر مرة ثانية وطلب الطلب الأول فحاز القبول، ولم يكن له في ذلك الوقت معرفة بالعلوم الأدبية ولكن تحصل منها بعالي همته على درجة عظمى وقبل تلميذا داخليا، وحينما كان بالاسبتالية أدخل بمصلحتها بعض التحسينات الإدارية وتقدم في العلوم تقدما ما أنبأ عن علو همته، ومع ذلك فكان في العيش لا يجد للرفاهية سبيلا ففي ذات يوم شديد البرد قابله أحد أصدقائه فوجده لابسا بنطلونا من القطن ويرتعد من ألم البرد فقال له بنوع مزاح . كيف تقابل البرد الشديد بهذا الملابس الخفيف فأجابه بتأسف بأنه ألمه والجليد أضرب به فأعطاه جانبا من النقود كي يستعين بها على التخلص من هذه الآلام.

وفي أثناء هذه الأيام حصل امتحان في المستشفى حاز فيه الدكتور المذكور قصب السبق، وشهد الحاضرون بقوة مدركته وعظمة استحضار ذاكرته حتى أن الحكماء الحاضرين قالوا له إنا نؤمل أن نراك دكتورا في زمن قريب فكان هذا القول داعيا لزيادة رغبته في تحصيل العلوم وقوة أمله في الوصول إلى هذه الدرجة بعد أن كانت آماله متعلقة بما هو منخط عنها وعين حكيما صحيا في سنة ١٨١٧ بعد أن تحصل في المستشفى على علوم لم تتحصل عليها أقرانه، ولم يزل منكبا على الاشتغال بالعلوم ورافق أحد العلماء الروحانيين، وتعلم منه اللغة اللاتينية حتى تأهل للحصول على (شهادة العلوم الأدبية. Diplome de bachelie 'es - lettre) ووقتئذ عين رئيسا

للأعمال التشريحية في المدرسة الثانوية ثم عين جراح باشى داخلى بالمستشفى. فازداد جده في مزاولة العلوم والاشتغال بها وحضر إلى مدرسة الطب الخصوصية (بمونبلييه Montpellier) سنة ١٨٣٠ مسيحية لأجل أن يمتحن امتحان الدكتورية وكان يكفى تلامذة مدرسة الطب في هذه الأوقات أن يكتبوا أسماءهم في دفتر الحضور إلى المدرسة المذكورة كل ثلاثة أشهر ولم يكونوا ملزمين بالإقامة في تلك البلدة بل كانوا يسافرون كل ثلاثة أشهر إلى أماكنهم أو حيث شاءوا على سبيل الإجازة والاستراحة متكبدين في هذا السفر بعض المشقات وقد أعطيت رخصة (لكلوت بك Clot Bey) مقدارها ثلاثة أيام ولكن لم يعط له ما يعينه على ذلك فقطع راجلا مسافة ستين فرسخا حتى أجهد المشى فجلس على جانبى الطريق ليسترى فمرت عليه عربة يجرها جوادان من الخيل فهم باغتنام ركوب هذه العربة زاعما أن لا أحد بها فلم يشعر إلا وضربه قائدها بالسوط ضربة قوية جعلته طريحا على الأرض وعندما كان يقص هذا الفاضل هذه القصة المتقدمة كان يعد نفسه بكونه يمنع القائد من هذه الأعمال الوحشية متى نال مطالبه وساعده القدر وأصبح ذا بطش وثروة ولديه عربة - وقد عمل بهذا الوعد - ولما انتصب للامتحان بادر بعض مختبريه باكتثار الاعتراضات عليه نظرا لما قاله في مسألة النخاع الشوكى المسطرة ضمن أفكار (بروسيه Braussais) التى وضعها حديثا لأن أفكاره في تلك المسألة كانت مباينة لأفكار أحد مختبريه الذى هو من علماء المدرسة المذكورة ولكن كان بين هؤلاء المختبرين رجل له القدم الثابت في هذه العلوم ويدعى بالدكتور (للمنض Lallemand) له دراية تامة بعلم (الفسيولوجيا physiologie) أى علم وظائف أعضاء الإنسان في حالة الصحة فمال إلى تعضيده في دعواه وتأكدت بينهما المحبة من ذلك الوقت.

ولما رجع (كلوت بك Clot Bey) إلى مرسيليا عين حكيما ثانيا بمستشفى (شاريتيه charit'e) الصدقة، وحكيما للجراحة بمستشفى الأيتام.

وأصبح من ذلك الوقت ذا شرف عال وشهرة عظيمة، ومعلوم أن الحسد يتبع الشرف تبع الظل للشمس كما قاله (بلوتارك plutarque) فنشأ من هذا ومن حسن سيرته ومحبة الكثير له إثارة حنق بعض الأشخاص عليه فتحير بين الصمت والكلام، ولكن التزم الأول لعلمه بضرر الثانى، وكان بين هؤلاء الأشخاص الفقراء القليل العدد رجل طويل الباع في الخديعة والاحتيال

فظفروا بواسطة النميمة التي هي سلاح السفلة والمارقين عن حوزة الشرف بعزلة من إدارة هذين المستشفين، ولم يعتره لذلك غضب وحنق حتى يحاول الانتقام منهم. بل عوضا عن ذلك بذل جهده في اتخاذ الوسائل المؤدية إلى الاحترام ونيل الشرف والرفعة. فدون في مدة عشرين يوما مسألتة المتعلقة باستعمال آلات الولادة في الأحوال الخطرة حتى صار دكتورا في فن الجراحة ومن هذه الحادثة يتضح أن مثل السيئة في الهيئة الاجتماعية كمثل النبات الرديء الذي يوجد مع النبات الحسن. فإنه وإن كان يعوقه عن وصوله إلى الدرجة الحسنة لايؤثر فيه إذا كان مثمرا فالنجاح في الخير كان ذريعة لارتداع من لهم في الشر رغبة، وبعد مدة قليلة رأى أن، شهرته نمت بين العام والخاص وانعكس ما كان يحاوله الحساد من إخفاء صيته وشهرته.

وفي سنة ١٨٢٥ تيسر لهذا الدكتور بسعد طالعه التوجه إلى الديار المصرية التي أخذت وقتئذ تخرج من حضيض البربرية والتوحش إلى أوج التمدن والانتظام بهمة صاحب المعارف العالية والمدارك السامية رجل السياسة الوحيدة، وواسطة عقد العمران وزيادة الثروة والتمدن صاحب السيادة على تلك الأقطار المرحوم محمد علي باشا. الذي سعى في أن يجلب إليها التمدن والمعارف والصنائع الأوروبية فإنه لما رأى عظم ثمرة الإرسالية الفرنسية في هذا القطر وجه أنظاره نحو فرنسا ورأى أن من المصلحة المهمة المحافظة على صحة جيشه. فأرسل من قبله إلى البلاد الفرنسية أحد التجار الفرنسيين المدعو (تورنو Tournau) لأجل أن يأتي بحكماء للجيش المذكور فقابل هذا الرجل الدكتور كلوت بك وعرض عليه التوجه إلى تلك الأقطار بوظيفة جراح باشى فلبى هذا الطلب بصدر منشراح رغما عن حسن تعيشه بمرسليا واشتهاره الزائد لعلمه بأن هذه الوظيفة تخلد له المآثر الجليلة وتجعل له تاريخا حسنا نظرا لما يقوم به من جليل المنافع الصحية وغرس نبات العلوم في أرض مصر غير مراعاة مصلحته الذاتية كغيره من أغنياء باريس وكتب معه شروطا تقضى بحريته في العمل وأن يتبع ديانته المسيحية وعدم إجباره على السير مع الجيش خلاف ما كانت عليه قوانين الينان أيام حدوث الحرب بينهم وبين الدولة العليا، ولنشرح الآن ما كان بعد ذلك من أعمال هذا الرجل في المطلب الثاني على وجه الاختصار المفيد فنقول:

المطلب الثانى

قبل الشروع فى سيرة كلوت بك نقول : إن المرحوم محمد على باشا ماتقلد إدارة مصر إلا بقوة سيفه واتساع مداركه، وما كان يمكنه تثبيت سلطته عليها إلا بتلك القوة ومساعدة جيشه الجرار وقلعته الحصينة وعدد رجال هذا الجيش لم يكن أقل من مائتى ألف مرتبين بضباط أوروباوية وكان الجيش البحرى يزيد عدده عن عشرين ألف شخص ومع ذلك فلم يكن لكل من هذين الجيشين انتظام زائد، بل إن الأمة المصرية بتمامها كانت محرومة من فوائد العلوم الطبية والوسائل الصحية.

فلما شاهد هذا الأمر كلوت بك شرع فى اتخاذ الوسائل المؤدية إلى التخلص من هذه الحالة السيئة، ولكن لما تحقق أن نجاحه فى مأربه منوط بمساعدة المقربين إلى الوالى المرحوم محمد على باشا أشار عليهم بتشكيل ديوان للصحة لعظم فائدته، فنجح جناب هذا الدكتور فى ذلك كما نجح فى غيره من الأعمال، واتخذ فى هذا المشروع الترتيبات الفرنساوية نموذجاً وأحدث أشياء ضرورية مثل الحكمة وممارسة الفنون الجراحية على الطراز الذى كان اخترع حديثاً فى فرنسا وأنشئت فى هذه الأوقات المستشفيات العسكرية لضرورة الاحتياج فى إتمام النظام العسكرى إليها، ووضعت أيضاً مصلحة الصحة البحرية وكان لجناب هذا البيك الاعتبار الزائد والاحترام الفائق بقطع النظر عن هذه الأعمال الجليلة، ولم تكن أهالى مصر وقتئذ متأهلة للقيام بما يلزم لهذه التنظيمات، ولذلك بعد أن عين لكل واحد من أنواع المستخدمين مثل التمورجية وغيرهم الأعمال التى يزاولونها شرع فى تعليم كل واحد منهم أشغال وظيفته ونظم الصحتين الشخصية والإدارية، وكان يعامل المستخدمين بهمة عليا مع زيادة نشاطه وحسن قيامه بما يعهد إليه من الأعمال، وسعى فى إزالة الامتياز الذى كان بين ضباط الجيش وحكمائه وطلب احترام العمال الذين بصحبته نظراً لكونه كان لا يستخدم إلا أرباب الصدق، وأشهر المستشفيات العسكرية التى أنشئت حسب ما طلب البيك المذكور مستشفى أبى زعبل (وهى بلدة صغيرة على مسافة أربعة فراسخ من القاهرة) بقرب ميدان الخانكة. لأن جانباً عظيماً من العساكر يبلغ عدده نحو

مائة ألف تقريبا كان بالجهة المذكورة، وقد اشتغل هذا الرجل العظيم بترتيب المستخدمين ووضع الاسبتالية والأدوات والبناء المحكم واعتنى اعتناء زائداً بإنشاء بستان للنبات في الساحة الداخلية، وسعى في إيجاد المدرسة الطبية التي أسسها سنة ١٢٤٣ هجرية والممارسة في المستشفى المصرى.

وفي الحقيقة أن ذلك مما تقضى المصلحة بوجوبه لأجل اجتناء أبناء الأوطان ثمرات العلوم الطبية ففاز بنجاحه في هذا الأمر وأنشئت المدرسة المذكورة غير أنه من سوء الحظ لم ينجم عن ذلك إلا فائدة قليلة رغما عن ضرورة وجود أطباء مصريين للجيش وسائر جهات القطر حتى لا يحتاج إلى الاستمداد من أوروبا المستلزم للخضوع الأدبى لها الذى هو أمر صعب الاحتمال وقد بذلت نقود جمة لأجل الوصول إلى تلك الفائدة القليلة ولم يكتف كلوت بك بترتيب الجيش على غاية النظام بل عمد إلى بث هذه الفنون الطبية في عقول أبناء الأمة المصرية لما رأى فيهم من الاستعداد الذى يوجب لهم التضلع من المعارف وتحسين مستقبل البلاد كيف لا وهم سلالة قدماء المصريين الذين آمدنوا أهل الكرة في الأزمنة السالفة وبثوا العلوم في الأمة اليونانية وحازوا تالد المجد وعظيم الثروة في مدة الخلفاء العظماء ولما رأى الحساد نجاح أعماله شرعوا في تحويل الوالى عن هذا المقصد مدعين عدم الوصول إليه لعدم وجود معلمين ماهرين. غير أن المرحوم محمد على باشا لم يوجه لهذه الأقوال أدنا واعية لعلمه بمنشئها وانتصر كلوت بك على هؤلاء الأعداء بما ظهر من تقدم التلامذة في الامتحان العمومى الذى جعله في آخر كل سنة مكتبية، وبذل فيه المصاريف من ماله الخاص وكان يحضر ذلك الوالى المعظم ووزرائه الفخام وقناصل الدول واستعان بثاقب فكرته على إزالة صعوبة التعليم بإيجاد مترجمين يتلقون الدروس مع التلامذة ويترجمونها لهم من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية وقرر الامتحان للتلامذة في آخر كل شهر، وترجمت وقتئذ الكتب المشهورة في الحكمة والطبيعة والجراحة وغير ذلك بمجلس مؤلف من العلماء المشهورين وأنشئ تعلم علم الفنون والصنائع وترجم قاموس (Nysten) الطبى ولما كانت فائدة علم الحكمة والطب متعلقة بزيادة تعلق بعلم التشريح الذى كانت تعوق عن نشره في هذا القطر العوائق بذل جهده في التحصيل على الإذن بالتشريح حتى

تحصل على إذنٍ قاضٍ بإباحة ذلك في حالة السر - على شرط أن يزاوله بغاية التفطن للاحتياج إليه وشرعوا في التعود على تشريح الأجسام البشرية وأخذ نفور التلامذة من هذا الأمر ينقص شيئاً فشيئاً لتعقلهم ضرورته تدريجياً، ولم تحصل في مدة مزاوله دروس علم التشريح حادثة تكدر خاطر سوى أن أحد التلامذة أتى إلى الدكتور كلوت بك في وقت الدرس وقدم له عريضة فبينما هو يتأمل في معانيها وإذا بالتلميذ طعنه بخنجر في جمجمته فلم يصبه فضربه ثانية بجوار قلبه وإشراق طالع هذا الدكتور لم تصبه أيضاً هذه الضربة لكونه ثنى ذراعه وعند ذلك أسرع التلامذة مبادرين إلى إيقاف هذا الخائن وحالوا بينه وبين ما يريد و مع ما للدكتور كلوت بك من حسن الدراية والاجتهاد في نشر العلوم لم يتمكن من إنشاء مدرسة طبية تشابه مدارس أوروبا لنفرة الأهالي من انتظام أولادهم في سلكها. لولا أن قهروا على ذلك والتزمت الحكومة بمصاريف من ينتظمون فيها وجلب المهمات اللازمة لهم وإيجاد ما يحتاج إليه التعليم العلمى من نحو الأماكن مثل (انفتياترو amphitheatre) محل معد لتدريس التشريح وقاعات الطبيعة والتاريخ الطبيعى والمعامل الكيماوية وغير ذلك من الأشياء ذوات الفائدة.

وفي سنة ١٨٣٢ ذهب هذا الدكتور إلى باريس وبصحبه اثنا عشر تلميذا مصريون منتخبون من متقدمى تلامذة المدرسة.

وعند وصولهم إلى المدينة المذكورة طلب اختبارهم في الجمعية العلمية الطبية وبحضور عظماء العلماء الأوروباء وبين فأسفر هذا الاختبار عن نجابة هؤلاء التلامذة وعلو همة أستاذهم في التعليم ، وكانت إجاباتهم عن الأسئلة التى وجهت إليهم باللغة الفرنسية لأنهم كانوا يتعلمونها في المدرسة المصرية وقد أثبتت هذه الجمعية أن هؤلاء الشبان وصلوا إلى درجة تلامذة البلاد الفرنسية.

وهاهو محضر الامتحان الذى صار إجراؤه في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٣٢ مسيحية لاثنتى عشر تلميذا المتخرجين من مدرسة أبى زعبل بالمجلس العلمى الطبى الملوكانى بباريس.

لما قدم كلوت بك إلى باريس وصحبته التلامذة المصريون الاثنا عشر الذين صدر أمر حضرة والى مصر محمد على باشا بتوجههم إلى فرنسا بحث في

نصبهم على الوجه الأسنى والطريقة الحسنى بجادة الدراسة إلا أنه لما كانت
رغبة الباشا المشار إليه امتحان هؤلاء التلامذة في أول الأمر حتى تظهر
ثمرات العلوم الطبية التى تحصلوا عليها بمصر، وتبين حقيقة درجة المدرسة
التى نشأوا فيها تداول صاحب السعادة (كلوت بك Clot Bey) مع المسيو
(جومار Jomard) أحد أعضاء جمعية المعارف ومع المسيو (برشيت
Breshet) رئيس المجلس العلمى الملوكانى والمسيو (باريزيت Pariset)
السكرتير المستديم لهذا المجلس، وشرح لهم رغبة ومقاصد صاحب مصر
محمد على باشا، فكانت نتيجة ما قرروه تشكيل لجنة مركبة من حضرات
المسيو (ديجينت Desgenetes) والمسيو (لارى Larrey) والمسيو (ديبويتن
Duputrea) والمسيو (برشت Breshet) والمسيو (أورفيل Orfila) والمسيو
(روستان Rostan) والمسيو (بيجان B'egin) والمسيو (روش
Roche) والمسيو (كلوكيه J.Cloquet) والمسيو (ماجندى Magendie)
والمسيو (سنسون Sanson) والمسيو (باريزيت Pariset) للامتحان فى العلوم
الطبية ومن حضرة المسيو (جوبير Jaubert) والمسيو (جومار Jomard)
للامتحان فى اللغات الشرقية وقد تقرر إرسال خطابات إلى هؤلاء الأعضاء
متضمنة سؤالهم قبول هذا الطلب، وتحدد يوم الامتحان فى الساعة الواحدة
من يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٣٢ مسيحية بقاعة جلسات الجمعية العلمية
الطبية الملوكانية وفى اليوم والساعة والمكان المعينة اجتمع حضرات أعضاء
اللجنة ومعهم حضرة كلوت بك وبصحبه اثنا عشر تلميذا وكان قد ذاع
وشاع خبر هذا الامتحان وتكلمت به السنة الجرائد بكل مكان فكنت ترى
الناس يتقاطرون من كل فج لحضور هذا الاحتفال الجليل. وقد وفد إليه كثير
من أعيان أطباء عاصمة فرنسا وجم غفير من رجال الجمعية العلمية وأمرء
وأكابر باريس وفى مقدمته حضرة البارون (ديبوا Le baron du bois)
والدكتور (مارك Marck) الطبيب الخصوصى لجلالة الملك، وقد حصرت
الأسئلة التى امتحنت فيها التلامذة فى المواد الآتية:

أولا : الكلام على المخ والأذن الباطنة والعين وخصوصا على البلورية
والكاتراكتة والعملية اللازمة لها.

ثانيا : الكلام على الملتهمة وأمراضها.

ثالثا: الكلام على القناة الأوربية وعلى تكوين الفتق الأوربى والعملية اللازمة له.

رابعا: الكلام على العجان وعنق المثانة وشرح أسباب وأعراض الحصاة وعمليتها على طريقة المسيو كلوت بك.

خامسا: شرح المفاصل الكتفية العضدية وخلع العضد ورده .

سادسا : الكلام على الجروح الناشئة عن الأسلحة النارية التى تستدعى عملية البتر وشرح هذه العملية.

سابعا: الكلام على تشريح الكبد وشرح تاريخ الالتهاب الكبدى.

وبعد أن تقررت الأسئلة انتخب المسيو (أورفيل Orfila) لرئاسة اللجنة وصحبته حضرة البارون (ديبوترن Dupuytren) والمسيو (باريزيت Pariset) كاتبها لها هنالك قام حضرة الدكتور كلوت بك بشرح أفكار والى مصر بخصوص هذا الامتحان، وأبان أنها مطابقة لأفكاره هو أيضا ثم قدم للهيئة قائمة بها الأسماء الآتية:

١- أحمد الرشيدى

٢- حسن الرشيدى

٣- محمد منصور

٤- إبراهيم النبراوى

٥- حسين الهياوى

٦- عيسوى النحراوى

٧- مصطفى السبكى

٨- محمد الشباسى

٩- محمد السكرى

١٠- محمد الشافعى

١١- أحمد بخيت

١٢- محمد على البقل

وأول من دعى إلى الامتحان من هؤلاء التلامذة الشيخ منصور فسئل عن تركيب العين وعلى الخصوص البلورية وكيفية تكون الكاتراكتة وعن العملية اللازمة لإنقاذ المريض منها فأجاب وأجاد وسلب قلوب الحاضرين ببراعة أجوبته. فإنها كانت في غاية السداد وصفق له الحاضرون استحسانا وكان كل يثنى عليه قلبا ولسانا.

ثم دعى حسين الهيهاي فسئل في شرح العجان وعنق المثانة وعن الأعراض التي تدل على وجود الحصاة المثانية وعن كيفية استخراجها بالطريقة التي كان يستعملها المسيو كلوت بك ولله دره فإنه سحر الألياب بقوة جوابه وشرح صدور الحاضرين بحسن إعرابه، ثم قام النبراوى فسئل في تركيب المفاصل الكتفية العضدية وفي خلع الذراع وكيفية رده فأجاب بما أظهر قوته وأبان للناظرين ذكاءه وفطنته.

فلما شوهده من إجابة التلامذة مايدل على نجابتهم أراد حضرة البارون (ديبوترن) أن يتخذ أسلوبا غير الذى كانوا يتبعونه في هذه الأسئلة. ودعا بالشيخ منصور مرة أخرى وسأله عما إذا كان من اللازم إجراء الشد المقابل أو التثبيت في حالة رد خلع العضد أثناء حصول الشد الذى يستدعى مجهودات غير متساوية ومتنوعة وسأله أيضا عما إذا لم يكن من الضروري تثبيت الشد المقابل وجعله غير متغير فأجاب الشيخ منصور بالإيجاب وشرح أسباب ذلك بالشرح الكافي وأيد أقواله بالدليل الوافى.

ثم دعا بحسين الهيهاي وسأله عن وظيفة البلورية في الإبصار وعن الطريقة التي يستغنى بها عن هذا العضو بعد عملية الكتراكتة فأجاب ببديهة حاضرة وقريحة نيرة.

ثم سأل إبراهيم النبراوى عما إذا كان يلزم في عملية الحصاة أن يكون الشق مناسبا لحجمها وعما يلزم إذا كان جرم الحصاة عظيما جداً.

فأجاب هذا التلميذ بقوله أن القشاطر = القسطرة = تدل على وجود الحصاة وتبين مقدار حجمها فإذا كانت الحصاة عظيمة لزم أن يكون الشق متسعا وإلا فإذا كانت كبيرة جداً وخارقة للعادة في جسامتها لزم استعمال عملية الحصاة فوق العانة.

وعند ذلك سأله البارون المشار إليه عن مقدار المدة التى أقامها فى الدراسة وعما إذا كانت الحصاة من الأمراض العمومية بمصر، وسأله أيضا عما شاهده من أنواعها وعن الأسباب التى توجب حصولها.

فأجابه بقوله: إن لى خمس سنين فى الدراسة وأثناء ذلك شاهدت كثيرا من الحصوات التى تكاد أن تكون مرضا عاما بمصر وينسبونها إلى تكوين مواد رملية تدخل مع الأغذية والمشروبات وتمر بالكيلوس ثم تمتزج بالدم وتدور معه فى العروق ثم تدخل فى المثانة وهناك تكون نواة تكون أصلا للحصاة ثم قال: وعلى كل لا نعتبر هذا الرأى حيث إننا الآن لا نعلم حقيقة أصل هذا الداء.

ثم قام كثير من هؤلاء التلامذة وتكلموا على هذه المسألة بما يدل على أنه يوجد بمصر أناس يزاولون فيها عملية الحصاة الصغيرة بواسطة توسيع قناة مجرى البول واستخراجها بطريقة المص (الجذب) وإذ ذاك تم الامتحان وكانت تلوح على جميع الحاضرين أمارات الفرح وعلامات الابتهاج حتى أنهم صفقوا أكثر من مرة دلالة على سرورهم وانشرح صدورهم وقد اختتم هذا المحفل العظيم حضرة البارون الموماً إليه بخطابة بليغة وهاك تعريبها.

أيها التلامذة بنو مدرسة أبى زعبل

إننا نعد أنفسنا سعداء حيث دعينا إلى مشاهدة ما اكتسبتموه بهذه المدرسة من المعارف وما نلتتموه من النجاح فى ظلها الوارف. وناهيكم بها مدرسة فإنها حفظت بمصر آثار أزهار القواعد الطبية بعد ما أصابها الذبول وأعادت ذكر اسمها بعد أن اعتراه الخمول، ولا غرو فإن ما غرس فيها من أصول اللطائف الطبية عادت على مصر ثمرته ورجعت إليها فائدته. كيف لا وقد ألفت العناية الإلهية بمصر بين يدى حضرة الملك الأعظم والداورى الأفخم أفندينا محمد على باشا الذى أخذ بزمامها وبحث فى مهامها فأقام ما اندرس من فخار بنيتها ونشر ما طوى من رقاہية أهلها، وشيد بها ما قوضته أيدي الزمان من معالم الحضارة والعمران وأنشأ بها مدرسة الطب الذى هو قطب دائرة حياة الحيوان، وقد انتخب لهذا المشروع الجليل والمقصد الجميل النبيل حضرة العلامة الأوجد والفهامة الشهير المفرد صاحب المزايا الجليلة ليعيد بهجة الطب كما كانت فى الأيام التى ازدهت فيها مدرسة الاسكندرية الشهيرة. ألا وهو جناب المسيو كلوت بك الذى يرجع إليه ما نلتتموه من النجاح، وينسب

له فخار ما رفع لكم من أعلام الفلاح، فلحضرتنا منا الشكر الجميل والثناء الجزى. هذا ونحن نشكركم معاشر الشبان المصريين فإننا رأينا من تقدمكم ما يدل على زيادة فضلكم فإنكم أصبتم الصواب ونطقتم بفصل الخطاب. مع انكم استعملتم لغة غير لغتكم بما دل على أن ماتعلمتموه هو على أساس متين ونبا قوى حصين وأيضا فإن إجابتكم اليوم جعلت لنا أملا وطيدا في انكم ستنهجون إن شاء الله منهج أجدادكم من أعظم الحكماء وكبار الأطباء كابن سينا والرازي وأبى القاسم وإنكم ستسيرون بحوله تعالى على أثرهم حتى يقال نعم السلف وياحبذا الخلف وأظن أنه غير خاف عنكم أن هذا الطريق هو لكم محجة تقدم وكمال وتعظيم وإجلال، وبه تسمو صناعتكم إلى منتهى الشرف ويرتفع وطنكم إلى ذروة الترف وكأنى بكم وعا قريب تدعون إلى تشخيص ومعالجة الأدواء التى كأنها تعترض مصر حقدا لها على ثروة أهلها وخصوبة أرضها، ولكن لا تقصر همتمكم على ذلك فقط بل يلزم أن يكون جدكم واجتهادكم فى توسيع نطاق العلوم التى تنتظر ذلك من مواظبتكم على العمل ومثابرتكم على هذه الصناعة ونطلب منكم البحث بهمة شديدة عن أسباب وطبيعة ومعالجة الأمراض الخاصة بدياركم وأهل وطنكم فأجيبوا سؤالها ولا تضيعوا فيكم آمالها.

إن هذه الجمعية العلمية التى انشرح خاطرها لقدمكم متشوقة لرؤية نتائج هذه الملاحظات التى أوردتها الآن على جيد فطنتكم ونير ذاكرتكم والله يهديكم سواء السبيل.

وكان كلوت بك يبادر إلى فعل ما تستلزمه المصلحة من التنظيم والإصلاح كلما سنحت له الفرص، ووقتئذ زاد الأمل فى اقتراب وجود معلمين وطنيين ذوى أفكار ثاقبة، وقد وصلت هذه الإصلاحات إلى الدرجة العليا ثم أمر بنقل المدرسة الطبية من أبى زعبل إلى القاهرة سنة ١٢٥٣ هجرية ثم افتتحت مدرسة للقبالات كى يتعلمن فن الولادة لزيادة أهميته، وقال المعلم (للمنض Lallemand) إن عادات المصريين كغيرهم من الأمم الشرقية لا تسمح بتولى الرجال ولادة النساء، ومن ثم كان يرى الحكماء فى الكشف عليهم موانع شديدة وحرمن وقتئذ من فوائد هذا الفن الجليل فشرع الدكتور كلوت بك بإنشاء مدرسة بالمحروسة لتعلم فن الولادة بعد أن لاقى صعوبات ظفر بهذا

الأمر واتضح جليل فائدته، ثم أضيف إلى المدرسة مستشفى للنساء ومدرسة للقابلات، وكانت التلميذات وقتئذ تعدن = تَزُرُن = المرضى في نفس الأوقات التي يتلقى فيها الدروس وأصبحت النساء اللاتي تعلمن هذا الفن تعالجن النساء الأخريات، ولاريب في أن هذا الأمر عظيم الفوائد يخلد للدكتور كلوت بك جميل الذكر وكان تعلم القابلات لا يسمح لهن بممارسة الحكمة زيادة عن وظيفتهن ولما وصلت المدرسة إلى درجة عليا واستعدت تلميذاتها لمباشرة هذا الأمر شرع الدكتور كلوت بك فيما يلزم المصلحة الإدارية من الترتيب والتنظيم فأتى بالقوانين الفرنسية وعلّم عمل منها بمقتضى ما رآه موافقا للحكومة المحلية وأسست أماكن للاستشارة الطبية بالمحروسة والإسكندرية وأنشئت مستشفيات عظيمة جداً وجعل لكل قسم أجزاجية وأطباء وبنيت أيضاً مستشفيات صغيرة في جميع البلاد المشهورة من القطر المصري كل واحد منها يشتمل على خمسة وعشرين سريراً، واستعمل التطعيم الجدرى (الدق) في القطر المصري للأطفال والغلمان وتكف حلاقو القطر المصري بمباشرته في البلاد وبهذه الوساطة انقطع الوباء من الجيش والقرى وأخذت الحالة الصحية تتقدم يوماً فيوماً وقل عدد الموتى فإنه كان يموت قبل ذلك كل سنة ستون ألفاً من الأطفال بمرض الجدرى، وغير حالة الإدارة ومراعاة وسائل الصحة تغييراً عظيماً في زمن قليل حتى تضاعف عدد سكان مصر في مدة خمسة وعشرين عاماً ولا ريب في أن هذا العمل يبيض صفحات التاريخ ويبقى غرة في جبين الدهر وقد ساعده وساعد الأقطار المصرية أيضاً في أيام الوباء العلاقات والارتباطات الودية التي كانت بينه وبين باريس.

ولنتكلم الآن على حالة المسيو (جومار Jomard) الذى جبل على حب الديار المصرية وبحث العلوم والمعارف في أنحاءها فنقول: إن جنابه حضر إلى هذه القطر أيام أن احتلته الجيوش الفرنسية بصفة كونه عضواً من جمعية علماء باريس، وكان هذا الرجل شبيهاً بالدكتور كلوت بك من حيث الشغف ببحث العلوم والحب في اتساع دائرة المعارف وفي سنة ١٨٢٦ استرضى المسيو (جومار Jomard) المذكور الوالى بمساعدة المسيو (دروفيتى Drovetti) قنصل عموم فرنسا هنا فأرسل نجباء من فتيان المصريين إلى باريس كي يتصلعوا من العلوم والمعارف وينشروها في قطرهم . فقورن سعيه بالنجاح

وأرسلت مائة شخص من الشبان ووكلت ملاحظتهم له، وهذا هو مبدأ تأسيس الإرسالية المصرية في البلاد الفرنسية ولم يزل ناظرا على هذه الإرسالية حتى مات في سنة ١٨٦٢ مسيحية وخرج من تحت إدارته أبطال نجباء في العلوم والمعارف كسعادة علي باشا مبارك وزير المعارف الحالي والرحوم شريف باشا الذي كان وزيرا للخديوى السابق إسماعيل باشا والرحوم مظهر باشا والرحوم الدكتور محمد علي بك ناظر المدرسة الطبية سابقا والرحوم شافعى بك ولاينسى فضل الرحوم رفاعة بك الذي أسس مدرسة الألسن والرحوم السيد أحمد أفندى الرشيدى والرحوم السيد حسين أفندى الهيهاموى الذى كان ذا قوة حافظة عجيبة حتى أنه في مدة دراسته بباريس كان يحفظ الدرس من أول مرة والتلامذة الفرنسيون تصحح وتكمل مانقص منهم عليه، وكان يخبرهم حرفيا بما قيل ولذلك اشتهر صيته في الديار المصرية وبالأخص في المدرسة الطبية البحرية بإسكندرية فاستحصل على أمر من جنة مكان الرحوم محمد علي باشا بأن لا يدخل أحد من الأوروبيين الخدمة إلا بعد بحثه بنفسه مع جمعية من رجال المعارف العظماء وبذلك ظهرت ثمرة أعمال ساكن الجنان محمد علي باشا ظهور الشمس في رابعة النهار ولنصرف عنان القلم إلى ذكر بعض ماكان من الدكتور كلوت بك في الديار المصرية زيادة على ما سبق فنقول:

قد طرأت في سنة ١٨٣٠ على مصر (الكوليرة chol'era) فكان يموت بها من المحروسة فقط ٢٠٠٠ كل يوم، وإن ذاك أبدى الدكتور المذكور من جليل الأعمال مايدل على إخلاصه وحسن اعتنائه. فإنه كان سببا للإنقاذ من مخالب هذا الوباء الشديد الوطأة فكان يمضى الليل والنهار في معالجة المرضى واتخاذ الوسائل الواقية ووزع تلامذته في أنحاء البلدة بعد أن مرّهم على العمل وشجعهم عليه بواسطة إقدامه على المضى وعدم خشية العدوى إلى أن تقشعت سحائب هذا الداء وخلت منه البلدة فسر ساكن الجنان محمد علي باشا من حسن أعماله وشدة إخلاصه وأنعم عليه برتبة بك التى لم يعطها قبله لمثله، وأنعمت عليه الحكومة الفرنسية في هذا الزمن برتبة (ليجيون دنور L'Legion d'honneur) ولما توجه إلى باريس بعد الاحتلال الفرنسي أخذ معه الاثنى عشر تلميذا سابقى الذكر من مدرسة أبى زعبل

انتظموا في أعضاء الجمعية العلمية في ١٣ خلت من شهر نوفمبر سنة ١٨٣٢ مسيحية، وفي سنة ١٨٣٥ انتشر الطاعون (لبست La peste) بمصر القاهرة ففر بعض الأطباء وبعضهم ضرب على نفسه الحجر الصحي (كرنتينة Quarantaine) ماعدا الدكتور كلوت بك وثلاثة من أقرانه وقد كتب في ذلك الوقت إلى قنصل فرنسا الميسيو (ميموت M. Mimauf) وقت أن كان بالإسكندرية يقول له: نحن أربعة رجال لانفتر عن مزاولة العمل ونرجوا أن يعيش منا واحد لأجل أن يبين بعض الملحوظات وكان عموم الناس يعتقدون عدوى هذا الوباء ولكن الدكتور كلوت بك أظهر خطأ هذا الاعتقاد الذي ربما يترتب عليه الضرر باقترابه من المرضى حال المعالجة، وقد طعم نفسه - أى لقم من دم الخراج (والمادة الفحمية La mati'ere du Charbon بحضور تلامذته الذين جعلهم حكاء لقلّة الأطباء وقتئذ والباعث على ذلك تشجيعهم على العلاج وإزالة الخوف من قلوبهم.

وكان يصوب سهام اللوم والتنديد من يعتقد العدوى. ففي ذات يوم كان يعالج مريضاً نصرانياً قابضاً على يده، وإذا بقسيس تليانى = إيطالى = أتى ليطعمه القربان الأخير فوجد هذا القسيس مغطى من رأسه إلى قدميه بقماش مشمع ماعدا عينيه اللتين كان موجوداً أمامهما ثقبان فوضع عليهما نظارة من زجاج ولما اقترب من المريض ارتجفت أعضاؤه رغماً عن شدة تحفظه فلامه الدكتور كلوت بك على هذه الحالة فقال كل أمرىء ورأيه.

ومكث على هذه الحالة باذلاً جهده في معالجة المرضى ستة أشهر. فأرسل إليه ساكن الجنان محمد على باشا الكبير هذا الكلام (لقد كسوت نفسك أيها العاقل ملابس الفخر بهذا العمل الجليل ولذلك جعلتك (جنرالاً G'en'erale) ولما علمت الدولة الفرنسية بما له من الفوائد أنعمت عليه برتبة (أوفيسييه دى لاليجون دنور Officier de La l'egion d'honneur) وأرسلت له جميع الدول التى إهتم بعلاج رجالها نياشين وفي سنة ١٨٤٠ سافر كلوت بك إلى فرنسا وأظهر هناك الكتابين اللذين ألفهما أولهما يشتمل على التأسيسات والترتيبات التى أسسها في مصر، وثانيهما متعلق بالحوادث الوبائية، وكان هذا الكتاب مقدمة للإصلاحات التى اتخذت في الحجر الصحي بعد نشره وفي هذه المدة تزوج ببنت أحد معتبرى تجار

مرسيليا. وفضلا عن تأدية وظيفته المنوط بها كان يعالج أعضاء العائلة الخديوية وعظماء رجال الحكومة السننية فكان مشهورا بالاخلاص في المعالجة لا يبتغي عليها جعلا، ومن ثم كانت الأغنياء والفقراء على حد سواء في الورود عليه لأجل مداواة، وقد أرسل في مأمورية بمعية المرحوم إبراهيم باشا في مدة حرب الشام وكانت تتوارد إليه المرضى من أقطار تلك البلاد وشاهد وقتئذ دمشق وديار بكر ثم انتقل إلى بيروت وصيدا وعكا وحيفا وجبل الكرمل ثم ذهب إلى الناصرة التي كان الطاعون فيها وزار نابلس واسبتالية الجرحى الذين فيها ثم توجه إلى بيت المقدس وغزة ولم يخل في هذه التنقلات من مداواة المرضى وكان هذا الدكتور شديد الإخلاص إلى المرحوم محمد علي باشا وعالجه في المدة الأخيرة حين استيلاء المرض عليه علاجا ينبىء عن حسن الصدق في الخدمة ولازمه مدة مرضه وفي سنة ١٨٤٩ مسيحية توفي المرحوم إبراهيم باشا قبل أبيه ببضعة شهور وكانت آماله متعلقة بتتيمم ماشرع فيه والده من جليل الأعمال المفيدة فقام بأعباء الخديوية بعده المرحوم عباس باشا، وطلب منه الدكتور كلوت وقتئذ الرخصة بالتوجه إلى فرنسا فأعطاه إياها فتوجه إلى مرسيليا وأفكاره متعلقة بمصر متأسفا على ما أنشأه من التأسيسات الجميلة والترتيبات الجليلة ولما توفي المرحوم عباس باشا سنة ١٨٥٤ مسيحية وخلفه المرحوم سعيد باشا نجل المرحوم محمد علي باشا عاد الدكتور كلوت بك ثانية إلى الديار المصرية لينظم إدارة الطب كما كانت أيام والده جنة مكان محمد علي باشا فوصل إليها في ١٧ يناير سنة ١٨٥٦ وكان عمر كلوت بك في هذا الوقت ٦٣ سنة، وأخبر الوالى المرحوم بأن (كلوتشى بك Colucci Bey) و (فجرى بك Figuri Bey) و (بريجير بك Burguieres Bey) و (شافعى بك Chafey Bey) و (محمد علي بك Mohamed Aly Bey) هم الذين يصلحون للقيام بما يلزم لما أنشأه من الترتيبات، وصار كل منهم يتبادل رئاسة الطب والمدرسة الطبية ولما ارتقى الخديوى السابق اسماعيل باشا إلى سدة الخديوية قام بإجلال ذوى الفضل الذين نبغوا في العلوم الطبية.

ولما سافر الدكتور كلوت بك إلى باريس سنة ١٨٥١ وجد بها جمعية دولية صحية مشكلة لأجل تنظيم الحجر الصحى بالأمصار فنشر نبذة تتعلق

بهذا الموضوع ولح فيها للأعمال الضرورية فأُنعمت عليه الحكومة الفرنسية برتبة (كومندورد ولاليجون دنور Commandeur de la L'egion d'honneur) ثم سعى في أن يكون عضوا مراسلا في هذه الجمعية ولكنه لم يوجه إلى ذلك ركاب الطلب حينما بلغه أن المعلم (المنض Lallemant) طلبه. لأنه كان معلمه وظهر له ففضله على نفسه وأعرض عن طلب هذه الوظيفة.

وكان الدكتور كلوت بك لين العريكة لمن تحت رئاسته فخورا بوطنه محافظا على وسائل احترامه معظما للديانة المسيحية. فكانت رجال فرنسا الذين بمصر له عضدا قويا وقد تشكر له رئيس الكاثوليك على ما أبداه من الهمة في جانب الديانة المسيحية وأنعم عليه (البابا جرجورا Papa Gr'egoire السادس عشر بجملة نياشين ولقبه البابا التاسع عشر) (بكونت رومين Comte Romain) وهو ثابت لنجله اليوم وان لم يستعمله الدكتور كلوت بك وهذا اللقب عظيم الامتياز لدلالته على أن الملقب به لم يأخذ الرشوة البتة وتوجه في سنة ١٨٦٠ مسيحية إلى مرسيليا ومكث فيها معظما بين أقرانه مألوف لكل من عرفه وبعد زمن اغتالت أيدي المنون زوجته فأسف عليها وتوالت عليه عقب ذلك الأمراض حتى أنهكت جسمه وهدت قواه وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٨٦٨ فارق الدنيا وهو يشير بسبابته ويلوك لسانه قائلا.. الشغل.. الإنسانية اللذين قصر عليهما حياته. فليعتبر الناظر من هذه السيرة ويتيقن من أن العمل الجليل يخلد لصاحبه الذكر الجميل.

(جواب من كلوت بك Clot Bey إلى السيورانزي Ranzi بالقاهرة)

حضرة زميلي المحترم

طالما دعتني رغباتي في إنشاء العلوم الطبية بالديار المصرية أن أقف وأنا إذ ذاك بمعزل عن الأعمال على كل ما يلم بالمصالح الصحية المختلفة التي أحكمت نظامها وأدرت سياجها وكثيرا ما نادتنى آميالى الغريزية إلى رواج تلك العلوم أن أراقب سيرها وألاحظ بوارق فلاحها وعوامل كسادها.

وبينما أنا مضطرب البال كثير البلبال إذ اتصل في بداية الأمر خبر مساعى أمير تلك البلاد في استدعائك وتصميمه على أن يعهد إليك برياسة المدرسة الطبية لتمدها من وسيع علمك وترشدها بغزير فضلك فطرت لذلك فرحا وانشراحا وابتهجت مسرة وارتياحا، وأيقنت بالفوز المبين ووطنت نفسى على أن المولى جل شأنه سيكمل آمالك بالنجاح الباهر ويجعلها غرة في جبين هذا العصر الزاهر ويلحقها بأعمالك السلف الجليلة وأن وطنيك = مواطنك = الدكتور (راجى Raggi) ليكون معاوننا لك على نوال هذه الغاية التي تسعى إليها وتدأب في الحصول عليها.

وقد علمت بعد ذلك بقليل أنك لبيت أنت والدكتور راجى ما عرض عليكما وإنكما قد بلغتما مصر ولم يكن إذ ذاك قد تنوسى شىء من حسن نتائج امتحان التلامذة الذين اختبرهم وشهد بطول باعهم الأستاذ (للمنض Lallemand) الشهير. لأنه لم يمض كبير زمن بين انفصالى عن أعمالى وبين التحاقك بوظيفتك. ومع ذلك فقد وفقك الله إلى أن تقدر تلك الأعمال حق قدرها وتسبر غور ماتجشمتها من المتاعب وذلتها من المصاعب وتعلم مبلغ الهمة التي بذلتها والعناية التي صرفتها للوصول إلى إيجاد هذا النظام الجديد وتقديره على وجه سديد يعود على الطلبة بالخير الجزيل والفضل العميم.

وقد أخذت بحول الله في العمل فحذوت في سيرك البروجرام الذى قرر لك لعلك تعثر على إصلاح وتهدى إلى فلاح فانتهجت أقوم المسالك وظفرت بأنجع المناهج حتى إذا حانت ساعة الاحتفال بتحديد عهد هذا العمل الجليل ورفعت أعلام البشارة بنوال الأمانى أشركتنى معك في ذلك اليوم السعيد وقمت

فشمرت عن ساعد الجد وطفقت تذكر للناس حسن صنيعي وتعرفهم
بمنزلتي ومكانتي وتستلفت إلى زميل لم تكن رآته عيناك قوما بذلت النفس
والنفيس حيناً من الزمن في سعادة وطنهم وخدمة بلادهم فأوجبت عليهم
شكري ودعوتهم إلى رفع ذكرى.

وإن الخلال الحميدة والمناقب الفريدة التي أبديتها في زمان كثر حاسده
وفشى فاسده لخليقة بأن أهدى إليها سويداء قلبي وأجعلها فرضي ونفلي
وأني أسألك أن تقبل وافر امتناني وعاطر ثنائي وتتيقن أنني لو قدمت إلى تلك
البلاد وتشرفت بمقابلة الأمير كنت أول مطمح نظري ومسرح فكري
لأصافحك يدا بيد وأبذل لك خالص الود.

وهذا جواب المسيو رانزي ردا على كتاب كلوت بك

كتبه إليه في تاريخ ١٧ يوليو سنة ١٨٥٤

حضرة زميلي الأجل الأكرم

إليك جزيل شكري ووافر امتناني على ما قلدتني في كتابك من حل مجدك
إقبالك وما كاشفتني به من عظيم عنايتك وجيل رعايتك التي برهنت على أكيد
مودتك وصديق محبتك وبعد: فإني ما نبهت القوم يوم الاحتفال إليك وما
عطرت الأندية بذكراك إلا قياما بما يفرضه على التاريخ الذي قيد اسمك توأما
للمدرسة الطبية وعلماء على جميع المصالح الصحية وإظهارا لسمو مكانتك في
القلوب وخطر شأنك في النفوس، ورغبة في تعريف التلاميذ الذين هم غرس
يديك ونسيجك وحدك بما لك عليهم من الأيادي البيضاء والمنن الغراء كيما
يقوموا ببعض الواجب فيوفوك حقك من الثناء الجليل والاعتراف بالجميل
ولعمري لقد كان ذكر اسمك جزية لا أرى بدا من تأديتها إليك وليس من
العدل جحودها والتغاضي عنها.

ولقد علمت مقدار الحمل الثقيل الذي أخذته عى عاتقي وألقيت مسئوليته
على نفسي يوم قبضت على زمام تلك المدرسة التي استوفيت أنت علاجها
وأوضحت منهاجها. فأعملت فكري وأجهدت طاقتي وبذلت ما في وسعي
وصرفت جل اهتمامي عسى ربك أن يهديني إلى طريقة تمكني من إعادة ذلك
المجد الذي فقدته بعد بعدك عنها ورد السمعة التي استلبها الدهر منها وكن

على يقين أنى سأواصل الليل بالنهار لالتماس هذه الضالة، وحاشا لله أن أدنس شريف عملك أو أقصر في المحافظة على تلك النعمة المقدسة التى غرستها فى هذه البلاد وأنرت مشكاتها للعباد.

على أنه إذا أراد الله سبحانه غير الأحوال وبديل الأشكال وأعاد للمدرسة الطبية المصرية تاجها القديم وزينها بعقدتها التنظيم فهناك يزداد الأمل وثوقا بالنجاح، وتبرق ثانية بوارق الفلاح ولتعلمن أنه لو تم هذا الأمر ولو قبل مضى زمان عقد الاتفاق فلا يسعنى سوى أن أقابله بغاية الفرح والقبول فإنه يكون غاية المأمول ونهاية المسئول لما يترتب على ذلك من إهداء الحقوق إلى ذويها وإعطاء القوس باريها ولا تحسبن أنى أصير إذ ذاك خلوا من الأعمال فإن لى مقاما محفوظا بمدينة (فلورانس Florence) لدى حضرة (الغراندوق Grand Due)

وإنى لمقيم على ولائك صادق فى إخائك متهالك فى محبتك، وليس هذا بالعجب العجاب فإن الأبرار من الناس قد عرفوا بخلوص النية وامتازوا بصفاء الطوية ومهما كان مآل هذا الحال فحسبى منه مانالنى من الشرف وعمنى من الفرح بسبب هذا التعارف ومبادلة مانحن عليه من التألف على أنه وإن كان هذا الأمر قد ينشأ عنه انحلال فى عرى المودة وفتور فى روابط الاتحاد عند قوم لم تهذب نفوسهم، ولم تظهر من الدخل قلوبهم فإننا بفضل الله قد أصبحنا فى نعمة وحسن مأب.

زميلك المخلص فى مودتك
(رانزى)

خطاب للحضرة الخديوية السعيدية فى إعادة فتح المدرسة

سيدى الأعظم

مما جبر خاطرى وأعلا قدرى وشرح فى هذا القطر صدرى أن سدتكم العلية لما جلست على تخت الحكومة المصرى تفضلت على بإعادة افتتاح المدرسة الطبية التى كنت أسستها فى الأيام الأولى وسلكت فيها بالطرق المستحسنة مدة خمسة وعشرين سنة فأرى من واجب الشكر على تلك النعمة أن أظهر لأعتابكم ما أديته من يوم فتحها من الخدمة مما رفته جداول الامتحان العام عما اكتسبه التلامذة فى هذا العام.

هذا. وكم لأعتابكم من المقاصد الجليلة الحائزة لكل فضيلة المقرونة بالانعام والمنن العائدة على هذا الوطن كمساعدة التجارة وتلطيفها ورفع الأثقال عن الرعية وتخفيفها وتسهيل السكك الحديدية لتقريب كل بعيد وتسهيل طرق السفر فى البر والبحر وتعديل الأحوال فى فتح القنال وفعل ما يجب ذكره وتفرض على سائر الدول شكره. سيما وبحسن الالتفات بعين العناية والنظر إلى المصلحة الطبية بكل رعاية يجب أن تلقب أيها الملك الكريم بلقب الفتو، وأن تعد سنداً للإنسانية والمروءة.

خطبة كلوت بك عند فتح المدرسة ثانيا

أيها السادة الكرام

لا يخفاكم ما اعترانى من الهيام وأنا في هذا المحفل محاط بالذوات الكرام والعلماء الأعلام. فأحيطكم علما أنى أمضيت ثلاثين سنة تحت رعاية الشهم الفضيل والباشا الأعظم النبيل المضمّر على نشر العلم وثمرته بين أهل مصر رعيته وبأمره أنشأت مدرسة الطب وحليت ثغرها وأعليت بين بقية المدارس قدرها وأرى الآن رجال تلامذتها الأول حولى باذلين غاية جهدهم فى مساعدتى على تجديدها وتقويتها وتعزيدها بما عندهم من الهمة الدالة على ما اكتسبوه المفصحة عن ثمرة العلم الذى طلبوه مما يظهر الفرق بين المدرسة السابقة وبين هذه المدرسة اللاحقة.

ولا يخفاكم أيها السادة تلك الطرق المتبعة فى التعلم والتفنن الجارية عند أهالى الدول الساعين فى التقدم والتمدن. وهى منفعة اللغات الأجنبية وإدخالها فى هذه الديار المصرية فإننا نعلم علم اليقين أن شرطها جازم وفعلها متعدد ولازم. إذ بها يتوصل إلى ثمرات كثير من العقول ومعرفة حركاتها فى كل معقول ومنقول. فمن ثم أنشأت المدرسة الطبية، وجعلت فيها فرقة تجهيزية وقيدت ضمن دروسها اللغات الأجنبية انتظارا لنتيجة المدرسة التجهيزية الكبرى التى كان والى مصر الأعظم قد أمر بإنشائها لتدريب الشبان على الدخول فى المدارس الخصوصية الأخرى.

وتلك أعظم طريقة للقطر فى إحياء مهجته وإظهار رونقه وبهجته وإعادة ما كان على ما كان وتجديد ما سلف فى غابر الأزمان ولكن ما العمل فى بعض العقول التى لا تتفكر ولا تطلع على ما قالته أهل الفراسة وأهل التاريخ فنتذكر ألم يلتفتوا إلى المدحة فى تلك العقول المصرية ولا يزالون مصممين لهم على عدم القابلية حتى يتركوهم على حالتهم مستغرقين فى فترتهم وجهالتهم

وينسون أنهم كانوا أول أمة أخرجت للناس، وأشرف من رفعوا قواعد العلم على خير أساس، وأن رجال اليوم هم ذرية الأقدمين ونتاج الأوائل من المصريين الذين كانوا تاجا للأمم المتقدمة وإماما للدول المتعلمة (مصر) وكان قدماء اليونان يرسلون طلبتهم إليها، ويرتكنون في اكتساب العلوم عليها، وكم تمتع أهلها في أزمان الخلفاء على أعظم حظوة وتخلصوا في مدتهم على درجة جسيمة من العلم والثروة، ثم لما استولت عليهم الغز وتملكتهم وأثقلتهم بأحمال الجور وأهلكتهم خبت أنوار مصابيحهم وخمدت جذوة قرائحهم لكن بجودة الحكومة وحسن التفاتها ونشرها التعليم في البلد وسائر جهاتها لا بد من تيقظ تلك القرايح الخاملة وتلين هاتيك الطباع الجامدة ورجوع الفرع لأصله في العلو وازدياده عنه في الكبر والنمو ألا ترى ما ظهر منهم في زمن المغفور له الحاج محمد علي باشا كالعساكر التي اقتحمت الأخطار وانتشرت للحروب في بعيد الأقطار، وشهدت لهم الدول بالحماسة ولضباطهم بحسن السياسة والرياسة؟ أليسوا هم الفلاحون الذين تسلطت عليهم الغز وأهلكتهم وأتلفت طبائعهم وتملكتهم حتى صاروا يرتعبون من أدنى القواصة ويتذللون لأنذل البصاصة؟ وكذلك أصول التلامذة المخرجين من المدارس المصرية المرسلين إلى البلاد الأوروبية مركز الفنون والعلوم ومعدن المنثور والمنظوم فإن رجال أوروبا عرفوا قدرهم وحرروا الشهادات الفائقة لهم فلا وجه حينئذ للأقوال المبطلّة والآراء المعطلة التي تدعى بما لاتعى من أن العقول المصرية غبية. كلا فإن المصري لا عيب فيه إلا من تركه وإهماله وعدم تشغيله بالعلم واستعماله وبحسن إدارته وتدريبه وتنقيحه وتهذيبه تزول عنه العيوب وتنكشف له الغيوب وتعود الخلقة لمادتها الزكية وفترتها الأصلية.

وعلى المعلمين الزدياد في الاجتهاد وإرشاد الطلبة إلى سبل الرشاد إذ بحسن الإدارة وجميل النصائح تزكو العقول وتجلى القرايح وترفع أعلام الطب على حصون المدارس وتقام شعائر الإنسانية في المحافل والمجالس وأسألکم أيها السادة الأعضاء عما طولت فيما إليه في تلك المادة عولت فانكم إن نظرتم إلى السبب الباعث إلى التطويل وعلمتم الداعى إلى هذا التأويل من ذكر ما أثبتته وحققته وما صرفت عليه من نفسى وأنفقته تحقق لديكم عذرى

ووجب لكم شكرى.

وحيث إن مصلحة الطب لصحة العموم نافعة، وإنها للمروءة من الأمراض شافعة وإنكم ولاية أمرها وخزائن سرها وجهرها فلنا الأمل الزائد في أن يتحصل القطر منها على جزيل الفوائد وإذا نظرنا إلى أهمية تلك المأمورية وما أحيل عليكم فيها من المسئولية رأينا أن اجتهادكم فرض لازم وفعل أمر واقع بعد جازم. لنكون قد أدينا التشكر لولى أمرنا الذى يسره الله لنا . فإنه أعزه الله وأكرم مثواه يحب العلم لرعيته والتمدن لأمته ويود أن أنواره تسرى على سائر بلاد هذا القطر المصرى.

خطبة امتحان تلامذة مدرسة الطب ألقاها الدكتور كلوت بك

في الساعة التاسعة من صبيحة اليوم الحادى والعشرين من شهر شعبان المعظم سنة ١٢٧٤ هجرية الموافق ٦ أبريل سنة ١٨٥٨ مسيحية احتفل بامتحان تلامذة المدرسة الطبية احتفالاً شائقاً حضره صاحب السعادة وزير الداخلية مندوباً من لدن جناب الأمير وجملة من الوزراء وكبار الموظفين والعلماء الأعلام ولفيف من مشاهير الأطباء الأجنيبين فافتتح حضرة الدكتور كلوت بك الحفلة بالمقال الآتى:

سادتى: إنى أرانى سعيد الطالع لوقوفى هذا الموقف مرة أخرى أبرهن على ما حصلتم عليه من النجاح العظيم والفوز المبين في هذه المدرسة التى كنت أول من تقلد زمامها وأحكم نظامها وأنى لأمل أن تكونوا في خلال هذه المدة التى مضت عليها منذ تجديد عهدنا وافتتاح أبوابها قد أحسنتم القيام بما كلفكم به حضرات الأساتذة الماهرين الذين أخذوا على أنفسهم تثقيفكم وإعلاء شأنكم وقاموا ببث روح العلم فيكم فإننى أعتبر فلاحكم غنيمة يحسن وقعها وتحلو عادة ذكرها وتطيب النفس بها ولا سيما في هذا الوقت الذى أصبحت الراحة لى فيه من ألزم اللوازم لذهابى في الشيخوخة وانحطاط قوتى.

ولست أرى من حاجة لتعريفكم بما يجب عليكم لعلمكم من حسن الطاعة والامتنال وما ينبغى أن تتخلقوا به من مكارم الأخلاق ومحامد الخلال

وإياكم أنتم معشر التلامذة الذين أتممت دروسكم وستبدأون بحول الله في
مزاولة صناعتكم أن تقرطوا فيما تلقيتموه عن أساتذتكم وتطرحوه وراءكم
ظهرياً. فإنهم جزاهم الله لم يقرروا ما قرروه إلا بعد أن سبروه بمعيار
الحكمة وعرضوه على ميزان الاختبار. وحاذروا أن تقبلوا ما يتناقله البعض
من الخرافات المعبر عنها عندهم بعلوم السحر والطلسمات التي لا تزال قائمة
في الشرق محترمة فيه حتى الآن، وقد يأبأها العقل السليم ويمقتها الدين
القويم ولا تألوا جهداً في تتبع المتجددات الزمانية واقتباس الاكتشافات
العلمية فلقد قال أبو الفنون الطبية: « العلم عسير والعمر قصير » فعليكم
والحالة هذه أن تصرفوا عنان السعى وتبذلوا قصارى الهمة حتى تبلغوا
شأن آبائكم الأولين وتعيدوا للمدرسة المصرية مجدها القديم، واعلموا أنكم
مادمت محافظين على دواعي ارتقائها مجدين في مراعاة أسباب اعتلائها فقد
أمنتكم شر الانقلاب وتجاوزتم العطب بعون الملك الوهاب فإن هذا التقدم
الباهر الذي أحرزتموه ليس سببه فقط تضلع الأساتذة وتسابق التلامذة
وإنما هو على الأخص ثمرة النظام ونتيجة الإلتقان والإحكام. ولقد أسفت على
عدم إمكان الوصول إلى تأييد مستقبل هذه المدرسة وتثبيتته على وجه يضمن
بقاءها ويعمل على توسيع نطاقها وإعلاء شأن العلم فيها، ولكننا لانيأس من
روح الله فإن لنا أملاً وطيداً بأن حضرة الأمير الأبر سيقطفى سنن والده
الخالد الأثر فيساعدنا على نوال هذه النعم، ومن يشابه أباه فما ظلم.

ولقد أثنى أحد مشاهير الرجال على ساكن الجنان المغفور له محمد علي
باشا الأكبر حين قام بإنشاء هذه المدرسة فقال : « قد يجهل الإنسان أسماء
الملوك الذين شيدوا الأهرام ولكنه لا ينسى أبداً أولئك الذين يطوقون الأعناق
بهذه المنن الجسام ».





عربية الطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043

رحلة عامة إلى مصر

الكتاب

هذا الكتاب نتاج حياة ومعايشة كاملة للشعب المصري منذ دخل كلوت بك مصر في ١٨٢٥ حتى رحل عنها في عام ١٨٦٠ ، عايش هذا الرجل شعب مصر وأحببه بعقله وقلبه وعلمه في مجالات الطب والتشريح والإدارة والتنظيم .

عاش في القاهرة والإسكندرية وفي المراكز والقرى بين الفلاحين وكل طوائف الشعب ، وزادت معرفته بالناس من خلال تعمقه في التعرف على العادات والتقاليد وتفاصيل الحياة اليومية للرجل العادي وللأطفال وللأطفال ، للطوائف المختلفة من تجار أو موظفين أو فلاحين ، فمثلاً عرف المؤلف أن الطبيب لا يجوز له مباشرة السيدة الحامل فأسرع بإنشاء مدارس القابلات والحكييمات وتوسع في ذلك ، استفاد من منهجه العلمي في دراسة الطب والتشريح في التعرف على طبيعة شعب مصر (على قدر استطاعته) فجاء كتابه هذا كأنه صورة بالأشعة أو « سكرين » لحالة مصر الاقتصادية والاجتماعية من حيث أثر الدين الإسلامي في حياة الناس ، موقف أهل الديانات الأخرى ومدى تمتعهم بالحرية من عدمه ، قدرة المواطن المصري على استيعاب الجديد والتعامل مع آليات حديثة لتطوير حياته على النسق الأوربي ، الأمر الذي يجعل هذا الكتاب - بحق - مرجعاً تاريخياً لا يمكن تجاهله بفضل دقة الرصد التي مارسها كلوت بك في تسجيل كل مناحي حياة الشعب المصري ، ولقد نال عن هذا الكتاب أرفع الأوسمة من فرنسا ومصر .

الناشر

الكاتب

الدكتور أنطون برتيلمي كلوت بك (٧ نوفمبر ١٧٩٢ - ٢٨ أغسطس ١٨٦٨ م) حضر إلى مصر عام ١٨٢٥ كطبيب ذائع الصيت في فرنسا ويتمتع بقدرات إدارية وتنظيمية عالية وذلك ضمن الخبرات التي كان يجلبها محمد علي باشا للنهوض بمصر وقد بدأ كلوت بك عمله بالجيش ثم أسس مدرسة الطب ومدرسة القابلات وغيرها ورحل عن مصر عام ١٨٦٠ إلى مرسيليا وتوفي بها . حصل على لقب بك من محمد علي باشا مكافأة على جهوده ونجاحه في مقاومة وباء الكوليرا عام ١٨٢٠ هو وتلاميذه ومن دريهم من الحلاقين بالقرى .

له إنجازات علمية ملموسة في مجالات الطب والتشريح والطب الوقائي والحجج الصحي وتأسيس مدرسة الطب وترجمة أمهات كتب الطب وإيقاد واصطحاب الرواد الأوائل من كلية الطب المصريين لفرنسا ، وقد أنعمت عليه من فرنسا بأنواط ونياشين رفيعة

